

١٩٠٥

مكتبة نوبل

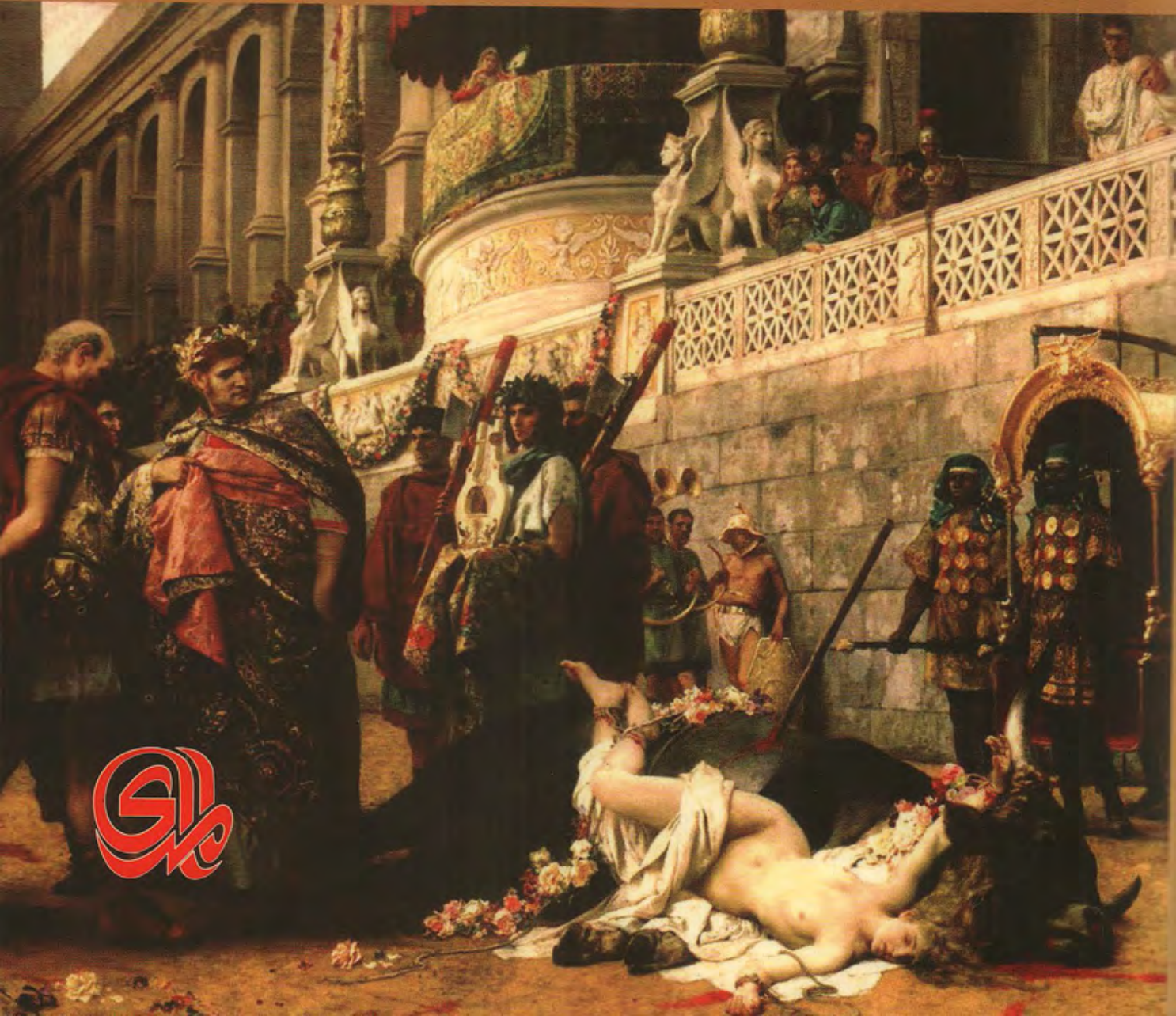
مكتبة بغداد

هنريك شنكوفيتش

twitter@baghdad\_library

# كو فاديس

ترجمة: نافع معلا



Author: henryk sienkiewicz

Title: quo vadis

Translator: Nafi Mualla

cover designed by: Majed Al-Majedy

P.C. : Al-Mada

First Edition: 2016

المؤلف: هنريك شنكوفيتش

عنوان الكتاب: كوفاديس

ترجمة: نافع معلا

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 2016

Copyright © Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

☎ 964 (0) 770 2799 999  
+ 964 (0) 770 8080 800  
+ 964 (0) 790 1919 290

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141  
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141  
☎ www.almada-group.com.email: info@almada-group.com

☎ + 961 175 2616  
+ 961 175 2617

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول  
info@daralmada.com

☎ + 963 11 232 2276  
+ 963 11 232 2275  
+ 963 11 232 2289

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 آيسار  
al-madahouse@net.sy  
ص.ب: 8272

*All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.*

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

هنريك شنكوفيتش

# كوفاديس إلى أين

ترجمة: نافع معلا







استيقظ بترونيوس حوالي الظهر. وكعادته دائماً، كان الآن منهكاً، شديد الإحساس بالوهن. ورغم أن صحته قد بدأت تتدهور منذ مدة، إلا أنه أمضى ليلته في مأدبة دعا إليها نيرون دامت حتى الفجر.

وكان اعترافاً شخصياً منه حين جاء على لسانه أنه بات ينهض محطّم الجسد، مشتت الذهن كل صباح، ولم يعد يقوى على ملمة أفكاره. لكن الحمام الصباحي، ومن بعده المساجات الناجعة التي يخصصه بها الأرقاء بأناملهم الماهرة، قد أنعشته تدريجياً، وأعدت إليه نشاطه مبددة الخمول في دورته الدموية، حتى أنها قد صحته، و أرجعته إلى نفسه، وزودته بطاقة أنعشت روحه، فبدأ فتياً مؤتلق العينين، مفعماً بالحياة. وبكامل أناقته، كأنما قد بعث بعثاً جديداً، غادر قاعة الحمام الأخيرة في حالة من التأنق لا يجاربه فيها حتى أوتو بالذات، فاستحق في الواقع لقب " ملك الذوق "

لم يكن يوم أي حمام من حمامات المدينة إلا فيما ندر، وفي مناسبات خاصة. منها على سبيل المثال، قدوم خطيب بليغ ذاع صيته في المدينة، أو في عيد الشبيبة لحضور نزالات في المصارعة يتعذر أن تقام في مناسبات أخرى. وعلى أية حال، كان له في منزله الفسيح المنفرد حمام خاص أشرف صديقه الشهير سيلير على توسيعه، وترميمه، وتجهيزه له، فقال عنه نيرون بذات نفسه إنه يضاهي الحمامات القيصريّة، وإن كانت حمامات أرحب وأفخم تجهيزاً بما لا يقاس.

إذن، بعد تلك المأدبة التي تجادل فيها نيرون، و لو كانوس، وسينيكاً حول طرح فاتينوس ” هل للمرأة روح ” أفاق بترونيوس باكراً، وأخذ حمامه المعتاد. مدده عبدان ضخمان فوق طاولة من خشب السرو، فرشت بالكتان المصري الابيض، وعكفا على تمسيد جسده المتناسق بأكفهما المدهونة بالزيت العطري الفواح، فيما راح يتابع مغمض العينين كيف يتسرب دفء الحمام البخاري، ومعه سخونة أكف المدلكين إلى جسده، وينتزعان التعب من داخله.

وسرعان ما فتح عينيه، ونطق مستعلماً عن الطقس، وعمّا إذا ما كان الجواهر جي إدرومينوس قد وفى بوعدده، وأرسل تلك الجواهر لرؤيتها. فتوصل إلى أن الطقس جميل، وأن رياحاً لطيفة تهب فوق جبال الألب، لكن الجواهر لم تصل بعد.

و حين أطبق بترونيوس عينيه ثانية، مدّ عبد آخر رأسه من خلف الستارة ليخبره أن الشاب ماركوس فينيكوس، القادم من آسيا الصغرى، قد جاء لزيارته.

قاد بترونيوس ضيفه إلى البركة الفاترة، وألقى بنفسه فيها. فينكوس هذا هو ابن عمّة بترونيوس التي تزوجت قنصلاً في تيريوس. ولقد شارك تحت قيادة كوربولو في الحرب التي دارت في هذه الاونة ضد البارثوك. وبانقضاء الحرب عاد إلى المدينة. و ماركوس هذا نقطة ضعف بترونيوس، وفتاه المدلل، وقد تعلق به لأنه وجد فيه أن تشكيله الجسماني يؤهله لألعاب القوى. كان شاباً وسيماً يحتفظ حتى في هذه الازمنة الفاسدة بقدر من الجمال الجسماني يحبذه بترونيوس كثيراً، ويفضله على ما عداه

- مرحبا يا بترونيوس!

حياه الفتى وهو يتقدم بخطواته المرنة نحو البركة، ثم تابع قائلاً:

- الالفبارك الالهة عزيمتنا، وبخاصة الالهة اسكولبيوس و سيبروس  
لأن مباركتهما معا تحقق لنا الامان، وتدفع عنا كل مكروه.

فرد بترونيوس فاتحا يديه من تحت دثاره :

- أهلا بك في روما. وأتمنى لك طيب المقام، والراحة بعد الحرب.  
ما الاخبار في أرمينيا؟ هل عرجت على بيثينيا في أثناء عبورك آسيا؟

كان بترونيوس حاكم بيثينيا ذات يوم. لا بل قد وصل به الأمر أبعد  
من ذلك، فقد اتصف حكمه لها آنذاك بالمرونة، والعدل، فكان أمرا  
مستغربا يتناقض مع صيته الذائع بولعه بالنساء، و نشدانه الملذات.  
لكم أحب استرجاع تلك الايام الغابرة. وذكرياته هناك إشارة إلى يده  
الطولى، و إلى ما كان بمقدوره أن يفعله لنفسه هناك لو شاء ذلك.

أجاب ماركوس :

- وصلت حتى هيراكلي، حيث أرسلني كوربولو في مهمة للمساندة  
العسكريّة.

- آه هيراكلي ! عرفت هنالك فتاة كوخوزيّة لا تضاهيها كل النساء  
هنا، حتى بوبا. لكن هذا من الماضي. من الافضل ان تحدثني ما أخبار  
البارشين؟ لكم صرت أمقت كل ما هو ثولو جيسوس، و تيريداتس، و  
تغرانيس، و كل ذلك العالم البربري الذي كما يعبر الفتى أرولانوس يمشي  
على أربع، ويتظاهر أمامنا أنه إنسان. صاروا حديث الناس في روما،  
ولو بدافع تجنب الاحاديث في أمور أخرى تنطوي على خطورة.

- هذه الحرب تسير إلى الاسوأ. ولولا كوربولو لانتهت بنا إلى هزيمة سهلة.

- كوربولو! اله الحرب الحقيقي. القائد الحربي العظيم. مثال الصرامة والشرف والحماسة والغضب في الان ذاته. ويكفي ان يخافه نيرون حتى أحبه.

- ولكن كوربولو ليس أحمقا.

- قد تكون محقا. لكن الأمر سيان. الحماسة كما يقول نيرون ليست أسوأ من الحكمة في شيء، ولا فرق بينهما إطلاقا.

واسترسل ماركوس يتحدث عن الحرب، حتى لاحظ ان بترونيوس قد أغمض عينيه، فغير مادة الحديث، متسائلا بشيء من الحرص يطمئن عن صحة ابن خاله الاكبر.

صحته!... لا. لم يشعر أنه في صحة جيدة. صحيح ان حالته لم تتدهور كحالة الفتى سيسينا الذي فقد أحاسيسه، فسألهم حين أقعدوه صباحا في الحمام: "هل أنا جالس"؟ لكن صحته غير جيدة. نصحه فينيكوس بان يلجأ إلى شفاة اسكولابيروس، و سبيريس، ولكنه لا يؤمن باسكولابيروس، خاصة وان اسكولابيروس هذا لا يعرف ابن من يكون. هل هو ابن ارسينو، أم كورونيس. فإن كان غير موثوق الام فيكف سيكون موثوق الاب؟

واسترسل بترونيوس في الضحك وتابع كلامه

- منذ سنتين أرسلت إلى مدينة أيداوروس حيث مكان العلاج الشهير لأسكولابيروس، ثلاث دزينات من الافاعي الحية، وكوزا من



الذهب، أتدرى لماذا؟ قلت لنفسى قد ينفع، وإن لم ينفع فإنه لا يضر. إن كان البشر في هذا العالم ما يزالون يضحون للالهة، فأظنهم يعتقدون بمثل ما أعتقد. جميعهم، باستثناء سائقي البغال الذين يتجمعون حول بورتاكاينا بانتظار ان يقدموا خدماتهم للمسافرين. في العام المنصرم حدثت معي حادثة حين عانيت من بثور جلديّة. دع اسكولا بيوس جانبا، لكن أجرى الاسكولا بيوسيون طقوس العلاج على أنفسهم بدلا من إن يجربوها علي. عرفت أنهم مخادعون. لكنني قلت لنفسى: وماضير ذلك علي ما دام العالم يقوم على الخداع. الحياة خائبة، ومثلها الروح. وليس على الانسان الا أن يتمتع بقدر من العقل يمكنه من التفريق بين الخبيات الخبيثة، والخبيات الحميدة، أنا استخدم في حمامي خشب الصنوبر، والسرو، والعنبر للتسخين، لأنى أحب روائحها الطيبة أكثر من غيرها. لكن فيما يخص سيريس التي نذرت لها لترعاني وتشفع لي، ما زلت حتى الان أشعر بالام سهامها في رجلي اليمنى. لكن، وبغض النظر عن ذلك، فهي الهة صالحة. آمل منك عاجلا ام آجلا، أن تتوجه بحماماتك البيضاء إلى مذبحتها.

فأجاب فينيكوس :

- فعلا، سهام البارثين لم تصل، لكن سهام أمور تصل حتى حدود المدينة.

فصرخ بترونيوس :

- ياركب الكاريسات البيضاء! ستحدثني عن ذلك في فرصة سانحة أخرى.

وتابع ماركوس فينيكوس :

- ما قصدتك الا لالتمس منك النصيحة.

وفي هذه اللحظة إنتقلا إلى الخدم الحلاقين الذين سارعوا إلى العناية  
بـ بترونيوس.

أما فينيكوس وبعدهما دعاه بترونيوس إلى الحمام، فقد خلع رداءه،  
ونزل إلى المياه الساخنة.

علق بترونيوس وهو يرنو إلى جسم الفتى الأشبه بتمثال :

- لن أسالك إن كانوا قد أعادوا اليك حبيبك. لو رآك ليسيبوس  
لكنت الآن تزين مدخل البالاتينوس بدلاً من تمثال هيركوليس.

ندت عن الشاب ابتسامة رضا، ثم غطس في الحوض، وراح يعبث  
بالماء الساخن، فينداح فوق الموزاييك الموشى بصورة هيرا وهي تهدد  
زيوس لينام. كان بترونيوس خلالها يشاهد ما يفعله الشاب، ويرنو اليه  
بعين فنية متمحصة.

و حين انتهى، واستسلم تواء العناية الحلاقين، دخل عليه القارئ  
يحمل صندوقاً برونزياً بداخله لفائف من أوراق البردى.

- هل تريد أن تسمع؟ سأل بترونيوس

- إن كانت من مؤلفاتك، أجل. وإلا فالأفضل أن نتحدث. الشعراء  
هذه الأيام يجتذبون الناس عند كل منعطف في الشوارع.

- حقاً! أنت لا ترتاد مبنى، أو كنيسة، أو حماماً، أو مكتبة، أو  
حانوتاً " للكتب، الا وتلتقي شاعراً يلوح، ويومئ كالقردة. حين عاد  
أغريباً إلى وطنه قادماً من الشرق، ظن هم ممسوسين. إننا نعيش أزمنة

كهنده. القيصر يكتب الشعر، فعلى الجميع إذن أن يقلدوه، شرط الا تضاهي أشعارهم شعره. لهذا السبب قلقت على لكانوس... أما أنا فأكتب النثر، ولا أقدم ما أكتبه للآخرين، ولا حتى لنفسي، ولو ترك الأمر للقارئ لقرأ توصيات فابريكوس فينتو المسكين.

- ولماذا المسكين؟

- لأنه قد نفي، ويلعب الان دور أوديسيوس، ولن يتسنى له الرجوع إلى عائلته الا بصدور مراسيم جديدة. إن رحلته الاوديسيّة ستكون أسهل بكثير من رحلة أوديسيوس القديمة، لأن زوجته ليست بنلوب، وما من داع لأقول أن فعلتهم هذه حماقة كبرى، ولكن لا أحد هنا ينظر إلى الامور بطريقة مختلفة عما يراها أولئك هناك فوق. الكتاب رديء، وممل لدرجة كبيرة، ولم يقرأ جيدا " الا عندما أبعد المؤلف إلى منفاه. و الان صار يردّد في كل مكان: " سكاندالا، سكاندالا " أمن الجائز أن يكون فينتو نفسه قد ابتدع هذه الفكرة أو تلك، لكني أنا الخبير بأسیادنا وسیاداتنا أوكد لك أن ما يحتويه الكتاب أوهى من الحقيقة. بات الجميع الان يبحثون في الكتاب عن أنفسهم ومعارفهم الاخرين، وهم يتزاحمون ويتدافعون بتلهف. ففي مكتبة أفيرنوس يقوم مئة من الناسخين بنسخ الكتاب وراء من يمليه عليهم، والنجاح مضمون.

- الا يأتي فيه ذكر أي من أفكارك السابقة؟

- بلى. لكن المؤلف ضيع الفكرة، أو موه عليها، لأني أكثر سوءا من جهة، و صريحا ومنبسطا بالقدر الذي قدمني فيه من جهة أخرى. أترى كم صرنا لا ندرك الفرق بين ما يمتاز بالجدارة، وبين نقيضه. لكن أزعم من جهتي أن لا فرق بينهما، وإن كان سنيكا، و موسينيوس

و ثراسيا يدعون أنهم يرون ذلك الفرق الأمر عندي سيان. أما عن هيركوليس فأقول ما يجول في ذهني، مع احتفاظي بميزة أنني أدرك ما القبيح، وما الجميل، الأمر الذي لا يدركه شاعرنا صاحب اللحية الحمراء، وقائد العربة، والمغني، والراقص، والممثل.

أسفي على فابريسيوس. يا له من ساذج.

- كان هداما، يعبد التخريب. الجميع شكك به. لكن أحدا لم يعرف أمرا مؤكدا عنه. وصار شخصا لا يحتمل، يصرخ في السر، أينما حل. هل سمعت بسيرة روفينوس؟

- لا

- دعنا إذن نذهب إلى حوض الماء البارد، نبرد قليلا، وسأرويها لك.

عبرنا إلى الحوض البارد. في وسطه نافورة ترش ماء وردياً يفوح بعير البنفسج. جلسا فيه يتردان كل إلى جانب جدار موسد بالحرير. صمتا لحظة. كان فينيكوس خلالها يتأمل اله الحقول فونت البرونزي الذي يلامس بشفتيه الشبقتين فم حورية الغابات نيمفا المنشية إلى الورا على ذراعه. ثم قال:

- إنه محق. إنها أفضل شيء في الحياة تقريبا! لكنك تحب الحرب كذلك. أما أنا فأمقتها. على أية حال الامزجة تختلف من شخص لأخر. صاحب اللحية الحمراء يفضل الغناء، وغناءه الخاص بالمقام الاول. أما سكاوروس العجوز فيفضل الفاز الكورثي الذي ينتصب قرب سريره. فإن انتابه الارق ليلا، ولم يستطيع النوم، يأخذ بتقبيله، حتى باتت حوافه متآكلة تماما، من كثرة التقبيل. قل لي الم تحاول أن تكتب الشعر؟



- لا . لم أقدم أبدا على نظم أي سداسيّة .

- ولا تعزف على العود، ولا تغني؟

- لا؟

- ولا تقود عربة؟

- فيما مضى شاركت في السباقات دون أن أحقق فوزا .

- أنا إذن مطمئن عليك . وفي مضمار سباق الخيل، إلى أي حزب

تنتمي؟

- إلى الخضر

- لقد ازداد اطمئناني عليك . خاصة لأنك، وإن كنت تتمتع

بشخصيّة كبيرة، لست بثراء بالاس أو سنيكا، وكما ترى، شيء جيد

عندنا هذه الايام، ان يكون المرء يكتب الشعر، أو يغني بصحبة قيثار،

أو يلعب في السيرك . لكن من الافضل، والاقبل خطرا، إن كان لا يكتب

الشعر، ولا يعزف على القيثارة، ولا يغني، ولا يلعب في السيرك ولكن

أفضل الامور أن يقتصر المرء على الاعجاب بهذه النشاطات حين

يؤديها صاحب اللحيّة الحمراء . أنت شاب وسيم، وهكذا فإن أقصى

ما يهددك من خطورة أن تقع بوبيا في غرامك . لكنها على قدر أكبر

من الخبرة بحيث لا يمكن أن تفعل ذلك . حسبها في الحب، ما قاسته من

زوجيها الاولين، وهي تصبو إلى شيء آخر في زوجها الثالث . أتدري

أن الاحمق أوتو متي م بها حتى اليوم؟ وهو الان يعكف على تسلق

الصخور، ويتأوه . ولقد تخلّى عن عاداته السابقة، وأهمل نفسه

لدرجة أنه لا يضيّع أكثر من ثلاث ساعات في اليوم لتسريح شعره .

من كان يظن أن مثل ذلك قد يحدث مع أوتو خاصة؟

- أنا افهمه أجاب فينيكوس لكنني لو كنت مكانه، لفعلت أموراً أخرى.

- وما هي؟

- كنت أشكل فيالق مخصصة لي. الايريون جنود مستقيمون.

- فينيكوس! فينيكوس! أجروء على الزعم أنك لا تستطيع أن تقوم بذلك أتدري ما السبب؟ لأن بوسع المرء أن يفعلها شرط الا يتحدث عن ذلك، وإن كان على سبيل الفرضية. لو كنت مكانه لسخرت من بوبيا، وسخرت من صاحب اللحية الحمراء، ونظمت لنفسي فيالق من النساء، لا من الرجال. وأقصى ما كنت أفكر فيه الكتابات الساخرة، دون أن أقرأها على أحد كما فعل المسكين روفينوس.

- قلت إنك ستروي لي قصته.

- سأرويها لك بعد قليل في ركن الدهن بالزيت.

لكن ما شد انتباه فينيكوس في ركن التعطير بالزيوت شيء آخر. الخادومات الفاتنات في انتظار المستحمين. من بينهن إثنان مغربيتان أشبه بتمثالين بديعين من خشب الابنوس. هما من قامتا بدهن جسديهما بالعطور العربيّة الفاخرة. وعند العناية بالشعر أمام مرآة فولاذيّة صقيلة، أشرفت على التسريحة فتاتان فريجي تان إمتازت أيديهما بطراوة ومرونة افعوانيّة خبيرة. وأما في ركن الملابس، فكانت هنالك فتاتان يونانيتان من جزيرة كوش. الهتان حقيقتان كانتا تترقبان اللحظة للعناية برداء سيديهما.

صرخ ماركوس فينيكوس :

- يا جوبيتر الراعد ! أي اختيار هذا !

فأجاب بترونيوس :

- أفضل الانتقاء على الكثرة. هنا في روما، لا يزيد مجموع أفراد عائلتي مع خدمهم عن أربعمئة. الاجيال الجديدة منهم تحتاج إلى عدد أكبر لخدمتها الشخصية.

فعلق فينيكوس قائلاً :

- ليس لصاحب اللحية الحمراء حتى الان فتيات أجمل أجسادا.

فقال بترونيوس متودّداً :

- أنت قريبي. حتى أنا لست بذلك المتشدد في اختياراتاتي كما يفعل باوسوس، ولا مدققا في التفاصيل الصغيرة حتى درجة الوسواس، كما يفعل أولوش بلاونيوس.

لكن فينيكوس بسماعه الاسم الاخير، تناسى للحظة أمر الفتيات، وتوجه بالسؤال قابضا على رأسه

- كيف خطر لك اولوش بلاوتوس؟ أتدري أن يدي قد كسرت أمام المدينة، وأمضيت أكثر من عشرة أيام في منزله؟ حين حصلت لي الحادثة، كان يعبر للتو بعربته من هناك، ورأى كم أعاني، فأقلني إلى خادمه الطبيب مريون وعالجني، وهذا ما كنت أنوي أن أحدثك عنه.

- لماذا؟ لا تقل لي أنك وقعت في حب بومونيا مصادفة؟ إن كان الأمر كذلك فأنا أشفق عليك. لم تعد شابا، ولا فاضلا على درجة كبيرة. وليس بمقدوري أن أتصور شيئا أسوأ من هاتين الميزتين.

ليس في حب بومبونيا بتاتا.

- في حب من إذن؟

- لو كنت أدري في حب من. لا أدري حتى الان ما إسمها. ليفيا أم كالينا. في البلد يسمونها ليفيا لأنها تنحدر من أصل ليغوي. لكن أسمها البربري كالينا. منزل بلاوتوس منزل غريب، يعج بالناس، وبالهدوء الشديد في أرجائه من الداخل، وفي حدائقه. أكثر من عشرة أيام ولم أعلم أن الوهيّة تقطن هناك، حتى لمحتها ذات فجر باكر وهي تغتسل قرب نافورة في الحديقة. وأقسم أنني قد لمحت هنالك ضبابا ولدت منه أفروديت، حتى أن أشعة شمس الفجر قد عبرت جسدها تماماً. ظننت للوهلة الاولى ان الشمس بدأت تشرق وتذوب في حمرة الفجر. رأيتها مرتين بعد ذلك. ومن يومها لا أعرف طعم السكينة. لا التمس رغبة، ولا أحفل بكل ما تمنحه لي المدينة، لا النساء، ولا الذهب، ولا النحاس الكورنثي، ولا حتى اللبلاب والاحجار الكريمة، واللؤلؤ، والنيذ، والمآدب. ليفيا وحسب. أصدقك القول يا بترونيوس. أنا أتلهف اليها طوال النهار والليل.

- إن كانت من العبيد، تزوجها!

- ليست من العبيد.

- من تكون إذن؟ هل هي معتوقة بلاوتوس؟

- إن لم تكن عبدة في يوم، فكيف تكون معتوقة؟

- من هي إذن؟



- إن لم تكن ملكة، فهي تشبه الملكات.

- تجعلني فضولياً يا فينيكوس

- إن أردت أن تسمعي، سأشفي فضولك. القصة ليست طويلة. لعلك تعرف شخصياً فانيوس ملك سويفوس الذي نفي من وطنه، وأقام طويلاً في روما، وحقق صيتاً ذائعاً في السباقات. والقيصر دروسوس أعاد له أولوش. كان فانيوس شخصاً ماهراً، وفق في الحكم منذ البدايةً وقاد حروباً ناجحة، حتى بدأ فيما بعد، بجور حتى على أقاربه، وأفراد عائلته. هذا ما جعل فانغيو، و سيدو، وهما ابنا فيلوس، وملك هرمودوس، يعقدان العزم على خلعه ليعود إلى روما، ويجرب حظه بمغامرة أخرى.

- أذكر ذلك. ليس قديماً في زمن كلاوديوس.

- تماماً. اندلعت الحرب، وطلب فينوس مساعدة اليازيغ، فقام ابن عمه بطلب مساعدة الليغوس، وقد لبى الطرفان الدعوة أملاً في الغنائم، فالتحقوا بحشود لا تحصى جعلت القيصر كلاوديوس نفسه خائفاً على حدوده. لم يرغب كلاوديوس في خوض معركة البربر، فكتب إلى التيوس هيستر آخر الليغوس إلى ضفاف الدانوب، ان يتابع وقائع الحرب ومجرياتها أولاً بأول، ولا يسمح بتأثيره على أمن بلادنا. فاشترط هيستر على الليغويين أن يعدوه بعدم تجاوز حدودنا، ففعلوا أبعد من ذلك، حتى أنهم قد سلموهم ضمانات. وكان من بين أماناتهم زوجة قائدهم، وابنته كذلك. فالبربر كما تعلم، يصطحبون زوجاتهم، وأبناءهم في الحروب... وفتاتي ليفيا هي ابنة ذلك القائد.

- كيف عرفت ذلك؟

- قالها أولوس بلاوتينوس نفسه. الليغوس لم يتخطوا حدودنا فعلا. لكن البربر كما يجيئون يتعدون كهبوب العاصفة. كذلك تخلى الليغوس أيضاً عن مواقفهم فمحقوا أتباع فينوس، وسقط ملكهم جريحا، ورجعوا هم بالغنائم. أما الامانات فبقيت في قبضة هيستر. وبعد مدة ماتت الام، وحرار هيستر في أمر الفتاة، فأرسلها إلى بومبونيوس حاكم جرمانيا بأسرها آنذاك. وبعد انتهاء الحرب عاد إلى الوطن. ودخل روما في موكب نصر كما تعلم، بإذن من كلاوديوس جاءت الفتاة معه وبما أن الرهينة لا تعتبر من العبيد، لم يدر بومبونيوس ماذا يفعل بها، فأعطاها لأخته الصغرى غراسينا زوجة بلاوتينوس. بلغت سن البلوغ في ذلك المنزل، حيث جميع قاطنيه، بدءاً من الملك حتى الديكة في الخم، فاضلون. لكن للأسف، حتى هي فتاة فاضلة مثل غراسينا ذاتها. ومن العجيب أنه حتى بوييا مقارنة بها، ليست الا مثل شجرة تين خريفية إلى جانب تفاحة من تفاحات الهسبرديات الالهات اللواتي يحرسن شجرة التفاح الذهبية. وأنا أبوح لك بما يعتمل في قلبي من أشواق، لا تنس ان الثوب الابقع غالباً ما يخفي جروحا اليمة ولا بد أن أقول لك أيضاً أنسي، بعودتي من آسيا، قد امضيت ليلة في معبد العراف موبسوس بن أبوللو، عسى أن أرى حلما ينبئني بما هو آت. فجاءني موبسوس نفسه في المنام ليقول لي بأن حبي سيحدث تغييراً كبيراً في حياتي.

- سمعته حين قال بلنيوس إنه لا يؤمن بالالهة، لكن بالأحلام نعم. قد يكون محقاً. أنا أفرح فقط، لكني أحيانا أعتقد أن هنالك الوهة خالدة، مبدعة تسير كل شيء، هي فينوس جنتريكس الهة الحب مبدع كل شيء. هي التي تقبض على الارواح، والاجساد، والمادة. إيروس انتشل العالم من الهيولي، من العماء، فهل فعل ما فعل على نحو حسن، هذه

مسألة أخرى. ولكن بما أن ذلك قد حصل، علينا أن نعتز بسلطانه،  
دون أن نكون ملزمين بتمجيده.

- آه يا بترونيوس! أسهل لنا أن نتفلسف، من أن نسدي نصيحة  
ناجعة.

- قل ماذا تريد بالضبط.

- ليفيا. أريد لذراعي اللذين يعانقان هواء الخلاء أن يعانقاها،  
ويضمها إلى صدري. أريد أن استنشق أنفاسها لتصل إلى أعماقي.  
لو كانت عبدة لأعطيت أولوس لقاءها، مئة فتاة دبقات الارجل دلالة  
على أنهن في السوق لأول مرة. أرغب في أن تبقي معي في منزل حتى  
يكسوني المشيب كقمة شوراكتا شتاء.

- ليست من العبيد لكنها في النهاية واحدة من شعب بلاوتيوس.  
وبما أنها طفل مشرد، يمكن اعتبارها لقيطا وبالتالي باستطاعة بلاوتيوس  
أن يهبك إياها إن شاء ذلك.

- يبدو أنك لا تعرف بومبونيا غارسينا أيضاً. كلاهما، على أية  
حال، متعلق بها، وكأنها ابنته تماماً.

- أعرف. بومبونيا شجرة سرو حقيقية. ولو لم تكن زوجة أولوس  
لأمكن اعتبارها نداية. منذ وفاة جوليا لم تخلع ثوبها الاسود المميز،  
كأنما خلال حياتها تعبر حقولا من زنايق بيضاء. وإلى جانب ذلك  
فهي تلك المرأة من النساء الرومانيات الفاضلات اللواتي لم يتزوجن  
سوى مرة واحدة. إنها عنقاء خرافية بين نساءنا المطلقات للمرة  
الرابعة أو الخامسة. لكن... أسمعت أن طائر عنقاء قد ظهر في مصر  
العليا. وهي واقعة لا تحصل الا مرة واحدة كل خمسمئة عام.

- عزيزي بترونيوس دعنا نؤجل حديثنا عن العنقاء إلى وقت آخر.

- ولكن ما الذي يسعني أن أقوله لك يا ماركوس؟ أنا أعرف أولوس بلاوتيوس، وأعلم أنه، وإن كان يستنكر أسلوبه في الحياة، يكن لي شيئاً من الود، بل يكن لي تقديراً أكثر مما للآخرين، وذلك لعلمه أنني لست ثرثارا كأولئك الغوغائيين من أتباع أفريد متيوس و تيفالنيوس، ومريدي صاحب اللحية الحمراء، ولم أبدأ ما يدل على أنني رواقى، ومع ذلك فقد وجهت انتقاداتي أربع مرات لبعض تصرفات نيرون التي تجاهلها سينيكا، و بوروس. فإن كنت ترى أن أتوسط لك عند أولوس، فأنا على أتم الاستعداد.

- أظن أنك تستطيع فعل الكثير. تأثيرك كبير عليه، فضلا عن أنك لا تضاهى في إسدائك للنصائح، آمل أن تتمعن في الأمر، وتكلم بلاوتيوس.

- إنك تبالغ في تقديرك لتأثيري، وأفكاري. لكن إن كان هذا هو كل ما علي ان اقوم به، فسوف أكلمه لمجرد انتقالهم إلى المدينة.  
- لقد انتقلوا منذ يومين.

- إذن سنذهب إلى التريسيلينيوم حيث ينتظرنا طعام الافطار.  
نتزود بالقوة، ثم ننطلق إلى بلاوتيوس.

تنهد فينيكوس قائلاً:

- أحببتك دائماً. لكني الان سوف أنصب تمثالك بين أكاليل الغار، وأقدم له القرابين.

والتفت ناحية مجموعة التماثيل التي تحتل أحد جدران الغرفة العظيمة بالكامل، وأشار بإصبعه إلى أحدها الذي يصور بترونيوس في شكل هرمس، وفي يده الصولجان الذهبي، ثم استأنف قائلاً

- يا لسطوع هليوس الهة الشمس! إن كان باريس شبيها بك، فلن تدهشني هيلينا.

كان صدق فينيكوس ممتزجا بشيء من المبالاة، لان بترونيوس كان مسنا، ولا يتمتع بمثل ذلك الكمال الجسماني، ولو أنه أكثر وسامة من فينيكوس. لقد نال إعجاب النساء الرومانيات، ليس فقط لروحه الشفافة، وذوقه الرفيع اللذين منحاه لقب ملك الذوق، بل لجسمه أيضاً. بدا هذا الإعجاب واضحاً على وجهي الفتاتين اليونانيتين. يونيكي، التي أغرقت به في سرها، وراحت ترمق عينيه بنظرات متوسلة توحى بافتانها الشديد به.

لكنه، وكأنا لم يلاحظ ذلك، نظر إلى فينيكوس مبتسماً، واستشهد، على سبيل الرد، بعبارة سينيكا

- قلة حياء... الخ.

ثم لف كتف ضيفه، وقاده إلى غرفة الطعام.

عكفت الفتيات اليونانيتين، والمغربيتان على تنظيف ركن التزييت. في هذه اللحظة مد المستحمان رأسيهما وراء ستارة الحوض البارد وسمع عندها صوت "بست ت ت"، جعل إحدى اليونانيتين، مع الاثيوبيتين، يتسللن فجأة إلى هناك، ويختفين وراء الستارة. بدأ في الحمام اللهو والفسوق، دون أن يلقي الأمر ممانعه من المشرف العام الذي غالباً ما كان يشارك في مثل هذه التسليات.

خالج بترونيوس ظن فيما يجري. ولكنه بامتلاكه روحا متفهمة لا يحبذ التأثيم والقاء الذنوب على الاخرين، فقد تصرف كأنما لا يعلم شيئاً.

بقيت يونيكي وحدها في جناح التزييت. أصغت لوهلة إلى القهقهات، ووقع الاقدام المتجهة إلى المطعم، ثم رفعت الكرسي المشغولة بالعاج والكهرمان، التي جلس عليها بترونيوس منذ لحظات، ووضعتها أمام تمثال الرجل بعناية.

كان ركن التزييت يشعشع مضاء بأشعة الشمس، وبالالوان القزحية التي تعكسها المحتويات الرخامية.

وقفت يونيكي على الكرسي، وحين صارت على ارتفاع التمثال، مدت ذراعها حول عنقه، ثم ردت شعرها الاشقر إلى الوراء، والتصقت بجسدها الوردي إلى الرخام الابيض، ثم بكل ما امتلكت من عنف ضغطت بفمها على شفتي بترونيوس.

بعد أن طلب طعام الافطار، الذي جلس اليه الصديقان الحميان، حين أنهى عامة الناس طعام الظهر، اقترح بترونيوس قيلولة قصيرة. كان رأيه أن الوقت مازال باكرا للزيارة. هنالك آخرون يبدأون زيارة معارفهم عند شروق الشمس، وهي عادة رومانية قديمة، لكنه يعتبرها عادة بربرية. ساعات العصر، في رأيه، أفضل أوقات الزيارات، لكن قبل أن تميل الشمس ناحية معبد جوبتير، وتنشر خيط أشعتها النحاسية على الفوروم أهم ساحات روما، حيث كانت تجري الحياة السياسية. ما يزال الطقس دافئا في الخريف، ويفضل الناس أن يلجأوا بعد تناول الطعام إلى النوم على خرير نافورة الماء في الأتريوم أهم أجنحة المنزل الروماني، وأن يأخذوا بعد نزهتهم المحتومة قيلولة تقيهم في أثنائها الستائر الأرجوانية ضوء الشمس المائل إلى الاحمرار.

وافقه فينيكوس، وانطلقا في نزهة تحدثا خلالها عما يدور من أخبار في البلاتينوس والمدينة، دون أن يخلو حديثهما من شيء من التفلسف في الحياة. بعدما توجه بترونيوس إلى غرفة النوم، وغفا في الحال.

وبعد نصف ساعة خرج. تناول بيده زيت زهر رعي الحمام، شمه، ثم دهن يديه وصدغه، وعلق قائلاً

- لا تتصور كم هو منعش، ومنشط. أنا الان جاهز.

كان الهودج وحاملوه بالانتظار منذ وقت طويل. جلسا داخله، وانطلقا إلى شارع بترونيوس حيث منزل أولوس.

كان يمكن لطريقهما أن تؤدي إلى الفوروم، ولكن بما أن بترونيوس أراد أن يعرج على الصائغ، فقد تدبر الأمر مع اللحم الين، لكي يُقل هما عبر الابولونيس باتجاه شارع سكالاراتوس الذي تكتظ ناصيته بخيام المعابد النقالة.

رفع المغاربة العمالقة الهودج، وانطلقوا يتقدمهم عبيد يشقون لهم الطريق. لزم بترونيوس الصمت لفترة قصيرة، رافعا يده العطرة إلى أنفه، كما لو كان يفكر في أمر ما، ثم قال

- يخطر لي الان، إن لم تكن الهتك من العبيد، بوسعها أن تغادر منزل بلاوتيوس، وتجيئك للإقامة عندك، وتغمرها بحبك، وتغدق عليها بالثراء، مثلما فعلت أنا مع معبودتي كريسوسميس التي لبقائها بيننا، قد سئمتها بالقدر الذي سئمتني به.

هز ماركوس رأسه فسأله بترونيوس :

- اليس كذلك؟ في أسوأ الاحوال تصل القضية إلى القيصر، ثم تقوم أنت بالاستيضاح عما إذا كان صاحب اللحية الحمراء يقف إلى جانبك أم لا

أنت لا تعرف ليفيا.

- إسمح لي إذن ان أسالك : هل تعرفها على نحو آخر، سوى أنك قد أبصرتها؟ هل تحدثت اليها؟ هل بحث لها بحبك؟

- رأيتها للمرة الاولى قرب نافورة الماء، وبعد ذلك مرتين. لا تنس إنني في أثناء وجودي لدى أولوس، كنت أقيم في فيلا جانبية للضيوف. وبما أن ذراعي مخلووعة، لم أشاطرهم الطعام مطلقا. أطلت، والتقيتها عصرا قبل ليلة رحيلي، ولم أتمكن من النطق أمامها. كان علي أن أصغي



إلى أولوس وهو يروي قصص انتصاراته في بريطانيا، وخضوع الممالك الإيطالية الصغيرة له، تلك الممالك التي مازال ليسنيوس ستولو يبذل جهداً كبيراً لصدّها. لا أظن أولوس يجيد الحديث عن شيء آخر. ولا يأخذنك الظن أن باستطاعتنا تفادي ذلك حتى إن كنا نرفض سماع أي شيء عن هشاشة عصرنا. إنهم يربون الطواويس ولا يأكلونها، لأن مبدأهم أن أي طاووس يؤكل يقرب من سقوط روما. ورأيتها للمرة الثانية، جانب بركة الحديقة، وبيدها عود طري من القصب، وتسقي السوسنات. أنظر إلى ركبتني. أقسم بترس هيركوليس أنهما لم ترتجفا حتى حين هجم علينا البارثيون كالغمام يسبقهم الصراخ نحو جيوشنا، لكنهما قرب البركة ارتجفتا وكادتتا لا تقويان على حملي. اضطريت كطفل روماني مازال يحتفظ بميداليته الذهبية حول عنقه. بقيت طويلاً أعجز من أن تقوى شفتاي على النطق بكلمة واحدة لكن عيني كانتا تتوسلان الرحمة والرجاء.

رمقه بترونيوس بنظرة غيور، وقال متنهداً:

- ما أسعدها من مخلوق. حتى لو انحدر العالم إلى أسوأ حالاته، سيبقى الشباب ساكناً فيها.

وسأله بعد مدة وجيزة:

- ولم تكل منها أبداً؟

- بلى تماكنت نفسي، وقلت لها حين رجعت إلى الوطن قادماً من آسيا، خلعت يدي أمام المدينة، وعانيت الكثير، لكنني بعد أن صار لزاماً عليّ مغادرة هذا المنزل المضياف، أرى أن المعاناة والام أثمر هنا من الفرح والسعادة في مكان آخر، وأن المرض هنا أفضل من الصحة.

حين كنت أتكلم، كانت مطرقة في الأرض تصغي إلى ما أقول،  
ورسمت بعود القصب شيئاً فوق الرمل. ثم رفعت عينيها وأطرقت  
ثانيّة. ثم كأنما أرادت أن تسألني شيئاً، التفتت نحوي.. لكنها فرت من  
أمامي بسرعة كعداري الغابات أمام الهة الحقول الحمقى.

- لا بد أنها تتمتع بعينين جميلتين.

- عينان بحريتان، جعلتاني أغرق في غوريهما كما في بحر. صدقني  
إذا ما قلت لك أن زرقتهما أعمق من الزرقة الارخبيليّة. وبعد قليل  
هرولت نحو بلاوتيوس الصغير، وسألته شيئاً، لكنني لم أفهم ماذا  
أرادت.

- يا أثينا! صرخ بترونيوس أزح عن عيني هذا الطفل المنديل الذي  
عقده إيروس، والا سيهشم رأسه على عامود معبد فينوس.

ثم التفتت إلى فينيكوس

- أوو. إنك برعم ربيعي فوق شجرة الحياة، والتفتح الاول لحقل  
الكرمة. علي ان الحقك بمدرسة الأطفال الذين لم يعلموا شيئاً عن الحياة  
بعد.

- ماذا تقصد؟

- ما الذي رسمته الفتاة فوق الرمل؟ هل خطت إسم أمور؟ هل  
رسمت قلباً يخترقه سهم؟ أم كان شيئاً يمكن ان يوحى اليك بما توشوشه  
الهة الشبق عن أسرار الحياة في آذان عذراوات الاشجار؟

فأجاب فينيكوس :

- قبل أن يأتي أولوس الصغير القيت نظرة على ما رسمته. أعلم ان الفتيات في بلاد اليونان و روما غالباً ما يكتبن فوق الرمال خواطرهن التي لا ترغب شفاهن ان تبوح بها... خم ن ماذا رسمت؟

- إن لم يكن ما قد خطر لي، فلن اعرف.

- سمكة.

- ماذا؟

- قلت لك :سمكة. أرادت أن تعبر بها لك عن ان دما باردا مازال حتى الان يجري في عروقها. لكنك وأنت الذي سميتني البرعم الربيعي على شجرة الحياة، أدري مني في أمور كهذه.

- يا كاريس ! اسال بليوس عن مثل ذلك. فهو يفهم بالاسماك جيداً. لو كان الشيخ أبيسيوس حياً لما قال شيئاً عن هذا، لأنه خلال حياته قد أكل من السمك أكثر مما يسع خليج نابولس.

إنتهت المحادثة هنا بعد أن بلغا شوارع فيها من الازدحام والضجيج ما يفسد محادثة كهذه.

وبعد أن عبرا شارع أبولونيوس، إنعطفا نحو الفوروم حيث هنالك، في مثل أيام الصحو هذه، يلتقي الاهالي قبل غروب الشمس، ويتمشون بين صفوف العمدان، يتناقلون ما في جعبهم من أخبار خاصة، وغيرها من الاخبار المستجدة. وحيث يشاهدون هوداج الاشراف، ويتفرجون، أو يعرجون في نهاية مطافهم على كشوك السباكة، والمكتبات، وحوانيت الصرافة، والمتاجر، وورش الادوات النحاسية، وشتى أنواع المحلات المتشرة في ابنة الجهة العليا من

الفوروم. ينتشر ما يقرب من نصف مساحة الفوروم في كنف الاشجار المحيطة بالقلعة، وتظله تماماً. على العكس من ذلك، فقد كانت عمدان المعابد في الجهة العليا ترهب بالضوء الذهبي تحت السماء الزرقاء الصافية. وفي العمق كانت صفوف العمدان تمد ظلالها المتطاولة فوق البسط الرخامية، حتى امتلأ المكان بالظلال المتقاطعة على نحو يجعل البصر يتوه بينها كما في غابة، ويجعل الابنية والعمدان تبدو مكتظة لا يتسع لها المكان إلى جانب بعضها البعض. تبرج إحداها شاهقة فوق الاخرى، وتستطيل يمنة ويسرة، وتعرش على التلال ممتدة حتى جدار القلعة أحياناً، وملاصقة لبعضها أحياناً أخرى، مثل كثير من جذوع الاشجار الصغيرة والكبيرة، الشخينة والرفيعة، الذهبية والبيضاء التي تتفرع هنا تحت قناطر العمدان إلى أكاليل وعرائش من أزهار الاكانثوس. وتنفث وتتقرن هناك، وتنتهي في أماكن أخرى على شكل مربعات على الطراز الدوري. وفوق هذه الغابة التمتعت البروزات المستطيلة الملونة، وتماثيل الالهة الحجرية، والعربات الذهبية المجنحة على أهبة الطيران في الفضاء الازرق فوق المدينة المكتظة بالمعابد. إزدحم وسط الفوروم، كما أطرافه، بحشود الزوار، منها من تنزه تحت أقواس كاتدرائية يوليوس قيصر، ومنها من اقتعد مدرجات كاستور و بولوكس، او تمشى حول كنيسة فيستا، ومثل أولئك من كان في الساحة الرخامية الواسعة، كالفراشات والاسماك من كل لون. في الاعلى، من فوق معبد جوبتير الجبار الارحم، تدفقت أمواج جديدة من البشر منحدره فوق المدارج الضخمة. في القرب من منصة الخطابة طلعت أصوات الخطباء، وباعة الفاكهة والنبيد، وشراب التين، وسمعت أصوات المشعوذين الذين يروّجون لأدويتهم العجائبية، والمنجمين والسحرة الذين يقتفون مكامن الكنوز الخبيثة، ومفسري الأحلام الذين يعرضون علومهم. وصدحت هنا وهناك أنغام السيتروم

الموسيقىّة المصريّة، والنايات الإغريقيّة. وفي أنحاء اخرى كان المرضى والمتدينون، وأصحاب النفوس المعذبة يقصدون المعابد بقرابينهم.

وبين كل هذه الحشود المتنوعة من البشر، كانت مجموعات الحمام تبدو فوق الحجارة المرصوفة بقعا قائمة أو رقطاء متحركة وهي تنقر الحب بنهم، وترفرف خفاقة في الاعالي، ثم تغط في أماكن خاليّة أخرى. وبين الفينة والاخرى كانت حشود تتباعد مفسحة الطريق أمام هودج برز منه وجه سيدة نبيلة جمدت تقاسيمه وجع ده أو أبلاه رفاه الحياة الرغيدة، وقد يكون وجه سيناتور أو فارس فيتطرق سكان المدينة، بلكنات من مختلف اللغات، إلى ذكر أسمائهم وشهرتهم وما خطر على البال من تعليقات معيبة أو مفاخر. ولا يخلو الأمر، بين حين وآخر، أن يخترق هذه الحشود البشريّة العشوائيّة فصيل من الجند أو خفر الشوارع بخطواته ذات الوقع المنتظم الرتيب. وكانت اللغة اليونانيّة تتع إلى بكثافة لا تقل عن اللغة اللاتينيّة.

كان قد مضى زمن طويل، دون ان يؤم فينيكوس المدينة، فراح يراقب بفضول خاص جموع الناس، وهذا المتدى الروماني فوروم رومانوم، الذي بسط سيطرته على أمواج العالم، لكن أمواج العالم، قد طغت عليه، واغرقتة في بحرها، لدرجة جعلت بترونيوس، وقد اكتشف ما يدور في بال صاحبه، يقول معلقاً : عش الرومان بلا رومان. والحقيقة أن العنصر المحلي مفقود في وسط هذه الجموع المتشعبة المشارب. كان هنالك الاثيوبيون، والعمالقة الشقر من أقصى الشمال، والبريطانيون، والغال، والالمان، والصينيون ذوو العيون المائلة، والفراتي ون، والهنود، والسوريون ذوو الطلعة الوديعة، وسكان الصحارى العربيّة الهزليون حتى برزت عظامهم، واليهود ذو الصدور المنبعجة، والمصريون ذو الابتسامة الدائمة على وجوههم،

والافارقة، والإغريق الذين بحكمتهم وفنهم، ومعرفتهم، وحيلتهم، يشاطرون الرومان السيطرة على المدينة.

كان هنا إغريق ينحدرون من الجزر، ومن آسيا الصغرى، وإغريق مصريون، وإيطاليون. ولم تخلُ جموع العبيد ذوي الاذان المثقوبة من الأحرار العاطلين عن العمل الذين وفر لهم القيصر التسلية، ومدّهم بالغذاء واللباس. وكان هنالك أيضاً الوافدون الجدد الأحرار الذين خدعتهم سهولة الحياة والالهة فورتونا فقصدوا هذه المدينة العملاقة. وكان الباعة، وكهنة يتبعون الاله المصري سيرابيس يحملون سعف النخيل، وكهنة يتبعون إيزيس الذي خص مذبحة بعدد من القرابين يفوق ما خص مذبحة جوبيتر، وكهنة سبيل اله آسيا الصغرى، وبأيديهم مناجل الرز المذهبة، وكهنة جوالون لعدد من الآلهة الاخرى، وراقصات شرقيات مبهرجات، وسحرة الافاعي، والمجوس، وأخيراً كثير من البشر ممن لا يعملون شيئاً، ولكنهم يظهرون هنا كل أسبوع، بينهم من يرتادون مخازن الحبوب على ضفاف التبر لشراء القمح، وآخرون يتشاجرون قرب ملاعب السيرك من أجل الحصول على بطاقات اليانصيب، ويمضون لياليهم على الضفة الاخرى لنهر التبر، في العوامات المائية المتمايلة، بينما يقضون نهاراتهم الرتيبة الحارة، في مطاعم الازقة الرومانية، والحانات القذرة، أو على جسر ميلفيوس، أو أمام مآدب الأغنياء الذين يرمونهم بين الحين والآخر، بما تبقى على موائد العبيد من فتات الطعام.

كان بترونيوس ذائع الصيت، ومعروفاً لدى هذه الحشود، فلم تنقطع عبارة "هذا هو" طارقة سمع فينيكوس كانوا يحبونه لكرمه، لكن شعبيته قد ازدادت منذ أن رفع صوته أمام القيصر مدينا حكم الاعدام الذي الحق بحق واحد من العبيد. وغالباً ما عبر بترونيوس علناً

أن المسألة لا تعنيه، ولا تمسه بضرر، ولكنه كان يكلم القيصر كوسيط مستقل، قد مس حكم الاعدام مشاعره الاخلاقية، واصفاً إياه بالجريمة البربرية التي قد يرتكبها السكيتان، ولكنها لا تليق بالرومان. ومن يومها يحبونه.

غير أنه لا يكثر لهذا الأمر كثيراً، خاصة وأنه يعلم ان هذا الشعب يحب أيضاً كلا من بريتا نيكوس الذي سُمم، و أغريينا التي أغتيلت، و أكتافيا التي قضي عليها خنقا في جزيرة باندا تاريا بعد ان أوهنت قواها بالبخار الحار. وكل أولئك على يد القيصر. هذا الشعب يحب أيضاً بلاوتوس المنفي، و تراس الذي كان ينتظر حكم الاعدام في أية لحظة. محبة الشعب في نظره فال سيء، إضافة إلى أنه شعب ينقاد وراء الخرافة. ناهيك عن أنه ينظر إلى العامة من الناس نظرة لا تخلو من ازدراء لسبيين اثنين: أولهما، كأرستقراطي، وثانيهما كفنان. ففي نظره إن المرء التي تنبعث منه الرائحة النتنة لما تحويه جيوبه من فاصولياء مطبوخة، وتعرفه نتيجة مكوثة الدائم في نواحي الشوارع، والحدائق، ولعب القمار، هو غير جدير بصفة إنسان.

حتى أنه لم يرد على التصفيق، ولا على القبلات التي انهالت عليه من هنا وهناك في الهواء، وكان شيئاً لم يكن، فاستمر بترونيوس في قص حوادثه لماركوس مزدريا خلال ذلك تقلب هذه الغوغاء من ابناء الشوارع الذين صفقوا في اليوم التالي لنيرون حين الهب حماسهم في معبد جوبتير.

لكنه أوقف الهودج أمام مكتبة أفيرنوس. خرج منها، وابتاع مخطوطا مزر كشأ، وناوله للشباب قائلاً له

- هذه هدية لك.

- شكرا أجابه فينكوس، ثم سال بعد أن القى نظرة على عنوان المخطوط:

- ساتيريكون؟ لا بد أنها شيء جديد لكاتبها.

- أنا من كتبها. لكنني لا أريد أن أخطو على أثار أقدام روفينوس الذي ما زلت أدين لك برواية قصته. وهكذا لا أحد يعلم بهذا الأمر، فلا تحدث عنه أحدا.

وعلق فينيكوس وهو يقلب المخطوط

- قلت إنك لا تكتب الشعر، لكنني أرى أنه نثر موشى بالأشعار بكثافة.

- عندما تقرأه دقق على مادبة تريماليثيو. أما ما يخص الأشعار فأنا أقرفها منذ أن كتب نيرون شعر الحماسة والبطولات. لو أراد فيتليوس أن يصيبه إسهال في أمعائه فإنه يسعى إلى تناول مسحوق عظم الفيلة مخلوطا بالباليسكا. اما أنا فأقرأ أشعار نيرون للغرض نفسه. فكان من نتيجة ذلك ان صارت محط تبجيلي الشديد مدفوعا بنقاوة المعدة، إن لم يكن بنقاوة الضمير.

حين أنهى كلامه أوقف الهودج أمام ورشة الصائغ أدومينيوس.

وبعد أن تدبر أمر الجواهر، انطلق إلى منزل أولوس مباشرة.

- سأروي لك في الطريق قصة روفينيوس، كدليل على معنى عبادة المبدع.

ولكن قبل أن يبدأ القصة، كانا قد أنعظفا عبر فيكوس بتريركوس



وسرعان ما كانا أمام منزل أولوس. قام أحد الفتیان بفتح الباب المؤدي إلى الصالون حيث حياهما ببعاء قائلاً بصوت مرتفع سالفی. حين عبرا الصالون الثاني إلى الأتریوم، قال فینیکوس :

- ألم تلتفت إلى أن الواقف عند الباب غير مقید بالسلاسل.

فأجاب بترونیوس هامسا :

- منزل غریب هذا. لا بد أنك تعلم أنهم قد اتهموا بومبونيا بأنها من أنصار ذلك المعتقد الشرقي الذي يقوم على تقديس کریستوس.

أما التي وشت بها فهي کریستینیلا التي لا تطيق أن تمرر لبومبونيا فكرتها القائلة بأن زوجها واحدا يكفي مدى الحياة...

- أنت محق. إنه منزل غریب. سأروي لك فيما بعد ما رأيته وما سمعته هنا.

في أثناء الحديث كانا قد بلغا الأتریوم الصالة المركزيّة، حيث قام العبد مشرف الصالة بإرسال معلن الاسماء للإعلام بقدم الضيفين، في حين هرع مجموعة من الأرقاء لتقديم كراسي الجلوس. كان في تصور بترونیوس أن حزنا دائما يقيم في هذا المنزل، فامتنع عن القدوم اليه، ولم تطأه قدماه أبدا. والان راح ينظر حوله بشيء من الاندهاش مشوب بشيء من الخيبة، فقد كان جو الأتریوم أميل إلى البشاشة والاشراق منه إلى القتامة والحزن. عبرت أشعة الضوء خلل فتحة واسعة في الاعلى، فتناثرت الافا مؤلفة من الشرارات الضوئية عكستها مياه النافورة. توسطت النافورة بركة مربعة الشكل أحاطت بها الزنابق، ونبات الساتيلا، كانت وظيفتها في الاجواء الماطرة تجميع مياه المطر الهاطل عبر الفتحة العلوية. لا بد أنهم قد أحبوا الزنابق والالوان في

هذا المنزل . فهنالك الزنابق البيضاء، والحمراء، إضافة إلى السوسن الأزرق، وما أضفت قطرات الماء من لون فضي على بتلاته الناعمة، وما غطت الفطريات المتعريشة الرطبة، والأوراق الكثيفة من تماثيل ملائكة صغار، وعصافير نحاسية، وذلك الأيل البرونزي في أحد الأركان ماداً رأسه الموشى بصدأ مخضر نتيجة الرطوبة، كأنما يريد أن ينهل الماء. كان للأتريوم أرضية من الموزاييك، وأجزاء من جدرانها ملبسة بصفائح الرخام الأحمر، وباقي الأجزاء برسوم الأشجار، والأسماك، والعصافير، وطائر الغرفين. كثافة من آلاف الألوان ترحلحق الأبصار. الأبواب المفضية إلى الغرف الجانبية مزخرفة بالصدف والعاج وعلى طول الجدران ما بين الأبواب توضع تماثيل أولوس. الرخاء والاستقرار باديان في المكان الأكثر نبلا وثقة، والابتعد عن التبذير والترف المجاني.

كان بيت بترونيوس أكثر أرستقراطية واعتباراً، لذا لم يجد هنا ما يחדش ذائقته. ولقد رغب لتوه أن يعبر عن ذلك لفينيكوس، لولا أن أزاح العبد الستارة الفاصلة بين الصالون وغرفة العمل ( التابلينوم )، فلمحا أولوس بلاوتيوس يقبل مسرعاً نحوها.

كان قد صار في طور من العمر ينحدر نحو المغيب. أشيب لكنه مليء بعنفوان الشباب. حيوي الوجه، صغير الرأس، لكنه أشبه برأس نسر، إلا أنه في الوقت نفسه قد عكس قليلاً من الدهشة والقلق بسبب هذه الزيارة المفاجئة لصديقه نيرون وصاحبه، و واحد من ثقته.

لكن بترونيوس كان رجلاً حاد الذكاء، ذائع الصيت، لا يعير أكثرًا مثل ذلك. فما أن أنهى التحيات الأولية المألوفة، حتى تخلى عن حالة التوتر المحتملة، وبادر إلى القول بأنه جاء كي يعبر عن امتنانه على ما

لاقاه ابن عمته من عناية علاجية كريمة في هذا المنزل، وأن الامتنان ولا شيء غير الامتنان، هو دافعه الاوحد لهذه الزيارة المستحقة التي تعرضها المعرفة القديمة بأولوس.

ولقد أكد أولوس من جهته أنه زائر عزيز ومرحب به في منزله، وأما ما يخص الامتنان، فالاجدر أن أولوس نفسه يدين بذلك لبترونيوس، رغم إن بترونيوس لم يخمن ما يدعو أولوس لهذا الامتنان.

وواقع الحال أن بترونيوس لم يخمن شيئاً ولم يجده نفعاً أنه شخص، وأدار حدقيه البنيتين وركز تفكيره ليتذكر أبسط الخدمات التي خص بها أولوس أو حتى أي أحد غيره، فلم يخطر له شيء.

أجاب أولوس :

- كم أحب وأقدر فيسباسيانوس الذي أنقذت حياته. عندما ساء خطه ذات مرة، والمت به نوبة نعاس جعلته يكبو في أثناء إنصاته لأشعار القيصر.

فقال بترونيوس :

- بل من حسن حظه أنه لم يستمع إلى تلك الاشعار. لكني لا أنكر أنها كبوة تفتح الباب مشرعاً لدخول الحظ السيء. لقد أصر صاحب اللحية الحمراء أن يرسل اليه كتبية من مئة مقاتل لذبحه.

- ولكنك يا بترونيوس قد سخرت منه.

- تماماً لا بل على العكس من ذلك، فقد قلت له : إن كان أورفيوس قد استطاع بالحانه أن ينوم الحيوانات الضارية، يكفيكم فخراً أنكم

قد نجحتم في تنويم فيسباسيانوس. من السهل توبيخ صاحب اللحية الحمراء شرط أن تمزج التوبيخ بكمية كافية من التملق والمداهنة. بوبيا التي تعشق أوغست الذي يخصنا نحن، تدرك ذلك جيداً.

أجاب أولوس :

- يؤسفني أننا نعيش أزمة كهذه. لقد فقدت سنين من أسناني الامامية. لهذا السبب أتحدث بشيء من الصغير. أحدهم في بريطانيا كسرها بحجر. ورغم ذلك فقد أمضيت أفضل أيام حياتي هناك.

فقاطعه فينيكوس قائلاً:

- لأنها كانت فترة الانتصارات.

لكن بترونيوس، متفادياً أن يخوض القائد الحربي العجوز حديثاً عن حروبه الغابرة، عمد إلى تغيير الموضوع، فقال:

- في القرب من برنست عثر الفلاحون على جرو ثعلب ميت برأسين، وحين هبت العاصفة الأخيرة، دمرت أحد أركان معبد لونا الهة القمر. وهذا يعتبر ظاهرة استثنائية، بالنظر إلى فترة أواخر الخريف. أحد العرافين أخبره بذلك، وأضاف إن كهنة المعبد، قد نجموا، تبعاً لذلك أن المدينة، أو بناء ضخيم على الأقل سوف يلحق به الدمار ولا يمكن تجنب الكارثة إلا بكثير من القرابين والاضاحي.

وشدّد أولوس وهو يسمع الحكاية، أنه لا يجوز التقليل من أهمية مثل هذه الظواهر، فالالهة قد تغضب لما هنالك من شرور هائلة، وتقوم بصب جام عصبيتها في كل مكان. وفي مثل هذه الظروف تكون القرابين هي الوسيلة المناسبة للتوسل إليها.

فأجاب بترونيوس :

- منزلك ليس كبيراً رغم أن إنسانا رفيع المكانة يقيم فيه . في حين أن منزلي ضخم جدا بالنظر إلى منزلة قاطنه، وإن كان صغيرا في واقع الحال . إن كان الأمر يعود إلى دمار مبنى يتميز بالضخامة، فهناك مثلا دو موس ترانسيتوريا منزل نيرون أتراه يستحق أن نقدم القرابين لتفادي دماره .

لم يجب أولوس ولقد أزعج تحفظه هذا بترونيوس، فاضطر لتغيير الموضوع مجدداً، فأخذ يفخ م في منزل أولوس ممتدحا الذائقة الجمالية الغالبة عليه .

فقال أولوس مفسرا الأمر

- منزل قديم لم أسع منذ ان ورثته إلى أي تغيير عليه .

كان منزلا مفتوحا على طوله منذ أن فتحت الستارة الفاصلة بين الأتريوم و التابليوم، فأمكن الاطلالة على الحديقة التي بدت لوحة فاتحة ذات إطار قاتم . سمعت ضحكات أطفال قادمة من هناك .

قال بترونيوس :

- عفوا أيها القائد! دعنا نسمع عن كذب هذه الضحكات الصادقة النادرة هذه الايام .

والفقه بلاوتوس، ونهض واقفا:

- قلبيا . صغيري أولوس يلعب الكرة مع ليفيا . أما ما يخص الضحك، يا بترونيوس، فأزعم أن حياتك كلها ضحك .

فرد بترونيوس :

- الحياة مضحكة. فأنا إذن أضحك، لكن هذه الضحكات شيء مختلف كلياً.

وأضاف فينيكوس :

- على أية حال، بترونيوس لا يضحك خلال النهار، بل الليل بطوله.

وساروا يتحدثون، حتى بلغوا الحديقة حيث تلعب ليفيا والصغير أولوس الكرة. كان هنالك مجموعة من العبيد توزعت لالتقاط الكرة وإعادتها مجدداً اليهما. اختلس بترونيوس نظرة سريعة إلى ليفيا. وفيما راح أولوس الصغير لمجرد رؤيته فينيكوس، يجري نحوه كي يحييه، أحنى الآخر رأسه للفتاة الفاتنة التي وقفت والكرة بيدها، لاهثة محمّرة خجلاً أمامه.

لكن بومبونيا غراسينا كانت في الحديقة جالسة في ركنها المغطى بالبلاب، والعريش البري، وشجيرات العسل ذات الازهار المكتظة بالرحيق، فانعطفوا عليها يحيونها. لم يكن بترونيوس يؤم هذا المنزل، لكنه كان يعرف بومبونيا، فقد كان يلتقيها عند أنتيستنال بنت روبلوس بلاوتوس، ثم عند عائلة سينيكا، وعند بوليو كذلك. لم يتمكن من كتم اندهاشه النوعي الذي أثاره وجه المرأة البهيج الحزين، وما يتبدى في هيئتها، وحرركاتها، وكلماتها من نبل. لقد سبق و شوشت هذه المرأة رأيه في النساء، وأثبتت له خطاه في التعميم.

والان حين عبر عن امتنانه بخصوص علاج فينيكوس صدرت منه بعض الكلمات الاسرة التي لا تخطر له مثلاً حين يتحدث إلى كاليفيا، أو سكريبونيا، أو سولينا، أو إلى كبريات سيدات العالم الاخريات. بعد

التحيّة راح يفصح عن شكواه من ندرة لقاءه بومبونيا، سواء في السيرك أو الامغيتريوم، فيما كان رد المرأة وقد أراحت يدها فوق يد زوجها - لقد هزمتنا، وصار كل منا يفضل الركون إلى الهدوء في المنزل.

كان بترونيوس راغبا في الرد، لولا أن استبقه أولوس مضييفا بصفير في صوته :

- صرنا نجد أنفسنا غريبين بين أولئك الناس الذي يخصون الهتهم الرومانيّة بأسماء إغريقيّة.

فعلق بترونيوس قائلاً:

- باتت الالهة، منذ فترة، الهة طنانة لا تملك الا إسمها. وبما أننا قد تعلمنا فن الخطابة، والبلاغة من الإغريق، فالاسهل حتى بالنسبة لي، أن أقول هيرا وليس يونو.

والتفت نحو بومبونيا؛ في إشارة منه إلى أنه يتعذر عليه ذكر الهة أخرى. ثم حاول أن يدحض ما قالته المرأة عن الشيخوخة والهرم

- صحيح أن البشر سرعان ما يشيخون، لكن ذلك ينطبق على أولئك الذين يعيشون حياة مختلفة تماماً ولكن بغض النظر عن ذلك، هنالك وجوه يبدو أن ساتورنوس قد تناساها.

كان ما قاله بترونيوس ينطوي على قدر كبير من الصدق، لأن بومبونيا التي قررت العزوف إلى حياة الراحة، قد حافظت على صحة بشرتها. ونظرا لضالة حجم وجهها ورأسها فقد بدت امرأة في عز شبابها على الرغم من لباسها القاتم، و رصانتها، وما يكتنفها من حزن.

كان أولوس الصغير قد وطد صداقته بفينيكوس خلال إقامته هنا. تقدم منه الان، والح عليه للعب معها. تبعته ليفيا، وتوقفت تحت عريشة اللبلاب. ورهجت بقع ضوئية فوق وجهها، فبدت أكثر حسنا مما رأها في المرة الاولى حورية من حوريات الغابات حقا. وبما أنه لم يكل مها حتى هذه اللحظة، فقد نهض من مكانه، وأحنى رأسه أمام الفتاة. وبدلا من عبارات السلام المعتادة ردد كلمات أوديسيوس في تحية ناوسيكاً

أتساءل يا سيدتي من تكونين؟

الهة؟ أم كائن أرضي فانٍ؟

إن كنت الهة من سكان السماء الواسعة

فأنت ابنة الاله زيوس.

وأنا أشبهك ب أرايميس إبداعا وهيئة.

وإن كنت كائنا فانيا يقطن الأرض

فأبوك سعيد أضعافا ثلاثة.

والسيدة أمك سعيدة

و إخوتك أيضاً أضعافا ثلاثة...

حتى أن غزل الشاب الراقي قد لاقى استحسانا من قبل بومبونيا، لكنه كان سببا في توهج وجه ليفيا بالإحمرار، وهي تصغي مرتبكة إلى ما يقول، دون أن تجرؤ على النظر في وجهه. ولكن ابتسامة ناعمة بدأت ترسم شيئا فشيئا على زاويتي فمها، وبداء على وجهها حياء أنثوي مشوب برغبة منها في الرد وكان للأخيرة الغلبة. التقطت



أنفاسها، وأجابت على لسان ناوسيكاً كما لو تستظهر درسا

أيها الغريب الطيب

لست زائفاً خسيساً

ولا فاقد العقل أحمق

ثم انتحرت جانبا وجرت كطائر جافل.

حان الآن دور اندهال بترونيوس. لم يساوره ظن بأنه سوف يسمع أشعارا الهرميروس من فم فتاة صغيرة. أخبره فينيكوس أنها من أصل بربري. التفت إلى بومبونيا بنظرة متسائلة. لكن المرأة لم يكن بوسعها أن تجيب، لأنها في هذه اللحظة، كانت تلتفت والبسمة على شفثيها لترى أي فخار ينعكس على وجه أولوس العجوز.

لكن أولوس لم يكن يحتمل أن يكتم سعادته. كان واضحا للجميع أنه يحب ليفيا وكأنها من صلبه، ويعتبرها قمة في التهذيب، بالرغم من النزعة الرومانية القديمة التي تدعو إلى محاربة اللغة الإغريقية، ومنع انتشارها. وقال ملتفتا نحو بترونيوس :

- في المنزل مرتب إغريقي يقوم بتعليم ولدنا بحضور الفتاة التي تستمع إلى الدروس كافة. لقد أحبناهما كثيرا.

لقى بترونيوس نظرة نحو الحديقة عبر فروع العريش، فلمح اللاعبين الثلاثة. كان فينيكوس قد خلع ثوبه الروماني الخارجي مبقيا على سترته القصيرة، وراح يرمي بالكرة التي حاولت ليفيا المواجهة له أن تلتقطها بيديها. في بادئ الأمر، لم توقع الفتاة تأثيرا ملموسا في نفس بترونيوس، لانه رآها شديدة النحول. ولكنه حين أمعن النظر

فيها عن كذب، تخيل كيف يبدو أن تكون عند انبلاج الفجر، وأدرك، كفنان، أنه ثمة شيئاً استثنائياً يكمن في قدها، وروحها. كل ما فيها قد أثار انتباهه، وثم نه عالياً : وجهها الوردي الشفاف. شفتاها النضيرتان كأنما تنطبقان على قبلة. عيناها الزرقاوان كالبحر. جبينها المرمرى. صفائرها الداكنة الكثيفة. حيدها الناعم. كتفاها الرب انيان. قامتها المشوقة المثنية. صباها النضير نضارة الازاهير المتبرعمة في شهر أيار. إستيقظ فيه الفنان، وعابد الجمال، وسرعان ما أوحى اليه بأنه يمكن كتابة الربيع أسفل تمثال هذه الفتاة. وخطرت له فجأة كريسوتيميس فأطلق ضحكة موحشة، لأن حبيته، بالرغم من النثار الذهبي فوق شعرها، وبالرغم من كحل رموشها الفاحم، صارت تبدو مثل زهرة ذابلة فقدت عبيرها، بعد أن كان محط حسد روما بأسرها على الحبيبة كريسوتيميس هذه. وتذكر بوبيا أيضاً، فلم يجد هذه المرأة الشهيرة الذائعة الصيت، الا تمثالاً شمعيًا لا روح فيه أما هذه الفتاة فمخلوق يفوح بالربيع، وتقيم فيها أيضاً بسيشة المشعة، فيشع جسدها الوردي نورا كنور المصابيح.

فكر في نفسه

- فينيكوس محق. و كريسوتيميس عجوز... عجوز... مثل ترويا.

ثم التفت إلى بومبونيا، وقال مشيراً ناحية الحديقة.

- أدركت الان أن منزلكما بوجود هذين الطفلين، أحب اليكما من مادب البلاتينوس، والسيرك.

فأجابت المرأة وقد أدارت وجهها نحو أولوس الصغير، وليفيا

- تماماً.

أما القائد العجوز فقد روى قصة ليفيا، وقصة الليغوس الشماليين،  
كما سمعها منذ سنوات على لسان أتليوهيستر.

و حين أنهى أولئك اللعب، قاموا بنزهة على الدروب الرملية  
للحديقة، فبدوا أشبه بثلاثة تماثيل بيضاء تنفصل عن الخلفية القائمة  
لأشجار السرو، والاس. كانت ليفيا تمسك بأولوس الصغير، وتقوده.

بعد النزهة النوعية جلسوا في وسط الحديقة على مقعد قرب  
حديقة الاسماك. وبعد لحظات قفز أولوس يعبث مع الاسماك في الماء  
الشفاف فيما استأنف فينيكوس محادثته التي بدأها خلال النزهة. قال  
بصوت مرتعش عميق :

- هذا ما حصل. ما إن خلعت ثياب الطفولة حتى التحقت بالفيلق  
الاسيوي. لم يتسن لي أن أتعرف على المدينة، والحياة، والحب. تعلمت  
بعض الاشعار الاناكرينية، وشيئاً من الشعر الهوارسي، لكنني لا أجيد  
القاء الشعر مثل بترونيوس، خاصة إذا ما أوقعتني الدهول في ارتباك  
يمنعني من العثور على الكلمات. التحقت بمدرسة موسونيوس الذي  
علمني أن أساس السعادة أن يريد الانسان ما تريده الالهة : أي أن  
السعادة مرتبطة بإرادتنا. ولكنني أعتقد أن هنالك سعادة أعظم وأثمن،  
سعادة أخرى غير مرتبطة بإرادتنا، لا يمنحها سوى الحب. وهي التي  
ينشدها الالهة أنفسهم. إذن يا ليفيا أنا أيضاً لم أذق طعم الحب إلى  
الآن، وأنا كما الالهة أبحث عن يمنحني هذه السعادة.

سكت. ولفترة لم تسمع الا رقرقة الماء بما يلقيه أولوس الصغير من  
حجارة في البركة ليحفل الاسماك. وبعد قليل تكلم فينيكوس ثانية  
بصوت أكثر هدوءاً وطلاوة

- هل تعرفين تيتوس بن فيسباسيانوس؟ يقال إنه ما إن بدأ سن البلوغ حتى وقع في حب بيرنيس، وتيم فيها. وأنا كذلك، يا ليفيا أستطيع أن أحب إلى درجة الهيام... الثراء، والشهرة، والنفوذ، كل ذلك دخان لا قيمة له. الثري يجد من هو أكثر ثراء منه، والشهرة تغطي عليها شهرة الآخرين وتطفئ لمعانها. والسطوة والنفوذ يقهرهما سلطان أشد منهما. لكن هل بوسع القيصر، أو حتى أي اله كان، ان يكون أكثر سعادة، أو أن يشعر بمتعة تفوق متعته حين يقبل فم حبيبته؟ الحب إذن يجعلنا في مصاف الالهة.

آه يا ليفيا!

كانت الفتاة تصغي اليه بقلق مشوب بالدهشة، كأنما تصغي إلى ناي أو فيثار إغريقي. شعرت ان فينيكوس يردد لحنا غريبا يخترق سمعها، وأن دوارا يسرع نبضات قلبها، وشيئا من الخوف، وسعادة غامضة تساورها رغم ذلك. وأحست أيضاً أن الشاب يتكلم بأمور كامنة فيها منذ مدة، لكنها لم تكتشفها أو تفصح عنها، و شعرت أن فينيكوس قد أيقظ فيها ما كان نائماً لديها، حتى جاءت اللحظة، وانكشف الحلم الضبابي عن صورة أكثر وضوحاً، وروعة، ولطافة.

في أثناء ذلك، كانت الشمس قد انزاحت من فوق التيرس، فملأت أشعتها الحمراء الجو كله، وتوارت فوق غابة الصنوبر. وقد أفاقت من الحلم، رفعت ليفيا عينيها الزرقاوين نحو فينيكوس، فمال الشاب اليها بكل ما يرتعش في عينيه من ضراعة، ليراها في ضوء الغروب أجمل من البشر، ومن الهة الإغريق والرومان التي تزين تماثيلها واجهات المعابد.

أمسك فينيكوس بأصابعه ساعد الفتاة برفق، وسألها:

- الم تكتشفي يا ليفيا لم أقول لك كل ذلك؟

فأجابت الفتاة هامسة

- لا.

لكنه لم يصدقها ف جذب يدها نحوه بقوة. وكان يود لو يضعها عند موقع قلبه الذي بدأ يطرق كالمطرقة لشدة المشاعر التي تنتابه تجاه الفتاة، وتجلده. كان يتأهب للروح بعبارات حارة، لولا أن أطل أولوس العجوز قادما في الممشى اللبلابي. واقترب منهما وقال:

- مالت الشمس للمغيب. إحترسا من برودة المساء ولا تمازح لبيتنا الهة الموت.

فأجاب فينيكوس:

- لا. لم أرتد ردائي الخارجي حتى الان، ومع ذلك لم أشعر ببرودة الجو.

فأجاب المحارب العجوز

- لا يبدو من قرص الشمس خلف الجبال سوى أقل من نصفه. الجو يشبه طقس سيسيليا اللطيف، حيث كل مساء يتجمهر الناس في ساحات الاسواق، للغناء معا مودعين فوبوس العائدة إلى مبيتها.

نسي أنه قد حذرهما من لبيتنا منذ قليل، فأخذ يحدثهما عن سيسيليا، وما يعود له فيها من أملاك، وكيف مارس هناك الزراعة التي عشقها كثيرا. وقال إنه فكر كثيرا أن يرجع إلى سيسيليا، ويمضي هنالك ما تبقى من حياته بسلام. حسب المرء ما ناله من قشرة جليدية غطت رأسه في صقيع الشتاء. لم تتساقط أوراق الاشجار بعد، وما زالت

السماء صاحبة تنشر رحمتها فوق المدينة. لكن متى اصفرت الاشجار  
وسقط الثلج فوق الجبال الالبانية، وأرسلت الآلهة عواصفها الشديدة  
في كامبانيا، من يدري حينذاك إن كان السكان لن يهجروها راحلين  
إلى أعشاشهم في الارياف.

سأل فينيكوس مبدياً قلقه المفاجئ

- ولديك الرغبة في مغادرة روما، ورميها وراء ظهرك.

فأجاب أولوس :

- رغبتى قائمة منذ مدة طويلة. فالحب هنالك أكثر استقراراً وأماناً.

و راح من جديد يفخر بما يملك هنالك من أطيان، وقطعان، ومنزل  
في كنف الاشجار، وخلايا نحل تعجّ بها منحدرات سفوحه المليئة  
بالزعر البري. لكن فينيكوس لم يكن مكترثاً بهذا الفيض من الملكية  
الرعوية، بل كان يفكر بأمر وحيد يشغله : يمكن أن يفقد ليفيا، فكان  
يكثف نظراته المتوسلة إلى بترونيوس آملاً منه النجدة والعون.

خلال ذلك، كان بترونيوس جالساً إلى جانب بومبونيا، يستمتع  
بالشمس الغاربة، والحديقة، ومشهد الواقفين قرب بركة الاسماك التي  
كانت ملابسهم البيضاء ترهج ذهبية تحت أنوار المساء، أمام الخلفية  
الداكنة لشجيرات الاس. بدأ وهج الغروب يتخذ في السماء لونه  
الارجواني، ثم البنفسجي، ويتلألأ الأوبال بألوانه البديعة، إلى أن ساد  
في السماء لونها البنفسجي في النهاية. كانت خطوط السرو الداكنة،  
ما تزال تبدو أكثر وضوحاً، حتى خيمت سكينه المساء على البشر،  
والاشجار، والحديقة.

لقد أذهل بترونيوس هذا الهدوء، والسكينة. وانعكس على وجوه

كل من بومبونيا، و الوس العجوز، والصبيين، و ليفيا، ما لم يلمحه من قبل، على وجوه من يلتقيهم أو يحيطون به كل ليلة، الذين يستمدون أضواءهم وما يكتنفهم من سكينة وبشاشة، من طبيعة الحياة المعاشة هنا، وما لها عليهم بحكم الضرورة من تأثير.

وخطر له بشيء من الاستغراب : هل ثمة يا ترى جانب من الجمال والمتعة لم يتذوقه إلى الان، هو الذي نذر حياته كلها سعياً وراء المتعة والجمال؟ لم يسعه التكتم على ما لمع في ذهنه، فالتفت إلى بومونيا قائلاً

- كنت أوازن في نفسي، الفروق الكبيرة بين عالمكم، والعالم الذي يسيطر عليه نيرون.

رفعت المرأة وجهها الناعم نحو وهج الغروب، وأجابت بكل بساطة :

- ليس نيرون من يسيطر على العالم بل الله.

ساد سكون لحظي.

ثم سمعت خطوات القائد العجوز، و فينيكوس، و ليفيا، و أولوس الصغير، تقترب نحوهما لكن بترونيوس، قبل وصولهم اليهما، توجه إلى بومبونيا زوجة الوس بلاوتيوس بالسؤال :

- أنت إذن تؤمنين بالالهة يا بومبونيا؟

- أنا أوؤمن بالاله الواحد الحق الكلي القدرة.

- تؤمن باله حق كلي القدرة.

كرر بترونيوس وهو يجلس إلى جانب فينيكوس في الهودج، ثم تابع يقول:

- إن كان إلهها كلي القدرة، هو إذن سيد الحياة والموت، وإن كان حقاً، فالحاقه الموت بنا حق كذلك. ولكن ما السبب الذي يدعو بومبونيا تقيم الحداد على يوليا؟

إنها بحدادها على يوليا إنما تدين الهها. أجدني مرغماً على تكرار هذا الاستنتاج أمام قردنا صاحب اللحية الحمراء. أزعج أنني لا أقل معرفة في الديالكتيك عن سقراط. ما يخص النساء، أنا أوافق على أن كل واحدة منهن تملك ثلاثة أزواج أو أربعة. لكنهن يفتقرن إلى أية روح عاقلة. أي لوغوس تتمتع به بومبونيا، سينيكا أو كورنوس؟ ويمكنني أن أستشهد بأخريات كثيرات كذلك مثل كسينوفانس، بارمانيوس، زينو، بلاتو اللواتي تسأم أرواحهن أرجاء العالم الآخر كالحساسين في الاقفاص. كنت أريد أن أكلم أولوس بأمر آخر تماماً. لكن لو كلمتهما مباشرة عن سبب زيارتنا لهما، لجن جنونهما حسب ظني. لم أملك الشجاعة، يا فينيكوس. أتصدق أنني لم أجروء على هذه المفاتحة؟ الطاووس طائر رائع، لكنه يصيح على نحو مرعب. خفت من الصياح. أقدر خيارك عالياً. فجر "وردي الاصابع". أتدري بما



ذكرتني أيضاً؟ الربيع. لكن ليس ربيعنا في إيطاليا، حيث تغطي الازهار والبراعم أشجار التفاح، وتبقى أشجار الزيتون رمادية، مثلما كانت قبل إزهارها. لكن ذلك الربيع الذي صادفته في هلفتيا. الربيع النضير، الطري، الكلي، الاخضرار. أنت تستأهل حتى سيلينا الهة القمر بذاتها، يا صديقي فينيكوس، لكن ليكن في علمك أنك تحب ديانا، وأن بوسع أولوس و بومبونيا أن يمزقك إربا، كما قامت الكلاب بتمزيق اکتاون.

ظل فينيكوس يصغي مطرق الرأس حتى دفعه الشوق ليقول بصوت كسير:

- كنت مشتاقا اليها طوال الوقت، لكن اشتياقي صار الان على أشده. حين أمسكت يدها سرت النار عبر جسدي كله... ينبغي أن أفوز بها. لو كنت زيوس لعانقتها في صورة غيمة، كما عانق زيوس إيو، أو لهطلت عليها كالمطر، كما فعل زيوس مع دانا. بي رغبة أن أقبل فمها حتى أوجعها، وتتأوه الما وأن تصرخ بين ذراعي. أتمنى لو أقتل أولوس، و بومبونيا، ثم أحملها على ذراعي، وأمضي بها إلى المنزل. لن أنام هذه الليلة. سوف أجلد اليوم كل عبيدي لأسمع آهات توجعهم.

فقال بترونيوس :

- هدى من روعك! هدى من روعك!

- لا يهم. ينبغي أن أحظى بها. لجأت اليك بالمشورة، لكنك لا تستطيع أن تسانديني. سوف أساند نفسي. أولوس يعتبر ليفيا ابنته فلماذا أنظر اليها كواحدة من الرقيق؟ إن اضطر الأمر سأزوجها.

- هدى من روعك، آية عاقبة هذه! نحن لا نوثق البرابرة ونجرهم وراء عرباتنا، لكي نتخذ من بناتهم زوجات لنا. حذار أن تتطرف في

سلوكك. وابتحث عن الوسائل البسيطة التي تلقى قبولا. إمنحني ما يكفي لي ولك من الوقت للتفكير. أنا كذلك حظيت بكريسوميثيس بنت جوبيتر، لكنني لم أتخذها زوجة لي، كما لم يتخذ نيرون من أكتي زوجة له، وإن كانت ابنة الملك أتالوس. إهدأ... وفكر أولاً ما إذا كانت هذه العائلة يمكن أن تتخلى عن الفتاة. واعلم تمام العلم أنك لست وحدك الذي يحترق، إنما إيروس قد أشعل نار الحرق في نفسها أيضاً... أنا رأيتها... و عليك أن تثق بي... كن صبورا. لكل طريقته، وأنا اليوم أوليت الأمر أكثر مما يستوجب من التفكير. وقد أرهقت. لكنني أعدك بأنني سأفكر بحبك يوم غد من جديد. بترونيوس ليس بترونيوس إن لم يجد طريقة مناسبة.

ورجعا إلى صمتهما.

بعد قليل قال فينيكوس بنبرة أكثر هدوءا:

- شكرا. وأرجو أن يكون فورتونا كريما معك.

- تجمل بالصبر.

- أين تأخذنا الان؟

- إلى كريسوميثيس

- ماأسعدك، وحيبتك هي لك.

- أنا. أتدري ما الذي يسليني أيضاً في كريسوميثيس؟ خيانتها لي مع معتوقني ثاوكليس المغني. تظن أنني لا أعرف بالأمر. لقد أحببتها ذات يوم، لكن ما يسليني الان افتراءاتها وحماقاتنها. رافقني لزيارتها.

إن حاولت مغازلتك، وراحت تكتب على الطاولة أحرفاً بإصبعها  
المغمسة بالبيد، فلا يخطر لك أنني أغار.

وانطلقا إلى كريسوتميس.

لكن بترونيوس، ويده فوق كتف فينيكوس في الباحة، قال

- أبشر! أظنني أكتشف الطريقة.

- جازتك الالهة!

- أجل إنها طريقة مقبولة. أتدري ما هي يا عزيزي ماركوس؟

- أسمعك. يا أثيناى!

- بعد أيام سوف تستمتع ليفيا الرب انية في بيتك بحبات ديمتر الهه  
الزراعة في حفل الزفاف.

فصاح فينيكوس بحماسة:

- أنت أعظم من قيصر.

ووفى بترونيوس بوعدده.

في اليوم التالي لزيارة كريسوتميس، نام طوال النهار، ثم في المساء قصد البالاتينوس حيث كان له حديث مغلق مع نيرون. وسبب ذلك عائد إلى ظهور أكثر من عشرة حراس قيصريين، وقائدهم أمام منزل أولوس بلاوتيسوس لليوم الثالث على التوالي.

كانت أوقاتا مضطربة عصيبة. دوريّة متكررة من هذا النوع تحمل معها أنباء الموت. وهكذا، إذن، عندما دق قائد المئة بالمطرقة باب منزل أولوس، وأبلغ ناظر الأتريوم أن هناك جندا في الباحة، دب الذعر الشديد، وملاً سائر أنحاء المنزل.

فالتمت العائلة على الفور، وسرعان ما تحلقت حول العجوز، وقد أدركت أنه المستهدف الأول في هذه الحملة التهديدية. لفت بومبونيا عنق زوجها، والتصقت به بكل ما لديها من قوة، وشفتها المزرقتان ترتجفان ارتجافات متلاحقة سريعة، وتهدجان بكلام خافت. فيما راحت ليفيا الشاحبة الوجه، تكيل يد بلاوتيسوس بالقبلات. وتشبث أولوس الصغير بثوب والده. وفي الممرات، وغرف الخادومات في الأعلى، وفي جناح إقامة الخدم، وسائر أنحاء المنزل، كان الجميع رقيقا ورقيقات يرددون "ويلي، ويلي، يالسوء الحظ". هيو، هيو، مي ميسريوم. وانفجرت النسوة بالبكاء، وكان من بينهن من دفنت وجهها بيديها، وخرجت أخريات يغطين رؤوسهن بالمناديل.

وحده القائد الحربي العجوز من حافظ على رباطة جأشه، وبقي هادئاً.

فهو الذي اعتاد عبر سنوات طويلة، أن يكون في مواجهة الموت. كل ما طرأ عليه أن رأسه الصقري الصغير قد قسا وتصلب كأنما قد نحت من الصخر. وبعد وقت قصير أخذ ما بدر من صراخ، وقام بتفريق الخدم، ثم قال

- دعيني يا بومبونيا. إن كان هذا يعني نهاية حياتي فسيكون لدينا الوقت الكافي للوداع.

وأبعدها عنه برفق، بينما قالت المرأة :

- أدعُ الله يا أولوس أن يجعل مصيرنا مشتركاً.

ثم جثت على ركبتها، وأخذت تصلي بمطلق إيمان يولده الخوف على شخص عزيز.

عبر أولوس إلى الأتريوم حيث قائد الدورية في انتظاره. كان غايوس هاستا العجوز الأدنى رتبة من أولوس ورفيقه في الحروب البريطانية.

حياه قائلاً:

- تحياتي لك، أيها القائد ! أحمل لك من القيصر أمراً وتحيّة. جئتك باسمه، واليك هذه اللوائح الممهورة بالختم إثباتاً لذلك.

فأجابه أولوس :

- أشكر القيصر على تحيته لي. وأنا مستعد لتنفيذ أمره. شكرالك يا

هاستا.

قل لي ما مضمونه؟

بدأ هاستا بالكلام :

- لقد بلغ القيصر أن ابنة ملك اليغوس تقيم في منزلك. كان الملك قد أودعها لدى الرومانيين قبل أن يفارق الحياة، ضماناً لهم بعدم التعدي على الحدود الرومانيّة. و نيرون الرباني، أيها القائد، يخصك بالشكر على استضافتك الكريمة للفتاة في منزلك، طوال السنوات الفائتة ، وليس لديه الرغبة لتحميلك المزيد من أعبائها. وباعتبار الفتاة رهينة، فهي تحت رعاية القيصر، ومجلس الشيوخ، وهو يأمرك بتسليمها لي.

كان أكثر ما يميز أولوس أنه كان عسكرياً ورجلاً مدرباً عاتياً. فلم يكن إزاء أي أمر من الأوامر لينطق بما من شأنه فضح ألامه، أو ليهدر الكلام في شكوى لا فائدة منها. لكن تقطية قدار تسمت على جبينه في المقابل، نمت عن الغضب والالم. وهي تقطية طالما القت الذعر في نفوس الخيالة البريطانيين. ولقد تبدى هذا الذعر جلياً الآن فوق وجه هاستا. ورغم ذلك فقد شعر أولوس بعجزه الشديد إزاء الأمر القيصري. أمعن النظر باللوائح والختم، ثم رفع عينيه نحو القائد العجوز وقال بهدوء :

- انتظرنى في الأتريوم يا هاستا، ريثما تستلم الرهينة.

ثم عبر إلى الجهة الأخرى من المنزل، ودخل إلى غرفة حيث كانت بومبونيا، وليفيا، وأولوس الصغير، ينتظرونه بقلق وفراغ صبر.

- بادرهم بالقول :

- لا الموت، ولا النفي إلى الجزر النائبة في وارد أن يهدد أحداً.

القيصر أرسل الينا نبأ سيئ يخصك يا ليفيا.

فصرخت بومبونيا ذاهلة :

- ليفيا؟

فأجاب أولوس :

- أجل

ثم التفت إلى الفتاة وقال

- ليفيا! لقد رعيناك وأنت طفلة. وأحبيناك أنا و بومبونيا، كما لو كنت ابنتنا، لكنك تعلمين أنك لست ابنتنا نحن. أنت رهينة قدمها بلدكم لروما، وأنت من رعايا القيصر، وهو يسترّدك الآن منا.

كان القائد يتكلم بغاية الهدوء، لكن بصوت غريب غير مالوف. وكانت ليفيا تنصت اليه مطبقة عينيها نصف إطباقه، كأنما لاتفهم ما يقول. وشحب وجه بومبونيا. وفي نهاية المشى ظهرت النسوة مدعورات من جديد.

وجهر أولوس بقوله :

- علينا تنفيذ إرادة القيصر.

وصرخت بومبونيا ضامة الفتاة كأنما تريد حمايتها.

- أولوس ! الافضل لها أن تموت.

لكن ليفيا وقد التحمت بصدر بومبونيا، أخذت تردد

" ياأمي، ياأمي "، مرات ومرات لعجزها عن النطق بأية عبارة أخرى.

وشى وجه أولوس بقسمات غاضبة أليمة، ثم قال متجهما

- لو كنت وحيدا أحيا بدونك لما تخليت عن الفتاة وأنا حي، ولكني لا أملك الحق في أن أضحي بك وبطفلنا الذي تنتظره أزمنة قد تكون أكثر سعادة. سأذهب اليوم إلى القيصر، أتوسل إليه أن يلغي أمره هذا. فهل سيرضى؟ لا أدري حتى ذلك الوقت. أتمنى لك كل العافية يا ليفيا. ولا تنسي أنني و بومبونيا قد باركنا ذلك اليوم الذي وطئت فيه منزلنا. ثم وضع يده على رأس الفتاة. ولم يجده نفعاً أنه حاول بكل ما لديه من طاقة أن يحافظ على اتزانه فلم يقو على أن يتمالك نفسه، حين التفتت إليه الفتاة بعينين مغرورتين بالدموع، ونطق بنبرة الم أبوي عميق:

- السماء معك، يابهجة قلوبنا، وضوء عيوننا.

وخرج مسرعا إلى الأتريوم

في أثناء ذلك قادت بومبونيا الفتاة إلى الكوبيكولوم، وحاولت تهدئتها، ومواساتها، والشد من أزرها بعبارات مستخدمة على نحو خاص هنا، حيث مازال معبد المنزل قائما في الجوار، ومازال أولوس بلاوتيوس المخلص لعقيدة الاجداد، يقدم فيه قرابينه للالهة حامية المنزل. حان وقت الاختبار، وبلغ الأمر محكا مفصليا فيما مضى قام فرجينوس بطعن ابنته في قلبها كي يحررها من أبيوس، وضحت لوكرتيا بحياتها غسلها لعارها. منزل القيصر مغارة للعار، والشرور، والاثم، " لكننا ندرك يا ليفيا، أنه ليس من حقنا أن نرفع أيادنا ضد أنفسنا ". هذا هو واقع الحال



والأكثر جدارة هو من يخرج من بؤرة الفساد بكامل نقائه. الأرض تشبه بؤرة فساد، والحياة عليها لحسن الحظ، مجرد غمضة عين، ولا يمكن الانبعاث إلا من القبر الذي لا سلطان عليه لنيرون، بل للقدرة الرؤوم التي تمنح السعادة والسرور بدلا من الألم والدموع.

ثم أخذت تتحدث عن نفسها، أجل إنها هادئة ومطمئنة، لكن فؤادها لا يخلو من الجراح الموجهة. كان في عينيها غشاوة، ولم يصب فيهما نبع النور بعد، حتى ابناها لا يجوز أن تقوم بتنشئته بقول الحقيقة له. لكن لا بد أن تأتي اللحظة التي سينفصل فيها عنهما، وسيكون وقع الانفصال أشد مرارة مما يعانيونه الآن، فليس بمقدورها أن تتصور كيف سيكون ابناها سعيدا بدونهما. لكم أمضت لياليها باكية، ولكم أمضت فترات منها تصلي. لكن أوجاعها هذه هبة منها في سبيل الله. إنها تنتظر وتؤمن، والآن، وقد نالتها صدمة جديدة، وفعل الأمر القيصري فعله مع الفتاة الغالية التي سماها أولوس نور العينين، مازالت على إيمانها لأنها تعتقد بوجود قدرة أعظم من سلطان نيرون ورأفة أشد من شروره.

وضمت رأس الفتاة الصغيرة بحرقه إلى صدرها، وظلت وقتا طويلاً على هذه الحال، حتى قالت أخيراً:

- أنا آسفة يا أمي. آسفة يا أبي، ويا أخي الصغير. لكنني أعلم أن الاعتراض والمجابهة لا ينفعان في شيء، بل يؤديان إلى فقدانكما.

لكنني أعد أنني لن أنسى، وأنا في منزل القيصر، ما قلته لي. ولفت ذراعها حول عنق بومبونيا، ثم اتجهت إلى الغرفة حيث قامت بتوديع أولوس الصغير، والمعلم الإغريقي العجوز، والخادمة التي رعتها. ثم كل الأرقاء في المنزل. أحد هؤلاء الأرقاء ليغوي من قوم الفتاة، يطلق

عليه في دياره إسم أورشوس، وهو من الذين قدموا في ذلك الوقت مع أم ليفيا، ومجموعة الخدم إلى معسكر الرومان. دفع الان بنفسه أمام رجلي ليفيا، ومال نحو ركبتي بومبونيا يتوسل قائلاً:

- يا صاحبة السلطان ! دعوني أرافق سيدتي لأقوم بخدمتها، وأكون حارسها في منزل القيصر.

فأجابت بومبونيا

- لست عبدنا، بل عبد ليفيا. فهل سيسمح لك بالوصول إلى باب القيصر؟ وكيف ستكون حارسا لها؟

- لا أدري يا صاحبة السلطان. كل ما أعرفه أنني...

وصل أولوس للتو، وحين علم بما يجري، لم يقف عند رفض رغبة أورشوس، بل قال أن ليس من حقهما أن يحتفظا به هنا. أما ليفيا الرهينة فإنهما يرسلانها بناء على أوامر القيصر. وهم ملزمون أن يرسلوا معها سائر أفراد طاقمها الذي ينضوي تحت حكم القيصر.

وهمس في أذن بومبونيا قائلاً لها أن ترسل مع ليفيا ما تراه مناسباً من الرقيقات لأن قائد الدورية لن يمانع.

كان في ذلك ما يواسي ليفيا، وما هو مبعث سرور لبومبونيا، خاصة وأنها ستزودها بطاقم خدمي هي التي تختاره لها. فأرسلت إضافة إلى أورشوس مربيته الخاصة العجوز. وخصتها للحمام بإمرأتين جرمانيتين، ولتسريح شعرها بفتاتين قبرصيتين ماهرتين. لقد اقتصر اختيارها على أتباع التعاليم الجديدة. وبما أن أورشوس كان أيضاً من بين أولئك الاتباع، فقد تسنى لبومبونيا أن تعتمد على طاقم مشهود

بوفائه. والأمر الذي أسعدها أن بذور الحق سوق تنثر في منزل القيصر.

وكتبت أيضاً بعض الكلمات تضع فيها ليفيا تحت عناية أكتي معتوقة نيرون. لم تصادفها بومبونيا مرة في لقاءات أتباع التعاليم الجديدة، لكنها سمعت من أولئك أن أكتي لم ترفض لهم شيئاً، وأنها قارئة متحمسة لرسائل بولس الترسوسي.

وتعلم بومبونيا عنها أنها حرة نيرون الشابة تعاني حزناً شديداً وإنها فتاة تختلف كلياً عن سائر أفراد منزل نيرون وأنها الروح الطيبة للقيصر.

وعد هاستا أن يقدم الرسالة شخصياً لأكتي، واعتبر أن الطاقم المرافق حالة طبيعياً، فكيف لأميرة أن تكون دون حاشية.

حتى أنه قد استغرب قلة عدد المرافقين. لم يخلق هاستا معوقات إذن. كل ما هنالك أنه استعجل الانطلاق لكي لا يتهم بأنه لا ينفذ الأوامر بتلك الحماسة.

حانت لحظة الفراق، اغرورقت عينا بومبونيا، وعينا ليفيا بالدمع.

وضع أولوس يده مرة أخرى على رأس الفتاة، قبل أن يصطحبها الجنود إلى منزل القيصر، وسط صراخ أولوس الصغير، وتهديداته قائد الدورية بقبضته الصغيرة.

لكن القائد الحربي العجوز طلب الهودج، وقال لبومبونيا:

اسمعي ما أقوله يا بومبونيا. أنا ذاهب إلى القيصر، وأعلم أن لاجدوى في الأمر، وأعلم أيضاً أن كلام سينيكا لا يعني له شيئاً.

ورغم ذلك سأقصد سينيكا. في هذه الأيام سوفرونيوس، و

تيغاليينوس، و بترونيوس هم الاهم. أما بالنسبة للقيصر، فقد يكون لم يسمع بالقوم الليغوس.

وإذا ما كان علم أن ليفيا رهينة وطلبها على أساس ذلك، فلا بد أن أحدا قد أخبره بأمرها. فمن يكون المخبر؟ ليس عسيرا معرفة ذلك.

رفعت المرأة رأسها نحوه قائلة:

- تماماً

ساد صمت آني. ثم تابع القائد يقول :

- أنظري نتيجة ما يحصل عندما يدخل المرء إلى منزله شخصا قدرا عديم الضمير. اللعنة على تلك اللحظة التي اجتاز فيها فينيكوس عتبة منزلنا. هو الذي أتى بترونيوس إلينا. هم لا يريدون ليفيا الرهينة، بل الخليفة.

اشتد صفير صوته نتيجة ما اجتاحه من موجات الغضب، والحنق وشدة الألم على ابنته. اصطرع في نفسه لبعض الوقت، وكانت قبضته المشدودة تقول:

ما أقساه من صراع!

قال:

- حتى الان، كنت أحترم الالهة. في هذه اللحظة أقول: لا وجود لها في هذه العالم.

هنالك فرد شرير، ورهيب، ومخبول إسمه نيرون.

صاحت بومبونيا:

- أولوس ! نرون إذا ما قيس بالالهة ما هو الا قبضة تافهة من الغبار.

وراح الرجل يخبط بخطوات مديدة فوق بلاط الموازيك. لقد شهد خلال حياته كثيرا من الوقائع الجسيمة، ولكنه لم يالف أن يتخللها سوء فال ملحوظ لا يحسب له حساب أو خيبات كبرى ذات شأن.

كان الجندي العجوز أكثر تعلقا بليفيا مما كان يظن.

والآن، لم يقو على احتمال فكرة أنه يفقدها. شعر بوصمة العار، وأن يدا يحترقها قد تطاولت عليه. وشعر في الوقت نفسه أن قوته لا تساوي شيئاً مقارنة بقوى أولئك.

ولكنه بعد أن عبر عن غيظه الذي أربك أفكاره، قال:

- سأفترض أن بترونيوس لم يأخذها من أجل القيصر تجنبا لغضب بوبيا عليه، فقد استرجعها منها إذن من أجل فينيكوس.

سأعرف ذلك هذا اليوم.

وبعد قليل من الوقت أقله الهودج باتجاه القصر. وبقيت بومبونيا وحدها، فأسرعت نحو أولوس الصغير الذي فاقم من بكائه على فراق أخته، ومن تهديداته للقيصر.

كان أولوس محققاً حين ظن أنه لن يتمكن من المثول أمام نيرون.

كان رد هم أن القيصر والحاشية في حفل غنائي خاص بمن وجهت اليهم الدعوات. ومثل هذا الرد كان يعني أن يكف أولوس عن محاولاته المجيء إلى هنا حتى فيما يلي من المناسبات. بينما كان سينيكا، رغم مرضه وحماه، قد استقبل المحارب العجوز، بما يليق من حفاوة واحترام، وقال له بعد أن عرف الغرض من قدومه:

- أنصحك يا أولوس بلاوتيوس النبيل بأن تتكتم أمام القيصر، فلا تفصح له عن شعوري بوجعك، وأنني أود مساعدتك. لأن القيصر، لو خالجه بعض الظن بتعاطفي معك، لن يعيد ليفيا اليك، لسبب وحيد لا ثاني له هو معارضتي والوقوف ضدي.

كما حذره أيضاً من اللجوء إلى تيغالينوس أو فيتاليوس، أو فاتينيوس، حتى إن كان الأمر يسوى عندهم بالمال. لأنهم في الغالب، سوف يشون للقيصر، بمقدار أهمية ليفيا بالنسبة لكل من أولوس و بومبونيا، وعمدى جبهما لها، وعندئذ سوف يضعف احتمال إعادتها من بين يدي نيرون. ثم استأنف قائلاً.

- أنت سكت يا عزيزي بلاوتيوس. لقد لزمت الصمت على مدى سنوات طويلة. وقيصر لا يحب أولئك الذين يسكتون. كيف كان بمقدورك أن لا تتحمس لجماله وقوته، وغنائه، وأقواله، وفنه في قيادة

العربات، وأشعاره؟ كيف كان بمقدورك ألا تمجد موت بريتانيكوس،  
وألا تلقي خطبة تمدح فيها قاتل أمه؟ والآن تعبر عن رغبتك، وقبولك أن  
تخفق أو كتافيا ألا تملك المقدرة على النظر من حولك، وترانا كيف  
نعيش سعداء في ظل البلاط، ونتمتع بقدر كبير من الكفاية والرفاه.

ثم أنزل الإبريق المعدني عن خصره، وغرف ماء من النافورة، وتابع  
يقول:

- نيرون يتمتع بقلب فيه مسحة من الامتنان، يحبك لأنك خدمت  
روما، ونشرت إسمه في أنحاء الأرض، وهو يحبني لأنني كنت معلّمه  
في صباه. أنظر! أعرف أن هذا الماء ليس مسموماً، وأنا أشربه مطمئناً  
لكن حتى النبيذ الذي في بيتي مشكوك في أمره. فإن كنت ظمّانا  
فاشرب من هذا الماء الذي يأتينا في قنوات مائية من جبال الألب. فإن  
أرادوا تسميمنا عليهم أن يسمموا كل ينابيع روما. وكما ترى، بمقدور  
المرء أن يحيا بأمان في هذا العالم، وأن يبلغ شيخوخة آمنة مطمئنة.  
صحيح أنني مريض، لكن روحي هي المريضة، ليس جسدي.

وكان هذا صحيحاً. لم يكن لسينيكاً تلك القوة الروحية التي تمتع  
بها كورنوتس أو تريسيانوس. لم تكن حياته إذن إلا سلسلة من التنازلات  
أمام الخسة. لقد أدرك تماماً أن من يتبع مبادئ زينو الكيتيوني، عليه أن  
يسلك دربا أخرى تذيبه المرارات.

لكن القائد الحربي قطع خيط تلك التأمّلات المزعجة قائلاً:

- أعلم أن القيصر كافأك على حمايتك له في صباه، لكن جد لنا الآن  
طريقة لمقابلته، أو حدّد لنا من يشفع لنا عنده، إن كان هنالك خيط من  
صداقة قديمة مازال يربط بيننا.

فأجاب سينيكا:

- أنا و بترونيوس ننتمي إلى حلفين متضادين. ولا أدري ما الذي يمكن أن نحصل عليه منه. لا أحد يستطيع أن يؤثر عليه. وبالرغم من فساده فهو أعلى مقدارا من أولئك الاوغاد الذين يحيطون بالقيصر. لكن إذا ما كنت راغبا في التأكد من أنه قد ارتكب فعلة شريرة، فهو أمر لا جدوى منه، ومضیعة للوقت. لقد فقد بترونيوس منذ فترة طويلة إحساسه بالفروق بين الصالح والظالم. أثبت له سوء تصرفه، وسوف يشعر بالخجل.

وإذا ما التقيته سأقول له "هذا التصرف لا يليق إلا بأحد المعاتيق ليقوم به." إن لم يكن كلامي مجديا فلا شيء سيجدي أبدا.

فأجاب القائد:

- أشكرك على هذا الأمر كذلك.

ثم انطلق قاصدا فينيكوس الذي كان يجري تدريبا في المبارزة بالسيف مع المدرب. ركب أولوس حنق شديد لم رأى الشاب يقوم بتدريبات المبارزة، بكل ما هنالك من اطمئنان وبرود رغم عدوانيته على ليفيا. واستحال حنقه إلى ملامة قاسية، وشتائم. أما فينيكوس، وقد علم للتو باختطاف ليفيا، فقد اعتراه الشحوب والذعر من هول المفاجأة، الأمر الذي أبعده أولوس عن الشك في أن يكون له يد في الإضرار بالفتاة. كان جبين الشاب يتصبّب عرقا.

تسارعت خفقات قلبه، وتوهج وجهه بحمرة دموية، وبرقت عيناه بالشرر، وارتجفت شفتاه بتساؤلات مرتبكة، وتناوبت عواصف الغيرة،



والغضب على تمزيقه. شعر أن ليفيا ما إن تتخطى عتبة القصر وتصير في داخله، حتى يفقدها إلى الابد.

وعندما ذكر أولوس اسم بترونيوس، ساوره بريق من شك في أن بترونيوس قد جعل منه مطيئة لاستغلاله عند القيصر. إما للفوز بمكاسب شخصية بتقديم ليفيا هدية له، وإما لرغبته في أن يحظى بها هو شخصياً.

فما من أحد تقع عيناه على ليفيا إلا ورغب بها، أو شغلت باله.  
قال بلهجة متعثرة:

- عد إلى المنزل يا سيدي القائد، وانتظرنى... وتأكد إن كان لبترونيوس ضلع في الأمر، سأنتقم لها منه، عد إلى المنزل، وانتظرنى، فلن تكون ليفيا لبترونيوس ولا القيصر.

ثم رفع قبضة يده نحو وجوه الشمع المصفوفة في الخزانة، وصرخ:  
- أيتها الوجوه الميتة! سأقتله أولاً ثم أقتل نفسي.

ونفض واقفا وكرر طلبه قائلاً لأولوس:  
- انتظرنى.

واندفع كالمجنون قاصدا بترونيوس.

ورجع أولوس يحمل شيئاً من الامل في داخله.

قال في نفسه: إن كان بترونيوس قد أقنع القيصر باختطاف ليفيا كي يمنحها لفينيكوس، لا مخافة من الأمر، لأن الشاب سوف يعيدها. وإن

لم يتمكن من ذلك فسوف يلجأ إلى قتلها غسلاً لعارها.

كان واثقاً أن فينيكوس سيفي بوعده. لقد لمس شدة الغضب الذي ألم به، وكان قد خبر ما يمتاز به قوم الشاب من حماسة واندفاع.

حتى هو نفسه الذي أحب ليفيا كأب ابنته، يفضّل قتلها على أن تكون للقيصر، لولا أنه يضع في الاعتبار حالة ابنه الوحيد آخر وريث للعائلة.

كان أولوس جندياً فلم يسمع الكثير عن الرواقين، لكنه ليس بمنأى عن تطلعاتهم، ومناحي فخارهم. الموت في نظرهم أقرب إلى أفكارهم وفخارهم من وصمة العار.

وحين وصل إلى المنزل طمئن بومبونيا، وكرس معها آماله، وانتظر كلاهما الاخبار الموعودة من فينيكوس بفارغ الصبر. أحياناً، حين يتناهى إلى الاسماع وقع أقدام أحد العبيد، كانا يظنان أن فينيكوس قد جاء بطفلتها الحبيبة، وتهياً المباركة بعضهما بحرارة. لكن الزمن كان يمضي، دون أن يصل أي نبأ. لكن في المساء دقت مطرقة الباب وبعد قليل، دخل رقيق، وسلّم أولوس رسالة. حاول القائد الحربي العجوز أن يتماسك، ويسيطر على نفسه، لكنه فشل في منع يده من الارتجاف حين مدها لاستلام الرسالة. وقرأها بنهم كأن مصير الجميع يتوقف عليها.

وبغثة تجهم وجهه كأن غمامة قد ظلّته.

- اقرأيها قال ملتفتاً إلى بومبونيا.

أخذت بومبونيا الرسالة، وقرأت فيها ما يلي

"ماركوس فينيكوس " يبعث تحياته إلى أولوس بلاوتيوس.  
ما حصل كان بإرادة من القيصر. وما عليكم أمام ذلك، إلا أن تحنو  
رؤوسكم كما فعلنا أنا و بترونيوس.

ثم ساد صمت طويل.

كان بترونيوس في المنزل. لم يجرؤ الحاجب أن يدخل فينيكوس المندفع كالعاصفة. لكن فينيكوس كان يعرف أنه سيجد سيد المنزل في المكتبة، فاندفع نحوها. وجده هناك منكبا على الكتابة. اختطف الريشة من يده وكسرها، ورماها على الأرض، ثم ضغط بكفه على ذراع قريبه الأكبر، ومال مقتربا من وجهه يسأله بصوت أجش :

- أين هي؟ ما الذي فعلته بها؟

ما حصل شيء غريب. قبض بترونيوس المخنث النحيل بيد واحدة على ذراع الشاب الرياضي التي انغرزت أصابعها في ذراع بترونيوس، ملتقطا باليد نفسها الذراع الاخرى للشاب، وشدّ عليهما بقوة حديدية، وقال

- قواي واهنة عند الصباح فقط. لكنني سرعان ما أستعيد مرونتي مع اقتراب المساء. حاول أن تحرر نفسك. يبدو أن مدرّبك على الخفة كان حائكا لا علاقة له بالرياضة، وأن مدرّبك على اللباقة كان حدّادا.

لم يبد، بعد، على وجهه أي أثر للغضب. لكن عينيه توّهجتا بالقوة والجسارة. أرخى ذراعي فينيكوس، وقف الشاب أمامه خجلا ذليلا، دون أن يخفي حنقه. قال :

- لك ذراع حديدية. لكنني أقسم بكل آلهة العالم، إن كنت قد خنتني، سأطعن عنقك بمديتي، حتى أمام القيصر، وفي منزله.

فأجاب بترونيوس :

- دعنا نتكلم بهدوء. ترى أن الفولاذ أقوى من الحديد. وأنا لا أخافك، بل أشفق عليك لأنك أخرق، وساذج. ولو كان ما يزال بمقدوري أن أستهجن الجحود الانساني، لكنت استهجنته فيك بالذات.

- أين ليفيا؟

- في قصر القيصر

- بترونيوس!

- هددت من روعك، واجلس. توجهت إلى القيصر بمطلبين، وقد وعدني بتلبيتهمالي. أن يأتي بليفيا من منزل أولوس، وأن تأخذها أنت بعد ذلك. والآن أليس من مدية تخفيها بين ملابسك؟ انتشلها واطعني. أخشى أن تزج في السجن، وتسأم ليفيا نفسها في منزلك.

ساد صمت. تأمل فينيكوس بترونيوس قليلا، ثم قال:

- ساعطني! أنا أحب ليفيا، وما حدث قد أربك مشاعري.

- تصوّر يا فينيكوس، أمس الاول قلت للقيصر: ابن عمتي واقع في حب فتاة مسكينة ترعرع في منزل أولوس في أجواء من المعاناة والشكوى، وأنت أيها القيصر، وأنا الخبيرين بالجمال الحقيقي - لاندفع لأجلها حتى ألف سستريوم، لكنها قد أخذت بلب الفتى حتى هام بها في النهاية.

- بترونيوس!

- إن كنت لا تصدق، فسأثبت لك أنني قلت الحقيقة. قمت أولاً بإقناع صاحب اللحية الحمراء أن محبا للجمال مثله، لا يمكن أن يرى أثرا للجمال في هذه الفتاة. ونيرون الذي لم ينظر إلى الأشياء حتى الان الا بعيني أنا، لن يراها. جميلة. ومادام لا يراها كذلك، فلن يرغب فيها. كنا في حاجة لأن نحكم وثاق القرد لكي نأمن جانبه. والان

ليس هو من سيعاين جمال ليفيا الحقيقي، بل بوبيا التي ستؤمن إبعادها من القصر بأسرع ما يمكن. لك الحق في ذلك، لأن الفتاة رهينة. إن تفعل ذلك، ستوجه صفقة لأولوس. وافق. لم يكن لديه أدنى سبب للرفض، خاصة وقد منحته فرصة للثأر من الناس الطيبين. سوف يوكلون اليك مهمة الحارس الرسمي للرهينة، وسيضعون بين يديك هذه الثروة اللغوية. وإنك كحليف للمحاربين اللغويين، وخادم أمين للقيصر في ذات الوقت، لن تفرط بهذه الثروة، بل ستعمل على صونها، وترعى ذريتها. القيصر سيحتفظ بها بضعة أيام كغطاء شكلي على مرأى الآخرين، ثم يرسلها اليك أيها الشاب المحظوظ.

- أصحيح هذا؟ ألا يهددها شيء في منزل القيصر؟

- حتما لا. يعيش في القصر عشرة آلاف شخص. حتى أن القيصر لن يراها. خاصة وأنه قد أوكلني بكل شيء، وأن قائد الدورية أخبرني بأنه أودعها لدى أكتي. أكتي نفس طيبة. لهذا جعلتها بين يديها. كان لبومبونيا الرأي نفسه، فكتبت لها رسالة توصية. تقام غدا مأدبة في القصر، وأنت من المدعوين. وقد حجزت لك مكانا إلى جانب ليفيا.

- عزيزي. ساحني على ما يبدر مني من سلوك عنيف. ظننت أنك قد تدبرت أمر اختطافها، من أجلك أو من أجل نيرون.

فردّ بترونيوس قائلاً:

- سلوكك العنيف مصفوح عنه. لكن تصرفك الريفي الساذج، وصراخك الاخرق، وصوتك الذي يذكر بالمتسكعين، كلها أمور يشق الصفح عنها، لأنها صفات لا أحبها. حذار يا فينيكوس! ليكن في علمك أن قواد القيصر هو تيغالينوس. وليكن في علمك أيضاً أنني لو أردت ليفيا لنفسني لقلت لك بصريح العبارة: "سأخذ منك ليفيا يا فينيكوس، وستظل محظيتي حتى أملها"

وأطلقت عيناه البنيّتان نظرة حادة كادت تخترق عيني فينيكوس،  
وأوقعته بالحرج، فبادر إلى الاعتراف قائلاً:

- أنا المخطئ. وأنت شخص طيب نبيل النفس. أشكرك من أعماقي.  
لكنني سأسالك سؤالاً أخيراً، كيف لم ترسلها إلي مباشرة؟

- لأن القيصر يحرص على المظاهر. سوف يتناقلون خبرها في سائر  
أنحاء روما. وبما أنها رهينة، ستبقى في قصر القيصر مادام اللفظ قائماً،  
وبمجرد أن ينتهي سترسل اليك بكل هدوء، وتنتهي القصة تماماً. صاحب  
اللحيّة الحمراء كلب جبان، يعلم أن سلطانه بلا حدود. وعلى الرغم من  
ذلك فهو يقيم اعتبار الكل شاردة، ويضفي عليها الغطاء المناسب: هل  
هدأ بالك، وصار بوسعنا أن نتفلسف قليلاً؟ فكرت كثيراً أسأل نفسي  
: ما السبب أن الشر، كلما كان ضخماً كالقيصر مثلاً، ورغم ثقته بأنه  
سيبقى غير مدان، فإن يسعى إلى أن يضفي على نفسه صبغة من العدالة  
والحق والفضيلة؟ لم كل هذا العناء؟ إن قتل الاخ، والام، والزوجة،  
أجدي أن يقوم به ملك أسوي، لا القيصر. لو يحدث لي مثل هذا، فلن  
أكتب رسالة للسيناتور لإنقاذي. لكن نيرون يكتب. نيرون يبحث  
عن المظهر لأنه جبان. أما تيريوست فلم يكن جباناً، ومع ذلك كان  
يحاول أن يجد تفسيراً لكل ما قام به من أفعال. لم تجري الأمور هكذا؟  
غريب هذا الولاء العفوي للشر في مواجهة الفضيلة. أتدري ما جوابي؟  
لأن الشرقيح، والفضيلة جميلة. إن الفنان الحق فاضل بالضرورة. أنا  
إنسان فاضل. علي اليوم أن أضحي، وأهرق قليلاً من النبيذ على روح  
كل من جورجيلس، و بروتاغوراس، و بروديكوس. أرى أننا نجني  
فائدة حتى من السفستائي. إسمعني فلدي مزيد من الكلام. أخذت  
ليفيا من منزل أولوس لأهديك إياها. حسناً لكن ليسيبوس قد ينحت  
لكما مجموعة رائعة من التماثيل. كلاهما فائق الجمال، وهذا السبب  
يجعل ما قمت أنا به من أجلكما جميلاً وبما أنه جميل يستحيل أن

يكون قبيحا أنظر يا ماركوس، أمامك الان ترقد الفضيلة مائة جسد  
بترونيوس ! لو كان أريستيدس حيا لجااء الي الان متوسلا لأحضر له  
عن الفضيلة

لكن فينيكوس كان همّه الحقيقة أكثر من المحاضرة حول الفضيلة،  
فقال : غداً سألتقي ليفيا وسوف تقيم في منزلي دوما حتى الممات.

- لك ليفيا، ولي أولوس الذي سيظل يلاحقني بنقمة كل الهة العالم  
السفلي. لكن على الاقل، قد يتلقن ذلك البهيم درسا في التهذيب  
واللباقة في الحديث. لا. لا. هو شخص لا يعرف إلا أن يطلق الشتائم،  
مثل حاجبي الواقف عند بابي، لا يكف عن تعنيف زبائني، ولذا الحقته  
بالمركز التأديبي للعبيد في الريف.

- جاء إلي أولوس ووعدته نبأ عن ليفيا.

- أكتب له إن إرادة القيصر الرباني من القوانين التي لايعلى عليها.

وقل له إن مولودكما الاول سيكون اسمه أولوس. لا بد من فخ  
للعجوز.

أنا مستعد لأطلب من صاحب اللحيّة الحمراء أن يدعوّه إلى مأدبة  
الغداء، ليراك جالسا قرب ليفيا.

- لا تفعل. أنا أشفق عليهما بومبونيا خاصة.

ثم جلس ليكتب الرسالة التي جردت القائد الحربي من آخر آماله.



كانت أكتي عشيقة نيرون السابقة. وكان ينحني أمامها كبار رجالات روما.

لكنها لم تكن في ذلك الحين، ترغب في التدخل في الشؤون العامة. وإذا ما صادف آنذاك واستغلت ما تتمتع به من تأثير على الحاكم الشاب، فقد كان ذلك من باب الشفاعة لأحدهم أمامه. كانت هادئة، ومتواضعة، إستحقت امتنان الكثيرين، ولم تنشئ أعداء، حتى أكتافيا لم تضر لها الكراهية. ولم يعتبرها الحساد بذات خطورة على الاطلاق. عرفوا عنها أنها مازالت تكن لنيرون حبا حزينا اليما، مفعماً بالذكريات لا بالأمال. حين كان نيرون شخصا أفضل واصلح عرفوا أن روحها، وبالها، لا يستطيعان الانفصال عن تلك الذكريات، لكنها الان لم تعد تنتظر شيئا وبما أنها قد يئست من عودة القيصر إليها، فقد رأوا فيها مخلوقة عزلاء تماما، فتركوها وشأنها. اعتبرتها بوبيا خادمتها البكماء المسالمة، فلم ترغب في إبعادها عن القصر.

ولكن، بما أن القيصر قد أحبها ذات يوم، فقد انفصل عنها بهدوء، ودونما غضب منها، حتى يمكن القول بكل الود والصداقة. أطلق نيرون سراحها، ومنحها مسكنا مستقلا في القصر، وبعضا من الخدم، والخادومات. وبما أن بالاس و نارسيروس كان معتوقا كلاوديوس في ذلك الحين، فقد احتلا مكانيهما على مائدة كلاوديوس باعتبارهما وزيرين رفيعي المستوى، حق لهما أن يدعوا أكتي أحيانا

إلى مائدة القيصر. لعل سبب الدعوة جمالها الذي يصلح أن يكون ديكورا حقيقيا في المأدبة. وعلى أية حال، لم يكن انتقاء النخبة من جلساء نيرون على المائدة، يخضع لأي اعتبار. فكان هنالك شتى المراتب والشخصيات الاعتبارية، والسيناتورات، لكنهم في الغالب ممن هم على استعداد ليلعبوا دور مجانين البلاط. ويصادف بينهم من قصدوا المأدبة حبا بالترف، أو طلبا للاستمتاع، واستقراطيون شبان، وشيوخ راغبون في العريضة واللهو. حضرت نساء بأسماء كبيرة، ورغم ذلك لا يتورعن كل مساء أن يضعن على رؤوسهن أرخص الباروكات المتبدلة، ويجلن ليلا في الشوارع المظلمة بحثا عن مغامرات تسليهن.

وكان هنالك موظفون ذوو مراتب رفيعة، وكهّان إلى جانب كوؤوسهم المليئة جلسوا يهزؤون من الهتهم، يحيط بهم مغنون، وممثلون، وعازفون، وراقصون، وراقصات، وحشود من الشعراء من بينهم من راح يلقي أشعارا في مديح أشعار القيصر تكسبا لبعض المال، وفلاسفة معوزون هزيلو الاجساد تتبعوا بوجوه نهما، المآكل المفروشة على الموائد، وقواد عربات ذو شهرة واسعة، ورجال أعمال، وفنانون، وسحرة، وحكواتية، وهزليّون، ومتسكعون، بمختلف الازياء والحماقات، من بينهم ذو الشعور الطويلة المنسدلة فوق الآذان لتخفي ثقوبها الدالة على عبوديتهم.

الفئات الأرقى توجهت إلى المائدة مباشرة. والفئات الأدنى مرتبة راحت تسلي المدعوين بانتظار اللحظة المناسبة ليقودهم طاقم الخدم إلى الاطعمة والمشروبات. مثل هذه الفئة من الضيوف مثلها تيغالينوس و فيتيوس، و فاتينوس الذين غالبا ما كان عليهم أن يرتدوا لباسا لائقا بالمقام قبل الدخول إلى قاعات القيصر. كان القيصر يحب مثل هذه الفئات، لأنه يشعر أنه أقل توترا وأكثر أريحية بين أفرادها.

لقد أضفى الترف الذي يعم البلاط، المرح والبهجة على كل شيء، وغمر بالاشراق والغبطة كل من وفد إلى البلاط من عليّة القوم والعامّة الذين يملأون شوارع المدينة، والفنانين الكبار، والمواهب المتسكعة ذات المشاعر المقهورة، ليتحفوا أعينهم بالاحتفال "القمة" الذي يفوق كل تصور إنساني، ولتسبح لهم الفرصة كي يشاهدوا عن كثب ذلك الذي بمقدوره أن يمنح كل شيء، الثروات والخيرات والشفاعات، ونزوة منه قد تنزل أي امرئ إلى أسفل السافلين، أو ترفعه إلى أعلى عليين.

في مثل هذا اليوم، كان على ليفيا أن تحضر الوليمة. لكن الخوف، وانعدام الثقة، ولعبة القدر المباغتة، كانت أسبابا أوقعتها في الدوار والحيرة.

لقد خافت القيصر، خافت الناس، خافت القصر الذي أجفلتها ضوضاؤه. خافت المآدب التي وصلتها الانباء من قبل أولوس و بومبونيا وأصدقائهما عن وضاعتها. ولكونها فتاة في مقتبل العمر، لم تكن الامور على قدر كاف من الجلاء في ذهنها. خاصة وأنها في سني طفولتها، قد أشبعت بسماع الامور الرديئة. كان كل ما تعرفه أن ما يجري في هذا القصر مصدر تهديد لها حذرتها منه بومبونيا قبل الفراق. إذن، بما أن روحها روح طفلة لم يمسه فساد الدهر بعد، وبما أن أمها التي ربته قد زودتها ببعض التعاليم الصارمة، فقد وعدت أمها، ونفسها، ومعل مها الالهي الذي لا تؤمن به فحسب بل تحبه كذلك لتعاليمه القيمة، وموته الاليم، وما قام به من ثورة مجيدة، ولقلب الطفل فيه. وفضلا عن أنها كانت واثقة تماما في أن أولوس و بومبونيا لم يعودا مسؤولين عن تصرفاتها. فهل من الاصلح لها إذن أن تمتنع عن حضور المآدبة؟ أم العكس هو الصحيح. إصطرعت بين خوفها وقلقها من جهة، وبين رغبتها الشديدة في إثبات جرأتها، ورفضها واستعدادها

لتلقي التعذيب والموت إذا ما اقتضى الأمر كذلك. خاصة وأن المعلم الالهي قد أمر بذلك، وقدم نفسه مثالا حيًا على ما أمر به. وخاصة أيضاً أن بومبونيا قالت لها إن الأكثر حماساً وصلابة من بين أخوة المعتقدهم من تمتلئ نفوسهم بالتوق نتيجة المعاناة، وهذا ما يدفعهم للصلاة.

كانت ما تزال في منزل أولوس حين كان يراودها بين فترة وأخرى، توق لاهب كهذا التوق. رأت نفسها شهيدة ناصعة البياض ضربت بالدم والجراح، ذات جمال لا كجمال الأرضي، كما لو أن ملائكة بيضا يمضون بها نحو السماء الزرقاء.

بمثل هذه التخيلات والرؤى كانت متعتها. كانت تخيلات طفوليّة، لكن فيها نوعاً من الزهو الذي استحقت عليه التوبيخ من قبل بومبونيا. والآن حين كان يمكن للسلوك الرفض لأمر القيصر أن يواجه بأشد العقاب، وللمعاناة الا تبقى محض تخيلات فقط، وتستحيل إلى واقع فعلي، فلقد انضاف إلى تلك الرؤى والرغبات الجميلة شيء من الاماني المشوبة بالمخافة، ترى أي عقاب سيلحق بها، وأي طرق للتعذيب ستمارس عليها؟

كانت مازالت تتأرجح بين الاحتمالين المصطرعين في داخلها الطفولي. ولما علمت أكتي باضطرابها هذا، من خلال حديث الفتاة الهدياني معها، رمتها بنظرات الاندهاش والاستغراب. كيف يمكن أن تخالف إرادة القيصر وتفسح المجال لنقمته منذ اللحظة الاولى؟ لا ريب في أنه سلوك لا يصدر إلا من طفلة لا تدري ماذا تقول. وها هو ذا حديث ليفيا يدل على أنها ليست رهينة، بل فتاة عادية تناست قومها، فما عاد بمقدور أي قانون حقوقي أن يحميها.

وحتى لو كان هنالك ما يحامي عنها، فالقيصر على قدر من القوة والسلطان، إذا ما غضب، أن يطوّحها بين الأقدام. لقد أعجبت القيصر فكرة أن يأتي بها، وتكون في عهده منذ اللحظة الأولى. صار مصير ليفيا رهن إشارة القيصر التي لاتعلوها إرادة في سائر الكون.

تابعت أكتي تقول:

- أجل. أنا كذلك قرأت رسائل بولس الترسوسي. وأعرف أن الله في السماء، وكذلك ابنه الذي قام من الموت، وأن لا وجود في الأرض إلا لقيصر. لا تنسي هذا يا ليفيا. وأعرف أيضاً أن معتقدك لا يسمح لك أن تكوني كما كنت أنا. أتم مثل الستوكوسيين الذين حدثني عنهم أبيكتوس، وإذا ما خي رتم ما بين العار، والموت، ستختارون الموت. لكن هل أنت على يقين بأن ما ينتظره هو الموت وليس العار. ألم تسمعي بما حل بابنة سيانوس العذراء التي بأمر من تيبوريوس، وصمت بالعار قبل موتها. وذلك من أجل ألا يقفروا من فوق القانون الذي يحظر إعدام العذاري؟

لا تثيري القيصر يا ليفيا! إذا ما جاءت اللحظة الحاسمة، وكان عليك أن تختاري ما بين العار، أو الموت، فافعلي ما يأمر به وجدانك، لكن لا تجري جرياً وراء موتك، ولا تبحثي عنه، ولا تثيري هذا الإله الأرضي الرجيم لأسباب تافهة.

كانت أكتي تتكلم بشديد الأسف والشفقة، وبما أن بصرها قد صار ضعيفاً منذ مدة، فقد قربت وجهها من ليفيا، كأنها أرادت أن تتبين مدى الوقع التي أحدثته كلماتها، في حين أتيح للفتاة أن تلف عنق أكتي بذراعها قائلة لها بثقة طفوليّة:

- أنت جد طيبة يا أكتي.

فما كان من أكتي الا أن ضمتها إلى صدرها وقالت:

- سعادتي، وابتهاجي، أودعتهما للماضي، لكنني لست بالسيئة.

وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وكأنما كانت تحدث نفسها  
بدافع القنوط.

- أبدا، حتى هو لم يكن شيئاً. كان يظن أنه صالح، وأراد أن يكون  
صالحاً. أنا من يعرف ذلك. ما حصل له، لم يحصل الا بعد أن صار لا  
يحبني... الاخرون هم الذين غيروه إلى ما هو عليه الان... الاخرون، و  
بوبيا.

وامتلأت عيناها بالدموع. وكذلك فعلت عينا ليفيا الزرقاوان، ثم  
قالت:

- أتأسفين من أجله يا أكتي؟

- أجل.

أجابت الإغريقيّة، واستأنفت تسير في الغرفة حائرة، ضامة قبضتيها  
بالم. فقالت ليفيا وجملة:

- أمازلت تحبينه يا أكتي؟

- أحبه.

وأضافت بعد قليل:

- لا أحد يحبه سواي... -

ساد صمت حاولت أكتي في أثناءه استعادة سكينتها التي أربكتها الذكرى. وحينما استردّ وجهها تعابير الحزن المألوف قالت من جديد:

- دعينا نتحدث عنك يا ليفيا. لا تفكّري بمعاكسة القيصر. جنون. الزمي الهدوء. أعرف هذا المنزل جيدا. أزعّم أن لا شيء يهددك من قبل القيصر. لو كان نيرون قد اختطفك لأجله شخصيًا لما أتوا بك إلى القيصر. بوبيا هي صاحبة النفوذ هنا. ومنذ أن أنجبت مولودها وكان بنتا، صار نيرون تحت سلطانها أكثر فأكثر. لا. صحيح أن نيرون هو من طلب أن تكوني في المأدبة، لكنه لم يشاهدك حتى الآن، ولم يسأل عنك. إذن فهو لا يهتم لأمرك. كل ما هنالك أنه غاضب من أولوس و بومبونيا، فأراد أن يعاقبهما. كتب لي بترونيوس أن أضعك تحت رعايتي. وأنت تعلمين أن بومبونيا كتبت لي لنفس الغرض. الأرجح أنهما متفقان على ذلك. لعل ما كتبه بترونيوس كان بناء على طلب بومبونيا. فإذا كان هذا ما قد حصل، فلا خوف عليك من شيء يهددك. لكن من يعلم إن كان نيرون لن يطلب إعادتك إلى منزل أولوس بناء على نصيحة من بترونيوس؟ لا أدري إن كان نيرون يحبه كل هذا الحب، لكن الأكيد أن من النادر أن يأخذ برأي أحد كرايه.

أجابت ليفيا

- آه، صحيح، يا أكتي. لقد كان بترونيوس عندنا قبل أن يأخذوني. وأمي واثقة أن نيرون طلبني بعد أن كل مه بأمرى.

علقت أكتي قائلة:

- هذه مسألة شديدة السوء.

وتابعت بعد تفكير:

- ومن المحتمل أيضاً أن يكون بترونيوس قد ذكر أمام القيصر على العشاء أنه رأى في منزل أولوس رهينة ليغوية، فطلبك القيصر حرصاً على حكمه، لأن الرهائن تحت رعايته. إضافة إلى أنه لا يحب كلا من أولوس و بومبونيا. لا أظن أن بترونيوس سيلجأ إلى هذه الطريقة، لو أنه أراد أن يأخذك من أولوس. لا أدري إن كان بترونيوس أفضل من كل حاشية القصر، غير أنه يختلف عنهم تماماً. وترقبني خيراً عسى أن تعثري على أحد سواه يرفع صوته لأجلك أمام القيصر.

الم تتعرفني في منزل أولوس على أحداً مقرب من القيصر؟

- أكثر من مرة رأيت فسبيانوس و تيوس هناك

- لا يحبهما القيصر.

- ورأيت سنيكا.

- آية نصيحة يقدمها سنيكا للقيصر يفعل نيرون ما يغيرها كلياً.

كست الحمرة وجه ليفيا الابيض

- ورأيت فينيكوس...

- لا أعرف من يكون.

- قريب بترونيوس. عاد لتوه من أرمينيا

- أتظنين أن نيرون يحبه؟



- الجميع يحبون فينيكوس.

- وهل هو على استعداد لأن يتكلم من أجلك؟

- أجل.

ابتسمت أكتي بحنان، وقالت:

- إذن سوف تلتقيه حتماً في المأدبة. عليك بالحضور لسببين. أولاً لوجوب حضورك، ولا يخطر إلا على بال طفل ما ينافي ذلك. ثم، إن كنت ترغبين في العودة إلى منزل أولوس!، تتوجهين بطلبك إلى كل من بترونيوس و فينيكوس. لو كانا الآن هنا لسمعت منهما أن من الخبل والجنون تشبثك بالرفض. قد لا يشعر القيصر بعدم حضورك، لكنه لو خطر له ذلك، واكتشف أمرك، فلا مناجاة لك. تعالي ياليفيا... أسمعين كل هذا الصخب في المنزل؟ الشمس أشرفت على الغروب، وبدأ المدعوون يتجمعون.

أجابت ليفيا:

- أنت محقة يا أكتي. قبلت نصيحتك.

ولكن، في قرارها هذا، أي دور قد لعبته رغبتها في ملاقة فينيكوس و بترونيوس، وكم كان فيه من الفضول النسائي لحضور مأدبة هو الاول من نوعه في حياتها، حيث يمكنها هناك أن ترى القيصر، والبلاط و بوبيا الشهيرة، وأموراً مدهشة أخرى، وتشاهد عن كثب هذا الاحتفال الأبهة الذي يقصّون عنه الأعاجيب في روما. أي دور لرغائبها في كل ذلك، هي نفسها لا تدري. لكن أكتي في كل الاحوال محقة، وهذا ما لمست الفتاة جيداً. عليها إذن أن تكون في المأدبة.

وفي نهاية المطاف إذن، حين تضافر الإرغام، ووازن العقل على هزيمة الغواية الخفية، أغلقت فمها وركنت.

لقد فطر جمال الفتاة وبراءتها قلب أكتي، فاصطحبتها إلى جناحها الخاص لكي تعطرها، وتلبسها الثياب. وبما أن منزل القيصر يكتظ بالنساء العبدات، فقد كانت حاشية كثيرة العدد منهن في خدمة أكتي.

قررت أن تلبس الفتاة بنفسها. وسرعان ما تبين أن هذه الشابة الإغريقية تمتاز، إلى جانب ما يلفها من حزن وورصانة، بأنها قد اطلعت على رسائل بولس الترسوسي. وقرأتها. وبوافر من خصائص الروح الهيلينية القديمة التي يعينها الجمال الجسدي أكثر من أي شيء آخر في الكون، قامت بتعريّة ليفيا، وحين لمست أعضاء جسدها الشفافة، لكن المكتنزة أيضاً، وكأنها أخرجت من بين اللالئ والورود، لم يكن بمقدورها أن تكظم دهشتها. صرخت ذاهلة، ثم تراجعت قليلاً إلى الخلف، وراحت تتأمل هذه الظاهرة الربيعية الخارقة.

قالت أخيراً :

- ليفيا أنت أجمل من بوبيا بمئة مرة.

لكن ليفيا قد ترعرعت في منزل بومبونيا الصارم، حيث كان التواضع سارياً إذا ما خلت النساء لبعضهن. وهاهي ذي تقف هنا الآن مذهلة إذ هال حلم بديع، ومتناغمة تناغم ثمثال هو مثال في الكمال، وحلوة حلوة أغنية، لكنها مرتبكة، مطرقة، مطبقة الجفون، تكسو وجهها حمرة الحياء، وقد ألصقت ركبتيها، وغطت صدرها بيديها. وأخيراً رفعت يديها بحركة خاطفة، وانتزعت دبّوس شعرها، وبحركة واحدة من رأسها جعلته ينغمر بشلال شعرها الذي انسدل كوشاح. اقتربت أكتي منها وقالت وهي تلمس شعرها الداكن :

- أوو. يالروعة شعرك. لن أنثر عليه بودرة ذهبية. فاللون الذهبي يتلالا في ثناياه. يكفي أن أضفي عليه لمعة ذهبية خفيفة هنا وهناك للتألق فقط. لا بد أن بلاد اللينوس بلاد رائعة تنجب فتيات من أمثالك.

فأجابت ليفيا:

- لا أذكر تلك البلاد. حدثني أرسوس قائلاً إنها محض غابة خضراء. غابة وراء غابة.

- وفي الغابة تفتح الأزهار أضافت أكتي وقد غمست أصابعها بزيت الفيربينا، ورطبت به شعر ليفيا.

وبعدئذ دهنت برفق كامل جسدها بالزيوت العربية الفواحة، ثم ألفت عليه رداء خفيفا ذهبي اللون، بلا أكمام، والبستها فوقه ثوبا من البوبلين الابيض. وجاء دور تسريح الشعر، فلفتها بصدارية فضفاضة، وأجلستها على كرسي، وسل متها لوقت قصير للخاديات العبدات لكي تتأمل هي بنفسها التسريحة عن بعد.

ثم قامت عبدتان بإدخال قدميها بفردتي البابوج الأبيض الموشى بالأرجواني، وصالبت شريطيه الذهبين حول رسغيها المرمرين. ووضعت أكتي اللائى حول جيدها، ومسحت شعرها ببودرة الذهب. ثم أمرت أن تلبسها الخاديات الثياب على مرأى من عينيها.

وسرعان ما صارت جاهزة. وما إن بانتهو الهوادج الأولى عند المدخل الرئيسي حتى كانت أكتي وليفيا قد دخلتا الرواق السري المشرف على المدخل والغاليري الداخلي، والباحة ذات العمدان الرخامية.

وشيناً فشيناً بدأ المدعوون يفدون عابرين من تحت قنطرة المدخل،

العالية التي تتربع فوقها مركبة لسياس الثنائية الفخمة المتأهبة للطيران في الجو على متنها أبولو وديانا. لقد أذهلت ليفيا أبهة هذا المشهد الذي لم يزودها منزل أولوس بأدنى فكرة عنه.

كانت الشمس تغرب لتوها، وتتلامع أشعتها الاخيرة ذهبية مشوبة باللون الوردى، فوق العمدان الرخامية وتمثيل الالهة والابطال، وحشود البشر من إلى الرجال والنساء. كان أحد تماثيل هرقل العملاقة يراقب الحشود من عل علوي سابح في الضوء ونصف سفلي مغمور بالظل. دلت أكتي ليفيا على السيناتورات ب الأردية الملونة، والحواشي العريضة، والصنادل الموشاة بأشكال هلالية. وعلى الفرسان، والفنانين ذوي الشهرة، والنساء الرومانيات بأزيائهن الرومانية، أو الإغريقية، أو المقتبسة من الفنتازيا الشرقية، وقد وضعن فوق شعورهن أزهاراً للزينة، أو أبراجاً، أو أهرامات، أو تركنها منسدلة كتماثيل الالهات. وقد ذكرت أكتي العديد من أسماء الرجال والنساء، واختصرت بعض حوادثها الرهيبة التي أذهلت ليفيا، وملأتها بالخوف. كان عالماً فريداً بالنسبة لها، تلقفت عيناها بنهم ما فيه من جمال، لكن عقل الفتاة الصغيرة لم يتقبل خلاف ذلك. كان قسط كبير من السكنية يقبع في حمرة الغروب السابحة في السماء، وبين صفوف العمدان الطويلة، وفي هذه التماثيل البشرية كأنما لا وجود بينها الا لنصف اله سعيد ومسال. لكن أكتي كشفت أسراراً أخرى خبيثة تخص القيصر وهؤلاء البشر. دم كاليغولا المقتول مازالت آثاره حتى الان تبقع رخام أعمدة المركبة الثنائية وقاعدتها، إثر هجوم قام به كاسيوس وقتلت فيه زوجته، وسحق رأس ابنه فوق الحجارة. وهناك في ذلك الجناح سجن في القبو زج داخله دروسوس الشاب، وكان يعض يديه جوعاً، وقتل فيه والده العجوز، وانهار غاميلوس تحت نوبات الهلع والتشنج. وفي مكان ما في ذلك السجن لاقى كلاوديوس وجرمانيكوس أبشع أنواع

التعذيب. كل هذه الجدران أصغت إلى أنين المحتضرين وتوجعاتهم. وهؤلاء الناس الذين ترينهم يتوافدون إلى المأدبة بأفخم الدروع، والأردية، ليسوا في منأى عن الخطر، وقد تصدر بحقهم غداً عقوبة الإعدام. ولعلّ الابتسامة المرتسمة فوق وجوههم تخفي، فضلاً عما في قلوبهم من خشية واضطراب، كثيراً من مشاعر القلق ليوم غد. ولعل هؤلاء الأنصاف آلهة الذين يبدون سكيناً واطمئناناً ظاهريين، لا يظن قلوبهم إلا الحسد والجشع والحرقه. لم يكن بمقدور ليفيا التي أصابها الذعر أن تتابع ما تقوله أكتي. وبقدر ما كان هذا العالم العجيب يزداد جاذبية أمام ناظريها، كان قلبها ينبض، ويشتد حنينها إلى منزل بومبونيا وأولوس، حيث الأمان والحب هما السائدان هناك، وليس الحساب والعقاب.

تعاظمت أمواج الوافدين، واشتدّت، وراء المدخل، الضوضاء وضجيج الأسياد ومرافقيهم، وعجت الباحة والعمدان بعبيد القيصر، وعباداته، وفتيانه، وحراس القصر الإمبراطوريين. وكان هنالك بين الوجوه البرونزية، والبيضاء، بعض الوجوه الزنجية السوداء ذات الخوذ من الريش، وأقراط حلقيّة كبيرة في الأذان، حملت الأعواد والقيثارات، والزهور والمصاييح اليدويّة من الذهب والفضة والنحاس.

اختلط صخب الأحاديث المتعاضم مع صوت انسكاب الماء من النافورة على الأرض الرخاميّة.

كانت أكتي قد كفت عن حديثها، وظلت ليفيا تجول بنظرات حادة كأنما تبحث عن أحد ما في الجموع. احتقن وجهها فجأة بالحمرة ما إن لمحت بين العمدان كلا من بترونيوس و فينيكوس بلباس التوغا، وهما يتقدمان بتؤدة مثل الهين أبيضين واثقين نحو التريسيلينيوم الكبير.

انزاحت صخرة كبيرة عن قلب ليفيا حين وقعت عيناها بين الحشد، ورأت هذين الوجهين الصديقين الانيسين، وخاصة فينيكوس. لم تعد تشعر أنها غريبة كل هذا الحد، وخفت وتيرة حنينها الشديد إلى منزل بومبونيا، وكف أن يكون حنيناً له كل ذلك الايلام. استحوذت عليها فرصة أن ترى فينيكوس وتتحدث إليه، وأزاحت كل ما عداها من أصوات في داخلها وأخمدت حتى ما قالته لها أكتي، وما طرق أذنيها من تحذيرات بومبونيا، وما تردّد أمامها من أخبار، ورذائل البيت القيصري. وبالرغم من كل هذه الأقوال والتحذيرات، فقد باتت تشعر الآن أنها تخون كل تعاليم نقيّة قد نشأت عليها، وتخون بومبونيا، وتصل إلى حد خيانة نفسها أيضاً.

الخضوع للإكراه شيء، والابتهاج له شيء آخر. شعرت بالذنب والضعفة، والضياع. ساورتها الحيرة، وودت لو تبكي. ولو كانت لوحدها الآن لجثت على ركبتيها وراحت تضرب على صدرها مرددة " أنا مجرمة، مجرمة كبيرة "

والآن أمسكت أكتي بيدها، وقادتها عبر الغرف الداخلية نحو التريسيلينيوم الكبير، حيث يفترض أن تقام المأدبة. أما هي فحارت عيناها وطمّت أذناها من شدّة انفعالها الداخلي، وكادت انفاسها أن تتوقف من شدّة خفقان قلبها. وكأنما هي في حلم كانت تسمع نداء القيصر محيياً الحضور. ورأت نفسها غارقة في الضباب. لقد أصمّها نداء القيصر، وذهبت الأنوار ببصرها، وأصابتها الروائح بالدوار، وفقدت ما تبقى من وعيها، فلم تتعرف إلا بمشقة أكتي وهي تجلسها إلى الطاولة وتجلس إلى جانبها.

وبعد قليل جاء صوت عميق مألوف من الجهة الأخرى:

- لك التحية، يا أجمل عذروات الأرض، ويا أجمل نجوم السماء،  
لك التحية يا كالينا الإلهية.

التفتت ليفيا فرأت فينيكوس إلى جانبها. لم يكن يرتدي التوغا  
، لأن العادة تقتضي نزع هذا الرداء في المآدب، حرصاً على الراحة  
هناك. اكتفى بتونيكاً قرمزية بلا أكمام، موشاة بشجرات نخيل فضية.  
وعلى الطريقة الشرقية علق بذراعيه العارين فوق المرفقين واقبين  
مذهبين للزينة.

كان مكتنز العضلات، حليق الساعدين الاملسين اللائقين، يحمل  
السيف والترس. توج رأسه إكليل من الورود. لقد بدا بحاجبيه الكثرين،  
وعينييه الرائعتين، وشعر وجهه البني، جسداً مسبوكا بالفتوة والعزيمة

رأته ليفيا وسيماً إلى حد جعلها تتأتى في الرد قائلة :

- تحية لك يا ماركوس.

فتابع الشاب :

- ما أسعد عيني إذ رأتك، وما أسعد أذني إذ بمقدورهما سماع  
صوتك الأعذب عندي من صوت الناي والقيثارة. لو كان علي أن  
أختار من سيجلس إلى جانبي في المأدبة، أنت أم فينوس لاخترتك يا  
ليفيا الإلهية.

نظرت إليه كأنما تريد أن تلتهمه بعينيها، فذوّبته إعجاباً.

انزلقت نظراتها ملاطفة، مستمتعة، معانقة، راشفة وجهه وعنقه،  
وساعديه العارين، وعضلاته البديعة. لكنها إلى جانب ما تولد

فيها من رغبة لم تستطع كتمانها، فقد غمرها شعور عارم بالسعادة والحب، والنشوة.

تابع الشاب :

- كنت أعرف أنني سأراك في منزل القيصر. وعلى الرغم من ذلك، حين لمحتك اهتز كياني من فرط السعادة، كأن سعداً مبالغاً قد حظّ أمامي.

و حين استعادت ليفيا وعيها، شعرت أن هذا الشاب هو المخلوق الوحيد المقرب منها من بين كل هذه الحشود هنا. انسجمت في حديثها معه، وسألته عن كل ما دار في ذهنها مما لم تفهمه، أو يبعث في نفسها الخوف والخشيّة. كيف عرف أنه سيلتقيها هنا في منزل القيصر؟ إنها خائفة هنا، وتريد العودة إلى بوميونيا، وإنها ستموت من شدة الشوق، والاضطراب، لولا أملها بأن بترونيوس بالتعاون معه سيفعلان شيئاً لدى القيصر.

أوضح لها فينيكوس بأنه لم يعلم بأمرها إلا من قبل أولوس، وأنه أبداً لا يدري سبب وجودها هنا. فالقيصر لا يناقش أحداً في توصياته، وأوامره. طمأنها بالأخاف، وأنه سيقى إلى جانبها. الأجدر به أن يفقد بصره إن كان لن يراها، وأن يفقد حياته ولا يفقدها. وسوف يحرص على روح ليفيا حرصه على روحه. وسيعتبرها آلهته، وسيبني لها في منزله مذبحاً يملؤه بالرياحين، وفي الربيع بالاكثينيا وأزهار التفاح. أما إن كانت تخشى البقاء في القصر، فإنه يعدها بالأبقى هناك. وأنه لن يرفض لها طلباً بعد الآن.

ربما تكلم بشيء من المكر، وبالغ في حديثه، لكن نبرة صوته وشت



بصدق مشاعره. كان مواساة صادقة منه دلت أنه يذوب حبالها. جمالها يستأثر بمشاعره، وهو راغب في أن يحظى بها، لكنه يشعر أنها عزيزة عليه إلى حد يستطيع حتى أن يعبدها كالهة. شعر بحاجة لا تقاوم لأن يبوح عما يجول في نفسه، وأن يحدثها عن مدى جمالها، وأنه يعبدها عبادة. لكن ضجيج المأدبة كان قد تعاضم، فاقترب فينيكوس من الفتاة، وشوشها ببعض الكلمات الدافئة العذبة المنبثقة من أعماق النفس، فعلت فيها فعل النيذ. ولقد أسكرتها فعلا. شعرت ليفيا أن فينيكوس يزداد لطافة وقربا إلى نفسها، من بين جميع هؤلاء الغرباء الكثير. وإنما تثق به تماما لأن الشاب متعلق بها. ولقد طمأنها واعدأ إياها، أن يحررها من منزل القيصر، والآن يتخلى عنها، وأن يحقق لها كل ما ترغب فيه. وعلى عكس ما جرى حين تحدثا في منزل أولوس، حيث كان حديثه معها عن الحب والسعادة، لكنه الآن يفصح لها مباشرة بأنه يحبها، وأنها أغلى والطف مخلوق بالنسبة إليه. الآن تسمع للمرة الأولى من فم رجل مثل هذه الكلمات التي غمرتها بالسعادة إلى جانب الطمأنينة، وجعلتها تظن نفسها في حلم لا في يقظة. بدأ وجهها يتوهج، وقلبه يخفق بشدة، وتباعدت شفتاها من كثرة الدهول. ساورها الخوف لسماعها مثل هذه الأمور، لكنها مع ذلك لا تقايض كلمة واحدة منها حتى بكل ثروات الأرض. كانت تغمض عينيها تارة، وترفع وجهها نحو الشاب تارة أخرى، لتبدي تعابير مرتعشة، مرتبكة، عاجة بالتساؤلات، كأنما تريد أن تقول "مزيدا، مزيدا" دوّخها الصخب والموسيقا، وعبق الازهار، وروائح الابخرة العربية: جرت العادة في روما أن يضطجع المرء في المآدب جانب المائدة، فيما كان مكان ليفيا في المنزل بين بومونيا وأولوس الصغير. أما الآن فألى جانبها فينيكوس الفتى القوي المتوهج حبًا، وهاهي ذي تشعر بالحياء المشوب باللذة، إزاء ما بدر من الشاب من حرارة متدفقة.

شعرت بشيء لذيذ من الوهن والاسترخاء، والخفة، كأنما شالها  
الحلم وطاربها.

أحسّ فينيكوس بأن قرب ليفيا منه بدأ يفرض تأثيره عليه، فشحب  
وجهه، وتوسّع خيشوماه كحصان شرقي فحل. ودلّ تسارع أنفاسه  
على ضربات قلبه الشديدة تحت الرداء القرمزي. وتعثّر نطقه بالكلمات.  
ولا غرابة في ذلك، مادام يشعر للمرة الأولى بقربه الشديد من ليفيا.

اضطربت أفكاره، وأحس بسريان النار في عروقه، فلم يجده نفعاً  
احتساء النبيذ لإخمادها. ليس النبيذ ما أوقعه في الثمالة، وفاقم من  
سكره، بل وجه ليفيا البديع، وذراعاها العاريان، وصدرها العذري  
التموج تحت ردائها الذهبي، وسائر جسدها المتوارى في ثنايا قميصها  
البوبلين. وأخيراً أمسك بمعصمها، كما فعل مرة في منزل أولوس،  
وجذبها نحوه، وهمس لها بشفتين ترتجفان

- أحبك يا كالينا الإلهية

- دعني أرجوك.

لكن الشاب لم يتوقف عن الكلام، وقد غلّفت عينيه غشاوة ضبابية

- كالينا الإلهية ! أحبيني أنت كذلك.

في هذه اللحظة رنّ صوت أكتي المضطجعة في الجهة الأخرى من  
ليفيا

- القيصر ينظر نحوكما.

فما كان من فينيكوس على حين غرة، إلا أن ثار غضبا ضد القيصر و أكتي. فما تفوهت به أكتي أفقده نشوة السكره. وإن كان كلامها وديًا، فقد اعتبره حتى هذه اللحظة عدائيًا، وشعر أن أكتي تتعمد تعكير صفو حديثه مع ليفيا.

رفع رأسه، ومال من وراء كتف ليفيا ليقول للمعتوقة الشابة بغضب :

- مضى ذلك الزمن حين كنت تضطجعين في المأدبة إلى جانب القيصر.

ويقال عنك أيضاً إن العمى يهددك، فكيف تلمحينه؟

فأجابت الفتاة حزينة:

- رغم ذلك المحه... وهو أيضاً ضعيف البصر، لكنه ينظر إليكما من خلال الزمرّدة.

ما يفعله القيصر كان يولد اليقظة والاحتراس، حتى في أضيق أوساطه. من هنا نشأ قلق فينيكوس المشروع. هداً واختلس النظرات نحو القيصر. وكذلك فعلت ليفيا بفضول، ووجل، رغم أنها لم تنظر ناحيته حتى الآن لانشغالها بالشاب وحديثه معها.

كانت أكتي تقول الحقيقة. مال القيصر فوق المائدة، وأغمض إحدى عينيه، ثم بإصبعين من أصابعه وضع المنظار الزمردي أمام عينه الثانية وراح ينظر اليهما. كانت ليفيا أول من شاهدها، فانفطر قلبها من الذعر. تذكّرت تنانين الحكايات في الطفولة. وأحسّت أن تنيناً أخضر العيون ينظر نحوها. ضغطت على يد فينيكوس كطفل مذعور،

وتلاحقت الخواطر المزعجة في رأسها. إذن هذا هو! الرهيب، القادر على كل شيء. لم تقع عيناها عليه حتى الان. كانت تتصوره على شاكلة أخرى، وجها مرعبا، وممكنا للشرور. لكن ما تراه الان ليس الا رأس ضخمة تعتلي عنقا ثخينا. صحيح أن المشهد كان مريعا، لكنه أيضاً مثير للضحك. لقد كان يبدو من بعيد برأسه هذه طفلا حقيقيا. رداؤه أرجواني اللون مشتق من لون الحجر الكريم الجمشت، ولا يجوز لأحد غيره من الفنانين أن يرتدي مثيلا له. انعكس لونه على وجهه العريض القصير. شعر داكن حسب موضحة أو ثوب بأربعة صفوف من البكرات. كان حليق الذقن بعد أن ضحى بلحيته لجوبيتر منذ وقت قريب، الأمر الذي لاقى استحساناً وحمداً ظاهرين في روما كلها، ولو أنهم قد اشاعوا في الخفاء، أن القيصر قد أقدم على هذه التضحية قبل أن يصبح صاحب لحيّة حمراء كسائر أفراد أسرته.

لكن السلالة الأוליبيّة كانت سمّة لا يمكن اللعب عليها، تبتدت جليّة بروز جبينه إلى أمام، وبتصال حاجبيه الموحى بالقدرة الكليّة. وأسفل هذا الجبين النصف الالهي امتد وجه قرد مضحك لواحد من الفاسقين الخليعين يوحى بمختلف الانفعالات والعواطف. كان وجها مكتنزا بدينا بدا عليه المرض رغم حداثة السن. قرأت فيه ليفيا عدواً، لكنها رأته منفراً قبل أي اعتبار.

وبعد قليل أنزل نظارته الزمرديّة، ولم يعد ينظر ناحية الفتاة.

تمكنت ليفيا الان من رؤية عينيه الزرقاوين المنتفختين، وقد أغمضهما نصف إغماضة بفعل الاضواء المبهرة. كانت العينان زجاجيتين مطفأتين كأعين الموتى.

أما القيصر فقد التفت إلى بترونيوس ليقول له:

- أهذه هي الرهينة التي يحبها فينيكوس؟

- أجل

- ومن أي قوم؟

- من الليغوس

- وهل يجدها فينيكوس جميلة؟

- ضع أي رداء نسائي على جذع زيتونة عجفاء، سيراهها فينيكوس جميلة. لكنني استطعت من خلال تعابير وجهك، وأنت فنان لا يجارى في رفعة ذائقته، أن أقرأ رأيك فيها. فلا تتعب نفسك وتفصح عنه. طبعاً. شديدة النحول! سقيمة! زهرة خشخاش حقيقية على ساق رفيعة. وأنت كخبير إلهي في الجمال تقوم المرأة من خلال قدها. وإنك لمحق في ذلك أضعافاً وأضعافاً. الوجه، منفرداً لا يعني شيئاً. لقد تعلمت منك الكثير، لكنني لم أصل إلى هذه الدرجة من النظرة الثاقبة، وصواب الرأي. أجرؤ أن أراهن إن كان أحد من كل هؤلاء المضطجعين في المأدبة، حتى توليوس، يستطيع أن يكون فكرة عن قدها وهيئتها. لكنني أجزم أنك تقول في قرارة نفسك "مؤخرتها أصغر مما يجب". فأجاب نيرون مغمضاً عينيه نصف إغماضة :

- عجيزتها أصغر مما ينبغي

ارتسمت على فم بترونيوس ابتسامة لا تلاحظ. لكن توليوس الذي كان في هذه اللحظة يجادل فيستنوس، لا بل يشن هجوماً لاذعاً عليه، منتقصاً من قدر الأحلام التي يؤمن بها، التفت الآن نحو بترونيوس. وبما أنه لم يكن حتى ليخمن مادة الحديث الدائر قال:

- أنت مخطئ، وأنا رأيي من رأي القيصر.

فرد بترونيوس

- حسنا. كنت أحاول أن أثبت أنك، رغم كل شيء، تمتلك قليلا من العقل. في حين كان القيصر يقول إنك حمار لا حيلة لتزويره.

- استحقها!

قال نيرون ضاحكا، وقلب إبهامه إلى أسفل، مثلما جرت العادة في السيرك، إشارة إلى أن المجالد قد جرح، وصار يستحق طعنة الرحمة.

أما فيستوس فقد أكد أن الجدل كان يدور حول الأحلام، فقال:

- أنا أو من بالأحلام. و سينيكا أيضاً قد قال اليوم أنه يؤمن بها.

فمالت كالفيا على المائدة لتقول:

- حلمت ليلة أمس أنني صرت عذراء فيستا

صفق نيرون لهذا، وتبعه بالتصفيق آخرون. استمر التصفيق الصاخب لمدة، باعتبار أن كالفيا كريسيبينا امرأة طالق مرات عديدة، وقد اشتهرت في أرجاء روما بتسيبها الاخلاقي المتطرف. فلم تشعر بأي حرج، وتابعت تقول:

- وماذا بعد! هؤلاء جميعا عجائز وقبيحون. روبريا الوحيد الذي يتمتع بسيماء إنسانية، وكان علينا أن نكون معا الان، لولا أن بثورا تنفر في وجهه صيفا.

فقاطعها بترونيوس قائلاً:

- عذراً يا كالفيا العذراء. لكنك عذراء فيستا في منامك فقط.

- وإن أمر القيصر بذلك؟

- عندئذ سأؤمن أن أغرب الأحلام يمكن أن تتحقق.

فقال فيستنوس :

- تتحقق فعلاً. أنا أتفهم أولئك الذين لا يؤمنون بالآلهة. لكنني استغرب أن أحداً لا يؤمن بالأحلام.

فسأله نيرون :

- وماذا عن التنبؤات؟ تنبؤوا لي مرة أن روما ستمحى من الوجود، وأنتي سأنصب حاكماً على الشرق كله.

علق فيستنوس قائلاً :

- التنبؤات والأحلام. هنالك علاقة تربطهما. ذات مرة قام أحد الحكام العسكريين، وهو من المتشككين الكبار، بإرسال رسالة مختومة إلى معبد موبسوس، محذراً حامل الرسالة أن يحاول فضها؟ أمضى العبد حامل الرسالة ليلته في المعبد لعل حالما يجيئه في المنام. ثم رجع إلى سيده. يقول :

جاءني في المنام شاب مضيئ كالشمس، وقال لي كلمة واحدة لاغير "أسود". شحب الحاكم لسماعة الكلمة، والتفت إلى ضيوفه المشككين من أمثاله وقال

- أتعلمون ماذا كان في الرسالة؟

وقطع فيستنوس حديثه رافعا قدحه إلى شفثيه واجترع منه.

فسأله سينسيو

- ماذا؟

- لقد سألت في رسالتي: أي عجل أختار للاضحية، أبيض أم أسود؟

لكن التشويق الذي ولدته الحادثة في وجود الحضور، قد أربكه فيتليوس الذي جاء المأدبة ثملا، وفرقع قهقهة فجائية لا سبب لها.

فسأله نيرون :

- ولم يضحك برميل الشحم هذا؟

فأجابه به بترونيوس :

- الضحك يميز الانسان عن الحيوان، وهو لا إثبات آخر لديه بأنه ليس خنزيراً.

كف فيتليوس عن الضحك. فغر شفثين لما عتين من الدهن والتبلة، وصدق بالحضور مستغرباً، كأنه يراهم للمرة الاولى في حياته. ثم رفع كفه المكتنزة، وقال بصوت أجش:

- سقط من إصبعي الخاتم الذي ورثته عن أبي.

وأضاف نيرون مكملاً العبارة:

- الذي كان اسكافيا.



لكن فيتايوس كرّر قهقهته العالّية، وبدأ يفتش عن الخاتم في رداء كالفيا.

لكن نيجيديا العانس صديقة كالفيا علقت بصوت مرتفع :

- إنه يبحث عن شيء لم يفقده.

وعبر الشاعر لوكانوس قائلاً :

- شيء لا فائدة منه حتى لو عثر عليه.

بلغ جو المأدبة أوجه. جاء الخدم مرة أخرى بأصناف جديدة من المآكل والشراب، وتساقطت الورود من الاعلى فوق الموائد والمدعوين والح بترونيوس راجيا نيرون أن يتحف حفل المأدبة بغنائه قبل أن يودي اجتراع الشراب بالحضور، ويوصلهم إلى الثمالة، فاستحقت الفكرة الدعم من الجميع، لكن نيرون أبى ذلك معذراً. ولا يعود اعتذاره إلى خشيته، وعدم جرأته على الغناء، بقدر ما يعود إلى رفضه الأمر لأسباب تتعلق بجودة صوته.

صحيح أنه لا يريد أن يتملص من هذه المهمة الموكلة اليه خدمة للفن، خاصة وأن أبولو قد من عليه بقدر من الصوت الحسن، ولا يجوز له أن يضيع، ولا أن يستهين بهذه النعمة التي منحها الالهة. وهو يدرك أن ذلك لزام عليه أمام الحكومة، لكن صوته هذا اليوم أجش، ولا ينفع في الواقع للغناء.

في الليل وضع على صدره أثقالا من الرصاص، فلم تنفعه. حتى أنه فكر في السفر إلى الأنتيوم لاستنشاق الهواء البحري. لكن لوكانوس الح عليه أيما الحاح باسم الفن والانسانية. ما من أحد الا ويعلم أن

الشاعر، والمغني الملهم قد الف في مديح فينوس نشيدا إذا ما قورن به نشيد لو كرتيوس كان الاخير أشبه بعواء جرو ذئب. فلتكن هذه المأدبة عيدا حقيقيا. فمن غير المعقول، ولا الجائز أن يقوم حاكم بهذا الصلاح، بتعذيب محكوميه لهذه الدرجة.

- لا تكن قاسيا يا قيصر!

فردد كل الجلساء هنا:

- لا تكن قاسيا

ففتح نيرون ذراعيه إشارة إلى أنه مرغم على القبول.

أبدت الوجوه علائم الامتنان، وتوجهت اليه كل الانظار.

كان القيصر قد أبلغ بوبيا من قبل أنه سيغني، لكنه راح الان يشرح للحضور أنها متوعكة، ولم تأت إلى المأدبة، رغم أن ما تستخدمه من علاجات طبيّة لم يكن يريد أن يحرمها من هذا الحفل.

لكن بوبيا سرعان ما حضرت.

كانت بوبيا تسيطر على نيرون كل السيطرة، كأنه أحد رعاياها. ولكنها، حفاظا على ما يمتلك من أحاسيس تجاه مواهبه من شعر، وغناء، وقيادة عربات، رأت أن لا سبيل لمس هذه الأحاسيس بالأذى. فكان أن جاءت إلى المأدبة بكل هذه الروعة، كالهة شقراء، في جيدها عقد من اللالئ الضخمة هو من غنائم الحرب في ماسينيا. وعلى الرغم من أنها امرأة طالق مرتين من رجلين آخرين، فقد بدت عذراوية نضيرة الملامح.

" يا أوغستوس الالهي " عبارة صدحت عاليا ترحيبا بها.

لم تصدق ليفيا ما رآته عيناها من هذا الجمال الخارق، الذي لم تشهد له مثيلا من قبل، خاصة وأنها تعلم أن بوبيا إحدى أتفه و أرذل نساء الكون. لقد سمعت من بومبونيا أنها من حرضت القيصر لاغتيال أمه وزوجته. ولقد عرفتها أيضاً من خلال أحاديث ضيوف أولوس وخدمه. سمعت أن تماثيلها تحطم ليلا في المدينة. وسمعت المناشير التي كانت تشاهد كل صباح على جدران المدينة، تدينها بأقسى الاتهامات. وهاهي ذي الان وجها لوجه أمام بوبيا الذائعة الصيت، التي يعتبرها أتباع كريستوس المسيح تجسيدا للرديلة. لكنها مع ذلك لم تطرف، ولم تغض البصر عنها، لأنها بكل بساطة، لم تقو على ذلك. وافترت شفتاها عفويا بالسؤال :

- ما الذي أراه يا فينيكوس؟ أيعقل هذا؟

لكن الشاب، قد أسكره شرب النبيذ، كأنما فقد بصره، وأزعجه أن محبوبته

تنشغل عنه وعن حديثه بأمر آخر، فأجاب:

- أجل إنها جميلة. لكنك أجمل بالف مرة. أنت لا تعرفين نفسك، ولو عرفتها لوقعت في غرام نفسك مثل كنارسيوس... هي تستحم بحليب الحمير، وأنت تستحمين بحليب فينوس نفسها يا نور عيني.

لا تنظري نحوها. خلي عينيك علي، يا ضوء عيني، ولا مسي بشفتيك حافة القدح لتذوب شفتاي هناك.

وجر نفسه ليقرب أكثر فأكثر، فتراجعت ليفيا نحو أكتي. وفي هذه اللحظة أشير إلى الجميع أن يلتزم الصمت لأن القيصر انتصب واقفا.

ناولته المغني ديودورس الة العود المثلثية الشكل، بينما تقدم ترينوس بالته الوترية نابليوم ليرافق القيصر بالعزف. أسند القيصر الة المثلثية على المائدة، ورفع عينيه. وساد لمدة صمت لم يعكسه الا خشخشة الورود المتساقطة من الاعلى دون انقطاع. وبصحة الاليتين الوتريتين بدأ القيصر الغناء، ومن الافضل القول بدأ أداءه الغنائي الايقاعي لنشيد فينوس. لم يكن الصوت المشوب بشيء من البحة متصفا بأدنى حد من الرداءة، وكذلك الشعر. فشعرت ليفيا مرة أخرى بتأنيب الضمير بعد أن وجدت النشيد الذي يمجّد فينوس الوثنية رائعاً. وكذلك القيصر، فقد بدا بشموخ رأسه، والاكليل حول جبينه، أكثر رفعة ورقياً، ولم يكن بتلك البشاعة التي ميزته في بداية المأدبة.

كان رد الحاضرين بعاصفة من التصفيق. وسمعت هتافات جاءت من كل صوب "ياللصوت السماوي". ورفعت بعض النساء أياديهن عالياً تعبيراً عن إعجابهنّ الشديد، وبقين كذلك حتى بعد نهاية الغناء. وراحت نساء أخريات يجفن دموعهن، فبدت الصالة خالية نشطة من النحل.

أحنت بوبيا الشقراء رأسها الصغير، ورفع نيرون يديه إلى شفثيه وأبقاهما مرة هناك دون أن يتكلم. أما الشاب الإغريقي الفائق الوسامة والجمال بيتاغوراس وهو نفسه الذي نيرون النصف مجنون، وبارك الفلامنكبين بما يستوجب الطقوس كاملة فقد جثا الان على ركبتيه أمام نيرون.

لكن تبررونيوس التفت نحو بترونيوس مشوقاً إلى إطرائه فكان رده:

- أما ما يخص الموسيقى، فلا بد أن أولوس الآن شاحب من شدة

خجله، وكذلك لو كانوس الموجود هنا. أما عن الشعر فيؤسفني أنه وإن كان ليس أضعف من سواه من الشعر، لا أملك كلمات لامتداحه.

لم يغضب لو كانوس من استهدافه، وإثارة غيرته، بل كان منه أن رمق بترونيوس بنظرة امتنان، وغمغم بشيء من الانزعاج

- اللعنة على قدر حكم علي بأن أكون من أتراب شاعر عظيم. ولولا ذلك لأتيح له أن يبقى في الذاكرة الشعبية. ولكن قدره الآن أن يصبح هامشياً كمشعل للنور إلى جانب الشمس.

واستشهد بترونيوس الذي يتمتع بذاكرة وقادة بمقاطع من النشيد مرددا بعض الابيات الشعرية ليثني على أجمل العبارات فيها. أما لو كانوس، وكأنه قد تخلى عن إحساس الغيرة، بما أوقعته جمالية الشعر من تأثير في نفسه، فقد تجاوز عبارات بترونيوس الاطرائية. وشع وجه نيرون بسيماء هي خليط لاقرار له من اللذة والزهو بلغا به حد البلاهة. ثم لفت الانتباه إلى أجمل الابيات في اعتباره. وواسى لو كانوس مشجعاً إياه الا يفقد حماسه، فليس بمقدور المرء أن يكون سوى ما قد ر له أن يكون، وإن القرابين إذا ما قدمت إلى جوبيتر لا تغني عن تقديمها إلى الهة أخرى كذلك.

قال ذلك ونهض واقفا ليرافق بوبيا التي كانت مريضة حقا، وأرادت أن تنسحب، طالباً من المدعوين المتبقين العودة إلى المأدبة لأنه سيرجع اليهم. وسرعان ما عاد ليستنشق ما يجود به المتملقون من عقب المديح، ويستمتع بما تبقى من البرنامج الذي أعده لهذه المأدبة بمشاركة كل من بترونيوس و تيغالينوس. وأنصتوا من جديد لما أنشده من شعر، وخاضوا في أمور غريبة بعيدة عن براعة الحديث. ثم جاء باريس أشهر الممثلين ولعب مغامرات ابنة إنا كوس. لم يالف الحاضرون، ومن بينهم

ليفيا خاصة، مثل هذه المشاهد التي بدت للجميع كأنها عجائب سحرية.

كان باريس بارعاً في أداء حركات إيحائية يعجز الرقص أن يعبر عنها.

بحركات يديه شكل من الهواء سحابة كثيفة مبهجة أخاذة، لها قابلية الحركة والاهتزاز، راحت تعانق قداً أنثوياً كان يرتعش تحت تأثير العناق. لم يكن العرض من النوع الراقص، بل مشهداً سحرياً خليعاً في غاية الجمال، فشى أسرار الحب.

وبعد الانتهاء من اللوحة الایمائيّة الراقصة، دخلت جوقة سييل بالاتها الموسیقیّة من قيثارات، ونايات، وطبول، وصنوج، وأدت بمشاركة الفتيات السوريات رقصة باخوس، بكثير من الصياح والصخب. أحست ليفيا أن نيرانا حيّة ستندلع حالا، وتقوم بشيها، وأن صاعقة ستجتاح هذا المنزل، ويتداعى سقفه فوق رؤوس المدعوين.

لكن لم يتساقط من الشبكة الذهبية المشدودة تحت السقف، غير الورد: خاطبها فينيكوس وقد انتشى سكرًا:

- رأيتك قرب النافورة في منزل أولوس، وأحببتك. كان الوقت فجرًا، وكنت تظنين أن لأحد يراك. لكني رأيتك. وما زال طيفك، وأنت في قميصك، ماثلاً أما عيني حتى الآن. الالهة كما البشر ينشدون الحب جميعاً. لا شيء في الحياة يفوق الحب. أسندي رأسك على صدري، وأغمضي عينيك.

شعرت الفتاة أن قواها تجتمع في قبضتها، وتنبض في صدغيها. كان شعورها أنها تهوي في هوة سحيقة. فينيكوس الغريب، الحميم، الثقة، الذي وجدت فيه منقداً، يشدها أكثر، ويدفعها إلى الهاوية.

شعرت بوطأته، وعبئه عليها، وساورتها الخشيّة منه، ومن الأدبة، وحتى من نفسها.

صوت أشبه بصوت بومبونيا ما يزال يصرخ في صميمها "اهربي يا ليفيا". لكن شيئاً وشوشها قائلاً: لقد فات الاوان. ولا مناجاة لك بعد الان.

سءت حالها تماماً، وأحست بالغثيان، وبأن شيئاً مريعاً سوف يحدث، كانت تعرف أنها ستثير غضب القيصر ضدها، إذا ما غادرت المكان قبل إعلانه انتهاء الأدبة. فلم تفعل، خاصة وأن قواها قد خارت.

لكن نهاية الأدبة كانت بعيدة. فالعبيد مازالوا يأتون بالاطياب من كل صنف، ويملؤون الاقداح الفارغة. وظهر أمام الموائد المصفوفة على شكل نضوي مصارعان سرعان ما تشابكا لتسليّة الضيوف. تلاحم جسداهما الضخمان الملتمعان بالزيت، فاستمتع الجميع أيما استمتاع بالنزال الذي لم يدم طويلاً، لأن كروتون وهو أقوى مصارعي روما بلا منازع، وقائد مدرسة من مدارس المجالدة ما لبث أن أطاح بخصمه الذي تسارعت أنفاسه، وازرق وجهه، وانثق الدم من فمه، ثم خرّ أرضاً.

لوقيت نهاية المنازلة بعاصفة من التصفيق، في حين راح كروتون وقد وضع رجله فوق ظهر خصمه، و صالب يديه فوق صدره يجيل النظر مزهواً في أنحاء الصالة.

وبعد ذلك، جاء دور الكوميديين الذين يقلدون الحيوانات والأصوات الحيوانية، والمهرجون، لكن الضيوف لم يلتفتوا اليهم كثيراً، لأن النبيذ كان قد أزاغ أبصارهم. كانت الأدبة قد استحالت شيئاً فشيئاً إلى احتفال مخمور صاخب. فالفتيات السوريات اللواتي

أدين رقصة باخوس توزع بين المدعويين، واستحالت موسيقا  
القيثارات والاعواد، والصنوج الارمينية، والالات المصرية، إلى مجرد  
قرعة صاخبة. فإذا ما رغب المدعون بالتحادث اضطروا أولاً إلى  
قذف الموسيقيين بالشتائم طالبين منهم المغادرة.

تطيرت الزهور في الهواء، وامتلاً الجو بعبق الزيوت العطرية، التي  
لم ينقطع الفتية الصغار الجميلون عن رذها بين المدعويين طوال فترة  
المأدبة، فعبقت رائحة الزعفران، واختلطت برائحة الانفاس، حتى  
بات الجو خانقاً، وأضحت المصابيح تنشر أنواراً باهتة، وانزلت  
الاكاليل على الجباه، وشحبت الوجوه، وتعفن العرق فوقها.

هبط فتليوس تحت الطاولة، وأسندت نيجيديا المخمورة النصف  
عارية رأسها الطفولي على صدر لوكانوس المخمور كذلك، فراح  
يترد مسحوق الزينة الذهبي عن شعر المرأة، مبدياً سعادة فائقة.

أما فيستنوس فقد كرر بدهاء السكير، ردّ موبسوس على رسالة  
الحاكم العسكري، ليجيبه توليوس الشكاك بصوت متقطع بفعل  
الحازوقة :

- إن كان سفيروزا دائرياً، فباستطاعة المرء أن يدحرجه أمامه كبرميل.

لكن دوميتوس أفر النمام العجوز، فقد بلغ غضبه إثر هذا الحديث  
حدا جعله يبلل ملابسه بالنييد الغالرنوسي. كان دائماً من المؤمنين  
بالآلهة. يتناقل الناس أن روما سوف تدمر، وهناك من يقول أن هذا  
الدمار قد بدأ من الان. وهذه حقيقة...

لكن لو حدث ذلك، فلن يحدث الا لأن جيل الشباب غير مؤمن.  
فلا قوة لأحد دون إيمان. حتى أنهم قد تخلوا عن الاخلاق الاصيله.



ولا يكثر أحد من بينهم بأن الايقوريين لن يحموا البلاد من البرابرة. لا جدوى. لكم يؤسفه أنه يعيش أزمنة يلوذ فيها الناس بالمتع هروبا من المآسي التي تحيق بهم.

واجتذب إليه راقصة سوريّة مهيلاً بغمه الأدرد القبلات فوق عنقها وكتفيها. حين رآه القنصل ريغولوس انفجر ضاحكاً ثم قال وهو يضع الأكليل على رأسه :

- من يقول إن روما سيلحق بها الدمار؟ حماقة!... أنا كقنصل، أعرف أكثر من الجميع... ثلاثون فيلقا يتولون حماية روما.

ورفع قبضته صائحا لسمع كل من في الصالة:

- ثلاثون فيلقا! ثلاثون فيلقا! على طول الحدود من بريطانيا حتى البارثيين!

ثم وضع سبابته على جبينه مستنكراً، وأردف يقول بصوت مرتفع

لا أدري إن كانوا اثنين وثلاثين فيلقاً.

لكن هذا العدد من الفيالق والالوية لم تطمئن دوميتوس ، وظل مصرا على أن روما ينالها الدمار في ظل غياب الايمان بالالهة، وفي ظل قساوة الاخلاق السائدة. لا بد من دمار روما، رغم الخسارة الكبيرة الناجمة عنه، لأن الحياة جميلة، والقيصر صالح ورحيم، والنبيذ لذيذ... يا لها من خسارة كبرى!

ثم دس رأسه في حوض الفتاة السوريّة، وانفجر باكياً يقول:

- ما الجدوى من الحياة الآتية؟ آخيل كان محقا بقوله: فقير تحت ضوء الشمس أفضل من حاكم في العالم السفلي.

كان لو كانوس قد أزال كل المسحوق الذهبي عن شعر نيجيديا التي أكثرت من شرب الخمر، واستسلمت للنوم. أخرج غصون اللبلاب من إناء الزهر أمامه وغطى بها المرأة النائمة.

- أنا لست إنسانا، بل فاون اله حقول

لم يصل بترونيوس إلى حد السكر. أما نيرون الذي تحفظ منذ البداية حرصا على صفاء صوته السماوي، فلم يشرب الا القليل. حتى أنه أراد أن يتابع الغناء فحاول بالاشعار الإغريقية، لكنه لم يفلح لأنها غابت عن ذاكرته، فطلع عفويا بأغنية أنا كرونية رافقه بأدائها كل من فيثاغوراس، و ديودروس و تبرنبوس. وبما أنهم فشلوا جميعا فقد كفوا عن الغناء. أما نيرون الخبير، والفنان، فراح يثني على جمال فيثاغوراس ويقبل يدها. لقد رأى في السابق جمالا بمثل جمال هذه اليد... لكن أين؟ ويد من كانت؟

وضع يده على جبينه المتعرق مستفكرا، وسرعان ما شع وجهه بالخوف.

آها. آها. كانت يد أمه أكرينا.

ودهمته بغتة صور قائمة. غمغم:

- يقال ان روحها في الليالي القمرية تطوف حول بايا و باولا... وكانها تبحث عن شيء ما. وكلما اقتربت من قارب للصيد نظرت داخله ثم تابعت التطواف. لكن كل من تراه من صيادي القوارب يموت في الحال.

فأوجز بترونيوس قائلاً :

- موضوع حديث ليس سيئاً.

مد فيستنوس عنقه كمالك الحزين، وهمس خفية :

- أنا لا أومن بالالهة، لكنني أومن بالارواح.

لم يكثرث نيرون بذلك وتابع كلامه :

- إنني أبارك أعياد أرواح الموتى، وأقدس ذكراها. لم أشأ أن أراها.

مضى خمس سنوات على موتها... كان علي ذلك، كان علي أن احكم عليها لأنها أرسلت من يقتلني. ولو لم أستبق الأمر، لما تسنى لكم الان أن تسمعوا غنائي.

فصاح دوميتوس أفر

- حمدا لك يا قيصر باسم المدينة والعالم بأسره.

- هات النبيذ ولتقرع الطبول!

واندلع الضجيج مجدداً، بينما راح لوكانوس يصرخ بأعلى صوته:

- أنا لست إنساناً بل فاون. الغابة مكاني.

وفي النهاية انطفأ القيصر من السكر. ومثله سائر الرجال والنساء، وكذلك على الأقل كان حال فينيكوس، إضافة إلى ما تولد فيه من رغبة في الشجار، كحاله على الدوام حين يتجاوز حدّه في الشرب.

بات وجهه أكثر شحوباً، وتلعثم بالكلام حين قال بصوت آخر:

- هاتي فمك! اليوم أو غدا لا فرق! كفى من كل هذا. القيصر أتى بك من عند أولوس ليهديني إياك. أتدرين؟ غدا عند الغروب سأرسلهم من أجلك اتفهمين؟ لقد وعدني القيصر حتى قبل أن يأتي بك... ستكونين لي. هاتي فمك لا أريد الانتظار حتى الغد.

هاتي فمك هيا.

وعانقها. لكن أكتي استنفرت حالاً لحمايتها. وصدته ليفيا بما لديها من قوة، لأنها شعرت أن الأرض ستبتلعها.

لكن محاولتها خابت، ولم يجدها نفعا كل ما بذلته من قوة صد متبقية لديها. خاب ذراعاها وهما يدفعان ذراعي الشاب الأملسين.

خاب صوتها المرتعش وهي تصدّه راجية إياه أن يرأف بها. صارت أنفاسه العابقة برائحة النيذ تقترب من أنفاسها حتى لامس بوجهه وجهها. لم تعد الفتاة تراه ذلك الشاب اللطيف المقرب إلى روحها، بل وجدت فيه سكيراً شريراً ملاًها بالقرف والرغبة.

وأشاحت بوجهها محاولة تجنب القبلة، لأن الشاب كان قد نهض واجتذب رأسها بكلتا يديه نحو صدره، والصق فمه بشفتي ليفيا الشاحبتين المنكمشتين. وفي هذه اللحظة أحس بقوة هائلة تضغط على يديه، وتبعدها عن عنق ليفيا. ما الذي حصل؟ أدار فينيكوس عينيه الذاهلتين ليرى عملاقاً إلى جانبه. كان أورسوس الليغوي الذي تعرّف به في منزل أولوس.

انتصب الليغوي هناك بكل هدوء، ولكنه رمق فينيكوس بنظرة مستغربة صدرت من عينيه الزرقاوين فجمد الدم في عروقه. لف الليغوي فتاته الملكية بذراعه، وغادر بها التريسيلينوم بخطوات ثابتة وخافتة.

تسمّر فينيكوس للحظة في مكانه. ثم قفز مندفعاً نحو الباب.

- ليفيا! ليفيا!

لكن مزيجاً من الرغبة الحسيّة، والذهول، والغضب الوحشي والنيذ قد أوهن قدميه، وصار يترنّح. وفيما بعد ضغط على ذراع المرأة الباخوسيّة وشالها.

- ما الذي حصل هنا؟

تناولت إبريقاً من النبيذ، وقدمته له بعينين ضبايتين باسمتين

- اشرب

أتى فينيكوس على مافي الإبريق وانطلق.

كانت الغالبية العظمى من الضيوف قد اضطجعت تحت الموائد، وقام آخرون بالتنقل بخطوات مترنحة في التريسليوم، وغط سواهم في النوم على الديوانات قرب الموائد، فيما كانت الورود تنهال متساقطة من الشباك الذهبية المشدودة في السقف فوق المدعوين الثملين من قناصل، وسيناتورات، وفرسان، وشعراء، وفلاسفة، وراقصات. وفوق هذا العالم الذي مازال كلي القدرة، ولكنه بات عديم الروح ولو أنه مازال مزخرفاً بالاكاليل.

وفي الخارج كان الفجر ينبلع.

لم يقف أحد في طريق أرسوس، ولم يوجه له سؤالا عما يفعل. وأولئك المدعوون الذين لم يتمددوا بعد تحت الطاولات، لم يبقوا في أماكن جلوسهم. وعناصر الخدم، وقد رأوا العملاق محتضنا الفتاة الضيفة، ظنوه واحداً من العبيد يأخذ سيده الثملة من المأدبة. خاصة وأن أكتي كانت برفقتها، الأمر الذي أبعده كل شك قد ينشأ بخصوصهما.

وهكذا فقد خرجا متوجهين إلى الغرفة المجاورة. بينما انعطفت أكتي وسلكت الممشى المؤدي إلى منزلها.

كانت ليفيا خائفة القوى إلى حد أنها القت بثقلها كله على ذراع أرسوس، لكن لفحة النسائم الصباحية النقية المنعشة جعلتها تفتح عينيها. كان الفجر قد انقشع في الخارج. سارا بمحاذاة صف العمدان المؤدي إلى حديقة القصر، حيث كانت أشجار السرو قد لونتها حمرة الفجر.

كان هذا الجانب من البناء خالياً تماماً، وضجيج الموسيقى والمدعويين قد تخامد. شعرت ليفيا أنها تخلصت من الجحيم، وأصبحت في ملكوت الله المشرق. ورغم ذلك، كان ثمة خارج التريسلينيوم شيء يدعو إلى الاشمئزاز. السماء، شفق الفجر، الضوء، السكون. انفجرت الفتاة بالبكاء، واستجارت بالعملاق قائلة:

- إلى المنزل يا أرسوس، إلى المنزل، إلى عند أولوس.

- نحن ذاهبان إلى هناك.

لكنهما دخلا إلى غرفة من غرف منزل أكتي.

وهناك، أجلسها على مقعد رخامي قرب النافورة.

راحت أكتي تهدئ من روعها، وتقنعها بأن تستلقي، مؤكدة لها أن لا شيء يهددها حالياً، لأن المدعوين الثملين باتوا جميعاً يغطون في النوم، لكن ليفيا ظلت طويلاً مضطربة تضغط براحتها على صدغها، وتقول كطفل صغير:

- إلى المنزل، إلى عند أولوس.

كان أرسوس مستعداً لذلك، وكان بإمكانه أن يعبر المداخل رغم وجود الحراس هناك. فالجنود لا شأن لهم بالمغادرين، ولا يمنعون أحداً من الخارج. ولقد ركن أمام المدخل الكثير من الهوادج. فبوسعهما إذن أن يخرجاً من هذه الحشود المغادرة، ويتوجها إلى المنزل. وفي كل الأحوال لا هم في ذلك فما تأمر به السيدة الملكية، على الجميع أن يخضعوا له. ولهذا هي الآن هنا.

أما ليفيا لم تكف عن الحاحها قائلة:

- هيا يا أرسوس، لنذهب

وكان على أكتي أن تستخدم ذكاءها

أجل كان خروجهما أمراً يسيراً، ولن يوقفهما أحد. لكن الهرب من منزل القيصر أمر غير جائز. ومن يقدم عليه يحققه القيصر. أجل يخرجان، لكن قائد المئة سيتقدم على رأس دوريته، ويده حكم الإعدام لكل من أولوس و بومبونيا. وسيعيد ليفيا إلى القصر.

وعندئذ لا منجاة لها حقاً.

فقلت ليفيا راحتها حائرة لا تدري ماذا تفعل. عليها أن تختار. إما عائلة أولوس أو ضياعها. لقد حضرت المأدبة بأمل أن تعود إلى بومبونيا بعد أن يطلبها بترونيوس و فينيكوس من القيصر.

لكن النتيجة كانت عكس ذلك تماماً. لقد اقتادها القيصر من منزل أولوس بناء على طلبها. ولا منجاة لها الآن إلا بأعجوبة، أو بعون من الله.

قالت ليفيا يملؤها القنوط:

- أكتي! أسمعت ما قاله فينيكوس. القيصر سيقدمني هديه له. وأنه في المساء سيرسل من أجلي ليققادوني إلى منزله.  
- سمعته.

أجابت أكتي ولزمت الصمت. فالخيرة التي تخللت كلام ليفيا، لم تلق صدًى في نفسها. ولهذا أسبابه. ألم تكن عشيقة نيرون؟ صحيح أنها طيبة القلب، لكنها لا تحتمل أن تسترجع الخزي الذي الحقته بها هذه العلاقة. ليست في النتيجة فتاة من فئة العبيد؟

لقد الفت القوانين المتعلقة بالعبيد، ووضعت ذلك في حساباتها. ثم أنها مازالت حتى الآن تحب نيرون. فإن ما رغب القيصر في أن يعود إليها ستفتح له صدرها رحباً، وبمتمهي السعادة والفرح. فلم تقبل إذن ما تلغو به ليفيا حائرة بين أن تكون عشيقة فينيكوس الشاب الوسيم، وبين أن تضحي بنفسها، وبعائلة أولوس.

فقالت أخيراً



- حتى في منزل القيصر لن تكوني بذلك الأمان

وخطر لها: إن صح ما تقوله فإن كلامها يعني: "صوني قدرك، وكوني عشيقة فينيكوس". لكن الفتاة كانت ما تزال تشعر بقبلات الشاب الحيوانية الشبقة تكوي شفيتها كالجمر، ويحمر وجهها خجلا. فانفجرت زاعقة:

- أبدا. لن أبقى هنا، ولن أذهب مع فينيكوس أبدا. أبدا.

استغربت أكتي ثم ردها هذا، فسالتها:

- الهذه الدرجة تكرهين فينيكوس؟

لكنها لم تقو على الاجابة، لأنها انفجرت ثانية بالبكاء. وحين ضمتها أكتي إلى صدرها، هدأت. ولم يكن من أرسوس إلا أن ضم قبضتيه الضخمتين من شدة غيظه، لأنه كان يكن للمرأة الملكية حبا وفيا وفاء كلب لصاحبه. وقد شق عليه رؤيئة دموعها.

تملكت قلبه الليغوي الساذج رغبة في أن يعود إلى الصالة، ويقوم بخنق فينيكوس، بل والقيصر كذلك، لكنه لم يجرؤ على الجهر بهذا أمام سيدته. أما أكتي وقد ضمت ليفيا اليها، فتوجهت اليها بالسؤال ثانية:

- أتكرهين فينيكوس كل هذا الكره؟

فأجابت ليفيا

- لا. لا يجوز أن أكن له الكره لأني مسيحية.

- أعلم يا ليفيا. وأعرف من خلال رسائل بولس الترسوسي أنه يحرم عليكم الوقوع في العار. وأنكم لا تخافون الموت أكثر من الخطيئة. لكن قولي لي إذا ما كانت تعاليمكم تسمح لكم بالقتل.

- لا.

- إذن كيف لك أن تعرضي عائلة أولوس لنقمة القيصر؟

ساد صمت لحظي. وانشقت أمام ليفيا من جديد هوة سحيقة لا قرار لها.

لكن المرأة الطليقة تابعت تقول:

- أسالك حرصا عليك، وإشفاقا على بومبونيا الطيبة، وأولوس وطفلهما. أقيم في هذا المنزل منذ مدة طويلة، وأدرك أي خطر يهددك جراء غضب القيصر. لا. لا يمكن أن تسلموا بجلدكم. لم يبق أمامك سوى حل وحيد، هو أن تطلبي من فينيكوس أن يعيدك إلى بومبونيا.

لكن ليفيا جئت راکعة تتضرع إلى أحد آخر، وتبعها أرسوس بعد قليل.

وبدأ، عند الفجر، يصل يان هنا في منزل القيصر.

كانت هذه المرة الأولى التي ترى فيها أكتي صلاة كهذه. فلم تحتمل أن تشيح بعينيها عن ليفيا الراكعة رافعة الرأس، فاتحة يديها نحو السماء، كأنما تنتظر منجاة تهبط إليها من هناك. كان ضوء الفجر ينير شعرها الفاحم، ورداءها الأبيض، ويشع منعكسا من عينيها، فبدت تحت النور كأنها هي النور.

وكان في هذا الوجه الشاحب، والفم الفاجر، والذراعين المرفوعين،  
والعينين المتسمرتين المحدقتين نحو الاعلى، شيء من الجذل والنشوة.

أدركت أكتي الآن أن ليفيا لا يمكن أن تكون عشيقة أحد. كان  
نيرون امام عشيقته ستارة قائمة حجبت عنها عالما آخر، غير الذي كانت  
تألفه. أذهلتها هذه الصلاة، هنا في منزل العار والخطيئة.

كانت حتى الان، ما تزال تعتقد أن لا خلاص أمام ليفيا، لكنها  
بدأت تدرك الان أن أمرا استثنائيا يمكن أن يحصل، ويجيئها ذلك  
العون الاعجازي الذي لا يرد حتى بقوة القيصر. جيش مجنح يهبط  
اليها من السماء. والشمس تفرش أشعتها تحتها، وتلتقطها صاعدة  
بها إلى السماء، لقد سمعت بالكثير من الأعاجيب التي حصلت في  
الأرجاء المسيحية. وبدأت الان تصدقها أمام مشهد الفتاة المتعبدة.

نهضت ليفيا يشع وجهها بالامل. ونهض أرسوس كذلك، ثم  
جلس قرب مقعد صغير يترقب أوامر سيده.

لكن غشاوة كانت تغلف عيني الفتاة، وانهمرت منهما قطرتان  
كبيرتان من الدمع سالتا على وجهها. قالت:

- بارك الله بومبونيا و أولوس. لا يحق لي أن الحق بهما الاذى. إذن  
لن تراهما عيناى بعد الان.

ثم التفت إلى أرسوس، وأوضحت له أنه المتبقي الوحيد لها،  
وسيكون من الآن فصاعدا، ولي أمرها وأباها في نفس الوقت.

وليس لهما بعد الان أن يلجأ إلى أولوس و بومبونيا تجنبا لنقمة  
القيصر. لكنها لن تبقى لا في منزل القيصر، ولا حتى في منزل فينيكوس.

وطلبت من أرسوس أن يخرجها من المدينة، وينأى بها بعيدا عن أنظار فينيكوس وخدمه. وهي على استعداد للذهاب معه أينما يشاء خارج حدود حكم القيصر، حتى إلى ما وراء البحار والجبال إلى حيث البربر الذين لم يسمعوا باسم روما والرومان، ولا يطالهما أحد. فليمض بها بعيدا وينقدها، لأن أرسوس المتبقي الوحيد لها.

كان الليغوي جاهزا للقيام بأي شيء. وللدلالة على طاعته، فقد انحنى يعانق قدمي الفتاة. أما أكتي التي كانت تنتظر حدوث معجزة، فقد انعكست على وجهها ملامح الخيبة. أهذا هو كل ما تستطيع أن تفعله هذه الصلاة؟ الهروب من منزل القيصر يعني ارتكاب إثم كبير هو تحدي الهيبة. وهذا فعل لا يمر دون نقمة. فإن تمكنت ليفيا من الاختفاء فإن القيصر يفرغ نعمته في وجه عائلة أولوس. فإن أرادت أن تهرب فلتهرب من منزل فينيكوس لأن القيصر لا يحب أن ينشغل بقضايا الآخرين، وقد لا يساند فينيكوس في ملاحقتها، لأن فعلتها هذه لا تمس جلالته في شيء.

وكان هذا ما فكرت به ليفيا أيضاً، إضافة إلى أنها لن تخبر حتى أولوس و بومبونيا أين ستكون. ثم إنها لن تهرب من منزل فينيكوس، بل في أثناء توجهها إلى هناك. لقد أخبرها الشاب أنه سيرسل أرقائه من أجلها مساء. وقد أخذت كلامه على محمل الصدق مادام قد تلفظ به في حالة من الثمالة جعلته يبوح بمكنونات نفسه. قد يكون فينيكوس و برونوس سوياً قد قابلا القيصر قبل المأدبة، وحصلا على وعد منه بأن يطلق سراحها في المساء، فإن أهمل أمرها هذا اليوم، فلن ينسيها غدا بكل تأكيد.

لكن أرسوس سينقدها فيما بعد. ولكن ربما أن فينيكوس قد يعمد

إلى إرسال عدد كبير من رجاله الأرقاء، فإن أرسوس سيقصد الكاهن لينوس ويطلب منه النصح والعون. وسيقوم الكاهن بتلبية الطلب، ولن يدعها في قبضة فينيكوس، وسيدع المسيحيين يذهبون لمساعدة أرسوس. سيحررونها، ويسلمونها إلى أرسوس الذي سيتمكن من إبعادها عن أنظار الحكم الروماني.

دهمتها موجة من الاحمرار، وابتسمت. استردت الثقة، وكان الأمل بالهروب قد استحال إلى أمر واقع. مدت نفسها إلى عنق أكتي، وضغطت بشفتيها الرائعتين فوق وجهها، وشوشتها قائلة :

- لن تشي بنا يا أكتي اليس كذلك؟

فأجابتها أكتي:

- أقسم بطيف أمي أنني لن أشي بكما. لكن توجهي بالدعاء إلى ربك أن يتمكن أرسوس من تخليصك منهم.

وبرقت عينا العملاق الزرقاوان البريئتان مهلتين فرحا وطاعة. سيان عنده متى سينفذ ما يطلب منه في الليل أو في النهار لا يهم. سيقصد الكاهن الذي تلهمه السماء بما يجوز له أن يفعل. إلا أن بمقدوره أن يحشد المسيحيين، ولو كان معارفه من الأرقاء، أو المجالدين، أو الأحرار قلة. لكنه يستطيع أن يحشد ألفا بل ألفين منهم، ويحرر سيده، ويخرجها من المدينة، ويمضي بها إذا ما اضطر إلى ذلك، حتى نهاية الكون، حيث لم يسمع أحد بروما.

تسمرت حدقتاه أمامه، وكأنه ينظر إلى شيء بعيد، وقال:

- إلى الغابة. يا لها من غابة. يا لها من غابة كثيفة.

لكنه سرعان ما استعاد وعيه.

أجل سيذهب حالا إلى الكاهن، وفي المساء سيتجه برفقة مئة من أتباعه إلى اليهودج، ولو كان يحيط به عدد لا يحصى من الأرقاء والحرس. وهناك لن يتحمل أحد قبضته الحديدية.

لكن ليفيا رفعت سبابتها الطفولية الناعمة، وحذرت بلهجة صارمة.

- أرسوس! إياك والقتل!

مد اللليغوي يده الصولجانية الضخمة، وراح يحك قفا رأسه، وهو يدمدم شيئاً ما من شدة حنقه. ولكي يجاهر بحماسة الشديد الطافح على وجهه انحنى قائلاً:

- أنا ذاهب إلى الكاهن.

أما أكتي فقد لفت عنق ليفيا، وانفجرت باكية. أدركت مجدداً أن ثمة عالماً، حيث في ثنايا الألم ينطوي من السعادة أكثر مما في هذا القصر من أبهة وترف. لقد انفتح أمامها باب النور الابدي. ولكنها في نفس الوقت أدركت أنها غير جديرة بعبوره.

شعرت ليفيا بالشفقة إزاء بومبونيا التي كنت لها، كما لجميع أفراد منزل أولوس ودًا عميقًا. لكنها في مقابل ذلك قد تحررت تمامًا مما استبد بها من قنوط. حتى أنها شعرت بالفخر والاعتزاز، لأنها تضحي بالراحة والرفاه فداءً للحق، وتدفع بنفسها إلى حياة مجهولة المعالم. ولعلّ فضولاً طفوليًا قد شاب مشاعرها: كيف ستكون حياتها في مكان ما من البلدان القصية بين البرابرة والوحوش. لكن شعورها الطاغى كان إيمانها العميق بأن كل ما سوف تقوم به من سلوك، نابع من إرادة المعلم الالهي الذي سيرعاها مثلما يرعى ابنه المخلص المطيع، فلا ضير عليها، ولا خوف إذن. وإذا ما شاء الرب أن يلحق بها سوء فعليها أن ترضى بقدرها، باسمه. وحتى لو قدر لها أن تموت، فسوف يأخذها إليه حيث ستلتقي بومبونيا، ويجتمعان سويا في ملكوت الأبدية.

في منزل أولوس غالباً ما كان يدور في ذهنها الطفولي الغض أنه لم يكن بوسعها، وهي المسيحية، أن تفعل شيئاً من أجل المسيح المصلوب الذي حدثها عنه أرسوس بذلك الحماس. ولكن اللحظة قد حانت الآن.

شعرت ليفيا بالفرح، وباحت عن سعادتها تلك لأكتي التي لم تستطع أن تفهمها. تخليها عن المنزل، والثراء، والمدينة، والبساتين، والمعابد، والتركات، وكل متاع جميل. تخليها عن البلاد المشمسة

والبشر المقربين إلى قلبها. ومن أجل أي شيء؟ من أجل أن تهرب،  
وتتوارى عن أنظار حبيبها الفارس الشاب الوسيم.

أمور لم تلق تجاوبا من أكتي. لم تفهمها أبدا، ولو أنها كان تشعر  
أحيانا أن فيها جانبا من الاحقية، جانبا من السعادة العامرة الخفية،  
لكنها لم تجرؤ أن تصارح نفسها بذلك، خاصة وأن ليفيا كانت  
تنتظرها مغامرة قد تفضي إلى نهاية سيئة، وقد تكون نتيجتها فقدان  
حياتها. و بالنظر إلى طبيعة أكتي الحذرة المتخوفة كانت تفكر مرتعدة  
بما سيأتي في المساء. لكنها لم تشأ أن تفصح لليفيا عما يجول في  
خاطرها من قلق. وبما أن النهار مازال مقيما، وضوء الشمس قد تسلل  
إلى الأتريوم، فقد طلبت من ليفيا أن تذهب إلى سريرها وترتاح بعد  
ليلة لم تذق فيها طعم النوم. لم تمنع ليفيا، وعبرتا معا إلى جناح أكتي  
الشاسع الوثير منذ علاقتها الحميمة بنيرون.

استلقتا جنبا إلى جنب. وبرغم إرهاق أكتي لم تستطع أن تغفو.  
كانت حزينة لا تعرف طعما للسعادة منذ زمن بعيد. ولكن اضطرابا  
استثنائيا لا مثيل له من ذي قبل، قد راودها الان. كانت حتى الان  
تشعر أن الحياة قاسية وقائمة، وفجأة رأتها الآن تافهة لا قيمة لها.

تشوش ذهنها فجأة. كان الباب يفتح وينغلق، وبانشقاقه ينسرب  
من خلاله ضوء شديد يمنعها أن ترى بوضوح. الاخرى أن ظنونا قد  
ساورتها تقول أن في قلب هذا النور سعادة كبيرة لا حدود لها، بحيث  
تكون كل الاشياء إلى جانبها عدما لا معنى له. فحتى لو قام القيصر  
بإبعاد بوبيا، وعاد إلى حبتها هي بدلا منها، لما كان ذلك الا فعلا بائسا  
لا معنى له.



لوهلة لمع في ذهنها أن القيصر الذي أحبته، واعتبرته تلقائياً واحداً من أنصاف الآلهة، ما هو إلا إنسان وضيع تافه شأنه شأن أي من هؤلاء العبيد، وأن هذا القصر بكل ما يحتويه من عمدان رخامية ليس أفضل من ركام من الحجارة. مجمل تلك الأحاسيس التي لم تستطع أن تفهمها، قد أرهاقتها في نهاية المطاف. تمت لو تغفو، لكن القلق اللعين أفقد عينيها نعمة الإغفاء.

وفي نهاية الأمر ظنت أن ليفيا ليست نائمة نتيجة ما ينتظرها من مصير مجهول، وما يترصد بها من خطر وشيك، فالتفت إليها لتحديثها في شأن هروبها مساءً

لكن ليفيا كانت مستسلمة للنوم. كانت أشعة النهار مشوبة بذرات الغبار الذهبية المرحة، تعبر إلى الداخل خلل شقوق الستارة. وهذا القدر من الإضاءة أتاح لأكتي أن تلمح وجه الفتاة الناعم، وذراعها العاري تحت رأسها، وعينيها المطبقتين، وشفتيها المنشقتين قليلاً. كانت أنفاسها منتظمة أشبه بأنفاس الحاملين.

- نائمة. تستطيع أن تنام! ما تزال طفلة!

وسرعان ما خطر لها أن هذه الطفلة تفضل الهروب على أن يكون عشيقها فينيكوس، وحياة البؤس على أن توصم بالعار، والاختفاء على المنزل الفخم قرب كارينا، أو الملابس الجميلة، والجواهر، والمآدب، وأنغام الآلات الموسيقية.

- لماذا؟

وعادت تنظر إلى ليفيا كأنما أرادت أن تقرأ الجواب فوق وجهها

النائم. رأت جبينها الخالي من الكلف، وقوسي حاجبيها الوديعين،  
ورمشيها القاتمين، وشفتيها المشقوقتين، وصدرها العذري المتموج من  
أنفاسها الهادئة، وفكرت من جديد قائلة :

- كم تختلف عني !

رأت فيها شيئاً عجائبياً، ونوعاً من الصور الربانية. رأتها محبوبة  
الالهة، وأجمل بكثير من كل أزهار حدائق القيصر، ومن كل تماثيل  
القصر. لكن قلبها لم يعرف الغيرة ولا الحسد، بل على العكس من  
ذلك، فقد أترع بالشفقة حين فكرت في حجم المخاطر التي تهدد  
الفتاة، واستيقظت فيها مشاعر الامومة. لم ترها مثل حلم جميل  
وحسب، بل كائناً واقعياً شديد اللطف أيضاً. وقربت فمها من شعر  
الفتاة القاتم وغمرته بالقبلات.

كانت ليفيا تنام باطمئنان كما لو كانت في منزل أمانها لدى  
بومبونيا. واستغربت طويلاً في نومها. وانقضت الظهيرة حين فتحت  
عينها مستغربة وجودها في المكان. من البديهي أن استغرابها ناتج عن  
كونها ليست في منزل أولوس. وحين لمحت وجه الفتاة الإغريقية  
سالتها

- هذه أنت يا أكتي؟

- أنا يا ليفيا.

- حل المساء؟

- لا يا بنيتي، لكن الظهيرة قد انقضت.

- الن يرجع أرسوس ثانية؟

- لم يقل إنه سيعود. كل ما قاله إنه بمساعدة المسيحيين في المساء،  
سيتدبر أمر اليهودج.

- صحيح

ثم غادرتا المهجع نحو الحمام، حيث قامت أكتي بتحميم ليفيا.  
ثم قادتها لتناول طعام الإفطار، وخرجتا بعد ذلك إلى حديقة القصر،  
حيث ما من مخاطر الآن للقاء أحد هناك، مادام القيصر ووجهاء البلاط  
ما زالوا نياما. كانت المرة الأولى التي تشاهد فيها ليفيا تلك الحديقة  
الفخمة المليئة بأشجار السرو والبلوط، والزيتون، والاس، وحشود  
التمائيل فيما بينها، ومرايا بحيرات الاسماء، وشجيرات الورد الجوري  
حول نوافير الماء، وعرائش الكرم البرية، واللبلاب التي تغطي مداخل  
المغائر السحرية، والاوز العراقي يسبح في البحيرات، وغزلان الصحراء  
الافريقية، تسرح بين الاشجار، والتمائيل، وكل ما يخطر في البال  
من أنواع الطيور المنوعة المنشأ المزركشة. بمختلف الالوان ترفرف  
مجموعات مجموعات.

كانت الحديقة خالية، إلا من عبيد بأيديهم معاول يعملون هنا  
وهناك، ويتحدثون بهدوء، ومن آخرين في فترة استراحتهم يقتعدون  
قرب ضفاف البحيرات تحت ظلال البلوط المنقوشة بثقوب مرتعشة  
لأشعة الشمس، ومن آخرين أيضاً يقومون بسقاية الورد الجورية،  
وأزهار الزعفران.

تنزهت أكتي وليفيا طويلاً وشاهدتا كل ما تحتويه الحديقة من  
أعاجيب. ولم تتمالك ليفيا أن تكتم دهشتها وفضولها الطفولي،  
وذولها لما كانت تقع عليه عيناها، حتى لقد خطر لها أن تقول: لو كان  
القيصر إنساناً صالحاً لكان أسعد ما يكون في هذه القصر وهذه الحديقة.

أحستا بالتعب أخيراً، فجلستا فوق مقعد يكاد لا يرى بين أشجار  
السرو المتكاثف، وراحتا تتحدثان عن أشد ما يؤرقهما ويعتصر قلبيهما:  
هروب ليفيا مساءً. وعلى النقيض من ليفيا لم تكن أكتي مطمئنة أساساً  
فيما يخص نجاح هذا الهروب، لا بل كانت على ثقة شبه تامة بأن هذا  
الهدف المجنون لن يتكلل بالنجاح. ازداد اشفاقها على ليفيا وخطر لها  
أن من الأكثر أماناً أن تحاولا كسب فينيكوس إلى جانبها. وبعد قليل  
سالتها:

- منذ متى تعرفين فينيكوس؟ وهل يمكن إقناعه بإعادتك إلى  
بومبونيا؟

لكن ليفيا هزت رأسها قائلة بحزن:

- لا. في منزل أولوس كان تصرف فينيكوس على نحو مختلف.  
كان طيباً جداً. ولكنني منذ المأدبة صرت أخافه. الأفضل لي أن  
أهرب إلى الليغوس.

سارعت أكتي تسألها

- إذن كان لطيفاً معك في منزل أولوس

فأجابت مطاطئة رأسها

- أجل.

فعلقت أكتي بعد تفكير نوعي:

- لأنك لست عبدة كحالي أنا. يمكن لفينيكوس أن يتخذك زوجة.  
أنت رهينة، وابنة ملك أولوس وزوجته يحبانك كابنهما. وأنا واثقة  
أنهما يقبلانك ابنة لهما. يجوز للشباب أن يتزوجك يا ليفيا.

لكن الفتاة أجابتها بخفوت وحزن أكبر

- أنا أفضل اللجوء إلى الليغوس.

- ليفيا ! أتريدين أن أقصد فينيكوس حالا؟ سأوقظه إن كان نائما،

وأقول له ما قلت لك الان أجل يا حبيبتي سأذهب اليه وأقول له : يا فينيكوس، إنها ابنة ملك، والطفلة المدللة لعائلة أولوس. فإن كنت تحبها حقا أرجعها إلى العائلة ثم تزوجها، وخذها معك.

لكن الفتاة أجابت بصوت خافت كما من ذي قبل

- الافضل أن أرحل إلى الليغوس.

ونزلت قطرتا دمع من جفنيها المسبلين.

لكن خطوات مقتربة قطعت الحديث. وقبل أن تتمكن أكتي من تيقن الشخص المقرب ظهرت سابينا بوبيا أمام المقعد بصحبة بعض الرقيقات. حملت رقيقتان منهن مروحة من ريش النعام المذهب فوق رأسها، لتهويتها، ووقايتها من شمس الخريف التي مازالت تحتفظ بشدتها، بينما تقدمتها عبدة إثيوبية، شديدة السواد، منتفخة الثديين من اكتظاظهما بالحليب، حملت بين ذراعيها طفلا ملفوفا بثوب ارجواني مذهب.

نهضت أكتي و ليفيا واقفتين ظنا منهما أن بوبيا ستواصل سيرها دون أن تلتفت اليهما، لكنها توقفت وبادرت قائلة :

- أخطت الاجراس على الدمية بشكل رديء. شد الطفل أحدها، ووضعها في فمه. ومن حسن الحظ أن ليليثا حضرت في الوقت المناسب.

- ساحيني أيتها الأوغستية؟

أجابت أكتي وصالبت ذراعيها فوق صدرها. لكن بوبيا كانت  
الآن تنظر نحو ليفيا، ثم سألت بعد قليل.

- من هذه الرقيقة؟

- ليست رقيقة يا أوغستينا الربانيّة، ولكنها من تربت لدى بومبونيا  
غريسينيا وهي ابنة ملك الليغوس، وقد وضعها أبوها رهينة لدى روما.

وهل جاءت لزيارتك؟

- لا يا أوغستينا. إنها تقيم في القصر منذ أول أمس.

- وهل حضرت المأدبة ليلة البارحة؟

- أجل يا أوغستينا.

- بأمر ممّن؟

- بأمر من القيصر.

صارت بوبيا أكثر اكتراثا بليفيا، التي انحنت أمامها مطأطئة دون  
أن تخفي فضول عينيها نحوها... وعلى حين غرة ظهرت تقطية  
خفيفة بين حاجبي أوغستينا. كانت غيورا على سطوتها وجمالها.  
وعاشت على الدوام في هلع وخوف من أن تأتي منافستها المحظوظة  
ذات يوم، وتتغلب عليها، وتنحيتها جانبا كما فعلت هي بأكتافيا. لهذا  
السبب كان كل وجه جميل في القصر يولد فيها الظنون ويثير القلق في  
نفسها. وبعينين خبيرتين راحت تقيس قد الفتاة، وأدهشها كل تفصيل  
في وجهها فأصابتها الرعدة. قالت لنفسها:

- نيمفا حقيقيّة. أنجبتها فينوس.

ولمع في ذهنها الآن ما لم يخطر لها من قبل أمام أي جمال آخر. إنها- بوبيا أكبر سنا بكثير! استيقظت في داخلها عبادة الذات التي خدشت الان، واهتزت. دار في ذهنها شتى المخاوف : لعل نيرون لم يرها. ولعله لمحها سريعا دون أن يدقق في ملامحها. ولكن ما الذي يمكن أن يحصل لو صادفها في وضح النهار، ورآها.مثل هذا الجمال العجيب؟ فضلا عن أنها ليست من العبيد. ابنة ملك. صحيح أنها من البرابرة، لكنها فتاة ملكية! آه أيتها الالهة الخالدة. إنها جميلة مثلي، وأكثر شبابا مني.

تعمقت التقطية بين حاجبيها، وقدحت عيناها شرراً. لكنها التفتت إلى ليفيا وسألتهما بهدوء مصطنع :

- هل تحدثت مع القيصر؟

- لا يا أوغستينا.

- لم تحبين الإقامة هنا أكثر من منزل أولوس

- لا أحب هنا أكثر يا سيدتي. لكن بترونيوس كلم القيصر أن يأتي بي من منزل أولوس. وأنا هنا رغم إرادتي يا سيدتي.

- هل تحبين العودة إلى بومبونيا؟

طرحت بوبيا سؤالاها الاخير بنبرة أكثر ارتياحا ووداعة، الأمر الذي أيقظ آمال ليفيا فجأة. فصرخت فائحة يديها نحوها متضرعة:

- يا صاحبة الهيبة. القيصر وعد أن يهديني كجارية لفينيكوس.

احميني، وأعيدني إلى بومبونيا!

- إذن قام بترونيوس بالتحدث مع القيصر ليأتي بك من منزل أولوس

- أجل يا صاحبة السطوة. فينيكوس سيرسل من أجلي اليوم.  
ساعديني !

ثم انحنت وأمسكت طرف ثوب بوبيا منتظرة الرد بقلب خافق.

لكن بوبيا نظرت إليها بابتسامة ماكرة، وقالت بعد قليل :

- أعدك إذن أنك ستكونين اليوم عبدة فينيكوس.

وتوارت كشبح ماكر جميل.

دمعت عينا ليفيا، وقالت :

- لنعد أدر اجنا. سنتقبل المساعدة من حيث يمكن أن تأتي.

وعادتا إلى الأتريوم. ولم يغادر المكان حتى المساء. وحين حلت  
الظلمة، وبدأ العبيد يدخلون الفوانيس الرباعيّة، كانت كلتاها شديدة  
الوهن، شاحبة، متلعثمة الكلام، واكتفتا باستراق السمع، بانتظار أن  
يصل أحدهم. ومع مرور الوقت كان حزن ليفيا يتفاقم وقد أوشكت  
ساعة الرحيل أن تحين. أرسوس ينتظر في ظلام الليل.

توترت واشتدت ضربات قلبها، بينما راحت أكتي تجمع على عجل  
كل ما عثرت عليه من مجوهرات، وعقدته في طراف الرداء، ورجت  
ليفيا ألا ترد هذه الهدية بالرفض. ساد صمت شديد جعلهما تسمعان  
كل نامة صوت وهمس وراء الستارة، وبكاء طفل بعيد، ونباح كلب.

وسرعان ما فتحت الستارة، وظهرت في الأتريوم شبح تبين أنه  
رجل أسود طويل القامة، منمش، وسيم الوجه. عرفته ليفيا في الحال.  
أتاكينوس عبد فينيكوس، المعتوق الذي غالباً ما كانت تصادفه في



منزل أولوس.

صرخت أكتي. لكن أتاكينوس قدم انحناءة عميقة، وقال :

- تحية لليفياء الربانية من قبل ماركوس فينيكوس الذي ينتظرها على  
مأدبة في منزله المظلل بالأشجار.

شحبت شفتا الفتاة تماماً، وقالت:

- ذاهبة.

ثم عانقت أكتي مودعة.

كان منزل فينيكوس مزينا فعلا بأغصان الآس والبلاط، التي توزعت حباً لمجدولة على الجدران، وفوق الابواب. وأحيطت عمدانه بجداول من أغصان الكرم البرية. كانت الانوار تعم الأتريوم الذي غطت نوافذه ستائر أرجوانية من الصوف اتقاء لبرودة الليل.

كان ما أضاء الأتريوم، وأضفى عليه إنارة كضوء النهار، فوانيس ثمانية الأفرع أو مدقوقة من النحاس، أو تماثيل لحيوانات وطيور منحوتة من الرخام. صحيح أنها لم تكن بروعة فوانيس معبد أبولو الشهيرة التي اعتاد أن يستخدمها القيصر، لكنها كانت جميلة قام بصنعها مهنيون ذائعو الصيت. وكانت تعلوها مظلات حمراء، وزرقاء، وصفراء، وبنفسجية من الزجاج الإسكندراني، أو من الاقمشة الهندية الشفافة جعلت أشعة الضوء الملونة تتوزع أرجاء الأتريوم الفاتحة برائحة عطر الناردين الذي اعتاد فينيكوس أن يحضره من الشرق. وكان في المنزل الموثلق بالإنارة فتيان وفتيات من العبيد لا ينقطعون عن الحركة هنا وهناك في أقسامه الداخلية. وفي التريسيلينوم توضع مائدة فرشت لأربعة أشخاص لأن بترونيوس و كريسوتيس إلى جانب فينيكوس و ليفيا كانا مدعويين لحضور المأدبة.

لقد اتبع فينيكوس في كل أمر توصيات بترونيوس الذي نصحه أن لا يذهب إلى ليفيا بنفسه، بل أن يرسل إليها أتاكينوس بتفويض من القيصر، وما عليه هو الا أن يستقبلها في المنزل بغاية اللطف والاحترام.

قال له بترونيوس :

- كنت ثملا ليلة أمس. رأيتك كيف تصرفت مع الفتاة كقاذف حجارة من فوق جبال الالب. لا تكن فظا واقتحاميا كل هذا القدر. ولا تنس أن النبيذ اللذيذ يحتسى بتمهل وحذر. واعلم كذلك أن من الحسن أن تكون راغبا، لكن الاحسن أن تكون مرغوبا.

كان لكريسوتميس رأيها المختلف تماماً في ذلك. لكن بترونيوس الذي دعاها بعذراء فيستا، وبالحمامة الصغيرة، أوضح لها الفرق بين المتمرس في قيادة العربة في السيرك، وبين الشاب الذي يجلس لأول مرة في الكدريجة ذات العجلتين التي تجرها أربعة أحصنة.

واستأنف حديثه قائلاً :

- نل ثقتها أولاً، وحقق لها البهجة، وكن كريما واسع الصدر معها. لا أحب أن أرى مآدبة حزينة. اقسم لها بهاديس بأنك سوف تعيدها إلى بومبونيا. والباقي يتوقف عليك إن كان في اليوم التالي ستفضل البقاء عندك بدلا من العودة إلى منزل أولوس.

ثم أضاف مشيرا إلى كريسوتميس :

- أنا، يوما بعد يوم منذ خمس سنوات أتبع هذا السلوك مع عصفورتي الجبانة، ورغم ذلك لم أعان من سوء معاملتها لي.

لوّحت كريسوتميس بمروحة ريش الطاووس، وجاء ردّها :

- وكأني لم أمانعك أيها الشبق!

- فقط فيما سبق.

- وكانك لم تر كع أمام قءمي !

- لكي أضع خاتما في إصبعك.

نظرت كريسوتميس نحو قدميها، ولما رأء الحلبي تلمع حول أصابعها حقا، انفجرا ضاحكين،

لكن فينيكوس لم يكن ينصت إلى حديثهما لأن قلبه كان مضطربا شديد الخفقان تحت الرداء البابوي السوري المرقش الذي ارتداه لاستقبال ليفيا.

قال وكأنه يكلم نفسه :

- حانت لحظة الانطلاق من القصر.

فأجاب بترونيوس :

- حانت. وحتى ذلك الوقت سأروي تنبؤات أبولونيوس أو حادثة روفينوس التي لا أدري كيف لم أكملها.

لكن فينيكوس لم يكن شغوفًا بالتنبؤات، ولا مهتما بحادثة روفينوس. كانت أفكاره كلها تصب عند ليفيا. وأحس لوهلة أن من الأجمل أن يستقبلها هنا في منزله، لا أن يذهب من أجلها إلى القصر على طريقة السياسيين أصحاب المصلحة. ولكنه، لوهلة أخرى، قد شعر بالندم لعدم ذهابه إليها، لا شيء، إلا ليعجل في رؤيتها، ويجلس إلى جانبها في العتمة في الهودج المخصص لراكبين.

في هذه الاثناء كان الخدم يأتون إلى الداخل بأطباق الحملان الساخنة، ويرشون فوقها فلفل الناردين والطيب.

بأدر فينيكوس إلى الكلام ثانية :

- الآن ينطفون نحو كارينا.

فعلقت كريسوتيس قائلة

- إنه لا يحتمل الأمر، وسيخرج لملاقاتها.

فابتسم فينيكوس قائلاً بهدوء :

- بل أحتمل.

واتسع خيشوماه، وأخذ يلهث، بينما هز بترونيوس كتفيه معلنا

- لا يتمتع بأي قدر من مؤهلات الفيلسوف. لن أستطيع أن أنحت

إنسانا من ابن مارس هذا.

لم يسمعه فينيكوس.

- لقد صاروا في كارينا.

كان أولئك قد انعطفوا باتجاه كارينا، يتقدمهم العبيد ممن يطلق

عليهم حاملو الشعل، وكانت مرافقتهم تسير محيطة بالهودج من

الجانبين. أما أتاكينوس فكان يحرس الهودج سائرا وراءه.

كانوا يتقدمون ببطء، لأن المصاييح لم تكن تضيئ على نحو كاف

شوارع المدينة التي يلفها الظلام. إلى جانب ذلك كادت الشوارع

المجاورة للقصر أن تكون خالية تماماً لولا مصباح يسير به أحد المارة

هنا وهناك.

وكلما ابتعدت المسافة عن القصر كانت الحركة أكثر حيوية وكثافة.

ما من زقاق الا وبرز منه ثلاثة أشخاص، أو أربعة، وجميعهم بلا مشاعل، وبعاءات سود. بعضهم راح يسير ملازما الموكب مندجاً مع العبيد، وآخرون اقتربوا في مجموعات أكبر قادمين من الاتجاه المعاكس. وكان الجميع يترنحون كالسكارى. أحياناً كان التقدم إلى الامام متعثراً، الأمر الذي جعل حاملي الشعل يصيحون - أفسحوا الطريق لموكب ماركوس فينيكوس.

كانت ليفيا ترى من وراء الستارة هذه الحشود القائمة متوترة يحدوها الامل من جهة، والخوف من جهة أخرى. فقالت بشفتين مرتعشتين :

- " إنه هو. أولوس والمسيحيون! ساعدني يا مسيح! أنقذني يا مسيح" .!

في بادئ الأمر لم يعر أتاكينوس اهتماماً لهذا الحراك الاستثنائي، لكنه سرعان ما أخذ يضطرب. أمر مختلف يحدث الان.

ازدادت صيحات حاملي المشاعل " أوسعوا الطريق لهودج الموكب النبيل

اقترب أشخاص مجهولون من جانبي الهودج، فأمر أتاكينوس مرافقته من العبيد أن يطردوهم بالعصي.

جاءت ضجة كبيرة من مقدمة الموكب، وبومضة عين أطفئت كافة المشاعل، ثم حصل تدافع وضجيج أفضيا إلى مشادة وشجار.

أدرك أتاكينوس : " هجوم سافر

كان معروفاً أن هنالك مجموعات قطاع الطرق، وعصابات تتبع رجالات الحاشية القيصيرية تمارس العبث والتسليّة والفوضى، وتقوم

بالضرب والاذية على هواها في سوبورا، وسائر أنحاء المدينة. وكان معروفاً أيضاً أن من يحاول صدها دفاعاً عن النفس قد يلقي حتفه حتى لو كان سيناتوراً. كانت مواقع الخفراء غير بعيدة، ولكنهم في حالات كهذه يفضلون عدم التدخل، فيغمضون أعينهم، ويلزمون الصمت.

كان العراك يجري حول الهودج. ولقد وصل حد الضرب المبرح حتى القتل، أو الاطاحة أرضاً. خطر لأتاكينوس أن الاله إنقاذ ليفيا، وإنقاذ نفسه. أما الآخرون فيترك أمرهم للأقدار. التقط ليفيا بين ذراعيه، وسعى إلى الخروج في الظلام.

لكن ليفيا صرخت منادية:

- أرسوس! أرسوس!

كانت ثيابها بيضاء أمكن رؤيتها بسهولة. وحين حاول أتاكينوس أن يغطيها بعباءته، شعر بقبضة هائلة القوة تلف عنقه، ثم بكتلة رهيبة تحط كالصخرة فوق رأسه.

سقط أرضاً كالذبيحة أمام مذبح جوبيتر. كانت الغالبية العظمى من العبيد ممدودة أرضاً، أو تجر جر نفسها لصق الجدران في جنح الظلام.

ولم يبق في المكان سوى الهودج المحطم. توجه أرسوس بليفيا صوب سوبورا، وكان أصحابه يلحقون به مبعثرين واحداً تلو الآخر. وحين تجم ع العبيد أمام منزل فينيكوس راحوا يتناقشون قبل أن يجروا على الدخول.

وبعد نقاش قصير، عادوا إلى موقع الهجوم حيث وجدوا بعض الجثث. ومن بين القتلى كان أتاكينوس. حملوه وعادوا به إلى المنزل، ووقفوا من جديد أمام المدخل. لا بد أن يخبروا سيدهم بما حصل.

تهامس بعضهم:

- لندع غولو يخبره. وجهه مدمي كوجوهنا. وسيدنا يحبه. لا  
خطر عليه مثلنا.

غولو عبد الماني عجوز. قام ذات يوم بتريّة فينيكوس ثم ورثه عن  
أمه، وعن أخت بترونيوس الكبرى.

قال العجوز:

- أنا سأخبره. لكن دعونا ندخل معالكي لا ينصب كل غضبه علي  
وحدي.

ولكن فينيكوس كان نافد الصبر حقا. وكان بترونيوس و  
كريسوتميس يهزآن منه، وهو يزرع الأتريوم جيئة وذهابا ويردد:

- حان وقت وصولهم... حان وقت وصولهم. وأراد أن يذهب  
ولكنهما منعاها.

وفجأة سمع وقت خطوات. وسرعان ما صار العبيد داخل الأتريوم.  
واصطفوا رافعي الايدي إلى جانب الحائط وهم يولولون:

-...آآ

قفز فينيكوس نحوهم وصرخ بهم:

- أين ليفيا؟

-...آآ

تقدّم غولو دامي الوجه وقدم شكواه باكيا:



- انظر إلى الدم يا سيدي. لقد دافعنا بكل قوانا، وهذا هو الدم يا سيدي... هذا هو الدم

لم يتمكن من إنهاء كلامه لأن فينيكوس كان قد قبض على حامل الشعلة البرونزي فحذف به جمجمة العبد. ثم أمسكه برأسه، وشبك أصابعه بشعره، وتأوه بصوت مجلجل:

- ويلي! ويلي!

أزرق وجهه، وغارت عيناه، وزبد فمه. وزأر بصوت لا يصح أن يكون إنسانيا.

- الكرباج

فولول العبيد

- سيدي! آآ. أرأف بنا

أما بترونيوس فطفحت على وجهه تعابير الاشمئزاز فقال:

- هيا يا كريسوميثيس. ان كنت تريدين أن تشاهدي لحما فلنذهب إلى محل الجزارة في كاريني. وخرج من الأتريوم. لكن المنزل الذي زين بالاسس والبلاب استعدادا للمأدبة، لم يسمع فيه بعد قليل الا صوت الكرباج، والصرخات والتأوهات التي استمرت حتى الصباح.

لم ينم فينيكوس تلك الليلة. ولأن قيامه بجلد العبيد بعد انصراف بترونيوس بقليل، لم يشف غليله، ولم يخفف من الامه وغضبه، فقد استجمع عبيدا آخرين، وانطلق بهم آخر الليل للبحث عن ليفيا. جاب حي اسكويلنوس ثم سوبورا، و فيكوس و سيكلاراتوس، وسائر الارحاء المجاورة. ثم دار في الكابوتوليوم، وعبر جسر فابريكوس إلى الجزيرة، ثم جاب أقصى أحياء المدينة في تيريس.

لكنها كانت مطاردة فاشلة لم يكن يأمل منها في الاساس العثور على ليفيا،

ولكنه قام بها رغم كل شيء لكي يمضي ليلته الرهيبه هذه منشغلا بأمرها.

و فعلا، لم يعد أدراجه إلى المنزل الا عند الفجر، حين بدأت تظهر في المدينة عربات الخضراوات، وراح الخبازون يفتحون محالهم. ولمجرد وصوله أمر بدفن جثمان غولو الذي لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه في غيابه. وحكم على العبيد الذين كانت ليفيا في عهدتهم بالاشغال الشاقة في الارغاستولوم الريفى، وهو حكم أقسى بكثير من الحكم بالاعدام. ثم استلقى على مقعد في الأتريوم، واسغرق في التفكير ليجد طريقة يستعيد بها ليفيا.

التنازل عنها، وفقدانها إلى الابد، أمران مستحيلان. جن جنونه.

إنها المرة الأولى التي يواجه فيها الجندي الشاب بطبعه العنيف مقاومة وإرادة غريبة قاهرة. ولم يرق له أن أحدا يجروا على الوقوف في طريق رغباته. كان أهون عليه دمار هذه المدينة، والكون بأسره، ولا أن يبوء مرامه بالفشل. سلبوه كأس المتعة من بين يديه، حين أوشك أن يلامس شفثيه.

وجد أن ما حصل كان أمرا فريدا يستحق النعمة على كافة تشريعات الالهة والبشر.

ولكنه، قبل كل شيء، لم يحتمل، ولم يشأ أن يكثرث بما فرضته عليه الاقدار. لأنه لم يرغب في شيء خلال حياته، رغبته في ليفيا. شعر أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها. ولم يقدر أن يعطي حتى لنفسه إجابة عما يمكن أن يفعله بدونها، فيما يلي من أيام. ومرت لحظات شعر فيها أن نوبات من الغيظ والغضب من ليفيا تملكه. تمنى أن تكون له ليو سعتها ضربا، ويجر جرها من شعرها، ويشفي غليله منها. ومرت لحظات أخرى أحس بشوق لا يقاوم إلى صوتها، وقدها، وعينيها. وشعر أنه يستطيع أن يركع عند قدميها. ناجاها وهو يقضم أصابعه، ويفرك رأسه. وحاول بكل ما يملك من قوة أن يفكر بروية تمكنه من إعادتها والحصول عليها، لكنه باء بالفشل. لمعت في ذهنه الاف والاف من الافكار، وكل واحدة أكثر بلاهة وخبلا من الأخرى. حتى خطرت له أخيرا فكرة تقول أن لا أحد يستطيع أن يحررها سوى أرسوس وهو الوحيد العارف بمكانها.

وقفز من مكانه يهم بالانطلاق إلى منزل أولوس. فإن لم يسلموه إياها، ولم يستجيبوا لتهديداته، سوف يقصد القيصر ويشي بالقائد العجوز متهما إياه بالمروق، ويجعل القيصر يحكم عليه بالاعدام.

لكنه سيسعى بادئ الأمر أن يعرف منهم أين تقيم ليفيا الان. وحتى لو سلموه إياه من تلقاء ذاتهم، فسيبقى ناقما عليهم. صحيح أنهم قد أحسنوا استقباله في منزلهم، وأحاطوه بالرعاية، والعلاج، لكن سيان. فهم بفعلتهم هذه يتسببون له بجرح بليغ يجعله في حل من الامتنان وراحت روحه العارمة بالبغضاء والنقمة الان، تحلق ملتذة بفكرة ما الذي سيحل بومبونيا، وكم سيلحق بها من قنوط ويأس، حين يصدر حكم بالاعدام كان واثقا تمام الثقة أن باستطاعته استصدار الحكم بالاعدام. وبدعم من بترونيوس كذلك. على أية حال، القيصر لا يرفض طلبا لأي من أصدقائه الاوغستيان، إن كان الأمر لا يمس عاطفته الخاصة، ولا يتعارض مع ما قد يكنه من بغضاء تجاه أي كان.

وسرعان ما راودته فكرة رهيبة: ماذا لو قام القيصر بانتزاع ليفيا منه؟

بات معروفا للجميع، أن القيصر في لحظات سأمه، غالبا ما يروق له البحث عن سلواه في مغامرات ليلية لصوصية يسميها هو "صيد اللؤلؤ". وبمشاركة بترونيوس أيضا. وفي كثير من الحالات في الاحياء الفقيرة ذات الكثافة السكانية العالية مرتع الصبا والجمال. إلى أن يتم السطو على النساء، ويجري تحويل "اللالي الحقيقية" منهن إلى البلاتينوس، أو إلى واحدة من فيلات القصر المنتشرة بكثرة في أرجاء المدينة. وقد يقوم القيصر بتزويد أنصاره بهن هدايا لا يحلمون بها. لقد شاهدنا القيصر في المأدبة، وما من شك، بنظر فينيكوس، أنها أجمل من وقعت عليها عيناه من بين النساء جميعا. لا احتمال آخر إطلاقا. ما دامت ليفيا قد زارت القصر، كان بمقدور القيصر أن يأخذها لنفسه علنا، لكنه بزعم بترونيوس كان جبانا على القيام بذلك. كان علني النية، ولكنه خفي الافعال. يدفعه إلى ذلك خوفه من بوييا. خطر لفينيكوس الان أن عائلة

أولوس قد لا تجرؤ على اختطاف الفتاة التي أهداها القيصر له. ومن  
يجرؤ على القيام بمثل ذلك؟

لعله ذلك العبد الليغوي العملاق صاحب العينين الزرقاوين الذي  
تجرأ على اقتحام التريسيلنيوم، وأخذ ليفيا بين ذراعيه؟ لكن أين أخفاها؟  
إلى أين ذهب بها؟ لا، لا يمكن لعبد أن يقوم بمثل ذلك. إذن لم يبق الا  
القيصر، ولا أحد سواه.

اسود الكون أمام عيني فينيكوس لهذه المخاطرة، وتغرق جبينه. ففي  
هذه الحالة يكون قد فقد ليفيا إلى أبد الابددين. فلو كانت لدى أي أحد  
آخر، لتمكن من انتزاعها، أما وهي لدى نيرون فمستحيل.

حق له الان أن يقول: في ميسيرو ميهي ما أسوأ حظي.

تخيل ليفيا بين ذراعي نيرون، واكتشف لأول مرة في حياته أن  
هنالك خواطر لا يتحمل وقعها. شعر الان كم يحبها. وكما يقوم  
الغريق في لحظة الغرق باستعراض شريط حياته، كذلك عبرت ليفيا أمام  
عينيه الان. رآها أمامه، وسمع كل ما قالته. رآها عند البركة، وفي بيت  
أولوس، وفي المأدبة. شعر بها قريبة منه، واشتم رائحة شعرها، وأحس  
بدفء جسدها، وروعة القبل المختلصة من شفثيها البرييتين. شعر  
الان، أكثر من أي وقت مضى، أنها أحلى وأجمل بكثير من سائر البشر  
الفانين، والهتهم. وإذا ما خطر له أن كل هذه الروعة التي تذيبه شوقا  
اليها، وتعلقا بها، ستكون من نصيب نيرون. شعر بحرقه لا تفوقها  
حرقه، وبالم جسدي رهيب يدفعه إلى أن يفج رأسه بجدران الأتريوم.  
وأحس أن ذلك يقوده إلى الجنون. ولقد أوشك أن يجن لولا فكرة  
الانتقام التي راودته. ففي حين كان يشعر أنه لا يقوى على الحياة قبل  
استرجاع ليفيا، صار يشعر الان أن حياته مستحيلة بغير الانتقام. إنها

الفكرة الوحيدة التي هدأت قليلا من روعه " أنا لك ". قالها مخاطبا نيرون. وبعد ذلك قبض على حفنة تراب من أصيص الزهور، وأقسم ب أريوس و هيكاتي، ومقدسه المنزلي الخاص، أن لا رجعة عن الايفاء بقسمه.

ولقد هدأ فعلا. صار هنالك على الاقل معنى لحياته، يمضي أيامه ولياليه بالانشغال به. ثم تخلى عن فكرة ذهابه إلى منزل أولوس، وانطلق إلى البالاتينوس. وفي طريقة إلى هناك فكر أنه في حال لم يسمح له بمقابلة القيصر، أو في حال قاموا هناك بتفتيشه بحثا عن سلاح يحمله، فمعنى ذلك أن القيصر هو من قام باختطاف ليفيا. كان يحمل سلاحا، وكان في حقيقة الأمر، خارجا عن طوره، لا تنقذه الا فكرة الثأر التي استحوذت عليه، وأرضخته.

لم يشأ أن يهزم أمام الزمن. وإضافة إلى ذلك أراد أن يقابل أكتي لأنه ظن أن الحقيقة عندها. وبين الفينة والاخرى كانت ترادوه فكرة رؤيته ليفيا هناك. وكان يرتعد لذلك. ماذا لو كان القيصر قد اختطفها دون أن يدري من تكون وحين يخبره بأمرها يتراجع عنها ويعيدها اليه. لكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفرضية. لو أرادوا أن يعيدوها اليه لفعلوا ذلك منذ يوم أمس. الخبر اليقين عند أكتي.

لا بد من لقاءها أولا.

و حين حسم أمره، اهاب بأرقائه أن يغذوا المسير، لكنه كان مشوشا في طريقه، تتجاذبه نار ان تضطربان في كيانه. نار ليفيا، ونار الانتقام. سمع أن الكهنة المصريين يجلبون الأمراض لمن يريدون. وقرر أنه سيسال عن هذه الطريقة. كما سمع أن لدى اليهود في الشرق طريقتهم في السحر تمكنهم من نشر القروح فوق أجساد أعدائهم.

وكان لديه بعض من الأرقاء اليهود، فقرر، لمجرد عودته إلى المنزل، أن يخضعهم للجلد بالكرباج حتى يفشوا هذه الاسرار. وبشديد التوق فكر باستخدام السيف الروماني القصير لمضائه الشديد في إسالة الدماء كسيف كاليولا الذي خلف آثارا لا تمحى من الدماء فوق عمدان الاروقة.

كان في هذه اللحظة مستعدا لتدمير روما بأسرها، والقضاء على البشرية جمعاء، ليبقى وحيدا مع ليفيا. وأمام المدخل استعاد كل توازنه، وحين أصبح هناك فكر: لو أقدم هؤلاء على أي سلوك يمنعه من الدخول، معنى ذلك أن ليفيا في القصر، بإرادة القيصر. لكن قائد الحرس كان ودودا معه، وتقدم منه بضع خطوات باسم ليقول:

- تحية لك أيها النبيل. إن كنت ترغب في المشول أمام القيصر، فقد اخترت اللحظة غير المناسبة. لا أدري إن كان بمقدورك التحدث اليه.

فسأله فينيكوس:

- ما الذي حصل؟

- الاوغستينا الربانية الصغيرة تعرضت لمرض مفاجئ. والقيصر و بوبيا هما إلى جوارها برفقة الاطباء الذين استدعوا من سائر أنحاء المدينة.

كان حدثا في غاية الأهمية. حين ولدت هذه الطفلة، كاد القيصر أن يجن من الفرح الذي فاق كل حدود الفرح البشري. وقبل ذلك كان مجلس الشيوخ قد اجتمع ليقدّم بمراسم مهيبه، أمومة بوبيا إلى الالهة.. ذبحت النذور، وأجريت في الأنتيوم حيث تمت الولادة، المبارزات الكبرى، إضافة إلى إشادة معبد تقديرا للأنثيين الالهيتين،

الام وابنتها. والقيصر الذي لا يقيم اعتبارا ولا وزنا لأي شيء، فقد أحب هذه الطفلة بلا حدود. وكذلك بالنسبة لبوبيا، فقد كانت الطفلة محببة إلى قلبها لسبب آخر أيضاً : لقد دعمت مقامها وثبتته في القصر، وجعلت تأثيرها داخله لا يقاوم

كان مصير الحكم بالكامل متعلقا بصحة الاوغستينا وحياتها. لكن فينيكوس الذي لم يكن منشغلا الا بشخصه هو، وقضيته الخاصة، وحبه، لم يكثرث لنبا قائد الحرس وقال له:  
- لا أريد أن التقي سوى أكتي.

ودخل

ولكن أكتي كانت منشغلة بالأطفال، فاضطر أن ينتظر طويلاً.  
لم تأت إليه الا عند الظهر، وكانت مرهقة وشاحبة الوجه وبرؤيتها الشاب تفاقم شحوبها.  
- أكتي.

ناداها وسحبها من يدها إلى وسط الأتريوم، ثم قال لها:

- أين ليفيا؟

فأجابت الفتاة بنظرات الملامة والعتاب:

- كنت أريد أن أسالك السؤال ذاته.

ولما كان قد اتخذ قرارا باستجواب أكتي بكامل الهدوء والروية فقد قبض على رأسه وتكلم بقسمات مشوبة بالالم والغضب.



- اختفت ! اختطفت في أثناء الطريق.

وسرعان ما استجمع قواه، وقرب وجهه من وجه أكتي وقال  
ضاغطا على أسنانه:

- أكتي... إن عزت عليك حياتك، ولا ترغبين أن تكوني طرفا في  
حدوث أمر سيئ رهيب، أجيبيني بصدق : اليس القيصر من اختطفها؟  
- قسما بطيف أمي يا ماركوس، ليست في القصر، وليس القيصر  
من اختطفها.

أمس مرضت الصغيرة، وظل القيصر ملازما لها.

تنفس فينيكوس الصعداء. ما وضعه في حسبانته على أنه أكثر الامور  
سوءا، لم يحصل. فقال مطبقا قبضته وهو يجلس على مقعد:

- إذن عائلة أولوس هي التي اختطفتها. يا ويلهم إن صح ذلك.

- كان أولوس هنا في الصباح. لم يتمكن من لقائي لأنني كنت عند  
الصغيرة. لكنه سال عن ليفيا كبير الخدم، وخبدا كثيرا آخرين. وقال إنه  
سيعود في وقت آخر لمقابلتي.

- أراد أن يبعد الشبهات: لو لم يعرف ما الذي حصل لليفيا، لبحث  
عنها في منزلي.

- كتب قavanaugh صغيرة يستشف منها أن كل ما يعرفه هو أن القيصر  
طلب ترحيلها من منزله بناء على رغبة بترونيوس ورغبتك. وبما أنه ظن  
انها عندك، ذهب اليك منذ الصباح، وهناك أخبروه بما حصل لها.

قالت أكتي ذلك ودخلت لتعود بالقصاصة.

قرأها فينيكوس ولزم الصمت. وكان أكتي قد قرأت على وجهه المتجهم ما يدور في نفسه من أفكار، فقالت بعد وقت قصير:

- لا يا ماركوس فينيكوس. لقد حصل ما كانت ليفيا راغبة فيه.

فانفجر قائلاً:

- وكنت على علم بأنها تريد أن تهرب!

لكن الفتاة القت نظرة صارمة في عينيه الضبايتين.

- أعرف أنها لا تريد أن تكون ضجيعتك.

- وأنت ما الذي كنته طوال حياتك؟

- كنت عبدة قبل الان.

ظل فينيكوس غاضباً. القيصر هو من أهداها ليفيا، فلا يهم إذن من تكون، وسوف يجدها ولو كانت تحت الأرض، وسوف يفعل بها ما يشاء. أجل! سوف تكون ضجيعته. وسوف يظل يجلدها كلما رغب في ذلك. وحين يسأها سيرميها لأي من أرقائه، أو سيرسلها إلى أي من أملاكه في أفريقيا، تدير الطواحين اليدوية. سيبدأ الان التفتيش عنها، وسوف يجلبها فقط كي يقوم بتحطيمها وإهانتها.

أفقدته غضبه الصبر والروية، فلم يستطع الاجابة عن السؤال:

ما الداعي ليأتي إلى أكتي؟ لم يعثر في البداية على جواب.

لقد جاء اليها لأنه أراد ذلك. لأنه ظن أنه سيعرف منها شيئاً. ولكنه في الحقيقة قد جاء لمقابلة القيصر، وحين لم يره، قصد أكتي. ثم أن ليفيا بهروبها تخالف إرادة القيصر. سيقوم إذن بإخباره. وسيعطي القيصر أوامر بالبحث عنها في المدينة، وسائر أنحاء الامبراطورية. وسوف يقوم بترونيوس بدعم طلبه من القيصر البحث عنها منذ اليوم، وحالا

أجابت أكتي

- حذار أن تخسرهما، إذا ما وجدوها بناء على أمر من القيصر.

قطب فينيكوس حاجبيه متسائلا :

- ما معنى ذلك؟

- اسمعني يا ماركوس! البارحة كنت مع ليفيا في الحديقة، وصادفنا بوبيا هناك وكانت معها الصغيرة بين ذراعي ليليث. في المساء مرضت الطفلة. زعمت ليليث أن عين ليفيا قد أصابتها. إذا شفيت الطفلة انقضى الأمر، والا ستولى بوبيا بالذات محاسبتها على فعلتها. لا منجاة لها إذن.

ساد صمت قصير ثم قال فينيكوس :

- وهل فتنتها فعلا؟ لقد فتنني كذلك.

- هذه ما زعمته ليليث. بدليل أن الطفلة سرعان ما راحت تبكي حين عبرت من أمامنا هذا صحيح. لقد بكت. ربما كانت مريضة حين أخرجت إلى الحديقة. فينيكوس! حذار! ابحث عنها حيثما شئت، لكن لا تتحدث عنها مع القيصر، الا بعد شفاء الطفلة، والا ستصب

بويبا جام غضبها عليها. لقد بكت عيناها كفاية بسببك. كانت الالهة في عونها.

فسألها فينيكوس جادا

- هل تحبينها يا أكتي؟

ترقرقت الدموع في عيني أكتي

- أجل. أحببتها كثيرا.

- لأنها لم تكن لك الكراهية كما تكن هالي.

فرمقته أكتي كأنما تريد أن تعرف إذا كان صحيحا ما يقول. ثم

قالت:

- مالك أيها الغضوب الأعمى! لقد أحبتك.

قفز فينيكوس كالمسوس. ليس صحيحاً! لقد كانت تكن له البغضاء. كيف لأكتي أن تعرف؟ وكيف تصارحها بذلك فور تعارفهما خلال يوم واحد؟ أي حب هذا الذي يجعلها تفضل الهروب، والبؤس، والغد المجهول، بل حتى الموت البائس، على المنزل المكلل بالغصون، حيث ينتظرها حبيبها على مأدبة! الافضل عدم سماع مثل هذا الترهات لأنها مبعث على الخبل والجنون. تبا! كان لا يبادل بهذه الفتاة ثروات القصر كلها. ولكن... هاهي ذي الان تهرب. أي حب هذه الذي يخاف المتعة، ويولد الألم؟ من بمقدوره احتمال ذلك؟ من بمقدوره تفهم ذلك؟ لو كان لا يأمل أن يجدها لطعن نفسه بخنجر. العادة أن الحب يوهب ويعطى، لا يسلب، ويستغنى عنه. عندما قابلها

في منزل أولوس مرت لحظات آمن فيها بأن سعادته وشيكة. لكنه بات الآن يدرك أن ليفيا تكرهه، ويكرهها، وسيموت وقلبه مترع بالكراهية.

لكن أكتي التي ظلت متزنة حتى الان، انفجرت غضبا. كيف أراد فينيكوس أن يفوز ب ليفيا؟ فبدلا من أن يقوم بطلبها من أولوس و بومبونيا بكل احترام، حاول بوضاعة أن يخطفها من أهلها، لا كزوجة له بل كضجيجة فراشه. وهي ابنة الملك المدللة التي ترعرت في منزل محترم. جاء بها إلى منزل العار والخطيئة، وعاملها كفتاة شوارع رخيصة. لا بد أنه قد نسي منزل عائلة أولوس أي منزل يكون. ونسي من تكون بومبونيا التي قامت بتربية ليفيا. لا بد أن عقله أشد قصورا من أن يدرك أنهما امرأتان غير نيجيدا أو كريسييلينا أو بوبيا، أو كل من التقاهن في منزل القيصر. حين وقعت عيناه على ليفيا لم ير أنها فتاة شريفة تفضل الموت على العار. من أين له أن يعرف بأي نوع من الالهة تؤمن؟ وأن الهها أكثر نقاء، وصلاحا من فينوس و إيريس الفاسقتين اللتين تجل هما نساء روما الخليعات. لا. ليفيا لم تبح لها بشيء، وكل ما قالته أنها تنتظر عوننا من فينيكوس. وكانت تأمل منه أن يخرجها من عند القيصر لتتمكن من العودة إلى بيتها، وتسليمها لبومبونيا.

لقد خفق قلبها لفينيكوس، لكن الاخير أخافها منه، وأذاها. والان سيحرص جنود القيصر على البحث عنها. لكن هل يعلم أنه لو حصل أي مكروه للطفلة، سوف تقع الشبهات على ليفيا وهذا يعني أنه سيفقدها حتما.

استجمع فينيكوس حماسا انضاف إلى غضبه والامه.

لقد هز كيانه نبأ حب ليفيا له. وخطر له ما دار بينهما من حديث

دافئ في حديقة منزل أولوس ، وشعر أن الفتاة بدأت تحبه منذ ذلك الحين، فامتلاً بهجة تفوق حدود رغباته، وشهواته، وآمن أنه كان من الممكن أن يحظى بحبها، وتكون له طواعية من تلقاء ذاتها، ويسمعا تردد عبارة العروس في طقوس الزواج الرومانية

" أنا غايا ، أكون حيث تكون أنت يا غايوس " وتصير له إلى الابد.

كيف لم يتبع هذه السلوك، وقد كان قادراً على اتباعه؟ ولكنها ليست هنا الان، وقد لا يجدها أبداً. وإن وجدها فقد يفتقدها، وقد ترفضه هي وعائلة أولوس. استدعت فكرته هذه أن ينتصب شعر رأسه غضبا ليس من عائلة أولوس أو ليفيا، بل من بترونيوس. هو السبب في كل ما حصل له. لولاه لما كان على ليفيا أن تتواري، ولكانت الان خطيئته دون أخطار تهدد حياتها الغالية. لكن ما حصل قد حصل، وفات أوان إصلاح ما ساء من أمور.

- فات الاوان.

وشعر أن الأرض انهارت تحت قدميه. لا يدري ماذا يفعل، وكيف يتصرف، وأين يذهب. رددت أكتي كالصدي: " فات الاوان " وصدرت العبارة من فمها كالحكم بالاعدام، لا يعرف الا شيئاً واحداً هو كيف يعثر على ليفيا. وفشله في ذلك يعني الطامة الكبرى.

حين لف رداءه الفضفاض حوله استعداداً للذهاب دون كلمة وداع ل أكتي، انزاحت الستارة الفاصلة بين الأتريوم والرواق، ليرى فجأة هيئة بومبونيا ماثلة أمامه.

كان قد وصلها نبأ اختفاء ليفيا. وكان التقدير أن من الاسهل أن تقابل أكتي. قصدت المكان تستوضح النبأ نيابة عن أولوس. وحين

لمحت فينيكوس أدارت وجهها الضئيل الشاحب نحوه، وعلقت  
قائلة :

- سامحك الله يا ماركوس على ما الحقته بنا من أذية.

وقف الشاب كئيباً محني الرأس مغموراً بالندامة. لم يفهم أي اله  
سيسامحه، أو يمكن أن يسامحه. اليس الحري بها أن تتحدث عن الانتقام  
لا المسامحة.

اكتظ الرواق بجموع قلقة، امتزج فيها السيناتورات، والفرسان  
بأرقاء القصر، جاءت بقصد الاطمئنان عن صحة الاوغستينا الصغيرة.  
ولكي يقال إنهم قد حضروا، فقد وقفوا بين العبيد ليكون هؤلاء شهداء  
على حضورهم. سرعان ما ذاع نبأ مرض الإلهة، فلم تنقطع الوجوه  
الجديدة عن الوفود عبر المدخل، وتحتشد على طول الرواق. كان بعض  
الواصلين ممن رأى فينيكوس ينصرف، يسأله ما الاخبار، لكنه لم يرد  
على أسئلتهم، وتابع سيره، حتى مر قربه بترونيوس القادم أيضاً بهدف  
الاطمئنان.

كان له أن يهتاج غضباً لمرأى بترونيوس، ويرتكب معه حماقة داخل  
القصر، لو أنه لم يغادر أكتي وقد هدأت ثائرتة، وخف غيظه. حاول  
أن يتجنب بترونيوس ويتابع المسير، لكن الاخير استوقفه عنوة وسأله:

- كيف حال الصغيرة الربانية؟

لكن هذه الاستيقاف العنيف أثار فينيكوس. فقال وهو يضغط على  
أسنانه :

- لتبتلعها نار جهنم، هي وكل هذا المنزل.

فما كان من بترونيوس الا أن ردعه محذرا، وهو ينظر حوله :  
- اخرس أيها الخائب! إن كنت تريد أن تعرف شيئا عن ليفيا رافقني.  
لا. لن أقول شيئا هنا. تعال معي. سأكلمك في الهودج عما أفكر  
فيه.

وأخذه من كتفيه خارجا به من القصر.

كان هذا أهم شيء بالنسبة اليه، بما أنه لا يعرف عن الأمر شيئا. وبما  
أنه كان شخصا ناريا لا يؤجل أمرا. وأشفق على فينيكوس رغم فظاظته  
البارحة. وأنه مسؤول بطريقة ما عن كل ما حصل، كان قد اتخذ  
خطوات معينة، ما لبث أن أفصح عنها فور جلوسهما في الهودج.

- وزعت عبيدي على كل المداخل، ليراقبوا، بعد أن زودتهم  
بمعلومات دقيقة عن الفتاة، وذلك العملاق الذي أخرجها من مأدبة  
القصر. ما من شك في أنه هو من حرر ليفيا. اصغ جيدا. جائز أن لدى  
أولوس وزوجته رغبة في إخفائها في قرية ما من قراهما. فإن صح ذلك  
سوف نعرف أي وجهة اتخذتها في هروبها. وإن لم يرها الأرقاء عند  
المداخل، هذا يعني انها بقيت في المدينة، وسوف نبشر البحث عنها  
هذه اليوم.

فأجاب فينيكوس :

- أولوس وزوجته لا يعرفان أين تكون.

- واثق من ذلك.

- التقيت بومبونيا. هما أيضا يبحثان عنها.



- لم تغادر المدينة البارحة، لأن كل المداخل تغلق في الليل. لدي عند كل مدخل عبدان. مهمة أحدهما ملاحقة ليفيا والعملاق، ومهمة الاخر أن يأتي لإخباري. إن كانت في المدينة سنجدها. لأن من السهل التعرف إلى العملاق لطول قامته. لحسن حظك ليس القيصر من اختطفها.

لكن فينيكوس كان يكتوي الما وغيظا. فراح يروي لبترونيوس بصوت كسير ما سمعه من أكتي، وأية أخطار تهدد ليفيا. ثم لامه على النصائح التي أسداها له، ولم يجد حرجا أن يقول : لولا ظهورك على السطح لجرت الامور بطريقة أخرى. ولكانت ليفيا في منزل أولوس الان. ولتمكن من رؤيتها كل يوم. وكان أسعد الناس، وحتى من القيصر.

أما بترونيوس الذي ضاع من حسابانه أن بمقدور هذا الفتى أن يحب كل هذا الحب، فقد قال في نفسه بشيء من الاستغراب بعد أن رأى دموع الحيرة في عيني الفتى:

" أوو، يا الهة قبرص العظيمة، أنت وحدك المهيمنة على الالهة والبشر" !

حين خرجا من اليهودج أمام منزل بترونيوس، أطلعه كبير الخدم أن العبيد اللذي أرسلوا إلى المدخل، لم يرجع أي منهم بعد. وقال إنه قد أرسل لهم الزاد، والتعليمات الجديدة الصارمة لاتخاذ الحيطه واليقظة، والمراقبة الدقيقة لكل من يخرج من المدينة.

علق بترونيوس قائلاً :

- كما ترى ما زالت في المدينة دون شك. وما دام الأمر كذلك سوف نجدها. لكن احرص انت على إرسال عبيدك لحراسة المداخل، خاصة أولئك الذين كنت ترسلهم من أجل ليفيا، لأنهم يعرفونها إذا ما رأوها.

- أولئك حكمت عليهم بالاعمال الشاقة، لكنني سالغي أوامري لإرسالهم إلى مراقبة المداخل..

وكتب بعض السطور على لوح شمعي، وأعطاه لبثرونيوس الذي أرسله حالا إلى منزل فينيكوس.

ثم دلفا إلى الداخل، وجلسا على مقعد رخامي يتحدثان. جرًا طاولة صغيرة إلى جانب المقعد، وراحا يسكبان النبيذ من ابريق رفيع العنق فائق الجمال.

بادر بترونيوس بالسؤال:

- هل من بين عبيدك من يعرف الليغيوي العملاق إن رآه.

- كان يعرفه كل من غولو و أتاكينوس. لكن أتاكينوس لقي حتفه يوم أمس قرب اليهودج، و غولو أنا من قتله.

- يؤسفني ذلك. هو من قام برعايتك، ورعايتي أيضاً.

فأجاب فينيكوس قائلاً :

- رغم أنني أردت أن أعتقه لكن هذا ما حصل. لتحدث عن ليفيا. روما بحر حقيقي...

- اللآلىء تصطاد من البحر... قد لا نجدها اليوم ولا في الغد، لكننا سنجدها. هذا أكيد. لقد اتهمتني، بأني اقترحت عليك طريقة سيئة، لكنها كانت طريقة صالحة في ذاتها، وتكش ف أنها فاسدة حين اتخذت مجرى سيئا. الم تسمع أولوس يقول أنه يريد أن يرحل وعائلته إلى سيسيليا. وبالتالي كانت ليفيا ستظل بعيدة عنك.

فرد فينيكوس قائلاً :

- كنت تبعثهم. وكانت ليفيا في أمان. والان لو ماتت الطفلة لأيقنت بوبيا، ولأقنعت القيصر بأن ليفيا هي السبب في ذلك.

- أجل. وهذا ما يؤرقني. لكن الطفلة قد تشفى. وفي كل الاحوال، حتى لو ماتت فسنعثر على طريقة ما.

هنا فكر فينيكوس قليلا ثم قال :

- كأن بوبيا تعتنق الدين اليهودي، وتؤمن بوجود الارواح الشريرة.

القيصر يؤمن بالخرافة... فلو قمنا بإشاعة أن الارواح الشريرة قد سرقت ليفيا، فسوف يصدق الجميع ذلك، ما دام القيصر لم يقم باختطافها.

وإن لم يكن أولوس هو الذي اختطفها، فاختفاؤها أمر غريب. ليس بوسع العملاق أن يخفيها لو حده. وبفرض أن هنالك من ساعده، فكيف بوسع عبد أن يجمع كل هذا العدد.

- الرقيق في كل أنحاء روما يساندون بعضهم.

- والمدينة كل يوم يمكن أن تدفع دما ثمنا لذلك. أجل يساندون بعضا، ولا يقف أحدهم ضد الاخر. من الواضح أن المسؤولية هنا تقع على عاتق عبيدك، وهم المتهمون. إن تطرح فكرة الارواح الشريرة أمامهم، فسوف يؤكدون لك في الحال أنهم رأوا ذلك بأم أعينهم لأن ذلك سيرثهم أمامك... اختبر الأمر، وأسأل أيا منهم: ألم تر أحدا يطير ب ليفيا في الجو، فسيقسم بترس زيوس أن ذلك صحيح. وهذا ما حصل.

كان فينيكوس أيضاً خرافي المعتقد. فأتسعت حدقاته، وخص بترونيوس بنظرات قلقة، وقال:

- إن لم يتوافر لأرسوس رفاق يساندونه، ولم يستطع أن يسرقها، فمن الذي سرقها إذن؟

فما كان من بترونيوس الا أن قهقهه قائلاً:

- رأيت، حتى أنت صدقت الأمر فكيف هم. سوف يصدقون ويكفون عن البحث عنها، فيما سنقوم نحن بإخفائها بعيدا عن المدينة في إحدى فيلاتك، أو فيلاتي.

لكن مع ذلك، مَنْ المرجح أنه قد ساعد ليفيا؟

فأجاب بترونيوس

- إخوتها في المعتقد

- ومن أولئك؟ أي نوع من الالهة تبجل هي؟

علي أن أعرف ذلك أكثر منك.

- كل امرأة في روما تبجل الهها الخاص. ولا شك في أن بومبونيا قد أنشأت ليفيا على تبجيل اله تبجله هي. لكن أي اله هذا، لا أدري. لكن الاكيد أن أحدا لم يشاهد بومبونيا تقدم الاضاحي لأي من الهتنا في أي من معابدنا. حتى أنها اتهمت بأنها مسيحيّة. لكن هذا مستحيل. المحكمة المحليّة برأتها من هذه التهمة. هناك من يقول و هم قلة عن المسيحيين بأنهم يعبدون رأس الحمار، وأنهم أعداء الجنس البشري،، يقدمون على ارتكاب أشنع الافعال. ولهذا السبب بومبونيا ليست مسيحيّة، فخصالها معروفة، وعدو الجنس البشري لا يعامل الأرقاء بالطريقة التي تعاملهم بها.

قاطعته فينيكوس :

- لا أحد، في أي مكان، يعاملهم بمثل معاملة عائلة الوس لهم.

- أرأيت ! حدثني بومبونيا عن اله وحيد على الارجح، لا اله غيره. جبار، ورحيم. أما أين القت بالالهة الاخرى، فهذا شأنها. فهل يمكن أن يكون لوغوس الاعلى درجة من البؤس، وليس جبارا، لو كان من يعبده اثنان فقط هما بومبونيا و ليفيا، وأضيف اليهما أرسوس. هم أكثر إذن أولئك الاخوة في المعتقد. وهم من ساعدوا ليفيا.

علق فينكوس قائلاً :

- هذا المعتقد يأمر بالتسامح. التقيت بومبونيا عند أكتي، وقد قالت:  
" سامحك الله على ما سبته لنا ولليفيا من أذيه "

- يبدو أن الهمهم أمين، و ذو نية طيبة عسى أن يشملك بعفوه، ويعيد  
اليك الفتاة تعبيراً عن ذلك.

- لكنت سأقدم له أضحية كبيرة غدا. سأستغني عن الطعام،  
والاستحمام، والنوم. وأتذكر مرتدياً عباءة قائمة ذات قلنسوة وأجوب  
المدينة، على أمل العثور عليها. أنا مريض.

رمقه بترونيوس بنظرة إشفاق. كانت عينا فينكوس قد توهجتا حقاً  
من الحمى.

كان منكوش الشعر، ولأنه لم يحلق ذقنه في الصباح، فقد غلفت  
القتامة وجهه، فبدأ مريضاً بالفعل حتى أن إراس و يونيكي قد خصتاه  
بنظرة من التآسي.

ولكنه، شأنه شأن بترونيوس لم يكن يراهما، فلم يكثرث لوجودهما  
ولا لوجود الكلاب المتحلقة حوله.

قال بترونيوس:

- أنت مصاب بالحمى.

- أجل.

- اسمعني إذن... لا أدري ما الذي سيصفه لك الطبيب من دواء.

لكني أعرف ما الذي سأقوم به لو كنت مكانك. إلى أن التقيها سأجد في واحدة أخرى عما أفقده فيها. رأيت في فيلات أجسادا بديعة. لا ترفض... أعرف ما الحب، وأعرف إذا ما تملك أحدنا الشوق العارم لإحداهن، فلا بديل عنها، لكن بوسع المرء دائما أن يجد المتعة العابرة في فتاة جميلة من الرق.

- لا أريد ذلك.

لكن بترونيوس الذي أحب حقا قريبه الاصغر، كان يسعى صادقاً للتخفيف من معاناته لكن كيف. فتابع بعد وقت قصير قائلاً:

- وقد لا يتحفك جماعتك بالنبا السعيد، لكن انظر إلى هذه الفاتنة. كان لتوه قد لمح كلا من يونيكي و إراس، فقام أخيراً بوضع يده على مؤخرة الفتاة اليونانية الشقراء هل رأيت عيناك جسداً أجمل. الوم نفسي لعدم أكثرائي بها حتى هذا اليوم. إنها هديتي لك، خذها معك. وبسماع يونيكي الشقراء هذه الكلمات لفها الشحوب، ونظرت جامدة إلى فينيكوس بعينين جافلتين، كأنما تنتظر رده بأنفاس مقطوعة.

لكن ما كان منه الا أن قفز فجأة، وعصر رأسه بكلتا يديه زائراً

لا... لا... لا. لا أريد أحداً غيرها... شكراً، لكن لا. سأذهب وأبحث عنها في المدينة: أعطني عباءة سأعبر إلى ضفة تيرس الأخرى. يمكن أن أجد أرسوس على الأقل.

وخرج مسرعاً.

أما بترونيوس وقد رأى أن الشاب لا يحتمل الانتظار، فلم يحاول إرجاعه. لقد فهم من رد فينيكوس بعدم تقبله أي امرأة أخرى سوى ليفيا، أنه كان رداً أيضاً لا يسري إلا في اللحظة العابرة بالذات. لذا فقد خاطب يونيكي قائلاً :

- يونيكي! استحمي، وتعطري، وبدلي ملابسك، ثم اقصدي منزل فينيكوس.

لكن الفتاة جثت أمامه متوسلة إياه إلا يبعدها عن هذا البيت. وهي لا ترغب في الذهاب إلى فينيكوس. الأفضل لها أن يجلدتها كل يوم ولا يبعدها عن بيته.

ومدت نحوه يدين مرتجتين مذعورتين. كان بترونيوس يسمعها ذاهلاً. عبدة تقوم برفض الأمر قائلة: " لا أريد، لا أحتمل"

شيء لا يحدث في روما، ما جعل بترونيوس يكذب أذنيه. ولكنه في نهاية الأمر أرخى حاجبيه، وكان ظاهره الطف بكثير من أنه يبدي القسوة. وعلى العموم فقد كان أرقاؤه، خاصة في هذا الزمن، يتمتعون بحرية كبيرة مقارنة بالأرقاء في منازل أخرى، شرط أن يؤدوا خدماتهم على أكمل وجه، ويولوا سيدهم كل الاحترام، وأوامره أشبه بأوامر الآلهة. وخرجهم عن ذلك يعني تعرضهم دون توان لأشد أنواع العقاب. والآن بما أن ما قامت به الفتاة لا يندرج ضمن نطاق المعصية، فقد التفت إلى الفتاة الجائبة قائلاً :

- استدعي تيراسياس وعودي معه.

نهضت يونيكي مرتعشة دامعة العينين، وخرجت. ثم ما لبثت أن عادت برفقة تيراسياس ناظر الأتريوم.



قال بترونيوس آمرا

- خذ يونيكي، واجلدها خمسا وعشرين، لكن دون أن تلحق  
بجلدها أي أذى.

ثم عبر إلى المكتبة وجلس إلى طاولة رخامية وردية. وبدأ العمل  
بمؤلفه مآدبة تريمالسيو.

لكن هروب ليفيا، ومرض الأوغستينا الصغيرة، قد شتتا أفكاره،  
وحالا دون قدرته على العمل طويلاً. كان مرض الصغيرة واقعة  
في غاية الأهمية. خطر له: إن ظن القيصر أن ليفيا هي التي أصابت  
الأوغستينا الصغيرة بالعين، معنى ذلك أن المسؤولية ستطاله أيضاً، لأن  
الفتاة قد دخلت القصر بناء على طلبه.

لملم مخاوفه وعزم على النزول إلى التريسلينيوم، ليشرّب شيئاً، ومن  
هناك مباشرة يذهب إلى القصر، ثم إلى ميدان مارس وبعدها يقصد  
كريسوتيميس.

وفي طريقه إلى التريسلينيوم لمح عند مدخل جناح الخدم يونيكي  
بقدتها المشوق، وخطر له أن طلبه من تيراسياس لا يتعدى جلدها  
خمسا وعشرين جلدة. ضم حاجبيه، وراح يجول بعينه بحثاً عن  
الناظر.

ولما لم يجده بين الخدم، التفت نحو يونيكي

- هل نلت عقوبتك؟

وأجابت قائلة بصوت كأنه مشوب بالسعادة والامتنان

- أجل يا سيدي، نلتها، أجل يا سيدي !

كان باديا عليها تماماً اعتقادها بأن ما تلقتة من عقاب بديل عن مغادرتها المنزل، وقد بات بوسعها الان ان تبقى.

وسرعان ما أدرك بترونيوس أن مم انعتها تخفي دافعا من المعاناة استغرب طبيعته.

لكنه كان عالما محنكا بالطبيعة الانسانية، جعلته خبرته يضع الحب، وليس أي سبب آخر، وراء سلوك الفتاة.

سألها:

- هل محبوبك في هذا البيت؟

رفعت عينيها الزرقاوين الدامعتين و أجابت بصوت يكاد لا يسمع:

- أجل يا سيدي.

وكم بدت جميلة بعينيها الزرقاوين، وارتداد جدائلها الشقراء إلى الوراء، وتعابير الذعر، و الامل البادية على وجهها، وهي تنظر متوسلة إلى سيدها بترونيوس الذي أفصح هو نفسه أيضاً معترفاً، كفيلسوف، بقوة الحب، ومفصحا عن تقديره للجمال بصفته فناً. شعر بشيء من الشفقة إزاءها. سألها مشيراً برأسه إلى طاقم الخدم.

- أيهم حبيبك؟

و بدلاً أن يلقي رداً منتظراً من الفتاة، قامت يونيكي بإحناء رأسها تماماً بين قدمي سيدها، وتجمدت على هذا الحال،

جال بترونيوس بعينه على الأرقاء. كان من بينهم شبان وسيمون، وأصحاب الأجسام، لكنه لم يستطع قراءة شيء على وجوههم، سوى تلك الابتسامة الغريبة القابعة عليها. القى نظرة أخيرة إلى يونيكي الراكعة عند قدميه، وانطلق إلى التريسلينيوم دون أن ينبس حرفاً.

وبعد تناول الطعام ذهب إلى القصر، ومن هناك قصد كريسو ثيميس وأمضى عندها القسم الاطول من الليل. وما إن عاد حتى استدعى الناظر تراسياس ليسأله

- هل نالت يونيكي عقوبتها؟

- أجل سيدي لكنك لم تسمح بالحاق الاذى بجلدها.

- ألم أمرك بشيء آخر يتعلق بها؟

- لا يا سيدي.

- حسناً. من يكون حبيبها من بين الأرقاء؟

- لا أحد يا سيدي.

- ماذا تعرف عنها؟

راح تراسياس يتكلم متعلثما

- يونيكي لا تغادر المهجع حيث تنام كل ليلة مع العجوزين أريسيون وإفيس. وبعد أن تنهي استحمامك يا سيدي، لا تبقى في الحمام مع الاخريات لأنهم يهزأن منها، ويدعونها ديانا.

قاطعه بترونيوس قائلاً :

- كفى. قريبي فينيكوس الذي أهديته يونيكي في الصباح لم يستقبلها، فاضطرت للبقاء في المنزل. بوسعك الانصراف.

- هل لي أن أكلّمك أكثر عن يونيكي يا سيدي؟.

- أمرتك أن تفصح عن كل ما تعرفه عنها.

- كل العائلة تتحدث عن هروب تلك العذراء التي كان عليها العيش في كنف فينيكوس النبيل... جاءت الي يونيكي وقالت إنها تعرف أحدا يستطيع أن يجدها.

- آ! صرخ بترونيوس ومن يكون؟

- لا أعرفه يا سيدي. لكنني فكرت أن علي إخبارك بالأمر.

- حسنا. لينتظرنني ذاك غدا هنا في منزلي وقل له باسمي أن يبدأ بالبحث عنها منذ الصباح.

انحنى اترينسيس وانصرف.

أما بترونيوس فقد وجه نفسه لا إراديا يفكر بيونيكي.

بادئ الأمر دار في باله أن من الطبيعي أن تتمنى يونيكي عثور فينيكوس على ليفيا، لأنها في هذه الحالة لا تضطر إلى أن تكون بديلا لفتاة في منزله. لكن سرعان ما خطر له: لعل الشخص الذي ستقدمه يونيكي هو محبوبها الخاص. وهي فكرة أيقظت في نفسه شعورا بالضيق. كان بمقدوره بالطبع أن يقف ببساطة على الحقيقة، بعد أن يستدعي يونيكي لكن الوقت بات متأخرا، وهو كان مرهقا بعد قضائه فترة طويلة عند كريسو ثميس، فسارع إلى النوم وخلال مسيره إلى الفراش

خطر له أنه في أثناء زيارته لاحظ على زاويتي عيني كريسو ثميس بعض التجاعيد الناعمة. كما دار في ذهنه أن صيت جمال كريسو ثميس في روما أقل بكثير مما يستحق، وأن مونتيوس كابيتو الذي قدم له ثلاثة من الشبان مقابل يونيكي كان يريد الحصول على الفتاة بثمن بخس جدا.

ما إن انتهى بترونيوس، في اليوم التالي من ارتداء ملابسه في الانكتواريوم، حتى وصل فينيكوس الذي استدعاه تيرسياس. كان قد علم أن حراس المداخل لم يزودوا أحدا بأية أخبار جديدة.

و بدلا من أن يريحه هذا الأمر باعتباره برهانا على أن ليفيا لم تغادر المدينة، فقد صدمه حين خالجه ظن بأن أرسوس ما إن حرر الفتاة حتى فر بها حالا من المدينة قبل أن ينشر بترونيوس أرقاءه على مداخلها. صحيح أنهم يقومون بإغلاق المداخل في الايام الخريفية القصيرة، في وقت ابكر، الا أنهم يفتحونها أمام المغادرين الكثر. لكن الخروج من المدينة كان يتم بطرق مختلفة يعرفها أولئك الأرقاء الراغبون في الهروب. كان فينيكوس قد نشر رجاله على كافة الدروب المؤدية إلى الارياف، وأبلغ حراس المدن الصغرى عن الرقيقين الفارين ليفيا و أرسوس، بأدق أو صافهما، معلنا عن جائزة قيمة لمن يقبض عليهما. حتى أن فينيكوس نفسه قام بعملية البحث في أزقة المدينة بعد تخفيه بلباس الرقيق، لكنه لم يجد لهما أثرا أو دليلا يؤدي اليهما. صادف في تجواله جماعة أولوس. التي كانت في الغالب تبحث عن ليفيا، مما عزز اليقين لديه بأنه لا علاقة لعائلة أولوس باختطافها، ولا حتى بمعرفة أي شيء عنها.

إذن حين أعلم تيرسياس بأن هنالك من يتكفل بالعثور على ليفيا، سارع في المجيء لاهثا إلى بترونيوس. وما إن رحب بالآخر، حتى

بادر إلى الاستفسار عن ذلك الشخص. هداً بترونيوس من روعه  
قائلاً :

- سنرى في الحال. إنه أحد معارف يونيكي. على أية حال الفتاة  
قادمة لتعمل طيات ثوبي، وهي ستخبرنا عن كذب.

- فتاة الأمس التي أردت أن تقدمها لي؟

- فتاة الأمس التي رفضتها، وأنا شاكر لك هذا لأنها الاميز في المدينة  
كلها.

و لم يكذب ينهي كلامه حتى دخلت الفتاة. أمسكت عباءته الملقية  
فوق الكرسي الموشاة بالعاج، وخلعتها على كتفي بترونيوس. كان  
وجهها نقياً وهادئاً وعيناها تبرقان بالبهجة.

رمقها بترونيوس فرآها في غاية الجمال.

وبعد لحظات، حين بدأت تلتقط ثوبه في طيات، وانحنت إلى  
الأسفل، لاحظ أن ذراعيها بديعان بلونهما الوردى، وصدرها قفص  
من اللؤلؤ، بل من المرمر الصقيل المشع.

سألها:

- يونيكي هل حضر الشخص الذي حدثت تيرسياس عنه البارحة؟

- أجل سيدي.

- ما اسمه؟

- شيلون سيلونيدس، يا سيدي.

- من يكون؟

- طيب، وحكيم، وعرف يقرأ أقدار البشر، ومستقبلهم.

- هل قرأ مستقبلك؟

- خجلت يونيكي وغمرت الحمرة جيدها وأذنيها.

- أجل يا سيدي.

- وماذا قرأ؟

- الألم والسعادة.

- الألم كان البارحة على يد تيراسياس. و الآن جاء دور السعادة

- لقد جاءت يا سيدي.

- وما هي؟

- همست الفتاة قائلة:

- بقيت هنا.

وضع بترونيوس يده على شعر الفتاة الاشقر:

- لقد قمت بالتقاط الطيات على أكمل وجه. أنا راضٍ عنك اليوم

يا يونيكي.

بهذه اللمسات غمرت عيني الفتاة غشاوة من السعادة، وتموج

صدرها سريعا.



أما بترونيوس فقد اصطحب فينيكوس إلى الأتريوم حيث كان شيلون سيلونيدس بالانتظار. حين لمحهما قدم انحناء عميقة. ارتسمت ابتسامة على فم بترونيوس حين تذكر ظنه يوم أمس بأن هذا الشخص قد يكون حبيب يونيكي، فالرجل الذي ينتصب هنا لا يمكن أن يكون حبيبا لأحد. هيئة شوهاء غريبة فيها من القبح الشديد مقدار ما ينبعث منها على الإضحاك.

لم يكن بعد، عجوزا يغزوه الشيب، سوى القليل من الشعرات البيضاء هنا وهناك في رأسه ولحيته. منبعج البطن، مقوس الظهر، أهدب يقبع فوق حدبته البادية منذ الوهلة الأولى، رأسه الأشوه، ووجهه القردي الثعلبي معا. صادم الملامح، كثرت الانتفاخات على بشرة وجهه الشاحب، ولكنها غطت أنفه بالكامل، ما يشهد على إدمانه الكحولي. رث الثياب وهي عبارة عن عباءة قائمة من جلد الماعز، تنم عن البؤس. ما إن وقعت عينا بترونيوس على هذه الهيئة، حتى ذكرته بشخصية ثريتس عند هوميروس.

بتقديم الرجل الانحناء العميقة إذن، رد بترونيوس التحية بحركة من يده قائلاً:

- تحية لك يا ثريتس الالهي! كيف حال دمّلاتك التي حصلت عليها من أوليسيس، وماذا يفعل هو نفسه في الحقول الاليسوميّة؟

فأجاب شيلون شيلونيدس:

- يا بترونيوس النبيل! أوليسيس الأكثر حكمة بين الاموات يرسل لك معي تحياته، أنت الأكثر حكمة بين الاحياء، راجيا إياك أن تغطي دمّلاتي بعباءة جديدة.

صاح بترونيوس:

- هيكات تريفورميس! هذا الجواب يستأهل عباءة...

لكن تدخل فينيكوس الفارغ الصبر ليقطع الحديث بسؤال مباشر

منه:

- هل تعرف لم أنت هنا؟

أجاب شيلون قائلاً:

- إن كانت عائلتا أفخم منزلين لا حديث لهما سوى هذا الحديث،  
تردده وراءهما نصف روما، يكون من الطبيعي أن أعرف بالأمر. ليل  
أمس قاموا باختطاف عذراء ترعرعت في كنف أولوس بلاوتوس.  
اسمها ليفيا وبالأحرى كالينا. اختطفت الفتاة يا سيدي عندما كان  
أرقاوك يصطحبونها من قصر القيصر إلى مكان يخصك. أنا سأتكفل  
بالبحث عنها في المدينة. وإن كانت قد غادرتها، وهذا احتمال  
ضعيف، سأدلك يا سيدي النبيل إلى أين هربت وأين تختبئ.

فأجاب فينيكوس الذي أعجب بالرد الدقيق:

- حسناً. وماذا تملك من أدوات لذلك؟

ابتسم شيلون بمكر:

- أنت من يملك الأدوات يا سيدي. أنا لا أملك سوى عقلي.

وابتسم بترونيوس كذلك، فقد كان مغموراً بالرضا من ضيفه. فكر  
:" هذا الرجل يمكن أن يعثر على الفتاة "

قطب فينيكوس حاجبيه و قال:

- إن كنت تخذعني من أجل التكسب، سأجلدك حتى الموت.

أنا فيلسوف يا سيدي والفيلسوف لا يكون متكسبا. خاصة إن كان الكسب ما وعدت به.

- آ قال بترونيوس إذن أنت فيلسوف. قالت يونيكي إنك طبيب وقارئ مستقبل. كيف تعرفت على يونيكي؟

- قصدتني بنصيحة، بعد أن سمعت عني.

- و بأي خصوص طلبت نصيحتك؟

- مسألة حب يا سيدي. كانت ترغب أن تشفى من حب غير متبادل.

- وهل أشفيتها؟

- فعلت لها الكثير يا سيدي. أعطيتها تميمة للحب المتبادل. في بابوس في جزيرة قبرص معبد يحتفظ بزئار فينوس. أعطيتها خيطين منه مغلفين بقشر اللوز.

- وهل طلبت ثمننا ضخما؟

- الحب المتبادل ليس غالي الثمن. لكن بما أني فقدت أصبعين في كفي اليمنى، فأنا أقوم باردخار ما يلزم من نقود، أسديها لمن يقوم بتدوين أفكارى ويحفظ تعاليمي للأجيال القادمة.

- و إلى أي مدرسة تنتمي، أيها الرجل الحكيم الرباني؟

- أنا سينيكي يا سيدي، لأن عباة تي مثقبة، وأنا ستويكي لأنني أصير على البؤس، وأنا بريتكلي لأنني لا أملك عربية مشاة وأتنقل ماشيا من حانة إلى أخرى، وفي الطريق أقوم بمحادثة أولئك الذين لا يتوانون عن دفع إبريق من النبيذ لقاء تعاليمي.

- و إلى جانب قدح النبيذ تتحول إلى خطيب؟

- قال هيراقليطس: " كل شيء يسيل " هل تنكر يا سيدي أن النبيذ سائل؟

- وتقول أن النار الوهيّة وهذه الالوهيّة تشتعل فوق أنفك.

- لكن ديوغنس الالهي الابولوني الفائق الجمال قال: إن جوهر المسالة الهواء. وكلما كان الهواء أسخن أنتج كائنات حيّة أكمل. ومن أكثر الهواء سخونة يولد الحكماء. وفي أوقات الطقس الخريفي الباردة يلجأ الحكيم الحق إلى أن يدفع روحه بالنبيذ... فأنت لا تستطيع أن تنكر، يا سيدي، أن قدحا واحدا منه ينشر الدفء في كافة عظام الجسد الانساني السقيم.

- و أين تقيم يا شيلون شيلونيدس؟

- على ضفة أوكسينوس أنا من ميسانبريا.

- أنت إنسان عظيم يا شيلون.

- لكنني مساء الفهم رد الحكيم متجهما.

لكن فينيكوس فقد صبره ثانيّة. الان وقد برق الامل أمام عينيه ود لو انطلق شيلون حالا لأداء مهمته. وبالتالي اعتبر هذه المحادثة الان

مضيعة للوقت، ولا تجدي نفعا، حتى أنها أزعجت بترونيوس الذي  
سال اليوناني:

- ومتى تبدأ البحث؟

- لقد بدأت. وما دمت هنا وأجيب عن تساؤلاتك، فأنا أبحث عنها.  
كن على ثقة، أيها السيد المحترم، وليكن في معلومك إنني إذا ما أضعت  
فردة صندلك بوسعي أن أجدها أو أدلك على من انتشلها في الطريق،

- هل قمت بعمل مشابه قبل الان؟

- رفع اليوناني عينيه نحو السماء :

- لا قيمة كبرى هذه الايام للأخلاق والحكمة، وهذا ما يجعل  
الفيلسوف مضطرا للبحث عن مجالات أخرى للحياة.

- أي إمكانيات لديك؟

- معرفة كل شيء. تزويد من يرغبون بالانباء.

- وبالتحديد لمن يدفعون لقاء ذلك؟

- آ. سيدي. علي أن أحصل على كاتب يدون تعاليمي كي لا تندثر  
بعد موتي.

- إن كنت لم تجمع حتى الان ثمنا لعباءة، فكيف تكون مؤهلاتك  
كافية.

- بؤسي حجاب يمنعني من إظهار مؤهلاتي. المؤهلات هذه الايام،  
تقاس بما يملك الناس من ذهب. ليست مؤهلاتي بالقليلة لكن المحسنين

هم القلة. لا حمد ولا شكر. إذا ما هرب رقيق ذو أهميّة، فمن سيجده إن لم يكن ابن الله. وإذا ما ظهرت على الجدران كتابات عن بوبيا، فمن سيدل على الفاعلين؟ من يلتقط ومن يحصي عدد بائعي الكتب، الاشعار التي تتحدث عن القيصر؟ من يطلع على ما يهمس به من أحاديث في منازل السيناتورات والفرسان؟ من يوصل الرسائل التي لا ثقة بالأرقاء لإيصالها؟ من يستمع إلى الانباء الجديدة أمام أبواب الحلاقين؟ أمام مَنْ لا أسرار لعمال المخابر والخمارين؟ بمن يثق الأرقاء؟ ومن الذي يرى كل ما يدور في المنازل بدءاً من الأتريوم حتى الحديقة؟ من يعرف كل شارع، وزقاق، ومخبأ؟ من يعرف ما يدور من أحاديث في السيركات، والاسواق، ومدارس المصارعة، وتجار الرقيق، وميادين المجالدة؟

صاح بترونيوس:

- بحق الالهة، كفى أيها الحكيم النبيل، فقد أغرقتنا في طوفان مؤهلاتك. كفى! أردنا أن نعرف من تكون. وها قد عرفنا!

لكن فينيكوس كان سعيداً بمجرد أن فكر: حتى لو كان هذا الشخص كلب صيد، فإذا ما أطلق وراء الفريسة لن يدعها حتى يكتشف مخبأها. قال:

- حسناً. هل تحتاج إلى مرافق يرشدك على الطريق.

- أحتاج إلى سلاح.

فسأله فينيكوس مستغرباً

- وأي نوع من الاسلحة.

فتح اليوناني إحدى كفيه، وراح يتصرف باليد الأخرى وكأنه يعد نقوداً. وقال متنهداً

- هكذا أزممتنا هذه الأيام يا سيدي.

علّق بترونيوس قائلاً :

- أنت ستكون الحمار الذي يريد أن يحصّن القلعة بأكياس الذهب.

فأجاب شيلون بخنوع:

- أنا لست سوى فيلسوف فقير، أما الذهب فلکم.

رمى فينيكوس نحوه كيساً من الدراهم، فتلقاه اليوناني بحركة خاطفة أظهرت كفه اليمنى و قد فقدت أصبعين من أصابعه.

ثم رفع رأسه قائلاً :

- سيدي. صرت أعرف أكثر مما تعتقد. لم آت اليكم فارغ اليدين. أعرف أن العذراء لم يخطفها أولوس، لأني تأكدت من ذلك في حديثي مع خدمه. وأعرف أنها ليست في القصر حيث ينشغل الجميع بمرض الطفلة. ولقد بدأت أظن لماذا تفضلون البحث عنها بمساعدتي، لا بالاستعانة بجنود القيصر. أعرف أن من رتب هروبها شخص من بلدها. وأن هذا الشخص لم يكن ليحظى بمساعدة من الأرقاء لأنهم سيرفضون تقديم العون ضد أرقائك. إذن لم يساعده إلا إخوته في المعتقد.

قاطعته بترونيوس قائلاً:

- أسمع يا فينيكوس؟ ألم أخبرك ذلك بالحرف؟

فقال شيلون بتواضع :

- المسألة واضحة وضوح الشمس

ثم التفت إلى فينيكوس ثانية و استأنف يقول:

- لا ريب في أن الفتاة تعبد ذات الاله الذي تعبده الراعية الحقيقية بومبونيا أظهر نساء روما. لقد سمعت أيضاً أن بومبونيا وقفت أمام المحكمة القيصريّة لعبادتها اله آخر، لم أتمكن من انتزاع اسمه من بين أفواههم، ولا معرفة ما يسمى أتباعه. لو كان بوسعي معرفة ذلك لذهبت اليهم، وصرت الاشد تدينا بينهم لأكسب ثقتهم. لكنك يا سيدي وأنت الذي أمضيت بضعة أيام في منزل المحترم أولوس، فهل استطعت أن تستشف شيئاً من هذه المسألة؟

فأجاب فينيكوس :

- لا.

- لقد سالتموني مطوّلاً، يا سادتي الكرام، واستفسرتم عن كثير من القضايا، وأنا أجبت عن كافة اسئلتكم، فاسمحوا لي الان أن أسالكم بدوري. هل دقت عيناك يا سيدي على رسم أو تمثال، أو تميمة، أو شارة لدى بومبونيا أو ليفيا؟ ألم تلاحظ أنهما تبادلتا رموزاً معينة لا يفهما سواهما؟

- رموز؟... مهلاً! أجل! لقد رأيت ليفيا ترسم سمكة في الرمال.

- سمكة؟ آآ! أووو! هل فعلت ذلك مرة واحدة أم أكثر؟



- مرة وحدة.

- هل تفهم معنى ذلك؟

فصاح شيلون :

- وكيف لي أن أفهم!؟

ثم أضاف وهو ينحني للوداع:

- حظا سعيدا يا سادتي المحترمين!

ردّ بترونيوس تحية الوداع قائلاً :

- خذ لنفسك عباءة

فأجاب العجوز:

- لتكن تحية أوليسيس لك بدلا من ترسيّس

وانحني ثانية قبل أن ينصرف.

سأل بترونيوس فينيكوس :

- ما قولك في هذا الحكيم النبيل؟

فأجابه فينيكوس بترحاب:

- سوف يعثر على ليفيا. أنا أزعّم لو كان للثرونيين بلاد لكان ملكهم.

- دون أدنى ريب. علي أن أتعرف على هذا الرواقي عن كذب. وإلى

أن يتم ذلك سوف أبخر الأتريوم وراءه.

أما شيلون، وقد التحف العباءة الجديدة، وراح يلاعب كيس

الدراهم كالكرة براحتيه، وينقله من كف إلى كف مستمتعا بثقله  
وخشخشة نقوده، كان يخطو ببطء وينظر وراءه بين الحين والآخر،  
مستكشفا إذا ما كانوا يراقبونه من منزل بترونيوس.

قال لتنفسه :

- علي أن أعود إلى اللص سبوروس، وأجترع كأسا حبا بنورتونا.  
أخيرا عثرت على ما أبحث عنه منذ زمن. شاب، ومتحمس، ومعطاء  
كمناجم قبرص، وعلى استعداد للتخلي على نصف ثروته مقابل تلك  
الفتاة. مرادي وقد تحقق. لكن لا بد من الحذر في التعامل معه لأن  
تقطيعة حاجبيه لا تعد بما هو حسن. الثعالب هي التي تحكم العالم هذه  
الايام. لا أخاف بترونيوس كما أخافه. يا أيتها الآلهة! لم المهن المخادعة  
تحقق مكاسب أكثر من الفضيلة؟ هه. إذن رسمت سمكة في الرمال؟  
فلأفطس من لقمة جبن الماعز إن كنت أعرف ماذا يعني ذلك؟ لكني  
سأعرف فيما بعد. بما أن الاسماك تعيش في المياه، فالبحث داخل الماء  
أصعب من اليابسة. عليه أن يدفع دفعة خاصة من أجل تلك السمكة.  
كيس دراهم آخر، وأرمني بجعبة التسول، وأشتري عبدا. لكن ما  
قولك يا صديقي شيلون إذا ما ابتعت عبدة بدلا من العبد. أنا أعرفك،  
وأعرف أنك تفعلها! وإذا كانت جميلة مثل يونيكي على سبيل المثال،  
فسوف تستعيد شبابك، وتحقق زيادة في المدخول إلى جانبها. مسكينة  
يونيكي لقد بعته خيطين من عباءتي البالية. فتاة حمقاء. لكني أقبلها  
هدية من بترونيوس. أجل يا شيلون يا بن شيلون لقد فقدت أباك و  
أمك وصرت يتيما. فاقتن رقيقة على الاقل تعوضك عنهما. لكن أين  
ستقطن؟ على فينيكوس أن يستأجر لها منزلا. ويجب أن تلبس أيضا.  
على فينيكوس أن يجلب لها الالبسة. ومن سيطعمها؟ فينيكوس أيضا  
سيزودها بالطعام. آه، ما أصعب الحياة. أين تلك الازمنة حينما كان

كل شيء رخيصاً. لأعد إلى سبورس اللص. إلى جانب النبيذ يسهل معرفة كل شيء.

وهكذا، بهذه الروح العالِيّة من التأمل دخل الخمارة. طلب قدحا من النبيذ الاحمر. وحين لاحظ تدمير الساقبي أخرج ذهبية من كيس الدراهم، ووضعها على الطاولة وقال:

- يا سبوروس! منذ الصباح إلى الان كنت أعمل مع سينكا. انظر ما أعطاني صديقي مكافأة لي.

ازدادت لهذا المشهد استدارة عيني سبورس الدائريتين أصلاً، وسرعان ما كانت القدح أمام شيلون، الذي بلل أصبعيه بنبيذها ورسم سمكة على الطاولة. ثم سال:

- هل تعلم ما معنى هذه؟

- هذه السمكة؟ إنها سمكة. السمكة سمكة.

- يا لغبائك. لقد مددت النبيذ بكمية زائدة من الماء حتى صار صالحاً لحياة السمك. هذا رمز يعني في لغة الفلاسفة: ابتسامة الحظ. لو عرفت لكنت حصلت على ثروة أعط الفلاسفة قسطاً من الاحترام والا سأقصد خمارة أخرى، طالما شجعني صديقي برونوس منذ مدة على ارتيادها.

في الأيام القليلة التالية لم يظهر شيلون في أي مكان. و فينيكوس منذ أن أخبرته أكتي أن ليفيا قد أحبته زادت رغبته أضعافاً مضاعفة لإيجادها.

فهو إذن أراد أن يبحث عنها بكل جوارحه، إلا أنه لم يكن يريد، وليس بمقدوره أساساً، بسبب مرض الصغيرة، أن يتوجه إلى القيصر المدعور لطلب المساعدة.

لم تجد نفعا لا القرابين التي قدمت في المعابد، ولا الصلوات و الابتهالات، ولا علوم الطب ولا حتى الوسائل السحرية التي يتم اللجوء إليها، في نهاية المطاف. ماتت الطفلة بعد أسبوع و غرق البلاط بحداد عم روما بأسرها.

ومثلما انشرح صدر القيصر ابتهاجاً بولادة الطفلة، كذلك استبد به القنوط و ضاق ذرعاً بحياته، فانكفاً على نفسه و أوصد باب غرفته مدة يومين لم يذق خلالها شيئاً، و لم يخرج لمقابلة وفود الحشود المعزية من السيناتورات والنبلاء. اجتمع مجلس الشيوخ في جلسة عاجلة أعلن خلالها الطفلة الميتة الهة، وقرر إقامة معبد لأجلها، وأوصى بتعيين كاهن خاص له. و قدمت القرابين في المعابد الأخرى على روح الفقيدة، و سبكت لها التماثيل من أثنى المعادن. كان حفل تشييعها حفلاً مهيباً بلا مثيل، رأى فيه الشعب بأم عينه ما تركته الكارثة في نفس القيصر من ألم لا حدود له. فشاطره الناس البكاء.

أقلقت حادثة الوفاة هذه بترونيوس. صارت روما بأسرها تعرف أن بوبيا قد أرجعت سبب موت الطفلة إلى الإصابة بالعين. وهذا ما أكده حتى الأطباء ليغطوا فشلهم بشفائها، وحتى الكهنة بما أن كافة قرابينهم قد ذهبت جزافاً دون أن تجدي نفعا، والمشعوذون الذين باتوا يرتعدون خوفاً على حياتهم كباقي الشعب. بترونيوس الآن أسعده هروب ليفيا، خاصة وأنه لم يكن راغباً في الحاق الأذى بعائلة أولوس، وأنه بالطبع يتمنى كل الخير لنفسه ولفينكوس. وهكذا ما إن انتهى الحداد في القصر، حتى أسرع إلى موعد استقبال القيصر للسيناتورات والنبل، ليقف على مدى تصديق نيرون لأنباء الإصابة بالعين، ويتمكن من اتخاذ الإجراءات الأولية اللازمة لما يترتب على ذلك من نتائج محتملة. بمعرفة لنيرون، وضع بتصوره أن القيصر وإن لم يكن يؤمن بفتنة العين، فسوف يتصرف وكأنه يؤمن بها لأكثر من سبب. فبإيمانه بها يخادع الأمه ويتمكن من إيقاظ نغمته على أحد ما. بصحة مثل هذه الأنباء دلالة على أن الآلهة بدأت تنتقم منه على شناعته وشروره. وبمعرفة له أيضاً كان على يقين أن القيصر وإن بدا حبه للطفلة عنيفاً وبلا حدود لكنه ليس حبا عميقاً وفيها بحيث لا يتمكن من تجاوز الأمه. ولم يكن بترونيوس على خطأ. كان القيصر يصغي إلى المعزين من السيناتورات والفرسان بسحنة حجرية، وعينين جامدتين تحقان بثبات في نقطة وحيدة لا تتبدل.

لقد بدا، وإن كان في حقيقة الأمر يعاني بعض الشيء، متكلفاً أمام الحضور، يباليغ في إظهار ما للحادثة من تأثير عليه. تصنع في وضعيته جلوسه، وثبات نظراته، ولعب دور الوالد المفجوع، لكن على نحو يقوم به ممثل كوميدي. لكنه لم يكن ليقوى على الحفاظ على تعابير الحزن الجامدة تلك، فكان بين الفينة والأخرى يبدي بعض الحركات. تارة كأنما يرش الرمال على رأسه وتارة أخرى يثن

بفضاظلة، لكنه حين لمح بترونيوس قفز و صاح بصوت تراحيدي  
يسمعه الجميع:

- أهووو... أنت كذلك سبب موتها! أنت الذي جئت بالروح  
الشريرة إلى هذا المنزل لتنتزع بنظرة منها الحياة من صدرها... يا ويلي!  
يا عمى عيني! يا ويلي! أهووو! أهووو!

واشتد صوته يطلق التأوهات اليائسة. لكن بترونيوس سرعان ما  
تقدم منه و سحب المنديل الحريري من حول عنق القيصر، وشده على  
فم نيرون. وقال بجهامة

- سيدي! احرق بالملك روما والعالم بأسره لكن احرص على صوتك  
من أجلنا.

ذهل الحضور. و فوجئ القيصر للوهلة الاولى. وحده بترونيوس  
حافظ على رباطة جأشه. كان يدرك ماذا يفعل. تذكر ما كان يفعل  
تيربونوس و ديودروس حين يرفع القيصر صوته : يغلقان فمه، لكي لا  
يتأذى صوته.

و استأنف يقول بصوت جاد مشوب بالحزن :

- أيها القيصر ! لقد تكبدنا خسارة فادحة لا تعوض. فلنحافظ على  
هذا الكنز عزاء وحيداً لنا.

تحمد وجه القيصر، وسرعان ما دمعت عيناه، ومال على ذراع  
بترونيوس مسنداً رأسه على صدر صديقه. وكرر منتحياً

- أنت الوحيد الذي خطر له ذلك. أنت الوحيد من بينكم جميعاً.  
أنت الوحيد.

شحب تيفاليتوس من الغيرة. أما بترونيوس فقد أجاب :

- اذهب إلى الأنتيوم حيث ولدت الطفلة و رأت النور. هناك ستغمرك السعادة، وتحوز على العزاء. دع هواء البحر ينعش رئتيك، ويمتلئ صدرك بالرطوبة المالحة نحن أنصارك سنرافقك أينما حللت، و نبلسم جرحك بصدقتنا. و أنت تشفيننا بغنائك.

فأجاب نيرون باللم:

- أجل. سأكتب من أجلها نشيدا و أقوم بتلحينه.

- وسنحوذ بعدها على أشعة الشمس الدافئة. وعلى السلوان في بلاد الإغريق.

- في بلاد الإغريق، بلاد الشعر، والغناء.

و كما تنقشع الشمس من خلف الغيوم، تخلص المصعوق من جهامته شيئا فشيئا، و أخذت الاحاديث الحزينة في ظاهرها تتطرق إلى الخطط الآتية و السفر، والفن، و حفلات الاستقبال على شرف ملك تيرداتس و أرمينيا. و تطرق تيغالنيوس ثانية إلى موضوع الاصابة بالعين، لكن بترونيوس قبل التحدي واثقا من فوزه فسأل:

- هل تقول يا تيغالنيوس ان الاصابة بالعين يمكن أن تلحق الاذى بالالهة؟

فأجاب رجل البلاط القيصري :

- القيصر نفسه تحدث عنها.

- كان الأ لم من نطق بذلك، وليس القيصر. لكن ما رأيك أنت في المسألة؟

- الالهة أعظم بكثير من أن تتمكن الاصابة بالعين أن تلحق بها الاذى.

- أنت تنكر إذن على القيصر و عائلته الطبيعة الالهية؟

فأجاب مارسيلوس الجالس في مكان قريب، مرددا نفس عبارة الجمهور حين تلقى المجالد جرحا بليغا لا يحتاج بعده إلى طعنة الرحمة:

- ضربة قاضية.

كتم تيغالنيوس غيظه. كان التنافس قديما بينهما لكسب ود القيصر، وكان ل تيغالنيوس حظوه في التفوق على خصمه، من حيث أن القيصر نادراً ما شاحنه، وأبدى انزعاجا منه. لكن بترونيوس في كل تجارب الاقتدار التي جرت أمام القيصر حتى الان، كان يتفوق على غريمه بعقله و تالقه.

و هذا ما حدث الان. لزم تيغالنيوس الصمت. لكن سرعان ما جمع حوله السيناتورات والفرسان، لمجرد أن غادر بترونيوس المكان إلى الداخل، ليقنعهم أنه المفضل لدى القيصر.

و بمغادرة بترونيوس القصر، قصد فينيكوس، و بعد أن أخبره بما حصل له مع القيصر و تيغالنيوس، قال

- لم أبعد الخطر عن رأسي أولوس و بومبونيا، عن رأسينا نحن فقط، بل عن رأس ليفيا كذلك التي لن يعملوا على مطاردتها لسبب و حيد



هو أني أقنعت ذلك القرد ذا اللحية الحمراء بالسفر إلى الأنتيوم ومن هناك إلى نابولي أو باييا. و سوف يسافر بكل تأكيد ما دام لا يجروؤ إلى الان على الظهور في مسارح روما، وأنا أعلم أنه يعد العدة منذ زمن للذهاب إلى نابولي. و أنه يحلم كثيرا ببلاد الإغريق و الغناء في أشهر مدنها. في هذه الاثناء سنغتنم الفرصة ونبحث بكل اطمئنان عن ليفيا، و نواريهها في مكان آمن.

الم يطل فيلسوفنا المحترم بعد؟

- فيس洛夫ك المحترم نص اب. لا. لم يأت. لم تشرح عيناى بروئيته. ولن نراه أبدا.

- لكن لي رأيا أفضل، إن ليس في نزاهته، ففي عقله الراجح. حصل مرة على نقودك، و سوف يأتي مرة أخرى من أجل نقودك.  
- سأمص دمه.

- لا تفعل. كن صبورا معه، حتى تتيقن أنه نصاب. لا تمنحه نقودا، لكن عده بمكافأة إذا ما جاءك بنبا طيب عنها. لكن هل فعلت شيئا من أجلها؟

- أرسلت اثنين من أرقائي على رأس ستين من رجالي. و وعدت من يعثر عليها بأن أعتقه. كما وزعت رجالا على كافة الطرق المؤدية إلى روما، و كلفت بعضهم بالبحث عن ليفيا و أرسوس في الارياف. وأنا بدوري جبت المدينة بنفسى ليل نهار بحثا عنهما.

- زودني بما يستجد من أخبار أولا بأول، لأني مسافر إلى الأنتيوم، حيث ستجد الكثرة من النساء والتسلية.

راح فينيكوس يذرع المكان متوفزا جيئة وذهابا. و تابعه بترونيوس بعينه لوهلة، ثم خاطبه قائلاً :

- قل لي بصدق، لكن ليس كفتى تلهبه الحماسة، ويستحوذ الهاجس، بل كشخص متزن يكلم صديقه، هل ما زالت ليفيا هامة بالنسبة اليك؟

توقف فينيكوس للحظة، و حدج بترونيوس بنظرة ساخطة كأنما من تفوه بذلك شخص غريب يلتقيه للمرة الاولى، و هم في الهجوم عليه. لكن سرعان ما كجّ جماح نفسه. و انتهى به الأمر، و قد شعر بعجزه، أن ترقرت في عينيه على خلفيّة من الألم، والغضب، و الرغبة التي لا تنطفئ، دمعان كانتا أبلغ تعبير من أي رد.

فقال بترونيوس بعد تمع ن :

- ليس أطلس من يحمل الكون على كتفيه، بل المرأة التي تلعب به كالكرة أحيانا.

فرد فينيكوس :

- فعلا.

ثم ودعا بعضا. وفي هذه اللحظة أبلغهما أحد الأرقاء أن شيلون شيلونيدس ينتظر في الصالون، و يطلب السماح بالدخول إلى حضرة السيد.

سمح له فينيكوس في الحال. لكن بترونيوس صاح قائلاً :

- هه. ألم أقل؟ هدى من روعك، و إلهو من سيسط سلطانه عليك و ليس العكس.

و حين دخل شيلون القى التحية قائلاً :

- التحية و الاحترام لك أيها النبيل، ولك أيضاً يا سيدي. لينتشر صيتكما في العالم من أعمدة هرقل حتى حدود أرساسيدا !

فأجاب بترونيوس :

- التحية لك. أنت ينبوع العقل والفضيلة.

لكن فينيكوس سأله بهدوء مصطنع:

- ما لديك من أخبار طيبة؟

- في المرة الاولى جلبت الامل يا سيدي، أما الان فلقد جئتك باليقين في أننا سنجدها.

- وهذا يعني أنك لم تجدها بعد؟

- حقا يا سيدي، لكنني اكتشفت معنى الرمز الذي رسمته لك. وأعرف من أولئك الذين حرروها. كما أعرف أين سنبحث عنها، بين أتباع أي من الالهة.

أراد فينيكوس أن يقفز عن كرسيه، لكن بترونيوس ردعه واضعا يده على ذراعه، و التفت إلى شيلون قائلاً :

- تابع!

- هل أنت واثق يا سيدي بأن ما رسمته العذراء كانت سمكة؟

فرد فينيكوس بتوتر.

- أجل.

- إذن هي مسيحية. والمسيحيون هم من حرروها.

ساد صمت لحظي، حتى نطق بترونيوس قائلاً:

- اسمع! قربي خصص لك مبلغاً جيداً من أجل العثور على الفتاة، وكذلك عدداً لا بأس به من الجلدات، إذا ما أردت خداعه و الاحتيال عليه. في الحالة الاولى ستحصل على ثلاثة أكياس بدلاً من كيس واحد. وفي الحالة الثانية لن تنفكك فلسفات الحكمة السبع، إضافة إلى فلسفتك، في الشفاء من الجلد.

كرر الإغريقي يقول:

- العذراء مسيحية يا سيدي!

- فكر يا شيلون لست شخصاً أحمق. نحن نعلم أن يوليا سيلانا و كاليفيا كريسبنيلا اتهمتا بومبونيا غريسينا باعتناق خرافة المسيحيين، لكننا نعلم كذلك أن المحكمة القيصريّة برأتها من التهمة.

هل تريد أن توجه لها التهمة من جديد؟ أتراك تريد إقناعنا بأن بومبونيا و معها ليفيا من بين أعداء الانسانية، ومن بين من يسممون البئر و ماء البئر، ويقتلون الأطفال، و يمارسون أخط الأفعال؟

هل فكرت جيداً يا سيلون أن نقض هذه الفرضية يعني أنك من سيدفع الثمن فيما بعد؟

بسط شيلون ذراعيه مشيراً إلى أن ذلك ليس خطأ ارتكبه هو، ثم استأنف قائلاً:

- سيدي! قل باللغة الإغريقيّة هذه العبارة: عيسى المسيح، ابن الله.  
المخلص.

- حسنا. سأقولها. و ماذا بعد؟

- والان خذ من كل كلمة الحرف الاول منها. ثم جمعها لتشكّل  
كلمة واحدة.

فقال بترونيوس ذاهلا :

- سمكة.

فقال شيلون بافتخار!

- أرايت؟ هذا ما جعل السمكة رمزا للمسيحيين.

خيم صمت لحظي. كان في محاججة اليوناني ما باغتتهما، حتى لم  
يكن بمقدورهما التغلب على ذهولهما الصريح.

تساءل بترونيوس قائلاً :

- فينيكوس! لعلك مخطئ فيما رسمت الفتاة. هل رسمت سمكة؟

فصرخ الشاب بنبرة عنيفة:

- أيتها الالهة! أنا سأفقد عقلي. لو رسمت طيرا لقلت لك إنها  
رسمت طيرا.

فكرر شيلون قائلاً :

- إذن فهي مسيحيّة.

علق بترونيوس :

- هذا يعني أن بومبونيا و ليفيا تسممان الابار، وتقتلان الأطفال في الشوارع، وتزنيان. حماقة! أنت يا فينيكوس أقمت معها لفترة طويلة، وأنا لفترة أقل لكنني أعرف كلا من أولوس وبومبونيا وليفيا حق المعرفة، ولهذا أقول حماقة وافتراء. لو كانت السمكة رمزاً للمسيحيين لكان من الصعب دحضه. ولو كانتا مسيحتين لأقسمت أن المسيحيين ليسوا كما نعتبرهم وننظر اليهم.

أجاب شيلون

- تتكلم يا سيد كسقراط. من ناقش يوماً مسيحياً؟ من تعرف على تعاليمهم؟ منذ ثلاث سنوات في طريقي من نابولي روما ليتني بقيت هناك، انضم الي شاب قيل إنه مسيحي، ورغم ذلك أيقنت انه شخص طيب و خلوق.

- وهل تعرفت على معنى رمز السمكة من ذلك الرجل الفاضل؟

- للأسف يا سيدي، خلال طريقنا طعن أحدهم الشاب، في حين قام تجار الرقيق بخطف زوجته وطفله، ولم أسلم أثناء دفاعي عنهم من الاذية ففقدت هاتين الاصبعين. لكن بما أن العجائب تحدث بكثرة في أوساط المسيحيين، آمل أن تنموا من جديد.

- لعلك صرت مسيحياً؟

- منذ أمس يا سيدي، منذ أمس. للسمكة الفضل في ذلك. ترى كم من القوة تختزن فيها! بعد أيام سأكون من أشد المتحمسين بينهم من أجل أن يطلعوني على أسرارهم. وحين أعرف هذه الاسرار كلها، سأعرف أين تختفي الفتاة. وعندئذ قد تكون مسيحتي أكثر نفعاً مادياً من فلسفتي. دعوت مرسيوريوس أيضاً ليرشدني و يساعديني في إيجاد

الفتاة. سأذبح قربانين من الايائل من نفس العمر والحجم، وسأحتفظ بقرونها وأطليهما بالذهب.

- إذن مسيحتك الجديدة، وفلسفتك القديمة تتيحان لك الوثوق بمسور يوس؟

- أثق دائماً بمن أنا في حاجة للوثوق به، وفلسفتي هذه تناسب ذوق الالهة وخاصة مسور يوس. من سوء حظي، تعرفان يا سيدي المحترمين، أي اله شكاك يكون؟ لا يثق بوعود أصدق الفلاسفة، ويفضل الايائل قبل أي وعد يقدمونه. من هنا أهمية حاجتي للمبلغ الذي وعد به فينيكوس المحترم، أو لجزء منه.

فصرخ بترونيوس قائلاً :

- ولا أبلوس واحد، يا شيلون! ولا أبلوس واحد. كرم فينيكوس يفوق أمانيك، لكن بعد أن تجد الفتاة أو ترشدنا إلى مكانها، سيكون فينيكوس مرغماً على منحك هذين الايلين، ولو أنني أظنه غير راض عن ذلك، لكن أثق برجاحة عقله.

- اسمعاني أيها السيدان المحترمان! اكتشافي كان عظيماً. ولو أنني لم أجد الفتاة، لكنني اكتشفت الطريق للوصول إليها. لقد نشرتم رجالكم من الأحرار والعبيد في أنحاء المدينة وريفها، فهل جاءكم أحد منهم بخبر؟ لا أنا الوحيد الذي جئتكم بشيء هام. وسأقول لكم أكثر من ذلك. قد يكون بين أرقائكم مسيحيون لا أعرفهم، لأن هذه الديانة قد انتشرت في كل مكان. وهؤلاء بدلاً من أن يقدموا المساعدة قد يضمرون الخداع. حتى وجودي هنا ليس بالأمر المحبذ فقد يروني معكم. لذلك أرجو منك يا سيد بترونيوس أن تطلب من

يونيكى التكتم. و أنت يا سيد فينيكوس انشر خبرا مفاده أنني قصدتك  
لأعطيك مرهما يساعد في كسب السباق إذا ما دهنت به حوافر الخيل.  
أنا الوحيد الذي سيبحث عن الهاربين و انا الوحيد الذي سيجدهما.  
ثقابى. و أي شيء تمنحاني مقدما سيكون مجرد مكافأة لي لأن أتعابي  
أكثر بكثير. اسمعاني جيدا ، لقد تشققت قدماي من التجول الدائم.  
عرجت على الخمارين، والخبازين، والجزارين، و بائعي الزيوت، و  
صيادي السمك، و مقتلعي الاسنان، و أطباء الجلد و الدم، و كلمتهم  
جميعا. كما جلت في المقابر. أتدريان ما السبب؟ لأرسم في كل مكان  
سمكة و أراقب بعدها وجوه الناس، و اسمع ما يقولونه بشأن الرمز.  
طال الوقت و لم الاحظ شيئا، حتى لمحت رقيقا عجوزا إلى جانب  
بئر يقوم بوضع السم في البئر و بيكي. تقدمت نحوه و سألته عن  
سبب بكائه. و بسؤالى دعاني إلى الجلوس، فجلسنا و قال إنه أمضى  
حياته و هو يجمع المال ليعتق ابنه. لكن سيده حين رأى ما معه من  
مال سلبه إياه دون أن يعتق الولد. قال لي " هذا سبب بكائي ". أما أنا  
فقلت في نفسي سأمتحنه و أرسم سمكة. بللت اصبعي بالماء و رسمت  
السمكة. فأجابني في الحال: " أنا أيضاً أملى في المسيح " فسألته هل  
عرفتني من خلال الرمز. فقال " نعم. السلام عليك " وراح يروح لي  
بكل شيء. قال لي إن ولده يعمل في نقل أحجار البناء حيث يعمل  
الكثير من المسيحيين. و لأنه عمل شاق أراد أن يعتق ابنه. و جاء دوري  
للحديث فقلت له شاكيا : لقد وصلت لتوي من نابولي و لا أدري أين  
أتعبد، لأني لا أعرف أخوة لي هنا، و لا أين يمكن أن يجتمعوا للعبادة.  
فاستغرب كيف لم يزودني الاخوة المسيحيين في نابولي برسالة إلى  
الاخوة في روما. فأوضحت له أن الرسالة قد سرقت مني في الطريق.  
فقال لي أن أذهب ليلا إلى النهر، و سوف يعرفني على الاخوة، وهم  
سيصطحبونني إلى المعبد، و إلى الرهبان الذين يتدبرون أمر المسيحيين.



كم كنت سعيدا حين أعطيته كل ما لدي من نقود تساعده في إعتاق ابنه، على أمل أن يردها لي فينكوس ضعفين.

هنا قاطعه بترونيوس قائلاً :

- شيلون. كذبك يطفو فوق صدقك كالزيت فوق الماء. لا أنكر أنك جلبت أخبارا هامة. كما أقر بأنك وضعت أقدامنا على الدرب الصحيح المفضي إلى ليفيا. لكن لا تغلف أخبارك بالكذب. ما اسم ذلك العجوز الذي أكد لك أن السمكة هي رمز المسيحي؟

- يورسيوس يا سيدي. عجوز مسكين، يذكرني بالطبيب الذي دافعت عنه ضد اللصوص. كان هو من حم سني كل هذا الحماس.

- صدقت أنك تعرفت إليه، و أنك تستطيع أن توظف هذا التعرف، لكنك لم تمنحه نقوداً و لم تمنحه أي شيء.

- بل ساعدته في رفع الدلو، و أفضيت معه في حديث الموااساة عن ابنه. أجل يا سيدي. ما الذي يمكن أن يخفى عن ذهن بترونيوس الوقاد؟ أنا لم أعطه نقوداً، لكني أعطيته، وإن كان في ضميري فقط و في روحي، وتفكري، ما كان كافياً لو أنه كان فيلسوفاً حقيقياً. و لقد أعطيته ما أعطيته لأنني اعتبر ذلك خطوة ضرورية، و ناجعة. تصور يا سيدي، كم استمال من المسيحيين نحوي، وكم سدّد طريقي نحوهم، و كم من الثقة بي قد أيقظ في نفوسهم.

اعترف بترونيوس قائلاً :

- هذا صحيح: وكان عليك أن تفعل ذلك.

- ولقد جئت لهذا السبب بالضبط. لكي أتمكن من فعل ذلك.

التفت بترونيوس نحو فينيكوس قائلاً :

- عد له خمسة الاف سستريوس، لكن فقط في روحك، وفي تفكيرك.

لكن فينيكوس خاطب شيلون قائلاً :

- سيرافقك أحد الشبان. هو من يحمل النقود. و أنت ستقول ل يورسيوس العجوز إنه أحد أرقائك، و تعطيه النقود على مرأى منه. وبما انك قد جلبت خيراً طيباً فستحصل على نفس المبلغ. ارجع في المساء لأجل الشاب و النقود.

أضاف شيلون قائلاً :

- قيصر حقيقي. اسمح لي يا سيدي أن أقدم مؤلفي لك. لكن اسمح لي أيضاً أن أتى من أجل النقود فقط. لا يمكن لأحد أن يرافقني لأن يورسيوس قال لي إن قاربه لا يتسع الا لاثنين. رافقتكم السلامة! هذا وداع المسيحيين... سأأخذ لنفسي عبدة، أقصد عبداً. السمكة يصطادونها بالسنارة. أما المسيحيون فبالسمك. رافقتكما السلامة! رافقتكما السلامة!

من بترونيوس إلى فينيكوس.

أبعث اليك برسالتي مع أحد أرقائي المؤمنين. ورغم أن يدك اعتادت  
السيف و الرمح، لا القلم، فإني آمل أن تبعث برّدك، دون تأجيل، عن  
طريق المراسل ذاته. لقد غادرتك و أنت هناك مترع بالامل، و في أفضل  
حال، فأمل أنك إذن، إما ان تكون قد أطفأت ظمأ أشواقك بين ذراعي  
ليفيا، أو أن تتمكن من أن تطفئه و ترويه، قبل هبوب العاصفة الشتائية  
من قمة سورااست باتجاه كامبانيا. آه يا فينكوس و كما آمل أن تكون  
ربة قبرص الذهبية سيدتك، ولتكن أنت سيد تلك الليغوية الجميلة  
جمال حمرة الفجر، و اهرب قدر الامكان من أمام شمس الحب. ولا  
تنس أن الرخام، حتى لو كان الاثمن، لا يساوي شيئاً بذاته، و قيمته  
الحقيقية كامنة بين يدي النحات الذي يحوله إلى تحفة فنية. فكن أنت  
النحات، يا عزيزي. لا يكفي أن نحب، علينا أن نعرف كيف نحب،  
و نعرف أن نعلم الاخرين الحب. فعامة الناس أيضاً تشعر بالرغبة.  
وكذلك الحيوانات. لكن الانسان الحق يختلف عن كل أولئك، بجعل  
الرغبة فنا نبيلاً، يستمتع به على نحو واع، وإدراك لقيمته الالهية، حتى  
لا تختزل في إشباع الشهوة الجسدية فقط بل الروحية أيضاً. حين أفكر  
هنا بالسأم و بكون حياتنا جدباء مقفرة، و لا يقينية، يخطر لي: اليس  
اختيارك هو الأفضل يا ترى! فليس بلاط القيصر أبدا بل الحرب و  
الحب هما الأمران اللذان يستحقان أن نولد ونحيا من أجلهما.

لقد كنت محظوظا في حروبك. فكن كذلك في الحب. وإن كنت يدفعك الفضول أن تعرف ما يجري في بلاط القيصر، سأعلمك بذلك بين الحين والآخر. نحن هنا في الانتنيوم، نداوي صوتنا السماوي. أما روما فإننا نتمقتها على الدوام. نستعد للذهاب شتاء إلى بايا، ومن هناك سنقصد نابولي لأن أهلها بكونهم من الإغريق يقدرونا أكثر من شعب الثعالب القاطن في السواحل التبرية. سوف يحتشد الجموع في كل من بايا و بومبي و بوتولي و كومي و ستابيا لاستقبالنا بالتصفيق، وأقواس النصر، الأمر الذي يخدم، عفويا، مسيرنا إلى أكايا.

وفيما يخص ذكرى الاوغستا الصغيرة فلا زلنا نبكيها ونعزف لها المؤلفات و الاناشيد الرائعة التي تدفع العازفين جميعا من شدة حسدهم إلى الاختباء في أعماق مغائر الهة البحر امبتريتي. حتى أن الدلافين تقف للإصغاء إذا لم يشغلها هدير البحر. لم يخمد بعد، حزننا الذي نعلنه للناس بأشكال شتى، تعلمناها من وضعيات التماثيل المحببة للناس و الأكثر ملاءمة للحالة. آه يا عزيزي، إننا نمارس موتنا كمهرجين، و كوميديين.

هنا كل الرهبان الاوغسطين، من رجال و نساء، إضافة إلى خمسمئة آتان تستحم بوبيا بحليبها، وعشرة آلاف رقيق. و أحيانا ترانا فرحين باسمين. كالفيا كريسبينلا بدأت تهرم. يقال أنها تتوسل بوبيا لتستحم بعدها في الحليب ذاته. لو كانوس صفع نيجيريا لشكه بعلاقتها بأحد المجالدين. سبوروس بمغامرة منه خسر زوجته بسبب سينيكو. سيلانوس قدّم لي لقاء يونيكي أربعاً من خيول السباق المطهّمة، فلم أقبل بها. وأنا ممتن لك بذلك، فقد أخذت بنصيحتك. أما عن توغواتوس سيلانوس فقد صارت أقرب إلى الشبح منها إلى الإنسان. موتها مؤكد. لا مجال لإنقاذها. هذا هو عالمنا. لقد قررنا

الحرب منح كوربولو من السلطة والصلاحيات، ما كان لبومبيوس الكبير في الحرب ضد الكالوز.

مرت لحظات نطق فيها نيرون، وأبدى تحفظه على أن بمقدور كوربولو أن يحقق صيتا ذائعا إذا ما انتصر في الحرب. فكرنا بأن نوكل أولوس قيادة الجيش، لكن بوبيا عارضت الفكرة لأن نقاء بومبونيا شوكة في عينها.

و عدنا فاتينيوس بمباريات مجالدة عالية المستوى يقيمها في بنفنتوم. ترى كم للإسكافيين من أياد طولى في أيامنا هذه. قام اليتوروس البارحة بلعب دور أوديب على نحو بديع. سألته وهو اليهودي هل اليهودي والمسيحي واحد؟ فأجاب أن الدين اليهودي قديم بالوراثة، أما الدين المسيحي فهو طائفة جديدة نشأت في يوديا. في عهد بترونيوس قاموا بصلب أحد الرجال وتنامت أعداد أتباعه الذين يتخذونه الها لهم، يوما بعد يوم. أظن أنهم لا يؤمنون بأي اله آخر ولا حتى الهنا نحن، ولا أدري ما الذي يضيرهم في ذلك.

لقد صرح تيفالينوس بخصوصيته لي. لكنه لا يستطيع أن يجاريني حتى الان. ميزته عني أنه يكثر بحياته أكثر مني، وأشد وضاعة، مما يقربه أكثر من صاحب اللحية الحمراء. و عاجلا أو آجلا هو من سيتفق معه أولا، حتى يأتي دوري أنا. لا أدري متى ستأتي اللحظة المناسبة. حتى ذلك الوقت نتسلى ونمرح. الحياة بذاتها ليست رديئة لولا وجود صاحب اللحية الحمراء. هو من يجعل المرء يسأم من نفسه. لا جدوى من حضورنا كل تلك المباريات، والمجالدات التي تقوم بجوهرها على تغذية عبادتنا لذواتنا. أحيانا أقول لنفسي إنني لا أختلف عن شيلون، ولست أفضل منه في شيء البتة. إن كنت لا تحتاجه ابعته

الي. لقد أحببت عباراته ذات البناء السليم. بلغ تحياتي فتاتك المسيحية  
الالهية، واطلب منها باسمي أن لا تكون معك سمكة. أخبرني عن  
أحوالك، وحبك. واعرف الحب وعلمه. السماء معك.

من فينيكوس إلى بترونيوس

ليفيا لم تحضر بعد. ولولا أمني في العثور عليها في وقت قريب، لما  
جاءك ردي، لأن المرء إذا ما سئم حياته، لا يستطيع حتى أن يكتب.  
أردت أن أتجاوز فكرة أن شيلون يحتال علينا في ذلك المساء، حين  
رجع من أجل المال الذي سيعطيه لأوريسوس، البسته سترة عسكرية،  
وأرسلت معه شابا، وتبعتهما خلسة. حين بلغا المكان، أختبأت خلف  
عمود المرسى ورحت أراقبهما عن بعد. وتأكدت أن يوريسوس ليس  
هيئة زائقة. وكان في الاسفل عند ضفة النهر، مجموعة من الرجال على  
ضوء المشاعل تقل الحجارة من قوارب ضخمة، وتركنها على الضفة.  
رأيت شيلون يذهب باتجاههم، ليحدث عجوزا سرعان ما ركع على  
قدميه. تحلق حولهما الآخرون، وسمعت منهم صيحات استغراب.  
رأيت بأم عيني كيف قدم الشاب الكيس ليوريسوس فأخذها وراح  
يصلي بيدين مرفوعتين، وكان يجثو إلى جانبه شخص آخر لا بد أنه  
ابنه. قال شيلون شيئا لم أسمعه جيدا. ثم انضم إلى الرجل وابنه، وبقية  
الآخرين، وراحوا يرسمون في الهواء إشارات الصليب. وددت لو  
أذهب اليهم، وأعد من يرجع لي ليفيا بثلاثة أكياس. لكني خشيت  
من أن أفسد على شيلون عمله. وهكذا، بعد إمعان في التفكير، عدت  
أدراجي إلى البيت.

حدث هذا بعد اثني عشر يوما من سفرك. وبعدها جاء الي كثيرا.  
وحدثني كم يلقي بين المسيحيين من التقدير. قال إنه لم يجد ليفيا حتى

الان، لأن روما باتت مكتظة بالمسيحيين، فلا يعرف الجميع بعضهم، ولا كل ما يحصل لأي منهم. إضافة إلى حيطتهم وندرة أحاديثهم. لكنه سيسعى إلى التقرب من كهنتهم لانتزاع الاسرار. تعرف على بعض منهم، وحاول جس نبضهم، لكن بحذر، كي لا يزرع الشك في نفوسهم، ويفسد الأمر. عرف أيضاً أن لهم أماكن مشتركة للعبادة. غالباً ما تكون خارج أسوار المدينة في بيوت مهجورة، أو في مناجم الحجارة، حيث يقومون بتقديم احترامهم للمسيح، ويغنون، ويأكلون. هناك العديد من هذه الأماكن. يعتقد شيلون أن ليفيا عمدت أن ترتاد أماكن أخرى غير التي تقصدها بومبونيا، لسبب وجيه هو أن يتاح لبومبونيا أن تقسم أمام القضاء أنها لا تعرف مكان اختفاء الفتاة. قد يكون الكهنة هم من أشاروا لها بذلك. لمجرد أن اكتشف شيلون هذه الامكنة سأرافقه اليها، وإذا ما قدرت الالهة أن أرى ليفيا، فأني أقسم بجويتر أنها لن تفلت مني ثانية.

لا تغيب عن بالي أمكنة العبادة تلك. لا يريد شيلون أن أرافقه اليها. يخاف. لكنني لا أستطيع التحمل والقيود. سأتعرف عليها حتى لو تخفت بوشاح، أو تنكرت بلباس. هم يتجمعون كل مساء، وأنا سأعرفها حتى في الليل. أعرف حركاتها، ونبرة صوتها. سأذهب متنكراً إلى هناك، وأراقب الداخلين والخارجين. على شيلون أن يجيئني في الغد. وسنطلق معا.

سأحمل سلاحاً. رجع بعض أرقائي الذين أرسلتهم إلى الريف، لكن بلا نتيجة. والان أنا أكيد أنها هنا في المدينة. وفي مكان قريب. عاينت بنفسني كثيراً من البيوت بحجة استئجارها.

أنت تكتب لي: كان اختياري سليماً. أجل في المشاكل، والشقاء.

سنقصد أولاً منازل المدينة، ثم المنازل خارجها. الأمل قائم، والآن نتعذر الحياة. تقول: ينبغي أن نعرف أن نحب. وأنا عرفت أن أحدث ليفيا عن الحب، لكنني الآن أقتصر على الشوق، وأنا في انتظار شيلون، لأن الحياة في المنزل لا تحمل. السماء معك.



أما شيلون فقد طال غيابه، حتى لم يعرف فينيكوس ماذا سيفعل. لم ينفعه إقناع نفسه بجدوى التحريات ونتائجها المثمرة، لأنها باتت ستسير بطيئة. ثارت ثائرتة الدموية والنارية في آن، وتغلب على صوت العقل فيه. القعود بذراعين معقودتين لا يفعل شيئاً ولا يثمر سوى الانتظار. وهو أمر يناقض طبيعته فلا مصلحة معه، ولا تنازل عن غاية وضعها نصب عينيه. إذا ما نطق عبارة أريد فلا حدود لا يقافها. عبادة ذاته تسبب له ألماً وتكبّده المعاناة. إلى جانب ذلك فقد كان ثمة في هروب ليفيا لغز لم يفهمه أبداً. وهو على استعداد ليقدّم حياته ثمناً من أجل حلّه. شعر أن أكتي محقة حينما قالت له: لستَ بالنسبة لليفيا مجرد شخص عادي كأي أحد آخر، لكن لو كان ما قالته صحيحاً فلماذا اختارت التخفي و البؤس، بدلاً من الحب والمنزل الواعد برغد العيش؟ لم يعثر على إجابة. لكنه بدلاً من ذلك، قد شعر أن هنالك فارقاً بينه وبين ليفيا، وتفاوتاً بين أفكاره وأفكارها، وكذلك بين عالمه وعالم بترونيوس، وبين عالمي ليفيا و بومبونيا. هوة عميقة من سوء الفهم، لا يجسرهما رابط. شعر عندها، أن عليه أن يفقد ليفيا، ففقد توازنه للفكرة التي شجعه عليها بترونيوس. مرت لحظات لم يدر خلالها إذا كان يحب ليفيا أم يكرهها. لكنه، في الحالتين، أراد أن يعثر عليها ويحظى بها والافتتبلعه الأرض إلى جهنم تذكر كل كلمة قالها للفتاة، وكل كلمة سمعها منها. وشعر، ويداه معقودتان، كم يتملكه الشوق. وكم أحبها، وأرادها. ومرت أيام فكر خلالها، أية آثار سيخلفها سوطه على

جسد ليفيا، وأنه في نفس الوقت سيقوم بتقبيل كل أثر منها، وفكر أحياناً كم سيكون سعيداً إذا ما قام بقتلها.

في خضم هذا التمزق، والتعب، والحيرة، والتكبد، انهارت صحته، وفقد وسامته. بات سيذا غامضاً، وجائراً، تحاشاه الأحرار، وارتجف أمامه الأرقاء، وتسلط عليهم بجور أحكامه لسبب وبغير ما سبب. حتى باتوا يضمرون له الكراهية. شعر بذلك، ففاقم من عقابه ونقمته عليهم. ولكنه كبح جماح نفسه أمام شيلون خشية تخليه عن مهمته. لكن شيلون بملاحظته هذا الأمر، أخذ يتع إلى عليه ويزيد من مطالبه. فكان في كل مرة يجيئه، يبادره أولاً بزرع الثقة في سهولة وسرعة انجازه لمهمته، لكنه كان يلاقي أعداء، ويضع صعوبات جديدة في كل مرة، حتى صار أخيراً يصرح بأن العثور عليها بات أمراً طويل الأمد.

في نهاية المطاف، وبعد انتظار دام أياماً، جاءه شيلون متجهماً عكر السريرة، فشحب الشاب لمراه، فهب لسؤاله:

- ليست بين المسيحيين؟

فأجاب شيلون:

- كيف لا. يا سيدي، وقد رأيت الطبيب غلاوكوس هناك.

- عم تتحدث؟ من يكون ذلك؟

- هل نسيت يا سيدي ذلك الشخص الذي رافقني في رحلتي من نابولي إلى روما، والذي فقدت إصبعي دفاعاً عنه، وبت لا أستطيع استخدام القلم؟. اللصوص الذين خطفوا زوجته وأولاده، طعنوه

، واضطرت إلى تركه يحتضر في الحانة، وبكيتة طويلاً. أسفي عليه.  
لقد تأكدت أنه حي، يرزق، وأنه ينتمي إلى المسيحيين في روما.

لم يفهم فينيكوس شيئاً. لكنه أدرك أن كلاوسوس يمثل عائقا ما أمام  
العثور على ليفيا. كظم غيظاً شديداً تجاه شيلون وهاجمه قائلاً :

- ما دمت قد دافعت عنه، فعليه أن يكون ممتناً لك، ويساعدك في  
مهمتك؟

- آ.آ.آ. حتى الالهة لا تكون ممتنة دائماً فكيف البشر. حقا إنه يدين  
لي بامتنان. لكنه، لسوء حظي، رجل عجوز خرف. ليست المسألة في  
عدم امتنانه فقط لكنني علمت من إخوانه في العقيدة، أنه يتهمني بكل  
ما حصل له، لأني تشاحنت مع اللصوص. وكانت مكافأتي فقدان  
إصبعي.

فعلق فينيكوس قائلاً :

- أنا واثق أنه عجوز وضع إذا ما تفوه بذلك.

فرد شيلون

- إدراكك يا سيدي. أشد من إدراكه. لقد زعم ذلك على سبيل  
الافتراض والتخمين، ومع ذلك فهو افتراض يجعل المسيحيين ينقمون  
علي. لحسن الحظ أنه لا يعرف اسمي، وأنه لم يلمحني في مكان العبادة  
حيث كنا معا. أما أنا فقد عرفته وأردت أن ادق عنقه. لكن حيطتي  
ردعتني. حين خرجت إذن من المكان، قمت بالسؤال عنه للتأكد،  
فأجابني معارفه بأنه من وشى به رفيق طريقه من نابولي إلى روما.  
عندها عرفت أنه ينقم علي.

- وما يهمني من كل ذلك؟ قل لي ماذا رأيت في بيت العبادة.

- لا يهملك في شيء يا سيدي، لكنني يهمني لأنه مسألة حياة بالنسبة لي. ولذا فأنا سأستغني عن مكافأتي وأبتعد عن الموضوع. وحسبي أن أعيش كفيلسوف، يبحث عن الحقيقة الإلهية.

فكان رد فينيكوس عنيفا

- ومن قال لك إن الموت على يديه أسرع من يدي أنا. ومن أين تدري، أيها الكلب، أن قبرك لن يحفر هنا في حديقتي؟

كان شيلون جباناً، فما أن لمح وجه فينيكوس النافر بالوعيد حتى أدرك أن عبارة طائشة أخرى منه، ستعني نهايته.

فبادر إلى الرد سريعاً

- سأبحث عنها، يا سيدي، وسأجدها.

ساد سكون لم يتخلله إلا لهاث فينيكوس، وصوت الغناء البعيد للأرقاء العاملين في الحديقة.

لم يستأنف الإغريقي كلامه إلا بعد وقت قصير، حين أيقن أن الشاب قد هدأ:

- الموت مر بقربي، لكن نظرت إليه باطمئنان كما فعل سقراط. لا يا سيدي. لا. أنا لا أقول إنني سأتخلى عن الفتاة، لكنني أردت أن أعبر عما يهددني الآن من أخطار أثناء بحثي عنها. لقد سبق لك يا سيدي، وشككت في شخص يدعى يورسيوس والان تشكك في وجود كلاوسيوس وتظنه من اختراعي. لكن للأسف المسألة غير ذلك. لو أنني

قد اختلقت كلاوس سيوس اختلاقا، وكان بمقدوري مخالطة المسيحيين و التحرك بينهم بأمان كما في السابق، لكنك تخلت عن المرأة الرقيقة العجوز التي اشتريتها قبل ثلاثة أيام لتخفف عني شقائي، وتعيني في بؤسي.

لكن كلاوس سيوس حي يرزق، وإذا ما لمحنى ذات مرة، فلن تراني بعدها. فمن سيبحث عن العذراء من بعدي؟

وصمت من جديد، يكفكف دموعه ثم أردف

- لكن كيف أبحث عنها و كلاوس سيوس حي؟ فقد التقيه في أية لحظة، وتكون نهايتي، ويتم القضاء على الأمل في إيجاد الفتاة.

- إلى أين تبغي أن تصل؟ ما العمل الان، وما الذي نريد أن تفعله؟

- علمنا أرسطو طاليس، يا سيدي، أن نضحى بالمسائل الصغرى من أجل المسائل الكبرى. والملك برياموس كثيرا ما كان يردد أن الشيخوخة عبء ثقيل. شيخوخة كلاوس سيوس ونحسه باتا يثقلان عليه منذ فترة طويلة، حتى صار يتمنى الموت، لأن الموت منجاة كما يقول سينكا.

- تلفظ بهراءاتك أمام بترونيوس وليس معي. قل ماذا تريد؟

- إذا كانت النزاهة هراء فلتسمح لي الالهة أن أبقى مجنونا إلى الابد. أريد أن أبعث كلاوس سيوس عن طريقي، لأنه مادام حيا فحياتي في خطر دائم. وكذلك العثور على الفتاة.

- جِدْ أشخاصا يخل صون عليه، وأنا سأدفع لهم.

- سينهبونك يا سيدي، بجشعهم و استغلالهم سرّك هذا. الوضيعون  
كثّر في روما، كرمال الصحراء. ومع ذلك لا تتصوّر مقدار غرورهم،  
واعتمادهم بأنفسهم إذا ما أرغموا على استخدامهم كما جورين. لا  
أيها السيد المحترم! فقد يفضح أمر المجرمين ويعرفون، ويقروّن باسم  
من دفع لهم. لأنك ذائع الصيت. أما اسمي أنا فمجهول بالنسبة لهم.  
خطأ تفعل إن لم تثق بي، أو تجاهلت نزاهتي، وغضضت النظر عن  
أمرين اثنين: حياتي، والجائزة التي وعدتني بها.

- كم تحتاج؟

- الف سسترتيوس. مع الاخذ بعين الاعتبار أني سأبحث عن وضعاء  
يتحلون بالنزاهة، ولا يغرون بالدفعة الأولى من أجرهم، العمل الجيد  
يتطلب مبلغا جيدا. سأشترط عليهم أن كل يوم يعيشه كلاوسيوس  
يقابله حسم مئة سسترتيوس من الأجر. ولدي فكرة أخرى أظنها لا  
تخيب.

وعده فينيكوس بالمال مرة أخرى. ومنعه من التحدث عن  
كلاوسيوس، و كان يسأله دائما عما فعله حتى الآن، وما الذي رآه،  
وتوصل اليه. لكن شيلون لم يأت به بشيء ذي أهميّة، سوى زيارته لمعبدين  
ومراقبة كل من كان فيهما، والنساء خاصة. لكن لم يلمح واحده تشبه  
ليفيا. أما المسيحيون فقد باتوا يعتبرونه شخصا مقبولا بينهم. ومنذ أن  
أعطى النقود من أجل إعتاق ابن يورسيوس، وهم يكتنون له الاحترام  
كشخص سائر على خطى المسيحيين. وسوف يقوم بالتعرف على أحد  
مشرعي المعتقد، ويدعى بولس وهو سجين في روما، لأن اليهود قد  
تذمروا منه وقدموا شكوى ضده. والخبر السار الاهم أن أحد أتباع  
المسيح، وهو كاهن من أهل الثقة خوّل له المسيح لقيادة المسيحيين،

سيصل خلال أيام إلى روما. وسيحضر جميع المسيحيين دون استثناء،  
لرؤيته وسماع مواعظه. وبما أن الجمهور سيكون كثيفا يتيح التخفي  
عن الانظار، فسيحضر شيلون أيضاً و يصطحب فينيكوس معه.  
وسيجدان ليفيا هناك. خاصة إذا ما أزيح كلاوسوس من طريقهما.  
ولو كان المسيحيون أيضاً ينقمون، لكنهم على العموم بشر مسالمون.  
تذكر فينيكوس ما قالته بومبونيا عن أكتي، فتقبل كلام شيلون بابتهاج.  
بدا مطمئنا منشرح الصدر لسماعه أن التعاليم التي تعتنقها كل من ليفيا  
و بومبونيا ليست من الافكار الشريرة، أو المجافية للأخلاق. ولكن  
إحساسا غامضا خالجه للتو، وهو أن هذا التقديس السري الغامض  
للمسيح قد أقام جدار فاصلا بينه وبين ليفيا، وزرع الخشيّة في نفسه  
من هذه التعاليم، وبات يكن لها الكراهية.

كان من مصلحة شيلون حقا أن يزيح كلاوس سيوس من طريقه. صحيح أنه كان في سن متقدم من العمر، لكنه لم يكن عجوزا قاصرا. ما قاله شيلون لفينيكوس كان في معظمه صحيحا. كان قد تعرف على كلاوس سيوس، وخانه بالاتفاق على اللصوص، وجرده من عائلته، وثروته، وجعله بين أيادي القتلة ثم تركه يقضي في الحقول، وليس في الحانة. أمر وحيد لم يضعه شيلون في حسبانته، وهو أن كلاوس سيوس قد شفي من جروحه، وجاء إلى روما. حين لمح في دار العبادة ارتعد بالطبع للوهلة الأولى، ورغب في التخلي عن متابعة البحث، لكن فينيكوس قد أخافه أكثر، وأدرك أن عليه أن يختار بين خوفه من كلاوس سيوس ونقمة فينيكوس الهائلة، حتى قرر أخيرا أن يقف إلى جانب فينيكوس وبترونيوس لأن مناصبتهما العداً أمر يكلفه الكثير، إذا ما قورن بعدائه لكلاوس سيوس، شرط أن يتخلص منه، فاتخذ قراره بذلك.

وهكذا، بات من أولوياته الآن، اختيار الأشخاص، لتنفيذ الفكرة التي أطلقها أمام فينيكوس. وبما أن لياييه كلها كان يمضيها في الحانات بين فئات مهترئة من قاع المجتمع لا معتقد لها ولا شرف، كان من اليسير أن يعثر على مبتغاه من الذين لا يتورعون عن القيام بأي عمل، وخاصة إذا ما اشتموا رائحة المال. لكن ثقته بهم كانت معدومة، ورأى فيهم أدوات تحمل ما تحمل من الاخطار والمطامع، الأمر الذي ينقلب عليه ويودي به. كان شيلون أيضاً، قد وصل به أمر مخالطة الرعاع والسوقة، والعصابات المجرمة، حد القرف من تلك الهيئات



القائمة المخيفة المقيمة في منازل مشبوهة في سوبورا. ولكن بما أنه لا يتبع إلا ما تمليه عليه نفسه، ولا يعيش شيئاً إلا بمقاييسه الذاتية الخالصة، وباعتباره حتى الآن لا يعرف المسيحيين، ولا تعاليمهم حق المعرفة، فقد ظن أنه سيجد بينهم ما يصبو إليه من أدوات مطواعة. وبما أنه يعتبرهم أكثر شرفاً ونزاهة من غيرهم، فقد قرر أن يتوجه إليهم ويكلفهم بهذه المهمة، ليس فقط من أجل المال، ولكن بما يخدم المعتقد أيضاً.

وخدمة لهدفه، قصد في المساء يونيكوس، الذي أبدى استعداداً تاماً لمساعدته في كل ما يريد أن يفعله. وبما أنه كان شخصاً حذراً بطبعه، فقد أراد أن يحظى بأشخاص يطمئن إليهم بكتمان السر، ولا يتورعون عن القيام بأي شيء.

بعد أن أعتق يورسيوس العجوز ابنه، استأجر كشكا حول مبنى السيرك يبيع فيه الزيتون والفاصولياء، والكعك، والماء المحلي للمتفرجين.

طبّ عليه شيلون وهو يقوم بترتيب محتويات الكشك. ما إن حياه باسم المسيح حتى أوضح له سبب مجيئه. لقد سبق أن قدم للعجوز معروفاً، وهو الآن يضع في حسبانته أن يرد له معروفه هذا. ويحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الرجال الأشداء الشجعان، للإسهام في درء خطر معين لا يخص شيلون وحده، بل المسيحيين بأسرهم. وعلى الرغم من كونه شخصاً فقيراً أعطى كل ما يملك من مال ليورسيوس، لكن سيدفع أتعاب هؤلاء الرجال شرط أن يثقوا به، وينفذوا كل ما يقوله.

كان يورسيوس وابنه كوارتوس يصغيان جاثين إلى ما يقوله، باعتباره فاعل خير بالنسبة لهما، وسرعان ما صرحا بأنهما على استعداد لفعل أي شيء يطلبه لأنهما يعتقدان أن قديسا مثله لا يمكن لرغبته أن

تخل بتعاليم المسيح، وقد أكد لهما شيلون أن الأمر كذلك، ثم رفع يديه إلى السماء كأنه يصلي، لكنه في حقيقة الأمر كان يفكر بالالف سستريوس التي يمكن أن يوفرها من جراء قبوله بمبادرتها الطوعيّة. الا أنه سرعان ما حسم الموقف وتخلّى عن هذه الخطة. كان يورسيوس هرما أثقلته الاعباء والمرض أكثر مما فعلت به السنين. وكان كوارتوس لا يتجاوز السابعة عشرة، في حين كان والده في حاجة إلى رجال أشداء ذوي خبرة. أما ما يخص الالف سستريوس، فكان يعول على خطته أن يقتصد مبلغاً كبيراً منها.

ظل الأب وابنه على عهدهما بقبول مبادرته، حتى قرر شيلون إبعادهما عنها، فاقتنعا بذلك وبادر الابن إلى القول :

- أعرف يا سيدي خبّازاً يدعى ديماس يعمل في مطحنته اليدويّة أرقاء، وعمال أجرة. أحد هؤلاء يعادل أربعة في قوته، لأنني رأيتُه وهو يرفع حجارة المطحنة، التي عجز عن تحريكها أربعة منهم.

فأجاب شيلون

- إن كان هذا الرجل يخاف الله، وبمقدوره أن يضحي بنفسه من أجل أخوته، فعر فني به.

- الرجل مسيحي يا سيدي، لأن معظم عمال ديماس كذلك.

هناك عمال نهاريون، وليليون، وهو في الوردية الليليّة. إذا ما قصدنا المكان الان، فسنجدهم على العشاء، ونكل مهم بارتياح. ديماس يقطن قرب السوق.

وافق شيلون. لقد أنشئ السوق في أسفل جبل افتنوس، ليس بعيداً

إذن عن السيرك المدرج. وللوصل اليه اختصاراً للمسافة ينبغي السير بمحاذاة ضفة النهر، دون الاضطرار إلى التفاف حول الجبال.

حين اقتربوا من صف العمدان علق شيلون قائلاً :

- أنا عجوز، تخونني ذاكرتي أحياناً. أجل! من خان سيّدنا المسيح كان أحد تلامذته. لا أذكر اسمه الآن.

أجاب كوارتوس مستغرباً كيف يمكن للمرء أن ينسى هذا الاسم!  
- يهوذا يا سيدي. الذي شق نفسه.

فسارع شيلون قائلاً :

- أو، صحيح، يهوذا! شكراً.

وساروا معاً صامتين لفترة. وحين وصلوا إلى السوق، وجدوه مغلقاً، فتابعوا المسير على أطرافه. وحين تجاوزوا صوامع القمح، انعطفوا يساراً على طول فيا أوستنيس حتى تبة تستاكيوس، باتجاه الاكواخ المنتشرة هناك. توقفوا قرب مبنى خشبي سمع من داخله ضجيج الطواحين اليدوية. دخل كوارتوس البناء، فيما فضل شيلون أن لا يظهر نفسه أمام الآخرين هناك، مخافة أن يجمعه القدر بالطبيب كلاوسوس. سيبقى إذن في الخارج.

قال في نفسه وهو يشاهد الكون القمري المضيء: "كّلي فضول لأرى هذا الهرقل الذي يعمل طحّانا هنا. فإن كان شخصاً وضيعاً وذكياً فسيقبل بنقودي القليلة. أما إذا كان مسيحياً فاضلاً وأحمق فسينفذ بالمجان، ما سوف أطلبه منه"

انقطع خيوط تأملاته بخروج كوارتوس برفقة رجل آخر يرتدي سترة تكشف يده اليمنى والنصف الأيمن من صدره. وهي سترة يرتديها العمال في الغالب، لأنها تتيح حرية تامة في الحركة. وحين أبصر شيلون الرجل القادم تنفس الصعداء، وشعر بالرضى لأنه لم ير ساعداً وصدرأ كهذين طوال حياته.

تكلم كوارتوس قائلاً :

- انظر يا سيدي. هذا هو الشخص الذي أردت أن تراه.

فقال شيلون

- عليك سلام سيدنا المسيح، أما أنت يا كوارتوس فقل لأخينا إن كنت أستحق منه الثقة والقبول، ثم عد إلى منزلك للعناية بأبيك العجوز.

فقال كوارتوس :

- شخص قديس، قدم كل ثروته من أجل أن يعتقني من العبودية رغم أنه لم يكن يعرفني. ليمنحه سيدنا المخلص رحمة السماء.

بسماع العامل العملاق هذه العبارات، انحنى وقبل يد شيلون.

فسأله الإغريقي

- ما اسمك أيها الاخ؟

- في العمادة القداسية حصلت على اسم أوربانوس.

- أخي أوربانوس. هل لديك الوقت لتحدث معا بهدوء؟

- عملنا يبدأ عند منتصف الليل، ولا عمل لنا الان سوى تحضير طعام العشاء.

- الوقت كاف إذن. ستمشى على ضفة النهر، وتصغي لما سأقوله لك.

ذهبا، وجلسا على مقعد حجري، في سكون كوني عميق لا يعكر صفاءه سوى صوت المطحنة وخرير المياه. عاين شيلون وجه العامل فقراً منه شيئاً من التوعد و الحزن اللذين يميزان سكان روما من البرابرة على العموم. ورغم ذلك رآه شيلون صادقاً حسن النية.

قال في نفسه: "حسنا! هذا واحد طيب وأحمق، سيقتل كلاوس سيوس بلا مقابل"

ثم سأله :

- أوروبانوس! هل تحب المسيح؟

- من كل قلبي، ووجداني.

- وتحب إذن إخوتك وكل الذين علموك الحق و الايمان بالمسيح؟

- أحبهم كذلك يا أبتى.

- سلام عليك إذن.

- وعليك يا أبتى.

ساد الصمت ثانية.

سرح شيلون في ضوء القمر المنير، وأطلق العنان لنفسه، وراح يتحدث عن موت المسيح بهدوء و أناة كأنما كان يحدث نفسه لا

أوربانوس، أو كأنما كان يروي للمدينة النائمة سر رحلة المسيح في الامه. كان حديثاً مؤثراً، جعل العامل يبكي. أما حين بدأ شيلون يتنهد متألماً لموت السيد الذي واجه الموت وحيداً دون أن يقدم أحد على إنزاله عن الصليب، أو حتى منع الحاق الاذى به من قبل اليهود و الجند، فقد بدأ يشد قبضتيه العملاقتين حنقا و حزنا. لكنه حين فكر بأولئك الرعاع اللذين فرطوا بالمسيح، ثارت روحه الساذجة وتملكتها رغبة غريزية في الانتقام.

سأله شيلون على حين غرة:

- أوربانوس! لعلك تعرف من كان يهوذا!

صرخ العامل:

- أعرف، أعرف، لكنه قد شق نفسه.

بدت نبرته مشوبة بخيبة أمل، لأن الخائن قد نفذ عقوبته بنفسه، وليس بالإمكان الآن أن يمثل بين يديه.

تابع شيلون يقول

- لكن لو لم يشق نفسه، وصادفه أي مسيحي برّاً أو بحراً، أليس من واجبه أن يثار منه لآلام المخلص و دمه، وموته؟

- ومن لا يثار له يا سيدي؟

- سلام عليك، يا خادم المسيح الوفي. أجل! يمكن للمرء أن يصفح عن أذى يلحق به، لكن من يصفح عن أذيه الحقت بالسيد؟ وبما أن الافعى تنجب أفعى، والشرّ شرّاً، والخيانة خيانة، فقد ولد يهوذا جديد من سم يهوذا القاتل. وبما أن ذاك قد سلّم المخلص لليهود، وجند

روما، فإن هذا الذي يحيا بيننا يعد العدة للقضاء على أتباع كريستوس المسيح. وإن لم يوقف أحد هذه الخيانة، ويهرس رأس الأفعى في الوقت المناسب، فالإبادة في انتظارنا جميعا، ومعنا ستتلطخ سمعة المسيح واحترامه.

نظر إليه العامل باضطراب غاضب، كأنه لا يصدق ما يسمع، بينما راح الإغريقي يكرر بتباك:

- ويلكم، يا عباد الله الحق، ويلكم، أيها المسيحيون رجالا ونساء!

ساد صمت، الا صوت الطاحونة، ودندنات الطحّانين، وخرير المياه.

سأل العامل أخيراً

- من هو الخائن، يا أبتى؟

هزّ شيلون رأسه قائلاً:

- من؟ ابن يهوذا، ابن سم الأفعى المدّعي الذي يرتاد المعابد ليشي بإخوانه عند القيصر، بقوله إنهم لا يريدون الاعتراف بالقيصر إلهاً، وإنهم يسمّون الأبار، ويقتلون الأطفال، ويرغبون في تدمير هذه المدينة عن بكرة أبيها. وهامي الأوامر وقد تلقّاها الجند بقتل الشيوخ، والنساء والأطفال كما فعلوا منذ مدة بأرقاء سكوندس. كل ذلك كان من فعل يهوذا الثاني. فإن لم يعاقب الاول بإقدام أحدهم على الثأر منه، فهل ننتظر حتى ينهي سم الأفعى الثاني كل فعلته حتى يعاقب، وقد لا يبادر أحد إلى الانتقام منه. أليس من الواجب هرس رأس الأفعى وإنقاذ الأخوة والمعتقد؟ من سيقوم بذلك؟

نهض أوربانوس عن المقعد الحجري وقال:

- أنا يا ابتي.

نهض شيلون أيضاً. نظر في وجه العامل على ضوء القمر، ثم فتح يديه، ووضعها على رأس أوربانوس. وقال بلهجة احتفالية حبور

- خالط المسيحيين، واذهب إلى أماكن العبادة، وأسأل الاخوة عن الطبيب كلاوسوس. وحين تتحقق من أمره، اقتله...

- كلاوسوس؟ كمر العامل كأنه أراد أن ينبش الاسم من ذاكرته.

- هل تعرفه؟

- لا. لا أعرفه. روما تعج بآلاف المسيحيين. ولا يعرف الجميع بعضهم. لكن مساء الغد سيلتقي في الأستريانوم كل الاخوة من الرجال والنساء. لقد وصل حوارى المسيح، وسيحضرون لسماع مواعظه. وهناك سيدلني الاخوة على كلاوسوس.

- في الأستريانوم؟ لكنه خارج أبواب المدينة. الرجال والنساء كلهم؟ ليلاً؟ وفي الأستريانوم خارج الابواب؟

- أجل يا ابتي. هذه مقبرتنا وتقع بين فياسالاريا و نومنتانا. أم أنك لا تدري أن الحوارى سيعظ هناك.

- كنت خارج البلاد لمدة يومين، ولذلك لم تصلني رسالته. لكني لا أدري أين يقع الأستريانوم، لأنى هنا منذ وقت قصير بعد مغادرتي كورنثوس حيث عهد لي بقيادة جمهور المسيحيين هناك. لكن إذا ما الهمك المسيح يا بني، فستذهب في المساء إلى الأستريانوم وتبحث بين



أخوتك عن كلاوس سيوس، وعندما يتوجه إلى المدينة في طريقه إلى البيت تقوم بقتله، فتكفر بذلك عن كافة خطاياك. والآن رافقتك السلامة.

- أبتى... -

- ما الذي تريده يا عبد المسيح الوفي؟

عكس وجه العامل اضطرابا، فلم يمض وقت طويل على قتله شخصا، وربما اثنين، بالرغم من أن وصايا المسيح تحرم قتل الناس. لم يقتله دفاعا عن النفس رغم تحريم القتل حتى في هذه الحالة. الكاهن نفسه أرسل معه رجالا لمساعدته محذرا الجميع من ممارسة القتل. لكنه أقدم على القتل دون قصد، ومع ذلك حكم عليه، من قبل ربه، بالخطيئة الكبرى. وهو الآن يطلب الكفارة والتوبة بكل ما يملك من قوة. الآخرون يغنون قرب الطاحونة، وهو يفكر بالذنب الذي ارتكبه، وبما لحق بالمسيح من الام... كم صلّى. وكم بكى حتى الان، وكم توّسل المسيح للصفح عن خطاياها. وشعر أنه لم يكفر له خطيئته بما فيه الكفاية، بدليل الوعد الذي قطعه من جديد، لقتل الخائن... لكن أين الخطأ في ذلك؟ اليس خائنا وقتله مشروع؟ لكن ماذا لو كان كلاوس سيوس بريئا وأقدم على قتله؟ كيف سيتقبل ضميره إنما آخر، لا يرضي المسيح.

أجاب شيلون

- لا مجال الآن للمحاكمات يا بني. لأن الخائن فور خروجه من الأستريانوم، إما أن يقصد القيصر، أو يخبئ في منزل أحد أعوانه. لكنني سأعطيك شارة تقدمها بعد قتلك كلاوس سيوس للكاهن أو الحواري الكبير وسيباركان ما أقدمت عليه.

أخرج قطعة من النقود، وراح يفتش عن خنجر حول خصره،

و حينما وجدته، حفر به صليباً على قطعة النقود، وأعطاهما للعامل.

- خذ! الخنجر لإقامة حكم كلاوس سيوس. والشارة لك إذا ما قدمتها للكاهن، فسوف يعفو حتى عن جرمك الذي ارتكبته دون قصد.

بسط العامل كفه من أجل قطعة النقود. مثلت أمامه جريمته الأولى وكأنها حدثت للتو، فقال بتوسل، وكأنما شعر بخشيّة ما

- هل ضميرك مرتاح لهذه الفعلة، وهل سمعت كلاوس سيوس بنفسك وهو يشي بأخوتنا.

أدرك شيلون أن عليه أن يقدم الاثباتات ويذكر بعض الاسماء، وإلا سيتسلل الشك إلى قلب العملاق.

وسرعان ما خطرت له فكرة أنقذته فقال :

- اسمع يا أوربانوس! أنا أسكن في الكورنوس، لكنني ولدت في كوس. أما هنا في روما، فأقوم بتعليم إحدى الفتيات العبدات وصايا المسيح. الفتاة تدعى يونيكي وهي من قومي. وتخدم في منزل بترونيوس أحد أصدقاء القيصر. في هذا المنزل بالتحديد سمعت أن كلاوس سيوس تكفل بقتل عدد من المسيحيين، وأنه وعد صديقا آخر للقيصر بالبحث بين المسيحيين عن فتاة...

هنا توقف عن الكلام مشدوها وهو يلمح عيني أوربانوس تلتمعان بغتة، كعيني حيوان مفترس، ويقرأ على وجهه غضبا ووعيدا.

فسأله شيلون مرتعدا بحق :

- ما المشكلة؟

- لا شيء يا أبتى. غدا سأقتل كلاوس سيوس!

لكن الإغريقي ظلّ صامتاً. وبعد قليل قبض على ساعدي العامل، وأداره حتى أصبح ضوء القمر مسلطاً على وجهه. واجهه وأمعن النظر فيه. ترى هل يتابع استنطاقه، أم يكتفي الآن بهذا القدر الذي استخلصه منه، أو شكّ في استخلاصه.

وفي النهاية، كانت الغلبة لطبعه الحذر الذي نشأ عليه. تنهد مرة وثانية. ثم وضع يده على رأس العامل وسأله بشيء من الحبور:

- قلت لي أنك حصلت في العمادة القداسيّة على اسم أوربانيوس؟

- أجل يا أبتى.

- سلام عليك إذن يا أوربانيوس؟

## من بترونيوس إلى فينيكوس

لديك مشكلة يا عزيزي. لا بد أن فينوس قد أربكت ذهنك، وسلبتك عقلك، وذاكرتك، ومقدرتك على التفكير بأي شيء آخر غير الحب. اقرأ ردك على رسالتي وسترى كم الحق بتفكيرك من عطالة، إزاء كل شيء عدا ليفيا شغلك الشاغل الوحيد، الذي تحوم فوقه كالصقر فوق فريسته. جدها بأسرع وقت و الا ستحرقك النار وتجعلك رمادا أو تتحول إلى أبو الهول المصري الذي وقع في حب إيزيس ذات الوجه الباهت، وغض بصره، وسمعه عن كل شيء عداها، مترقبا حلول الليل ليتمكن، بعينه الحجريتين، من الاستماع لمحبوبته.

جُل كل مساء متنكرا في المدينة، بل ورافق فيلسوفك إلى معابد المسيحيين. افعل كل ما يمنحك أملا، ويقتل الوقت. وافعل، لأجل صداقتنا، شيئا آخر بعد: يقال أن أورسوس عبد هائل القوة، فاشع في تجوالك أن لا تكون وحيدا بل برفقة كروتون مهما كلفك من مال. ذلك أكثر أمانا وحقا فالمسيحيون، إن كانت بومبونيا، وليفيا منهم، ليسوا أناسا وضيعين. لكنهم باختطافهم ليفيا قد برهنوا أنهم لا يتساهلون في أمر يخص أحد الحملان في قطيعهم. أعرف أنك إذا لمحت ليفيا، فسوف تقتفي أثرها لكي لا تغيب عن بصرك بين الجموع. لكن كيف ستنتزعها من بينهم وليس برفقتك إلا شيلون؟ أما كروتون فقادر على البلاء حسنا حتى لو كانوا عشرة مثل أورسوس في حمايتها.

لا تدع شيلون يستغلك. لكن لا تأسف على ما تدفع من مال لكروتون  
هذه نصيحتي الفضلى لك.

باتوا هنا لا يتحدثون عن موت الطفلة، ولا عن إصابتها بالعين  
القاتلة. بوبيا تلمح للموضوع أحيانا لكن القيصر مشغول بأمور  
أخرى. نحن منذ عدة أيام في نابولي وبالتحديد في بايا. لو أن بمقدورك  
الانشغال بأي أمر، لكنت حتما سمعت عن إقامتنا هذه، لأن روما  
بأسرها تتحدث عنها. لقد توقفنا في بايا حيث أثقلت علينا ذكرى  
الام وتأنيب الضمير. ولكن هل تعلم كيف ال المال بالقيصر؟ صار قتل  
الام مجرد موضوع شعري، وحافزا لابتكار مشاهد تمثيله تراجيديّة.  
في السابق شعر حقا بتأنيب الضمير، بسبب جبنه فقط. لكن بعد أن  
أيقن أن العالم بأسره، مازال خاضعا له كالسابق، وأنه بات في منجى  
من نقمة الالهة، صار يتكسب ويطرح نفسه كشخص معذب للفوز  
بعطف العالم وتقوية نفوذه. يجفل أحيانا في الليل، لأن أرواحا شريرة  
تلاحقه، فيوقظنا. ويتخذ وضعيّة ممثل جوال يلعب دور أوريستيس،  
ويقرأ لنا أشعارا إغريقيّة، وهو يسترق النظرات ليعرف إن كان قد حاز  
على إعجابنا. نحن بالطبع سنعبّر عن إعجابنا. وبدلاً من أن نواجهه  
بالقول: "عد إلى النوم أيها الممثل"، كنا نتقمص الحالة المأساويّة،  
ونقوم بحمائيّة الفنان العظيم من الارواح. يا للهول! لا بد أنك سمعت  
أنه خرج للجُمهور في نابولي. لقد جمعوا كل ما في نابولي والمدن  
المجاورة من متسكعين إغريق، وحشروهم في الميدان وفاحت منهم  
رائحة النوم والعرق لتملاً الجو. وحمدا للالهة أني لم أكن أجلس في  
الصفوف الاولى بل كنت وراء المنصة، مع صاحب اللحيّة الحمراء.  
وهل تصدق أنه كان خائفا؟ كان خائفا حقا. أمسك بيدي، وضغطها  
على قلبه الذي خفق بشدة. وكان هو لاهث الانفاس. ولما حانت لحظة  
خروجه لفه الشحوب التام، وتغرق جبينه رغم علمه التام أن عناصر

الحرس الامبراطوري يملؤون الامكنة وأنهم في أتم الجاهزية بعصي هم إذا ما لزم الأمر. لكن شيئاً لم يحصل. فلم يكن الحماس راعياً. صدقني أن رائحة الثوم وصلت إلى المنصة. وأن نيرون ترنح، وضغط بيده على قلبه، وزرع القبلات، وبكى. ثم عاد الينا خلف المنصة في حالة من النشوة جعلته يصرخ قائلاً: " لا يقاس أي نصر بما يحصل الآن " في الخارج كان الجمهور لا ينقطع عن الهتاف والتصفيق، أملاً في أن يقابل هذا الحماس برحمة القيصر. وهدايا، ومآديه، وبطاقات اليانصيب، والعروض التمثيلية الجديدة. أنا شخصياً لم أستغرب تصفيقهم لأنهم لم يروا من قبل مثيلاً لما شاهدوه. في حين كان هو يردد معبراً عن دهشته:

يا لليونانيين! يا لليونانيين! ومن يومها، في رأي صار يكره روما.

سندهب برعاية هيلينا إلى بلاد اليونان.

أما عني أنا فأقول: إن كان المرء بين المجانيين سيصبح مجنوناً مثلهم، ويرى في الجنون سحراً معيناً. بلاد اليونان، والسفر برفقة آلاف التوريات الموسيقية، احتفالات أشبه بطقوس النصر الباخوسية بمشاركة حوريات الغابات، والنساء الباخوسيات المكللات بالرياحين، والكرمة والغار، فوق العربات التي تجرها النمرور، وأقواس النصر، والهتافات، والموسيقا، والشعر، والمصفقون، كل هذا جميل. لكن طموحنا أبعد من ذلك. نرغب في إقامة إمبراطورية شرقية تشبه الحكاية. وفي إنشاء بلاد من الروعة المحض، والنخيل، والشمس الساطعة، والواقع السحري. يشطح بنا المزاج أن ننسى روما، ونضع ميزان العالم بين اليونان، وآسيا، ومصر، وأن نعيش كالهة، لا كبشر. وأن نوحده أبوللو وأوزيريس وبعل، في واحد. لا مكان للرتابة اليومية، بل للتجدد وللطواف في الارخبيلات على متن السفن الشراعية الذهبية تحت

الفجر الشفقي، وأشعة الشمس الذهبية، وضوء القمر الفضي. سيادة، وغناء، وأحلام. وهل تصدق: حتى أنا الذي ما زلت أملك شيئاً من عقل رزين، ومقدرة راجحة على الحكم، أجد هذه الفنتازيا مشروعة، وإن كانت مستحيلة التحقيق، لكنها عظيمة واستثنائية. هذه الامبراطورية الاسطورية كانت نصب أحلام البشر منذ قرون. لو أن فينوس لم تتخذ هيئة ليفيا أو يونيكي على الأقل، فالحياة بحد ذاتها إن لم يجم لها الفن رتبة وبشعة في الغالب. لكن صاحب اللحية الحمراء لم يحقق أحلامه تلك، ليس فقط لأن في مملكة الشعر الشرقية الاسطورية لا مكان للخيانة، والوضاعة، والموت، بل لأن هنالك تحت قناع الشاعر كوميديا تافها، وقائد عربة أحمر، وشرطيا ضعيفا. وفي حقيقة الأمر، حتى ذلك الوقت سنسحق كل من يقف في طريقنا. بات سيلانوس المسكين مجرد ظل. قضي عليه. أما ليسينوس فقد قبل بالقنصليّة مرتعدا. والعجوز تراسي لا منجى له من الموت لأنه تجرأ أن يكون نزيها. وفشل تيفالينوس من تجريدي من قواي. ما زالوا في حاجة ماسة الي، ليس فقط كوسيط لبق، بل كشخص ذي نظرة سديدة ونصائح صائبة خلال الرحلة. كثيرا ما يخطر لي أنني سأواجه نهايتي عاجلا أم آجلا، وأنت تدرك ما الأمر الهام عندي في مثل هذه الحالة. أن لا يصل صاحب اللحية الحمراء إلى كأسي من السم الذي تعرفه وتدهش له. إن كنت إلى جانبي في لحظة موتي سأعطيك إياه، وإن كنت بعيدا عني سأقوم بتحطيمه. لكن حتى ذلك الوقت ما زال أمامنا بلاد اليونان الاولمبية، والقدر الذي يخبئ لنا جميعا طريقا مجهولا. احرص على سلامتك، واستعن ب كروتون، فإن لم تفعل سيتمكنون ثانية من اختطاف ليفيا منك، وإن كنت في غنى عن شيلون فأرسله لي، فقد أجعل منه فاتينوس آخر، يوقع السيناتورات، والسفراء بالضربة القاضية أمامه. مشهد جدير بالحدوث. إذا ما استعدت ليفيا أخبرني

لأتمكن من تقديم بعض قرابين البط، والحمام، في معبد فينوس. منذ مدة  
قريبة رأيت ليفيا في المنام، جالسة في حضنك، وأنت تقوم بتقبيلها.  
جاهد كي يتحقق منامي. أمل أن تكون معافى، والسماء في عونك.



ما إن أنهى فينكوس قراءة الرسالة، حتى دخل شيلون المكتبة دون استئذان. كان الخدم قد تلقوا الاوامر بالسماح له بالدخول في أي وقت من النهار أو الليل.

- لتوسّعك الام الالهية الرؤوم برحمتها، مثلما غمرتني رحمة  
مركوريوس بن مايا.

فسأله فينيكوس قافزا عن الطاولة :

- هذا يعني...؟

فأجابه شيلون باليونانية مستخدما عبارة أرخميدس :

- وجدتها

كان انفعال الشاب على قدر جعله لا يستطيع الكلام على الفور.

سأله أخيرا

- هل رأيتها؟

- رأيت أرسوس وتكلمت معه.

- وعرفت أين تختبئ؟

- لم أكن فضوليا بخصوص مكانها، فقد يدخل فضولي الشك في

صدر أرسوس فينقلها ليلا إلى مخبأ آخر. لم أفعل ذلك واكتفيت بمعرفة أن أرسوس يعمل لدى طحان قرب الامبوريوم اسمه كاسم معتوقك ديماس. اكتفيت بهذا لأنه بات بمقدور أي من أرقائك المؤتمنين أن يقتفوا أثر أرسوس، ويتعرفوا على موقع المخبأ. لقد جئت بهذا النبأ الموثوق، يا سيدي. فإن كان أرسوس هنا، فالفتاة إذن في روما، أما النبأ الآخر فمن المرجح أن تكون الفتاة ليلا في الأستريانوم.

قاطعة فينيكوس قائلاً وقد أراد أن ينطلق حالا إلى المكان؟:

- في الأستريانوم؟ أين يقع هذا؟

- بين مقبرة فيا سالاريا و نومنتانا. الخبر المسيحي الاعظم الذي حدثك عنه قد وصل اليوم، وسوف يخطب بهم ليلا في تلك المقبرة، ما دام لم يصدر حتى الان أي توصية تحظر ذلك. لكن السكان يكرهونهم، وعليهم إذن أن يكونوا حذرين. وبما أن النساء والرجال سيحضرون معا لسماعه، فلن تتغيب الا بومونيا لأنها لا تستطيع أن تبرر لأولوس الذي يقدر الالهة القديمة، سبب خروجها ليلا. أما ليفيا فسوف ترافق النساء الأخريات إلى هناك ما دامت في رعاية أرسوس و الاخرين.

كان فينيكوس حتى اللحظة يغلي، لكن الامل وقد بدا قيد التحقيق، هو الذي هدأ من روعه، كالمتجول الضال وقد بلغ هدفه بعد تطواف شاق يفوق مقدرة البشر. لاحظ شيلون ذلك وانتهاز الفرصة لاستغلاله.

- رجالك يا سيدي يحرسون المداخل، والمسيحيون يدركون ذلك بالطبع، ولكن المداخل لا تقلقهم أصلا. لأن بمقدورهم إما أن يتجنبوها للوصول لرؤية الخبر الاعظم، أو حتى أن يعبروها ولهم طرقهم الخاصة

في ذلك. كل ما في الأمر أن على رجالك إما ان يقتفوا أثر أرسوس لمعرفة مكان ليفيا، أو أن يقبضوا عليه كمجرم، ويجيئوا به اليك، وتعرف منه أين خبأ ليفيا. أنا قمت بما علي فعله. أحد غيري سيقول أن الأمر يتطلب عشرة كوؤوس من النبيذ الفاخر يحتسيها بصحبة أرسوس حتى يتمكن من انتزاع هذه المعلومات منه، وآخر سيقول لقد وزّع ألف سيستريوس ليحظى بهذا السر. أنا على يقين أنك ستضاعف لي المبلغ، لا تستطيع الا أن أكون شريفاً، كعهدي على الدوام. وأن مكافأتي منوطة بسعة صدرك وكرمك.

لكن فينيكوس كان جندياً، وقد اعتاد أن يلتقط مفاتيح الحلول، وأن يتصرف على أساس ذلك. فما كان منه إذن الا أن استحال بعد ضعف استحوذ عليه فترة، إلى سيد قوي، وقال :

- لن تخذلك سعة صدري، لكن خذني أولاً إلى الأستريانوم. فسأله شيلون وقد بدا غير راغب بالذهاب :

- أنا، إلى الأستريانوم؟ أنا يا سيدي وعدتك أن أدلك على مكان وجود ليفيا، لا أن أقبض عليها. تصور يا سيدي ما الذي سيحصل لي، لو أن ذلك الدب اللبغوي بعد أن يقوم بتمزيق كلاوسيوس، عرف أن تحريضي له لم يكن علي وجه حق؟ كيف سأقنعه، وأنت تعلم أن الفيلسوف كلما كان كبيراً، شقت عليه الاجابة عن أسئلة العامة غير المثقفة من الناس. كيف سيكون ردي إن سألني لماذا اتهمت كلاوسيوس ! وإن كنت يا سيدي تشك في احتيالي وخداعي لك، فلا تدفع لي حتى أدلك على مكان ليفيا. ادفع قسطاً يسيراً من المال يعينني في تدبير شؤوني، فقد تقع أنت يا سيدي ضحية حادث مفاجئ لا سمحت الالهة، فأغدو خالي الوفاض، دون مكافأة. قلبك لا يحتمل ذلك.

خطا فينيكوس نحو صندوق صغير فوق قاعدة رخاميّة، وأخرج منه كيسا وقذفه إلى شيلون، معلقا بالقول

- وحين تصبح ليفيا في منزلي ستحصل على كيس مليء بالنقود الذهبية.

فصاح شيلون

- يا جوبيتر!

لكن فينيكوس قطب حاجبيه قائلاً :

- احصل الان على طعامك هنا. ثم خذ قسطا من الراحة، ولا تغادر. سترافقني مساء إلى الأستريانوم.

للحظة ارتسم على وجه اليوناني شيء من الخوف، والارتباك سرعان ما تبددا، فقال وهو يخشخش كيس النقود:

- ومن بمقدوره أن يخالفك يا سيدي. لهذه النقود وقعها الخاص فضلا عما تعنيه لي صحبتك الممتعة من فال حسن... فرغ صبر فينيكوس فقاطعه ليسمع منه تفاصيل حديثة مع أرسوس. فكرته كانت واضحة تاما : إما أن يكتشفا ليلاً مخبأ ليفيا، وإما أن يتمكن من خطفها من الأستريانوم، والعودة بها إلى البيت. أبهجت الفكرة فينيكوس وأغدقت عليه قدراً من السعادة جعلت جهامته وغضبه منها يتبددان. صفح لها عن كل خطاياها، وباتت في اعتباره مخلوقة لطيفة، يشواق اليها كغائبة تعود اليه من سفر طويل. وعندها لن يتمكن مسيحيو الكون بأسره أن ينتزعوها منه، ولا حتى القيصر ذاته.

أما شيلون، حين لاحظ سعادة الشاب، فقد تجرّأ ورفع نبرة صوته مكيلا النصائح. لا يجوز في رأيه، اعتبار القضية وكأنها نجحت، لأن نجاحها يتطلّب كثيرا من الحيلة، والا فقد تبوء بالفشل، وكان رجاؤه الا يقوم فينيكوس بختف ليفيا من الأستريانوم. بل بتتبعها عن بعد، ومعرفة المنزل الذي تقيم فيه، ثم عند فجر اليوم التالي تقوم مجموعة كبيرة من الأرقاء بمحاصرة المنزل، والعودة بالعدراء. وبما أن الفتاة رهينة، وفي عهدة القيصر، يمكن القيام بذلك دون اعتبار للمحظورات القانونيّة. وفي حال لم تكن ليفيا في الأستريانوم، نتتبع أرسوس، والنتيجة نفسها. لا يجوز الذهاب إلى المقبرة بأعداد كبيرة لأن ذلك يلفت الانتباه، وعندها سيعمد المسيحيون إلى إطفاء مشاعلهم، كما فعلوا عند الاختطاف الاول، والاختباء تحت جناح الظلمة في أماكن لا يعرفها سواهم. كما ينبغي التزود بالسلاح، واصطحاب شخصين قويين مؤتمنين يقومان بحمايتهما إذا ما لزم الأمر.

أعطاه فينيكوس الحق في كل ما قاله. وخطرت له نصيحة بترونيوس، فأمر أرقاءه أن يأتوه بالمصارع كروتون. ولما كان شيلون يعرف الجميع في روما، فقد سمع باسم المصارع الذائع الصيت، الذي غالبا ما أدهشته قوته الخارقة في الميدان. اطمأن تماما، وأعلن أنه سيذهب إلى الأستريانوم. ورأى أنه سيسهل عليه، بمساعدة كروتون، الحصول على كيس كبير مليء بالمال.

وهكذا فقد احتل مكانه بكثير من التفاؤل حول المائدة التي دعي إليها من قبل ناظر الأتريوم شخصيّا. وخلال تناوله للطعام حكى الأرقاء أن سيدهم قد ابتاع منه مرهما سحريا يكفي أن يدهن به حافر الجواد حتى يفوز في السباق، بعد أن يخلف وراءه الجميع. لقد تعلم كيفية تحضير هذا البلسم من أحد المسيحيين، لكون المسيحيين يجيدون

القيام بالسحر والعجائب أكثر من التيساليين المشهود لهم بالشعوذة وتحضير الارواح. قال لهم أيضاً أن المسيحيين يثقون به كثيراً، وأنهم جميعاً يعرفون سر السمكة. كان يتكلم وهو يتفرس وجوه الأرقاء لعله يقع بينهم على مسيحي يمكن إخبار فينيكوس عنه. ولما فقد أمله في ذلك، سلط حديثه على مديح الطعام والشراب، دون أن يفوته الثناء على الطباخ، مؤكداً لهم أنه ينوي شراءه من فينيكوس. كان في أفضل حالاته من المرح والابتهاج، لم يعكره سوى الالتزام بالذهاب ليلاً إلى الأستريانوم. لكنه واسى نفسه بأنهما ذاهبان باللباس التنكري ورفقة رجلين أحدهما أشهر رياضي روما المحبوبين، والآخر رجل نبيل، وهو عسكري ذو رتبة عالية. وقال لنفسه "لو تعرفوا على فينيكوس، لن يجروا على رفع أيديهم، وإذا ما لمحوني سرعان ما سيوقفون عند حد هم من قبل مرافقتنا"

ثم تذكر حديثه مع العامل، وتجدد تفاؤله. لم يخامرته أي شك بأن العامل هو أرسوس. لقد عرفت من حديث فينيكوس، وأقوال الأرقاء الذين رافقوا ليفيا من قصر القيصر، كم الرجل خارق القوة. عندما وقف إذن بعض الرجال الاقوياء الذين أتى يونيكوس على ذكرهم، كان من المؤكد أن أرسوس إذن واحد منهم: ولقد دل اضطراب أرسوس و انفعاله حين تطرق إلى ذكر فينيكوس و ليفيا، أنهما شخصان يهم انه كثيراً. ثم لم يقل العامل أنه سعى إلى التوبة لأنه قام بقتل أحدهم؟ والذي فعله أرسوس أنه قتل أتاسينوس. العامل و أرسوس لهما نفس مواصفات القوة، لكن باسمين مختلفين. و شيلون على اطلاع بأن المسيحيين غالباً ما يحملون أسماء أخرى غير أسمائهم.

قال شيلون لنفسه: إن يقتل أرسوس كلاوسيوس فهذا الأفضل، لكن حتى إن لم يقتل فلا بأس في الأمر، لأنه مؤثر يدل على أن المسيحيين

يشق عليهم القيام بعملية القتل. ما أطيب هؤلاء المسيحيين، وكم ينعنونهم بصفات رديئة. أيتها الالهة هل من عدالة في هذا العالم؟ أنا أحب تعاليمهم لأنها تحظر القتل، وتحرم السرقة والغش، وشهادة الزور. ومن تعاليمهم الموت بشرف، وحب الحياة. إذا ما تحسنت أحوالي في يوم، وصرت أملك منزلاً وأرقاء فقد أصير مسيحياً، واستمر في اعتناق هذا المعتقد مادام يعود علي بالفائدة. لأن الشخص الثري يبيع لنفسه كل شيء، حتى الفضيلة والاخلاق. أجل. إنه دين الأثرياء. وإن كنت لا أفهم سبباً لوجود كثير من الفقراء بينهم. ما الفائدة التي يرجونها من كونهم أولي فضيلة؟ ولماذا يحتملون من الفضيلة أن تكبل أيديهم؟ ينبغي أن أفكر ذات يوم بالأمر. حتى ذلك الوقت أنا ممتن لك يا هرمس أنك أتحت لي العثور على ذلك الظبي، لكن إن كنت قد فعلت ذلك من أجل العجلين الابيضين... بعمر السنيتين، اللذين يتوجب علي أن أذهب قرونهما، فأنا لا أعترف بك. عار عليك، يا قاهر ارغوس! كيف لاله ذكي مثلك، أن يغض الطرف ولا ينظر إلى الإمام ليرى أنه لن ينال شيئاً. لك مني الحمد والامتنان. وإن كنت تقدر العجلين أكثر من امتناني، فلا بد أنك ثالثهما، وفي أفضل الاحوال أنت أجدر بأن تكون راعياً لا إلهياً. حذار مني كفيلسوف أن لا أفضحك بين البشر وأبرهن لهم أنك غير موجود، فيمتنعون عن تقديم القرابين. لا ضير في حسن معاملة الفلاسفة.

ما إن أنهى حديثه الداخلي مع نفسه، ومع هرمس، حتى تمدد على المقعد، ووضع عباءته تحت رأسه، ونام. لم يفق حتى أيقظوه بقدم كروتون، فعبر إلى الأتريوم لتقع عيناه على هيئة المجالد العملاق التي خيمت على فسحة الأتريوم بالكامل. كان كروتون يساوم للتو على مكافأته لقاء قبوله بالمهمة. قال لفينيكوس:

- يا هرقل! حسنٌ يا سيدي أنك أرسلت هذا اليوم بطلبي، لأنني سأذهب غداً إلى بنافتوم. لقد دعاني النبيل فاتينوس لمصارعة شيفاكس وهو أقوى المصارعين الافارقة، بحضور القيصر.

لك أن تتصور يا سيدي كيف سيتحطم عموده الفقري، بين ذراعي. إضافة إلى سحق فكك بلكمة واحدة مني.

أجاب فينيكوس معبراً عن دهشته :

- يا بولوكس ! أنا واثق من كفاءتك يا كروتون.

فأضاف شيلون

- ستفعلها باقتدار. أجل... سحق فكك! فكرة جيدة تليق بك. أنا مستعد لتقبل فكرة سحق فكك، لكن لا تنس يا هرقليس أن تواظب على دهن جسدك بالزيت حتى ذلك الوقت وهيء نفسك جيداً. لأنك ستواجه مصارعاً حقيقياً. أرسوس أيضاً رجل خارق القوة.

قال شيلون ذلك ليثير حماس كروتون، وقد وافقه فينيكوس قائلاً :

- تماماً. لم أره بأم عيني، لكنني سمعت أنه قادر على جر ثور من قرنيه، في أي اتجاه يشاء.

أبدى شيلون اندهاشاً مفتعلاً وكأنه لا يعرف مقدرة أرسوس :

- يا لطيف!

لكن كروتون ابتسم باحتقار:

- أراهنك، يا سيدي المحترم، أن أقبض بإحدى يدي على من ذكرت



الآن، وأقاتل باليد الاخرى سبعة من أمثال ذلك الليغوي، وأجلب الفتاة إلى منزلك، حتى لو طاردتني روما بأسرها.

صرخ شيلون :

- لا تدعه يفعل يا سيدي. قد يقذفونك بالحجارة فيما بعد. وعندها ما نفع القوة التي يتمتع بها؟ أليس من الأفضل إبعاد الفتاة عن المنزل، وتفادي المغامرة بحياتها وحياتنا؟

فقال فينيكوس :

- هذا ما ينبغي أن تفعله يا كروتون.

- أنت تدفع، أنت تأمر! لكن لا تنس أني ذاهب في الغد إلى بنافتوم.

أجاب فينيكوس :

- ولدي في المدينة خمسمئة رقيق.

قال ذلك، وأوما لهما بالانصراف. ثم توجه إلى المكتبة وخط الرسالة التالية لبترونيوس :

" شيلون عثر على ليفيا. هذا المساء سأذهب بصحبته إلى الأستريانوم ومعنا كروتون. إما أن أقبض على الفتاة، حالا هناك، أو من بيتها في الغد. باركتك الالهة على فعل كل ما هو صالح. دمت بصحة جيدة لك تحياتي. ومن فرط سعادتي لا مزيد لأكتبه "

وضع قصبه الكتابة، وراح يذرع الغرفة بخطوات سريعة جيئة وذهابا.

فإلى جانب سعادته العارمة التي أثلجت كيانه، شعر بالحمى تلو كبه. قال في نفسه: غدا ستكون ليفيا هنا في هذا البيت. لم يكن يدرك بعد كيف سيعاملها، لكنه شعر أن الفتاة إذا ما أحبتة فسوف تكون خادمتة. خطر له ما قالته أكتي بأن ليفيا تحبه. فازداد اندفاعًا. كل ما هنالك أنه سترتب عليه التغلب على نوع من الحياء العذري والارتهان لبعض الامور التي يتطلبها الدين المسيحي. لكن مادام الأمر كذلك فلا بد للفتاة، بعد أن تعيش في بيته، إن كان بالتفاهم، أو بالارغام، أن تخضع للأمر الواقع، وتنقاد له ثم تحبه فيما بعد.

لكن شيلون قطع عليه خيط تفكيره حين بادر بالقول:

- سيدي. خطر لي ما يلي: اليس من المحتمل أن يكون للمسيحيين كلمة سر، أو بطاقة لدخول الأستريانوم؟ أعلم أنه إجراء يتيح للمرء أن يؤم المعابد. لقد سبق وحصلت على مثل هذه البطاقة من يورسيوس. دعني أذهب اليه وأستفسره، وآتي بالبطاقات إن لزم الأمر.

أجاب فينيكوس ببشاشة:

- حسنا أيها الحكيم النبيل! ما تقوله ينطوي على إحاطة تامة بكل الامور، تستحق عليها الثناء. فلتذهب إلى يورسيوس أو حيثما تشاء، لكن دع كيس النقود الذي منحتك إياه على هذه الطاولة.

من شيم شيلون أنه لا يدير ظهره للمال برغبة منه. أبدى تكشيرة اشمئزاز، لكنه خضع للأمر وانصرف. لم يكن السيرك حيث حانوت يورسيوس بالقرب منه، بعيدا من هنا، ولذلك فقد عاد قبل مغيب الشمس.

- إليك بالبطاقات يا سيدي. بدونها ما كان من الممكن الدخول.

استفسرت عن الطريق بدقة. لأنني قلت ل يورسيوس أنني في حاجة إلى بطاقات تخص أصدقائي فقط. فأنا عجوز لا أستطيع قطع كل تلك المسافة. خاصة وأني سألتقي الحبر الأعظم غدا، وسيحدثني عن تفاصيل خطبته.

جهر فينيكوس قائلاً :

- ماذا؟ الن تذهب؟! بل عليك أن تكون هناك.

- أعرف أن علي الحضور. لكنني سأتحفي بغطاء للرأس. وأنصحكما بذلك والا سنجفل العصافير.

وبعد وقت قصير بدؤوا يستعدون للانطلاق، لأن الشمس باشرت بالمغيب... ارتدوا عباءات بقبعات رأس، وحملوا الفوانيس. وتسلح فينيكوس وأصحابه بخناجر معقوفة قصيرة. وضع شيلون فوق رأسه باروكة كان تزود بها في طريق عودته من عند يورسيوس. وانطلقوا مسرعين كي يبلغوا بورتا نومنتانا البعيدة قبل الاغلاق.

انطلقوا حتى بلغوا بورتافيمنا ليس القديمة. عبروا السهب الذي أقام عليه ديو كلاتينوس حمامه الفخم، و تجاوزوا أطلال سرفيوس عابرين القفار حتى بلغوا فيانوفتانا أخيراً. و من هناك انعطفوا يسارا باتجاه سالاريا حتى وطئوا هضابا ريفيّة مليئة بحفر الرمال، و المقابر. كان الظلام قد حل. و بما أن القمر لم يظهر بعد، فقد بات من العسير التعرف على الطريق، لولا أن قام المسيحيون السائرون بتحديد مساره. و كان شيلون قد استوضح ذلك مسبقا و فعلا لقد وقعت أعينهم على هيئات كالحة منتشرة يمنة و يسرة و أماما، و في كل مكان، و هي تتقدم بحذر نحو البقع الرملية المتفرقة. كان البعض يحمل الفوانيس و يسعى لإخفائها تحت العباءات، و البعض الآخر ممن يعرف الطريق أكثر، كان يعرج متقدما في الظلام. كان فينكوس بعينه العسكرية الخبيرة يميز من بينهم الشبان و العجائز المتعكزين، و النساء المتدثرات بأروابهن الطويلة. و كان هناك مشاة فيماندر، و قرويون خارجون من المدينة، و بينهم عمال مسرعون إلى الحفر الرملية، و أخوة يمارسون طقوس زيارات قبور أخوتهم الموتى. كان البعض يغني بصوت حزين، و قد أعجب فينكوس بغنائهم لما ينطوي عليه من عبارات الحنين التي ميزها تلقائيا بين حين و آخر، مثل استيقظ يا نائم. انهض من موتك، دون أن يغيب ذكر المسيح أحيانا. لكن فينكوس لم يكن ليدقق كثيرا في عباراتهم لأن تركيزه كان على ليفيا إن كانت بين هذه الهيئات الداكنة، التي حيت بعضها بعبارة السلام معكم، المجد للمسيح. اضطرب

فينكوس، و خفق قلبه شديداً، و قد شعر أنه يسمع صوت ليفيا. وقع في حيرة و بات لا يميز في الظلمة بين هيئة و أخرى، حتى لم يعد يثق بعينه.

لقد وجد الطريق هائلا في طوله. كان قد عرف هذه الارياف، لكنه لم يهتد في ظلام الليل، إلى ما يصادفه من أزقة حول المدينة، و من بقايا جدران و ابنيّة. أخيرا بدأ البدر ييزغ من وراء الغيوم، و يضيء الارجاء الريفية على نحو أفضل من السراجات الواهنة. لمح في البعيد ما يشبه نار الرعاة، أو لهب المشاعل. مال فينكوس نحو شيلون و سأله إن كان ذلك هو الأستريانوم.

كان للظلمة، و البعد عن المدينة، و هذه الأشكال الشبحية بالغ الأثر في نفس شيلون، فأجاب بشيء من فراغ الصبر

- لا أدري، يا سيدي، لم أكن مرة في الأستريانوم. كان بالامكان أن أجد المسيح في مكان آخر أقرب إلى المدينة.

غير أنه بعد فترة وجيزة، و قد شعر أنه في حاجة للكلام، و إظهار جسارته أضاف

- إنهم يتجمعون كاللصوص، لكنهم لا يبيحون القتل إلا إذا أقدم ذلك الليفوي على خداعهم.

كان فينكوس يفكر بليفيا، و مع ذلك فقد أدهشته هذه الطريقة السرية الحذرة التي يتبعها أخوة ليفيا في تجمعهم، فقال:

- كأني معتقد آخر، لهذا الدين أيضاً أنصاره بيننا، لكن المسيحيين زمرة يهودية. فما الذي يجعلهم يجتمعون هنا، و المعابد اليهودية

منتشرة بعد نهر التيريس، حيث اعتاد اليهود إقامة شعائرهم في وضح النهار؟

- لا، يا سيدي اليهود بالذات أشرس أعدائهم. سمعت أن حرباً جرت بينهم و بين اليهود، في عهد القيصر كلاوديوس الذي ضاق ذرعاً بهذه الاضطرابات، فقام بطرد اليهود. أما الآن فالأمر معكوس. صار المسيحيون يتخفون أمام اليهود و باقي السكان تفادياً للتهم.

تابعوا المسير صامتين لفترة. لكن شيلون الذي تفاقمت مخاوفه كلما ابتعدوا عن مدخل المدينة، تكلم قائلاً :

- في أثناء عودتي من عند يوريسيوس استعرت باروكة، و دسست في أنفي حبتين من الفاصولياء. آمل ألا يتعرفوا الي. و ألا يقتلوني إذا ما تعرفوا الي. ليسوا بشرا سيئين. بل على العكس من ذلك فهم في غاية الاستقامة و أنا أجلبهم و أحبهم.

فأجاب فينكوس :

- لا تضع نصب عينيك مسبقاً أن تكسبهم بالمديح.

و تابعوا المسير حتى بلغوا دربا خندقاً ضيقاً، ما إن وطئوه حتى لمحوا في نهايته جداراً مغطى بعريشة لبلاب كثيفة لمعت فضيَّة تحت ضوء القمر. كان هذا هو الأستريانوم.

بدأ قلب فينكوس يخفق بشدة.

كان يقف عند المدخل حاجبان يستلمان بطاقات الدخول. بعد قليل وصل فينكوس و مرافقوه مكاناً فسيحاً ومسوراً مليئاً بشواهد

القبور، يتوسطه سرداب، وأمام مدخله الذي يفضي إلى المدفن تحت سطح الأرض نافورة ماء. من البديهي ألا يتمكن كل هذا الحشد من الناس دخول السرداب مما جعل فينكوس على يقين بأن الاحتفال سيجري في الهواء الطلق. صحيح أن الفوانيس قد انتشرت بكثافة على مد النظر، إلا أن الكثيرين قد جاؤوا بدونها. كانت الرؤوس المكشوفة معدودة، لكن الغالبية العظمى تخفت بقبعات العباءات، إما تحسبا من أعين الوشاة، أو توقيًا لبرودة الجو. كان قلق فينكوس مشروعًا حين وجد أن من المستحيل تحت هذه الاضواء الواهنة التعرف على ليفيا بين هذه الجموع.

لكن سرعان ما أضيئت بعض المشاعل إلى جانب السرداب، جعلت المكان منارا على نحو مقبول. تلا ذلك أن بدأ الحشد بإنشاد التراتيل. كان نشيدا غريبا، خافتا في البداية ثم أخذ يعلو. لم يسمع فينكوس مثيلا لهذه التراتيل طوال حياته. ذات الدنف الذي استشعره فيما سمعه من غناء وهو في طريقه إلى هنا. الحنين ذاته في هذا الانشاد الان، لكنه حنين على نحو أكثر شفافية وقوة و كأن تأثيره لم يقتصر على البشر، بل شمل أنحاء المقبرة، والتلال، والدروب العميقة، و سائر أرجاء الريف. كان شيئا أشبه بالاستغاثة، والتوسل في طلب الخلاص. كأن العيون الناظرة إلى السماء قد رأت أحدا في الاعالي، و كأن الايادي المفتوحة تتضرع لهبوطه. حين خفت الغناء، ساد ترقب لحظي أسر هو الاخر، جعل فينكوس ورفاقه ينظرون نحو النجوم، و في نفوسهم خشية من أن يحدث أمر خارق فعلا، و يهبط أحد الان من هناك. لقد سبق لفينكوس أن رأى كنائس مختلفة في أنحاء آسيا الصغرى، و مصر، و روما، و عرف أديانا عديدة هناك، و سمع كثيرا من الوان الغناء، لكنه هنا يشاهد لأول مرة، بشرا ينادون الإله ليس لمجرد ممارسة طقس من الطقوس، بل من أعماق قلوبهم، و يمثل هذا الحنين الاشبه

بحنين الطفل إلى أمه و أبيه. الأعمى فقط من لا يرى أن هؤلاء البشر لا يقتصرون على تبجيل الههم، بل يحبونه من أعماق قلوبهم. و هذا ما لم يعهده فينكوس في أي من البلاد، و الطقوس، و المعابد. لأن الناس في روما أو بلاد الإغريق ممن ما زالوا يقيمون الطقوس احتراماً للالهة، فإنما يفعلون ذلك إما كسبا لودهم، و طمعا في تلقي المساعدة، و إما خوفا منهم. لكن أحدا لا يخطر له أن يهيم بهم حبا.

صحيح أن أفكاره كانت تدور حول ليفيا، و تركيزه منصب على رؤيتها و معرفتها بين الجمهور، و رغم ذلك كان من المستحيل الا يلتفت إلى هذه الامور الاستثنائية الفريدة الاسرة التي تجري أمام عينيه. و في أثناء ذلك أضرمت النار في المشعلة، فغمر ضوءها الاحمر كافة أنحاء المقبرة، و طغى على أضواء الفوانيس. في هذه اللحظة خرج من السرداب كاهن حاسر الرأس يرتدي عباءة ذات قبعة، و صعد حجرا توضع قرب المشعلة.

ماج الحشد لمراه. وسمع فينكوس إلى جانبه همسات تقول: بتروس، بتروس. بعضهم جثا، و آخرون مدوا أيديهم نحوه. و ساد صمت عميق لا يسمع خلاله إلا قرقرة العربات البعيدة، و تنهدات النسائم بين فروع بعض الصنوبرات المنتصبة إلى جانب المقبرة.

مال شيلون نحو فينكوس و وشوشه قائلاً :

- إنه هو. أول تلميذ للمسيح. صياد سمك.

أما الكاهن فقد رفع رأسه، و حيا الجماهير الجاثية برسم شارة الصليب. فينكوس ورفاقه، وقد أرادوا الحفاظ على إخفاء أنفسهم، حذوا حذو الآخرين و جثوا على ركبهم. لم يكن بمقدور الشاب حتى



هذه اللحظة أن يهدئ نفسه و يتخلص من اضطراب أعصابه، لأنه شعر أن الشخص الواقف أمامه أشبه بفلاح بسيط، ولكنه، في آن، ذو طلعة استثنائية خارقة مردها تلك البساطة ذاتها. كان حاسر الرأس و الجبين، لا يحمل سعة نخيل في يده، و لا يتقلد لوحة ذهبية على صدره. و لم يكن رداؤه الابيض مطرزا بالنجوم أو أية شارة أخرى تميز الكهنة الشرقيين أو المصريين أو الإغريق أو حتى الرومان. خالج فينكوس نفس الشعور حين سمع أغاني المسيحيين في الطريق، لأنه لم ير هذا "الصياد"، بثيابه الرسمية. بل كان نموذج التلميذ البسيط المسن الجدير باحترام فائق، خاصة و أنه قطع المسافات ليتكلم هنا عن حقيقة شاهدها بأم عينه، و آمن بها، و أحبها كذلك. شع و جهه بقوة اليقين النابع من قوة الايمان الحقيقية حصرا. لكن فينكوس لم يدع نفسه وهو من ذوي الخبرة الحياتية عرضة لتأثير سحر الكاهن، بل كان ينتظر بفارغ الصبر ليعرف ما الذي سيتمخض عنه حديث هذا الحواريّ، و ما هي الوصايا التي شددت كلا من ليفيا و بومبونيا، و أخذتا بها.

بدأ بطرس الحديث. تكلم في البداية كأب يعظ أطفاله، و يعلمهم كيف ينبغي عليهم أن يمارسوا الحياة. أوصاهم بالابتعاد عن الإسراف و المتع، و بمحبة الفقر، و التزام النقاء الخلقى، و العدالة، و الطاعة. و حذرهم من الخيانة و الغش و الكذب. و أن يكون كل منهم قدوة أمام أخيه و مثالا يحتذى حتى من قبل الوثنيين. و بما أن فينكوس يربط صلاح أي أمر بما يخدم علاقته بليفيا، فقد كانت كل وصية تفوه بها مصدرا للسوء و إثارة للخزن و الغضب لديه. لأن الكاهن، في حديثه هذا إنما يدعو إلى مكافحة الاشواق و الرغائب، و يتعدى على حبه، و يحرض ليفيا عليه. لقد وضع في حسبانها أن ليفيا، إذا ما كانت هنا بين هذه الجموع، فهي لا تصغي و حسب إلى ما يتفوه به الكاهن من عبارات، بل سوف تؤمن بما تصغي اليه و تحفظه في القلب. و بالتالي

فإن فينكوس نفسه سيضحى في نظرها عدوا للدودا، و غير جدير بها. الفكرة بثت السم في قلبه. "ما الجديد الذي أسمع". قال في نفسه. "هذه هي التعاليم الجديدة؟" ما من أحد هنا الا و يعرف ذلك، و سمع به. هذا ما دعا اليه سقراط. و حتى سسينيكا الذي يملك الكثير من الثروة، يمجّد التقشف و يدعو إلى العدالة، و التسامح بين الاعداء، و الصبر على الشدائد. لقد خاب ظنه بالحواريّ، و قد انتظر أن يسمع موعظة مذهلة، فلم يجد ما يذهله سوى إصغاء الحاضرين المطلق و صمتهم المطبق. بينما استمر الكاهن يخاطب مستمعيه النجباء، و يدعوهم ليكونوا صالحين و هادئين، و عادلين، و فقراء، و أنقياء، ليس فقط ليحفظوا بالسلام في حياتهم، بل ليدخلوا بعد مماتهم، دار الابديّة، و يعيشوا هناك في مسرة و مجد لا يمكن لأحد أن يحظى بجزء يسير منهما في الأرض. و لما كان تأثير ما تقدم مزعجا أيما إزعاج في نفس فينكوس، كان من المستحيل أن لا يدرك الشاب أن هناك فرقا جوهريا بين تعاليم الحواريّ و بين ما يقوله السينكيون و الرواقيون و الفلاسفة الاخرون. ففي حين دعا هؤلاء إلى ذات الافكار من الصلاح و الفضيلة باعتبارها القيم الوحيدة الناجعة لممارسة الحياة على الأرض، فقد راح الكاهن يبشر الناس بجني ثمار الفضيلة بالخلود بعد الممات في دار الأبدية. حتى أنه ليس خلوداً وضيعاً تحت الأرض يكتنفه السأم، و العوز، لكنه خلود عظيم يقارب الحياة الابدية عند الالهة. تحدث عن الأمر بثقة تامة. حتى بدت كل جوانب الحياة ليست ذات معنى. فالمعاناة الانية لبلوغ السعادة القصوى شيء غير المعاناة باعتبارها سنة من سنن الطبيعة و الكون. و من جملة ما قاله الكاهن : ينبغي إيلاء الفضيلة و العدالة الحب لذاتهما، لأن أعظم الخالدين الفاضلين الصالحين هو الله. فمن يحبهما فقد أحب الله إذن، و سيغدو بالتالي حبيب الله و ابنه البار. " فينكوس " لم يفهم هذا جيداً، لكن عرف منذ

مدة من خلال ليفيا و بومبونيا أن الله في نظر المسيحيين كلي القدرة. و بمقارنة ذلك مع الهة مثل جوبيتر، و ساتورنوس، و أبوللو، و يونو، و فيستا، و فينوس، فما هؤلاء إذن الا مجرد بوّساء و قرقات جوفاء. لكن دهشة الشاب الفائقة كانت حين أوضح الحواريّ أن محبة البشريّة جمعاء هي أساس المحبة. لأن ابن الله قد أهرق دمه من أجل الجميع، و لم يدعُ إلى محبة من وقفوا معنا فقط، بل لقد تسامح حتى مع اليهود الذين أسلموه للموت، و مع الجنود الرومانيين الذين صلبوه. و اعتبر أن التسامح معهم لا يكفي، بل علينا أن نخصهم بالحب، و نقابل أذاهم بعمل الخير لهم. لا يكفي أن نحب الصالحين، بل الاشرار كذلك. لأننا بالمحبة و حدها يمكن لنا انتزاع الشر من نفوسهم. شيلون بدوره خاب أملا من هذه العبارات، لأن عمله ذهب هباء، لكون أرسوس لن يقدم في هذه الليلة على قتل غلاوسيوس. و لكي يواسي نفسه استخلص من كلام الحواريّ نتيجة أخرى مفادها أن غلاوسيوس أيضاً لن يقدم على قتله حتى لو اكتشف ما يرمي اليه. و أبعد فينكوس التفكير بعدم ورود أي جديد في كلام الكاهن، مفسحاً المجال للسؤال في نفسه: أي اله؟ و آية تعاليم؟ و أي شعب هذا؟ كل ما سمعه لا قيمة له الا في نفوس هؤلاء. أما بالنسبة اليه فليس سوى هراء، و ما عليه الا أن يتخلى تماماً عن طريقته في التفكير، و عن عاداته، و طبعه الذي نشأ عليه، و يجسر على بدء حياة جديدة، و التحلي بروح مختلفة كلياً. شعر أن التعاليم التي تدعو إلى محبة البارثيين، و السوريين، و الإغريق، و المصريين، و الغال، و البريطانيين، و التسامح مع أعدائه، و الرد على أذيتهم بطيبة القلب، ما هي إلا ضرب من الجنون. إلا أنه وجد في هذا الجنون شيئاً أعظم من كل ما جاءت به الفلسفة حتى الان. و بحكم أنها تعاليم مجنونة فهي إذن غير قابلة للتحقيق. و عدم قابليتها للتحقيق يجعلها ربانيّة. شعر بعطر خفي يفوح في روحه، و تطفو فوقه طبقة

من عبق الزهور إذا ما اشتمه المرء ينسى كل شيء، و يحضه حالا على الرغبة. شعر أن لا شيء حقيقيا في هذه التعاليم، لكن كل الحقائق إذا ما قورنت بها، تضحى بلا نفع و لا معنى لها. يا لهذه العوالم الجديدة، و الفضاءات الهائلة، و الغمائم التي أحاطت به، و لم يكن يعرف عنها شيئا حتى الان. هذه المقبرة باتت في نظره مكانا لاجتماع المجانين، و لكنه مكان مخيف، تكتنفه الخفايا، و تولد فيه عجائب لم يعرفها العالم إلى الان. و مرة أخرى استرجع ما قاله الكاهن حول الحياة و العدالة و المحبة، و الله، فانبهرت أفكاره كما ينبهر البصر بالبرق. قاس كل شيء بانعكاسه على حبه لليفيا - معاناته الوحيدة، فلم ينجل أمامه إلا أمراً واحداً: إن كانت ليفيا هنا، و سمعت هذه التعاليم، فعلى الحب السلام، و لن يغدو حبيبها بعد الان. منذ أن تعرف اليها عند عائلة الوش، يشعر للمرة الاولى أنه حتى لو استعادها الان، فلن يكسبها حبيبة له أبدا. كان شعوراً كاسحاً بسوء الفال. اضطرب، و سرعان ما انقلب اضطرابه العاصف إلى نقمة عارمة على المسيحيين، و الكاهن خاصة. هذا الصياد الذي بدا له فلاحاً أوّل الأمر، ها هو ذا الان يملؤه جزعاً، و يقرّر له مصيراً تراجيدياً، على حين غرة.

تطاولت السنة النيران في المشعلة أكثر فأكثر، بينما راح الحواريّ يتحدث عن موت المسيح الذي شهدته بأم عينه. فانقطعت أنفاس الحضور، و خيم سكوت جعل دقائق القلوب مسموعة. لقد مات. يا للهول. يا للهول الكارثة. و تابع الكاهن حديثه قائلاً: حين غادرت مكان الصלב أنا و يانوش ظللنا يومين متتاليين لا يغمض لنا جفن و نحن جالسين قرب الجدار يملكنا الذهول و الحيرة. و في صباح اليوم الثالث عند طلوع الشمس، هرعت مريم المجدليّة لتولول منفلشة الشعر، و هي تصرخ: "لقد خطف السيد"، و بسماعنا صراخها قفزنا مسرعين نقصد المكان. سبقنا في الوصول يانوش الفتى. و حين وجد

القبر خالياً، لم يجرؤ على الدخول. وحين وصلنا وصرنا ثلاثتنا عند المدخل، دخل و رأى الكفن و الاقمطة فوق الحجر دون أثر للجسد.

جزعنا لأننا ظننا أن الكهنة قد سرقوا المسيح، فعدنا إلى البيت بأعظم الألم و الانكسار. ثم جاء التلامذة الآخرون واحداً بعد الآخر.

مضى اليوم الثالث على موته، و لم يفهم التلامذة سبباً لتخلي لأب عن ابنه. و من ثقل المصاب الجلل عليهم، كانوا يتمنون الموت دون أن تشرق عليهم الشمس بعد الآن. و ما زالت تلك الأيام العصبية حية في ذاكرة الحواريّ فذرف دمعين، شوهدتا على وهج النار المشتعلة، تتدحرجان فوق لحيته الشيباء. ارتعش رأسه العجوز الاصلع، و ذبح صوته في حنجرتة. قال "فينكوس" لنفسه: "هذا الشخص يقول الصدق، و هذا الأمر يكيه حقاً" غصت حناجر السامعين الطيبين. لقد سمعوا الكثير عن معاناة المسيح و آلامه، و عرفوا أن المسرة تأتي بعد الاحزان، لكن ما قاله الحواريّ الآن عما شاهده بأب عينه جعلهم يندبون لاطمين صدورهم بأيديهم. لكنهم شيئاً فشيئاً خمدوا بدافع فضولهم لمعرفة ما تتضمنه بقيّة الخطبة. أغمض الكاهن عينيه، كمن يرغب في تبصّر الامور البعيدة، و تابع يقول :

- و بينما كان الجميع ييكون، دخلت المجدليّة مسرعة لتقول بأنها قد رأت السيد، و لم تعرفه بسبب النور الشديد، و ظنت أنه البستاني لولا أن خاطبها السيد قائلاً: "مريم" ! فأجابته صارخة: "ربي" ! و ارتمت على قدميه. و أتاح لها بعدئذ أن تقصد التلامذة، ليختفي بعدها. لكن التلامذة لم يصدقوها. عندما بدأت تبكي من السعادة ظن الجميع أن الام لا قد خلب لبها، خاصة بعد أن قالت أنها رأت ملائكة في القبر. و لما عاينوه وجدوه فارغاً. و في المساء جاء كلوفاس مسرعاً برفقة

شخص آخر ليعلنا قيامة المسيح: " السيد قام. " عقدوا حديثهم خلف الابواب المغلقة خوفا من اليهود. و كان "هو" بينهم يتوسط الغرفة، و عندما لاحظ مدى جزعهم قال: "سلاما" أنا رأيته كالاخرين، كان كالنور، أو كبهجة قلوبنا، لأننا آمننا بأنه قد " قام "، و أن مجده لا يزول حتى إن جفت البحار، و سوّيت الجبال. و بعد ثمانية أيام وضع ديدموس تاماس إصبعه في جراح السيد و لمس جنبه، ثم صاح و هو يركع عند قدميه " سيدي، و الهي ". فأجابه هو قائلاً: بما أنك رأيتني يا تاماس فقد آمنت. لكن السعداء هم الذين لم يروني و آمنوا. لقد سمعناه يقول هذه الكلمات، و رأيناه بأعيننا لأنه كان بيننا.

كان فينكوس يصغي، ثم حدث له شيء غريب. للحظة نسي أين يكون. كان شاردا غائبا عن الوجود. فأضاع قدرته على الحلم و التبصر. بات محاصرا بين حالتين من العجز، لم يعد بمقدوره أن يصدق ما تفوه به الكاهن، و الان يكذبه و هو يدهش الحضور بقوله " رأيته ثم كلمهم الحواريّ عن كل شيء، حتى بلوغ الجنة. كان يستريح بين حين و آخر، لأنه كان يدخل كثيرا في التفاصيل، و كأن الوقائع كانت في ذاكرته كالنقش في الحجر. أما مستمعوه فباتوا مذهولين ثمّلين فأنزلوا قبعاتهم لكي يسمعه جيدا دون أن تفلت من أسماعهم أيّة كلمة. كأن قوة خفيّة فوق الانسان طارت بهم إلى الجليل، و هناك راحوا يتنزهون بصحبة التلامذة في الغابات على ضفاف المياه، و كأن هذه المقبرة قد استحالت إلى بحيرة، و المسيح يقف على ضفتها في الصباح الضبابي، و يانوش يصيح من زورقه ها هو ذا السيد هناك بينما قفز بطرس في الماء ليسبح اليه بسرعة و يرتمي على أقدامه. كانت الوجوه ذاهلة، هائمة، فرحة تشع بمحبة بلا حدود. بدا خلال حديث الحواريّ الطويل أن بعضا من الحضور قد تقمّص الحالة و غاب عن الوعي. و عندما بدأ يتحدث عن دخول السيد السماء و كيف غطته

الغيوم على مرأى من الكهنة، راح الجميع يرفعون عيونهم مترقبين نحو السماء، أملاً في رؤيته مرة أخرى، أو هبوطه مجدداً على الأرض قادمًا من الملكوت السماوي. بالنسبة للجميع كان كل شيء غائباً. روما، و القيصر المخبول، و المعابد، و الالهة، و الوثنيون، و حده المسيح كان حاضراً يملأ الأرض، و البحر، و السماء و الكون.

شدّ شيلون طرف رداء فينكوس و وشوشه قائلاً :

- سيدي، هناك بقرب الكاهن أرى أريانوس و الفتاة.

و كأن فينكوس قد أفاق من حلمه، ليرى ليفيا في الجهة المشار إليها.

ارتعشت كل قطرة دم في عروق الشاب لمراى الفتاة. تجاهل الجموع، والكاهن، ونسي ذهوله، و لم يرَ أمامه إلا ليفيا. ها قد وجدها بعدما بذل كثيراً من المعاناة والجهد والاضطراب. شعر للمرة الاولى في حياته أن السعادة حيوان شرس قد تطبق على صدره و تخنقه. لم يصدق عينيه، و كاد أن يكذب و فرة حظه. كان له أن يتصرف كما يملكه طبعه الحامي، لكنه أراد أن يتأكد أولاً أنه ليس في حلم، و أن ما يراه ليس استمراراً للعجائب التي عبات رأسه الان. لكن لا. لا ريب في صحة ما يرى. هذه هي ليفيا، و لا يفصله عنها سوى عشرات الخطوات. كانت تحت الانوار، فأشبع عينيه منها. و كانت مكشوفة الرأس، مرخية الشعر، منفرجة الشفتين قليلا، ترنو مشدودة إلى الكاهن. و كانت ترتدي ثوبا صوفياً كالحأ، أي أنها تشبه في لباسها أي طفل من عامة الشعب، و مع ذلك لم يرَها فينكوس، في أي وقت، أجمل منها الان. لكن على الرغم من لباس الرق هذا، فقد أذهله ما أظهر رأسها البديع من نبل. سرى الحب نارياً في كيانه، و امتلاً شوقاً، و تقديراً و رغبة. شعر بالمسرة التي منحتها له رؤيئة الفتاة، فترشفها كالماء الذي يحيي العطشان بعد ظماً طويلاً. رآها إلى جانب الليغوي العملاق أصغر مما عرفها، و أكثر طفوليّة، و نحول جسد. كانت كيانا كله جاذبيّة، مثل زهرة سكنتها الروح. ازدادت رغبته في هذه الفتاة المختلفة عن بقيّة النساء اللواتي عرفهن في الشرق أو في روما، و كن له. و شعر أنه يدفع لأجلها كل شيء، حتى روما، و كل العالم.



كان سارحاً تماماً في ليفيا، عندما شده شيلون من طرف رداثة مخافة أن يقدم الشاب على ارتكاب ما يعود عليهم بالسوء. في هذه الاثناء كان المسيحيون قد بدؤوا يصلّون، و يرتّلون حتى صدحوا بعد قليل قال : "تعال يا سيدنا". ثم راح الكاهن الكبير يعمد بماء النبع القريبة منه أولئك الذين جهزهم القساوسة للعماد. ظنّ فينكوس أنها ليلة لا نهاية لها. بات راغباً بأسرع ما يمكن في تتبع ليفيا ليخطفها من البيت أو في الطريق إليه.

و أخيراً لما بدأ البعض يغادرون المقبرة، وشوشه شيلون قائلاً :

- لنخرج يا سيدي إلى أمام المدخل، لكي لا نضطر إلى إنزال قبعاتنا فيعرفنا الناس. و هذا ما حصل. حين بدأ الجميع، خلال خطبة الكاهن، يرجعون القبعات إلى الخلف، ليسمعوه على نحو أفضل، لم يمتثلوا هم لسلوك الاخرين. بدت نصيحة شيلون سديدة. وقوفهم عند الباب أتاح لهم رؤية كل من يخرج. و من بينهم أرسوس الذي لم يكن التعرّف به شاقاً نظراً لهيئته العملاقة.

قال شيلون

- هيا بنا يا سيدي، سنرى أي منزل سيقصدان، و غدا، أو هذا اليوم بالاحرى، تنشر خدمك عند مداخل البيت، و تخطفها.

قاطعه فينكوس قائلاً :

- لا.

- ما رغبتك يا سيدي؟

- تتبعها إلى البيت، وهناك نقبض عليها في الحال. اليس هذا ما تكفّلت به يا كروتون؟

فأجاب المصارع :

- أجل سأكون عبدك يا سيدي، إن لم أقصم ظهر ذلك الرب الذي يحرسها.

لكن شيلون بسط يديه بحذر متوسلاً الآلهة ألا تدعه يفعل ذلك. خاصة و أنهم جاؤوا بكروتون لكي يقوم بحمايتهم إذا ما تعرضوا للأذى، وليس لاخطاف الفتاة. لأن اختطافها من قبل شيلون و فينكوس فقط قد يعرض حياتهما للخطر، و قد يخسران الفتاة، و تفلت منهما، و تتخذ مكانا آخر للتواري قد يكون خارج روما. فما الذي يحصل عندئذ؟ اليس من الافضل إذن الا يغامرا بحياتهما، و يفر طا بنجاح الخطة؟

بلغ حماس فينكوس أقصاه للقبض على الفتاة هنا في المقبرة، لكنه وجد الإغريقي محقا فيما يقول، و كان حريا به أن يتقبل نصيحته لولا وجود كروتون الذي يضع في حسابه استعجال المكافأة، فقال

- أحرص هذا التيس العجوز، و إلا فججت رأسه بقبضتي. لم أقل باختطاف الفتاة من بين الجموع، لأنهم سيدرجون الحجارة أمام أرجلنا. بل لمجرد بلوغها البيت سأمضي بها إلى حيث تشاء يا سيدي.

تقبل فينكوس كلامه بسعادة فائقة، فأجاب:

- و هذا ما سيحصل. قد لا نجدها هناك إذا ما انتظرنا إلى الغد. و إذا ما أجفلناها هنا فقد يخفونها عن أعيننا.

تفوه شيلون قائلاً :

أظن أن الليفوي شخص شديد البأس.

فكان رد كروتون سريعاً

- لست أنت من كل فت بتثيت يديه.

لكنهم انتظروا طويلاً، حتى لمحوا أرسوس يخرج من المدخل تتبعه ليفيا، برفقة آخرين، عرف شيلون من بينهم الكاهن الكبير و إلى جانبه كاهن آخر قصير القامة، و امرأتان متقدمتان في السن، و شاب فتى ينير لهم بفانوسه الطريق. ثم تبع هؤلاء مجموعة تقدر بمئتي شخص، فاندمج بها كل من فينكوس و شيلون و كروتون.

علق شيلون قائلاً :

- يبدو أن عذراءك تحت حراسة مشددة. و تسير في موكب الكاهن. انظر هناك كيف يجثون أمامه.

كان الجميع يجثون حقاً، لكن فينكوس لم يلتفت تلك الناحية، لكي لا يحول نظره لحظة واحدة عن ليفيا.

كان المسير طويلاً. فكر فينكوس خلاله بالشروع التي فصلته عن ليفيا نتيجة أفكارها الغريبة. لقد أدرك الان كل ما حصل في الماضي، و ما هي أسبابه. تجلّى أمامه كل شيء على نحو كاف. لم يكن يعرف ليفيا حتى هذه اللحظة. لم ينظر إليها الا كأجمل عذراء بين عذراوات الأرض، الهبت مشاعره. لقد أدرك الان أن أفكارها تلك هي التي ميزتها عن باقي النساء. و أن ما بناه من آمال لا اجتذاب الفتاة بما يملك

من حرارة مشاعر، و جموح رغبة، و ثراء، و مسرة، ليس الا محض أو هام خادعة. لقد أدرك الان، ما لم يدركه هو، و لا بترونيوس أن الدين الجديد يسري في نفوس البشر على نحو شديد البعد عن عالمه، و يجعل من ليفيا مسيحية لا تتخلى عن شيء من معتقدها من أجل فينكوس حتى لو كانت تحبه. و أن المسرة التي يمنحها الدين غير المسرة التي يسعى اليها هو و بترونيوس و القيصر و بلاطه، و روما بأسرها. كان بمستطاعه أن يتخذ كل من عرفه من النساء عشيقات له، إلا ليفيا فهي ضحية.

أشعرته الفكرة بالم حارق، و ولدت في نفسه غضباً لكنه غضب خل بي، لا يجدي نفعاً. " دعنا في الممكن " قال لنفسه. كان على يقين أن بمقدوره اختطاف ليفيا مكللاً بالنجاح، لكنه لم يشك لحظة في أن كل ما يتمتع به من شجاعة و سطوة لا يعني شيئاً أمام تلك التعاليم. و كان هذا النبيل العسكري الروماني على يقين أن السيف و القبضة كانا و ما يزالان لا يعلى عليهما في إخضاع العالم منذ الازل، إلى الان، و إلى أبد الأبدين، لكنه رأى للمرة الاولى في حياته أن هنالك شيئاً ما يبذ هما في العلو و السطوة. جعله يطرح السؤال لنفسه: ما هو يا ترى؟

لكنه لم يكن يملك الاجابة. و ظل شريط الصور يمر في ذهنه: المقبرة، الجموع المجتمعمة، ليفيا التي ترشفت كل كلمة قالها الكاهن و هو يتحدث عن الام ابن الله، و موته، و قيامته، و وعده بخلاص العالم و سعادته. تزاومت الافكار في رأس فينكوس، حتى بات في حالة من التشوش الذهني يرثى لها. لكن تدخل شيلون انتشله منها حين راح يندب، و يتشاكى. كانت مهمته تقتصر على معرفة مكان ليفيا، و قد غامر بحياته من أجل ذلك. فما الذي يبغون منه بعد؟ هل كل ف هو باختطافها؟ و من يرجو ذلك من عجوز هرم فقد إصبعين من أصابعه،

و سخر حياته كلها خدمة للحكمة و العلم، و الفضيلة؟ و ما الذي سيحصل لو تعثر فينكوس في أثناء عملية اختطاف الفتاة؟ صحيح أن الالهة ملزمون بحماية من اصطفوهم من البشر، لكن الم يحدث في مرات كثيرة أن الالهة كانت تلعب "الضامة" لاهية عما يجري في الكون.

و قال أيضاً أن الالهة فورتونا كما هو معلوم معصوبة العينين، لا ترى في النهار، فكيف في الليل! و طلب من فينكوس أن يعطيه الان كيس المال الذي وعده به.

استجاب فينكوس لما قاله شيلون و أخرج الكيس من طرف حزامه، و القاه في قبضة شيلون.

- خذ. و الزم الصمت.

هنا تجرأ الإغريقي على القول :

- أنا أعقد الأمل على هيركوليس الذي أنجز أفعالاً أعظم بكثير. و من لي صديق حميم أعتز بصداقته أهم من هيركوليس؟ أما أنت يا سيدي فلست في نظري نصف إله مثله، بل إلها كاملاً لا يتخلى عن رعاية خادمه الوفي المسكين كلما دعت الحاجة، كما يفعل هو حين يستغرق في كتبه، و ينصرف عن رعاية كل شيء. على أية حال سأتوسل إلى جوبيتر كذلك أن يتولى مساعدتك في المهمة. أنا سأغادر الان، يا سيدي. لكن الطريق شاق للغاية، و فانوسي خلا من الزيت، فما الضير لو قام كروتون المعروف بشهامته ونبله إضافة إلى قوته الفائقة، بحملي على ذراعيه حتى المدخل و سيكسب رضا الآلهة.

- سأحملك إن منحني الكيس الذي وهبت إياه السيد المحترم.

- فأجاب الإغريقي

- يا خيبة الأمل! اهل هكذا استوعبت تعاليم الكاهن المحترم الذي اعتبر الفقر والرافة على رأس الفضائل. ألم يأمرك إذن أن تحبني؟ لن يكون منك مسيحي كما أرى. لأنك عنيد، ومن الأسهل أن تخترق أشعة الشمس جدران سجن مامرتينوس من أن ينفذ الحق إلى جمجمتك الشبيهة بجمجمة حصان الماء.

فكان رد كروتون الذي تمتع بقوة حيوانية، دون أن يتأثر بالكلام الذي سمعه:

- لا تخف، لن أصير مسيحياً. لا أريد أن أخسر لقمة عيشي.

- أجل، لكن لو أنك تقربت من الفلسفة لوجدت أن الذهب حقيقة جوفاء بائسة.

- هيا صارعني متسلحا بفلسفتك، وأنا سأنطحك نطحة واحدة في بطنك، وسرى من سيكون الفائز.

فرد شيلون

- كان يمكن أن يواجه أرسطو طاليس بنفس الرد.

بدأت تلاويح الفجر تنثر لونها الرمادي على الأشجار والابنية وشواهد القبور المنتشرة. بات الطريق ليس خالياً تماماً. بائعو الخضار يتجهون بحميرهم وبغالهم المحملة بالبضاعة نحو البوابة، لكي يصلوا إليها عند افتتاحها. وعجلات العربات المحملة باللحوم تفرقع هنا وهناك. كان الضباب خفيفاً، لكن السائر إذا ما أراد النظر خلاله من بعيد

وجد الاخرين أشباحا متحركة. ظل فينكوس يتابع هيئة ليفيا النحيلة، الهيفاء، التي سبحت في ضوء فضي كلما تقدم الفجر في مجيئه.

قال شيلون

- سيدي! كرمك لا حد له. وبما أنني قد تلقيت مكافأتي المائيّة منك، فمن غير الممكن أن تساورك الظنون في أن لي أيّة مصلحة فيما سأقوله لك الآن : أنصحك حال معرفتك منزل ليفيا أن تعود لتأتي بأرقائك، و هو دجك، و أن لا تصغي إلى كروتون الذي قد يخطف العذراء لنفسه طمعا بأموالك.

قال كروتون

- أنا مدين لك بشدّة من ذراعي تقصم ظهرك، و هذا يعني موتك المحتم.

فأجاب العجوز

- أنا مدين لك بإبريق من النبيذ السيفالوني و هذا يعني أنني سأبقى على قيد الحياة.

لم يجب فينكوس بشيء بعد أن اقتربوا من البوابة حيث رأوا مشهدا غريبا. جنديان يركعان أمام الكاهن حين صار قربهما، فباركهما بوضع يده للحظة على خوذتيهما، ثم رسم فوقهما إشارة الصليب. لم يخطر ببال فينكوس بحال من الاحوال أن يكون بين الجنود مسيحيون. وقف يتأمل فيما جرى أمامه للتو، فذهب إلى التساؤل عما إن كان المعتقد الجديد بات يسري في النفوس سريانا طوفانيا لا حدود له، و لا مجال لإيقافه. و إن صح ذلك فقد يجعل هروب ليفيا خارج المدينة

أمرا ممكنا، إذ لا بد أن يكون بين الحراس من يتعاطف سرا مع الفتاة، و  
يسهل هروبها. و حمد كل الالهة أن ذلك لم يحصل.

ما إن غادروا البوابة حتى بدأ المسيحيون يتفرقون إلى مجموعات، و  
صار تتبع ليفيا يتطلب الحذر الشديد، و المراقبة عن بعد كي لا ينكشف  
أمرهم. شكاشيلون من الام في قدميه، فأبطأ في المسير، دون أن يهتم  
فينكوس لتخلف الإغريقي الجبان العاجز، بعد أن شعر بعدم الحاجة  
اليه. حتى أنه كان ليسمح له بالانفصال عنه و اتخاذ الوجهة التي يريد،  
لكن الحكيم الجدير بالتقدير كان يقترب منه بين الحين و الاخر ليزوده  
بما يستجد من نصائح و مشاهدات. منها مثلا أن من يسير مع الكاهن  
جنباً إلى جنب يشبه كلاوسوس.

كانوا قد ابتعدوا كثيرا عن الترنستريس، و اقترب موعد شروق  
الشمس، حين تفرق عناصر المجموعة التي تضم ليفيا. ففي حين  
اتخذ الكاهن، و المرأة المسنة، و الفتى وجهتهم صعودا في محاذة  
النهر، انعطف أرسوس و ليفيا و رفيقهما القصير القامة و سلكوا  
طريقا ضيقة، ما إن ساروا عليها قرابة مائة خطوة، حتى دلفوا بيتا فيه  
حانوتان. أحدهما لبائع زيوت، و الاخر لتاجر طيور.

كان شيلون قد تخلف عن فينكوس و كروتون ما يقارب خمسين  
خطوة. فتوقف متسمر في مكانه، ثم استند على الحائط و هو يهمس  
لهما يرجوهما الرجوع اليه.

و هذا ما فعلاه، لأنهما في حاجة إلى النصيحة.

ثم أمره فينكوس قائلاً :

- اذهب، و تأكد إن كان للبيت مخرج آخر من الجهة الاخرى.



نقد شيلون الأمر و سرعان ما عاد لينبيء:

- لا. لا مخرج آخر.

و أشبك يديه ليستأنف يقول:

- بحق جوبيتر و أبوللو و فيستا و سيبالا و إيزيس و أوزيريس و  
ميثراس، و بعل، و كل الهة الشرق و الغرب، لا تقدم يا سيدي على  
هذه الخطوة "اسمعي"

لكنه توقف عن الكلام حين لاحظ شحوب وجه فينكوس من شدة  
الاندفاع، و أن عينيه باتتا كعيني الذئب تقدحان شررا. حسب المرء  
أن يراه حتى يتيقن في الحال أن لا قوة في الكون تشيه عن مرامه. كان  
كروتون قد نفخ صدره الهرقلي إلى أمام، و راح يحرك جمجمته في  
كل اتجاه، كرب سجين، دون أن يبدي مسحة من ارتباك، و قال:

- سأدخل أولا.

فردعه فينكوس بنبرة آمرة:

- ستأتي بعدي.

و بعد لحظات اختفى كلاهما في ظلمة البيت. فيما قفز شيلون إلى  
بيت آخر و تلطى خلفه يراقب ما سوف يحدث.

حين دخل فينكوس اكتشف صعوبة ما هو فيه. كان البناء ضخماً، مؤلفاً من عدة طوابق شأنه شأن الالاف من ابنيّة روما التي شيّدت بهدف الايجار، و ما مر عام الا و انهدم أحد هذه الابنيّة على رؤوس ساكنيه. كان ابنيّة شاهقة في الواقع، و ضيقة أشبه بخلايا النحل، اكتظت بالقمرات التي عشش فيها القاطنون الفقراء بالجملة. في المدينة، حيث العديد من الشوارع لم تحمل أسماء لها، و لا الابنيّة تحمل أرقاماً تدل عليها. و بما أن مالكيها كانوا يعهدون إلى أرقائهم جمع أموال الايجارات، و لم تكن السلطات تلزمهم بالاعلان عن أسماء المستأجرين لديهم، فلم يكن ملاك الابنيّة يعرفون هويّة المستأجر، و لا حتى اسمه. في مثل هذه الابنيّة يصبح السؤال عن قاطن ما أمراً شاقاً، خاصة حين لا يكون للعمارة بواب.

بعد أن عبر فينكوس و كروتون ممراً طويلاً، بلغا فناء صغيراً بأربعة جدران تجعل منه صالوناً مشتركاً للبنايّة. و في وسطه نافورة تصب ماءها في حوض حجري مقام على مستوى الأرض. و عند كل جدار درج صاعد خشبي أو من الحجر، يفضي إلى موزع يقود إلى المساكن. و كان في الاسفل أيضاً مساكن أخرى، بعضها بأبواب خشبيّة، لكن العديد منها مفصول عن الموزع بستائر ممزقة، و سخة.

كان الوقت مبكراً، فلم يظهر في الفناء أثر لأحد ما. كان الجميع ما زالوا نياماً، إلا من وصل لتوه قادماً من الأستريانوم.

سال كروتون و قد توقف:

- ماذا نفعل يا سيدي؟

- لتريث، فقد يظهر أحدهم. و لايهم حتى لو رآنا في الفناء.

و في آن دار في ياله أن نصيحة شيلون سديدة. فلو كان يراقفه الآن بعض العبيد لاحتل البوابة الوحيدة في البناء، و فتش كل المساكن، و عثر بسهولة على ليفيا. لكن فيما هو يفكر: ترى هل يذهب إلى البيت لإحضار العبيد، و إذا من وراء الستائر يخرج أحدهم حاملاً سلّة في طريقه إلى النافورة.

و من النظرة الاولى عرف الشاب أنه أرسوس.

همس فينكوس :

- إنه الليغوي.

- هل أحطم عظامه في الحال؟

- تريث.

لم يلمحهما أرسوس لأنهما واقفان في العتمة. غسل خضار السلّة بماء النافورة، و عاد بها إلى حيث أتى من خلف الستارة. تبعاه أملا بالعثور على مسكن ليفيا.

دهشا حين لاحظا أن الستارة لا تفتح الا على رواق عالم آخر ينتهي بحديقة و كوخ صغيرين. اطمأنا بعد أن شعرا بأن مهمتهما باتت أكثر سهولة، و أن بمقدورهما حالا التخلص من أرسوس و خطف ليفيا، و الخروج بها سريعاً إلى الشارع حيث يضحى تدبر الأمر سهلاً للغاية. كانا يأملان أن لا يقف أحد في طريقهما، لكن حتى إن حصل ذلك

سيقولان إنها مسألة هروب رهينة لدى القيصر، وإن اضطر الأمر سيكشف فينكوس عن وجهه تحت القبعة، و يطلب مساعدة الجميع.

أوشك أرسوس على دخول الكوخ، حين سمع وقع أقدام، فتوقف و أنزل السلة، و رجع باتجاههما و سألهما:

- ما الذي تريدانه هنا؟

ما إن أنهى سؤاله حتى أعطى فينكوس أمر الكروتون قائلاً له بصوت خافت:

- اقله!

قفز كروتون عليه كالنمر، و خلال لحظة، و قبل أن يتمكن أرسوس من تجنب المباغته، و يتعرف إلى خصومه، كان كروتون قد لفته بذراعيه الحديديين.

كان فينكوس يثق بقوة كروتون الفائقة، فلم ينتظر النتيجة التي ستسفر عنها المجابهة، فتركهما قافزاً إلى الباب، و دفعه ليصبح داخل غرفة مظلمة لا تضيئها إلا نار المدفأة، التي ضرب نورها وجه ليفيا مباشرة. كان إلى جانبها العجوز الذي رافقها حين غادرت و أرسوس الأستريانوم.

طبّ فينكوس عليهما قبل أن تتعرف إليه ليفيا. أمسك الشاب بيدها و اتجه بها نحو الباب. اعترضه العجوز، لكن الشاب دفعه بإحدى يديه، قابضاً على الفتاة باليد الأخرى. و في أثناء ذلك كشف الشاب عن رأسه، فتجمد الدم في عروق ليفيا حين عرفت الشاب، و تعثّر الكلام في حنجرتها، و لم تقو على الصراخ طالبة العون، و لم تفلح في مقاومتها و محاولتها التمسك بأصابعها بالباب. كان ممكناً أن تغيب

عن الوعي لولا أن لمحت مشهداً رهيباً طالعها حين خرج بها فينكوس إلى الحديقة. كان أرسوس يعتصر بذراعيه رجلاً مضرّجاً بالدم. لكنه ما إن رآها بين يدي الشاب، حتى كال للرجل لكمة على رأسه، واندفع كوحش مسعور نحو فينكوس صارخاً "جاءك الموت" يريد أن يشج نافوخه، لولا أن سمع و كأنه في حلم صراخ ليفيا "لا تقتله"

أما شيلون فقد ظل متلطياً خلف المنزل يتربص ما يجري بهلع مشوب بالفضول. بدأ يشعر بأن انتظاره قد طال، و بأن الهدوء الذي يغلف مدخل البناء ينذر بالشؤم. قال لنفسه:

"إن لم يعثراً على مكانها، و أحدثاً أية ضجة، فسوف ينبهان إلى وجودهما. لكن لا يهم. فكل ما سيقومان به، و كل ما سيحدث سيان، و يصب في مصلحتي و يرضيني، أدعو الآلهة أن لا يكتشف فينكوس سرّي هذا"

و شعر فجأة أن أحداً ما يخرج من البناء، فالتصق بالجدار، كابت الانفاس، و ظل يراقب.

لم يكن مخطئاً. لمح رأس أحدهم كان يستطلع ملتفتاً يمينا و يسارا. لكن سرعان ما توارى.

فكر شيلون :

- هذا فينكوس أو كروتون. لكن إن أمسكا بالفتاة، فلماذا لا تستغيث صارخة؟ و لم عليهما أن يستطلعا الشارع، ما دام سيواجهان الناس أولاً و أخيراً؟ ما هذا بحق الآلهة؟

و فجأة انتصب شعر رأسه.

كان أرسوس هو من ظهر في الباب و على كتفيه جثة كروتون. تلفت حوله ثانية، و انطلق في الشارع الخالي باتجاه النهر.

التصق شيلون بالجدار حتى كاد أن يدخل فيه، قائلاً لنفسه:

- لو رأني، لكانت نهايتي.

لكن أرسوس مر مسرعاً جانب المنزل الركني المنفرد، و تواری خلف البيت التالي. شيلون بدوره لم ينتظر بعد ذلك، و أطلق رجليه للريح في شارع آخر، و قد اصطكت أسنانه، و تسارعت خطواته كشاب في مقتبل العمر، و ما برح يردّد لنفسه:

لو رأني في طريق عودته سيلحق بي و يقتلني أنقذني يا زيوس أنقذني يا أبوللو، أنقذني يا هرمس، أنقذني يا إله المسيحيين! سأغادر روما و أعود إلى مسامبريا، لكن أنقذوني من بين يدي هذا الوحش.

لقد أيقن أن الليغوي، الذي أطاح بحياة كروتون، مخلوق فوق بشري حقاً، بل إنه إله تقمّص هيئة بربري. في هذه اللحظة آمن بالخرافة، و بكل آلهة العالم التي احتقرها حتى الآن.

و لمع في ذهنه: لعلّ من قتل كروتون هو إله المسيحيين. فانتصب شعر رأسه لقوة سلطانه.

لم يهدئ من روعه، حتى قطع مسافة طويلة. و ارتاح باله أكثر حين لمح من بعيد عمالاً يأتون باتجاهه. تنفس الصعداء، و اقتعد عتبة أحد البيوت، و راح يمسح عرق جبينه بطرف رداءه. قال:

- صرت عجوزاً، آن لي أن أنعم بالسلام.

انعطف العمال القادمون إلى شارع فرعي، و بقي وحيداً مرة أخرى. كانت المدينة هاجعة. و ككل صباح كانت الحركة أول ما تدب فيها ضمن الأحياء الأكثر ثراءً، لأن العبيد هنالك يستيقظون باكراً. أما تلك الأرجاء حيث تتوطن الفئة الحرة العاطلة من الناس، فلا حياة فيها الآن،

لأن قاطنيها نيام حتى الظهر، و خاصة شتاء. شعر شيلون بالبرد بعد أن مضى وقت طويل على جلوسه فوق العتبة. نهض، و بعد أن تأكد أن كيس المال الذي أخذ من فينكوس ما زال في حوزته، انطلق بخطوات متمهلة باتجاه النهر. فكر: "قد أعثر على جثة كروتون في مكان ما. يا الهة! لو كان هذا الليفوي عاقلاً لأمكنه أن يجمع الملايين. فإن كان قد قضى على كروتون بهذه البساطة، فمن سيصمد أمامه في المدرج الكبير من المصارعين. سيجني من الذهب ما يعادل وزنه. بمقدوره أن يحمي الفتاة أكثر من سيربيروس جهنم. فليتلعه الجميع، أنا لا أحتمل لقاءه. شخص رهيب. لكن ماذا حل بفينكوس، مادام قد حطم عظام كروتون؟ لا بد أن روحه صارت تتأوه فوق ذلك البيت اللعين. الطفي أيتها الالهة! إنه فينكوس باتريسيوس و ليس أي أحد. صديق القيصر، و قريب بترونيوس، و سيد من أسياد روما المعروفين، و قائد عسكري مرموق. لن يتقبلوا موته على نحو عابر.

صمت هنا، و سرح مستفكراً. و بعد هنيهة نبس قائلاً :

- ويلي! من الذي قاده إلى ذلك البيت غيري؟ أحراره، و عبيده يعرفون أنني ذهبت اليه، و بعض منهم يعرفون السبب. ما الذي سيحصل؟ سيتهمونني بأني تعمدت أن أدله على البيت الذي لقي حتفه. بت في موقع اتهام. حتى أنني لا أستطيع مغادرة روما لأن الشبهة ستفاقم.

وقع شيلون بين أمرين أحلاهما مرّ.

لكن اختار أن يبقى في روما، سيذهب شخصياً إلى بترونيوس لإنبائه. بما حصل مستبقاً أن يصله خبر قتل قريبه من الآخرين. إن بترونيوس شخص رزين، و سيسمعه حتى النهاية.

و لكن قبل أن يذهب اليه، عليه أن يعرف بدقة ما الذي حصل للشاب. كل ما يعرفه أن أرسوس كان يحمل جثة كروتون متوجهها إلى النهر، و لا شيء آخر. و مثلما قد يكون فينكوس قتيلا، فقد يكون جريحا، أو أسيرا. و خطر له الان أن المسيحيين لا يجروؤون على قتل سيد عظيم الشأن من أمثاله تجنباً للمتاعب و الملاحقات. الارجح إذن أن يكون في قبضتهم، لتكسب ليفيا الوقت الكافي للاختباء من جديد.

كان عزاؤه دائما كيسي النقود. كيس قد حصل عليه في بيت فينكوس، و كيس آخر رمي اليه في أثناء العودة من المقبرة. انشرح صدره، و قرر أن يكافئ نفسه، و يتناول طعاما فاخرا إلى جانب نبيذ أكثر جودة من المعتاد.

لما حانت أخيرا ساعة افتتاح الحانة، فعل ما يلزم فأشبع معدته طعاما، و ارتوى نبيذا حتى غاب عن باله حاجته إلى الاستحمام. كان في حاجة إلى النوم. فقصد منزله في سوبوران حيث كانت العبدة التي اشتراها بنقود فينكوس في انتظاره.

دخل غرفة النوم العائمة كجحر ثعلب، و ارتقى على فراشه ليغط في نوم عميق.

لم يستيقظ حتى المساء. أيقظته العبدة بقولها إن أحدهم يسأل عنه، و يريد أن يكلمه في الحال.

استعاد شيلون صحوه، و تناول رداءه آمرا الفتاة أن تبتعد عن طريقه، و القى نظرة أولية حذرة إلى الخارج.

و تجمد في مكانه، حين لمح أمام الباب أرسوس العملاق. شعر ببرودة تسري في أرجاء جسده، و تتركز جليدا في رأسه و قدميه. توقف قلبه. و شعر بظهره كأن قرية بكاملها من النمل تتحرك عليه.



فقد في البدايَّة قدرته على النطق، ثم اصطكت أسنانه، فراح يتأتى:

- سيرا، لست في البيت... لا أعرفه... هذا... الشخص... ..

- قلت له يا سيدي إنك هنا، لكنك نائم. فطلب مني أن أوقظك.

- أود... يا الهة!... إذن...

لكن أرسوس، و كأنما فقد صبره، تقدم نحو الباب، و دس رأسه

مناديا

- شيلون شيلونيدس!

- سلام عليك، سلام، سلام عليك يا أصلح المسيحيين. أنا شيلون،

لكنني لا أعرفك.

كرر أرسوس نداءه:

- شيلون شيلونيدس. يأمرك سيدك فينكوس أن ترافقني اليه.

أيقظ فينكوس الم مبرح فلم يدر للوهلة الاولى أين هو، و لا ما قد حصل له. ضربه الصداع، و اغبشت عيناه. لكنه استرجع وعيه شيئاً فشيئاً، فلمح ثلاثة أشخاص ينحنون فوقه. عرف منهم اثنين. كان الاول أرسوس، و كان الثاني العجوز الذي دفعه عنه حين أخذ الفتاة. أما الثالث فكان غريباً أمسكه من يده اليسرى و راح يجس ذراعه منتقلاً حتى كتفه، ما جعل فينكوس يشد على أسنانه الما و يقول:

- اقتلوني.

لكن أولئك لم يكثرثوا بالأمر. إما لأنهم لم يسمعوه، و إما لكونهم اعتبروا أن ما يقوله ناتج عما يعاينيه من الام فظيعة. وقف أرسوس هناك بادي الاهتمام، لكنه في الان نفسه أفصح عن وجه بربري متوعد، و بيده بعض شرائط الضماد البيضاء الطيبة. خاطب العجوز الفتى الذي يجس ذراع فينكوس :

- أواثق أنت يا كلاوسوس أن جرح رأسه غير مميت؟

فكان رد كلاوسوس :

- بالتأكيد أيها السيد المحترم. أعرف ذلك من خبرتي في نابولي. إنه جرح طفيف. لقد حمى رأسه بذراعه، فأنقذها و أنقذ حياته.

- لقد عاجلت العديد من الاخوة المسيحيين، و لك سمعة طيبة جيدة، لذلك أرسلت أرسوس من أجلك.

- لقد اعترف لي في الطريق أنه كان ينوي قتلي.

- لقد صار حني بنيتته منذ مدة. لكن معرفتي بك و بمحبتك للمسيح، دفعاني أن أوضح له أنك لست الخائن بل ذلك الشخص المجهول الذي أقنعه بقتلك.

علق أرسوس متنهدا :

- كان روحا شريرة، و أنا رأيتة ملاكا.

قاطعه كلاوسوس :

- ستحكي فيما بعد. دعنا الان، سنعتني بالجريح.

و بدأ يجبر ذراع فينكوس المكسورة فيما كان كريسبوس يرش الماء دون انقطاع على وجه الشاب الذي يتأوه ألماً. كانت تلك أفضل الشروط الطبيّة التي جبرت فيها ذراع الشاب، و ساقه، حيث استعان الطبيب بجيرتين خشبيتين و شدهما حول عظمتي الساق، و الذراع.

و استعاد المريض وعيه ثانيّة بعد العمليّة، فلمح ليفيا إلى جانبه.

وقفت قرب سريره، و بيدها قدر نحاسي استعان كلاوسوس بمائه من أجل رأس المريض.

راح فينكوس ينظر اليها، و لا يصدق عينيه. ظن أنه في حلم، أو أنه يهذي من شدة الحمى. و بعد صمت طويل تتمم:

- ليفيا!

ارتجف القدر بين يدي ليفيا، لكنها حولت وجهها الحزين نحوه  
مجيبة بصوت لطيف:

- السلام عليك.

و ظلت واقفة يعكس وجهها العزاء، و الألم.

بينما كان الشاب يرنو اليها على نحو كأنه أراد أن يشبع عينيه  
منها، حتى إذا ما أغمضهما بقيت صورتها طويلاً تحت جفنيه. نظر  
إلى وجهها الأكثر شحوبا و نحو لا من ذي قبل. نظر إلى بكرات شعرها  
القاتم، و ثوبها العمالي البائس. كان ينظر بمكر جعل جبين الفتاة  
الناصع البياض يتورد حمرة. و كان أول ما دار في باله أنه ما زال يحب  
هذه الفتاة. ثم فكر أنه السبب فيما تعانیه من شحوب في وجهها، و  
بوؤس في ملابسها. اليس هو من أخرجها من بيت العائلة التي رعتها و  
أحبها، و غمرتها حنانا و رفاها و رغدا في العيش. اليس هو من دفعها  
لتنزلق في مهاوي البؤس، و الجزع و العذاب. أنه ضميره و تمنى لو  
يرتمي بين أقدام ليفيا لو كان يستطيع الحراك. قال:

- ليفيا. لم تسمح لي بقتلي.

لكن الفتاة أجابت بوداعة:

- السيد سيعيدك إلى عافيتك.

تجاوز فينكوس الان كل تلك المواجه التي سببها للفتاة من ذي قبل،  
و شعر أن كلامها يقع في نفسه موقع البلسم الشافي. و أبعد عن ذهنه

الان أن ما تفوه به الفتاة عائد لقناعاتها في التعاليم المسيحية، و تقبله  
كلاما غاية في الحنان، شديد الحلاوة، تنطق به الحبيبة التي تقف إلى  
جانبه كمسحة الهية.

في هذه الاثناء أنهى كلاوسوس تنظيف جرح الرأس، و وضع عليه  
الدواء. أخذ أرسوس القدر من ليفيا. فيما أمسكت الفتاة من على  
المنضدة، إبريقا من البيذ، و قربته من شفتي الجريح، فنهل فينكوس  
كل ما فيه، فشعر براحة أكبر. لكن الامه بدأت تخف تدريجيا مع سير  
عملية الضماد، حتى زالت تماماً و بدأ يستعيد وعيه. و تفوه بالطلب:

- هاتي لأشرب!

عبرت ليفيا بالابريق الفارغ إلى الغرفة المجاورة. و تقدم كريسبوس  
من السرير، بعد أن كلم كلاوسوس بضع كلمات، و خاطب فينكوس  
قائلاً:

- فينكوس! لم يدعك الاله تسلك سلوكا شريرا، بل حافظ على  
حياتك، لتعود إلى نفسك روحيا. المسيح الذي نؤمن به أمرنا أن  
نحب حتى أعداءنا. لقد ضمدنا لك جروحك. و كما قالت ليفيا  
سوف نصلي لكي يعيد لك الله العاقبة، لكننا لن نتمكن من العناية  
بك بعد الان. رافقتك السلامة. و فكر جيدا، هل تجدها فكرة سديدة  
أن تستمر في ملاحقة ليفيا التي جردتها من عزوتها، و بيتها، و في  
ملاحقتنا نحن الذين قابلنا الاذية بالمعروف، و الشر بالخير.

فسأله فينكوس

- هل تنوون مغادرتي؟

- نوي مغادرة هذا البيت تفاديا لملاحقة الجند و عناصر الشرطة لنا.  
شريكك فقد حياته. و أنت -العظيم بين رجالك جريح. لسنا السبب  
فيما حصل لكما، لكن عصا القانون ستطالنا نحن.

- لا تخافوا من الملاحقة. سأحميكم.

لم يشأ كرسيوس أن يقول له إن الأمر لا يعود فقط إلى الجند و  
عناصر الشرطة، بل إلى عدم ثقتهم به شخصياً كذلك. و إنهم يريدون  
أن لا تطال الملاحقة ليفيا.

تابع العجوز قائلاً :

- سيدي، يدك اليمنى سليمة، و ها هو اللوح و الريشة، اكتب  
لأرقاتك أن يأتوك بالهودج، و يقل وك إلى البيت. أفضل لك من هنا.  
نحن نسكن لدى عجوز بائسة ستعود لتوها إلى اليت برفقة ابنها.  
سيحمل الفتى رسالتك إلى ذويك. و سنبحث نحن عن محباً جديد لنا.  
شحب فينكوس لما شعر أنهم سيبعدونه عن ليفيا. إن فقدها الان مرة  
أخرى فقد لا يراها طوال حياته. لقد أدرك أن هنالك أموراً ضخمة  
تفصل بينهما، و إذا ما أراد الفوز بالفتاة فعليه أن يسلك دروبا جديدة،  
لم ينشغل يوماً بالتفكير فيها. و أدرك أيضاً أن أي شيء يقوله لهؤلاء،  
كأن يقسم لهم أنه سيرجع ليفيا إلى بومبونيا، لن يكون كافياً، و جديراً  
بالثقة. شعر أنهم لن يقتنعوا بوعوده لأسباب كثيرة، منها أنه ليس  
مسيحياً و أن قسمه بالهة خالدة هو نفسه لا يؤمن بها، ليس ضماناً  
كافية، خاصة و أنهم ينظرون اليها كأرواح شريرة. وقع في حيرة، و  
فكر في مهادنة ليفيا و جماعتها، و كسب رضاهم. فهو بحاجة لبعض  
الوقت إذن. أيام قليلة للتقرب أكثر من الفتاة. فكرة جديدة يطرحها.  
حصول أي شيء يخدمه.

استجمع أفكاره إذن و قال:

- اصغوا الي أنتم المسيحيين. أمس كنت معكم في الأستريانوم. و استمعت إلى تعاليمكم. و إن كنت لا أعرفها فسلوكم نحوي مثال على أنكم بشر طبيون جديرون بالاحترام. قولوا للعجوز القاطنة هنا أن تبقى هنا، و ابقوا معها، و اسمحوا لي أن أبقى معكم.. هذا الطبيب -و أشار إلى كلاوسوس- سيساعدني على البقاء بحكم أي جريح، و من الخطورة أن يدعني و شأني. و إن لن تقبلوا بفكرتي فسوف أتشبث بالبقاء هنا حتى تبعدونني بالقوة.

أنهى كلامه لأن أنفاسه نفدت من صدره.

فقال كريسبوس :

- لن يرغمك أحد على مغادرة المكان. نحن من سنرحل.

قطب الشاب غير المعتاد على سماع الرفض جبينه و قال:

- دعوني أسترح قليلا

و بعد هنيهة استأنف كلامه قائلاً :

- كروتون الذي قضى عليه أرسوس، لن يكون موضع سؤال أي كان حين دخلنا هذا المنزل لم يرنا أحد غير الإغريقي الذي كان معنا في الأستريانوم. سأقول لكم أين يسكن، لتستدعوه الي. و أنا سأمره أن يلزم الصمت، لأنه أجيري. و إذا ما كان قد أخبر رجال الشرطة بالأمر، فسأعترف أي من قتل كروتون لأنه قام بكسر يدي. أقسم بطيف أمي، انسي سأفعل ما أقول. و هكذا سأبقى هنا بأمان. و لن تتأذى شعرة

واحدة لأي منكم - جيئوني بالإغريقي سريعا. اسمه شيلون شيلونيدس  
!

فأجاب كريسبوس :

- إذن سيبقى كلاوسوس بقربك يا سيدي، و سيعتني بك إلى جانب  
العجوز.

زادت تقطية فينكوس و شد د من نبرته:

- اسمعني جيدا أيها الرجل العجوز. أنا مدين لك بالامتنان. و أرى  
أنك شخص نزيه و طيب، و لكنك لا تفصح عما يجول في نفسك  
من مخاوف. تظن أنني حين أدعو أرقائي، سأخطف الفتاة من جديد.  
اليس كذلك؟

فأجاب كريسبوس بشيء من الفجاجة:

- أجل.

- اعلم إذن أنني سأكلم شيلون أمامكم، و أمامكم سأكتب الرسالة.  
أخبر فيها جماعتي أنني سافرت، و لا تثرني أكثر.

و أظهر غضبا جعل وجهه ينقبض متجهما، و قال بحماسة:

- لا بد أنك ظننت أنني لن أفي بوعودي، و أنني أريد البقاء هنا  
لكي أتمكن من رؤية ليفيا. و سأقول لك شيئا آخر. إن لم تبق ليفيا هنا،  
فسأفك رباط ذراعي بيدي اليمنى هذه، و لن أذوق الطعام أو الشراب،  
حتى أنتزع أرواحكم أنت و إخوتك.



صار شاحبا من شدة الغضب و الوهن. لكن ليفيا كانت تصغي إلى كل ما قاله في الغرفة المجاورة. و كانت على ثقة أن الشاب يفعل ما يقول. لذلك فقد ارتعدت من تهديداته، و لم تكن تريد الموت. فمئذ أن هربت و هي تعيش هنا بكل أمان، و وئام مع أخوة لها في الدين، و نصب عينيها الوفاء، و الاثرة، و التضحية تعويضا عن منزلها، و عائلتها، و سعادتها، فأضحت إحدى العذراوات المسيحيات اللواتي غيرن روح العالم القديم. و في حقيقة الأمر كان فينكوس جزءا من حياتها، و قد فرض نفسه على مشاعرها، و لم يكن بوسعها أن تنساه، و كانت تدعو الله أن تجيء تلك اللحظة التي تتيح لها - طبقا للتعاليم أن ترد له أذيته بالخير، و ملاحقته لها بالعطف، و كل ذلك كرمي للمسيح. شعرت إذن أن اللحظة قد سنحت الان، و أن صلواتها قد استجيبت فتقدمت من كريسبوس و راحت تكلمه بنبرة بدت مختلفة تماماً

- دعه يا كريسبوس بيننا. و سنظل إلى جانبه حتى يكمله المسيح بالشفاء.

لكن العجوز المؤمن بالايحاء الالهي، و قد لمس مدى إصرار الفتاة، على فكرتها، سرعان ما دار في باله قوة علوية هي التي كلمته بفم الفتاة، فارتعش فؤاده، و قال مطرقا برأسه الاشيب:

- ليكن ما تقولين.

لم يكن فينكوس يحول عينيه عنها طوال الوقت. و لقد أثرت موافقة العجوز السريعة تأثيرا عميقا في نفسه. فكر أن ليفيا قد تكون بين المسيحيين قسيصة أو سبيلا، تتمتع بالاحترام و الطاعة. امتزج حبه لها بخوف جعل هذا الحب يبدو حبا مغامرا أعمى، الا أنه لم يقو على الاستسلام لفكرة أن علاقتهما قد تبدلت، و أن ليفيا هي، لا هو، من

يملك القيادة، ما دام الان يستلقي تحت رحمتها كطفل قاصر مجرد من القوة، أفلت منه زمام المبادرة و الحسم. شعر بالفخر، و الامتنان لها و كأنها أضحت سيده حقا. كانت أحاسيس خرساء و خفيّة لم تجد طريقها يوما إلى ذهنه، حتى في هذه اللحظة، و يتعذر التعبير عنها في كلمات. و طبيعية لم يشأ البحث عن أسبابها، مكتفيا الان أنه في غاية السعادة لأنه سيبقى مقيما هناك.

كان يرغب في توجيه الامتنان لليفا، لكن شعورا آخر خفيا تمازج مع رغبته، هو الشعور بالضعف و العار. فلم يقو على النطق، و اكتفى بتقديم الامتنان بعينين تتوهجان فرحا ببقائه هنا، و رؤيته لها اليوم، و غدا و بعد غد، و ربما طويلاً. لكنه ظل خائفا من فقدانها، و تفاقم خوفه حين قدمت له الماء مرة أخرى، فهم لرغبته الشديدة أن يمسك يدها لكنه لم يجرو. خاف. خاف هو نفسه فينكوس الذي تجرأ في المأدبة القيصريّة أن يقبل عنوة فم الفتاة، و كان، بعد المأدبة ينوي جر الفتاة من شعرها إما إلى غرفة النوم، أو العقاب.

بات خائفاً أيضاً من أن يأتيه العون في وقت غير مناسب، فيفسد عليه سعادته. جائز أن يكون شيلون قد أخبر الجند، أو المنزل، أو معتوقيه، عما جرى، فيغدو دهم البيت في أي وقت أمراً محتملاً. خطر له أن يقوم حينئذ بالقبض على ليفيا واحتجازها، لكنه استبعد ذلك و شعر أنه سلوك مرفوض، و غير لائق، و ليس بمقدوره أن يتبعه. صحيح أنه كان شخصاً أنانياً جريئاً و فاسداً بما فيه الكفاية، و عند الضرورة لا يغرف الرحمة، لكنه في النهاية ليس نيرون. فقد تركت فيه الحياة العسكرية قدراً معيناً من الشعور بالصلاح، و التزام العدل، و الصدق، و النزاهة، ليدرك أنه سلوك وضيع بشع. و لقد كان سيسلكه لو أنه في أتم الصحة و المعافاة، و لكنه، و هو في هذه الحالة المرضية، كان أقصى ما يهمله أن لا يقف أحد بينه و بين الفتاة.

لاحظ باندهاش أنه منذ كلفته ليفيا و دافعت عنه، لم تطلب هي أو كريسبوس منه شيئاً، و كأنهما على ثقة أنه سوف يقوم ذات يوم بحمايتها من قوة غاشمة ما، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. بات يعتقد أن كل شيء ممكن و في وارد الحدوث. و حين أمعن في التفكير و زان الامور جيداً، تذكر ما قال له الإغريقي، فطلب اليهم استدعاءه إلى أمامه.

وافقه كريسبوس، و قرروا إرسال أرسوس من أجله. حدد لليفيا موقع منزل شيلون. و خط بعض الكلمات على الرسالة، و التفت نحو كريسبوس قائلاً :

- كتبت هذه الكلمات لأن شيلون شخص ماكر، و شكاك. و حين كنت أستدعيه، غالباً ما كان يقول لرجالي أن يخبروني أنه ليس في البيت، و خاصة عندما لا يحمل خبراً طيباً. قال أرسوس :

- دعني أجدّه أولاً، و سأتكفل بالإتيان به شاء أم أبى. و ردّ قبعة عباءته على رأسه و انصرف.

في روما لم يكن من السهل العثور على أحدهم مهما بلغت دقة المعلومات. لكن الغريزة كانت عوناً لأرسوس الذي عرف روما شبراً شبراً، و سرعان ما كان في بيت شيلون.

لكنه لم يكن يعرفه، لأنه لم يصادفه وجهاً لوجه سوى مرة واحدة كانت في المساء، فاستحال عليه أن يكتشف أنه ذلك العجوز الإغريقي الذي حرّضه على قتل كلاوسوس. فلما أيقن شيلون أن أرسوس ينظر إليه كشخص غريب بعيد عن الشبهة، و لم يره من قبل، سرعان ما اضمحلت مخاوفه. و تعززت الطمأنينة لديه لما قرأ أسطور فينكوس. و خطر له أن المسيحيين لم يقوموا بقتل فينكوس لأنهم لا يجروؤن أن يمدوا أيديهم على أمثاله من الأشخاص الاعتباريين.

قال لنفسه:

- و الحال هذه سوف يقوم فينكوس بحمايتي إذا ما لزم الأمر، و لم يستدعني ليتخلص مني.

و تسلح بجسارة نوعيّة ليووجه سؤاله:

- أيها الرجل الطيب، ألم يرسل فينكوس النبيل هودجا من أجلي؟ رجلي تؤلمني، و لا أحتمل المشي مسافة طويلة.

- لا. سنمضي سيراً على الأقدام.

- و إن رفضت ذلك؟

- لا تفعل. عليك أن تأتي.

- سأذهب بإرادتي. ليس بوسع أحد أن يرغمني لأنني إنسان حر. و حاكم المدينة صديقي. و أنا كفيلسوف لدي أدواتي ضد العنف، و بوسعي أن أسحر البشر، و أحولهم إلى أشجار و حيوانات. لكنني سأذهب... سأذهب! سأتحفى بعباءة أخرى و قبعة لكي لا يعرفني أرقاء الحي و ينهالون علي بتحياتهم و يلهونني عن المسير.

ارتدى عباءة أخرى و اعتمر قبعة واسعة تمنع أرسوس من التعرف على قسماته و هما يعبران مناطق أكثر إضاءة. سال في أثناء الطريق:

- أين تأخذني

- إلى الترانستبريس.

- أنا في روما منذ وقت قصير، و لا أعرف ذلك. هل يعيش هنا الكثيرون ممن يحبون الفضيلة؟

صحيح أن أرسوس شخص ساذج، لكنه كان قد سمع فينكوس يقول أن اليوناني قد رافقه إلى الأستريانوم. ثم إنه قد رآه عندما دخل بناء ليفيا مع كروتون. صمت قليلا ثم قال:

- لا تكذب أيها العجوز فقد كنت برفقة فينكوس في الأستريانوم، و أمام مدخلنا.

أجاب شيلون

- آها! بيتكم إذن بعد التبير. أنا في روما منذ مدة قصيرة، و لا أعرف

أسماء الاماكن و الاحياء فيها. الحق معك يا صديقي. لقد كنت أمام مدخلكم. و لقد رجوت فينكوس الا يدخل. و كنت في الأستريانوم. لكن أتدري ما السبب؟ أتدري كم بذلت من مجهود لأقنع فينكوس بالايمان؟ و سنحت الفرصة لما جاء الحواريّ فأخذته ليستنير بنصائحته. أعلم أنك مسيحي و ترغب أن ينتصر الحق على الباطل.

- تماماً أجب أرسوس بخشوع.

استعاد شيلون جرأته كلياً، فقال:

- السيد العظيم فينكوس صديق القيصر، و ما زالت الارواح الشريرة توسوس في صدره، لكن إذا مست شعرة واحدة منه فالقيصر سينتقم من المسيحيين شر انتقام.

- هناك قدرة أعظم تحمينا.

فسال شيلون بقلق متجدد:

- حسناً. حسناً. لكن ما الذي تنوون فعله مع فينكوس؟

- لا أدري. المسيح يأمر بالرفقة.

- قولك صحيح. لا تنس ذلك أبداً، و الاستشوى في نار جهنم.

تنهد أرسوس، بينما خطر لشيلون أن بمقدوره أن يوجه هذا الانسان الذي يبدو مرعباً للوهلة الاولى، و يفعل به ما يشاء.

و لكن، بما أنه أراد أن يعرف كيف تم اختطاف ليفيا، فقد تكلم بنبرة القاضي القاسية:

- ماذا فعلتم ب كروتون؟ قل و لا تكذب.

تنهد أرسوس ثانيّة و أجاب:

- سيخبرك فينكوس بذلك فيما بعد.

- سامحك بلوتو، أقصد المسيح.

و تابعا المسير صامتين لفترة وجيزة حتى تفوه شيلون قائلاً:

- لن أشي بك، لكن حذار من الشرطة.

- أنا أخشى المسيح، و لا أخشى الشرطة.

- عظيم. ليس هنالك من ذنب أكبر من جريمة القتل. سأصلي

لأجلك فيما بعد. لكني لا أدري إن كانت صلاتي ستنتفعك في شيء،

إن لم تقسم أنك لن تؤذي أحداً بعد الآن فأجاب أرسوس:

- لم أقصد قتله.

كان شيلون يريد أن يؤمن على نفسه و يسد كافة الثغرات، فراح

يثير اشمئزاز أرسوس بالتذكير بجريمة القتل، و حثه على القسم. و كان

الليفوي يرد على أسئلته كلها بقوله: سنعرف كل شيء من فينكوس

في الوقت المناسب. هكذا أمضيا معا طريقهما الطويل، حتى و صلا

البيت. اشتد خفقان قلب شيلون، حين لاحظ أن أرسوس يرمقه

بنظرات نهمة. أخفى وجهه جيداً بالقبعة متذرعاً بشدة برودة الجو.

و حين عبروا في النهاية، الرواق، ثم الفناء الاول، و صاروا في الممر

المفضي إلى حديقة المنزل، توقف فجأة ليقول:

- انتظر، دعني آخذ جرعة من الهواء، و الا فلن أتمكن من التحدث

إلى فينكوس، و أسديه بعض النصائح.

و توقف بعد أن صار واثقا من نجاته، و بات لا يهدده أي خطر. و في أثناء ذلك طرق سمعه ترانيم آتية من البيت.

- ما هذا؟ سال

فأجابه أرسوس :

- تقول إنك مسيحي، و لا تدري أن من عاداتنا تمجيد المخلص و شكره بعد كل طعام؟ لقد رجعت ميريام و ابنها حتما إلى البيت، و من الجائز أن يكون الحواريّ هنا، لأنه يوميا يقوم بزيارة العجوز و كريسبوس.

- خذني مباشرة إلى فينكوس.

- و هو أيضاً هنا، حيث الاخرون في الغرفة الكبرى، لأن بقيّة الغرف صغيرة نرتادها للنوم فقط. هيا فلنذهب و هناك ستأخذ قسطا من الراحة.

دخلا. كانت الغرفة عائمة بعض الشيء، لأن أضواء الاسرجة، في مثل هذه الاماسي الشتائية الغائمة، لا تستطيع أن تبدد الظلمة تماما. شك فينكوس لمجرد أن لمحّه من وراء زجاج النافذة أن القادم هو شيلون الذي ما إن حطت عيناه على فينكوس فوق السرير حتى أسرع اليه ضامنا الامان التام بقربه. و صاح و هو يمسك بيديه:

- آه يا سيدي، لم لم تأخذ بنصيحتي؟

فردعه فينكوس مخاطبا إياه:

- اسكت، و انتبه لما سأقول!

و رمقه بنظرات حادة، و راح يكلّ مه بتوودة و كأنه أراد منه أن يعتبر كل ما يقوله أوامر لن ينساها طوال حياته:



- انظر، لقد أراد كروتون أن يقتلني، و يسرقني أتفهم؟ قمت أنا بقتله. و قام هؤلاء بتضميد جراحي التي منيت بها، في عراكي معه.

أدرك شيلون في الحال أن حديث فينكوس على هذا النحو، يعني أنه اتفق مع المسيحيين على ذلك. فأجابه رافعا وجهه إلى السماء:

- كان شخصا خطيرا يا سيدي، قلت لك أن لا تثق به. عبثا حاولت تعليمه، لكنه مخادع لا رادع يردعه، و لا شرف يتمسك به. أيتها الالهة، كيف يجروء على مهاجمة سيد عظيم من أمثالك!

لكنه سرعان ما تذكر أنه قال لأرسوس أنه مسيحي فصمت. و جاء دور فينكوس ليقول:

- لو لم أكن أحمل مديّة لقتلني.

- بوركت تلك اللحظة، حين نصحتك بحمل مديّة.

فسأله فينكوس و هو يرمقه بنظرة:

- ماذا فعلت اليوم؟

- كيف؟ كنت سأقول لك أنني انشغلت باستقبال الزائرين الذين جاؤوا للاطمئنان على صحتك؟

- و ماذا أيضاً؟

- كنت أتأهب لزيارتك، حين جاءني هذا الشخص الطيب ليخبرني أنك استدعيتني.

- خذ هذه الرسالة إلى منزلي في الحال. و اعثر على معتوقي، و سلمها

له. كتبت فيها أنني مسافر إلى بنغنتوم. و قل لديمون عن لساني أنني  
سافرت هذا الصباح لأن بترونيوس استعجلني بالحضور اليه هناك.

ثم كرر مشددا :

- سافرت إلى بنغنتوم، أتفهم؟

- سافرت يا سيدي سافرت. و لقد ودعتك عند مبنى البريد. و  
منذ ذلك الحين و أنا أتشوق لرؤيتك، و أكاد أموت من شدة البكاء و  
الحزن، كما حصل لزوجة أتيلوس من شدة حزنها على زوجها.

كان فينكوس مريضا، فلم يكن بمقدوره حتى أن تند شفتاه عن  
ابتسامة لهذا التناغم الخبيث بينه و بين شيلون. و أسعده أن شيلون  
سرعان ما استجاب لمقاصده. فقال:

- سأضيف في الرسالة إذن، أن يكفكفوا دموعك. هات السراج!

و بطمأنينة تامة خطا شيلون نحو المدفأة و تناول سراجا.

في هذه اللحظة. انزلت القبة عن رأسه، فأناضوء السراج  
وجهه، فقفز كلاوسوس عن مقعده، و وقف أمامه بسرعة، و سأله:

- كايفاش، الا تعرفني!

كان صوته مرعبا أجفلهم جميعا.

في هذه اللحظة رمى شيلون السراج أرضا و قال:

- لست كايفاش... لست كايفاش... الرحمة!

التفت كلاوسوس نحو الجميع و هم يتناولون العشاء و خاطبهم:

- إنه الشخص الذي خانني و تسبب في أذاي أنا و عائلتي.

كانت سيرته قد شاعت بين المسيحيين كلهم. و بسماع أرسوس ما تفوه به كلاوسوس، قفز كالبرق إلى أمام شيلون، و حين تعرف عليه، أمسكه بذراعه و فتله إلى الوراء، و صاح:

- هو من أقنعتني بقتل كلاوسوس.

فالتفت شيلون نحو فينكوس يتوسله:

- الرحمة! أنقذني يا سيدي. لقد وثقت بك، قل شيئاً من أجلي أنا سأحمل رسالتك يا سيدي.

أما فينكوس فقد كان يشهد ما يجري أمامه بحياد تام لسببين. أولهما أنهما ما عاد في حاجة إلى شيلون بعد أن أنجز ما كلف به. و ثانيهما أن قلبه لا يستجيب أصلاً للتوسلات. فقال:

- ادفنوه في الحديقة. الرسالة سيوصلها شخص آخر.

و هكذا شعر شيلون أن هذه الكلمات تعني نهايته. و كانت عظامه تتحطم بين يدي أرسوس الجبارتين، فامتألت عيناه بالدموع من شدة ألمه. فصرخ:

- أستحلفكم بربكم أن ترحموني. أنا مسيحي، باكس فوبكسوم! أنا مسيحي. و إن لم تصدقوني عم دوني مرة أخرى. مرتين آخرين، بل عشرات المرات! لا بد أنك مخطئ يا كلاوسوس. اسمعوني... اعتبروني أحد أرقائكم و لا تقتلونني. الرحمة!

و خفت صوته من المه. هنا تحرك الحواري بطرس من جانب الطاولة، هازا برأسه الاشيب، و عيناه مطبقتان، لكنه ما لبث أن فتحهما و نطق مبددا و طأة الصمت المطبق:

- خاطبنا المخلص قائلاً: "إن أخطأ معك أخ لك، عاتبه، و وجه له اللوم. و إن ندم على فعلته سامحه. و إن أخطأ معك سبع مرات في اليوم، و لكنه في كل مرة كان يلتفت اليك ليقول: "أنا نادم" فسامحه" و أطبق الصمت من جديد.

ظل كلاوسوس واقفا لفترة طويلة، دافنا رأسه براحتيه، ثم أرخاهما ليقول:

- سامحك الله يا كايفاس على ما أوقعت بي من أذية. لأني سامحك باسم المسيح.

بينما قام أرسوس بتحرير ساعدي اليوناني و أضاف قائلاً على الفور:

- سامحك الله لأني سامحك باسم المسيح.

بهذا ارتمى اليوناني أرضاً، و هو يدير رأسه بين يديه مجيلاً النظر، كفريسة عالقة في الشباك، ليعرف متى و من أية جهة سيوافيه الموت. حتى أنه ما كان يصدق عينيه و لا أذنيه، و لم يجروء و لو لحظة أن يعيش على أمل أنه قد فاز بالصفح.

و لكنه شيئاً فشيئاً استعاد رشده. كانت شفثاه الزرقاوان ترتجفان من الرعدة. قال الحواري في هذه الاثناء:

- انصرف بسلام!

نهض شيلون، لكنه لم يقو بعد على الكلام. تقدم من سرير فينكوس، كأنما كان ما يزال يسترحمه، و يجد عنده المنجاة و الحماية. و كان يريد أن يبرح المكان خشية أن يحصل أي طارئ يعطل فرصته في الهروب، فخاطبه بصوت متهدج:

- هات الرسالة يا سيدي! هات الرسالة!

و بعد أن تناول الرسالة منه، توجه بانحناءة نحو المسيحيين و بأخرى نحو فينكوس و خرج محدودباً من الغرفة. حين بلغ الحديقة، انتصب شعر رأسه من الرعدة مرة أخرى. فقد كان واثقاً أن أرسوس سوف يتبعه، و يتخلص منه في العتمة. استجمع كل قواه، لكن قدميه لم تسعفاه للفرار. و فجأة، بعد لحظات و جيزة، تجمد من هول الصدمة، لأن أرسوس كان إلى جانبه فعلاً.

ارتقى شيلون على وجهه أرضاً و راح يتباكى:

- أوربانوس... باسم المسيح!

لكن أوربانوس أجاب:

- لا تخف. الحواريّ أمرنا أن نقودك خارج المبنى لكي لا تتوه في العتمة، و أن نوصلك إلى البيت إن كنت تشعر بالوهن.

فرغ شيلون عينيه:

- ماذا تقول؟ ماذا؟ الن تقتلني؟

- لا. لن أقتلك. و إن كنت قد المتك من شدة ما ضغطت على عظامك، فأنا آسف.

فقال الإغريقي:

- ساعدني على الوقوف. لن تقتلني؟ اليس كذلك؟ رافقني حتى الشارع، و من هناك سأصرف بمفردي.

رفعه أرسوس بسهولة كحشرة، و أوقفه على ساقيه، و قاده عبر ممر مظلم إلى الفناء الاخر الصغير، و منه إلى غرفة أولية تفضي إلى الشارع.

قال شيلون لنفسه و هو في الممر " اقتربت نهايتي ". و لم يشعر بالامان حتى صار افي الشارع. فقال:

- سأذهب بمفردي.

- رافقتك السلامة.

- و إياك أيضاً، و إياك أيضاً. دعني أسترح!

و حين ابتعد أرسوس تنفس الصعداء. ثم تحسس يديه جذعه و أضلعه، و كأنما أراد أن يتحقق من أنه ما زال حيا، و انطلق بخطوات سريعة.

لكنه، بعد خمسين إلى ستين خطوة توقف. و قال:

- لكن لماذا لم يقوموا بقتلي؟

و لم يجد جوابا شافيا على سؤاله هذا بالرغم من استغراقه الطويل. مما سمع من التعاليم المسيحية، من اربانوس أو من الحواريّ في الأستريانوم.

فينكوس بدوره لم يكن بمقدوره أن يستجلي ما حصل من هذه الأحداث، فاضطربت روحه، و تملكته الحيرة كشيلون. صحيح أن الطريقة التي عامله بها هؤلاء من تلتطف بحاله و بلسمة لجراحه، بدلا من النقمة عليه لمهاجمته إياهم في مخبئهم، قد أرجعها إلى صلب تعاليمهم، و بالذات إلى شخصيّة ليفيا و تأثيرها الكبير بينهم، الا أنه ما كان ليتصور مقدار التسامح الذي أبدوه إزاء شيلون. و تساءل أيضاً لم لم يقتلوا الإغريقي؟ خاصة و أنه كان بمقدورهم أن يقوموا بذلك دون أن يجرّموا على فعلتهم، فيقوم أرسوس بدفنه في الحديقة، أو حملة ليلاً و إلقائه في النهر. فكم شاهد القيصر في تجوالاته الليلية جثثاً ملفوفة على ضفة النهر، دون أن يطلب من أحد التحقيق في الأمر. إلى جانب ذلك، في رأي فينكوس، أن المسيحيين لم يكن بإمكانهم أن يقتلوا شيلون و حسب، بل كان ينبغي عليهم أن يقتلوه. فالقسوة لم تكن بالشيء الغريب تماماً في العالم الذي عاش فيه الشاب. ففي أثينا أشادوا المذابح، و ظلوا الوقت طويل يرفضون إقامة نزالات المصارعة حتى الموت. و في روما أيضاً كان يصادف أن يحصل المهزومون على الرحمة. مثال على ذلك ما حصل لملك بريطانيا كاليكراتوس الذي وقع أسيراً لدى كلاوديوس و قام الاخير بإكرامه و تركه يمارس حياته حرّاً في المدينة. لكن الثأر الشخصي حسب فينكوس، و الاخرين كان أمراً حسناً و مشروعاً. و إهماله لا يتفق و توجهات تفكيره. صحيح أنه قد سمع في الأستريانوم أن محبة العدو واجبة، لكنها من وجهة نظره،

فكرة نظريّة لا أهميّة لها في واقع الحياة. و خطر في باله، للتو، أنهم لم يقوموا بقتل شيلون، لمناسبة دينيّة تصادف في هذه الاونة يحرم فيها على المسيحيين القتل. سمع أن هنالك أقواما تحرم الحرب في مواسم محددة. لكن لم يسلموا الإغريقي إلى العدالة، ولماذا قال له الحواريّ أنه لو ارتكبت الخطيئة سبع مرات لسامحك سبع مرات، ولماذا قال كلاوسوس لشيلون: سامحك الرب كما سامحك أنا، رغم إقدامه على تقصد الاذية لهم. وحتى أرسوس قد صفح عنه. الجواب واحد على كل هذه الاسئلة: في قلوبهم قدر من الطيبة لا يمتلكها أي إنسان آخر في هذا العالم. محبة لا محدودة للبشريّة تحذوهم أن يديروا ظهورهم لما يواجهونه من مصير مشؤوم، و تجعلهم يتمتعون بأثرة يتناسون فيها أنفسهم و سعادتهم، و يوقفوا كل حياتهم من أجل الآخرين. أما ماذا ينتظرون من جزاء على تفانيهم هذا، فقد عرفه فينكوس في خطبة الحواريّ في الأستريانوم، لكنه لم يستوعبه، و في مقابل ذلك شعر أن الحياة بائسة لا معنى لها فوق هذه الأرض، إذا ما كانت وقفا من أجل الآخرين. و شعر لطبعه الروماني أنهم حملان وديعون في هذا العالم، و لا بد أن يأتي يوم يلتهمهم فيه الذئاب. و في نهاية المطاف رجع إلى رشده، و فاجأه مدى البشر والحبور فوق الوجوه من فرط السعادة فور انصراف شيلون. تقدم الحواريّ من كلاوسوس، و وضع يده على رأسه و قال:

- كان المسيح في نصرتك!

و رفع الطيب بصره فشعت عيناه بهجة نادرة لا تقرأ الا مبعثها الايمان. و بدت ليفيا فرحة لشعورها أن نظام العالم قد استتب الان. و دخل أرسوس ليحدث الآخرين كيف رافق شيلون إلى الشارع و كيف طلب منه أن يسامحه على ما سببه له من الام في ذراعه، فاستحق مباركة



الحواريّ. بينما أعلن كريسبوس أن هذا اليوم هو يوم النصر بامتياز أما فينكوس، بإصغائه إلى ما يجري أمامه من مشاعر الانتصار، فقد أضاع شريط أفكاره تماماً.

و لكن حين قدمت له ليفيا الشراب من جديد احتفظ بيدها لحظة  
و سألتها:

- و أنت هل سأحتني؟

- نحن مسيحيون، و لا يجوز أن نضمّر البغيضة في قلوبنا.

- ليفيا! أيا كان ربك، يستحق مني قرابين الاحترام، فقط لأنه ربك  
أنت.

- سوف تكن له هذا الاحترام في باطن قلبك، إذا ما أحببته.

- فقط لأنه ربك أنت أعاد فينكوس الكرة هامسا.

و أطبق عينيه بعد أن وهنتا.

خرجت ليفيا. و سرعان ما عادت، و انحنت فوقه لتتأكد أنه نائم.  
شعر فينكوس بقربها ففتح عينيه و ابتسم، فيما وضعت ليفيا يدها على  
عينيه بحنان، كأنها تريد أن ترغمه على النوم. فغمرتة السعادة من جراء  
ذلك، رغم أنه أحس أن مرضه شديد. و هذا هو واقع حاله. كان الليل  
قد حل تماماً و جلب معه الحمى الشديدة. فلم يستطع النوم. و راح  
يتابع ليفيا أنّى تحركت. و كان يسهو بين الحين و الاخر، و لكنه يسمع  
و يرى كل ما يجري حوله، و لو كان على نحو مشوش و غير جلي  
من شدة الحرارة. و رأى في هديانه كنيسة على شكل برج في مقبرة  
مهجورة، و ليفيا هي القس الذي يديرها. لم يعمل بعينه عنها، و رآها  
على قمة البرج. كانت أشبه بالراهبات الشرقيات اللواتي، كل مساء،

ينشذن الاناشيد لتمجيد القمر، و رأى نفسه صاعداً إليها على سلم  
البرج الحلزوني لاخطافها، يتبعه شيلون صارخا به: "سيدي لا تفعل،  
لأن التي تسعى للإتيان بها ناقمة عليك". و حين بلغ القمة وجد إلى  
جانب ليفيا الحواريّ الأشيب اللحية يخاطبه قائلاً: "لا ترفع يدك عليها  
لأنها لي" ثم انطلق بالفتاة على ضوء القمر نحو السماء، فيما راح  
فينكوس يتضرّع إليهما ليضمّاه إليهما.

ثم استيقظ و قد عاد إلى رشده شاخصاً أمامه. كانت جمرات المدفأة  
قد وهنت، لكنها جادت بنور كاف. و كان الجميع يتحلقون حولها  
يتدفؤون. كانت الغرفة باردة، و شاهد فينكوس أبخرة أنفاسهم و هي  
تتصاعد من أفواههم. كان الحواريّ يتوسط الجميع و ليفيا بقربه على  
مقعد خفيض، ثم كلاوسوس فكريسبوس فمريام و أخيراً أرسوس. و  
على مقعد آخر نازاريوس و ابن مريام، و فتى آخر و سيم الطلعة تنسدل  
على كتفيه جدائل شعره السوداء الطويلة.

كان وجه ليفيا باتجاه الحواريّ، كما الاخرون، تصغي إليه، و هو  
يقول شيئاً ما بهدوء. حدّق إليها فينكوس بخشية متوجّسة، لا تقل عما  
يعانيه من حمّى. و لمع في ذهنه أن ما رآه و هو في حالته الهديانّة كان  
حقيقياً، و أن أحدا ما قد جاء من وراء الضفاف النائبة ليأخذ ليفيا من  
بين يديه، و يمضي بها إلى دروب مجهولة. كان واثقاً أيضاً أن الحواريّ  
يتحدث في أمر يخصه، و يتقدم بتوجيهاته ليفصل بينه و بينها، إذ من  
غير المعقول أن يتحدث عن أمور أخرى، و هكذا فقد استجمع كل  
وعيه و قواه ليلتقط ما يقول بطرس.

لكن كان مخطئاً جداً. لأن الحواريّ كان يتحدث عن المسيح مرة  
أخرى. فكر فينكوس:

- إنهم يحيون في هذا الاسم فقط.

أما الحواريّ فكان يروي قصة القبض على المسيح:

- جاءت مجموعة من الجند برفقة خدام الكهنة، ليقبضوا عليه. حين سألهم المخلص عن تبحثون أجابوا: "عن عيسى الناصريّ" لكن حين قال لهم "أنا هو". ذهلوا أمامه و لم يجرؤوا أن يرفعوا أيديهم عليه، و لم يقبضوا عليه الا بعد أن سالوه للمرة الثانية.

هنا توقف الحواريّ عن الكلام، ثم مد يده نحو النار و تابع يقول:

كانت ليلة باردة كهذه الليلة الان، لكن قلبي صار يغلي، فامتشقت سيفي للدفاع عنه، و جدعت أذن خادم كبير الكهنة. كان بوسعي أن أستمر في دفاعي و أذود عنه، لكنه ناداني قائلاً: " أرجع سيفك إلى غمده، فالكأس التي أعطانيها أبي كيف لا أشربها؟ " ثم أمسكوا به و قي دوه.

هنا صمت الحواريّ دافنا رأسه بيديه محاولاً الحد من تدفق ذاكرته قبل متابعة حديثه. لكن أرسوس و قد فرغ صبره، قام يتدبر أمر الموقد بمحرك معدني جعل النار تنثر شررها الذهبي، و تزداد اضطراباً. ثم عاد و جلس في مكانه. و صاح:

- ليت شيئاً آخر قد حصل، يا ويلاه!

لكن سرعان ما كف عن الكلام، بعد أن أغلقت ليفيا فمه بأصابعها، فصار يلهث لهاثاً مسموعاً يشير إلى غضب داخلي عنيف، و كأنه يقول للحواري لو أنه كان هناك لأبلى على نحو مختلف. و لما حصل ما حصل. لكنه لم يستطع حبس دموعه.

و بعد قليل أبعث الحواريّ يديه عن وجهه، و تابع الحديث. لكن

فينكوس كان قد غرق مجدداً في حلمه الهذياني. رأى نفسه على ضفة البحيرة التي وقف عليها المسيح. و وجد نفسه في قارب تلطمه الامواج، و يحاول كثيرون أن يلحقوا به سباحة في الماء، كان بعض منهم يرفع يديه طلباً للنجدة. خاف فينكوس حين لاحظ أن القارب من الصعب أن يتسع لكل هؤلاء، و إذا ما صعدوا اليه، لا بد أن ينقلب بهم و يغرقوا جميعاً. لكن ليفيا طمأنته مشيرة إلى بقعة من الضياء ناحية الضفة الاخرى. نظر حيث أشارت فوجد بطرس يقود سفينة الانقاذ التي كانت تقترب منهم شيئاً فشيئاً، فيزداد الضياء شدة. كانت الأمواج قد بدأت تخمد حتى تلاشت تماماً، و تهاوى القارب فوق سطح الماء حتى بلغ الشاطئ الرملي بأمان. هنا مدت ليفيا يدها و نادته: " تعال معي ". و قادته نحو هالة الضياء.

أفاق فينكوس ثانية. لكنه لم يستعد وعيه على الفور. لأن صور الحلم كانت تتلاشى بطيئة. و شعر لوهلة أنه ما يزال على ضفة البحيرة، يحيط به جمع غفير. و حين راح يبحث بينهم عن بترونيوس، استغرب عدم وجوده هناك. كان الجميع قد انفضوا من حول المدفأة التي شعت نارها ضوءاً شديداً في الغرفة. و حين استعاد وعيه تماماً، لمح ليفيا جالسة قرب سريره.

انتعشت روحه لمرآها. تذكر أن الفتاة قد أمضت ليلتها الفاتئة في الأستريانوم، و رغم ذلك لم تفارقه طوال اليوم لتسهر على العناية به، و ها هي الان، و قد انفض الجميع ليرتاحوا، تقبع وحيدة إلى جانبه. كان التعب باديا عليها، و عيناها مغمضتان. لم يدر فينكوس إن كانت نائمة أم مستغرقة في أفكارها. أمعن النظر في وجهها و جفنيها المغمضين، و يديها المعقودتين على صدرها. و راودت رأسه الوثني الفكرة التالية:

إلى جانب ذلك الجمال الإغريقي و الروماني الفائق، ثمّة في هذا العالم جمال فتان آخر بالغ النقاء لكنه مشبع بالروح.

لم يصل به الأمر أن ينعته بالجمال المسيحي، لكن إذا ما فكر بليفيا لم يستطع أن يفصلها عن التعاليم التي تؤمن بها. حتى أنه كان مدركا أن ليفيا، بعد كل ما سبب لها من أذى، قد بقيت إلى جانبه بدافع من دينها الذي يأمرها بذلك. و بقدر ما أذهلته هذه الفكرة و جعلته ينظر بإعجاب إلى هذا المعتقد، إلا أنها أزعجته. كان يتمنى على ليفيا أن يكون دافعها حبها له لجاذبيّة طلعتة، و عينيه، و جمال جسمه، أي للسبب ذاته الذي جعل أذرع النساء الإغريقيات و الرومانيات البيضاء تلتف لاحتضانه.

لكن سرعان ما خطر له أن ليفيا لو كانت تشبه تلك النساء، لما أثارت إعجابه. ما الذي أثاره إذن؟ ما الذي أثار فيه هذا الجديد من الأحاسيس و المشاعر الغريبة كل الغرابة عن الحياة التي عاشها حتى الآن.

في أثناء ذلك فتحت ليفيا عينيهما، و حين رأت أنه ينظر إليها، تقدمت نحوه و قالت:

- أنا إلى جانبك.

بينما كان جوابه:

- رأيت طيفك في منامي.

في اليوم التالي أفاق مضعضعاً واهن الجسد، لكن ذهنه كان نقياً متماسكاً بعد أن فارقتة الحمى. شعر أن وشوشة ما توقظه، لكن حين فتح عينيه لم يجد ليفيا إلى جانبه. لمح أرسوس وحيداً يجلس قرب المدفأة، يبحث في رمادها عن جمرات. وحين عثر على واحدة، راح يوقدها بنفخات لا تشبه الانفاس، بل كور الحدادة. خطر له أن هذا الرجل قضى أمس على كروتون فقال في نفسه:

- حمداً لمركور يوس أنه لم يدق عنقي. لو كان كل الليفيوين مثله لأوقعوا فيالق الدانوب في مصاعب لا تحمد عقباها.

و صاح بصوت مسموع:

- هيه، أيها العبد!

سحب أرسوس رأسه عن الموقد، ابتسم و أجاب على نحو ودود:  
- عافاك الله، يا سيدي. يوماً طيباً! أرجو أن تكون في عافية، لكني إنسان حر، و لست عبداً.

كان بود فينكوس أن يكلم أرسوس و يستفسر منه عن بلد ليفيا، لذلك فقد وقع ما سمعه من أرسوس موقعا طيباً في نفسه، فالتحدث مع شخص حر، و إن كان بسيطاً من العامة، لا يقلل من مكانته الرومانية، و لا يتعرض لصيته الذائع، كما لو كان يحدث عبداً لا يعترف بإنسانيته قانون أو عرف.

سأله:

- الست من أتباع عائلة اولوش؟

- لا يا سيدي. أنا أخدم كالينا كما كنت أخدم أمها، لكن بدافع ذاتي مني.

قال هذا، و دس وجهه ثانيّة في الموقد، ينفخ جماره بعد أن كان وضع فوقها بعضا من الاخشاب، لكنه سرعان ما أخرجه ليقول:

- عندنا لا وجود للعبيد.

لكن فينكوس سأله:

- أين ليفيا؟

- لقد خرجت. أنا سأحضر لك الفطور، يا سيدي. لقد بقيت إلى جانبك طوال الليلة الفائتة.

- لم لم تقف بدلا منها.

- هي من أراد ذلك، و ما علي الا الطاعة.

هنا تجهمت عيناه. و أضاف بعد قليل:

- لو أنني لا أطيعها، لما كنت، يا سيدي، على قيد الحياة.

- و هل يؤسفك أنك لم تقتلني.

- لا يا سيدي، المسيح لا يريدنا أن نقتل.

- و كروتون؟

- ما كان ممكنا على نحو آخر.

غمغم أرسوس، وهو ينظر إلى يده التي حافظت على ميزتها الهمجية، و لو كانت روحه قد اعتنقت الصليب.

و قرفص يحدق في المدفأة مستغرقا في التفكير إلى حين، ثم قال:

- أنت السبب يا سيدي. لماذا رفعت يدك على ابنة الملك؟

استيقظت كبرياء فينكوس للوهلة الاولى. كيف لفلاح و بربري أن يجروا و يكلمه بكل هذه الثقة، لا بل و يسائله كذلك. كظم غيظه، و ابتلع الالهانة الموجهة اليه، لأن رغبته كانت تكمن في معرفة تفاصيل معينة عن حياة ليفيا.

ما إن استعاد هدوءه، حتى بدأ يسأل أرسوس عن حرب الليفيين ضد فانيوس و السوفوسيين. كان أرسوس يجيبه بسعادة لكن دون أن ينبئه بأي جديد عن هذه الحرب التي أفاض أولوس بلاوتيوس في الحديث عنها. لم يسهم أرسوس في الحرب، لأنه أوكل باصطحاب النساء الرهينات إلى معسكر أتيلوس هيستر. و كل ما عرفه أن الليفيين في نهاية المطاف قد سحقوا السوفوسيين و الياسيغين، لكن قائدهم و ملكهم قد سقطا بسهم يازغي. و سرعان ما جاءهم النبأ أن السمنونيين قد أشعلوا أطراف الغابات، فكان منهم أن عادوا حالا لينتقموا لما لحق بهم من أذى، فبقي الرهائن لدى أتيلوس هيستر، الذي أكرم الملوك، و عاملهم باحترام لائق. و فيما بعد توفيت أم ليفيا. لم يدر القائد الروماني ماذا يفعل بالطفلة. أراد أرسوس أن يعود بها إلى بلدها، لكن طريق العودة كان خطرا بسبب الحيوانات المفترسة، و القبائل المتوحشة. و حين جاء نبأ أن لدى بومبونيوس ممثلي سفارة ليفيين يمكن أن تقدم المساعدة، أرسلهم أتيلوس اليه. و حين وصلوا تبين عدم صحة النبأ. و



هكذا ظلوا في المعسكر، حتى اصطحبهم بومبونيوس إلى روما و هناك  
سلمّ الطفلة لبومبونيا غراتسينا.

بقيت بعض التفاصيل الصغيرة التي لم يسمعها فينكوس في هذه  
المحادثة، و لكنه كان بالغ السعادة من كلام أرسوس، الذي أكد،  
كشاهد مقرب، أن ليفيا تنحدر من سلالة ملكيّة. و على هذا الأساس  
فقد عوملت في بلاط القيصر كابنة ملك شأنها شأن كل فتيات العائلات  
الراقية، خاصة و أن الشعب الذي نصب والدها ملكا عليه لم يشن  
حربا على الرومان، رغم أنه شعب بربري يمكن أن يشكل على روما  
خطراً كبيراً، لأن أعداد مقاتليه كبيرة، لا تحصى.

و لقد قوى أرسوس هذا الرأي، فعندما سأله فينكوس عن الليفيين  
أجاب:

- نحن نعيش في الغابات في أراضٍ شاسعة لا حد لها، يقطنها أعداد  
كبيرة من البشر. لدينا قلاع مبنية من الخشب تحتوي على ثروات هائلة،  
لأن كل ما يغنمه السمنونيون و الماركومنيون في حروبهم، نقوم نحن  
بالسطو عليه أما هم فلا يفكرون يوماً بغزونا، و تقتصر أفعالهم على  
حرق الغابات. نحن لا نخشاهم ولا نخشى قيصر روما.

أجاب فينكوس بفجاجة:

- لقد جعلت الالهة من الرومان أسياذ الأرض.

فرد أرسوس ببساطة:

- الآلهة أرواح شريرة. و حيث لا وجود للرومان، لا وجود لسلطة  
رومانيّة.

سوى وضع النار، و هو يقول لنفسه:

- حين القيصر استحضر كالينا إلى بلاطه، و ظننت أنه سيلحق بها أذية، أردت أن أقصد الغابات لأحضر الليفويين لنجدة الفتاة الملكية. كان الليفويون سيستجيبون، و يندفعون باتجاه الدانوب، فهم شعب طيب، لكنه بدائي. كنت سأخبرهم، على الاقل، " بالنبا المبارك " لم يسمعوا بأمر المسيح لأنه ولد في منطقة بعيدة، هو يعرف أكثر مني، أين مكانها في العالم. لكن لو صادف و كان عندنا في الغابة، لما سمحنا بموته الاليم، و كنا أنشأنا الطفل أجمل تنشئة، فلا يشعر بيننا بالعوز، لأن كل ما سنغنمه من السوفوسيين و الكومانيين سيكون من نصيبه ليحظى بالراحة و رغد العيش.

في أثناء حديثه هذا، كان قد وضع القدر المليء بحساء النيذ المعد لفظور فينكوس، فوق الموقد، ثم سكت. و ظلت أفكاره، بالطبع، تطوف في الغابات الليفوية، حتى جاش الحساء فوق النار، فسكبه في صحن واسع، و حين ابتعد على نحو مناسب، خاطب فينكوس قائلاً:

- ينصحك كلاوسوس، يا سيدي، أن تخفف من حركة حتى يدك السليمة، و أمرتني كالينا بأن أطعمك بنفسي. ليفيا أمرت بذلك! لا رد على ذلك. لم يخطر له أن يقاوم إرادة ليفيا، و كأنها أصبحت ابنة القيصر، أو إحدى الالهات. فلم ينبس بكلمة. في حين جلس أرسوس إلى جانب سريره، و بعناية فائقة، و ابتسامة سمحة تجلّت في عينيه الزرقاوين، قرب أرسوس صحن الحساء من فم فينكوس الذي لم تصدق عيناه ما تريانه. و للمرة الاولى في حياته راح يفكر فيما يمكن أن يدور في خلد مثل هذا الفلاح البسيط، الخادم البربري.

ما إن بدأ أرسوس بإطعام الشاب حتى بان وجه ليفيا الرقيق من وراء الستارة. و بادرت بالقول:

- سأساعدك.

و سرعان ما حضرت قادمة برداء نومها الذي يغطي صدرها بالكامل، و كان شعرها مرخيا. اشتد خفقان قلب فينكوس لمآها، و أبدى نوعا من العتب لأنها لم تهجع بعد إلى النوم، لكن الفتاة أجابته ضاحكة:

- كنت أستعد للنوم، لكي جئت أساعد أرسوس.

وراحت تطعمه. أخرج الشاب ذلك، لكنه كان في غاية السعادة. حين انحنت الفتاة فوقه، أحس بالدفء المتدفق من جسدها، و كان شعرها قد انسدل على صدره، و في غمرة ارتبائه و الرغبة التي انتشرت في كيانه، شعر أيضاً: هي ذي تلك الفتاة الأغلى في الكون و المعبودة فوق الجميع. فيما سبق كان يشتهيها و لا شيء آخر، لكنه بات الآن يحبها من كل جوارحه. كانت الأنانية العمياء هي ما تستحوذ على مشاعره، لكن الان بدأ يوجه عنايته نحو ليفيا.

أوضح بعد قليل أنه غير راغب بالمزيد من الحساء. و بعد أن حظي بمتعة لا تفوقها متعة في حضور ليفيا إلى جانبه، و تأمله إياها، خاطبها قائلاً:

- كفى. اخلدي إلى النوم، يا ليفياي الربانية.

فأجابت الفتاة:

- لا تدعني هكذا. ليس جائزاً أن اسمع هذا.

لكنها ابتسمت، ثم قالت إن النعاس قد فارق جفنيها، و إنها لا تشعر بالتعب، و هي لن تعود إلى النوم حتى يرجع كلاوسوس. كان فينيكوس يصغي إلى جرس كلامها الموسيقي، بقلب خفاق، و امتنان لم يدر كيف سيفصح عنه، فقال بعد لحظات:

- ليفيا. لم أكن أعرفك قبل الان. لكنني أدركت الان أنني أردت الحصول عليك بطريقة خاطئة. لذلك أقول لك الان: اذهبي إلى بومبونيا، وكوني على ثقة أن أحدا لن يمسك بأذى.

انقبض وجه الفتاة:

- سأكون سعيدة، إذا ما تمكنت من رؤيتها من بعيد، لكن ليس بوسعي الان أن أعود إليها.

فسألها فينيكوس مستغربا:

- لماذا؟

- نحن المسيحيين، نعرف عن طريق أكتي ما يحصل في البالاتينوس. ما زلت لا أدري إن كان القيصر قد استدعى أولوس و بومبونيا إلى قصره لاعتقاده بأنهما ضالعان في قصة هروبي، وهل هد دهما بسبب ذلك؟ ومن حسن الحظ أن أولوس كان بمقدوره أن يقول له: "تعلم يا سيدي أنني لا أكذب، وأقسم أنني لم أساعدها على الهروب" ولا تدري ماذا حصل بعد ذلك. هل صدقه القيصر؟ ونسي الحادثة. تصور أنني لا أكتب لأمي عن مكان وجودي، لكي تظل صادقة في قسمها حين يطلب منها معرفة أين أقيم. لعلك تتفهم مسألة هي أننا لا نكذب حتى لو تعلق الأمر بحياتنا. هذا هو ديننا، ونريد أن نخضع قلوبنا لتنسجم معه. لم أر بومبونيا منذ أن غادرت منزلها. أما هي فقد أبلغها جار بعيد أنني ما زلت حيّة، وفي أمان.

باغتها حين شديد، فامتلات عيناها بالدموع لكنها سرعان ما هدأت لتقول:

- أعلم أن بومبونيا مشتاقة إلي كثيراً، لكننا نملك من العزاء والمواساة ما ليس لدى الآخرين.

فأجاب فينيكوس:

- أجل عزائكم هو المسيح، لكنني لا أستطيع أن أفهم هذا الأمر.

- انظر الينا على أن لا الم لدينا ولا معاناة. وحتى لو وجدنا فسيستحيلان إلى سعادة. أما الموت الذي تعتبرونه نهاية للحياة، فهو بداية الحياة بالنسبة لنا. سعادة من درجة أدنى، استحوطت إلى درجة أعلى. سعادة مشوبة بقليل من الطمأنينة استحوطت إلى سعادة كلها طمأنينة، إلى سعادة أبدية. تمنع في هذا الدين الذي يتطلب منا أن نسامح حتى أعداءنا، ويحرم الكذب، وينقي نفوسنا من الغضب، ويعدنا، بعد الممات، بسعادة لا حدود لها.

- سمعت كل هذا في الأستريانوم، ورأيت كيف عاملتم شيلون. حين أفكر بذلك، أظن أنني في حلم، ولا أجرو أن أصدق أذني وعيني. لكن الان أجيبني عن سؤال آخر:

هل أنت سعيدة؟

أجابت ليفيا قائلة:

- سعيدة! أنا أو من بالمسيح، إذن لا يمكن أن أكون تعيسة، وبائسة.

رمقها فينيكوس وكان ما تقوله قد تخطى كل حد للمفاهيم الانسانية.

- الا ترغبين في العودة إلى بومبونيا؟

- أحبها من كل قلبي، وأعود إليها إذا شاء الله أن أعود.

- إذن افعلي ذلك، وأقسم لك بالهتي أنني لن أرفع يدي عليك.

فكرت ليفيا قليلا ثم قالت:

- لا. لن أسبب المخاطر لأحبائي. القيصر لا يحب عائلة بلاوتوس. وإذا ما عدت... سينتشر النبأ في روما عن طريق الأرقاء، وتضج به المدينة، حتى يصل إلى نيرون. وسوف يقوم باتهام عائلة أولوس، وسيعمد على الأقل إلى إبعادي عنها من جديد.

أطبق فينيكوس جفنيه موافقا:

- حقا قد يحصل ذلك. قد يعمد إلى إبعادك ليفرض مشيئته. صحيح أنه قد نسي أمرك، وربما لم يشأ أن يعير الموضوع أهمية، لأنه لم ينعكس عليه، بل علي أنا. لكن قد يبعذك عن العائلة ويأتي بك الي. وعندها سأعيدك إلى بمبونيا.

فسالته ليفيا بحزن:

- فينيكوس، هل ترغب في رؤيتي مجدداً في البلاتينوس؟

ضغط الشاب على أسنانه، وأجاب:

- لا. الحق معك. حماقة! لا!

وبغته، كأنما شاهد هوة سحيقة تنشق أمامه. كان بترونيوس فينيكوس قائدا عسكريا وإنسانا عظيما ذا سطوة، لكن فوق كل ما يتمتع به من عظمة كان ثمة شخص آخر يفوقه عظمة وجنونا بحيث لا يمكن استشفاف إرادته وسوء نواياه مسبقا. المسيحيون وخدمهم من كان بمقدورهم الا يخافوه، والا يحسبوا له حسابا، لأن الالم والمعاناة،

وحتى الموت، أمور لا تعني لهم شيئاً. الجميع ما عداهم كانوا يرتعدون منه. صاحب سطوه ونفوذ لا حدود لهما. ونظراً لأن فينيكوس يدرك ذلك تماماً فما كان بوسعه أن يعيد ليفيا إلى أهلها، لكي لا ينصب جام غضب المجنون عليها، وعلى أولوس و بومبونيا وحتى عليه أيضاً. وكذلك قد لا يستطيع أن يتزوج الفتاة للسبب نفسه. الآن شعر فينيكوس للمرة الأولى أنه ينبغي على العالم إما أن ينبعث من جديد، ويتغير، وإما أن لا معنى لهذه الحياة بتاتا، بعد أن أدرك أيضاً أنه في هذه الأونة حيث كل شيء زائف ومغلف بالخداع والريبة، لا أحد يعرف طعم السعادة سوى المسيحيين. وتضاعف ألمه حين أحسّ أنه أفسد حياته وحياة ليفيا، ولم يعد ثمة من مخرج أمامه، فنطق تحت تأثير تامله:

- أتدريين أنك أكثر سعادة مني؟ أنت في فقرك، وفي هذه الغرقة بين الناس البسطاء، كان لك دينك، ولك مسيحك، أما أن فلا أحد لي سواك، وحين أضعتك كنت كالمسول الذي لا مأوى له ولا لقمة. أنت كنزي الأعلى. بحثت عنك لأني لا أقوى على الحياة بدونك. امتنعت عن المآدب، والنوم. ولولا أمني بأني سأجدك لطعنت نفسي. أخشى الموت فخافة إلا أراك، صدقيني إذا ما قلت لك أنني لا أحتمل الحياة بدونك. والامل بلقائك ثابته هو ما صان روحي من العطب والتمزق. أتذكرين ما جرى بيننا من أحاديث في منزل أولوس؟ رسمت لي سمكة في الرمال، ولم أدرك ما معنى ذلك. أتذكرين كيف تقاذفنا الكرة؟ حينها كنت قد أحبيتك أكثر من حياتي، وقد خالجتك الظن بأني أحبك: جاء أولوس، وأخافنا بليتنا، وقطع علينا الحديث. قالت بومبونيا لبترونيوس في أثناء الوداع أن الله قدير، ورحيم لكننا لم ندرك أن الهكم المسيح. سأحبه إذا ما أعطانيك. اليس هو اله العبيد، والغرباء، والبؤساء. تجلسين الآن بقربي ولا تفكرين إلا به. فكري بي أيضاً، فإن لم تفعلي سأكرهه. بالنسبة لي أنت الإلهة الوحيدة. طوبي

لأمك وأبيك، طوبي للأرض التي أنجبتك. أود لو أعانق قدميك،  
وأصلي متعبدا واهبا نفسي لك. أود لو أنحني أمامك متضرعا : يا  
ليفياي الالهية. أتدريين كم أحبك...

ومرر راحته يمسح جبينه الشاحب، وأطبق عينيه. لا يقبل الروادع،  
ولا يقف عندها، لا في الغضب، ولا في الحب. تكلم باندفاع كأنما لا  
يستطيع السيطرة على نفسه، فلا يحسب حسابا لما يقوله، ولا لما يديه  
من مشاعر. لكن ما يتفوه به كان صادقا نابعا من أعماق روحه. واضح  
أن قلبه كان طافحا بمزيج من الألم والذهول، والرغبة، والتعب، فانفجر  
الآن فيضا منداحا من الكلام. ليفيا رأت في كلامه إهانة، لكن قلبها  
خفق بشدة حتى ضغط على صدرها تحت الرداء، لم تستطع التغلب  
على ما انتابها من شفقة تجاه الشاب ودمعائه. لقد حركت مشاعرها  
هذه الطريقة المحترمة التي تحدث بها الشاب. أحست بحبه لها حتى  
درجة العبادة، وشعرت أن هذا الشخص الخطير، الشديد البأس بات  
خائما بأصبعها، وصار لها بكليته روحا وجسدا، وأن سعادة ملموسة  
قد بدأت تشوب ما يتمتع به من سلطان، وما يعتريه من وضاعة. تبخرت  
ذكرياتها للحظة، ورجع فينيكوس ليكون في نظرها من جديد، ذلك  
الشاب الرائع الجميل الأشبه بإله وثني، الذي حدثها عن الحب في بيت  
عائلة أولوس، وأيقظ قلبها الطفولي من نومه، وما تزال تشعر بقبلته  
مطبوعة فوق شفثتها، والذي خلصها أرسوس يوم مأدبة القصر، من  
أحضانها كأنما ينتشلها من الحريق. لقد رآته الآن، بما يبدو عليه من تألم  
ولهفة، وبجبينه الشاحب، وعينيه المتضرعتين، وبجروحه، وكسوره،  
وبإحساسه بالانكسار العاطفي، وتواضعه وقبوله الايمان، كما تود  
وترغب أن تراه، ولقد أحبتة من مجامح قلبها، وهو الآن أعلى عليها  
من أي وقت مضى.



وأحست فجأة أنه يمكن أن تجيء اللحظة التي ستعصف بها، وتجعلها تحب ذلك الشاب، فانتابها شعور، كان قد حصل لفينكوس قبلها، أنها تقف على حافة هاوية. ولكن هذا غادرت منزل أولوس؟ أهذه هي المنجاة التي بحثت عنها في هروبها؟ ثم من هو فينكوس؟ جندي أوغوستياني لدى نيرون، وأحد رجالات البلاط الذين يشاركون في حفلاته اللا أخلاقية، وأكبر دليل على ذلك ما حصل معها في المأدبة الأخيرة، ويوم المعابد مع الآخرين ليقدم القرابين لالهة موصومة بالعار، قد لا يؤمن بها ولكنه يقدم لها الاحترام. لعله تبع الفتاة ليتخذ منها عبدة، وعشيقة، ويغرقها في عالم قدر من الترف، والخطيئة، والعار، في تحدٍ سافر للسماء. صحيح أنه يبدو الآن قد تغير، لكنه قال بعظمة لسانه إذا ما أحببت المسيح أكثر منه، فسوف يمقت حتى المسيح. هنا شعرت ليفيا أن مجرد تفكيرها في حب خارج حبها للمسيح يعد خطيئة في حق المسيح وتلامذته. وحين رأت أن قلبها يمكن أن تخالجه مشاعر ورغبات أخرى، استبد بها الجزع.

في هذه اللحظة من التمزق الداخلي جاء كلاوسوس ليعاين المريض ويعتني بضمادة. ارتسمت على وجه فينيكوس علامات غير خفية من الغضب وفراغ الصبر. بات عصبيًا لمقاطعة حديثه مع ليفيا، وراح يجيب على أسئلة كلاوسوس بازدراء. وسرعان ما استجمع قواه ليحاكم الأمور فإذا ما كانت ليفيا تبني على بعض كلمات سمعها في الأستريانوم، وتظن أن تؤثر في طبيعة الشاب المطواعة، فسوف يحسم أمره الآن، ويتعد عن هذا المعتقد الخاطيء. لقد تغير فيما يخصها فقط. وما عدا هذا الشعور تجاهها فقد بقي هو صاحب القلب الذئبي الروماني الأناني الفج غير المستعد لتقبل التعاليم المسيحية الوديدة، ولا حتى للشكر.

أخيراً انصرفت ليفيا من جانبه يعتصرها التفكير والقلق. منذ مدة وجيزة كانت تصلي، وتمنح للمسيح قلبها المطمئن النقي كالبللور. لكن الاطمئنان استحال إلى قلق. لقد عاشت الدودة السامة فساداً في نسغ الزهرة، وهي تنخر الان فيها، حتى النوم لم يمنحها الراحة، رغم أنها لم تعرفه لليلتين متتاليتين. حلمت أنهم كانوا في الأستريانوم فجاءهم نيرون على رأس نساء باخوسيات وجند ومجالدين، يقتحم بعربته جماهير المسيحيين، ثم تقدم منها قينيكوس وأخذها من ذراعها وأدخلها عربته ووشوشها ضاغطاً على صدرها: "تعالى معنا"

منذ ذلك الوقت كان حضورها في الغرفة نادرا، وإذا ما حضرت كان يندر أن تقترب من سرير فينيكوس. رآته وهو يتابع حركاتها بنظراته المتوسلة آملا أن تنطق بأية كلمة رحيمة تحد من معاناته، دون أن يجروا على الشكوى مخافة إجفالتها وإعراضها عنه، وهي منبع سعادته، وبلسم جراحه الوحيد. سرعان ما اكتشفت أنها كلما تقربت منه أكثر ستفاقم شفقتها عليه، وانتابتها مشاعر أكثر رقة تجاه الشاب. جافتها السكينة. أحيانا كانت تواسي نفسها بأن عليها ان تبقى دائما إلى جانبه. أولاً لأن الوصيّة الالهية تأمرها أن تقابل السيئة بالحسنة. وثانياً لأن الحديث المباشر معه قد يشد الشاب إلى هذه الوصايا. لكن وجدانها أجابها في الحال: هذا كله خداع لأن ما يشدها إلى فينيكوس ليس سوى سحر الشاب وحبه. وهكذا ظلت الفتاة تعيش في حيرة وتمزق تفاقما يوماً بعد يوم، حتى اعتادت على حالتها هذه. فكان عليها أن تعترف لنفسها أنه كلما مر يوم اشتد شوقها إلى رؤيته، وسماع صوته، وباتت تبذل كثيراً من الجهد حتى تبارح مكانها قرب سريره. حين كانت تدنو فيه، ويتوهج وجه الشاب احمراراً كانت السعادة تغمرها. وذات يوم دمعت عيناه، وكم ودت لو تجفف دموعه بقبلاتها. لكنها ارتعدت للفكرة، وشعرت أنها تحتقر نفسها، فظلت تبكي طوال الليل.

أما الشاب فكان صبورا، وكأنه قد أقسم على ألا يفقد قدرته على الصبر. وإذا ما لمعت عيناه، ذات مرة، تعبيرا عن فراغ صبره، كان يحدث ذلك رغما عنه، أو نتيجة لغضب تملكه. لكن سرعان ما

كان يكبحه، ويرمق الفتاة بنظرة وديعة هادئة، كأنما يريد أن يعتذر منها. وكان ذلك عامل جذب إضافي نحوه. لم تشعر يوماً أنها محبوبة كل هذا القدر. وحين كانت تفكر في ذلك كانت تشعر بالذنب، والسعادة معاً. واقع الحال أن فينكوس قد تغير. كان يبدو ذلك في محادثاته مع كلاوسوس التي قل فيها التباهي والتبجح. غالباً ما دار في ذهنه أن هذا الطبيب العبد المسكين، الغريب، و ميريام العجوز التي اهتمت بعلاجه، و كريسبوس الذي رآه يستغرق في الصلاة، هم جميعاً في نهاية المطاف، بشر. ومع مرور الوقت نظر إلى أرسوس بعين الحب، وصار يحدثه دون انقطاع طوال اليوم لأن حديثهما كان يدور حول ليفيا، وكانت جعبة العملاق لا تخلو من الحوادث، فضلاً عن ذلك أن أرسوس كان يقدم خدماته مهما صغرت أو كبرت دون أي تدمير. حتى أنه بدأ يتعلق به. لكن ليفيا كانت في نظر الشاب نوعاً مختلفاً تماماً، وأرفع مرتبة بكثير من هؤلاء المحيطين به كلهم. ومن الآن فصاعداً بدأ يرى فقراء الناس والبسطاء منهم بعين أكثر جدية، كما لم يفعل من ذي قبل. واكتشف فيهم صفات جديدة بالانتباه، لم يخطر له أنها يمكن أن توجد أساساً.

وحده نازاريوس لم يكن مطاقاً بالنسبة له، لأنه ظن أن هذا الشاب قد بلغ حداً من الوقاحة والجرأة جعلاه يقع في حب ليفيا. كظم غيظه طويلاً قبل أن يعبر عما يعتلج في نفسه، ولكن حين أقدم الشاب وأهدى ليفيا شيئاً طار صواب فينكوس واستيقظت فيه بذرة العصبية التي تنظر إلى الشعب الغريب الذي ينتمي إليه الشاب بعين الخسة، ولا تراه إلا دودة من أتفه أنواع الدود. وبسماعه ليفيا شكره على هديته، شحب تماماً، وما إن خرج الشاب ليحضر الماء حتى بادرها بالقول:

- كيف تحتملين يا ليفيا أن يحضر لك الهدايا؟ الا تعلمين أن اليونانيين ينعنون أبناء هذا الشعب بالكلاب اليهودية؟

- لا أدري بماذا ينعته اليونانيون، لكنني أعرف أن نازاريوس مسيحي، وهو أخ لي.

أجابت ليفيا ورمقته بنظرة استغراب وملامة، تريد بها أن تقول أنها باتت تترفع عن مثل هذه الاعتبارات. فيما ضغط فينكوس على أسنانه بدلا من أن يكون في ميسوره إصدار الاوامر بجلد هذا النوع من الاخوة حتى الموت، أو إرسألهم إلى إحدى قراه في سيسيليا للعمل في الحقول. كبح غيظه ولم يتفوه بكلمة الا بعد حين ليقول:

- عفوا ليفيا! لكنك في نظري ابنة الملك، والابنة المتبناه لدى عائلة أولوس.

كان قد استجمع قوة كافية مكنته، فور ظهور نازاريوس ثانية في الغرفة، أن يعده، لمجرد عودته إلى الفيلا، بتقديم طاووسين من مجموعة الطيور التي تعجّ بها حديقته. أدركت ليفيا أن ما بيديه فينكوس من إنكار للذات، وما يقدمه من تنازلات، إنما يصب في مصلحتها، ويعزز من شعورها بالفوز، لكنه يزيدا تقربا منه، ويجعل قلبها أشد تعلقا به. والحقيقة كان ما يوليه فينكوس من اهتمام بأمر نازاريوس أقل بكثير مما قد تتصوره ليفيا. إذ كيف يمكن أن يكون ابن مريم غريما وهو في نظره لا يتعدى كونه مجرد جرو صغير، وفي أفضل الاحوال مجرد ولد صغير، إذا ما أحب ليفيا فحبها لها حب غير واع، ويندرج تحت عنوان تعلق خادم بسيدته.

كان يمكن أن ينفجر في وجهه، ويقحم نفسه في معركة كبرى، وإن

ضمنياً، لكنه كف عن ذلك واضعاً في الحسبان، باسم المسيح، احترام من هو بينهم. راودته أفكار غريبة شتى. أليس هذا نابعاً من تعاليم توأم بها ليفيا؟ فهو إذن على استعداد لتقبلها. وكلما مر الوقت وتعافت صحته صار يسترجع شريط الوقائع ويستجلي مجمل الأفكار التي استجدت في ذهنه، منذ ليلة الأستريانوم. راح يتأمل في القوة الفائقة لهذه التعاليم، ومدى قدرتها على النفاذ بعمق في الروح الانسانية، وإعادة تشكيلها. أدرك أنها تتضمن شيئاً استثنائياً لم يكن قائماً في العالم من ذي قبل، وشعر أنه فيما لو قدر لهذا المعتقد أن ينتشر في أنحاء المعمورة، بما يحمله من محبة وسماحة، فسيفتح الباب أمام عصر، لا يسود فيه جو بتر. انتصبت أمام فينكوس مسألة لا يجد لها حلاً. لقد رأى أن هذا الدين على درجة عالية من التناقض مع النظام السائد للأشياء، ومن المستحيل تحقيقه على أرض الواقع، وكل ما جاء به خبل بخبل، ويختلف عنه أي دين آخر. وفي رأيه أنه قد يكون البشر في روما أو في سائر الكون، بشرأسيين، لكن نظام العالم صالح. وعلى سبيل المثال، لو كان القيصر رجلاً شريفاً، ولم يكن السيناتور منحطاً أخلاقياً، وكان المجتمع مجتمعاً إنسانياً يعيش فيه بشر حقيقيون مثل تراسي مثلاً، فماذا يمكن أن يطلب أكثر من ذلك؟ فما تنعم به روما من أمن، يجعل الامبراطورية الرومانية أمراً حسناً، وفئات الناس فيها مقسمة على نحو سليم وعادل. على النقيض من ذلك، في رأي فينكوس، يأتي هذا الدين ليحطم كل نظام، ويقضي على كل مكانة أعلى، ويمحو كل فرق. ما الذي سيلحق إذن بنفوذ روما وحكومتها؟ هل يمكن أن يتخلى الرومانيون عن سلطتهم، ويعتبرون الشعوب المغلوبة على قدم المساواة معهم؟ لم يستوعب ذهنه كل هذا. إلى جانب ذلك، وفيما يخصه هو، يأتي هذا الدين على عكس كل تصوراته ونظراته وعاداته. لم يكن في ميسوره أن يتصور كيف ستغدو حياته إذا ما تقبل هذا الدين. خشيه،

نظر اليه بإعجاب، لكنه طبيعته بكل بساطة ترفضه. في نهاية المطاف أدرك أن لا شيء يفصله عن ليفيا سوى هذا الدين. وإذا ما فكر بذلك، شعر نحوه ببغض شديد.

لكنه أيقن أن هذا الدين هو الذي منح ليفيا كل هذا الجمال الاستثنائي، الذي ولد في قلبه إضافة إلى الحب، احتراماً، وخارج الشهوة خشوعاً، وتوج ليفيا، في عينيه، على عرش العالم. في مثل هذه الحالة كان يدفعه مزاجه ليحب المسيح من جديد. كان يشعر أنه إما أن يحبه، أو أن يكرهه، ولا إمكانية لموقف حيادي فيه. في هذه الاثناء وكما لو كانت تتجاذبه موجتان متعاكستان، كان متأرجحاً في أفكاره، متأرجحاً في أحاسيسه، فاقداً قدرته على الاختيار، لكنه استجمع قوة ذهنيّة، وحسم أمره وقرّر أن يحترم هذا الإله، ولو لم يستطع أن يستوعبه. أن يحترمه فقط لأنه كان إله ليفيا.

أما ليفيا فقد رأت بجلاء ما يدور في ذهن الشاب، وكيف ترفض طبيعته هذا الدين. وإن كان ذلك يحزنها حتى درجة الموت، فإن شعورها بالشفقة، والمواساة، والامتنان كان يفعل فعله في قلب الفتاة، ليغدو ميّالاً بقوة لا تقهر نحو الشاب لما يديه من احترام ضمني تجاه المسيح. تذكر بومبونيا وأولوس. بالنسبة لبومبونيا كان وجعها الابدئي، ومنبع دموعها الثر الذي لا يجف، فكرة أنها لن تلتقى أولوس بعد مماته ودفنه. لم تدرك ليفيا جيداً إلا الان، هذه المرارة، وهذا الألم. هي التي عثرت على من أحببتها ورعتها، وباتت مهددة بالانفصال عنها إلى الابد. أحيانا كانت تمنّي نفسها بأن فينكوس سيفتح قلبه أمام حقيقة المسيح. لكن شعورها هذا لم يكن ليدوم طويلاً. لقد صارت تعرفه وتفهمه جيداً. فينكوس ومسيحي! مستحيل. لم تستوعب ذلك. فإن كان حتى أولوس الرزين التفكير، لم يصبح كذلك بتأثير من بومبونيا

الحاذقة والناضجة، كيف لفينكوس أن يغدو مسيحياً؟ لا إجابة على ذلك. بل ثمة جواب وحيد لا غير: لا أمل هنالك لكن ولا مهرب كذلك.

لكن ما كان يذهل ليفيا أن كل ما أقدم عليه الشاب لالحاق الأذى بها، صار لا يعينها، وباتت الشفقة هي دافعها الأساسي للتعلق به. أحياناً كانت الرغبة تدفعها لتبوح له بصدق عن مستقبلها القاتم، وحين ذات مرة جلست إلى جانبه قالت له لا حياة خارج الدين المسيحي، فعذل الشاب من اضطجاعه على مرفقه السليم، ومائلاً برأسه نحو حضن الفتاة وقال: "أنت الحياة". شهقت ليفيا وطار صوابها، وارتعشت أوصالها طرباً لسماع ذلك. أمسكت رأس الشاب بكلتا يديهما وحاولت رفعها، واضطرت أن تنحني و تقترب منه أكثر حتى لامست شفتها شعر الشاب، فشعرا للحظة بنشوة الحب الذي لا ينفك يمارس معها لعبة الوصال والفصال.

وأخيراً نهضت ليفيا هاربة، بعد أن شعرت بدوار في الرأس، وبنار تسري في أوصالها. لكن ذلك كان القطرة التي طفحت بها الكأس. لم يكن فينكوس يقدر كم ستكلفه هذه اللحظة السعيدة، من ثمن باهظ، وأحسّت ليفيا أنها في حاجة إلى عون. أمضت الليلة التالية ساهرة مصليّة باكية، لكنها شعرت أنها غير جديرة بالصلاة، وصلاتها غير مستجابة. وفي الصباح الباكر خرجت من غرفة النوم واستدعت كريسيوس إلى الحديقة. وباحث له بكل دواخلها. وسألته أن يسمح لها بمغادرة منزل مريم لأنها باتت لا تثق بنفسها، ولا تقوى على مقاومة حب فينكوس في قلبها. كان كريسيوس عجوزاً صارماً يعيش حماساً دينياً لا هوادة فيه. فاستحسن عزم ليفيا مغادرة منزل مريم، لكنه لا يعثر على كلمات يفصح بها للفتاة عن هذا الحب الآثم حسب تعبيره.



انقبض قلبه، وأحزنته الفكرة: ليفيا هذه وهي التي عهد على رعايتها، هي التي أحبها وغرس في صدرها قوة الايمان، والتي نظر اليها كوردة أزهرت فوق ترابه المعتقد المسيحي، وفاحت عطرا لم يلوث بأية نفحة أرضية، هي ذي الان تفتح صدرها لحب آخر غير الحب السماوي، ليجد مكانا له في قلبها. قبل الآن لم يكن ليظن أن ثمة قلبا في العالم أكثر نقاء وإخلاصا في تمجيد المسيح من قلبها. لقد رغبت أن تمنحه إياه كحبة لؤلؤ، أو حلية، أو تحفة ثمينة من صنع يديها. والان يا للخبية، لقد أصيب بالذهول وطفح قلبه بالمرارة حقاً.

- اذهبي وتضرعي إلى الله أن يصفح عن خطاياك قال بكدر- اهربي قبل أن تتمكن الروح الخبيثة التي أوقعتك بشباكها من تدميرك تماما، وجعلك تجحدين بالمخلص. لأجلك مات الرب على خشبة الصليب، ولأجل خلاص روحك نذر دمه، لكنك مقابل ذلك فضلت حبيبك الذي أراد أن يجعلك ضجيعته. لقد أنقذك الله بأعجوبة من بين يديه، لكنك فتحت قلبك وسيعا أمام الرغبة القدرة، وأحببت ابن القتامة والظلام. من عساه يكون؟ إنه صديق عدو المسيح وخادمه، وشريكه في الشر والمروق، والانحلال. أين سيأخذك إن لم يكن إلى تلك الهوة السديمية حيث يعيش، والتي سيحرقها الرب بنار غضبه؟ أما أنا فأقول: لو أنك مت، وتهدمت جدران البيت على رأسك، ولا تسللت تلك الأفعى إلى صدرك، ونفثت فيه سم رذيلتها.

ثم هداً شيئاً فشيئاً، لأن الإثم الذي ارتكبته ليفيا لم يملاؤه غيظاً وغضباً فحسب، بل شحنه بكل الوان القرف والاحتقار، ليصب كل ذلك دفعة واحدة في مواجهة الطبيعة الانسانية، والانثوية منها على وجه الخصوص. لا فائدة مرجوة. حتى التعاليم المسيحية لم تحفظ هذه المرأة من كونها حواء.

لقد شعرت ليفيا أنها مذنبه، لكن ليس لدرجة الاثم. لا بل أكثر من ذلك فقد اعتقدت أنها بمغادرتها المنزل سوف تتغلب على ما يؤرقها، وتخفف من ذنبها، وأن العجوز كريسبوس، الذي اعتبرته بعد هروبها بمقام أبيها، سوف يكون رحيماً ويشجعها ويشد من أزرها، ويفعمها بالروح.

قال:

- أسلم خيبي وألمي إلى الله. أما أنت فقد خذلت المخلص، لأنك لوّثت روحك بوقوعك في الخطيئة. كان بوسعك أن تهبي نفسك، كوعاء ثمين، للمسيح قائلة: "املاه يا سيدي بالرحمة"! لكنك فضلت أن تقدمي نفسك خادماً للروح الشريرة. سامحك الله وشفع لك: أما أنا، و إلى أن تطردي الافعى من داخلك، أنت بنظري جاحدة. لكنه قطع كلامه، وقد لاحظ أنهما ليسا وحيدين. برز رجلان من بين الفروع أحدهما الحواريّ بطرس، أما الآخر فلم يتميز في الحال، لأن قبعة رداثه كانت تخفي جانباً من وجهه. للوهلة الأولى ظنّ كريسبوس أنه شيلون.

وبسماعهما صوت كريسبوس المرتفع ابتعدا قليلاً، وجلسا فوق مقعد حجري. ولما كشف الآخر عن وجهه النحيل، ورأسه الاصلع، وشعره المجعد الذي يغطي فوديه، وعينه الحمراءوين، وأنفه المعقوف، عرف كريسبوس أنها ملامح بولس الترسوسي.

جثت ليفيا على ركبتيها، وارتمت على قدمي بطرس لا تدري ماذا تفعل.

بادر بطرس إلى القول:

- السلام لأرواحكم.

و حين رأى الطفلة بين قدميه سألها ما الأمر؟ فأجابته كريسبوس شارحاً حاله ما باحت به ليفيا، عن حبها الاثم، وأنها تريد مغادرة بيت ميريام. وأوضح له مقدار الألم الذي لحقته به، لأن روحها قد تخلت عن المسيح، وتبعته رجلاً لطمخ نفسه بمشاعر أرضية، وارتكب كل أنواع الشرور التي يفرق فيها العالم الهمجي، فاستحق غضب السماء. كلما أسهب كريسبوس في كلامه، تمسكت ليفيا على نحو أشد بقدمي الحواريّ كأنما تبحث فيهما عن منجياتها. أو على الأقل تلمس لديها شيئاً من الرحمة.

وبعد أن استمع الحواريّ إلى كل ما قاله كريسبوس، مسح بيده على رأس الفتاة، ثم التفت إلى القس العجوز وقال:

- ألم تسمع يا كريسبوس أن معلّمنا الحبيب قد بارك حب الرجل والمرأة.

اكتفى كريسبوس بالنظر إلى محدّثه، دون أن ينبس بكلمة. فيما استأنف الحواريّ يقول بعد صمت قصير:

- هل تزعم يا كريسبوس أن المسيح الذي سمح لمريم المجدليّة أن تركع عند قدميه، وصفح عن المرأة الخاطئة، سوف يتخلى عن هذه الطفلة الأنقى من نرجسة الحقول.

انتحبت ليفيا وزادت من شدة التصاقها بقدمي بطرس، وقد أيقنت من جدوى لجوئها إليه. فيما رفع الحواريّ وجه الفتاة الغارق بالدموع وخاطبها قائلاً:

- إلى أن يتكشف نور الحقيقة أمام عيني حبيبك، ظلّي معه، شرط ألا يوقعك في الخطيئة، لكن صلّي من أجله، واعلمي أن لا إثم في الحب أبداً أبداً. وأن جزاءك مأمول ما دمت ترغيبين في مقاومة الأرواح الشريرة. لا تحزني، ولا تبكي، لأنني واثق أن رحمة المخلص لن تفارقك، وأن صلواتك مستجابة، وأن الاتراح ستفرج عن أيام البهجة والافراح.

بهذا وضع كلنا راحتيه على رأس الفتاة، وباركها رافعا عينيه نحو السماء، وقد شعت من وجهه طيبة تتجاوز الأرض فيما حاول كريسبوس وقد شعر بالانكسار أن ينقذ نفسه قائلاً :

- ظننت أنها بسماحها للحب الأرضي بارتداد قلبها قد خالقت المسيح...

لكن رد الحواريّ كان على هذا النحو:

- أنا خالفته ثلاث مرات، ورغم ذلك صفح لي، لا بل أوكل إلي العناية بحملانه.

فقال كريسبوس :

- وهناك سبب آخر... هو أن فينكوس أوغستيني.

فأجاب بطرس:

- لقد روّض المسيح أشد الافئدة قساوة. هنا جاء دور بولس الترسوسي الذي لزم الصمت إلى الآن. أشار بأصابعه إلى صدره وقال:

- أنا الذي طاردت العبيد أتباع المسيح، وجلدتهم حتى الموت. وكنت ثقة السيد، فأوكل الي نشر عدالته في أنحاء الأرض. ولقد

نشرتها: في يوديا، وبلاد الإغريق، وفي الجزر، وحتى في هذه المدينة  
الملحدة حين عشت فيها أسيرا. والآن حين دعاني بطرس وهو قدوة  
لي، لأدخل هذا البيت وأحني هذا الرأس الفخور بين قدمي المسيح،  
وأغرس البذرة في هذه التربة الحجرية التي يحولها السيد إلى تربة  
خصبة تعج بالثمار. ثم نهض واقفا. أما كريسبوس في هذه اللحظة  
فقد رأى هذا الانسان المحدود الضئيل الجسد كما هو في حقيقة الأمر،  
ذلك العملاق الذي يحرك العالم ويخضع شعوبا وبلدانا.

من بترونيوس إلى فينكوس.

رفقاً بي لا تقلد في رسائلك الاسبارطيين، ولا يوليوس قيصر. وعلى الأقل إن كان بمقدورك أن تكتب ما كتبه هو: "أتيت، رأيت، فزت" فسوف يتسنى لي أن أفهم مثل هذه العبارة المختصرة. لكن رسالتك لا تعني في النتيجة إلا "أتيت، رأيت، هربت". وبما أن ذلك يتعارض من طبيعتك، وبما أنك جريح، وهذا يعني أن أموراً خطيرة قد حدثت لك، فإن رسالتك في حاجة ماسة إلى مزيد من التوضيح. لم أصدق عيني حين قرأت أن ذلك الليغوي قد قضى على كروتون بمثل تلك البساطة. وهذا يعني أنه يساوي وزنه ذهباً. وأن يكون من رجالات القيصر المفضلين، ذلك بات أمراً يعود إلى مجرد رغبته هو في ذلك. لمجرد عودتي إلى المدينة سأتعرف إليه عن كثب، وسأسبك له تمثالا من البرونز. وسوف يندهش صاحب اللحية الحمراء إذا ما قلت له أن التمثال طبق الاصل عنه. في إيطاليا، واليونان نادرة هي الاجسام الرياضية الحقة. وكذلك في الشرق. أما الجرمانيون فيتميزون بكتلهم الضخمة، لا بقوتهم العضلية. اسأل الليغوي إذا ما كان هو استثناء، أم يكثر أمثاله في بلاده، فقد يخطر لنا ذات يوم أن ننظم مباريات نحتاج فيها إلى أنسب الرجال أجساماً.

لكن حمدا لكل الالهة الشرقيين والغربيين، أنك قد نجوت روحا وجسدا من بين تلك الأيادي. وسبب نجاتك عائد إلى كونك من

الاعيان، ومن عائلة بترونيوس. كل ما حدث معك أذهلني، بدءاً من وجودك في المقبرة مع المسيحيين، ثم طريقة معاملتهم لك، وهروب ليفيا، وأخيراً الحزن والقلق المبتوتين في رسالتك. أوضح لي أكثر، لأن هنالك أموراً كثيرة لم أفهمها. وإن كنت تريد أن أكون صادقاً فأنا لا أفهم المسيحيين، ولا أفهمك أنت ولا أفهم ليفيا. ولا تستغرب مني أنا الذي لا أكثر خارج نفسي إلا بما ندر في هذا العالم أنني كثير الفضول الآن. لقد أثارني كل ما حصل، وهو إذن بدرجة ما يعنيني. اكتب سريعاً، لأنني لا أدري متى سنلتقي على وجه الدقة. صاحب اللحية الحمراء الآن في بنفتوم، وهو راغب أن يتوجه من هناك قاصداً بلاد اليونان، وليس العودة إلى روما. رغم أن تيفالينوس يشير إليه بالعودة، لأن الشعب بات في شوق شديد إليه اقرأ: جرياً وراء العاب السيرك والخبز، كما بات قادراً على البدء بأعمال الشغب. لا أدري ما الذي سيحصل. قد نذهب إلى مصر. يخطر لي أن أحتك على القدوم إلينا لترفه عن نفسك، لكنني أخشى أن لا تلحق وتجدنا هنا. لكن في جميع الأحوال اليس الأفضل لك أن تقصد أملاكك في سيسيليا بدلاً من بقائك الآن في روما. اكتب عن أحوالك بالتفصيل. كانت السماء معك. أتمنى لك صحة جيدة ولا شيء آخر لأني، وقسماً بيولوكس لا أدري ماذا يسعني أن أتمنى لك.

قرأ فينكوس الرسالة، ولم يكن في نيته الرد بادئ الأمر. شعر بعدم جدوى ذلك، إذ لا فائدة لأحد من رده عليها، مادام الرد لن يوضح شيئاً، ولن يحل أمراً. كان عكر المزاج، وشعر أن الحياة بائسة بأكملها. وأحس أن بترونيوس لا يفهمه بأي شكل من الأشكال، وأن شيئاً ما قد حصل وفرقهما عن بعض. حتى أنه لم يستطيع استجماع نفسه. وسرعان ما أحس أنه يعيش في دائرة مفرغة، وأن كل ما أعطى لحياته معنى من المعاني كان شيئاً خرافياً لا وجود له. كأنما قطعت في روحه تلك الأوتار

التي شدته إلى الحياة، ولم تعوض بأخرى. فكرة سفره إلى بنغتموم ولدت في نفسه لذة جيدة في الحياة، لكنها أيقظت فيه خواء عاماً. "لماذا؟ ما الفائدة المرجوة من كل ذلك؟" أسئلة لمعت في ذهنه لأول مرة. ولأول مرة كذلك فكر أن حديثه مع بترونيوس قد يرهقه كثيراً، لما يتمتع به الأخير من دقة وعجرفة في البحث عن العبارات. لكن الوحدة بدأت ترهقه كذلك، بعد أن صار كل معارفه برفقة القيصر في بنغتموم، الأمر الذي أرغمه على البقاء وحيداً، يعجّ رأسه بالافكار، وقلبه بشتى أنواع الاحاسيس التي لا يفهمها. ولكن مرت لحظات كان يشعر فيها أنه لو تحدث مع أحد ما بما يعتمل في نفسه لكان توصل إلى فهم لهواجسه، والتعرّف بما يضطرع في داخله على نحو أفضل. تفاؤل دفعه بعد أيام من الجدل الذاتي أن يتخذ قراراً بالكتابة إلى بترونيوس. ورغم كونه لم يكن واثقاً أنه سوف يرسلها، إلا انه قام بكتابتها على هذا النحو:

"أراك راغباً في أن أسهب لك بالكتابة. لا بأس إذن: لكن لا أدري إن كان بمقدوري أن أكون مفهموماً، لأن أموراً كثيرة أنا نفسي لا أفهمها. كنت قد كتبت لك أنني كنت بين المسيحيين، وكيف عاملوني وعاملوا شيلون. وكيف عاجلوني واعتنوا بي بقلوبهم الطيبة. وكتب لك عن اختفاء ليفيا. لا يا عزيزي، لم يخصوني برعايتهم لأنني من الاعيان. هم لا يقيمون اعتباراً للمثل ذلك. خاصة وأنهم قد صفحوا عن شيلون أيضاً، رغم أنه كان بمقدورهم أن يدفنوه في الحديقة. إنهم بشر لم يسبق أن وجد أمثالهم في العالم. وكذلك دينهم لم يسمع به العالم من قبل. ليس بوسعي أن أقول لك شيئاً آخر. فإذا كان أحد ما يريد أن يحكم عليهم بمقاييسنا سوف يخطئ هدفه. سأقول لك شيئاً: لو أنني عاجلت ذراعي المكسورة في منزلي بين أفراد عائلتي لكنت شعرت براحة أكبر، لكنني لما كنت تلقيت تلك العناية الفائقة التي أولوني إياها وأنا بينهم. واعلم أيضاً أن ليفيا كالأخرين. لو كانت أختي أو زوجتي



لما قدمنا لي كل هذا الحنان. غالباً ما يفيض قلبي بالسعادة حين أفكر أن كل هذا الحنان ناجم عن حالة الحب. وغالباً ما قرأت ذلك في وجهها وسيمائها، وحينئذ تتضاعف سعادتي عن أي وقت آخر، وأنا في هذه الغرفة الفقيرة التي تحتوي على المطبخ أيضاً. لا. لا لم أكن حيادياً بالنسبة لها، واليوم كذلك أشعر أن من المستحيل أن أفكر على نحو آخر. ورغم ذلك فإن ليفيا نفسها غادرت منزل ميريام ولا أدري عنها شيئاً. والآن أجلس أياماً بطولها دافنا رأسي بين راحتي، أفكر لم أقدمت على فعلها هذا؟ لعلني كتبت لك أنني عرضت عليها أن أعيدها إلى عائلة أولوس، ولكنها أجابت بأن ذلك مستحيل، خاصة وأن العائلة سافرت إلى سيسيليا، إضافة إلى سبب آخر، هو أن نبأ عودتي سينتشر من بيت إلى آخر على السنة الأرقاء، حتى يصل إلى البالاتينوس، وقد يقدم القيصر على استدعائها من جديد من منزل أولوس. هذا صحيح. لم تكن لتقبل ذلك، ولذلك كانت ستبقى في منزلي بناء على رغبتني. لكنها هربت. لماذا هربت؟ رغم أن لا شيء كان يهددها؟ لو لم تكن تحبني لرفضتني. تعرفت على شخص غريب يدعى بولس الترسوسي، حدثني عن المسيح وتعاليمه، وشعرت أن كلماته تهز كل أساس في عالمنا، وتقوم بتفتيته. الشخص زارني بعد اختفاء ليفيا وقال لي: "إذا من الله عليك، وفتح عينيك للنور، وأزال عنها الغشاوة كما فعل معي فستشعر فيما بعد أن ليفيا سلكت سلوكاً حسناً وقد تلتقيها ثانية". ومنذ ذلك الحين وأنا أفكر بمغزى هذه الكلمات، وكأني أسمعها من عرافة أبولو التي لا تجيب قاصديها إلا بردود غبشيّة، غائمة. أشعر أحياناً أنني بت أفهم شيئاً ما. إنهم يحبون البشر، وبالتالي فهم أعداء لحياتنا، والهتنا، ولشروونا. إذن فهي قد هربت مني لأنني أنتمي إلى هذا العالم، ولأنها كانت ستشاطرني حياة يعتبرها المسيحيون آثمة. أنت ستقول لي كان بوسعها أن ترفضني دون أن تضطر للهروب. لكن لعلها تحبني. وقد هربت من حبها.

لهذا السبب الوحيد يخطر لي ان أنشر أرقائي في كل شبر من روما، وينادون "تعالى يا ليفيا". لكنى بت لا أفهم لماذا هربت، خاصة وأنى لم أمنعها من حرية اعتقادها بالمسيح. فما الأذى التي يمكن أن تلحق بي من إله جديد، ولم لا أو من به أنا الذي بت لا أو من بالالهة القديمة؟ أدرك جيداً أن المسيحيين لا يكذبون، ويؤمنون بقيامة المسيح. ليس بوسع إنسان أن يفعل ذلك. بولس الترسوسي، وهو مواطن روماني، لكنه يهودي لديه كتب عبرية قديمة، يقول: إن قدوم المسيح قد بشرت به الأنبياء منذ الاف السنين. كل هذا يندرج في إطار الامور الاستثنائية الخارقة. لكن اليس هنالك يا ترى كثير من الامور الخارقة تحيط بنا من كل جانب؟ معجزات أبولو مثلاً. ما يقوله بولس من أنه لا وجود لحشد من الالهة، بل لاله واحد فقط، فكرة أجدها ذكية. أظن أن سينكاله رأي مشابه، وقبله كثيرون. لقد ظهر المسيح، وقام بصلب نفسه لكي يخلص العالم، ثم قام من موته. كل ذلك مؤكد، ولا أدري سبباً لتشبثي بما يخالف ذلك من آراء. بت لا أجد ضيراً في رفضي لبقية الالهة، التي بات لا يؤمن بها عقل راجح. لكنى أعتقد أن المسيحيين لا يجدون ذلك كافياً. لا يكفي بالنسبة اليهم تبجيل المسيح، وإنما عليهم أن يعيشوا تبعاً لتعاليمه. أنت تدري كم أحب ليفيا، وأنسى أفعل أي شيء من أجلها. لست فيلسوفاً، لكنى لست بتلك الحماسة التي ظننتني بها أحياناً. لا أدري ما الذي يفعله المسيحيون ليتمكنوا من ممارسة حياتهم، لكنى أعرف بالمقابل أنه حيث يبدأ دينهم، تكون نهاية السيادة الرومانية، وروما، وفكرة الغالبين والمغلوبين، والاغنياء والفقراء، والفوارق بين الاسياد و أرقائهم. حيث يبدأ دينهم، تكون نهاية القيصر، والقانون وكافة أنظمة العالم، ليحل محلها المسيح، وتعم الرحمة والخير كما لم يحصل من قبل. الحق أقول: إن ليفيا تعينني أكثر ما تعينني سائر روما وسلطانها، فليفن العالم مقابل أن أجدها هنا في منزلي. لكن هذه مسألة

أخرى. لا يكفي المسيحيين أننا نتفق بالاقوال، يجب أن نشعر معا أن الامور حسنة، وهم يشترطون أن قلوبنا لا يشغلها شاغل آخر. لكني الالهة تشهد علي لا أحتمل. أتفهم ما أعنيه! ثمة شيء في طبيعتي، يجفل من هذا الدين، وإذا ما كان لساني يقوم بتمجيده، وصرت أنا متأقلمة مع أوامره، لكن عقلي وروحي يقولان أنني أفعل ذلك من أجل حبيبتني ليفيا، ولو لم تكن في حياتي سأجدني أبعد ما يكون عن ذلك الدين. والغريب أن بولس الترسوسي يفهم ذلك، وكذلك بطرس رغم بساطته، وأصله المتواضع، وحتى ثيورغوس العجوز أكبرهم سنًا، الذي كان واحداً من تلامذة المسيح. كلهم يفهمون ذلك. أتدري ماذا يفعلون؟ يصلون من أجلي راجين لي ما يسمونه الرحمة. ولكني لا أعرف الا القلق وشدة الشوق إلى ليفيا. كتبت لك أنها غادرت المنزل في الخفاء، لكنها تركت لي صليبا وجدته حين استيقظت قرب سريري. وهو الان معي. كم أحب هذا الصليب لأنها نسجته بيديها، وكم أكرهه لأن فرق بيننا. كثيرا ما أظن أن فيه سحرا وأن بطرس الذي يعتبر نفسه صيادا بسيطا هو أعظم من أبولو، وأي أحد آخر قبله. وأنه فتن الجميع هنا، ليفيا، وبومبونيا، وفتنني كذلك معهم.

تقول لي أن رسالتي مشبعة بالقلق، والحزن. أما عن الحزن فمنبعه أنني فقدتها ثانية. أما القلق فنابع من أن شيئا ما قد تغير في. الحق أقول أن لا شيء يتناقض مع طبيعتي أكثر من هذا الدين، ومع ذلك، فإني منذ أن التقيتها لا أعرف نفسي. فتنة أم حب؟ سيرس يغير جسد المرء لمجرد ملامسته، لكنهم غيروا لي روحي، وليفيا هي التي فعلت ذلك بالدرجة الاولى، والأصح ليفيا ودينها. حين غادرتهم عائدا إلى منزلي، لم يتوقع أحد رجوعي. ظنوا أنني في بنفنتوم، وأنتي لن أعود إلى المنزل بسرعة. كانت الفوضى تعم المنزل، وكان الأرقاء ثملين قد أقاموا مأدبة لأنفسهم. كانوا يفضلون انتظار الموت وليس عودتي، ولو كان الموت

لا يخيفهم كما أخيفهم. تعلم مدى صرامتي في إدارة المنزل. فبادر الجميع إلى الركوع أمامي، ومنهم من تقياً من شدة جزعه. أتعلم ماذا فعلت؟ للوهلة الأولى أردت أن يأتوني بالسوط، والحديد المحمى، لكنني سرعان ما شعرت بالخجل. وصدق أو لا تصدق، لقد شفقت على بؤسهم. بينهم أرقاء عجزوا جلبهم جدي في عهد أوغستوس من شاطئ راينا. خلوت بنفسي في المكتبة، حيث راودتني هناك أفكار شديدة الغرابة، مفادها وتبعاً لما سمعته، ورأيت بين المسيحيين، أن التعامل بقسوة مع الأرقاء فكرة غير مقبولة ولا يجدر بي أن أقوم بعقابهم. ظلوا على أعصابهم ليومين ظنوا خلالهما أنني ترثيت في الأمر، لكي أوقع بهم أقسى العقوبات. لكن الحقيقة أنني لم أحتمل ذلك. في اليوم الثالث دعوت الجميع وقلت لهم: "لقد صفحت عنكم، وأنتم فعلتم ما بوسعكم لتخلصوا في خدمتي تكفيرا عن ذنوبكم" ركع الجميع، ليكون، باسطين الايادي نحوي يدعوني "سيدنا، أبانا" أعتز لك بكل حياة، أن مشاعري قد ازدادت ليونة، وحساسية. شعرت في هذا اللحظة أنني أرى وجه ليفيا السمع، وقد امتلأت عيناها بالدموع تشكرني على فعلي هذا منادية "يا للروعة"! ودمعت عيناها. سأبوح لك بشيء آخر. لا أقوى على الحياة بدونها، وأنا تعيس في وحدتي، وأكثر حزناً مما تتصور. أما عن الأرقاء، بعد صفحي عنهم، فقد بات ما يشغلهم، إضافة إلى تسابقهم في القيام بالخدمات على أكمل صورة، أن يكتشفوا ما في داخلي من أفكار. أذكر لك ذلك، لأنه في اليوم السابق لمغادرتي المسيحيين قال لي بولس: "المحبة أقوى تعويذة ضد الخوف" أراها الآن فكرة صائبة في كثير من الحالات. ولقد تأكدت من ذلك حين جاءني أرقائي يطمئنون علي بعد معرفتهم بقدمي. حين وقعت عيناها على أولئك الجياع شعرت بالشفقة مرة أخرى. قدمت لهم الطعام، وحادثتهم، وخاطبت بعضاً منهم باسمه، وسالت آخرين

عن زوجاتهم وأطفالهم، ورأيت الدموع في أعين الجميع، وشعرت من جديد أنني أرى وجه ليفيا طافحا بالسعادة، يثني على فعلتي. لا أدري إن كان عقلي يتفتق، أم أن الحب هو الذي يخلط علي مشاعري. كل ما اعرفه أن ليفيا تراقبني عن بعد، فلا أقوى على فعل أي شيء أظن أنه يجرحها أو يوقع الحزن في نفسها. لقد تمكنوا من التأثير في روحي ويسعدني ذلك أحياناً، لكن أحياناً تؤرقني فكرة أنهم قد سلبوا مني شجاعتي السابقة، وطاقتي القديمة، وبت عاجزاً ليس فقط عن تقبل المناقشة وإبداء الرأي، وحضور المآدب، بل عن المشاركة في الحرب كذلك ولقد غيروا في الكثير، سأقول لك ما خطر لي حين كنت مريضاً هناك، لو كانت ليفيا مثل نيجيديا و بوبيا و كريسنيلا، وغيرهن من النساء المطلقات، ولو كانت بهذه القذارة، والسهولة اللتين يتحلين بهما، لما كنت أحببتها كما أحبها. لكن لو كنت أحبها للسبب نفسه الذي يفرقني عنها، فلك أن تتصور أي عماء يدهم روحي، وفي أي ظلمة أحياء، وكم ثمة من الدروب الواضحة التي لا أبصرها أمامي، وكيف أني لا أدرك ما الذي علي أن أقبض عليه. وإذا ما شبهنا الحياة بالنبع، فإن نبعي ينبثق منه القلق بدلا من الماء. أعيش على أمل العثور عليها، وأن ذلك لا بد أن يحدث. لكن ما الذي سيحصل لي بعد عام أو عامين، فلا أدري، ولا يمكن لي حتى أن أتصوره. لن أغادر روما. لا أقوى على احتمال أصحابي الاوغستينيين. فكرة وحيدة تنأى بي عن قلقي وحزني، وهي ان ليفيا قريبة مني، وأنني قد أعرف شيئاً عنها إن كان عن طريق الطبيب كلاوسوس الذي وعد أن يزورني، أو عن طريق بولس التر سوسي. لا. لا. لن أغادر روما حتى لو وعدوني بحكم مصر. واعلم أيضاً أنني طلبت إلى النحات أن ينحت شاهدة لقبر غولو بعد أن قمت بقتله بلحظة غضب. خطر لي لاحقاً أنه كان يحملني بين ذراعيه، وأنه هو أول من علمني كيف أضع السهم في القوس. لا أدري

لم استفاقت في ذكراه الان. كأن الذكرى ندم، أو تبكيت ضمير...  
إذا كنت مندهشا فاعلم أنني أكثر اندهاشا منك، لكني أكتب ما أكتبه  
صادقا. كانت السماء معك.

لم يتلق فينكوس ردًا على رسالته. لم يكتب بترونيوس لأن القيصر قد يأمر في أية لحظة، بالعودة إلى روما. انتشر هذا النبأ في أنحاء المدينة، وأيقظ في نفوس العامة بهجة لا توصف، لكونهم باتوا في غاية الشوق لالعاب السيرك والمنازلات، وتوزيع القمح، والزيت المختزنين بكميات كبيرة في الصوامع والمستودعات. وأخيرًا أعلن هليوس معتوق القيصر، في السيناتوس أن القيصر عائد إلى الوطن. لكن السفن التي تقل القيصر وحاشيته تباطأت في العودة، لأنهم عند نقطة ميسنوم كانوا يتوقفون في المدن على طول الشاطئ الساحلي، إما لاتخاذ قسط من الراحة، أو ليؤم القيصر المسارح هناك. ولقد أمضى عشرة أيام في مينتوريا يغني أمام الجمهور، حتى أنه كان يفكر بعدم المرور ثانية في نابولي، كيلا يفوته موسم الربيع الحار، الذي حل هناك أبكر من المعتاد. في أثناء ذلك، وطوال تلك المدة، اعتزل فينيكوس بنفسه داخل منزله يفكر بليفيا تحت وطأة أفكار جديدة شتى تراوده وتضغط على روحه، مولدة في داخله لأول مرة أنواعاً من الأحاسيس والمفاهيم الغريبة. لم يكن يلتقي أحداً في بعض الأوقات سوى الطبيب كلاوسوس، الذي كان يحقق له بحديثه عن ليفيا كلما التقاه سعادة لا تلبث أن تزول بانصرافه. لا يعرف كلاوسوس أين عثرت ليفيا على محباً لها، لكنه طمأن فينكوس أنها في أحضان أشخاص مسيحيين يولونها الرعاية الكافية. وذات مناسبة قال ليفنيكوس متأثراً بما ينتابه من الحزن الشديد أن بطرس أنب كريسبوس لأنه عاتب ليفيا محتقراً حبها الأرضي. تحمس

فينكوس بسماعه هذه العبارات من شخص غريب، ومسيحي، وأراد في هذه اللحظة أن يهرع إلى بطرس يقدم له امتنانه، وحين علم أنه ليس في المدينة، وإنما يقيم في أطرافها ينشر التعاليم، توّسل إلى كلاوسوس ليأخذه اليه، ووعدّه بأن يقدم العطايا الكثيرة للفقراء. وكان يظن أيضاً، إذا ما كانت ليفيا تحبه، فلا عائق أمامهما، فمن جهته كان على استعداد في آية لحظة أن يتقدم باحترامه للمسيح. لكن كلاوسوس في سعيه وراء فينكوس ليعتنق المسيحية، لم يجروا أن يعده بمكافأة حصوله، بعد ذلك مباشرة، على ليفيا. وأوضح له أن الرغبة في اعتناق المسيحية بغيتها محبة المسيح، والمسيحية ذاتها، ودون أي شيء آخر وقال: "من الضروري أن تكون روح الانسان كذلك مسيحية". اغتاض فينكوس، لكنه هدأ بعد أن أدرك أن كلاوسوس يتكلم كما ينبغي عليه أن يتكلم كمسيحي، وبعد أن أيقن أن تغييراً ما قد طرأ على طبيعته، حين كان يقيس كل أمر، ويحكم على أي إنسان من زاوية أنانيته الخاصة، وبات الآن يعود نفسه على فكرة أن عينا أخرى قد ترى الامور على نحو آخر، وأي قلب آخر، له أن ينبض بمشاعر أخرى، وأن الحقيقة ليست مطابقة دوماً لمصلحته الذاتية. غالباً ما كان يشناق لرؤية بولس الذي كان يثيره بأحاديثه معه، ويضعه في حالة من الفضول والقلق. كان يضع حججاً وذرائع مسبقة تجعله يدرأ تعاليم بولس. صحيح أنه كان على نقیض معه، إلا أنه أحبه ورغب في رؤيته وسماعه. لكن بولس سافر إلى أرسيا، ولما صارت زيارات كلاوسوس نادرة، بات فينكوس وحيداً لا رفيق له، وصار يرتاد الاماكن العامة في سوبورا، ويجول في أزقة ترانستيرس الضيقة، ممنى النفس برؤية ليفيا ولو عن بعد على الاقل. لكن حين يئس من أملة هذا، غلب عليه السأم ونفاد الصبر. حتى حان الوقت أخيراً لترجع اليه طبيعته السابقة كما ترجع الموجه من جديد إلى البحر بعد بلوغها الشاطئ. شعر أن من الحماقاة أن يوجع رأسه بلا



طائل بأمور لا يناله منها الا الحزن والكآبة، فالأحرى به أن يمتح من نبع الحياة كل ما يستطيع اليه سيلا. قرر أن ينسى ليفيا، أو على الاقل أن يبحث بعدها عن المتع والم لذات المؤهل أساسا لتتدفق عليه حينما يشاء. الشتاء يشد رحاله، والمدينة التي عانت طويلاً من السبات، باتت تضحج بأمل العودة السريعة للقيصر. كان يدنو، والصقيع على قمم جبال الألب بدأ يذوب تحت صفعات الرياح الإفريقيّة. ملأت الزهور الحدائق، وراحت حشود الناس تخرج إلى الفوروم، وتستلقي فوق المروج، تحت أشعة الشمس المشتدة، وازدحمت الشوارع بالعربات المزينة. والمتزهون بدؤوا نزهااتهم في الصعود إلى الجبال الألبية. وبدأت الشابات من النساء يغادرن منازلهن إما لغاية تقديم الاحترام لجونو في اللانوفيون أول ديانا في أريسيا، أو بحثا خارج المدينة عن آمال، وأصحاب ومواعيد، ومتع. هنا في وسط هذه الابهة البديعة لمح فينكوس ذات يوم عربة كريسو ثيميس بترونيوس، التي يعدو أمامها كلبا صيد مولوسي ان ويحيط بها حشد من السيناتورات المسنين. كانت كريسو ثيميس نفسها هي التي تقود الخيول الأربعة الصغيرة التي تجر العربة، موزعة ابتساماتها، وهزات رأسها الخفيفة في كل اتجاه، لكن حين لمحت فينكوس أوقفت العربة وأجلست الشاب إلى جانبها مصطحبة إياه إلى مآدبتها التي استمرت الليل بطوله. أكثر فينكوس من الشراب، حتى الثمالة، فلم يدر متى أوصلوه إلى البيت، لكنه تذكر، بالمقابل، أنه حين سألته كريسو ثيميس تتبع أخبار ليفيا، أغضبه سؤالها، فما كان منه، وهو في حالة من السكر، إلا أن سكب ابريق النبيذ على رأس المرأة. و الآن، وهو في حالة الصحو واتزان رأس، يستعيد ما جرى، ما زال يشعر بالغضب. لكن بعد مضي يوم على ذلك، وكان قد نسي ما حصل منها بالطبع، قامت كريسو ثيميس بزيارته في البيت، واصطحبته إلى فيا أيبيا، ثم رجعت برفقته وتناولت طعام العشاء عنده،

وصارحته في أثناء ذلك أنها باتت منذ زمن تقرف بترونيوس، وأنها الآن حرة القلب. مرحا معاً مدة أسبوع، لكن علاقتهما هذه لم تعد بالدوام. صحيح أن ذكر اسم ليفيا لم يرد بينهما منذ حادثة النبيذ، إلا أنه لم يستطيع نسيانها. كان إحساسه دائماً أن عيني ليفيا تلاحقانه، وتوقعانه في شيء من الخوف. لم يستطيع التملص من فكرة الحزن الذي سببه لليفيا، ولا من الألم الذي ولدته هذه الفكرة في نفسه. وبعد أولى حالات الغيرة التي أبدتها كريسوتميس لأنه اشترى فتاتين سوريتين، بدأ يصد المرأة عنه، دون أن يتخلى حالاً عن استمتاعه معها، مبرراً سلوكه لنفسه بالانتقام من ليفيا. لكنه اكتشف في النهاية أن ليفيا لا تفارق تفكيره، وأنها المحرك الأوحده لكل ما يقوم به خيراً كان أم شراً، وأن لا أحد غيرها محط اهتمامه. ثم ما لبث أن تغير المذاق في فمه، وأحس بالإرهاك وقرف الملذات التي لم تخلف إلا تبكيت الضمير لديه. استشعر عمق هوة البؤس التي سقط فيها، وراح يتأمل كم اختلفت أحواله، عن ذي قبل، وكيف كان في السابق يتذوق بلذة كل ما وجدته محبباً لديه. حتى فقد الآن طمأنينته، وثقته بنفسه، وعكف إلى نفسه، حتى أن نبأ رجوع القيصر لم يهزه. بات لا يكثرث لأي أمر، ولم يخرج للقاء بترونيوس حتى دعاه الأخير، وأرسل نقالته الخاصة من أجله. وفي حين استقبله بترونيوس بكل ود، لم يرد هو على أسئلته كما ينبغي. أما في النهاية، فقد انفجر بكل ما استجمع في نفسه سابقاً من أفكار وأحاسيس مكبوتة. وراح يتحدث في كل شيء. حكى مرة أخرى بالتفصيل قصة البحث عن ليفيا، والوقت الذي أمضاه بين المسيحيين، وكل ما شاهدته عيناه، وما سمعته أذناه، وكل ما راود عقله وقلبه، حتى وصل أخيراً إلى تخوم الشكوى، أي تيهه وتخبط أفقده أمانه، وعصفاً باتزان عقله وجدارته في الحكم على الأمور. لا شيء يثيره، لا شيء يستسيغه، ولا يدري أي أرض صلبة يثبت عليها قدميه

وكيف يتصرف. إنه مستعد لتقديم احترامه للمسيح، ولمطاردته في الوقت نفسه. يتفهم روعة تعاليمه، ولكن في الان ذاته يشمئز منها أيما اشمئزاز. يشعر إذا ما كان يحب ليفيا، فلن تكون ملكه لو حده، لأن للمسيح حصة يشاطره فيها. حتى قال أخيراً إنه يحيا على نحو كأنه لا يحيا، وهو بلا أمل، ولا مستقبل، ولا إيمان بالسعادة، القتامة تغلف كل ما من شأنه أن ينير له درب النجاة المفقود. في أثناء حديثه، كان بترونيوس يراقب كم تغيرت ملامح وجهه، وكيف يبسط يديه أمامه على نحو غريب، كأنما يتحسس طريقه في الظلمة، ثم لا يلبث أن يتوقف عن الكلام سارحاً في التفكير. نهض بترونيوس فجأة، وتقدم نحو الشاب، ومسح على فوديه لاما خصلة شعره هناك خلف أذنيه، قائلاً له:

- أتعلم أن شعرك يتخلله بعض الشعرات البيضاء؟

فأجاب فينكوس:

- جائر. لا يثير دهشتي إذا ما شئت باكرا.

ثم ساد صمت. كان بترونيوس شخصاً ذكياً، وكثيراً ما استفكر في خفايا روح الانسان، والحياة الانسانية. لكن الحياة التي عاشها كلاهما قد تكون سعيدة، أو لا تشوبها أية سعادة، ولكنها كانت هادئة يسودها الاطمئنان الداخلي. وكما تحطم الصاعقة، أو الزلزال صروح الكنائس وتجعلها أنقاضاً، كذلك يمكن للأحزان أن تحطم الحياة ذات المسارات القويمية المتناغمة الخالية من العقد. على النقيض من ذلك، فإن ما قاله الآن فينكوس، تضمّن شيئاً مختلفاً، فوقف بترونيوس للمرة الاولى وجهاً لوجه أمام حزمة من الهموم الروحية، التي لم يفلح أحد حتى الان بإيجاد الحلول لها. كان على درجة من النضج تخوله لاستيعاب

ثقل هذه الهموم، الا أنه رغم ذكائه النابغ لم يتمكن من الاجابة على الاسئلة المخرجة المطروحة. فكان جوابه، أخيراً على النحو التالي:

- لا بد أنها إصابة بالعين.

فأجاب فينكوس :

- ظننت ذلك. كثيراً ما فكرت أن الجميع يحسدوننا.

فسأله بترونيوس:

- أتذهب مثلاً إلى كهنة سيرايسس؟ لا شك أن بينهم كثيراً من المشعوذين، كما هو معلوم بين الكهنة عموماً، لكن بعضاً منهم يجدون النفاذ إلى أعماق الخفايا الغربية.

لكنه كان يتكلم غير مؤمن بما يقول، وبنبرة غير واثقة، حتى أنه كان يشعر ببؤس ما تفوه به، وكم يتضمن من الكوميديا.

حك فينكوس جبينه قائلاً :

- سحر! لقد رأيت سحرة يستخدمون قوى مجهولة من العالم السفلي من أجل الحصول على المنافع، وسحرة آخريين يستخدمون هذه القوة لإلحاق الأذى بأعدائهم، لكن المسيحيين يعيشون في الفقر، ويتسامحون مع أعدائهم، ويسعون إلى التواضع، والفضيلة، فما مصلحتهم في السحر ليستخدموه؟

الأمر الذي أغضب بترونيوس وأثار في نفسه غيظاً شديداً، أن عقله لم يستنبط إجابة على أي من الاسئلة، لكنه أبقى أن يعترف بذلك، ولكي ينطق بأي شيء، قال:

- هذا سخف جديد

وأردف بعد لحظة:

- يا للهول كيف يفسد كل هذا الحياة! أنت تثنى على أخلاق هؤلاء الناس، وطيبة قلوبهم، أما أنا فأقول بأنهم أشرار، لأنهم أعداء الحياة، كالأمرض، والموت. أما يكفي للحياة من كثرة الأعداء، فما من حاجة للمسيحيين. عد معي: الأمراض، قيصر، تيفالوس، أشعار قيصر، الاسكافيون الذين يحتلون مواقع في سيناتوس. أقسم ب كاستور كفانا من كل ذلك! هذا سخف مدمر يثير القرف. هل حاولت أن تنفض عنك هذا الحزن، وتستمتع بالحياة؟

- أجل.

فصاح بترونيوس مقهقها

- آه أيها الخائن، الانباء تنتشر بسرعة على السنة الأرقاء بأنك أغويت كريسو ثميس!

هز رأسه فينكوس معترفاً.

فقال بترونيوس:

- أنا أشكرها على آية حال. سأرسل لها بعضاً من الأحذية المحلاة باللؤلؤ، وهذا يعني في مراسلاتي العشقية "لك أن تذهبي". أما أنت فتستحق شكراً مضاعفاً، لأنك أولاً، لم تستقبل يونيكي، وثانياً لأنك حررتني من كريسو ثميس. أصغ الي. من تراه أمامك الآن شخص كان كل يوم يستيقظ، ويستحم، ويقصد المآدب، وكان لديه كريسو ثميس، ويكتب الهجاء، حتى أنه أحياناً يصوغ النثر أشعاراً، لكنه شخص سئم

من نفسه كما من القيصر، وغالباً عجز من التحرر من أفكاره السوداء. فهل تعلم السبب في ذلك؟ لأني كنت أبحث في منأى عني، عما كان مقرباً مني... المرأة الجميلة تساوي ثقلها ذهباً. لكن المرأة التي تحبك أيضاً إلى جانب ما تتمتع به من جمال أخاذ، لا تقدر بثمن. وليس بمقدورك أن تشتري واحدة مثلها بكل كنوز الدنيا. أقول الآن لنفسني بأنني سأمضي بقيّة حياتي بسعادة، وسأحتسي أفخر أنواع النبيذ، حتى تشل يداي، وتعجز شفّتي عن ملامسة حافة الكأس. أما ماذا سيحصل بعدها، إنه أمر لا يعينني ولا أكثر ث له. وهذه هي أحدث فلسفاتي.

- كنت تقول دائماً أن لا شيء جديد فيها البتة.

- لكنها ذات محتوى لم تكن لتتضمنه من قبل.

قال ذلك، ونادى على يونيكي. جاءت الفتاة، شعرها كالذهب، يلف جسدها رداء أبيض. لم تكن العبدة القديمة المألونة، ولكنها بدت الآن ربة الحب والبهجة.

فتح بترونيوس ذراعيه، منادياً إياها:

- تعالي!

توجهت الفتاة نحوه، وجلست في حضنه، ولفّت ذراعها حول عنقه، واستندت بنهديها على رأسه. شاهد فينكوس كيف اكتسى وجه الفتاة بالحمرة شيئاً فشيئاً، وكيف غامت عيناها بغشاوة ضبابية عميقة. بدا معها هكذا كتمثال فائق الجمال للحب والسعادة. مال بترونيوس نحو صحيفة فوق طاولة قريبة منه، وتناول منها جفنة وريقات من زهر البنفسج، ورشة فوق رأس يونيكي، وصدرها، وعنقها، ثم أزاح الرداء عن كتفيها وقال:

- سعيد مثلي كل من عثر في غمرة مشاغله على حبيبة... أشعر أحيانا أننا الهان... تمنع فينا جيدا: هل ابتدع أحد من براكسيتليس أو ميرون أو سكوباس أو ليسيبوس في أي مكان خطوطا أكثر روعة؟ هل هناك نصب وردي اللون، و حار، و دفاق بالحب في باروس أو بوتاليكون؟ هنالك من يمكن لقبلاتهم مهما عنفت أن تقرض حواف الاقداح، أما أنا فأفضل البحث عن الروعة حيث يمكن أن تكمن فعلا.

وراح يمرر شفثيه فوق كتفي الفتاة و عنقها، فيما استجابت يونيكي مسترخية لهذه القبلات، وقد أغمضت عينيها تارة، وفتحها تارة، مبدية أقصى مشاعر اللذة. وبعدها رفع بترونيوس رأسه الناعمة متلفتا نحو فينكوس ليقول:

- أما الآن فعليك أن تفكر من يكون مسيحيوك البائسون قياسا إلى هذا. وإن كنت قد رأيت الفارق، عندها فقط اذهب اليهم... لكنك ستكون قد شفثيت.

تنشق فينكوس عطر البنفسج الفائح في أرجاء الغرفة، فدوّخه ضوعه، وفكر، في ذات الوقت، لو أنه تيسر له ان يقوم بتقبيل كتف ليفيا هكذا، لكانت متعة لا حدود لها، وإن كانت متعة مارقة خارقة للقداسة، ليأت بعدها الطوفان، و دمار الكون. غير انه كان قد اعتاد أن يقلب سريعا أي أمر يعتمل في نفسه، فما كان الا أن خطر له لفوره، أنه حتى في هذه اللحظة لا يفكر الا بليفيا، و بليفيا وحدها.

- أعدي لنا يا يونيكي الإلهية، الأكاليل لرؤوسنا، و فطوراً.

و حين ابتعدت الفتاة توجه إلى فينكوس بالقول:

- أردت أن أعتقها، لكن هل تدري ما قالته؟ "أفضل أن أبقى عبدة

لك، ولا زوجة للقيصر". ولم توافق. لكنني عتقتها دون علمها، ودون الحاجة لمثلها أمام البراتور. هي لا تعلم بما قمت بفعله من أجلها، كما لا تعلم أنها سترث، بعد موتي، هذا المنزل، وكل ما أملك من الحلي، ما عدا الجواهر.

ثم نهض، ومشى حتى نهاية الغرفة حتى أردف قائلاً :

- تأثير الحب يختلف من شخص إلى آخر. قد يؤثر في أحدهم تأثيراً فائقاً، ويكون تأثيره في أحد آخر ضعيفاً. وأنا ممن قد أثر فيهم الحب. في حقبة ما كنت أحبذ رائحة فيربينا، لكنني بت أحب رائحة البنفسج أكثر لأن يونيكي تحبها. حتى بتنا الان، منذ جاء الربيع، لا نستنشق الا عطر البنفسج.

ثم توقف أمام فينكوس ليسأله:

- وأنت أما زلت تكره رائحة الناردين؟

- دعك من هذا.

- أردتك أن ترى يونيكي، وأنا أتكلم عنها، عساك أيضاً أن تبحث في منأى عنك عما هو مقرب منك. عسى ان يخفق قلب وفي، بسيط لأجلك من بين عبيدك. داو جراحك بهذا البلسم. هل تقول عن ليفيا تحبك؟ جائز! لكن أي حب هذا إذا ما تخلى عنك؟ الا يعني هذا أن هنالك ما هو أقوى من هذا الحب؟ لا يا عزيزي: ليفيا ليست يونيكي، فأجاب فينكوس :

- ما هذا كله إلا عذاب شديد. حين رأيتك تقبل كتفي يونيكي خطر لي لو أن ليفيا تدع نفسها لي هكذا، فلا هم بعد ذلك أن تنشق الأرض تحتنا.



ليفيا ليست يونيكي، صحيح، لكني أفهم الفارق بينهما لا كما  
تراه أنت. حبك أنت بدل فتحتي أنفك، فصرت تحب البنفسج أكثر  
من فيرينا. أما أنا فقد أصاب روعي وأجرى تغييره وهناك، فصرتُ ما  
أنا فيه من بؤس وشوق، أحب ليفيا كيفما تكون، لمجرد كونها ليست  
كالأخريات. هزّ بترونيوس كتفيه معلقاً

- المفترض في ذلك إذن الا يؤثر عليك سلباً. أنا لا أفهم هذا.

واقفه فينكوس بحرارة:

- فعلاً!... لقد بتنا لا نتمكن من فهم بعضنا.

وساد صمت قصير، حتى بدأ بترونيوس الكلام ثانية:

- فليبتلع هادس مسيحيك هؤلاء! لقد عبؤوك بالقلق، وأفسدوا  
حسك في الحياة. فليبتلعهم هادس! تخطئ إذا ما اعتقدت أن هذا دين  
فالح. الفالح والصالح ما يحقق السعادة للبشر، مثل الجمال، والحب،  
والقوة، وهم يسمون كل هذا خطيئة، وتخطئ أيضاً إذا ما ظننتهم  
محقين وعادلين، فإذا ما كنا نرد على الاساءة بالحسن فبماذا نرد على  
الحسن؟ وإن كان الرد على الوجهين هو نفسه، فلم يضطر البشر أن  
يكونوا خيرين؟

- لا. ليس نفسه. لأن دينهم يقوم على أن الحياة تبدأ في العالم الآخر،  
وهي الحياة الابدية.

- لا أناقش في أمر، سنراه فيما بعد، ما يعينني هو الحاضر. أورسوس  
قضى على كروتون الفولاذي الجسد، لأنه الضعيف القلب، ولا مكان  
في المستقبل لضعاف القلوب.

- عندهم تبدأ الحياة لحظة الموت.

- مثل هذا القول كأن يقول أحدهم أن النهار يبدأ بحلول الليل. هل تريد أن تخطف ليفيا؟

- لا. لن أرد جميلها بإساءة. لقد أقسمت أن لا أفعل هذا.

- هل تريد أن تعتنق الدين المسيحي؟

- أجل. لكن طبيعتي لا تحمل ذلك.

- وهل بوسعك أن تنسى ليفيا؟

- لا.

- سافر إذن.

وفي هذا اللحظة، أبلغه الخدم أن طعام الفطور بات معداً، إلا أن بترونيوس، وقد لمعت في ذهنه فكرة هامة، قد استمر في الحديث وهما في الطريق إلى غرفة الطعام:

- إنك جبت بلاداً عديدة، لكنك كجندي ملزم دائماً أن يهرع في العودة إلى قطعه، ولا يستطيع أن يتوقف في أي مكان قاطعاً طريقه المرسومة. تعال ورافقنا إلى أكايا. القيصر لا يلتزم أبداً بخطة رحلته. غالباً ما يتوقف قاطعاً الرحلة هنا وهناك، يغني، ويجمع أقواس النصر، وينهب المعابد، ثم يعود أدراجه إلى إيطاليا. ستراه وكان باخوس و أبولو قد اجتمعاً معاً في شخص واحد. الأوغستيان، نساءً ورجالاً على حد سواء، والـف قيثارة، مشهد جدير بالمشاهدة، لأن العالم لم يشهد من قبل شيئاً كهذا. وجلس إلى جانب يونيكي على مقعد قرب الطاولة، وفيما كانت الفتاة تسوي الإكليل على رأسه تابع كلامه:

- ما الذي شاهدته في أثناء توليك مهامك في كوربو؟ لا شيء! هل تمعنت جيدا في المعابد الإغريقية كما فعلت أنا حين تداولني القادة من يد إلى يد، ومن مكان إلى آخر، على مدار سنتين؟ هل كنت في رودوس ليتسنى لك رؤية أين ينتصب كولوس؟ هل رأيت في فوكيشي بانوبي الطينة التي صنع بروميثيوس منها! الانسان؟ وهل رأيت في شارتا البيوض التي وضعتها ليدا؟ وهل كنت في أثينا؟ أو في أبويا حيث سفينة أغامنون، أو القدح الذي استخدمته هيلين من أجل ثديها الايسر؟ هل شاهدت الإسكندرية، وممفيس، والأهرامات، وشعر إيزيس الذي قصته حداذاً على فراق أوزيريس؟ هل سمعت تأوهات ممنون؟ العالم شاسع، ولا ينتهي كل شيء عند ضفة التير! أنا سأرافق القيصر، لكنني في طريق العودة سأفترق عنه، وأسافر إلى قبرص، لأن الهتي الشقراء هذه راغبة في أن نذبح الحمام في بافوس قربانا لسيريس، وعليك أن تعلم أن كل ما تتمناه سوف أحققه لها. فقالت يونيكي

- أنا عبدة بين يديك.

لكن الرجل أراح رأسه في حضن الفتاة وأجابها مبتسماً

- ما أنا إذن الا عبد بين يدي عبدة. أنا مشدوه بك، يا يونيكي الإلهية، ولا أصدق عيني.

والتفت بعدهنية نحو فينكوس:

- تعال ورافقنا إلى قبرص. لكن لا تنس أن عليك قبلها ان تلتقي القيصر. من السوء أنك لم تزره حتى الان.. بمقدور تيفالينوس أن يستغل هذا للإضرار بك. صحيح أنه لا يضمم البغيضة لك، الا أنه بالتأكيد لا يكن لك الحب لأنك قريبي... سنجد حلاً ونقول إنك كنت مريضاً. علينا أن نفكر جيدا بالاجابة إذا ما دفعه الفضول وسأل عن ليفيا.

الافضل أن يكون ردك بأنها أقامت عندك، حتى مللتها. سيتفهم ذلك. وقل له أيضاً إن المرض جعلك رهين المنزل، مما زاد من شدة حماك أنك لم تكن في نابولي ولم تستمع إلى غناؤه.

والآن بات الأمل يحدوك لتسمعه في القريب العاجل، الأمر الذي سرّع في شفائك. لا تخش المبالغات والشائعات.

- أعرّف عمن تتحدث؟ عن المسيحيين.

علينا أن نتظر من تيفالينوس أن يجد للقيصر مأخذاً علينا كبيراً، وضخماً. أخشى أن يتناولني في شيء. كما أخشى من حالتك البائسة.

فسأله فينكوس :

- أتدري أن هناك نوعاً من البشر لا يخاف القيصر، ويحيا في طمأنينة وكأنه غير موجود أصلاً؟

- أعرّف عمن تتحدث. عن المسيحيين.

- تماماً. هم الوحيدون! ما حياتنا نحن سوى صخب وضوضاء.

- دعني من مسيحيك. إنهم لا يخافون القيصر، لأنه في الغالب لم تصله أخبارهم، ولا يعرف عنهم شيئاً. أنا لا أقول عنهم سوى أنهم فجّون تعوزهم الخبرة، هذا إحساسك كذلك. وإذا كان طبعك يجفل من دينهم، فلأنك تشعر بفجاعتهم. أنت مخلوق من طينة أخرى. فدعهم وشأنهم، ودعني منهم. نحن نعرف أن نحيا، ونموت، ولكن الذي يعرفونه هم مازال خفياً.

باغتت فينكوس هذه العبارات، وحين عاد إلى البيت استغرق في التفكير، ليخلص إلى تساؤل مفاده:

أليس كون المسيحيين طيبين ورحماء إثباتاً في واقع الحال على  
فجاجة روحهم، وافتقارهم إلى المراس. شعر أن الاقوياء ذوي الصلابة  
لا يعرفون هذه الدرجة من التسامح. ولمع في ذهنه أن روحه الرومانيّة  
وجدت سبباً كافياً لنفورها من ذلك الدين. "معرفة الحياة والموت"  
هذا ما قاله بروتنيوس. أما هم؟ إنهم لا يعرفون الا المسامحة ويجهلون  
الحب الحقيقي، والكراه الحقيقي.

وصل القيصر إلى روما، وكان منزعاً لعودته. وما هي إلا بضعة أيام حتى هاجه الشوق متمنيا السفر إلى أكايا. حتى أنه نشر بياناً يعلن فيه أن غيابه لن يدوم مدة زمنية طويلة يمكن أن تخلف أي تأثير في القضايا العامة. ثم، برفقة حاشيته الأوغستينية، وكان فينكوس من بينهم، قصد، الكابيتوليوم لتقديم القرابين للآلهة من أجل التوفيق والنجاح في رحلتهم. ولكنه في اليوم التالي، حين كان في زيارة لكنيسة فيستا، حصل أمر غير في نيته. لم يؤمن نيرون بالآلهة، لكنه كان يخشاهم، ومن بينهم على وجه الخصوص فيستا المكتنفة بالغموض. فما إن رأت عيناه هناك نار الآلهة القدسيّة، حتى انتصب شعر رأسه، واصطكت أسنانه، وارتجفت أوصاله من الرعدة والخوف. وللمصادفة في هذه اللحظة فقد كان فينكوس واقفا خلف ظهره، فارتمى بين ذراعيه. نقل سريعا إلى القصر، ورغم استعادته وعيه على الفور، ظل طريح السرير يوما كاملا. ثم أعلن أيضاً، وقد أثارت فحوى هذا الاعلان اندهاشا كبيرا عم سامعيه من الحاشية، أن رحلته بإيحاء من الآلهة حرصا عليه من العجالة في أموره باتت مؤجلة إلى إشعار آخر. وانتشر في أنحاء روما، نبأ يقول أن القيصر، بعد أن قرأ الحزن في وجوه الناس، قد قرر، بدافع المحبة الأبوية نحوهم، أن يبقى الان إلى جانبهم ويتشاطر معهم السراء والضراء. سر الشعب لهذا القرار المتخذ، ليقينه أنه لا ينفصل عن إقامة العاب السيرك، وتوزيع القمح، فغصت الجموع محتشدة أمام مدخل القصر، يهتفون للقيصر الرباني، الذي رفض المغامرة بالأوغستينين وحياتهم.

فقال:

- أجل. كان لا بد من التأجيل. لا يمكن التفريط بالسيطرة على مصر والشرق، فكيف بأكايا. سوف أهدم إزموس الكورنوسوسي. وسأنصب في مصر العديد من التماثيل والنصب تغطي على الأهرامات وأبني أباهول آخر. بحجم يفوق سبع مرات حجم الذي يقوم قرب ممفيس متطلقاً نحو الصحراء. لكنه سيحمل وجهي منحوتا عليه. وسيبقى تمثالاً يشغل حديث الناس لقرون عديدة.

قال بترونيوس:

- لقد بنيت لنفسك من حسابك الخاص تمثالاً أكبر من خفرع بثلاث مرات، وليس بسبع مرات.

فسأله نيرون:

- أمن غنائي؟

- تستأهل أن ينحت لك تمثال كتمثال ممنون، يصدح بصوتك عند كل مطلع شمس. البحار التي تحد سواحل مصر، تمخرها دون انقطاع سفن سيتسنى أن يسمع على متنها غناءك مسافرون من أرجاء العالم الثالث.

فتنهّد نيرون قائلاً:

للأسف ليس هناك من يجيد عملاً كهذا.

- يمكن أن تنحت لنفسك تمثالا، وأنت تقود العربة.

- صحيح. سأفعل ذلك.

- وتقدمها هدية للبشرية.

- في مصر، سأخذ من لونا العانس زوجة لي، وسأصبح الها حقيقيا.

أما نحن فتمنحنا النجوم زوجات لنا، وفيما بعد سنشكل مجموعة كواكب جديدة سيطلق عليها اسم مجموعة نيرون. وتزوج فيتلوس و نيلوس، وتهدي تيفالينوس الصحراء هناك، ليكون ملكا على أبناء آوى.

فسأل فاتينوس :

- وما نيتك أن تمنحني؟

- باركك أيس. لقد أتحفتنا في بنغنتوم ورتبت لنا تسليات تجعلني لا أتمنى لك شرا : اعمل بعض الاحذية لأبي الهول لأن قدميه تتجمدان في الليالي النديّة، و آخر دوميتوس المعروف بنزاهته مثلا، سيغدو صرافا. كم أحببت من القيصر أنه يحلم بمصر، لكن ما يحزنني أنه أجل الرحلة.

لكن نيرون أجابه:

- عيونكم الفانيّة لم تر شيئا، لأن الالوهة تحتجب أمام من تريد أن تحتجب أمامه. كونوا على ثقة أنني حين كنت في معبد فيستا انتصبت الالهة إلى جانبي ووشوشتنني قائلة: "أجل الرحلة" حصل ما حصل على نحو مبالغت جعلني أرعد، الا أني ممتن للالهة على قبولهم لي كل هذه المدة في مذبحهم.

نطق تيفالينوس قائلاً :



- لقد ارتعدنا جميعاً. أما العذراء فيستا روبريا فقد أغمى عليها.

التقط نيرون العبارة ليقول:

- روبريا! ما انصع جيدها.

- لكنها تحمّر لمجرد رؤيتها لك أيها القيصر الرباني.

- تماماً. لاحظت ذلك بنفسني. مذهلة! في كل من عذراوات فيستا

شيء الهني. روبريا جميلة جداً.

وفكر قليلاً ثم سأله:

- أخبروني، لم يخاف الناس فيستا أكثر من الآلهة الآخرين؟ ما

السبب في ذلك؟ حتى أنا قد ركبني الخوف رغم أنني كبير كهنة. كل

ما أتذكره أنني تعثرت وكدت أقع على ظهري لو لم يسندني أحدهم. ما

كان ذاك؟

وأعلن فينكوس نفسه قائلاً:

- أنا.

- أوووو، كيف لم تكن معنا في بنغنتوم؟ سمعت أنك كنت مريضاً،

والحقيقة أن وجهك قد شابه بعض التغير. وسمعت أيضاً أن كروتون أراد

أن يقتلك. هل النبأ صحيح؟

- صحيح... وكسر ذراعي، لكنني دافعت عن نفسي.

- بذراع مكسورة؟

- هب لنجدتي أحد البرابرة، وكان أقوى من كروتون.

- ماذا عن تلك الفتاة... ذات العجيزة النحيله... التي وقعت في حبها، والتي أخذتها من عائلة ألوش وأعطيتها لك؟

ارتبك فينكوس أيما ارتباك. لكن بترونيوس في هذه اللحظة سارع إلى إنقاذه، فقال:

- أراهن أنه قد نسيها. الا ترى ارتباكه؟ اسأله كم عشيقة كانت لديه بعدها؟ أراهن أنه لا يدري كم عددهن. الفينكوسيون جنود مميزون، إلا أنهم ديكة على نحو أميز. يحتاجون إلى مدجنة بحالها. عاقبه يا سيدي، ولا تدعُه إلى المأدبة التي وعدنا بها تيفالينوس على شرفك، في بحيرة أغريبا.

- لا لن أفعل ذلك. أنا أثق بأن تيفالينوس لن يدع مجالاً لأي نقص في الدواجن.

فأجاب تيفالينوس :

- هل يمكن أن يحصل أي نقص حيث يحضر أمور.

لكن نيرون بدأ في شكواه:

الضجر يلوكني. لقد بقيت في روما بمشيئة الالهة، رغم أني لا أحتمل الأمر. سأذهب إلى الأنتيوم. تخنقني هذه الازقة الضيقة، والمنازل الموشكة على السقوط، والمحلات القذرة. والهواء العفن يخترق منزلي وحديقتي. أما من هزة أرضية تطيح بروما وتبيدها. لو يفعلها أحد الالهة الغاضبين ويسويها بالأرض. وسأريكم بعدها كيف تبنى المدينة وتصبح عاصمة العالم وأنا على عرشها.

فسأله تيفالينوس :

- قلت، أيها القيصر، لو أن الها غاضبا يبيد المدينة اليس كذلك؟

- أجل، وماذا بعد؟

- وأنت الست الها؟

واقفه نيرون على مضض ثم قال:

- سنرى ما الذي ستتحفنا به فوق بحيرة أغريبا. بعدئذ سأذهب إلى الأنتيوم. أنتم جميعا ضحلون بحيث لا تدركون ما الذي أحجاجة وأصبو اليه من أمور عظيمة.

وأطبق عينيه، في إشارة منه، إلى أنه في حاجة للراحة. فأخذ الاوغستينيون ينصرفون حقاً. وانصرف برونويس بصحبة فينكوس فخاطبه قائلاً:

- إذن فأنت مدعو رسمياً إلى الهرج. تنازل دو اللحية الحمراء عن السفر، لكنه سيلهو في المدينة أكثر من أي وقت مضى، وسيصرف هنا كما لو كان في بيته. حاول أن تروح عن نفسك. وتجد شيئاً يسليك، وما تبقى للشيطان! لقد أخضعنا العالم، اليس من حقنا الترويح عن أنفسنا. أنت يا ماركوس شاب وسيم جداً وهذا سبب لاجعابي بك. رموشك الكثة، وجهك المتورد، وكل أولئك ما هم إلى جانبك غير أرقاء معتوقين هذه حقيقة. لولا هذا الدين البدائي لكنت ليفيا في منزلك الآن. حاول مرة أخرى أن تثبت لي أن هؤلاء ليسوا أعداء الحياة، والانسانية... لقد أحسنوا معاملتك، لذا أنت ممتن لهم، لكني، لو كنت مكانك، لكرهت هذا الدين، وبحثت عن متعي وملذاتي حيث يمكن أن أجدها. أكرر قويا لك بأنك شاب وسيم، وروما تعج بالنساء والمطلقات.

فأجاب فينكوس:

- أستغرب أنك لم تتعب بعد من هذه الامور.

- ومن قال لك هذا؟ لقد أصابني التعب منذ مدة طويلة. لم أعد شاباً مثلك. ولكن لي ميولاً أخرى أملاً بها حياتي، تفتقدتها أنت. أحب المزهريات والمجوهرات. وهناك العديد من الامور التي لا تلتفت أنت اليها. ظهري يؤلمني أحيانا، وأنت لا. وأخيراً اكتشفت يونيكي. في حين لم تكتشف أنت أحدا. أحب الاقامة في منزلي بين التحف الرائعة، في حين لا أجد فيك ميولا نحو الجمال والفن. أعلم أنني لن أحظى بأكثر مما قد حظيت به ونلته حتى الان وأنت لا تدري أنك ما زلت تعوّل على الأمال، والبحث. إذا ما طرق الموت بابك، فإنك بالرغم من كل تلك الشجاعة، والحزن اللذين تتحلى بهما، سوف يذهلك أنك ستموت، وتغادر عالم الظلال هذا. أما أنا فسأستقبل الموت كضرورة وحاجة، مقتنعا أن لا متعة في العالم الا وتذوقتها. لست أستعجل الموت، لكني لا أستجره نحوي، وسأبذل ما بوسعي لأعيش مرحا، حتى آخر لحظة في حياتي. في حين أن مسيحيك لا يجلبون إلى العالم سوى الحزن، ليغمر حياتهم كالمطر الطبيعة. أتدري ما الذي توصلت إلى معرفته؟ في الاحتفالات التي ينظمها تيفالينوس على ضفة بحيرة أغريبا تقام بيوت متعة ترتادها النساء من أرقى منازل روما. هل يعقل ألا يكون بينهن واحدة على قدر من الجمال تجد فيها سلواك؟ وبينهن عنروات يخرجن إلى الضوء للمرة الاولى... الواحدة منهن أشبه بالنيمغا عذراء الغابات المترجم. هذه هي امبراطوريتنا الرومانية... بات الجو دافئا! الرياح الجنوبية تدفع المياه، ولا تقرص الجسد العاري. كن على علم، أيها الشاب الوسيم أن لا فتاة تستطيع مقاومتك، حتى لو كانت عذراء فيستا.

راح فينكوس يضرب رأسه بكفيه كمن لا يشغل تفكيره سوى فكرة واحدة وقال:

- أحتاج إلى كثير من الحظ حتى أحظى بواحدة مثلها..

- ومن فعل هذا إن لم يكن المسيحيون!... لكن كل من تحمل شعار الصليب لا يمكن أن تكون من صنف آخر. أصغ الي: بلاد الإغريق جميلة جدا، وقد ابتدعت الحكمة للعالم. ونحن ابتدعنا له القوة، فما الذي تنتظر من الدين أن يتدع؟ إن كنت تعلم، نورني، لأني، وحق بولوكس، لا أملك حتى تخميننا.

هز فينكوس رأسه. ثم قال:

- يظن المرء أنك تخشى أن اعتنق الدين المسيحي.

- أخشى أن تفسد حياتك. وإن لا تستطيع أن تكون كاليونان، فكن كروما. احكم واستمتع. إن ما يجعل على وجه التحديد، جنونياتنا تخبي نوعا من العقل، أن هذه الفكرة كامنة فيها. أحتقر صاحب اللحية الحمراء لأنه، كيوناني، مهرج، ولو كان يعتبر نفسه رومانيا لأعطيته الحق في أن يسمح لنفسه أن يكون عربيدا. عدني أنك إذا ما عدت إلى البيت، ووجدت مسيحيا هناك، أن تعنّفه. إن كان كلاكوسوس الطبيب لن يستغرب ذلك. إلى اللقاء على بحيرة أغريبا

أحاط الحراس بالغابات الخضراء على ضفة بحيرة أغريبا، تفاديا لما تسببه حشود الناس من إزعاج للقيصر وضيوفه، لأن كل ما في روما من أثرياء، وعقول، وجماليات، ممن اعتادوا الظهور في الحياة العامة، قد حضروا المأدبة التي لم يشهد تاريخ المدينة مثيلا لها. لقد أراد تيفالينوس، من جهة، أن يعوّض للقيصر ما افتقده بسبب تأجيله رحلة أكايا. ومن جهة أخرى فقد اعتزم أن يسجل تفوقا على كل ما سبق واستضاف القيصر حتى الآن، كما أراد أن يثبت أن لا أحد بمقدوره أن يبدخ مثله. لهذه الغاية، ومنذ أن كان القيصر في نابولي، ثم في بنفنتوم، قد قام بتحضيراته، وأصدر أوامره باستجلاب كل مستلزمات الحفل من جهات العالم البعيدة. الطرائد، والطيور، والاسماك النادرة، والنباتات، والأقمشة، والقذور، فمن شأن كل ذلك أن يرفع من مستوى المأدبة، ويضفي على أضوائها إبهاراً فائقاً. لقد أنفق ما يفوق كل حد، من أجل تأمين هذه المتطلبات الباذخة الا أنه كأحد معجبي القيصر الكبار، لم يكن ينبغي عليه أن يكثر لتبديده الاسطوري للثروة. فقد كان تأثيره في ازدياد يوما بعد يوم. صحيح أنه لم يكن مفضلا لدى القيصر أكثر من الاخرين، إلا أنه بات في موقع لا يمكن الاستغناء عنه. كان بترونيوس يفوقه كثيرا بالثقافة والدمائة والروح، ورجاحة العقل، وحتى في أثناء حديثه فقد كان بترونيوس الابرع في تسلية القيصر. كل ذلك من سوء حظه، لأنه كان متفوقا حتى على القيصر، فأيقظ في داخله الغيرة. لم يستطع أن يكون أداة عمياء في

كل شيء. وإذا ما تعلق الأمر بالذائقة فقد كان القيصر يخشاه، في حين لم يشعر أمام تيفالينوس بأي حرج. كان لقب "ملك الذوق" العائد لبترونيوس يغضب القيصر لأنه يعتبر نفسه الاجدر بلقب كهذا. كان لدى تيفالينوس من العقل ما يكفي ليدرك نواقصه الخاصة. ولقناعته أنه لن يفوز بالسباق مع بترونيوس ولا مع لوكانوس، أو آخرين ممن اشتهروا بمواهبهم، وعلومهم، وأصولهم، فقد اعتزم أن يخفي م عليهم بخدماته المناسبة، وبذخه الصاعق حتى لتصورات القيصر.

لقد أقيم الحفل إذن على عوامة عملاقة شدت من عوارض مذهبة زينت حوافها بالمحار الفاخر ذي الالوان القزحيّة، والمرجانيّة التي صيدت في البحر الاحمر والمحيط الهندي، وأحاطت بها من كل جانب أشجار النخيل، وشجيرات الورود المفتحة، والرياحين التي تخللتها نوافير الماء المعطر، وتمائيل الآلهة، وشتى أنواع الطيور الذهبية والفضية. توسطتها خيمة عملاقة. وبتعبير أدق، فالخيمة المعمولة من الأرجوان السوري قد ارتفع سقفها مشدوداً على قضبان فضية بحيث تظل مفتوحة الجوانب حتى لا تعيق الرؤية. تحتها صفت الموائد للضيوف، وبرقت كلها كحشد من الشموس الكثيرة، لما استوى عليها من الزجاج الاسكراني، والكريستال، وتحف الآنية الإيطالية، واليونانية، والاسيوية الصغرى، التي لا تقدر بثمن. كثافة النباتات التي أحاطت بالعوامة جعلتها تبدو أمام الاعين جزيرة، أو غابة شدت بحبال من الذهب والقماش الأرجواني إلى مجاريف اتخذت هيئة أسماك، وجمع وبيغاوات، وعلى متنها مجدفون ملوّتون إلى جانبهم شبان وشابات عراة في منتهى الوسامة والجمال، وجوها وعضلات، بتسريحاتهم الشرقية، أو شعورهم المضمومة تحت شبكة ذهبية. وحين عبر نيرون و بوبايا و الأوغستينون من حاشيته المدخل الرئيسي للعوامة، واتخذ مكانه تحت الخيمة الارجوانية. بدأ المجدفون يلطمون الماء فتحركت

المجاديف، وانشدت الحبال الذهبية، وتحركت العوامة، وبدأت، بما عليها من ضيوف المأدبة، ترسم دوائر فوق البحيرة. وأحاطت بها مجاديف أخرى، وعوامات صغيرة، مليئة بالفتيات والاتهن الموسيقية الوترية، والنفخية، اللواتي، أمام خلفية من السماء الزرقاء والمياه، وفي لمعان ضوء الآلات الموسيقية الذهبية، كأن أجسادهن الوردية قد رشفت الضوء والزرق، وفي وسط هذه الألوان راحت تلك الزهرات بيدعن في العزف. ومن الغابة الشاطئية، وأبنية الاحتفالات الغربية التصميم المتخفية بين الأشجار، صدحت الموسيقى، وصدحت معها أرجاء المكان كافة، وترجع صداها محمولاً على أجنحة النسائم في الغابات البعيدة. وكان من شأن ذلك كله أن يذهل حتى القيصر وعلى ميمنته بوبويا، وميسرته فيثاغورس. وبدأ ذهوله واضحاً حين ظهرت بين القوراب الرقيقات الشابات بأوشحتهن الخضراء المتوججات بالورود، فالتفت، كعادته في مثل هذه الحالات، إلى "الدواق" بترونيوس يسأله رأيته فيما يرى. كان بترونيوس يشاهد ما يجري بحياد ينم عن برود المشهد، فكان ردّه على سؤال نيرون

- أظن، يا سيدي، أن عذراء عارية واحدة ذات تأثير أكبر بكثير من عشرات الآلاف.

لكن القيصر كان شديد الإعجاب بالمأدبة العائمة لجدتها بالدرجة الأولى. ناهيك عن تشكيلة المشروبات والأطعمة الواسعة المقدمة. جربا على العادة في مثل هذه المآدب إلا أنها في هذه المأدبة تشكيلة فاضت على مخيلة أبييسوس، وجعلت أوتو، الذي قدم في مأدبة أقامها ثمانين نوعاً من النبيذ، يتمنى لو يدفن رأسه في الماء خجلاً من كثرة الأنواع التي وقعت عليها عيناه. لقد اقتصر الجلوس حول الطاولة، على الاوغستيان، والنساء. إلا أن وسامة فينكوس غطت عليهم جميعاً. فيما



سبق، كان وجهه وقامته يشيان باحترافه العسكري، أما الان فإن وطأة أعباءة الداخليّة والامه الجسديّة الفيزيائيّة قد نحتت تقاسيم وجهه، كان نحاتا من أمهر النحاتين قد مر بيده عليه، فأزالت بشرة وجهه التي لفحتها الشمس، وأبقت على ألقه الذهبي الرخامي الصقيل. فقط نصف جسده العلوي قد احتفظ بعضلاته الضخمة القديمة، كأن الدم قد خلق لها وحدها من بين كامل أعضائه. وتألقت تعتليه رأسه الفخور الناعمة، كإله يوناني. نطقت الخبرة، حين تفوه بترونيوس قائلاً إنه ليس بوسعها، ولا تريد أي امرأة أو غسيتائيّة هنا، أن تقاومه. الجميع الآن ينظرون اليه، ولم تكن بوبيا استثناء، ولا روبريا ولا حتى عذراء فيستا التي حضرت المأدبة بناء على رغبة القيصر.

مالبت النبذ المثلج الموصى به من الأماكن المختلفة، أن أدفأ قلوب المدعوين و رؤوسهم. وتزايد ظهور قوراب جديدة أخرى من بين الأشجار. كانت صفحة البحيرة الزرقاء، كأنما مغطاة بالزهور، وحشود من الأقمار تتراقص عليها. وفوق القوارب هنا وهناك، رفرفرت، فضيّة وزرقاء، أنواع الحمام والطيور الهنديّة و الافريقيّة مربوطة بخيوط. كانت الشمس قد اجتازت معظم مساحة السماء، وبما ان المأدبة قد أقيمت في أوائل أيار، فقد كان الجو دافئاً، بل حاراً. ارتجت مياه البحيرة من ضربات المجدفين المتناغمة مع وقع الموسيقى، إلا أن الهواء بقي ساكناً، فلا هبوب لأوهى النسائم فوق المكان، فبقيت الغابة الشجريّة بلا حراك، كأنها وقفت تحديق وتصغي إلى الحدث المائي أمامها. ظلت العوامة تدور فوق البحيرة، آخذة معها المحتفلين الذين باتوا أكثر سكرأ و صخباً. ولم تبلغ المأدبة نهاية نصف زمنها الاول، حتى أضحي الجميع لا يعبؤون بالنظام الذي وزّعت الموائد على أساسه. ولقد قدّم القيصر لمثال الأول على خرقة، فنهض من مكانه، وأبعد فينكوس من جانب روبريا ليحتل هو مكانه، وراح يهمس في أذن الفتاة. صار

فينكوس إلى جانب بوبيا التي طلبت منه فاتحة إليه ذراعيها، أن يشد رباط كتفها المرتخي. وحين قام الشاب بفعل ذلك بيدين مرتعشتين بعض الشيء، اختلست المرأة نحوه نظرة خجولة من بين رموشها الطويلة، وهزت رأسها الناعم الجميل، كأنما تعترض على شيء ما. في أثناء ذلك، كان قرص الشمس قد كبر، و صار أكثر احمراراً، واستلقى شيئاً فشيئاً، خلف تيجان الأشجار في الغابات. كان معظم المدعوين قد ثملوا تماماً، وأضحت العوامة تتحرك محاذيةً لشاطئ البحيرة، حيث كان الرجال المتنكرون بأقنعة ساتير و فان، يعزفون ويطنلون، والفتيات المتزييات بملابس النيمغا يتحرّكن في كل اتجاه. واستقرت الشمس أخيراً. في هذه اللحظة سمعت صيحات ثملة منبعثة من تحت الخيمة، تمجد لونا، وتوهجت الاف المصابيح في الغابات. وانبعثت أشعة الضوء من بيوت المتعة المنتشرة على طول الشاطئ، وظهرت على الشرفات مجموعات شبه عارية جديدة من فتيات ونسوة أرقى المنازل الرومانية، تستدعي إليها مدعوي المأدبة بأبداً الحركات والكلمات. وحين رست العوامة أخيراً على الشاطئ نزل القيصر وحاشيته إلى الغابة، وتوزعوا الأكواخ والخيم المتخفية بين الأشجار، والمغاور الفاخرة المقامة بين الينابيع ونوافير الماء. الجميع ثمل، وفاقد الاتزان. لم يدر أحد أين ذهب القيصر، ولا من يكون هنا. السيناتور، والفارس، والراقص، والموسيقي. الساتير و لفان تبعوا النيمفاوات. وراحوا بعيداً عن الأشجار، يحطمون المصابيح ليطفئوها. فأظلمت بعض الأرجاء في الغابة، لكن الصياح، والضحك، والضجيج، والتأوهات، واللهات الحار، كان يعمّ الامكنة كلها. لم تشهد روما مثيلاً لذلك من قبل.

لم يشمل فينكوس طوال حياة ثمالة في تلك المأدبة التي أقيمت في قصر القيصر وحضرتها ليفيا، الا أن أحداث اليوم قد جعلته منتشياً، فأخذته حمى الاستمتاع. فانطلق في الغابة، يجري كالأخرين، ويبحث

بين النيمفات عن أجملهن. كانت مجموعات الفتيات تعبر متتالية على جانبيه وكان الفان والساتير والسيناتورات، والفرسان يفرّون مغنين زاقين، هرباً من صوت الموسيقى، حتى لمح أخيراً مجموعة تقودها عذراء بزّي ديانا. قفز نحوها أملاً رؤية الآلهة عن كذب، وتوقف قلبه بغتة في صدره. إنها الإلهة التي وشى رأسها القمر فبدت كأنها ليفيا.

راحت الفتيات الوحشيّات يتحلّقن حوله راقصات، ثم بالطبع لكي يثرن حماسه لملاحقتهن عدون أمامه كقطع من الطباء. إلا أنه لزم مكانه، وقد تقطعت أنفاسه، بعد أن رأى أن ديانا هذه لم تكن ليفيا، حتى أنها لا تشبهها عن قرب، فخارت قواه بعد اندفاعته الحامية. هاجه شوق أشد ما يكون إلى ليفيا، وغمرت فؤاده أمواج عنيفة طاغية من الحب. لم يخامرّه من قبل شعور يوازي هذا الشعور. كم هي عزيزة ونقيّة. وكم يحبها وهو الآن هنا في هذه الغابة بين هذه الجموع من المخبولات، المتسيّبات. كان لتوه راغبا في أن ينهل من هذه الكاس، وأن يسهم في هذا الفلتان الداعر للأحاسيس، وها هو الآن يشمئز ويتقزز منها. ويشعر أن القرف يكاد يقضي عليه، وأن صدره في حاجة إلى هواء، وعينيه إلى ضوء نجوم صافيه عصيّة على ظلمة هذه الغابة وكثافتها. واتخذ قراره بالهروب من هنا. وما إن همّ بالتحرك حتى مثلت أمامه هيئة امرأة تلفّ رأسها بوشاح. أسندت ذراعيها على كتف الشاب وهمست له على نحو أشعر فينكوس بحرارة أنفاسها: "أحبك!... تعال! لا يراك أحد. أسرع"

فسألها فينكوس وكأنه قد استفاق من حلم:

- من أنت؟

لكن صدر المرأة كان قد لامسه، فخاطبته:

- أسرع! انظر، لا أحد هنا، وأنا أحبك. تعال.

فكرّر فينكوس سؤاله:

- من تكونين؟

- احزري!

وضغطت بشفتيها عبر الوشاح على شفتي الشاب، وجذبت رأسه نحوها، ولم تبعد وجهها عن وجه فينكوس حتى آخر أنفاسها.

فقالت وقد تلاحقت أنفاسها طلباً للهواء:

- الحب!... إنها ليلة السلوان الذاتي... اليوم حرّية. أنا لك!

لكن القبلية أحرقت فينكوس وملاّته اشمئزازاً. كان في مكان آخر قلباً وروحاً، وسوى ليفيا لا أحد في الوجود.

دفع عنه الهيئة الموشحة وقال:

- كنت من تكونين، أنا أحب واحدة أخرى، ولست في حاجة اليك.

مالت المرأة برأسها نحوه:

- أزح وشاحي...

ولكنها في اللحظة نفسها فرّت مبتعدة تحف بأوراق الشجر، حتى تلاشت مثل صورة جاءت في حلم، ولا يسمع الآن إلا قهقهاتها الغبيّة.

مثل بترونيوس أمام فينكوس ليقول:

- لقد سمعتها و رأيتها.

فاستعجله فينكوس:

- لنذهب من هنا.

وذهبا. انطلقا أمام الاكواخ وعبرا الغابة، مروراً بملاعب الفروسية، فوجدا عربتهما.

قال بترونيوس:

- سأذهب معك.

- وجلسا معا. ظلا صامتين في الطريق، وحين صارا في صالون فينكوس تكلم بترونيوس قائلاً:

- أتعلم من كانت تلك؟

- روبريا؟

- لا.

- من إذن؟

- أخفض بترونيوس من صوته:

- صارت نار فيستا محتقرة، لأن روبريا كانت عند القيصر. لكن التي تحدثت معك...

وأخفض صوته أكثر:

- كانت الأوغستيّة ديفا

ساد صمت آني.

ثم تابع بترونيوس :

- لم يستطيع القيصر أن يخفي أمامها رغبته تجاه روبريا، فأرادت أن تنتقم لنفسها على هذا النحو. أما طلوعي أنا أمامك هناك، فلأنك لو عرفتها وأعلمتها بالأمر، لخسرت نفسك، وليفيا، ولخسرتني كذلك.

- صرت أضيّق ذرعا بروما والقيصر، والمآدب، والأوغستيّة، وتيفالينوس، وبكم جميعا. أكاد أموت. لا أحتمل الحياة هكذا، لا أحتمل. أتفهم؟

- لقد فقدت عقلك، ورشدك، واتزانك، يا عزيزي فينكوس !

- لا أحب سواها في هذا العالم.

- وبعدهذا؟

- لا أريد حبا آخر، لا أريد حياتكم، مادبكم، وقاحاتكم، شرورككم.

- ما الذي حصل لك؟ هل أنت مسيحي؟

فيما ضرب الشاب على رأسه، وقال بصوت حائر!

- ليس بعد! ليس بعد!

غادر بترونيوس غير راض إلى منزله. لقد اقتنع الان أنه على خلاف تام في الفهم مع فينيكوس. لن يفهما بعضا بعد الآن. والمسافة بينهما على المستوى الروحي باتت شاسعة.

في حقبة ما كان تأثير بترونيوس كبيراً على الجندي الشاب. كان مثله في كل شيء، وغالباً ما كانت كلمة منه كافية لردعه، أو إقدامه على أي أمر. لم يبق شيء من كل هذا، حتى أن بترونيوس لم يعد يستخدم أي أسلوب من أساليبه وطرقه القديمة لأنها سترتد مهزومة عند أسوار فينيكوس الروحية المشادة بالحب، والمحصنة بالت ماس بعالم المسيحية الغامض. أدرك الرجل الخبير أنه قد أضاع مفتاح روح فينيكوس.

وهو أمر لم يشحنه بعدم الرضا فحسب، بل ملأه بالخوف، الذي عملت وقائع الليلة على تفاقمه. فكر قائلاً لنفسه: "إن كل ما حصل ليس نزوة عابرة بالنسبة لديفا بل مكابدة دائمة، فهناك احتمالان. إما أن فينيكوس لن يستطيع مقاومتها وهذا ضياع له، ولي أيضاً، لكوني قريبه، وإما أن يقاومها ويكون الأمر منتهياً، دون أية ذيول وتأثيرات.

وإذا ما انتشرت أخبار هذه المكابدة ضمن العائلة كلها، فإن تأثيرها سيرجح كفة الميزان لصالح تيفالينوس كلاً الحالين مر. كان بترونيوس رجلاً شجاعاً لا يهاب الموت، ولكنه لا يطلبه أو يستدعيه، لأنه لا ينتظر منه شيئاً. بعد تفكير طويل قرر أخيراً أن أفضل الحلول

إبعاد فينيكوس عن روما، ودفعه للسفر. وكم سيكون سعيدا بتقبل الفكرة لو كانت ليفيا رفيقة سفره ! كان يأمل بإقناعه دون مشقة. وإن تم ذلك وأقنعه لا بد من إذاعة خبر في القصر يفيد أن فينيكوس مريض، لإبعاد الخطر عنهما معا. في نهاية المطاف لا تعلم الأوغستية إن كان فينيكوس قد تعرّف إليها أم لا.

وعلى افتراض النفي، فليس هنالك إذن ما يחדش غرورها. وقد يتبين في المستقبل خطأ هذا الافتراض. لكن كسب الوقت كان هو المهم بالنسبة لبترونيوس. لقد شعر أن القيصر حين ينطلق في رحلة إلى أكايا فإن تيفالينوس الذي لا يفقه شيئاً بالأمر الفنيّة، سوف يحصر في الزاوية ويفقد تأثيره. وهكذا سوف يحرز بترونيوس في اليونان انتصاره الساحق على خصومه كافة، وفي أثناء ذلك صمم على أن يظل حريصا على فينيكوس حاثاً إياه على السفر.

واعتزم، بعد تفكير طويل دام أياماً، أن يقنع القيصر بإصدار مذكرة بطرد المسيحيين من روما، وهكذا ستضطر ليفيا أيضاً إلى مغادرة المدينة، سوياً مع فينيكوس. وفي هذه الحال لا حاجة لإقناع الشاب بالسفر، كانت المسألة في حد ذاتها ممكنة. فمنذ فترة ليست ببعيدة، حين بدأ اليهود ينزعجون من المسيحيين نتيجة كرههم لهم، فإن القيصر كلوديوس دون دراية منه في التفريق بين الطرفين، قام بطرد اليهود من روما.

فما المانع إذن أن يقدم القيصر نيرون على طرد المسيحيين من المدينة؟ بعد تلك "المأدبة العائمة" كان بترونيوس يلتقي القيصر كل يوم، إن كان في القصر أو في بيوت أخرى. وكان من السهل عليه أن يوشوشه موسوساً في صدره. بمثل هذا، بما أن نيرون لم يتخلص أبداً من تقبّل



أفكار من شأنها أن توّدي إلى أذية أحدهم مهما كبرت أو صغرت. قلب بترونيوس الفكرة بكافة وجوهها، وأعد الخطة كاملة. فاعتزم إقامة مأدبة يحدث في أثنائها القيصر بإصدار مذكرة الطرد. حتى أنه كان يأمل، دون أن يخلو هذا من الأمل من تبرير، أن يكلفه القيصر بتنفيذ المذكرة. فيقوم حرصاً منه على عزيزه فينيكوس بإرسال ليفيا إلى بايابا مثلاً، حيث يتاح لهما ممارسة حبهما، مع ما ييسر لهما من المسيحية.

في أثناء ذلك كان لا ينقطع عن زيارات فينيكوس الكثيفة، لأنه أولاً وبالرغم من كل أنانيته الرومانية لم يستطع أن يتنازل عن تشبته به، ولرغبته ثانياً بإقناعه في السفر، تظاهر فينيكوس بالمرض، ولم يظهر في القصر حيث الخطط والمشاريع في تغير دائم. وذات يوم علم بترونيوس على لسان القيصر نفسه، أنه سيسافر إلى الأنتيوم خلال ثلاثة أيام، فأبلغ فينيكوس حالاً بالنبأ.

لكن الشاب أراه قائمة بالأشخاص المدعوين إلى الأنتيوم كان معتوق القيصر قد أحضرها إليه صباح اليوم.

وقال فينيكوس :

- اسمي، واسمك ضمن القائمة. وستجد القائمة نفسها حال وصولك إلى منزلك.

فعلق بترونيوس :

- إن لم أكن في دائرة المدعوين، يعني أنه ينبغي عليّ أن أموت. ولا أظن أن ذلك سيحصل قبل رحلة أكايا لأن القيصر في أمس الحاجة لي هناك.

والقى نظرة على القائمة ثم قال :

- لم نكد نصل روما، حتى بات لزاماً علينا مجدداً مغادرة منازلنا، والمتابعة إلى الأنتيوم لكننا ملزمون، فهذا أمر، وليس دعوة فقط.

- وإن رفض أحدهم ذلك؟

- عندها قد يتلقى دعوة أخرى إلى رحلة أطول لا عودة منها. خسارة أنك لم تقبل بنصيحتي، وتساfer حيث أمكن ذلك. والآن عليك أن تأتي إلى الأنتيوم.

- علي الان أن أذهب إلى الأنتيوم..... أترى أية آونة نعيش، و إلى أي درجة نحن عبيد.

- ألم تكتشف ذلك قبل اليوم؟

- لا. لقد حاولت أن تثبت لي أن الدين المسيحي عدو الحياة، لأنه يضع القيود في طريقها. لكن هل ثمة قيود أشد من قيودنا نحن؟ قلت لي إن اليونان ابتدع الحكمة والجمال، وروما ابتدعت القوة. أين قوتنا نحن؟

- ادعُ شيلون، فليس لي اليوم مزاج لأتفلسف. واهرقل ! لست أنا من خلق هذه الاونة التي نحياها، ولست المسؤول عنها. دعنا نتحدث عن الأنتيوم. كن على علم أن خطراً كبيراً يهددك هناك. ولعل من الايسر عليك أن تواجه أرسوس الذي قضى على كروتون من ذهابك إلى هناك. ومع ذلك عليك أن تذهب.

- خطر ! كلنا نفكر متلمسين دروبنا في عتمة الموت. وواحد فواحد نغرق فيها.

- دعني أعدد كل من ضاقت أحوالهم، ولم يتمكنوا من تناول الا القليل مما يشوى، ستجد أنهم، بالرغم من أزمة نيرون، أو تيريوس أو كاليفولا أو كلوديوس، قد بلغوا الثمانين، بل التسعين حولا. منهم على سبيل المثال لا الحصر، أفر ديميتوس. كان لصا في حياته ومع ذلك فقد شاخ في آمان.

- فأجابه فينيكوس

- لعل هذا بالضبط السبب في ذلك.

وتصفح القائمة كلها ليقول معلقا

- تيفالينوس، فاتنيوس، أفر يكانوس سكتوس الخ..... آية قدرة! آية لصوصية! وإذا ما فكر المرء بأن هؤلاء من يحكمون العالم! اليس الاجدى لهم، لينالوا رغيف خبزهم، أن يمارسوا أعمالا أخرى؟ كأن يدورون في البلدات يشعوذون ويقروون المستقبل.

وأردف يقول:

- أو يعرضون قرودا ذكية، أو كلابا تجيد العدو، أو حميرا تنفخ بالمزامير كل هذا صحيح. لكن دعنا نتحدث عن قضايا أهم. اسمعني جيدا. لقد أذعت في البالاتنيوس القصر نبا أنك مريض، ولا تستطيع مغادرة المنزل، ومع ذلك فقد ورد اسمك، مما يعني أن أحدهم لم يصدقني، وتعمد وضع اسمك في القائمة.

لكن ما حصل لا يهم القيصر، لأنك لست في نظره سوى مجرد جندي يمكن أن يحدثه في أفضل الاحوال، عن مسابقات السيرك، لأنك لا تفقه شيئا في الشعر والموسيقا. بديهي أن بوبيا من فكر في

أمرك، وأوردتك في القائمة، مما يعني أن معاناتها تجاهك، ليس مجرد نزوة عابرة. وهي تريد أن تخضعك.

ما أشجعها من أوغستيه بوبيا هذه !

- شجاعة بالفعل. إنها تكتب نهايتها. فينوس تدفعها لحب آخر بأسرع ما يمكن. وما دامت راغبة فيك، فعليك أن تلزم أعلى درجات الحذر والحيلة. بات صاحب اللحية الحمراء حياديا حيالها، وأضحى منجذبا نحو روبريا أو فيثا غوراس. لكنه بدافع من غروره المحض، قد ينعم عليكما أشد النعمة.

- في الغابة، لم أكن أعرف من التي قابلتها، وأنت سمعتني أقول لها بأنني لا أريدها وأحب واحدة أخرى.

- أما أنا فأستحلفك بكل ما تحت الأرض من الهة، الا تفقد ما أبقاه لك المسيحيون من عقلك. كيف ستتصرف إذا ما كان عليك أن تختار بين الفناء المحتمل والفناء الاكيد؟ ألم أقل لك إنك إن خدشت غرور الاوغستينة فلا منجاة لك؟ إن سئمت حياتك فاستجمع كل ما لديك من قوة لمواجهة أقسى أشكال الموت إن أغضبت بوبيا. فيما سبق كان الحديث معك أكثر يسرا. فما الذي تبغيه الان؟ فكر جيدا !

ولا تنس أن بوبيا قد شاهدت ليفيا في البالاتينوس، ولن يشق عليها أن تعثر على من كانت السبب في رفضك هذه النعمة الرفيعة، وتأتي بها من تحت الأرض. وعندئذ ستخسر نفسك وتخسر ليفيا أتفهم؟

كان فينيكوس يسمع وكان عقله في مكان آخر، حتى تكلم أخيرا :

- ينبغي أن أقابلها.

- من؟ ليفيا؟

- أجل.

- أتدري أين تكون؟

- لا.

- أي أنك تريد البحث عنها في المقابر القديمة، وراء نهر تيريس؟

لا أدري، لكن علي أن أقابلها.

- حسناً. حتى لو كانت مسيحية، فقد يتبين أنها أذكى منك، ولا

تريد أن تفقدك.

هز فينيكوس كتفيه قائلاً :

- لقد أنقذتني من بين يدي أرسوس.

- أسرع إذن، لأن القيصر لن يرجئ سفره. ويمكن له أن يصدر أحكام

الموت حتى في الأتيوم.

لكن فينيكوس لم يكن يسمع ما يقول، لأنه كان ساهما يفكر بليفيا

وكيف يلتقيها.

في هذه الاثناء حصل ما يبعد كل صعوبة. في اليوم التالي طب عليه

شيلون. جاءه محطماً، رثاً، جائعاً، مهدل الملابس، لم ينتظر حتى يسمح

له الخدم، فدخل مباشرة إلى الأتريوم، ووقف أمام فينيكوس قائلاً :

- فلتجعلك الالهة خالدا لا تموت، وليقتسموا معك سلطان العالم

العلوي.

بادئ الأمر رغب فينيكوس أن يطرده، لولا أن خطر له أنه قد يعلم شيئاً عن ليفيا، فتغلب فضوله على اشمئزازه.

- هذا أنت؟ ما الذي حصل لك؟

فأجاب شيلون

- خطب عظيم، يا بن جوبيتر. الفضيلة الحقّة سلعة لا تلزم لأحد، والحكمة الحقيقيّة ينبغي أن تفقد العقل، إذا لم يكن بمقدورها، الاكل خمسة أيام مرة واحدة، أن تشتري من عند الجزار رأس نعجة، وبعد أن تقتاتها في كوخها الفقير، تروي عطشها بدموع عينيها. آه يا سيدي كل ما أعطيتنيه أنفقته على الكتب. ثم نهبوني ودمروني، والعبدة التي كان ينبغي أن تخط تعاليمي هربت بكل ما بقي من عطايا جودك علي. صرت شحاذاً، لكنني فكرت من أقصد، إن لم تكن أنت الذي أحب، وأبج ل، وأغامر بحياتي من أجله.

- لم آتيت؟ وما الذي في حوزتك؟

- من أجل المساعدة، آه، يا بعل، جالبا معي بوّسي ودموعي ومحبتي، وأخبارا جمعتهما بدافع المحبة لك. أتذكر، يا سيدي، ما قلته لك في ذلك الحين، أني سحبت من حزام فينوس خيطاً لأجل إحدى رقيقات بترونيوس؟..... ثم تتبعت الأمر، ترى هل أفادها الخيط في شيء؟ وأنت، يا ابن الشمس، يا من تعلم ما الذي يحصل في ذلك المنزل، تعلم أيضاً ما مصير يونيكي الان هناك. في حوزتي الان خيط آخر مثله. احتفظت به لأجلك يا سيدي.

اكتفى بما قاله لما شعر أن الغضب قد تركز بين حاجبي فينيكوس فأراد أن يستبق الانفجار، قائلاً :

- أعلم أن تقيم ليفيا الربانيّة. سأدلك على المكان.

- أين هي؟

- عند لينوس كبير بابوات المسيحيين، ومعها أرسوس، لكن أرسوس يقصد أيضاً طحانا، يدعى ديماس. أجل ديماس! أرسوس يعمل في الليل. فإذا ما طوقت البيت ليلاً لن نجد هناك... لينوس شيخ عجوز، ولا أحد غيره في المنزل سوى امرأتين عجوزين كذلك.

- من أين لك هذه المعلومات؟

- لعلك تتذكر أنني كنت في قبضة المسيحيين ولم يؤذوني. يخطئ كلاوسيوس حين يعتقد أنني السبب في نحسه. لكن المسكين آمن بذلك، وما زال حتى اليوم، ورغم ذلك لم يؤذوني!

لا تستغرب يا سيدي أن قلبي عارم بالامتنان. أنا من الجيل القديم الاصيل. سألت نفسي: هل علي أن أتخلى عن أصدقائي، وعمن أحاطوني بفضائلهم؟ اليس نكرانا للجميل عدم الاكتراث بهم وبأحوالهم، وأين يقطنون. أقسم بسبيل بسينوس أني لا أقوى على فعل ذلك. ترددت بادئ الأمر في الذهاب، خشية أن يساء الفهم فيما أرمي إليه من زيارتي لهم. لكن محبتي غلبت خشيتي. والذي على وجه الخصوص، منحني القوة هو أنهم يصفحون بسهولة عمّن يؤذيهم. فكرت بك، يا سيدي، قبل أي أحد آخر. صحيح أننا فشلنا في مهمتنا السابقة، لكنني الآن واثق من كل شيء. والأمر يتعلق بك وحدك، لتكون البنت الملكيّة الطيبة، هذه الليلة، في منزلك. فإذا ما تم ذلك، فكر في أن الفضل في ذلك يعود إلى هذا الجائع المدقع المائل أمامك.

قار الدم في رأس فينيكوس، وهز الجنون كيانه، كأن مساقدا أصابه.

إذا ما صارت ليفيا عنده في المنزل، فمن يجروء على سلبها منه؟  
وإن أتيح له أن تكون حبيبته، فما الذي يشغله في الحياة بعدئذ سوى  
تشبته بها كحبيبة أبدية؟ فلتندحر الأديان جميعها ! لن يكثر بعدها  
لا بالمسيحيين، ولا بسماحتهم ولا بمعتقدهم البائس. أما آن الأوان  
لينفض كل هذا عنه؟

أما آن له أن يعيش الحياة كما يحيها الآخرون؟ أما ما الذي ستفعله  
ليفيا فيما بعد، وكيف ستوائم بين قدرها ودينها، فهذا شأنها.

ولعله أمر ليس بذات أهمية ! ستكون ليفيا له أمام أعين الجميع،  
والآن وحالا، وفي هذا اليوم. لكن السؤال : ترى في عالمها الجديد  
هل ستستقيم تلك التعاليم في روح ليفيا التي ستستسلم للمعاناة والمتعة  
على حد سواء؟ كل هذا يمكن أن يحصل هذا اليوم. لا داعي لإبقاء  
شيلون هنا أكثر من ذلك. عند الغروب سوف يصدر أوامره. وبعدها  
السعادة اللانهائية. فكر فينيكوس. ما حياتي أنا سوى معاناة، ورغبة  
لم أقو على إشباعها دون أجوبة لا تنتهي. ومن الآن فصاعدا كل ذلك  
انتهى ولا رجعة له.

وخطر له أنه وعد ليفيا بالامتداد يده عليها. لكن لم يكن قسما، وإن  
كان قد أقسم فبأي شيء قد أقسم؟

من المؤكد أنه لم يقسم بالالهة، لأنه لا يؤمن بها في الأساس، ولا  
بالمسيح لأنه لا يؤمن به بعد. وعلى أية حال إذا ما شعرت ليفيا أنها  
مهانة فسوف يتزوجها، وبذلك يعوضها عن كل شيء. أجل هذا الزام  
عليه تجاهها، ليست هي من أنقذ حياته. لا يمكن أن يعاملها كرقيقة،  
فهو لا يشتهيها فقط بل يحبها أيضاً. وحبها لها عائد إلى أنها هي كما  
هي، دون مقارنة بسواها. ولمع في رأسه أنه لا يكفي أن تكون ليفيا هنا



في منزله. لا يكفي أن يشدها بعنف من ذراعها، فحبه يطمح للوصول إلى أكثر من ذلك : تقبلها، وحبها، وروحها. مباركا سيكون مسعاها إذا ما وطئت بيته من تلقاء ذاتها. مباركة ستكون تلك اللحظة، وذلك اليوم، ومباركة ستكون الحياة. وستكون سعادتها لا نهائية كالبحر، وكالشمس. لكن اختطافها بالقوة، يعني اغتيال تلك السعادة العظيمة والقضاء عليها إلى الابد. كما يعني تدمير، وإهانة من أحب، والحاق العار بأغلى ما لديه في هذه الحياة.

تملكته الرعدة لمجرد التفكير على هذا النحو. التفت إلى شيلون الذي تسم ر أمامه فارغ الصبر داسا يديه في ثيابه البالية.

فاشماز لمرآه، وتمنى لو يقوم، ويسحق هذا المعاون السابق، كما يسحق المرء دودة أو أفعى سامة. بعد فترة قصيرة أدرك ما عليه أن يفعل. وبما أنه لم يعرف لأي شيء قيمة، وأنه كان في كل شيء ينقاد وراء طبعه الروماني الصلد، فقد التفت إلى شيلون قائلاً :

- لن أفعل ما تنصحني به، لكن لن أدعك تذهب دون مكافأة تستحقها. ستنال ثلاثمئة عصا.

شحب شيلون. كان البرود يضيفي جمالا إضافيا فوق وجه فينيكوس، فظن العجوز أن العقوبة ليست جادة، وما هي الا مجرد مزاح أراداه الشاب. ولكن سرعان ما اكتشف عكس ذلك، فجثا على ركبتيه، واحد ودب منكمش الجسد، يتأوه متوسلا :

- كيف يا ملك برجيا؟ لماذا؟..... يا هرم الرحمة؟ لماذا؟ أنا رجل عجوز، جائع وبائس.... هكذا ترد لي جميلي. هذه مكافأتي منك على خدماتي لك؟

فأجاب فينيكوس :

- ومن أنت بالنسبة للمسيحيين؟

واستدعى رئيس الخدم.

لكن شيلون قفز إلى قدميه، وضمهما متوسلا، متأوها، وكان شحوب وجهه موحيا بالموت:

- سيدي! سيدي! أنا عجوز! خمسين، وليس ثلاثمئة...  
خمسين... مائة وليس ثلاثمئة... الرحمة!

ركله فينيكوس بقدمه، وأعطى أمره. جاء رئيس الخدم وفي إثره عبدان قويان، فأمسكا شيلون بما تبقى من شعره، داسين رأسه في ثيابه، وأخرجوه إلى المجلد.

- باسم المسيح! صاح اليوناني عند باب المشى.

بقى فينيكوس وحيدا. الأمر الذي أصدره جعله أكثر نشاطا وحيوية.

حاول في هذه الاثناء أن ينسق أفكاره. شعر براحة كبيرة. انتصاره على ذاته شد من أزره، وقوى روحه. وأحس أنه اقترب خطوة كبيرة من ليفيا فاستجق هذه الراحة.

في اللحظة الاولى لم يخطر له البتة، أنه قد الحق بشيلون ظلما كبيرا، وأن العقوبة بالضرب كانت لنفس السبب الذي كافاه لأجله في المرة السابقة. وحتى لو خطر له هذا الخاطر، فبالنظر إلى طبعه الروماني، كان سيشعر أنه تصرف حسنا تجاه هذا الرجل الوضيع. كان لا يفكر الا

بليفيا، وكان في أعماقه يناديها : " لن أقابل معروفك بالشر. وإذا ذات يوم، عرفت كيف عاملت ذلك الرجل الذي نصحني بأن أقسو معك، ستكونين ممتنة لي على ما فعلت ". ولكنه سرعان ما طرح السؤال على نفسه : ترى هل ستثني ليفيا على ما فعله مع شيلون؟ خاصة وأن دينها يدعو إلى الصفح والمسامحة، وقد مارس المسيحيون صفحهم عن هذا البائس، رغم دافعهم الأكبر للنقمة عليه. ترجع في أذنيه النداء " باسم المسيح " وتذكر أنه بهذا النداء قد فاز شيلون بالافلات من يدي أرسوس، فاتخذ قرارا بأن يعفو عما تبقى من عقوبته.

كان موشكا أن يستدعي كبير الخدم، لما دخل الأخير تلقائيا ليعلن :

- سيدي، العجوز فقد وعيه، ولعله قد مات. هل أتابع ضربه؟

- أنعشوه، وهاتوه !

كان ناظر الأتريوم وراء الستارة، لكن، على ما يبدو، أن عجلة الانعاش لم تجر بسهولة، لأن فينيكوس قد انتظر طويلاً، وبدأ صبره ينفد حين أدخل الأرقاء شيلون. وانسحبوا في الحال بإشارة من فينيكوس. كان شيلون شديد الشحوب. وكان الدم ينزف من قدميه على أرضية الأتريوم. كان بوعيه وجائياً على ركبتيه، باسطة يديه. تلثم قائلاً :

- شكراً سيدي ! أنت كبير ورحيم.

فصرخ به فينيكوس :

- كلب ! كن على علم أنني عفوت عنك من أجل ذلك المسيح الذي أدين له بحياتي مثلك.

- أنا خادم له يا سيدي، ولك أيضاً.

- اسمعني جيداً! انهض! ستأتي معي، وتدلني على المنزل حيث تقيم ليفياً.

قفز شيلون ناهضاً، وما إن وقف على قدميه وكان شاحبا كميث حتى قال بنبرة واهنة

- سيدي، أنا جائع بالفعل... سأذهب، يا سيدي، سأذهب لكنني خائر القوة... أطعمني لو بقايا كلابك في التربة، وسأذهب بعدها.

طلب فينيكوس له الطعام، وأن يعطوه ذهبية، وعباءة، لكن شيلون قد أوهنه الضرب والجوع حتى لم يقو بعد الطعام على الحركة، وانتصب شعر رأسه مخافة أن يعتبر فينيكوس وهنه هذا مقاومة ورفضاً، فيأمر بضربه من جديد.

كرر ما قاله مبدياً أسناناً ضاحكة :

- فور أن يشحنني النبيذ، سأقوى على الذهاب حتى إلى بلاد الإغريق الشاسعة.

وبعد فترة قصيرة استجمع شيئاً من قوة، فانطلقا. كان الطريق طويلاً. لينوس كغالبية المسيحيين، كان يسكن في ترانستبريس. ليس بعيداً عن بيت ميريام، أشار شيلون إلى بيت صغير مفرد محاط بجدار حجري.

ثم قال :

- هذا هو يا سيدي :

- حسناً. انصرف الان إلى أشغالك. لكن اسمع أولاً ما أقوله لك

انس أنك خدمتني، انس أين تسكن ميريام، و بطرس و كلاسوس،  
انس هذا المنزل، و انس كل مسيحي. تعال الي كل شهر مرة، و سيدفع  
لك المعتوق ديماس ذهبيتين. لكن لو استمررت في التجسس ضد  
المسيحيين، سأمر بضربك على رأسك، أو أسلمك إلى شرطة المدينة.  
- سأنسى.

وما إن تواری فينيكوس بعد منعطف الزقاق، حتى ضم شيلون  
قبضته، و صاح متوعدا  
- قسما ب أي و فويكا أنني لن أنسى.

توجه فينيكوس مباشرة إلى منزل ميريام. صادف أمام الباب ابنها نازايوس. ارتبك الشاب لمراه، لكن فينيكوس حياه بمودة، وطلب منه أن يدخله إلى المنزل.

كان ممن رآهم، إضافة إلى ميريام، كل من بطرس و كلاوسوس و كريسبوس و بولس الترسوسي، الذي وصل لتوه من فريكيلا. اندهش أيما اندهاش لمراى فينيكوس الذي بادر بالقول

- أحييك باسم المسيح الذي أجله.

- تمجد اسمه إلى أبد الابدين.

- لقد عاينت فضائلكم، ولمست طبيكم، فجتكم كصديق طيب.

فرد بطرس قائلاً :

- ونحن أيضاً نحبيك كصديق طيب.

- سأجلس وأشارككم طعامكم، لكن اسمعوني أولاً. أنت يا بطرس، وأنت يا بولس، كونا على ثقة أني أعرف أين ليفيا. أتيت من منزل لينوس القريب من هذا البيت. من حقي وقد منحني القيصر هذا الحق، أن أطوق المنزل بخمسة من أرقائي، وأنتزع ليفيا من بينكم، لكنني لم أفعل ولن أفعل ذلك.

فقال بطرس :

- باركك السيد على هذا، وطهر قلبك.

- شكرا، لكن اسمعوني جيدا. لم أفعل ذلك رغم الاوجاع والاشواق التي تلوكني. في أثناء غيابي عنكم، كان بوسعي أن أخذها بالقوة، وأحتفظ بها لنفسى، لكن أخلاقكم، وتعاليمكم، التي لا اعتنقها أساسا، قد بدلت في روحي شيئا يمنعني أن الجأ إلى العنف. لا أدري ما الذي حصل، لكنه قد حصل ! جئتكم إذن، بصفتمكم أهل ليفيا عوضا عن أمها وأبيها، لأقول لكم : أعطوني إياها كزوجة، وأقسم بأني لن أقف حائلا وأمنعها عن إيمانها بالمسيح، لا بل أعدكم أني سأتعلم منها الدين المسيحي.

تكلم برأس مرفوعة، ولهجة واثقة، لكن رجليه صارتا ترتجفان حين أنهى كلامه. وراى صمت موحش، فسارع إلى التدخل مستبقا سماع رد غير مرغوب فيه

- أعرف العوائق، لكني أحبها كحياتي. صحيح أني لست مسيحيا، لكني لست عدوا لكم ولا للمسيح. رغبتى أن أحظى بثقتكم. هذه لحظة مصيرية لحياتي، وأنا أحدثكم بكل صدق. لعل أحدا غيري سيقول : " اجعلوني مسيحيا " لكني أقول : " نوروني ! ". فأن يكون المسيح قد قام بعد الموت، فذلك يقوله من يعيشون حقيقه أنهم قد رأوه بعد موته. أنا رأيت بنفسى ما يتضمنه دينكم من الصدق والفضيلة، والسماحة، لا من أفعال الخبث التي تسيء فيكم الظنون. لا أعرف، بعد، هذا الدين حق المعرفة. لكنها معرفة نلتها منكم، ومن معاملتكم، ومن أحاديث ليفيا عنكم. أعيد الكرة وأقول

أن شيئاً قد تبدل في . كنت في السابق أعامل أرقائي بيد حديدية، أما الان فبت لا أقوى على ذلك . لم أكن أعرف الرحمة، والان أعرفها . كنت أحب متع الحياة، لكنني الان هربت من مأدبة بحيرة أكريبا لأنني لا أطيق هذا القرف . كنت في السابق مؤمنا بالعنف والقوة، وقد تخلت عنهما . كونوا على علم بأنني بت لا أجد نفسي، لكنني أقرف المآدب، أقرف النبيذ، والغناء، والالات الموسيقا، والاكاليل، وأقرف البلاط القيصري، والاجساد العارية، وكافة الشرور .

وكلما فكرت كم ليفيا نقيّة كتلج الجبال، وأن نقاءها مرده إلى دينكم، ازداد حبي لها، ولهذا الدين . وبما أني لا أفهمه ولا أدري إن كنت أحتمل، بالنظر إلى طبعي، أن أحياءه، وأعيش تعاليمه، لذا أجد نفسي، متروكا للعذاب والحيرة والتمزق، وكأني أحياء في سجن مظلم .

ثم تقطب جبينه، واكتسى وجهه بالحمرة، واسترسل في الكلام من جديد

- ترون كم يؤرقني الحب وغبش البصيرة . قيل لي أن دينكم لا يقيم اعتبارا للحياة والسعادة، ولا للحقوق والنظام، ولا للتفوق وسلطة روما . اليس كذلك؟ وقيل لي أنكم جميعا مجانين، فقولوا لي ما الذي أنتم جئتم به؟ هل الحب خطيئة؟ هل الشعور بالسعادة خطيئة؟ هل الفرح خطيئة؟ هل أنتم أعداء الحياة؟ هل على المسيحي أن يكون شحاذا؟ هل علي أن أتخلى عن ليفيا؟ ما الصحيح لديكم؟ مساعيكم وكلامكم كالماء العذب، ولكن ما الذي يرقد في قاع هذا الماء؟ ترون مدى صدقي . بددوا هذه الظلمة من أمامي ! فقد قيل لي



أن اليونان جاء بالحكمة، والجمال، وجاءت روما بالقوة، فما الذي جئتم به أنتم؟ قولوا لي ذلك. وإن كانت أبوابكم تنغلق على أنوار، فافتحوا أبوابكم لي.

قال بطرس

- جئنا بالمحبة.

وأضاف بولس الترسوسي

- لو تحدثت بلسان البشر أو الملائكة، وقلبي خال من المحبة، لكان كلامي طنانا أجوف لا معنى له. لكن قلب الحواريّ العجوز خفق لهذه النفس المتخبطة كطائر محتجز في قفص يضرب بجناحيه نحو الفضاء والشمس، ففتح يديه نحوه قائلاً.

- من يدق الابواب تفتح له. لقد نلت رحمة السيد فأنا الان أباركك، وأبارك روحك، وحبك، باسم مخل ص العالم.

كان فينيكوس يتحدث بحماسة. والان، وقد سمع ما نطق به بطرس، قفز إلى بطرس، وبحركة غريبة أمسك بيده وقر بها من شفتيه تعبيراً عن امتنانه.

كانت بهجة بطرس لا توصف، وقد أدرك أن غرسته أثمرت، وشبكته صادت روحاً جديدة أخرى. أما الحضور، وترحاباً منهم بما أبداه فينيكوس من احترام لحواري السيد، فقد صاحوا مهللين صيحة شخص واحد :

- المجد للرب في الاعالي .

صحاح فينيكوس بوجه مؤتلق ليقول :

- أرى أن السعادة يمكن أن تقيم بينكم، لأنني أشعر بالسعادة. وأظنكم ستفوزون في أمور أخرى لكن ذلك لن يتم في روما. القيصر سيسافر إلى الأنتيوم، وعلي أن أكون بأمر منه معه. تعلمون أن رفض الأمر يعني الموت. لكن إن كنتم تنشدون الرحمة أمام أعينكم، فتعالوا معي وابدؤوا بتعليمي، فهناك أكثر أمانا لكم. قيل أن أكتي مسيحية، وأن بين الحرس كثيرين مثلها، وأنا رأيت بأم عيني كيف عند مدخل نوفتانا ركع الجنود أمام قدميك يا بطرس. لدي في الأنتيوم فيلا يمكننا في ظل نيرون أن نجتمع فيها ونصغي إلى تعاليمكم. قال كلاوسوس إنكم قد تصلون إلى نهاية العالم من أجل الفوز بشخص واحد. افعلوا من أجلي ما تفعلونه للآخرين الذين جئتم لأجلهم من يهوديه البعيدة. افعلوا ذلك ولا تتخلوا عن روحي!

أما هم، فراحوا يتشاورون بعدما سمعوا ما سمعوه. فكروا بالفوز الكبير لدينهم، وبما يعنيه اعتناق أحد الاوغستينيين من أعرق أقوام روما الوثنيين الدين المسيحي. وبما أنهم حقا على استعداد لبلوغ أطراف الدنيا من أجل نفس واحدة، فلم يكونوا في وارد الاعتراض على فينيكوس، لكن بطرس في هذه الاونة، كان راعي الجموع كلها هنا، فليس بمقدوره أن يذهب.

على العكس، بولس التر سوسي الذي جاب أريسا و فريغلا، ويستعد الان للعودة في طريق طويلة إلى الشرق، للاطمئنان على

أحوال الجموع هناك وإيقاظ هممهم، فقد قرر مرافقة الشاب إلى الأنتيوم حيث من اليسير إيجاد سفينة في البحار اليونانية.

أما فينيكوس، فقد أحزنه أن بطرس الذي يدين له بامتنان شديد، لن يرافقه. ومع ذلك فقد قدم شكره الجزيل، وتوجه نحو الحواريّ العجوز برجاء أخير

- أعلم أين تقطن ليفيا، فبوسعي إذن أن أذهب إليها بنفسي، وأسألها كما تستوجب اللباقة والادب، إن كانت تقبل بي زوجا. رضيت روحي بالمسيحية. وأرجو منك بالتحديد يا بطرس أن تسمح لي بزيارتها، أو أن تأخذني إليها بنفسك. ولأني لا أدري كم سيطول بقائي في الأنتيوم، وكما تعلمون لا أحد مقربا من القيصر يمكن أن يكون ضامنا لحياته. كان برونوس قد قال لي أنني لست في آمان كبير هناك. فدعني أرها. دعني أشبع عيني منها. دعني أسألها إذا ما كانت قد ساحتني، وإن كانت على استعداد لمشاطرتي الحياة الصالحة.

فأجابه بطرس بطيبته المعهودة مبتسما

- ومن ذاك الذي يمنع عنك السعادة الحقيقية يا بني؟

انحنى فينيكوس مجدداً على يد الحواريّ، لأنه لم يستطع أن يكبح فرحته العارمة، واندفاع قلبه، لكن الحواريّ أمسك رأس الفتى بيديه قائلاً له :

- لا تخف من القيصر، لأن شعرة منك لن تمس بأذى.

وأرسل ميريّام لتأتي بـ ليفيا، منبها إياها الا تخبرها بمن جاء لزيارتها فتكون فرحتها أكبر. لم يكن المنزل بعيد من هنا، فما لبثت ميريّام أن عادت مصطحبة الفتاة.

أراد فينيكوس أن يجري إلى الفتاة، لكن رؤية المحبوبة جعلته من فرط سعادته، يفقد كل عزم لديه. بقى في مكانه خافق القلب، مرتبك الانفاس، لا تقوى ساقاه على حمله. كان انفعاله أضعاف ما كان عليه حين سمع لأول مرة سهام البار توسيين تنز قرب أذنيه.

دخلت الفتاة مسرعة تجهل الأمر، لكنها ما إن لمحت الشاب حتى تسمرت أيضاً في مكانها. طفح وجهها بإحمرار تلاه شحوب مخيف، ثم جالت بعينين جافتين مذهولتين فيمن حولها من الحضور. لكنها لم تلمح سوى وجوه مؤتلفة تشع هدوءاً وطيبة.

تقدم نحوها بطرس وقال

- أما زلت تحبينه يا ليفيا؟

تلا ذلك صمت آني. ارتعشت شفتا الفتاة كطفل تقوس فمه أثناء البكاء، وكمن يشعر بنفسه مذنباً وعليه الان أن يعترف بذنبه.

استعجلها بطرس :

- أجيبني :

فتقدمت راحة أمام قدمي الحواريّ، وبصوت خفيض جافل همست قائلة :

- أحبه.

وفي هذه اللحظة كان فينيكوس قد صار راكعا إلى جانبها، أما بطرس، فقد وضع يديه فوق رأسيهما، وقال :

- أحبا بعضا كرمي للسيد ولمجده، لأن حبكما ليس خطيئة.

تنزّها في الحديقة، وأعاد فينيكوس لليفيا بعبارات متسرّعة، نابغة من القلب، ما كان قد باح به للحواري قبل قليل : ما يعانیه من قلق روحي، وما طرأ عليه من تبدلات، وأخيراً مقدار شوقه اللا محدود الذي استحوذ عليه وملاً كيانه، منذ أن غادر منزل ميريّام. واعترف لها أنه أراد أن ينساها لكنه لم يحدث. وأنه كان يسهر الليالي الطوال دون أن تغيب عن باله لحظة واحدة ويذكره بها ذلك الصليب الخشبي الصغير الذي تركته له هناك، ويعرضه في أحد رفوف منزله، وينظر إليه باحترام وكان فيه شيئاً الوهياً. لكم اشتدّ شوقه إليها، بفعل حبه العنيف لها. حياة الآخرين تنسجها الاقدار، لكن حياته منسوجة بالحب، والشوق، والحزن.

كانت أفعاله سيئة، لكنها أعطت الحب. لقد أحبها عند عائلة أولوشس، وأحبها في البالاتينوس، وأحبها حين رآها في الأستريانوم وهو يستمع إلى موعظة بطرس، وأحبها حين أراد أن يختطفها بمساعدة كروتون، وحين لم تبارحه في مرضه، وظلت قرب سريرها، وأحبها حين غادرت. جاء إليه شيلون ووشى بمنزل ليفيا، ونصحها باختطافها من هناك، لكنه فضل أن يقصد الحواريّ، ويسأله عن صحة الدين، ويطلب يد الفتاة منه،... بوركت اللحظة التي جاءت بهذه الفكرة، وجعلته الان بقربها. ليفيا لن تفارقه بعد الان، ولن تهرب منه كما فعلت من قبل في منزل ميريّام.

قالت ليفيا :

- لم أهرب منك.

- لم فعلت ذلك إذن؟

رفعت الفتاة عينيها الزرقاوين، ثم أطرقت خجولة وقالت :

- أنت تعرف جيدا.

ثم أمسك يد الفتاة، ولم يقو على متابعة الكلام.

راح يحدق فيها بانشداه، وكان حياته قد استرجعت السعادة، وأنه يريد أن يتأكد أنه قد وجدها وأنها الآن بقربه حقا.

اكتفى بترديد اسمها متأوها

- آه، ليفيا، ليفيا !

وأخيرا، راح يبوح بما يدور في أعماق روحه، كما اعترفت له الفتاة أنها قد أحبتة مذ كانت في منزل اولوش، ولو أن فينيكوس قد أعادها آنذاك من القصر إلى ذلك المنزل، لباحت له بحبها، ولتوسلت لأولوش، وبومبونيا أن يسامحاه.

- أقسم لك يا ليفيا أنه لم يخطر لي أن أبعدك عن عائلة اولوش. في ذات يوم سيوضح لك بترونيوس أنني أفصحت له عن حبي لك، وأني أريدك زوجة لي. لكنه سخر مني، واقترح على القيصر أن يعاملك كرهينة، ويعيدك الي. لقد اصطدمت بكثير من العناء والام، لكن عسى أن يكون القدر قد أراد ذلك لأتعرف على المسيحيين، وأفهمك جيدا.

فأجابت ليفيا

- تأكد يا ماركوس أنها مشيئة المسيح ليقربك منه.

فهز رأسه مبديا الدهشة، وقال بنبرة حيوية :

- صحيح ! حصل كل شيء على نحو غريب حيث بحثت عنك،  
التقيت المسيحيين.... وأصغيت باندهاش لما قاله الحواريّ في  
الأستريانوم من أمور لم أسمع بها من قبل. هل صل يت لأجلي.

هزت رأسها موافقة:

- أجل!

سارا بجوار تعريشة من الشجيرات، حتى وصلا إلى المكان حيث  
قام أرسوس بخنق كروتون، وهجم على فينيكوس.

- هنا كنت سأفقد حياتي لو لم تكوني هناك.

فقاطعت الفتاة

- لا تذكرها، وأنس ما فعل أرسوس!

- هل أنقم عليه لأنه حماك؟ لو كان عبدا لعتقته حالا.

- لو كان عبدا لعتقت أرسوس منذ زمن بعيد.

فسال فينيكوس:

- أتذكرين أنني أردت أن أعيدك إلى عائلة اولوش؟

كانت إجابتك : لو عرف القيصر سينقم على العائلة. أما الان  
فبوسعك أن تزوريها متى تشائين

- لماذا يا ماركوس؟



- قلت " الان " لكنني فكرت أن بوسعك فيما بعد أن تزوريها بكل اطمئنان حين تكونين لي. اليس كذلك!.... لأنه في حال سألني القيصر: ماذا حل بالرهينة التي في عهدي، لأجبهه أنني أتخذتها زوجة لي، وأنها تزور عائلة اولوش بإرادتي. لن يبقى القيصر طويلاً في الأنتيوم، لأنه يتطلع إلى أكايا، لكن حتى لو بقى هناك مدة أطول، فليس لزاما علي لقاءه كل يوم. فما أن يقوم بولس بتعليمي ديانتكم، حتى أعتنق المسيحية حالا، وأعود إلى هنا، وأفوز بصداقة عائلة اولوش التي تعود في هذه الاونة إلى المدينة، ثم أتزوجك. آه أيتها السماء!

وفتح يديه كأنه ينادي السماء لتشهد على حبه. أما ليفيا فقد رفعت وجهها المؤتلق نحوه وقالت :

- وعندئذ سأقول : " حيث تكون أنت غايوس، أكون أنا غايا "

صاح فينيكوس :

- لا يا ليفيا ! أقسم أن ليس هنا امرأة ستحظى باحترام رجلها كما ستحظين به عندي من قبل الجميع.

تمشياً قليلاً صامتتين، لا يتسع صدراهما لفرحتهما الهائلة. كان غارقين في حب بعض، وكانا كالهين، وجميلين كأن الربيع قد طلع بهما مع أزهاره.

وأخيراً توقفا قرب باب المنزل أمام شجرة السرو المخضوضرة.

استندت ليفيا على جذع الشجرة، أما فينيكوس فقد بدأ يتوسل اليها بصوت مرتعش :

- أرسلني أرسوس إلى عائلة اولوش، وليجمع كل متاعك والعباب طفولتك، ويأتي بها إلى عندي.

لكن الفتاة احمرت، كوردة جورية أو كالفجر، وأجابت:

- اللباقة تقول غير ذلك.

- أعلم. لكن أفعلني ذلك لأجلي. سأخذ متاعك معي إلى الفيلا في الأنتيوم لتذكرني بك على الدوام.

وجمع راحته على طريقة طفل يتضرع مكررا:

- بومبونا ستعود هذه الايام. افعلني ذلك من أجلي.

- اللباقة أن تفعل بومبونا ما تراه مناسبا. هي العقيلة، ووليّة الأمر.

وتفاقم احمرار وجهها عند ذكر بومبونا

ثم صمتا من جديد، لأن الحب قد قطع أنفاسهما.

كانت ليفيا تستند بظهرها إلى شجرة السرو، ذابلة الوجه كزهرة في الظل، وقد أغمضت عينيها، وماج صدرها عابقا بالحرارة. أما وجه فينيكوس فقد استحال إلى شحوب. كانا يسمعان دقات قلبيهما في صمت الظهيرة. وفي هذا الثمالة المتبادلة استحالت السروة، والريحان، والعرائش بالنسبة اليهما إلى حديقة للحب.

لكن مريام ظهرت في الباب، ودعتهما إلى الغداء. جلسا بين الحواريين الذي راحا ينظران اليهما، مستمعين بمشدهما كجيل جديد يرث بعد موتهما مسؤولة غرس بذار التعاليم. قطع بطرس

الخبز وباركه. مسحت الطمانينة الوجوه، كأن أرجاء الغرفة قد ملئت  
بسعادة لا حدود لها.

التفت بولس إلى فينيكوس قائلاً :

- أحقا نحن أعداء الفرح والحياة؟

فأجابه الشاب؟

- الان عرفت الحق، لأنني ما كنت سعيدا يوما مثلما أنا بينكم الان.

في ليل ذات اليوم، حين كان فينيكوس متجها نحو منزله، لمح هودج بترونيوس المذهب عند مدخل فيكوس توسكوس. كان يحمله ثمانية من العبيد، فلوح لهم فتوقفوا. ثم اقترب من ستارة العربة.

أحلاما سعيدة !

قالها ضاحكا حينما رأى أن بترونيوس غارق في النوم، فجفل الاخير وقال :

- آ. هذا أنت ! أجل لقد سهوت قليلا لأنني أمضيت الليلة في البالاتينوس. وخرجت الان لأبتاع ما يقرأ في أثناء إقامتنا في الأنتيوم... ما الاخبار؟

- هل درت على المكتبات؟

- أجل لا أريد أن أقلب في مكتبي، اشتريت كتبا خاصة للطريق. سمعت أن مؤلفات جديدة صدرت لـ سينكا و موسونوس. واشتريت لـ برسيوس أيضاً. ونسخة من قصيدة الرعاة لـ فرجيلوس التي لم أكن اقتنيها. آه كم أنا متعب، وكم تؤلمني يداي لكثرة ما أنزلت من اللفائف... حين يكون المرء في مكتبة، يستيقظ فضوله للاطلاع على هذا وهذا، وذاك.

كنت عند أفيرنوس، و أتراكوس، و أرغلاتوم، وقبلها عند سوسيوس و فيكوس، سند الايوس. كم يغلبني النعاس !

- أنت كنت في البلاتينوس، فأنا الذي اسالك ما الاخبار؟ لكن لا.  
أرسل الهودج، واللفائف، وتعال معي، سنتحدث عن الأتيوم وعن  
شيء آخر كذلك.

فأجابه بترونيوس وهو يترجل:

- حسنا. عليك أن تعرف أننا سننطلق بعد غد.

- وكيف لي أن أعرف؟

- في أي عالم تعيش؟ أنا أول من يخبرك بالنبأ إذن. كن جاهزا صباح  
بعد غد. لا مجال للتأجيل. صاحب اللحيّة الحمراء لا يني يشتم روما  
وهواءها، حيث لم ينفعه كل ما استخدم من زيوت لبحّة صوته. يود  
لو يقوض روما، ويحرقها بالنار، وهو متلهّف لبلوغ البحر بأسرع ما  
يمكن. يقول إن الروائح التي يحملها الهواء صوبه من الأزقة الضيقة  
تخنقه. لقد قدمت اليوم أضخم القرايين في المعابد لاسترجاع صوته.  
والويل لروما، وخاصة لسيناتوس، إن لم يشف حالاً.

- إذن لا سبب للسفر إلى أكايا

فطرح بترونيوس السؤال ضاحكا:

- وأي موهبة يتمتع بها قيصرنا، سوى أن يشارك في الالعاب  
الاولمبيّة كشاعر بمؤلفه " احتراق طروادة"، أو كقائد عربية، أو  
موسيقي، أو كرياضي، وحتى كراقص، ويفوز بالاكاليل. أتعلم ما  
سبب البحة في صوت هذا القرد؟ تصور! لقد طلع في عقله أن يؤدي  
لنا راقصا قصة ليذا، فتعرق تعرقا شديدا، وابترد. كان مبللا كسمكة  
الحنكليس الخارجة لتوها من الماء. راح يبذل الاقنعة واحدا تلو الاخر،

ويقتل كالمغزل، ويومئ كبحار ثمل، وكان مشهد كرشه الكبير وساقيه  
النحيلتين يبعث على القرف.

استمر تدريبه اسبوعين تحت إشراف باريس، تخيل ليدا أو بجعة.  
هو وبجعة! مستحيل. لكنه يريد أن يشارك بهذه الرقصة في الأنتيوم،  
ثم في روما.

- لقد فضحوه لأنه غنى أمام الجمهور. لكن أن يظهر قيصر روما  
كممثل! لا. لن تقبل روما ذلك.

- يا عزيزي! روما تقبل كل شيء. مجلس الشيوخ يحضر لإقامة  
احتفال شكر لقائد الوطن.

وأضاف يقول:

- والعامه فخورة بأن القيصر مهرج.

- هل هناك وضاعة أشد من ذلك؟

فهز بترونيوس كتفيه قائلاً

- إنك تعيش في المنزل رهين أفكارك. ليفيا، أصدقاؤك المسيحيون.  
من الطبيعي أنك لا تدري ما الذي حصل خلال الايام القليلة الماضية.  
لقد أعلن القيصر بيتاغوراس زوجة له كان الشاب هو الخطيبة. الا يظن  
المرء أن هذا منتهى الخبل والجنون؟ ما قولك باحتفال قد أقيم بمناسبة  
قدوم الكهنة لعقد قرانهما. أنا كنت هناك، واحتملت لأني شديد  
الاحتمال والصبر، لكني فكرت بأن هناك الهة ينبغي أن تعطي إشارة  
ما... لكن القيصر لا يؤمن بالالهة وهو محق في هذا.

فعلق فينيكوس قائلاً :

- فهو إذن كبير الكهنة، والاله، والجاحد بالالهة في شخص واحد.

قهقه بترونيوس :

تماماً لم يخطر لي ذلك أبداً. إنه فريق كامل، لا مثيل له في العالم.

ثم نهض وقال :

- أضف إلى ذلك، أن كبير الكهنة هذا الذي لا يؤمن بالالهة، ويشمئز منهم، يخشاهم في الوقت نفسه كونه ناكراً لهم.

- أكبر مثال على ذلك ما حصل في معبد فيستا.

- أي عالم هذا !

- والقيصر على شاكلة هذا العالم، لكن ذلك لن يدوم طويلاً.

وظلاً يتحدثان على هذا النحو، حتى بلغا منزل فينيكوس. طلب الشاب إعداد العشاء مبتهجاً، ثم التفت إلى بترونيوس قائلاً :

- لا يا عزيزي. ينبغي على العالم أن يبعث من جديد.

فأجاب بترونيوس :

- نحن لن نقوم ببعثه، فقط لأن الانسان في عهد نيرون، كالفراسة التي تعيش تحت شمس النعمة لكنها شاءت أم آبت ستفنى من أول هبة ريح حارة. أقسم بآبن مايا أنني كثيراً ما أطرح السؤال على نفسي، بأية أعجوبة استطاع واحد مثل لوسيوس ساتونيوس أن يبلغ

الثالثة والتسعين من العمر، وكيف له أن يتفادى يبريوس و كاليقولا و كلاوديوس؟ لكن دعنا من ذلك. أسمح لي بإرسال هودجك من أجل يونيكي؟ لقد غادر النعاس عيني، وأرغب أن أروح عن نفسي. اطلب الة وترية على العشاء، وستحدث عن الأنتيوم. علينا أن نفكر بهذا جيدا.

أمر فينيكوس بأن يحضروا يونيكي، لكنه حبذا الا يدور الحديث عن الأنتيوم تفادياً لوجع الرأس.

- دع ذلك لمن لا يستطيعون العيش إلا تحت أشعة نعمة القيصر. ليس باللاتينوس نهاية العالم، خاصة لأولئك الذين تجيش صدورهم بأمور مختلفة تماماً.

قال ذلك بمرح وحيوية وعدم اكتراث، على نحو أذهل بترونيوس الذي حدق فيه لحظة ثم قال :

- ما الذي حصل لك؟ أنت اليوم كأنك تحمل اشارة البابوية حول عنقك.

- أنا سعيد. ولذلك استدعيتك اليوم، لأعلن لك مدى سعادتي.

- ما الأمر؟

- أتذكر حين كنا معا في منزل أولوس وشاهدت تلك الفتاة الالهية التي اسميتها بنفسك فجراً، وربيعاً؟ أتذكر تلك البسيشة الاجمل بين العذارى كلهن، وكل الهاتك؟

حدق بترونيوس فيه بذهول، كأنه يتحقق فيما إن كان الشاب ما زال يحتفظ بعقله، وقال :



- في أي لغة تتكلم؟ طبعاً أتذكر.

- أنا خطيبها ونهض قافزاً يستدعي كبير الخدم، ليقول له :

- ليأت العبيد كلهم، من أولهم إلى آخرهم.

فكر بترونيوس :

- خطيبها؟

وقبل أن يذهب بعيداً في إبداء دهشته، كان الأرقاء قد بدؤوا يحتشدون في الأتريوم. هرول العجائز لاهثين، وجاء الرجال والنساء والشبان، والشابات، حتى اكتظ الأتريوم لحظة بعد لحظة. وتصاعدت صيحات من مختلف اللغات، حتى امتلأت الأروقة، فيما وقف فينيكوس قرب المدخل منادياً معتوقه ديماس :

- كل من أمضى عشرين عاماً في هذا المنزل، ليحضر غداً عند كبير الخدم، وسيكون حراً.

أما الذين لم يمضوا هذه المدة، فسينال كل منهم ثلاث ذهبيات، وضعف وجبات الطعام لمدة أسبوع. ابعث إلى معسكرات الأعمال الشاقة في القرى أن يوقفوا كافة العقوبات، ويفكوا قيود أرجل الأرقاء هناك، ويحرصوا على تغذيتهم جيداً. ليكن في علمكم أنني في غاية السعادة اليوم، وأردت أن يكون كل بيتي سعيداً.

وقف الجميع للحظة مخبولين، لا يصدقون آذانهم، ثم ارتفعت الأيدي كلها دفعة واحدة، وصاحت الأفواه :

- آآ. سيدي! آآ.

وصرفهم جميعا بإيماءة من يده. كان بود الجميع أن يركعوا أمام قدميه تعبيرا عن امتنانهم، لكنهم أسرعوا في الانصراف، وملؤوا المنزل بالترحاب البهيج.

- وغدا سوف أجمعهم في الحديقة، وأمرهم بأن يرسم كل منهم آية رموز يشاء، ومن سيرسم سمكة، ستعتقه ليفيا.

أما بترونيوس الذي لا يدهشه العجب، فقد وقف خامدا وسال - سمكة؟ آها، تذكرت. شيلون قال إنها رمز المسيحيين.

ثم مد يديه نحو فينكوس وقال :

- السعادة دائما حيث يراها المرء. لتثر فلورا الازهار أمام أقدامكم سنين طويلة. أتمنى لك كل ما تتمناه لنفسك.

- أشكرك على هذا، فقط ظننت أنك ستثنيي عما أقدم عليه، وإن كان لا فائدة من مساعيك، ومضيعة وقتك في ردعي.

- أنا أثنيك؟ أبداً لا بل أقول أن ما تسلكه حسن.

صاح فينيكوس مرحا

- هه ! أيها الانتهازي ! أنسيت ما قلته حين كنا عائدتين من عند غريسينا؟

فأجاب بترونيوس ببرود :

- لا، لكنني غيرت نظرتي.

وأضاف بعد قليل :

- يا عزيزي، كل شيء يتغير في روما ! الرجال يبدل ون زوجاتهم، والنساء رجالهم، فلم لا أبدل أنا رأبي؟ وأي انتقاص في الأمر؟ نرون ذاته كان يمكن أن يتزوج أكتي التي صنفوها، خدمة له، بأنها تنحدر من سلالة ملكية. فما الذي كان سيحصل؟ بالنسبة له ستكون زوجته الطاهرة، وبالنسبة لنا ستكون أوغستا الطاهرة. قسمًا ببروتوس، وبكل القيعان البحرية، أنني سأظل أبدل في آرائي ما دمت أرى ذلك سليماً، ومبعث ارتياح. وما يخص ليفيا، فإن انحدارها الملكي أكثر موثوقية من أكتي. لكن في الأنتيوم، احذر بوبيا لأنها من الصنف الناقم جداً.

- ليست في بالي. لا أحد في الأنتيوم يستطيع أن يخذلني.

- أن كنت تظن أنك ستخبلني مرة أخرى، فأنت مخطئ. لكن من أين لك هذه الثقة؟

- هذا ما قاله له الحواريّ بطرس.

- آ. الحواريّ بطرس قال ذلك ! لا جدال في هذا. لكن اسمح لي أن أقوم ببعض التدابير من منطلق الحيطة، حتى لا ينكشف أمر بطرس على أنه رسول سيء، لأن خطأ واحداً منه يجعلك تفقد هذه الثقة، التي يحتاجها منك في تقديم خدمات طيبة له حتى في المستقبل.

- أفعل ما تشاء، لكنني أثق فيه. إن كنت تظن أنك ستنفري منه بذكرك اسمه على الدوام، فأنت مخطئ.

- سؤال آخر إذن : هل صرت مسيحياً؟

حتى الآن لا. لكن بولس الترسوسي سيأتي معي ليشرح لي وصايا المسيح، وبعدها سأعتنق المسيحية، لأن ما قلته أنت عن أن أولئك أعداء الحياة والسعادة غير صحيح.

- أفضل لك وللфия. لكن الغريب كيف يتمكن هؤلاء من كسب أنصارهم. وكيف ينتشر هذا المعتقد؟

فكان وفاء من فينيكوس أن يرد وكأنه مسيحي حقا

- تماماً بلغ عددهم في روما عشرات الالاف. وهم في المدن الايطالية، واليونانية، وآسيا. وهناك مسيحيون في ليفيو و بريتوريا، وحتى في البلاط القيصري. وهذه التعاليم يتبعها أرقاء، ومواطنون، وفقراء، وأغنياء، وعامة، ونبلاء، وأشرف. هل تعلم أن بين الكورنيلين أيضاً مسيحيين، وأن بومبونيا منهم، وعلى الأرجح كانت أكتافياً أيضاً مسيحية. وبالتأكيد أكتي. هذه حقيقة. وعلى ما يبدو أن هذا الدين سيجتاح العالم. وأنه الوحيد الذي بمسطاعه أن يقوم ببعث العالم. لا تهز كتفك، فمن يدري بعد عام إن كنت أنت بالذات، سوف تعتنقه أم لا.

- أنا؟ لا. أقسم بابن ليتو أنني لن أعتنقه، حتى لو تضمن كل حقيقة، وحكمة بشرية أو الهية... ذلك يحتاج إلى جهد كبير، وأنا لا أريد أن أتنازل عن أي أمر حياتي. إن طبيعتك الحامية كالنار والماء المغلي، تؤهلك للانجذاب بسهولة، أما أنا؟ فلدي أزهارى وبراعمي، ومزهرياتى، وجواهرى. كما لدي يونيكاي أيضاً. أنا لا أو من باولبوس، لكنني أبتدعه لنفسى هنا على الأرض. وبراعمي ستظل تفتح ما دامت سهام الرماة الالهية لا تخترق جسدي، أو ما دام القيصر. لا يخاطبني بالمتبجح في قواي. أحب رائحة البنفسج إلى حد

كبير، والحياة الرغيدة، وأحب حتى الهتنا كهيئات بلاغية منمقة، كما أحب أكايا إلى حيث نستعد للذهاب برفقة قيصرنا الالهي الخارق، صاحب الكرثس، والقدمين النحيلتين، وحاشيته من الاوغستيين، و المتسابقين، وهرقل، ونيرونا.

والحق أنه فرح لفكرة كونه يمكن أن يتقبل تعاليم الصيادين الجليلين. وراح يدمدم شيئاً مما يحفظه منهم. لكنه كف عن ذلك لأن إحدى الرقيقات أبلغته أن يونيكي قادمه.

ولمجرد قدومها أحضر طعام العشاء. وفي أثنائه غنى أحد العازفين بعضاً من الاغاني، ثم راح فينيكوس يحكي لبترونيوس عن زيارة شيلون، فقال أن زيارته ولدت لديه فكرة أن يقصد حالاً. ولقد جاءته الفكرة حين كان شيلون يلقي عقابه بالضرب.

بدأ بترونيوس يشعر بالنعاس من جديد. فرك عينيه وقال :

- كانت فكرة جيدة إن أوتيت ثمارها. أما عن شيلون فكان يستحق منك خمس ذهبيات، وما دمت قد عاقبته، كان عليك أن تضربه حتى الموت لكي لا يستغله السيناتورات كما فعلوا بفارسنا فاتينوس. ليلة سعيدة؟

أنزلوا الاكاليل عن رؤوسهم، وتهيأ بترونيوس و يونيكي للرحيل إلى البيت. وحين خرجا دخل فينيكوس إلى المكتبة وكتب الرسالة التالية إلى ليفيا

أريد من هذه الرسالة لمجرد أن تفتحي عينيك الرائعتين، أن تقول لك صباح الخير! أكتب لك الان لنلتقي غداً، لأن القيصر سينطلق إلى الأنتيوم بعد غد. وعلي أن أرافقه. فالرفض يعني المغامرة بالحياة،

وليس شجاعة مني أن أموت الان. وإن كنت لا ترغبين بسفري  
فاكتبي لي ذلك، وسأبقى هنا، والباقي سيتكفل به بترونيوس ساعيا  
لدرء الخطر عني. اليوم في يوم الفرح قمت بمكافأة كل أرقائي فمن  
خدم لدي عشرين عاما ساصحبه غدا إلى القاضي لأعتقه، وينال  
حريته. لذلك فأنا أستحق منك يا عزيزي، الثناء لأني قمت بما هو  
ملائم للتعاليم النفسية التي تعتقنيها، ومن أجلك أنت سأقول لهم غدا  
أنهم بنو الهم الحرية قد يدينون لك أنت بالامتنان والشكر، وبتمجيد  
اسمك. وأضع نفسي، مبادلة، عبدا أبديا لا انعتاق له، لك وللسعادة.  
اللعنة على الأنتيوم. اللعنة على كل ترحال يقوم به صاحب اللحية  
الحمراء. سعادتي مضاعفة مرات ومرات لأني أمتع بذكاء بترونيوس،  
والا لاضطرت لمرافقة القيصر إلى أكايا. فراقك أيضا سيحلو، لأن  
كل لحظة منه سأمضيها بالتفكير بك. ولن تسنح لي فرصة من حرية  
هناك، الا وأمتطي جوادا يعود بي إلى روما، ولو للحظة واحدة أكحل  
بها عيني بمرآك، وأمتع أذني بسماع صوتك. وكل مرة لا أتمكن فيها  
من المجيء سأبعث لك برسالة مع رقيق يزودني بأخبارك شكرالك يا  
ليفيا الالهية، وأحضن قدميك. لا تغضبي إذا ما دعوتك بالالهية. فإن  
كنت تمنعين سأنصاع ولن أكررها. لكني اليوم لا أقوى على مخاطبتك  
بصورة أخرى. تحية من أعماق روحي تصلك من بيتك المستقبلي"

كان معروفًا في روما أن القيصر يريد في طريقه أن يزور أوسيتا أضخم سفن العالم، التي جاءت من الاسكندرية تحمل شحنة من القمح. ومن هناك يتجه إلى الأنتيوم عبر فيا ليثوراليس. كانت الأوامر قد أطلقت بهذا الشأن منذ أيام، فاجتمعت منذ الصباح حشود الناس المحليين، ومن كافة الاقوام، عند بورتا أستنسيس لرؤية الموكب القيصري. لم يكن الطريق إلى الأنتيوم شاقًا، ولا طويلًا، لكنه يخترق المدينة ليمر بالقصور والفيلات الفخمة، ويسمح بمشاهدة أكثر مناطق العصر ترفًا ورفاه. وكان من عادة القيصر أن يصطحب معه في طريق رحلته كل مستلزماته المفضلة من آلات موسيقية، وأثاث منزلي، وتماميل، وموزاييك، توفر له الراحة والامداد المتنوع مهما يكن الطريق قصيرًا. وإضافة إلى الحاشية القيصرية، كان يرافقه جميع الأرقاء من خدم وحشم للقيام بخدمات النزهة، فضلًا عن فصائل الحرس القيصري والأوغستيان الذين بينهم من يصطحب معه مرافقته الخاصة من الرق.

منذ الصباح الباكر في ذلك اليوم، جاء الرعاة، وقد سمّرت الشمس وجوهم، بأجراس وبأحذية من جلد الماعز، يقودون خمسمئة أتان، ويعبرون بها البوابة لتوفير حليب الحمير من أجل حمّام بوبيا المعتاد كل صباح بعد وصولها إلى الأنتيوم. أثارت هذه القطعان السابحة في النقع الغباري ضحك العامة من الناس الذين قد أمتعهم أيما إمتاع أزيز السياط وأصوات الرعاة الوحشية. وبعد مرور قطع الحمير، جهدت مجموعات الشبان بتنظيف الطريق، وتغطيتها بنثر الازهار، وإبر

الصنوبر فوقها، وكانوا جميعا فخورين بأن طريق الرحلة حتى الأنتيوم قد صار مغطى بالازهار التي جيء بها من الحدائق، والحقول المجاورة، وابتيع بعض منها بأثمان غالية من بائعي ناحية بورتا موغيونيس. ما إن انقضت فترة الصباح الباكرة، حتى تزايدت الحشود لحظة بعد لحظة. بعض منهم أحضر كافة أفراد الاسرة، لقتل الوقت فقط، فوضعوا أغراضهم فوق أحجار جيء بها من أجل بناء كنيسة سيريس الجديدة، وأمضوا فترتهم كلها تحت قبة السماء الطلقة. وانعقدت المجموعات هنا وهناك تتبادل أطراف الاحاديث في الشؤون الراهنة.

تحدثوا فيما يخص رحلات القيصر القادمة، وفي الرحلات على العموم. وفي أثنائها، راح البحارة، والجنود يتحدثون عن البلدان الشهيرة التي سمعوا عنها خلال حروبهم البعيدة، فلا يحلم الروماني أن يطأ أرضها. وقف الفقراء الرومان الذين لم ييرحوا أمكنة إقامتهم ولم يتخطوا فيا أبيا يصغون باندهاش إلى ما يحكى قربهم عن بلاد العرب، والهند، وعمما يحصل في إحدى الجزر البريطانية من عجائب حيث يقوم برياروس بحراسة ساتورنوس النائم حيث تسكن الارواح، وعن البحار المتجمدة، وعمما تصدره مياه المحيط من هسيس وفحيح كبيرين لحظة المغيب وغرق الشمس فيها. ومن السهولة في أوساط العامة أن يحوز على التصديق كل الحكايات المشابهة التي ما زال أمثال بلينوس و تاكتوس يعتقدون بها. وجرت الاحاديث عن السفينة التي يتحضر القيصر لمشاهدتها، وتحمل على متنها من القمح ما يكفي لسنتين، ومن الركاب أربعمئة، ونفس العدد من الشبان، وكثيرا من الحيوانات البرية التي ستستخدم فيما بعد في المباريات الصيفية. وهذا ما يجعل القيصر يشعر بارتياح لا مثيل له، لأنه برهان على أنه لا يقوم بتزويد الشعب بالغذاء فقط، بل يسعى جاهدا لتسليته، والترويح عنه استعداد الحشود لتحيته بحماس تنامي مع مرور الوقت.



في هذه الاثناء ظهرت إحدى فصائل خيالة الحرس بأزيائهم الصفراء وأحزمتهم الحمراء، وأقراطهم الكبيرة التي راحت تعكس أشعتها الذهبية فوق الوجوه القائمة، ورؤوس أسنتهم الخيزرانية التي برقت كالقناديل تحت نور الشمس. وما أن عبر هذا الفصيل من الخيالة، حتى ظهر فصيل آخر يتخذ مساراً دائرياً فاقتربت الحشود مترابطة لمشاهدة العرض. لكن قدوم فصيل مشاة الحرس حال دون ذلك بانقسامه صفين متقابلين عند المدخل. في المقدمة جاءت العربات تحمل خياماً حريرية بيضاء محلاة بخيوط مذهبة، وخياماً أرجوانية، وحمراء وبنفسجية، وسجاداً شرقياً، وطاولات من خشب الصنوبر، وصفائح من الموزايك، وتجهيزات مطابخ، وأقفاصاً في داخلها طيور من الشرق والغرب والجنوب، يصار إلى تمرينها، فتغدو بأصواتها والسنتها مناسبة لتوضع على مائدة القيصر، إضافة إلى دنان الخمر، ولال الفاكهة.

أما تلك المواد القابلة للكسر أو التقوس، فكان يحملها مشاة من العبيد، ينقسمون إلى مئات. مئة منهم تحمل التماثيل والانية الكورنثية الطراز. ومئة منها تحمل تماثيل وآنية من طراز أتروري، وأخرى آنية يونانية، واستقلت مجموعة منها حاملة الانية الزجاجية الذهبية والفضية والاسكندرانية.

وكانت تفصل بين المجموعات عناصر قليلة من الحرس مشاة وخيالة، وعلى رأس كل مجموعة من العبيد مراقب يقودها ويده كرباج ينتهي ذيله بقطعة من الرصاص أو الحديد. كان موكباً أشبه بالاحتفال، أو الطقس الديني. واشتدت حماسة المشهد حين جاء حملة الآلات الموسيقية الخاصة بالقيصر وحاشيته. قيثارات مصرية، ويهودية، ويونانية، ووتريات، ودفوف، والآلات نفخية، وصنوج نحاسية، وأبواق مستقيمة ومتعرجة. إذا ما شاهد المرء هذا العدد

الهائل من الآلات الموسيقا اللامعة تحت أشعة الشمس، البارقة بالوان الذهب والفضة واللؤلؤ، المحلاة بالاحجار النفيسة، ظن أن أحدا من أثنين: أبولو أو باخوس يجوب الان العالم. ثم جاء دور الموكب الفني الفخم، من معدات وكوميديين ومجموعات من راقصين وراقصات بأيديهم صولجانا، كل مجموعة منهم لوحة فنيّة مبهرة يتبعها عبيد لا أهميّة أخرى لرفقتهم الا لمجرد الديكور وإضفاء الفخامة، وقد جيء بهم من كل أنحاء اليونان، ومن آسيا الصغرى. فكانت مجموعات الراقصين من شبان وشابات بشعورهم المسترسلة الطويلة، أو المشبوكة بيكرات وشباك مذهبة، كأسراب من الهة والهات الحب والجمال.

ومرة أخرى عبر فصيل من الحرس، كل عناصره شبان شقر، زرق العيون، ملتحون، يتقدمهم ما يسمى حاملو الألوية. وهؤلاء الذين يحملون العقبان الرومانيّة واللائحات وتمائيل الهة الرومان والجرمان، وتمائيل القيصر الكاملة والنصفيّة. وما عري من أجساد الجنود تحت الأردية الجلديّة والدروع قد لوحته الشمس بسمرتها. وهم جنود ذوو أذرعة قويّة تقدموا كالات حربيّة، فارتجت الأرض تحت وقع خطواتهم الصلبة. ولكنهم قليلو العدد هنا، لأن جل هم القوة الرئيسيّة للحرس قد بقي في معسكرات الوطن يحرس المدينة، ويحافظ على لحمة السكان. المجموعات التاليّة كانت تقود النمرور والاسود اللازمة لعربة القيصر إذا ما أحب أن يقوم بتأديّة دور ديونيسوس.

كان ساسة ماهرون من عرب وهنود يجرونها بسلاسل فولاذيّة غلفت بالازهار بكثافة جعلتها تبدو سلاسل مجدلة بكاملها من الزهور. ثم جاءت العربات القيصريّة، والهوادج بأحجامها الصغيرة والكبيرة والوانها الذهبيّة والارجوانيّة، تبرق بما لبست ووشيت به من العاج، واللؤلؤ الحقيقي، والاحجار الكريمة. تبعها فصيل آخر

من الحرس، بزيهم الايطالي المحض وسلاحهم الروماني، يتلوه العبيد والشبان المراسميون، ثم اخيرا القيصر نفسه الذي أعلنت قدومه من بعيد صيحات الجموع.

كان هناك من ضمن الحشد، الحواريّ بطرس الذي أراد مشاهدة القيصر مرة واحدة في حياته. وكان بصحبته كل من ليفيا التي غطت وجهها بوشاح كثيف، و أرسوس الذي يمثل في هذه الفوضى العارمة، القوة الأكثر فاعليّة لحماية ليفيا. حمل أرسوس حجرا من أحجار الكنيسة، وقدمها للحواري ليقف عليها فيتمكن من الرؤية أكثر من الاخرين. وجاء القيصر جالسا في عربة على شكل خيمة يجرها ستة من فحول الاحصنة البيضاء نضواتها ذهبية. عمد أن تكون الخيمة مكشوفة من الجوانب لكي يتسنى للحضور مشاهدة القيصر.

ورغبة منه في لفت الانظار اليه، كان وحده يقود العربة عابرا بها المدينة، رغم أنها تتسع لسته آخرين استعاض عنهم بقزمين اشوهين تحت قدميه. كان يرتدي تونيكاً رومانية بيضاء، و توغا بنفسجية عكست زرقة عميقة على وجهه، وكان يضع على رأسه إكليلا أرجوانيا.

كان يتقدم ملتفتا برأسه هنا وهناك يراقب الجماهير التي جاءت لتحيته بالهتاف وبعواصف التصفيق. " تحية لك أيها الامبراطور القيصر الالهي ". تحية لك أيها الغالب ! تحية لك يا بن أبولو الذي لا مثيل له. تحية لك يا أبولو ! وبسماعة هذه الهتافات كان يتسم طوال الوقت، لكن سحابة من كدر خفي كانت بين الحين والاخر، تمسح تعابير وجهه، فالجماهير الرومانية جماهير ساخرة بغالبيتها، فكانت تسمح لنفسها بالقاء تعليقات حادة وجارحة، حتى أمام القادة العسكريين الامجاد الذين استحقوا حب الرومانيين وتقديرهم. فمن المعروف أن يوليوس قيصر حين دخل روما، سمع هتافات مثل " أيها الناس خبثوا

زوجاتكم فقد جاء اللعوب الاصلع " لكن غرور نيرون الفائق جعله لا يحتمل سماع أخف التعليقات وأبسطها، رغم أن شيئاً من هذا قد تع إلى مثل يا صاحب اللحية الحمراء! يا صاحب اللحية الحمراء! أين تأخذ لحيتك المشتعلة؟ لعلك خائف من أن تلتقط روما نارها وتتحرق؟ لكن من هتفوا هذه العبارة الساخرة لم يعرفوا أن ثمة نبوءة مريعة تكمن في ثناياها. وفي كافة الاحوال لم تكن مثل هذه الاصوات لتغضب القيصر كثيرا ولا قليلا، لأنه لم يكن الان صاحب لحيّة، بعد أن قدمها منذ وقت طويل هديّة لجوبيتر الكابيتوليوني في صندوق من الذهب.

لكن آخرين هتفوا من خلف أكوام الحجارة وزوايا المعبد " نيرون قاتل أمه " وآخرون : " أين أوكتافيا؟ " وآخرون وجهوا هتافهم نحو " بوبيا " قائلين " أم الشعر الاشقر " وهو لقب تنادى به نساء الشوارع في العادة. كانت أذنا نيرون الحادتا السمع تلتقطان مثل هذه العبارات، وكان عندئذ، يسلط عينيه نحو مصدر الصوت كأنه يريد أن يتيقن من معرفة مطلقها. وهكذا فقد وقع بصره على الحواريّ الواقف فوق الحجارة.

كلاهما نظر إلى الاخر، والتقت عيونهما للحظة. لكن أحدا، سواء من عناصر الموكب الباهر أو من الجماهير الهائلة العدد لم يخطر بباله أن من ينظران في هذه اللحظة كل في الاخر، هما سيدا العالم وأن أحدهما سوف يتلاشى عما قريب كما يتلاشى حلم دموي، أما الاخر فسوف يتسنى له أن يملك العالم ومعه هذه المدينة إلى الابد.

بعد أن مر القيصر، تلاه مباشرة ثمانية من الافارقة يحملون هودجا فخما في داخله بوبيا البغيضة في أعين الشعب. كانت ثيابها بنفسجيّة كملابس نيرون، ووجهها مجمل بالمساحيق السميكة الحمراء استقرت

جالسة مستفكرة بلا حراك، ودون أن تبدي أية تعابير، كالهة جميلة لكن شريرة. في إثرها حاشيتها الخدمية من النساء والرجال، وأرتال العربات المليئة بوسائل الراحة، وخزن الملابس. وكانت الشمس قد تجاوزت الظهيرة حين مر موكب الاوغستيان المتالق الفخم: بترونيوس الكسول الذي راح يحيي الجماهير بمودة، وهو في هودجه برفقة رقيقته اللاتقة بإحدى الالهات. تيفالينوس يقف في عربة تجرها أحصنة صغيرة زينت بريش أحمر وأبيض. كان باديا للعيان أنه يمط رقبتة، مترقبا إشارة من القيصر ليجلس إلى جانبه. ليسيونوس بيسو الذي حيته الجماهير بالتصفيق من بين الجميع. وحيث فيتليوس بالابتسام، وفاتينوس بالصفير. وقوبل كل من القنصلين ليسيونوس وليكانوس بحيادية. أما تولوس سينكو الذي لم يعرف السبب في محبة الناس له فقد قوبل بالتصفيق أيضاً.

كانت الحاشية القيصريّة بأعداد لا حصر لها، حتى ليظهر المرء أن ما من أحد ميسور أو نبيل في روما الا وهو الان في طريقه إلى الأنتيوم. لم يسافر نيرون مرة بأقل من الف عربة وبعدهد من المرافقين لا يقل عن عدد الجيش الليفوي بأكمله.

أما دوميتيوس أفر فقد حملت فيه الجماهير مشيرة اليه بالبنان، وكذلك لوسيوس ساتورنينوس الذي بدا شيخاً معتلاً تماماً. وشوهد فسبسيانوس الذي ما كان يلتحق بحملته العسكرية في يهوديا حتى عاد من أجل التاج القيصري. والكثير من النساء الشهيرات بثرائهن، وجمالهن، وترفهن، ورذيلتهن. وقفت جماهير العامة المتعددة المشارب والاقوام، بعيون نهمة حيرتها هذه التحفة البصريّة، المتوهجة بالسوان الذهب، والارجوان، والمؤتلفة بالاحجار الكريمة واللؤلؤ، والعاج، فبدا كل ذلك كأن أشعة الشمس ذاتها هي التي تلمع في هذا

البحر من الانوار. كان بين العامة بوساء جوعى لم يحرك فيهم هذا  
المشهد الحسد والغيرة فحسب، بل ملأهم بالافتخار المبهج، بعد أن  
شعروا بقوة روما العظيمة التي قهرت العالم وركعت أمامها البلدان.

وفي الحقيقة ليس هناك أحد في الكون يجروء على الاعتقاد بأن  
امبراطورية روما لن تدوم لقرون وبأنها لن تستغرق كل الاقوام، وأن  
بمقدور أحد فوق البسيطة أن يقف ضدها.

سار فينكوس في نهاية الموكب، وحين لمح كلام من الحوارّي، وليفيا  
اللذين لم يتوقع وجودهما هنا، قفز من العربة، وحياهما بأسارير  
مشرقة، ثم سرعان ما ابتدر الكلام كمن ليس لديه وقت يضي عه.

- جئت؟ لا أعرف كيف أشكرك يا ليفيا! إنها إشارة طيبة لي من  
الله. وداعا، لكنه وداع لن يكون لمدة طويلة. سأجئك كلما سنحت  
لي الفرصة إلى أن أعود نهائيا. دمت بالصحة والعافية:

فأجابت ليفيا

- رافقتك السلامة يا ماركوس.

ثم أضافت بخفوت صوت :

- رعاك المسيح وفتح أذنيك لأقوال بولس !

ابتهج قلب الشاب وقد أحس بأهميّة عودته بالنسبة إلى ليفيا فقال :

- ليكن ما ترغبين. أحب بولس أن يسافر مع رجالي، لكنه معي  
وسيكون معلمي وصاحبي أزيحي وشاحك، يا رائعتي، دعيني أشاهد  
وجهك بعد، قبل أن أرحل. لم تتخفين إلى هذا الحد؟

كشفت الفتاة عن وجه هادئ، بديع، وعينين باسمتين، ثم سألته :

- وأين الخطب في هذا؟

وكان في ابتسامتها مسحة من عتب مشوب بدلال طفولي، لكن فينيكوس نظر اليها وقال بحرارة:

- خطب لعيني اللتين لا ترغبان الا في رؤيتك وحدك من الان وحتى أن أموت. ثم التفت نحو أرسوس :

- احرص عليها كضوء عينيك، لأنها ليست الاعز لديك فقط بل أعز ما لدي أيضاً.

وأمسك يد الفتاة وضعها إلى شفثيه أمام استغراب الحضور الذين لم يفهوا سر هذا الاحترام الذي يبديه أوغستيني من الاسياد نحو فتاة من البسطاء. بملابس يرتديها الرقيق.

- دمت بعافية !

وانطلق مسرعا بعد أن ابتعد عنه الموكب القيصري كثيرا.

ودعه الحواريّ بطرس برسم إشارة صليب خفيفة لا تلاحظ، أما أرسوس الورع فقد بدأ بالتسبيح والحمد لأن سيدة الشاب تصغي اليه بتلك اللهفة والتوق، ورمقها بنظرة امتنان.

ابتعد فينيكوس، وظلت نظراتهم عليه حتى تقدم منهم ديماس الطح ان الذي عمل عنده أرسوس كل ليلة.

حيا الحواريّ، وطلب اليهم أن يرافقه إلى المنزل القريب من

الامبور يوم لتناول شيء من الطعام، فلا بد أنهم جائعون، ومتعبون بعد أن أمضوا كل النهار عند المدخل.

وساروا معا. وبعد أن استراحوا في بيت ديماس، وتناولوا طعامهم عادوا إلى الترانستبريس. رغبوا في عبور جسر إيميلوس إلى الضفة الأخرى، فساروا ضمن كليثوس بوبلوس التي تقود إلى معبد ديانا وماركوريوس. راح الحواريّ بطرس يجول ببصره في تلك الانحاء وبيوتها. فأذهلته السطوة والضخامة التي تتحلّى بها المدينة التي كلفه السيد بنشر دعوته فيها.

كان قد جال في بلاد عديدة وشاهد فيها كثيرا من المعالم، والتجمعات، والفيالق الرومانيّة، لكن ما رآه قياسا إلى ما شاهده هنا، لا يمثل الا عناصر قليلة من الامبراطريّة، خاصة وأن القيصر قد عبر أمام ناظريه لأول مرة. هذه المدينة الكبرى جوفاء وآسرة، ومتعفنة حتى العظم، لكن سلطانها صلب. وهذا القيصر الذي قتل أخاه وزوجته وأمه، ومع ذلك يرافقه الان عدد هائل من البشر.

هذا المهرج التافه، وهو في نفس الوقت قائد لثلاثين فيلقا يسود من خلالها في أرجاء الأرض، وهؤلاء العجزة من أفراد الحاشيّة الذين لا يضمنون بقاءهم على قيد الحياة حتى اليوم التالي، الا أنهم أكثر سطوة من الملوك. الا يدل كل هذا على أنها مملكة جهنميّة للشر والرذيلة.

وتعجب قلبه الطيب البسيط كيف يمكن للرب أن يعطي كل هذا السلطان للشيطان، وكيف يمنحه الأرض لديرها ويعبث بها فسادا، ويريق فيها الدموع والدماء، ويخلعها كالعاصفة، ويدمرها



كالاغصار، ويحرقها كالنار. اهتز قلب الحواريّ لهذه الافكار  
وخاطب معلمه قائلاً: " سيدي ما الذي سأصطاده في هذه المدينة  
التي أرسلتني اليها؟ إنه يملك كل البلدان والبحار، وكل كائن حي  
إن كان فوق اليابسة أو في أعماق المياه، وكل مملكة، وقوة، وثلاثين  
فيلقا تحميه وتدافع عنه، وما أنا يا سيدي سوى صياد في بحيرة. فما  
الذي سأصطاده هنا؟ وكيف سأتغلب على شروره؟ "

قال ذلك رافعا رأسه نحو السماء، متضرعا إلى الله بكل ما يخالجه  
من مخافة وحزن.

لكن ليفيا قطعت عليه صلواته

- كأن المدينة تحترق بالنار.....

وفعلا في هذا المساء هبطت الشمس إلى مغيبها على نحو غريب  
جدا. غاب قرصها العملاق حتى منتصفه وراء قبة لانيكولس،  
وسبحت قبة السماء بكاملها في ضوء أحمر.

ومن حيث هم في ذلك المكان شاهدوا فسحة واسعة، وإلى  
يمينها قليلا، بانّت لعيونهم جدران السيرك الكبير الممتد طويلاً،  
تلاها، إلى الاعلى، البالاتينوس بأجنحته المتراصة، وأمامهم مباشرة  
كلن الفوروم بواريوم وفالابروم، وقمة الكابينوليوم وعليها معبد  
جوبيتر. لكن جدران الكنيسة وأعمدتها، وقممها قد بانّت من  
هناك وكأنها غارقة في ذلك الضوء الارجواني المذهب، شأنها في  
ذلك شأن ما أتاحت رؤيته من أجزاء الانهار البعيدة الملتمة بالحمرة.  
وكلما ازداد قرص الشمس هبوطا وراء القبة، نشر حمرة الاغمق

فالاغمق، حتى استحال إلى قرص ناري شعت أنواره لتطال القمم  
السبع، وتنعكس من هناك إلى باقي الجهات.

كررت ليفيا قولها

- كأن المدينة بكاملها تحترق.

فقال بطرس مظلاً عينيه بكفه :

- ليحل عليه غضب الله !

## من فينيكوس إلى ليفيا

عبدي فليفون الذي يحمل رسالتي هذه مسيحي. فهو إذن، يا حبيبتي، من بين أولئك الذين سيحصلون على حريرتهم على يديك. إنه خادم قديم في بيتنا، وأنا أثق به لأحم له رسالتي، فلا تقلقي. أكتب لك من لاورنتوم حيث الحرارة شديدة. هنا كان لأوتو فيلا فخمة أهداها ذات يوم لبوبيا، لكن المرأة حتى بعد طلاقها منه استحسنت الإبقاء على هذه الهدية... إذا ما فكرت فيك، وقارنتك بهؤلاء النسوة من حولي، أشعر أن أصنافاً مختلفة لا تشبه بعضها من البشر قد نتجت من أحجار ديوكاليون، وأنتك تنتمين إلى ذلك الصنف المخلوق من البللور.

مقيم بك وأحبك إلى حد لا أرغب في الحديث الا عنك. الآن سأرغم نفسي على الكتابة اليك عن الرحلة، وأخبار الحاشية، وكل ما قد حصل معي. لقد حلّ القيصر ضيفاً على بوبيا التي أقامت له مأدبة فاخرة، لم يدع اليها الا قلة، منها أنا وبترونيوس.

قمنا بعدها بنزهة بالمجاديف في مياه البحر الهادئة الزرقاء كعينيك، يا ليفيا الالهية، نحن من قام بالتجديف نزولاً عند رغبة القيصر الذي أراد أن يتملق أوغستا فيجدف بها رجال قنصليون وابناؤهم. وقف القيصر بردائه الارجواني في المقدمة، وغنى مقطوعته الشعرية التي كتبها الليل الفاتت في تمجيد البحر. ولقد ردّدها معه في مراكب أخرى

عبيد هنود يجيدون استخدام القواقع البحريّة. خرجت بعض الدلافين من المياه على وقع الموسيقى. أتدريين ما الذي فعلته أنا؟ فكرت بك، وغلبني الشوق إليك، وودت لو قبضت على هذا البحر، وهذا الزمن الجميل كالموسيقا لآخذها إليك. أترغبين يا ليفيا أن نقطن على شاطئ البحر بعيداً عن روما؟

لي أملاك في سيسيليا، من ضمنها غابة من اللوز تفتح عن أزهار وردية في الربيع، وتمتد حتى شاطئ البحر فتكاد فروعها تلامس المياه. هناك سأحبك وأعطي ذلك الدين الذي علمني إياه بولس حق قدره، لأنني أدركت الآن أنه لا يفصل الحب عن السعادة. هل ترغبين؟... لكن قبل أن أسمع الرد من فمك الحلو، دعيني أتابع كتابة ما حصل في القارب.

حين نأينا عن الشاطئ لمحنا في البعيد سفينة شراعية تبهر باتجاهنا. وسرعان ما بدأ الجدل فيما إن كانت السفينة مجرد مركب بسيط لصيد السمك، أم سفينة نقل كبيرة. أنا من عرفها أولاً فقالت أوغستا: يبدو أن لا سرا ولا وينكشف أمام عيني.

وما كان منها على الفور، إلا أن ردت الوشاح على وجهها وسالت إن كنت أعرفها وهي كذلك؟ أجابها بترنيوس قائلاً بأنه حتى الشمس لا يمكن معرفتها خلف الغيوم. ابتسمت بوبيا وأجابت على نحو مخادع بأن هكذا عينين حادثين لا يحد من قوة بصرهما إلا الحب.

ثم راحت تذكر الاوغستيانات واحدة تلو الاخرى، محاولة انتزاع أيهن أوقعني في حبها. وكنت أجيبها عن كل واحدة بكل هدوء وبرود لكنها في النهاية ذكرت اسمك حين تحدثت عنك كشفت عن وجهها مرة أخرى، ورمقتني بنظرة متجسسة خبيثة. أنا ممتن كثيرا لبترونيوس

لأنه في هذه اللحظة جنح بالقارب قليلا فأبعد بذلك الانتباه عني . والا فلو صدرت عن أحدهم آية تعليقات ساخرة، أو تضرع العداء لك، ما كنت لأحتمل الأمر، ودافعت عنك تحذوني رغبة في أن أفج بالمجداف رأس تلك المرأة الغادرة اللعينة. لا بد أنك تذكرين ما حكته لك في منزل لينوس عشية سفرنا عما حصل في بحيرة أغريبا. بترونيوس خشي علي، وما يزال يرجوني بالا أخذش غرور الاوغستينا.

لكنه بات لا يفهمني، ولا يستطيع أن يتفهم أنه ما عداك بالنسبة لي لا وجود للروعة والجمال والحب، وأني لا أشعر نحوها الا بالقرف والاحتقار. ما حصل أنك قد عدلت في روعي، وغيرت في كياني، حتى بت لا أحتمل العودة إلى حياتي الماضية. لكن لا تقلقي علي هنا، فلن يصيبني أي مكروه.

بويلا لا تحبني لأنها لا تعرف أن تحب أحدا، وما تقلباتها ونزواتها الا ردود أفعال لغيرتها وغضبها من القيصر.

ما زال القيصر واقعا تحت تأثيرها، ولعله ما زال يحبها، لكنه بات لا يخصصها بالفضل، ولا يخفي أمامها صفاقته هذه. سأقول لك شيئا يطمئنني، فقد قال لي بطرس وهو يودعني بالا أخاف القيصر فلن يمسنني أي أذى، وأنا أصدقه. صوت ما في داخلي يقول

أن كل أقوال بطرس سوف تتحقق. وبما أنه قد بارك حبنا، فلن يستطيع لا القيصر، ولا قوة هادس، ولا القدر أن تنتزعك مني. إذا ما فكرت في ذلك أشعر أني سعيد كالسماء لأنها وحدها التي تملك السعادة والاطمئنان. هل يغضبك ويخدش شعورك، كفتاة مسيحية، ما أقوله عن السماء والقدر؟

إن صبح ذلك، فأستميحك العذر، لأنه صدر بغير إرادة مني. الماء  
المسيحي لم يغسلني بعد، لكن قلبي كالمغارة الفارغة، وينبغي على بولس  
أن يملأها، بالعلم السعيد الأكثر سعادة من أي شيء لأنك تملكينه. أما  
أنت يا ليفيا الالهية فأرجو أن تثقي بأني قد أرقت كل السائل الذي  
كان يملأ مغارة قلبي، ولن أعيده اليها لأني أشرعتها وهي الان كظمان  
صادف نبعا صافيا.

خذيني بالرحمة، وأنا في الأنتيوم سأمضي نهاراتي وليالي في سماع  
بولس الذي كان له منذ اليوم الاول تأثير كبير في أوساط عناصري  
الذين لم يروا فيه صانع أعاجيب فحسب بل وجدوه كائنا فوق  
مستوى الطبيعة. أمس لاحظت أن وجهه يشع بالسعادة، وحين سألته  
عن السبب آجابني بالقول :

"أزرع بذرة". بترونيوس يعلم أنه هنا بيننا، ويرغب في لقائه،  
وكذلك سينكا الذي سمع عنه من غالوس والان النجوم تنوس. آه  
يا ليفيا، ونجمة الصباح تزداد تالقا. الفجر يوشك أن يلون البحر  
بالوردي.

كل شيء في الانحاء نائم، وأنا ساهر أفكر فيك وأحبك. أنا وغسق  
الفجر نحبيك، يا خطيبي.

من فينيكوس إلى ليفيا

حبيبتي هل زرت يوماً الأنتيوم برفقة عائلة أولوش؟

إن لا، فساكون سعيداً إذا ما عرّفتك به بنفسي. صارت الفيلات منتشرة من لاورنتوم حتى تبلغ الشاطئ. والأنتيوم نفسه عدد لا يحصى من القصور والأروقة المشادة في صف فائق الطول أعمدته في أوقات الصحو، تنعكس جميعها على صفحة الماء. وأنا أيضاً أملك فيلا عند الشاطئ مباشرة، وخلفها حديقة من الزيتون، وغابة من السرو. وحين أفكر في أن منزلي هذا سيكون لك، أرى رخامه أشد بياضاً، وحدائقه ظليلة، وبحره أشد زرقاً. آه يا ليفيا ما أجمل أن نحيا ونحب. العجوز مانيكلس، وهو المشرف على هذا المنزل، ملأ المكان سوسنا، وزرعه تحت شجر الاس فذكرني بمنزل الوش وحدائقه حيث جلسنا معا مرات. وهذه السوسنات سوف تذكرك بمسقط رأسك، وهذا ما يؤكد لي أنك سوف تحبين الأنتيوم والفيلا، هناك. فور وصولنا تحدثنا بطرس وأنا طويلاً تحت البرنديوم.

تحدثنا عنك، ثم بدأ بطرس دروسه معي. أصغيت له طويلاً، وسأكتفي بالقول. حتى لو أني أجيد الكتابة كبترونيوس، فلن أستطيع التعبير عن كل ما يجول في عقلي وروحي.

لم أكن ليخطر لي أبداً أن ثمة بعد سعادة وجمالاً، وطمأنينة لا

يعرفها البشر. لكنني ساعد الان كل شيء لأحدثك به وجها لوجه في أقرب فرصة تتاح لي للسفر إلى روما.

قولي لي كيف تحمل الأرض عليها في زمن واحد أمثال بطرس و بولس والقيصر؟

أسالك هذا لأني، بعد أن أنهى بطرس درسه أمضيت الليلة عند نيرون.

أتعلمين ما الذي سمعته هناك؟ قرأ أولاً قصيدته عن دمار طروادة، ثم أبلغنا بأنه لم يشاهد بعد مدينة محترقة. حسد برياموس وبعته بالإنسان السعيد، لأنه تمكن من مشاهدة مدينته وهي تشتعل وتدمر. فصاح تيفالينوس: "ما هي إلا كلمة واحدة منك، وقبل حلول الليل سأحمل مشعلا وترى الأنتيوم يحترق"

لكن القيصر رمقه بنظرة لائمة تقول: أيها الأحمق! وأين سأستنشق بعدئذ هواء البحر العليل، حفاظاً على صوتي هدية الآلهة لي، والنعمة التي مني بها الشعب لمصلحته في النهاية.

اليست روما هي المدينة التي الحقت بي الأذى؟ أليست أدخنة سوبورا هي التي سببت بحة صوتي. ثم أليس إحراق روما بالمشهد الأعظم والأكثر تراجيديّة من إحراق الأنتيوم؟

وبدأ الجميع يتكلمون عن المشهد التراجيدي المفترض لإحراق المدينة الجبارة التي اكتسحت العالم، وتحولت إلى رماد. ومن جملة ما قاله القيصر في هذا الشأن أن قصيدته في إحراق روما ستبذ قصائد هوميروس، وراح يحكي تصوراته في بناء المدينة الجديدة على أنقاضها. وكيف ستمجد العصور التالية هذا العمل العظيم الذي يفوق الأعمال



الإبداعية للإنسانية جمعاء. فكان أن استجاب لهذا المدعوون الثملون بأعلى أصواتهم: "افعلها! افعلها!" لكنه قال: "لكنني في حاجة إذن لأصدقاء أكثر وفاء وتفانيا" الحقيقة أن هذا الحديث قد أقلقني، يا ليفيا، فأنت في روما يا حبيبتني. لكنني سرعان ما سخرت من قلقي هذا، وأقول لك إن هؤلاء مجانين وأنا لست بقادر على ارتكاب مثل هذا الجنون. تلاحظين كم يغار المرء على من يحبه ويخاف عليه. وفي رأيي أن كافة قصور البالاتينوس غير ملائمة لإقامتك فيها. فاقترح عليك أن تنتقلي إلى منزل أولوش بكافة متاعك وحليتك التي اعتدت عليها منذ طفولتك.

انتقلي الآن يا ليفيا. أنا أفكر كثيراً في هذا حين يكون القيصر في روما، فإن نبأ انتقالك سيشتت على السنة العبيد حتى يصل إلى أسماع القيصر في البالاتينوس، وتتوجه أنظاره اليك فيشملك بغضبه لأنك خالفت مشيئته. لكنه الان في الأنتيوم وسيبقى هنا طويلاً حتى يعود.

سيقيم معك كل من لينوس و أرسوس. وما إن يعود القيصر حتى تكوني في منزلي. بورك اليوم والساعة، واللحظة التي تطئين فيها عتبتني. وإذا ما كان المسيح الذي أتعلم كيف أو من به، يمن علينا بهذا، فليتبارك، وليتمجد اسمه أيضاً. سوف أكون خادماً له، وأبذل حياتي ودمي لأجله. كان تعبيرى خاطئاً، والأصح: سنكون كلانا، خادمين له، ما دمنا معا على قيد الحياة. أحبك، وأحبك بكامل روحي"

غرف أرسوس ماء من الحوض بقارورة ذات عروتين، وهو يدندن بهدوء معزوفة ليفويّة غريبة، كان خلالها يبتهج مهللاً لرويته ليفيا و فينيكوس يتحدثان بين صنوبرات حديقة لنيوس، وقد انتصبا كتمثالين أبيضين، يدا بيد لا يرف لهما ثوب بفعل النسيم المسائي اللطيف. وكان الجو قد بدأ يتشح بلون البنفسج المذهب.

سالته ليفيا

- الا يترتب عليك آية عواقب يا ماركوس كونك قد غادرت الأنتيوم دون معرفة القيصر؟

فأجاب الشاب :

- لا يا حبيتي . فقد أعلن القيصر أنه سيحتجب مدة يومين لنظم أغنيتين جديدتين . غالباً ما يفعل ذلك، ولا يكثر حينها بأي أحد آخر، ولا يتذكر شيئاً . وعلى آية حال ما الذي بوسع القيصر أن يفعله لي إذا ما كنت معك . كم أشتاق اليك حتى أني لم أستطع النوم الليلة الفائتة . ما إن سهت عيني من شدة التعب، حتى أفقت مرتعداً لشعوري أنك في خطر . يخطر لي أحياناً ماذا لو قاموا بسرقة أحصنتي من أحد مواضعها، فلا أستطيع الارتحال إلى روما لرويتك . بتّ لا أقوى على الاحتمال بدونك .

أحبك جدا، يا كنزي الوحيد !

- عرفت أنك ستأتي. لقد أرسلت أرسوس مرتين للسؤال عنك في منزلك. وقد هزأ مني كل من لنيوس و أرسوس.

والحق أنه بان عليها أنها كانت تنتظره، لأنها بدلا من ثوبها الداكن المعتاد، كانت ترتدي روبا أبيض فضفاضا طلع منه رأسها وذراعها، كزهرة الربيع المفتحة في الثلج. وكانت تزيّن شعرها ببعض زهرات وردية.

قرب فينيكوس شفّيته من يد الفتاة وقبّلها، ثم جلسا على مقعد حجري توضع بين عرائش الكرم البرية. وبكتفين متلاحمين راحا يرقبان شفق الغروب الذي بات يعكس آخر التماعاته الحمراء في أحداقهما. وشيئا فشيئا أخذهما سحر سكون المساء.

علّق فينيكوس هامسا

- أي سكون هنا وما أروع الكون. الليلة بديعة. أشعر أي سعيد كما لم أكن ذات يوم. قولي يا ليفيا عبري ما هذا الذي نحن فيه؟ لم أكن لأظن يوما أن حبّا كهذا الحب يمكن أن يكون في هذا العالم. كنت أعتقد أن الحب لا يتعدى كونه شوقا معذبا، ونارا متأججة تدور في دم الإنسان. لقد اكتشفت الآن أن بوسعنا أن نحب بكل قطرة من دمنا، بكل نفس من أنفاسنا، وأننا في سلام وطمأنينة كأنما قد سكن أرواحنا اله الموت، أو اله الأحلام. هذا أمر جديد كل الجدة بالنسبة لي.

أرى سكون الأشجار العميق، فأشعر أن السكينة قائمة في كياني. لم أشعر الا في هذه اللحظة بطعم السعادة التي لم تعرفها البشرية حتى الان. ولم أفهم الا الان لم أنت وبومبونيا بهذا اللطف والوداعة....

أجل !.... إنها هبة المسيح...

في هذه اللحظة اتكأت الفتاة برأسها الفاتن على كتف الشاب  
وهمست قائلة :

- يا حبيبي ماركوس. يا ماركوسي الحبيب...

ولم تقو على المتابعة. السعادة، الامتنان، إدراكها بأنه بات يحق  
لها أن تحبه، هو ما منعها من الكلام، متيحة المجال لدموع الانفعال  
أن تغرق عينيها. لف الشاب جسد الفتاة الرقيق، وضمها إليه بعض  
الوقت ثم قال

- ليفيا ! بوركت اللحظة التي سمعت فيها اسمك للمرة الاولى.

فهمست الفتاة :

- أحبك، يا ماركوس.

ثم صمتا من جديد، لأن طوفان السعادة قد أطاح بالكلمات.  
كانت أشعة الغروب البنفسجية الاخيرة قد ناست على شجر السرو،  
وارتدت الحديقة نوراً فضياً استمدته من عباءة القمر.

وبعد قليل بادر فينيكوس إلى القول

- أعلم... ما إن وطئت المكان، وقبلت يديك حتى قرأت بعينيك  
سؤالاً فيما إن استوعبت تلك التعاليم الالهية التي تعتنقونها، وصرت  
مسيحياً. لا. لم يعمدوني بعد. أتدرين ما السبب يا زهرتي؟ لأن بولس  
قال لي " أنا من أقنعك أن الله قد هبط إلى هذا العالم، و صلب نفسه  
ليخلص العالم، لكن في منبع الرحمة، دع بطرس هو الذي يطهرك  
لأنه أول من بسط اليك يديه وباركك ". أنا نفسي فضلت يا حلوتي أن  
تشهدي على عمادي، وأن تصبح بومبونيا أمالي.

لهذا السبب لم أصبح مسيحياً بعد، رغم إيماني بالمخلص وتعاليمه الثمينة. بولس أقنعني، أصلحني. وهل كان ممكناً بطريقة أخرى؟

كيف لي أن أشكك في أن المسيح قد هبط إلى هذا العالم وقد قال ذلك كل من بطرس الذي كان أحد تلامذته، و بولس الذي تجلّى له؟ كيف لي أن أشكك في أنه الرب ما دام قد قام من موته؟ وما دام قد شاهده في المدينة، وعند البحيرة وفوق الجبل، أناس لم تنطق أفواههم إطلاقاً بكلمة كاذبة؟

لقد آمنت بذلك منذ سمعت بطرس يتحدث في الأستريانوم، وقلت لنفسى حينها: "الاحرى بأي أحد آخر أن يكذب لكن ليس بطرس الذي يقول " لقد رأيته " لكني خفت من دينكم. ظننت أنه سيجردني منك. وأنه خال من الحكمة والجمال والسعادة. أما اليوم وقد عرفته، فأني إنسان أكون إن لم أرغب في أن تعم العدالة الأرض، بدلا من الافتراء والدجل، والمحبة بدلا من البغيضة، والخير بدلا من الشر، والوفاء بدلا من الحجود. والرحمة والتسامح بدلا من النعمة والثأر؟ هل ثمة إنسان لا يحب كل هذا ولا يرغب فيه؟ اليست هذه تعاليمكم الدينيّة؟ آديان أخرى أيضاً تريد العدالة لكن دينكم ينفرد بتعليم القلب ليكون صادقا، ويجعله نقياً، وفياً، كقلبك أنت وقلب بومبونيا.

سأكون أعمى، إن لم أر ذلك. كيف إن كان الرب، إضافة إلى ذلك، يعد بالحياة الابديّة والسعادة المطلقة. ما الذي يتغيه المرء أكثر من هذا؟ إذا ما سألت سينكا عن السبب في أنه يوصي بالاستقامة حيث الحياة الخاطئة تجعلنا أكثر سعادة، فلن يملك جواباً فطناً. لكني الآن أدرك لم علي أن أكون مستقيماً. والجواب لأن الخير والمحبة منبثقان من عند المسيح، ولأنني بعد أن يطبق الموت عيني، سألقي الحياة، والسعادة،

والقى نفسي، والفاك، يا وحيدتي... فكيف للمرء أن لا يحب ويتقب  
ل هذه التعاليم التي إضافة إلى صحتها، تنتصر على الموت؟

من الذي لا يفضل الخير على الشر كنت أظن أن هذا الدين يتعارض  
مع السعادة لكن بولس أقنعني انه دين ليس فقط لا يتخلى عن السعادة  
بل ينميها أيضاً. آه يا ليفيا! عقلي يقول إنه الافضل، إنه الدين الالهي،  
وقلبي أيضاً يحس ذلك، فمن بمقدوره أن يقاوم مثل هاتين القوتين  
الجبارتين؟

كانت ليفيا تصغي، دون أن يرف لها جفن، وعيناها الزرقاوان في  
ضوء القمر أشبه بزهرتين مكتنفتين بالاسرار، لا بل جعلتها الدموع  
زهرتين نديانتين حقا.

- أجل، يا ماركوس، أجل قالت وهي تلتحم أكثر بكتف الشاب.

كلاهما في هذه اللحظة كان سعيدا، لأنهما أدركا أن هنالك قوة  
أخرى تربطهما إضافة إلى الحب، وأن هذه القوة لها من الحلاوة بقدر  
مالها من الجبروت، وهي التي تبقى الحب أبديا غير عرضة للتبدل،  
وتهديد الخداع، وحتى لسيادة الموت عليه.

امتلاً قلباهما بالامان والثقة، فمهما حصل سيظلان يحب كل  
منهما الاخر، ولن يفرق بينهما شيء. وشعر فينيكوس أن هذا الحب لا  
يتسم فقط بنقائه وعمقه، بل بكونه حبا من نوع جديد تماماً، لا عهد  
للعالم بمثله، وليس بمقدوره أن يمنحه من قبل كل شيء كان مكونا من  
مكونات الحب في قلب فينيكوس: ليفيا، تعاليم المسيح، الطاقة، ضوء  
القمر خلل شجر السرو، وهذه الامسيّة الوديعه الهائلة. كأن المجرة  
على اتساعها غدت مملوءة بهذا الحب.

بعد قليل قال بصوت خافت مرتعش :

- سيكون روحا لروحي وأغلى ما لدي في العالم. سينبض قلبانا معا، وستكون صلاتنا مشتركة، ومشتركا سيكون شكرنا تجاه المسيح. آه يا وحيدتي ! نحيا معا، ونصلي معا للرب الطيب. ونعلم أننا إذا ما متنا فسوف تستيقظ عيوننا ثانيّة، على ضياء جديد، بعد أن أغمضت على حلم سعيد. أي تصور يرقى على هذا التصور؟ أعجب لنفسي كيف لم أفهم ذلك من قبل؟ أتدرين ما الذي أفكر فيه الان؟ لا أحد بمقدوره أن يقاوم هذه التعاليم. بعد قرنين، أو ثلاثة قرون سوف تعم العالم. سينسى الناس جوبيتر، ولن تكون هنالك الهة سوى المسيح، ولا معابد الا كنائس المسيحيين من الذي لا يرغب في سعادته الخاصة؟ لقد سمعت حديث بولس و بطرس، أتعلمين ما الذي قاله بترونيوس في النهاية؟ " هذا لا يعني " و لم يكن بمقدوره أن يتفوه بشيء آخر.

- قل لي ما قاله بولس طلبت اليه ليفيا

- حدث ذلك عندي ذات ليلة. كعادته بترونيوس راح يتكلم ويمزح بخفة دم، فقال بولس : " كيف يمكن لك يا بترونيوس وأنت إنسان ذكي، أن تنكر أن المسيح قد سار على الأرض، وقام من الموت، في حين أنك لم تكن مولودا بعد؟

لكن بطرس و يوهان قد شاهداه، وأنا رأيتة على طريق دمشق. دع حكمتك تثبت أولا أننا دجالون ثم ادحض ما جئنا به من بينة ". لكن بترونيوس قال أنه لا يقصد الدحض والانكار، وهو يعلم أن كثيرا من الامور اللا معقولة تحصل في العالم، ثم يقوم بتغذيتها مصدقوها ومرو جوها.

لكنه أضاف أن اكتشاف اله جديد شيء، واعتناق دينه شيء آخر. " لا أريد أن أعرف عن أي شيء من شأنه أن يفسد حياتي، ويطيح بجمالها. ليس مهما أن تكون الهتنا الهة حقيقية، لكنها الهة جميلة، ونحيا قربها مرحين، بلا أعباء " فأجابه بولس قائلاً: " إنك تحتقر المحبة، ودين الصدق والرحمة، لأنك تخشى أعباء الحياة، لكن قل لي هل حياتكم التي تحيونها خالية من الاعباء؟ وإنكم إذا تحنون رؤوسكم خنوعاً، لا أنت ولا أحد منكم حتى الأكثر ثراء ونقوداً، بمقدوره أن يتوقع ما يمكن أن يطاله من أحكام قد تؤدي بحياته. لكن قل لي إذا ما القيصر قام باعتناق هذا الدين الذي يدعو إلى الحق والضراعة، اليس ذلك أكثر ضماناً لسعادتك؟ تخشى على متعك، لكن الن يكون من شأن ذلك أن يجعل حياتكم أكثر مرحاً وسروراً؟

أما ما يخص جمال الحياة وبهرجها، فإذا كنتم قد أقمتم كل هذا الكم من المعابد، والنصب الفخمة لالهتكم السيئة المنتقمة الزائفة، الفاسقة، فما أكثر ما كنتم ستفعلونه لتمجيد اله الصدق والمحبة الواحد الاحد. الا فلتبارك قدرك لأنك ذو سطوة ونفوذ وتنحدر من أسرة ذات سطوة ونفوذ، فماذا لو رأيت النور وأنت من أسرة بائسة مدقعة، اليس من الافضل لك أنك تعيش في عالم يقوم على اعتناق دين المسيح؟

في مدينتكم بعض من أعيان القوم يرمون بأطفالهم هروبا من أعباء تنشئتهم، وهؤلاء الأطفال يطلق عليهم " اللقطاء " كان يمكن يا سيدي أن تكون لقيطاً من أولئك. وعلى العكس من ذلك لو كان والداك قد عاشا على ديننا، لن يحدث مثل ذلك. وبلوغك سن الرجولة كنت ستزوج من امرأة تحبها، وتمضي معها بقية حياتك.

لكن أنظر حولك الان لدى ما يحصل عندكم. كم من الصفاقة



وكم من العار، وكم يجرى من اتجار مطلق بالوفاء الزوجي ! أنتم أنفسكم بتم تستغربون وجود امرأة تتسم بالوفاء. لكني أقول لك أن النساء اللواتي يكنزن المسيح في قلوبهن يفين بالعهد، ولا يتخلين عن إخلاصهن تجاه أزواجهن، وكذلك الرجال المسيحيون تجاه زوجاتهم.

أما أنتم فليستم ضامين لا أسيادكم، ولا آباءكم، ولا زوجاتكم، ولا أبناءكم، ولا حتى خدمكم. العالم بأسره يرتعد منكم خوفاً، وأنتم ترتعدون من أرقائكم، لأنكم تدركون أنكم قد تجابهون انتفاضهم عليكم كما حصل غير مرة. أنت ثري، لكنك لا تدري ما يخبئه لك الغد من أوامر تسلبك هذا الثراء، أنت شاب لكنك قد يفرض عليك في الغد أن تموت. أنت تحب لكن الخيانة قد تفاجئك. أنت محب للفيلات، والنصب، لكنك في الغد قد تنفى إلى جزيرة ما.

عند الاف الأرقاء لكنهم غدا قد يريقون دمك. وما دامت هذه هي أحوالكم فأية سعادة، وطمأنينة تعيشون؟ أما أنا فأدعو إلى المحبة، وإلى تعاليم تطلب من أصحاب النفوذ، والاكابر أن يحبوا الاصاغر، والاسياد أن يحبوا العبيد والعبيد أن يخدموهم بمحبة، تعاليم تطلب التزام الحق، والضراعة، تعاليم تعد، أخيراً، بالسعادة الواسعة كاتساع البحر. كيف يمكنك القول يا بترونيوس أن هذا الدين يفسد الحياة، فيما هو يدعو إلى إصلاحها، وإنك لأكثر سعادة و يقينا مرات ومرات لو أن هذا الدين يملأ العالم، كما يملؤه نفوذ روما الان. أجل يا ليفيا هذا ما قاله بولس. فكان رد بترونيوس : " هذا لا يعنيني ". ثم خرج، وكان النعاس غلبه، لكنه قال مودعا : " يونيكي " أحب الي من عملك هذا، وأنا لست راغبا في إقامة سجال معك "

كنت أصغي إلى بولس بكل كياني، وحين تحدث عن نساتنا أكبرت

الدين الذي أنشأك، فنموت نمو الزنبقة في التربة الربيعية. قلت لنفسني  
ها هي ذي بوبيا قد تخلت عن زوجين لها لأجل القيصر، وها هي  
كريسبنيلا، ونيجيديا، وكل من أعرفهن، باستثناء بومبونيا، قد بعن  
عهودهن، وكل ما آمن به، لكن فتاتي هي الوحيدة التي لم تتخل عني،  
لم تخني، لم تطفئ النار، ولن تفعل ذلك، حتى لو خدعتُ وفقدت  
رجائي في كل شيء. أقول لنفسني كيف أرد جميلك هذا، بغير الحب  
والتقدير؟ لقد أحببتك أضعافاً لأنك هربت مني في قصر القيصر. بات  
قصرًا لا يعنيني. لا تعينني متعه، ولا موسيقاه، أنت وحدك من تعينني.  
كلمة واحدة منك تجعلني أغادر روما بما فيها، وأذهب بك بعيداً لنستقر  
في أي مكان والفتاة بدلاً من أن ترفع رأسها عن كتف الشاب، جالت  
بنظرها على تيجان أشجار السرو المفضضة، وقالت مستفكرة

- حسنا يا ماركوس. أنت كتبت لي عن سيسيليا، حيث ترغب عائلة  
اولوش بالاستقرار في الشيوخوخة...

فقاطعها فينيكوس مستبشراً

- أجل يا حبيبتني! ملكياتنا متجاورة هناك. إنه ريف ساحلي بديع،  
قبة السماء أكثر صحواً ولطافة، من سماء روما. الاماسي أكثر وداعة،  
وعطرا. الحياة والسعادة هناك شيء واحد لا يتجزأ وراح يحكي  
تصوراته عن المستقبل:

- يمكن للمرء هناك أن ينسى أعباءه. ستمشي بين أشجار الزيتون،  
ونستريح في ظلالها، آه يا ليفيا! ما أروعها من حياة: أن نحب، أن  
نواسي بعضنا، أن نستمتع معا بالبحر والسماء، أن نصلي معا للاله الخي  
ر، ونسلك بكل أمان، وفي كل شيء، سلوك الحق والخير.

ثم لزمنا الصمت، سارحين في المستقبل، وقد ضم الشاب الفتاة اليه بقوة أشد، وفي أثناء ذلك تحت ضوء القمر، لمع بإصبعه الخاتم الفروسي الذهبي. كان كل شيء قد استسلم في الحي العمالي الفقير إلى هجعتة، ولم يعكر الحفيف الناعم اللطيف سكون الليل.

سالت ليفيا

- وهل ستسمح لي عندئذ بزيارة بومبونيا؟

- طبعاً يا حبيبتى. سنقوم بدعوتهم لزيارتنا، أو نقوم نحن بزيارتهم. أترغبين في أن نصطحب معنا الحوارى بطرس؟ لقد صار في سن يجهد العمل المتلاحق كثيراً. وبولس أيضاً سوف يكثر من زيارتنا، ويعمد أوسوس بلوتوس، وكما يقوم العسكر بإنشاء المستعمرات في البلدان البعيدة، سننشئ نحن مستعمراتنا المسيحية.

رفعت ليفيا يدها، وأمسكت بكف فينيكوس اليمنى تريد أن تقربها من شفيتها، لكن الشاب استبق ذلك، وكأنما قد خشي أن يجفل السعادة إذا ما رفع صوته ولو قليلاً، فقال للفتاة هامساً

- لا. لا تفعلين يا ليفيا. أنا أحترمك، وأقدرك، فهاتي يدك.

- أحبك.

لكن الشاب كان قد أخذ بيدها الناصعة البياض إلى شفتيه ولم يسمعا لبرهة الا خفق قلبيهما.

لم تنسم أخف ما هنالك من نسائم، فظلت أشجار السرو ساكنة لا تهتز وكأنها انسجاما مع الحالة قد كتمت أنفاسها أيضاً.

وعلى نحو مباغت قطع هذه السكينة هدير عميق كأنما جاء من أعماق الأرض، فارتعدت له أوصال ليفيا، لكن فينيكوس نهض وقال

- الاسود تزار في أقفاصها في الملاعب. وأصغيا كلاهما. في هذه الاثناء تلاحق الزئير زارة بعد أخرى، أولى وثانيّة وثالثة، وجاءت الزارة العاشرة من كل أرجاء المدينة، ومن كل الانحاء. في المدينة كانوا قد حشروا بضعة الاف من الاسود في المجتلدات، وميادين المصارعة، فكانت هذه الوحوش كل ليلة تسند رؤوسها الضخمة على جدران الاقفاص وتبدأ زئيرا يعلن عن شوقها للحرية و الفلاة.

وهكذا، في وحشة السكون هذه الليلة، بعد أن يزار أحد الاسود زارته الاولى، يسلم دوره لأسد آخر وزارة ثانيّة، وثالثة، حتى امتلأت أرجاء المدينة زئيرا. كان ذلك تعبيرا عن قوة هائلة متوعدة تنذر بتحطيم رؤى السلام والوداعة الآتية. كانت ليفيا تصغي بقلب منقبض، وخوف، وحزن.

لكن فينيكوس ضمها اليه قائلاً :

- لا تخافي يا حبيبي، المصارعة تقترب، ولهذا فالميادين ممتلئة بالاسود.

وعلى وقع زئير الاسود الهادر المشد شيئاً فشيئاً، اتجه كلاهما إلى منزل لنيوس.

في خلال ذلك بعد يوم، كان بترونيوس في الأنتيوم يحقق مجدا وتفوقا على زملائه الاغستيين الذين تسابقوا وباروه لكسب رضا القيصر والفوز برحمته. هبطت أسهم تيفالنيوس وأمحي تأثيره تاما. ففي روما، إذا ما استوجب الأمر إبعاد الناس الخطرين من أمام الاقدام، فالحيل كثيرة: إما الثروة ووضعهم تحت الاضواء وإبهار الاخرين بولوغهم في التبذير والترف على نحو ينافي كليا الذوق واللباقة، وإما إشباع رغبات القيصر المرعبة.

وفي ذلك كله كان تيفالنيوس الماكر الرجل الاقدر من بين الجميع. في الأنتيوم عاش القيصر حياة هيلينية إغريقية في قصوره المنعكسة في مياه البحر الزرقاء اللازوردية.

فكانوا منذ الصباح حتى المساء يقرؤون الاشعار، ويفندون بناءها، وما ثقل منها على الاسماع، مستمتعين بكل لفظة موفقة فيها، أو ينشغلون بالموسيقا والمسرح، وباختصار بكل ما أنتج العقل المبدع الإغريقي من إبداعات زخرت حياتهم.

هنا في هذا الميدان كان بترونيوس لا يجارى قياسا بتيفالنيوس والاوغستيين الاخرين. كان أكثرهم ثقافة بما لا يقاس، أبرعهم حديثاً، أشف هم أحاسيسا، أرفعهم ذوقا.

وجد فيه القيصر الصاحب، والمستشار، والناصح الابداعي، وانفتح عليه بصداقة أعمق من أي وقت مضى، حتى ظن الجميع أن تأثير بترونيوس بات في حكم المؤكد، وأن أوامر صداقته بالقيصر تقوم الآن على أسس صلبة، وأنها ستمتد سنين طويلة إلى الامام. وحتى أولئك الذين كانوا ينظرون إلى الابيقوري المرموق باستهجان، باتوا الآن يتجمعون حوله أملا برضاه.

ولقد سر كثيرون حقا بأن يتقدم واحد مثله ويتصدر الواجهة، فهو بخبرته ولباقته قد عرف في الامس كيف يتقبل بابتسامة شكاكة مداهنة الخصوم وتملقهم. وسواء أكان ذلك نتيجة للكسل أو اللبابة الارستقراطية فهو ليس بالشخص المتحامل ذي النزعة الانتقامية، الذي يستغل نفوذه في اذية الآخرين.

مرت آونة أتاحت له أن يخسر حتى تيفالنيوس، لكنه فضل بدلا من خسرانه أن يهزئه، ويكشف له، باستمتاع منقطع النظر، عما تتميز به ثقافته من سطحية ونقص شديد.

وفي روما كان مجلس الشيوخ مرتاحا، فمند شهر ونصف لم يصدروا فيه حكما بالاعدام. صحيح أنهم هنا في الأنتيوم كما روما أيضا، قد رووا العجائب عن الدرجة التي بلغها القيصر من اللين والانحلال، لكن الجميع كانوا يفضلون برحابة صدر أن يحكمهم قيصر يتسم باللين، على أن يكون العوبة في يد تيفالنيوس المتسلط المنحط حتى درجة التوحش. حتى تيفالنيوس نفسه قد فقد عقله، فراح يتشدد ويشدد في طرح نفسه، على اعتبار أن القيصر كثيرا ما أفصح في روما أن لا أحد في البلاط ولا في روما بأسرها سوى شخصين هيلينيين يفهمانه حقا: هو و بترونيوس.

إن مهارة بترونيوس المدهشة قد عززت اليقين لدى الآخرين بأن قوة تأثيره تفوق كل من عداه. فلم يعد بمقدورهم أن يتصوروا القيصر بدونها، لا في أحاديثه عن الشعر والموسيقا، والمباريات، ولا عما إذا كانت نتاجاته الشعرية، والموسيقية قد بلغت حد كمالها لكن بترونيوس برحابة صدره المألوفة، كان يحادثه دون إعطاء أية أهمية لمكانته. متلكئ، وخمول حاذق وشكاك كما هي عادته.

كثيرا ما أحس الآخرون أنه يتهمكم ساخرا منهم، ومنه، ومن القيصر، ومن العالم بأسره. كان يجروء أحيانا ويقرع القيصر وجها لوجه، وحين كانوا يعتقدون أنه قد تجاوز حدوده، وبالغ في توتير القوس لدرجة قد تقوده مباشرة إلى حتفه، كان يبرع في حرف المسالة موحيا بأن هذا التقرير إنما هو لمنفعة القيصر.

كان من شأن ذلك أن يوقع الحاضرين في الذهول، ويجعلهم متيقنين بقدرة بترونيوس على التملص بنجاح وفخر من أي مطب، قد يعترضه. ذات مرة وكان فينيكوس قد عاد من إحدى رحلاته إلى روما، قرأ القيصر أمام دائرة ضيقة، أبياتا من قصيدته عن طروادة، وحين أنهاها فوجئ بعدم تصفيق الحضور إعجابا بالآيات، فالتفت إلى بترونيوس بنظرة متسائلة، فأجابه الأخير

- عمل زائف، مصيره النار.

ارتعدت أوصال الحضور خوفا، لأن القيصر لم يعتد على سماع حكما كهذا منذ طفولته. وحده تيفالنيوس بدا مسرورا عمت البشاشة أساريره. على خلاف ذلك صار فينيكوس شاحب الوجه، معتقدا أن بترونيوس الذي لا يدع نفسه للإسراف في الشراب، هو الآن في حالة من الثمل لا ريب.

أما القيصر فقد سأله ببالغ اللطف، ولو أن نبرة صوته قد شفت عن  
غرور مطعون :

- أين مواطن الرداءة فيها؟

فاستأنف بترونيوس تقريره قائلاً :

- لا تصدقهم. هؤلاء لا يفهمون في أي شيء. تسألني عن مواطن  
الرداءة في هذه الاشعار؟ وما دامت تلك رغبتك فسأقول هذه أشعار  
جيدة لو كانت من فرجيلوس أو من أوفيدوس، وحتى من هوميروس،  
لكنها ليست جيدة منك. لا يجوز لك أن تكتب أشعارا كهذه. هذا  
الحريق الذي تكتب عنه ليس مندلعا بالقدر الكافي، ناره لا تحرق،  
ونارك ليست من الحرارة الا قليلا. لا تصغ إلى إطراء الاخرين، وتملق  
لو كانوس أنا أرى أن مثل هذه الاشعار هي العنصر اللاهب، والحد  
الاعظمي لو احد مثله، لكنها لا تعبر عنك أبدا. أو تدري لماذا؟

لأنك أعظم منهم جميعا. من وهبته الالهة ما وهبتك، علينا أن  
نتنظر منه الأكثر فالأكثر.

لكنك بدأت في التكاثر والخمول، فمن الافضل أن تنام قليلا، لا  
أن تظل منهمكا في العمل. وفي مقدورك أن تقدم إبداعات لم يالفها  
العالم بعد. لذلك فأنا أواجهك بقولي : عليك بالكتابة الافضل !

على هذا النحو كان بترونيوس يناكد القيصر. لكنه يجرح ويداوي.

اغر ورقت عينا القيصر بغشاوة هي مزيج من الاستمتاع والنشوة.

فقال :



- لقد باركتني الالهة بموهبة نوعيّة، لكنها إضافة إلى ذلك، قد  
زودتني بصديق فنان، وحده من يواجهني بالحقيقة.

ومد يده المكتنزه المغطاة بالشعر الصدئي اللون، نحو الشمعدان  
الدلفي ليحرق الاشعار.

لكن بترونيوس انتزعها منه قبل أن تمسها النار وقال :

- لا لا ! حتى الاشعار غير الخليقة بك، هي ملك البشريّة. دعها  
عندي.

فأجاب نيرون معانقا صديقه :

اسمح لي أولا أن أعمل لها صندوقا يروق لي، وسأبعث بها اليك.

وأردف بعد قليل :

- تماماً. أنت محق. في قصيدتي، احتراق طروادة ليس لاهبا، وناره  
ليست متوقدة بالقدر الكافي. كنت أظن أن بلوغي بها سويّة هو ميروس  
يكفي. بعض الجبن، والحط قليلا من قدر نفسي، كانا العائقين في  
تخليقي. أنت من فتح عيني. لكن أتدري لم هي الحال كما تقول؟ لأنه  
لو أراد النحات أن يعمل نصبا لاله، فسوف يبحث له أولا عن نموذج.  
أما أنا فلا نموذج لدي. لم أشهد في حياتي مدينة تحترق. لهذا كتاباتي  
تعوزها الحقيقة.

- يمكنني القول أن من يقول مثل ذلك هو فنان كبير.

سرح نيرون مستفكرا وقال بعد قليل :

- أجبني عن سؤالي يا بترونيوس . هل تأسف أنت لاحتراق طروادة؟  
- أما أنني آسف أم لا؟... أقسم برأس فينوس المائل، أنني لا أشعر  
ولو بقليل من الاسف. ولماذا آسف. لم تكن طروادة لتحترق، لو لم  
يأت بروميثيوس بالنار للناس، ويأذن الإغريق لبرياموس بالحرب. لكن  
لو لم تكن هناك نار، فكيف سيكتب اسخيلوس بروميثيوس. وكذلك  
هي الحال، فلو لم تنشأ تلك الحرب، لما كتب هوميروس الإلياذة. أما  
من جهتي أنا فأفضل وجود بروفيونوس و الإلياذة عن استمرار قيام تلك  
المدينة الصغيرة القذرة، والبشعة.

فأجاب القيصر :

- الأمر كذلك، إذا ما أراد المرء أن ينطق بالحق من أجل الشعر،  
والفن يضحى، وينبغي أن يضحى بكل شيء. الجميع في أكايا سعداء  
بمنحهم هوميروس موضوعا من أجل الإلياذة، وسعيد برياموس لأنه  
شهد احتراق مدينته. وأنا؟ أنا لم أر مدينة تحترق.

ساد صمت قصير، اخترقه تيفالنيوس بالقول :

- سبق وقلت لك أيها القيصر، ما هي الا كلمة منك، وسأقوم أنا  
باحتراق الأنتيوم. بل أتدري ماذا؟ إذا كنت ستفتقد هذه الفيلات  
والقصور، سأحرق السفن في أوستيا، أو أقوم ببناء مدينة من خشب  
في قاعدة جبال الالب، وأنت بنفسك تلقي بالجمرة هناك. أترغب  
في ذلك؟

لكن ما كان من نيرون الا أن قاسه بنظرة ازدراء، وقال :

- لا أرى أكوأخا خشبيّة تحترق؟ أي هراء هذا منك يا تيفالنيوس.  
أستتج من هذا أنك إذ تحط من قدر موهبتي وقصيدتي الطروادية،  
فإنك تزعم أن مواهبي لا تستحق تضحيات كبرى.

ارتبك تيفالنيوس. فيما أراد نيرون أن يغير الموضوع فأضاف  
- الصيف آت... ما أنتن روما الان... لكن علي أن أعود من أجل  
المباريات الصيفيّة.

فرد تيفالنيوس :

- حين تصرف الجميع أيها القيصر، دعني أبق معك قليلا.  
وبعد ساعة من الان كان فينيكوس يقول لبترونيوس بعد أن خرجا  
من فيلا القيصر، في طريقهما إلى البيت  
لقد أوقعت الرعب في قلبي. ظننت أنك ثمل، وتسارع إلى حتفك.  
حذار لأنك تعبت بحياتك، فأجابه بترونيوس لا مبالياً

- هذه هي قاعة قتالي. وأنا فيها أفضل المجالدين. أرأيت كيف كانت  
النهاية. وسوف يبلغ تأثيري حداً أعظم في المساء. سيبحث لي بأشعاره  
في صندوق شديد الشناعة من كثرة زخارفه التي تفتقد إلى الذوق. هل  
تأتي معي؟. سأقول لطبيبي أن يضع فيه الأدوية المسهلة للأمعاء. وإضافة  
إلى ذلك فقد قمت بما قمت به، لأن تيفالنيوس، وقد انتهت الأمور إلى  
ما انتهت عليه، سوف، ولاشك، يحاول تقليدي. وأنا أتصور ما الذي  
سيحدث. دب يحاول الرقص على حبل. مهزلة سأسخر منها كما فعل  
ديموقريطس. إن أردت أعزل تيفالنيوس، وأحل محله قاضياً للقضاة.  
وعندها سيكون القيصر رهن إشارتي. لكنني أكسل من أفعل ذلك...  
الأفضل أن أتقبل الحياة التي أحيهاها، حتى لو تخللتها أشعار القيصر.

- يا لمهارتك التي تجعل من التقرير منافحة وتقريراً. لكن هل أشعاره  
يمثل تلك الرداءة؟ أنا لا أفهم في هذه الامور.

- ليست أسوأ من أشعار الاخرين لو كانوس يتمتع بموهبة أفضل،

ولكن ذا اللحيّة الحمراء أيضاً لا يعوزه ذلك. أهم ما في الأمر أنه يمتلك قدراً كبيراً من الجاهزية للشعر والموسيقا. سنكون عنده بعد يومين لنستمع منه إلى " نشيد أفرو ديت " الذي قد ينهيه اليوم أو غدا.

سنكون قلة قليلة. أنا، وأنت، وتوليفوس سينكو، والشاب نيرفا. لكن بالعودة إلى الأشعار، ليس صحيحاً ما قلته أنا عن أنني استخدمها بعد الأدبة، كما يستخدم فيتليوس ريشة الفلامينكو... لا تخلو أحياناً من قوة في التعبير. كلمات هيسوبا مثيرة... شكواها نابعة من آلام الولادة، وقد عثر نيرون على التعابير الموفقة، ربما لأنه ينجب كل شطر شعري في أو خضم معاناة. أحياناً تعتريني الشفقة، قسماً ببولوكس! أي خليط غريب! كاليفولا افتقد إحد مسنناته لكنه لم يكن بمثل ذراع التدوير لهذا المهووس.

- ومن يقرأ المستقبل كي يرى أين سيقود جنون ذي اللحيّة الحمراء؟

- لا أحد بالطبع. تحصل حوادث توقف ذكراها شعر الرأس لقرون. لكن الهام هو ما يحرك الانسان، ما يشوطه، ويعطيه دفعا. وإذا ما كان يعتريني السأم من نفسي ككوكب المشتري السيار فوق الصحراء، أظن أنني سأكون في ظل قيصر آخر أكثر سأمًا بكثير. علي أن أعترف أن صديقك بولس اليهودي يجيد التحدث، وإذا ما كان أمثال هؤلاء البشر سينشرون التعاليم، فإن الهتنا في خطر. فكرة صحيحة أنه لو كان القيصر على سبيل المثال، مسيحياً، لشعرنا جميعاً بأمان أكبر. لكن رسولك الطرسوسي حين واجهني بحججه، لم يفكر في أن هذا الاضطراب تحديداً، هو ما يمنح حياتي سحرها. من لا يغامر، لا يفقد ثروته، ورغم ذلك ترى البشر يدفعون بأنفسهم إلى أتون المغامرة، لما في ذلك من متعة وسلوى. أعرف فتياناً هم أبناء فرسان، وسيناتورات، اختاروا أن يكونوا

مجالدين. تقول إنني أعبت بحياتي، وأنت محق، لكنني أفعل هذا لأنه يسيل  
يني، في حين أن الاخلاق المسيحية ستشعرنني من أول يوم بالسأم شأنها  
شأن محاضرات سينكا. عليه أن يفهم أن أمثالي من البشر لن تخرقهم هذه  
التعاليم. أنت شخص مختلف تماماً! من حيث طبعك يمكن أن تكره اسم  
المسيح، كالطاعون، كما تكره نفسك أن تكون مسيحياً. أنا أعطيتهم  
الحق، لكن وأنا أشاءب. نقامر، ونجري باتجاه الهاوية، شيء ما يتقدم  
نحونا آتياً من المستقبل، شيء ما يقرقع ويضج تحت أقدامنا، شيء ما  
يموت بقربنا، هذا كله صحيح، لكننا من ناحية نستطيع أن نموت، أما  
من ناحية أخرى، فلا نفرط بحياتنا فنثقلها بالاعباء خدمة للموت قبل أن  
يأتي بنفسه. الحياة قائمة من أجل الحياة، وليس من أجل الموت.

- أما أنا فأشفق عليك يا بترونيوس.

- لا تشفق علي أكثر مما أشفق أنا على نفسي. كنت فيما سبق تشعر  
بالسعادة بيننا، وحين كنت تحارب في أرمينيا كنت تشتاق إلى روما.

- والان كذلك اشتاق إلى روما

- طبعاً لأنك وقعت في حب عذراء فيستا مسيحية تقطن هناك. لا  
أستغرب ذلك. لكن ما أستغربه بك أنك حينما تقول إن الدين بحر  
للسعادة، وأن حبك سرعان ما سيتكلل بإكليل النصر، أرى الحزن لا  
يفارق وجهك. بومبونيا غراسينا حزينة على الدوام، وأنت، منذ أن  
صرت مسيحياً، لم أقرأ على وجهك ابتسامة. لا تحاول إقناعي أنه دين  
فرح. حتى من روما قد رجعت حزينة. إذا كان هذا هو الحب، عندكم  
أنتم المسيحيين، فأقسم بصفائر باخوس الشقراء أنني لن أتبع مثالكم  
هذا.

فأجاب فينيكوس :

- الأمر مختلف كلياً. أنا أيضاً أقسم، ليس بصفائر باخوس، بل بروح أبي أنني ما ذقت طعاماً لتلك السعادة التي تملأ قلبي الآن.

لكن ما يحزنني هو إحساسي بأن ما يهدد ليفيا قائم بعيداً عنها. لا أعرف ذلك الخطر، وما هو مصدره، لكنني أشعر به مسبقاً، كالشعور المسبق بقدم العاصفة.

- أتكفل بأنني سأوفر لك فرصة كي تغادر الأنتيوم لأي مدة تشاء. كأن بويبا أكثر اطمئناناً الآن، وأؤكد لك أن لا خطر عليك منها، ولا على ليفيا.

- اليوم سالتني ماذا فعلت في روما، رغم أن سفري كان سرياً.

- لعلها تتجسس عليك، لكنها الآن باتت تحسب حسابي.

نهض فينيكوس وقال

- قال بولس أن الله يعطي تحذيراً مسبقاً للإنسان، لكنه لا يسمح بتصديق التنبؤات. أنا إذن أقاوم هذا الاحساس المسبق مني، ولا أستطيع التحرر منه. سأقول ما حصل لأريج قلبي. كنا معاً أنا وليفيا، نخطط لمستقبلنا في أمسية وديعة كهذه الامسيّة. لا أستطيع وصف السعادة والطمأنينة اللتين لف تانا. وبغته سمعنا زئير الاسود. صحيح أنه مالوف في روما، لكنني منذ ذلك الحين بت لا أعرف الطمأنينة. أشعر أنه ما جرى كان تهديداً، ونذيراً للشؤم. تعرفني أنني بعيد عن الخوف، لكن ما حصل آنذاك قد ملأ ظلام الليل بالجزع. كان أمراً غريباً جعل أصوات الزئير إلى الآن لا تفار سمعي، وتملأ قلبي قلقاً، وكأنما ليفيا

الان في خطر محقق وفي أمس الحاجة لحمايتي . يا لعذابي... ساعدني  
لأسافر اليها، والا سأذهب دون إذن من أحد. لا أحتمل البقاء هنا.

أكرر قولي، لا أحتمل بقائي هنا.

ابتسم بترونيوس :

- لم نبلغ بعد درجة أن ندع ابناء المسؤولين وزوجاتهم عرضة  
للأسود في الميادين. ومن يدري إن كانت تلك أصواتا للأسود، لأن  
الجواميس الوحشية الجرمانية تزار هكذا. ومن جهتي فأنا ابصق على  
كافة التنبؤات وتنجيمات البروج. أمس كان الظلام دامسا، وأمطرت  
السماء بالنيازك الهاوية. هناك من يبتئس لمثل هذا المشهد، وأنا لست  
من هذا النوع.

وصمت قليلا، ثم عاد ليقول بعد تفكير قصير

- على أية حال، إن كان مسيحكم قد قام من موته، فبمقدوره أن  
يحميكم من الموت.

- أجل أجاب فينيكوس وهو ينظر إلى السماء المدروزة بالنجوم.

غنى القيصر على شرف سيدة قبرص، وعزف نشيداً هو من ألف كلماته وموسيقاه. يومها كان صوته متألقاً، وشعر أن لحنه قد اجتذب الحضور حقيقة أيما اجتذاب. فمنحه ذلك من قوة الحنجرة، وطلاقة الروح، ما جعله يبدو موهبة حقيقيّة، حتى أوصله صدق الحماس والاندماج، درجة الاعياء التام. كانت هذه أول مرة في حياته، لا يرغب فيها سماع التمجيد والإطراء من الحاضرين. جلس محني الرأس يستند على القيثارة هنيهة، لكنه سرعان ما نهض بغتة وقال

- أنا متعب، وأحتاج إلى الهواء. دوزنوا أنتم الاوتار خلال هذه الفترة.

ولفّ منديله الحريري حول عنقه.

ثم التفت نحو بترونيوس و فينيكوس الجالسين في ركن القاعة ليقول :

- أنتما اتبعاني. وأنت يا فينيكوس هات يديك، لأن قواي قد خارت، أما بترونيوس فسوف يحدثني فيما بعد عن اللحن.

وخرجوا معا إلى فناء القصر المرمرّي المنشور بالزعفران.

هنا يتنفس المرء بطلاقة قال نيرون روي حزينّة، متوفزة، وكما



أرى فإن ما قمت بتقديمه لكم من غناء، يؤهّلي أن أمثل أمام الملاء،  
وأجني فوزاً لم يسبق لروماني أن جناه.

فأجابه بترونيوس :

- يمكن أن تصعد هنا، وفي روما، وفي أكايا. لقد أذهلتني حقاً أيها  
القيصر الإلهي.

- أعلم. إنك من الكسل المريع ما يجعلك لا تكلف نفسك مشقة  
الادلاء بعبارات الاطراء. وأنت صادق شأنك شأن توليوس الا أنك  
أكثر فهما للأمور منه. قل لي ما رأيك في اللحن؟

لو كنت أسمع شعرا، أو أشاهد عربة تقودها أنت في السيرك، أو  
أرى تمثالا جميلا، أو كنيسة، أو لوحة، فسأشعر أن بوسعي أن أقبض  
على كل ما أراه من هذه الابداعات، ويكون محط إعجابي. لكنني  
حين أسمع الموسيقى، وبخاصة موسيقاك أنت، تحتشد أمامي دقات  
متلاحقة متجددة من الجمال والروعة. فأجري وراءها مستعجلاً  
القبض عليها، لكن ما إن أو شك على الإمساك بها، حتى تتدفق حشود  
جديدة وجديدة كأمواج البحر القادمة من اللانهاية.

أنا أقول أن الموسيقى كالبحر. نقف عند شاطئه، ونرنو بعيداً، فيتعذر  
علينا رؤية شاطئه الاخر تحمس نيرون :

- ما أميزك من خبير في الفن !

تمشوا قليلاً صامتين، يخشخش الزعفران تحت أقدامهم، حتى بادر  
نيرون بقوله :

- لقد نطقت، بما أفكر تماماً. لهذا السبب أقول دائماً أنك الوحيد من يفهمني في روما. هذا واقع هذه هي نظرتي إلى الموسيقى. حين أعزف أو أغني أرى أموراً لم أكن أعرف أنها قائمة في إمبراطوريتي، أو حتى في العالم. ألسْتُ القيصر، وأملك العالم، وأستطيع أن أفعل أي شيء. لكن الموسيقى تفتح أمامي مملكة جديدة، وجبالاً أخرى، وبحاراً، وروائع لم أعهد لها من قبل. وغالباً ما أعجز عن تسميتها، وإدراكها بوغي. أحسها فقط.

أحس بالآلهة، أرى جبل الأولمب. تهب علي رياح آتية من خارج نطاق الأرض، فالبحر عبر الضباب أشياء غاية في الكبر، لكنها هادئة ومضيئة كشروق الشمس... العالم بكليته يتغنى حولي بالالحان... ويمكنني أن أقول هنا يرتعش صوته بالدهشة الصادقة أنني وأنا القيصر الإله أشعر غندئذ بضحالتي وكأني ذرة من غبار. أتصدق؟

- حقا. الفنانون الكبار وحدهم من يشعرون بضحالتهم أمام الفن.

- هذه ليلة الصدق. سأفتح روحي أمامك كصديق لي. وسأقول لك أشياء كثيرة... تظن أنني أعمى، أو فاقد العقل، تظن أنني لا أعرف أنهم في روما يخطون على الجدران الشتائم ضدي، ويسمونني قاتل أمه، وقاتل زوجته، ويعتبرونني وحشاً لا رحمة في قلبه، لأن تيفالنيوس انتزع مني أحكاماً بالاعدام لبعض أعدائي. أجل يا عزيزي إنهم يرونني فظيلاً، وأنا أعرف ذلك. وكثيراً ما سألت نفسي هل أنا حقا شخص فظيع؟ لكنهم لا يدركون أن أفعال المرء أحياناً قد تكون فظيعة، دون أن يكون الشخص كذلك.

لا أحد يصدق، وربما أنت منهم يا عزيزي، أنني أحس بنفسي بريئاً وطيباً كوليده في مهده أقسم بالنجوم المؤتلفة فوقنا أنني أقول الصدق

: الناس لا يعرفون كم من الخير مخبأ في هذا القلب، وكم من الكنوز  
أكتشف في داخلي إذا ما الموسيقى فتحت لي الباب.

لم يشك بترونيوس قيد ذرة، أن نيرون الان يتكلم بصدق ونقاء،  
وأن الموسيقى تظهر من روحه العواطف الأكثر نبلا، المدفونة عميقا  
تحت راقات الانانيّة، والخلاعة، والشر. فقال

- ينبغي معرفتك عن قرب، كما أعرفك أنا. ما عرفت روما يوما أن  
تعطيك حق قدرك.

وكانما أهدوب القيصر تحت وطأة الباطل، فاستند بقوة أكبر على  
ذراع فينيكوس وأجاب

- أسمع من تيفالنيوس، ويتهامسون في مجلس الشيوخ أن ديودروس  
وترنيوس أكثر مهارة مني في العزف على القيثارة. صاروا يجادلونني  
حتى في هذا. أما أنت فتقول الحق. أجبني بصراحة : هل هما يفوقاني  
مهارة في العزف؟ أم أن عزفهما جيد كعزفي؟

- لا أبدا. استعمالك للأوتار أكثر ليونة، وفي عزفك الكثير من  
القوة. والمرء يجد فيك الفنان، بينما يجد فيهما الخبرة والدربة. فلو  
سمعها المرء قبل أن يسمعك سيكتشف بجلاء ما أنت.

- ما دام الأمر كذلك، دعهما على قيد الحياة. لن يدركا أبدا أي  
خدمة قدمتها أنت لهما اليوم. وافرض أنني أدنتهما بحكم ما، الن  
أكون مضطرا لاستقبال آخرين سواهما.

- فضلا عن أن الناس سيتحدثون أنك بدافع حبك للموسيقا، تقوم

باستئصال الموسيقى من البلد. تجنب أن تقدم على اغتيال الفن لأجل الفن، أيها القيصر الالهي.

فأجاب نيرون

- ما أميزك عن تيفالنيوس. لكنك ترى أنني فنان في كل شيء وبما أن الموسيقى تفتح أمامي مطارح جديدة لم أكن أحلم بوجودها، وبلدانا لا أبسط عليها نفوذي، ومتعة، وسعادة لم أعرفهما من قبل، فليس إذن بوسعي أن أمارس حياة عادية. الموسيقى تقول لي أن ثمة أموراً فوق العادة، فعلي إذن كي أحصل عليها، أن اسخر كل ما وهبتي الالهة، وأمدتني به من قوة وسلطان.

أفكر أحيانا أنه إذا ما أراد المرء أن يعلو إلى ذلك العالم الاولمبي، فعليه أن يفعل ما لم يفعله أحد غيره من قبل، عليه أن يحلق ويمنح أجنحة للقيمة الانسانية خيرا أو شرا. كما أنني أدرك أن الناس يتهمونني بالجنون. واقع الحال أنني لست مجنونا، ولكنني أبحث عن الجنون، وأبدو في حالة من القلق وفراغ الصبر، لأنني لا أجده.

أنا أبحث عن الجنون، أتفهمني؟ لهذا السبب أريد أن أعلو فوق الانسان، لأكون الاعظم بين الفنانين جميعا.

ثم أخفض من نبرته، فلم يعد فينيكوس يسمع ما يقول، وقرب فمه من أذن بترونيوس هامس له :

- أتدري أنه السبب الرئيس في قتلي لأمي وزوجتي؟

أردت أن أضع أمام بوابة العالم المجهول أعظم قربان يمكن أن يقدمه الانسان كنت أظن بعدها أن أمرا ما سوف يحصل وتفتح البوابة فالمح

من خلالها شيئاً لا أعرفه. كان يمكن أن يحصل أمر أجمل وأفزع مما يتصوره عقل... لكن الفديّة لم تكن كافية. لكي تفتح بوابة المعرفة، فثمة بالطبع حاجة لأضحية أكبر. ليكن إذن ما تشاؤه التنبؤات.

- ما قصدك؟

- سوف ترى، سوف ترى، وأسرع مما تتصور. لكن حتى ذلك الحين، ضع في حسابك أن هنالك نيرونين : أحدهما الذي يعرفه الناس، والآخر الفنان الذي لا يعرفه الا أنت، والذي إذا ما كان قاتلاً كالموت، أو خصيباً كباخوس، فإنما يفعل ذلك، لأن ضحالة الحياة اليوميّة وهشاشتها تضغطان على صدره وتخنقانه، ويريد اقتلاعهما ولو كان مضطراً للقبض على الحديد والنار... آه، يا له من عالم رمادي بدوني !

لا أحد يتصور، ولا حتى أنت يا عزيزي، أي فنان أكون. هنا يكمن السبب في معاناتي، وأصارحك القول : قلبي حزين أحياناً، كهذه الأشجار الداكنة أمامنا. ما أشق على المرء أن يحمل على كاهله دفعة واحدة أعلى سلطة، وأعظم موهبة.

- قلبي معك أيها القيصر، وكذلك الأرض والبحر، دون ذكر فينيكوس الذي في أعماق قلبه، يؤلهك.

فأجاب نيرون

- كان عزيزاً على قلبي دائماً، ولو أنه يخدم مارس اله الحرب ولا يخدم الموزيات الالهات التسع اللواتي يحمين الفنون والعلوم.

- هو قبل كل شيء يخدم افروديته الخاصة.

وبغته اتخذ قراره بأن يرتب الان أمر فينيكوس، ويبعد عنه أي خطر  
محمّل. فاستأنف كلامه قائلاً :

- لكنه عاشق. دعه يا سيدي يذهب إلى روما، فقد أصابه هنا  
النحول. أتدري أن تلك الفتاة الرهينة الليغويّة التي أهديتها له قد عثر  
عليها، وحين جاء فينيكوس إلى الأنتيوم وضعها في رعايّة أحدهم  
يدعى لينوس؟ لم أتحدث بهذا بعد لأنك كنت منشغلا بالمشيد وهذا  
أهم من أي شيء. أراد فينيكوس في البدايّة أن يجعل منها عشيقه له،  
لكنه وجدها فتاة فاضلة، فوقع في حب فضيلتها، وهو الان يرغب فيها  
زوجة له. إنها فتاة ملكيّة لا يحط من قدر فينيكوس الزواج بها. وبما  
أنه جندي حقيقي، يعاني ويتالم ويصاب بالنحول، لكنه ينتظر إذنا من  
الامبراطور.

- لكن الامبراطور لا ينتقي زوجات لجنوده، فلم ينتظر إذني؟ قلت،  
يا سيدي، إنه يؤلّهك.

- الفتاة جميلة، لكنها ضئيلة المؤخرة قليلا. لقد شككت منها الاوغستا  
بويبا بأنها فتنت طفلتنا في حديقة البلاتينوس، وأصابتها بالعين.

- لكنني قلت لتيفالنيوس أن الالهة لا تخضع للسحر الشرير.

تذكر، أيها القيصر الالهي، آية جفلة كانت فيها، وكيف صرخت  
أنت بأعلى صوتك: "هابت"!.

- كيف لا.

ثم التفت نحو فينيكوس :

- أحقا تحبها. يمثل هذا القدر الذي يتحدث عنه بترونيوس؟

- أحبها يا سيدي.

- إذن سأعطي أوامري بأن ترحل غدا إلى روما، وتتخذها زوجة.  
ولا تدعني أراك بلا خاتم الزواج.

- أشكرك يا سيدي من قلبي وروحي.

وتنهد القيصر قائلاً :

- آه ما أمتعته من شعور أنك تسعد الناس. كم أحب الا أفعل في  
حياتي شيئاً غير هذا.

فقال بترونيوس :

- لنا رجااء آخر أيها القيصر الرباني. أعلن مشيئتك هذه أمام الاغستا  
بوبيا كذلك. لا يجرو فينيكوس أن يتزوج إحداهن إذا كانت الاوغستا  
تكن لها كرها. لكن بكلمة منك يا سيدي تستطيع أن تلغي حكمها  
على الفتاة إذا ما أخبرتها أنها أوامر منك.

- حسنا، لا أستطيع أن أرفض طلبا لك، ولا لفينكوس.

وانطلقوا معا باتجاه الفيلا تحذو كلا من بترونيوس و فينيكوس فرحة  
الفوز.

في أتريوم الفيلا كان الشاب نيرفا و توليوس سينكو يسليان الاوغستا  
بالحديث، فيما كان كل من نترنيوس و ديودرس يدوزنان القيثارة. دخل  
القيصر وجلس على كرسي ثم همس شيئاً للشباب اليوناني من خاصة  
خدمه، وانتظر.

وسرعان ما عاد الفتى بصندوقته المذهبة. فتحها نيرون، وأخرج  
منها عقدا من الاوبال حجر كريم، وقال :

- إنها حلية تليق بأمسية اليوم.

فردت بوبيا لمعرفة الوثيقة بأن القيصر قد خصها بالحلية :

- يا لروعة بريقها !

فيما راح القيصر ينقل العقد من كف إلى أخرى، وقال

- فينيكوس ! هذه هدية باسمي تقدمها للأميرة الليغوية التي أمرت

بالزواج منها.

رفعت بوبيا القيصر بنظرة أطلقت من خلالها شرارة غضبها وذهولها

الفجائي، تحولت بعدها إلى فينيكوس، واستقرت عند بترونيوس الذي

راح يحك عنقه في هذه اللحظة.

خلال ذلك كان فينيكوس يعبر عن شكره من أجل الهدية، ثم خطا

نحو بترونيوس ليقول

- لا أدري كيف سأرد لك هذا الجميل.

فأجابه ذاك :

- قدم بضع بطات فدية لـ يوتربا، مجد أغاني القيصر، وصفر

للتنبؤات. آمل أن زئير الاسود لن يعكر بعد الان ليالك، ولا أحلام

زنبقتك الليغوية.

- لا. لقد صرت مطمئنا الان.

- أوسعتكما فورتونا برحمتها. واحترس الان لأن القيصر سيتناول

القيثار اكنم أنفاسك، واستمع، واذرف الدموع.

أمسك القيصر فعلا بالقيثار، ورفع عينيه. انبتت في القاعة كل

الاحاديث، وثبت الحاضرون في أماكنهم كالجمادات.



وحدهما ترنبوس و ديودروس العازفان المرافقان لغناء القيصر كان يلتفتان هذه الناحية وتلك. تارة ينظران ببعض، وتارة يرقبان فم القيصر في انتظار البدء.

في هذه الاثناء صدرت حركة، وضجيج في الصالون. وبعد قليل تقدم من خلف الستارة فاون معتوق القيصر، يتبعه القنصل لاكونوس قطب نيرون جبينه

قال فاون لاهثا

- عفوا أيها الامبراطور. في روما نيران. معظم أجزاء المدينة يعمها اللهب! قفز الجميع من أماكنهم، فيما وضع القيصر القيثاره وصاح:  
- أيتها الالهة!... سأشاهد المدينة المحترقة، وأنهى قصيدتي الطروادية. ثم التفت نحو القنصل:

- إذا ما انطلقت في الحال، هل أتمكن من مشاهدة النيران؟

فأجاب القنصل يعلو وجهه شحوب الموتى:

- سيدي! المدينة غارقة في بحر من اللهب، والدخان يخنق السكان، والناس يغمى عليهم، أو يلقون بأنفسهم بالنار كالمجانين. روما تفتنى يا سيدي!

ساد صمت لحظي قطعتة صرخة فينيكوس: في ميسيرو ميهي

ورمى بسترته، وخرج من القصر بردائه فقط.

فيما رفع نيرون يديه نحو السماء صارخا

- ويلي عليك، يا مدينة القديس برياموس

لم يملك فينيكوس من الوقت ليأمر الا بعض خدمه ليتبعوه بالاحصنة. امتطى حصانا وانطلق في ظلمة شوارع الأنتيوم الخاليّة، ميمّا شطر لاورنتوم. لقد فقد صوابه، جراء سماعه النبأ المروع، وتشوشت مداركه فلم يعد يدري ماذا يحدث له. كل ما كان يعرفه أنه فوق صهوة الحصان، والنحس قاعد خلف ظهره ويصرخ في أذنه : " روما تحترق "، ويطاردهما معا بالسوط هو وجواده ليلقيهما في النار.

انحنى برأسه الحاسرة فوق عنق الجواد، دافعا بجبينه إلى أمام دون مبالاة بالعوائق التي قد تؤدي به إلى الوقوع والتحطم. في هذه الامسيّة الوادعة الهادئة المتلألئة بالنجوم، كان الحصان والفارس السابحان في ضوء القمر، أشبه بمشهد في حلم.

انطلق الحصان، ماطا عنقه إلى أمام، وأذنيه إلى الوراء بين أشجار السرو المنتصبة دونما حراك، والفيلات البيضاء المتوارية بينها. فاجفلت ضربات حوافره فوق الحجارة هنا وهناك، الكلاب التي لاحقت بنباحها المروع هذا البادي الغريب، وبعدها نتيجة لاضطرابها الشديد من المباغطة، رفعت رؤوسها إلى القمر، وشرعت تعوي عواء مريرا. وسرعان ما تخلف أرقاء فينيكوس فوق أحصنتهم الضعيفة، عن سيدهم.

كان يعدو كالعاصفة عابراً لأورنتوم الهاجعة إلى النوم، ثم انعطف

باتجاه ارديا. وما إن أشرف على الوصول اليها حتى رأى في السماء  
أنواراً وردية آتية من الجهة الشمالية الشرقية.

قد تكون أنوار الفجر، لأنه يطلع باكراً في حزيران. لكن فينيكوس  
بيقين منه أنها أنوار الحريق لم يتمكن من كتمان صرخة القنوط والغضب  
المسعورة.

حضرت له كلمات ليكانيوس : " المدينة بحر من اللهب " ظن  
للحظة أنه سيجن، لأنه فقد كل أمل بإنقاذ ليفيا، وبلوغ المدينة قبل  
ان تتحول إلى رماد. تسارعت أفكاره القانطة الرهيبة حتى تجاوزت  
سرعة حصانه، وراحت تتطاير أمامه كسرب من الطيور السوداء. لم  
يدر في أي نقطة من المدينة بدأت النيران، لكنه افترض بأن شرارتها  
الاولى كانت في المستودعات الخشبية المنتشرة بكثافة بين المنازل،  
والاسطبلات الخشبية لتجار الرقيق. كثيرا ما تحدث حرائق في روما  
نتيجة أعمال العنف والنهب خاصة في أحياء الفقراء، والبرابرة. تذكر  
الان أرسوس وقوته الجبارة، لكن ما الذي بمقدوره أن يفعل أمام قوة  
النار المدمرة؟

كانت مخاوف روما من تمرد الرقيق تتفاقم منذ سنوات. يقال إن  
مئات الألاف من هؤلاء العبيد يحلمون باسترجاع زمن سبارتكوس،  
ويترقبون اللحظة المناسبة للانتفاض، وحمل السلاح في وجه ظالمهم  
وضد المدينة. وما ذي قد جاءت، وقد يجبر الحريق معه حرباً ومجازر.  
وقد ينتهك الحرس الامبراطوري المدينة، ويقتل الشعب بأمر من  
القيصر. انتصب شعر رأسه لهذه الافكار.

تذكر الاحاديث التي بدأت تجري منذ حين في البلاط الامبراطوري  
عن إحراق المدن، وخطرت له شكوى القيصر من أنه لم يشهد احتراق

مدينة يلهمه الغناء والشعر ، وتذكر مبادرة تيفالنيوس الصريحة أمام القيصر، واستعداده للقيام بإحراق الأتيوم، أو مدينة خشبية مصطنعة لتلبية طموح الامبراطور الذي لم يخف قرفه واشمئزازه من أزقة المدينة وقذارتها. تبين الأمر. القيصر قام بإحراق المدينة. وحده من يجروا على القيام. يمثل هذا الفعل، بعد أن كل ف تيفالنيوس بذلك. ولكن بما أن المدينة تحترق بأمر من القيصر، فمن يجزم أنه لن يقدم على الفتك بالمواطنين وقتلهم جماعيا؟ إنه من الفظاعة بحيث يفعل ذلك. إذن حريق، انتفاضة عبيد، حمام دم.

وهذا هو المشهد إذن : فوضى عارمة، فلتان، نقمة مسعورة، هياج كاسح. وليفيا في وسط هذا الاتون. اختلطت تنهدات فينيكوس بأنين حصانه الذي بلغ أوجه، وهو ينهب الطريق الصاعد نحو أريسا. من سيخرجها من المدينة المحترقة؟ من سينقذها؟ استلقى على حصانه، غارزا أصابع كفيه في شعره. كان في مقدوره، ومن شدة ألمه أن ينهش عنق الحصان.

لكن فارسا كان يعدو بحصانه في الاتجاه المعاكس مر بقربه صائحا "إنها نهاية روما" وتابع عدوه. كل ما استطاع فينيكوس أن ينطق به: "يا الهة" كلمة جعلته يستعيد توازنه. يا الهة! أمسك برأسه فجأة رافعا كلتا يديه نحو السماء وبدأ يصلي: "لا أدعوكم أنتم يا من معابدكم تحترق، إنما أدعوك أنت!... يا من عرفت الألام. يا من أنت وحدك الرحيم! يا من أنت وحدك فهمت ألم الإنسان. يا من أتيت إلى العالم كي تعلم البشرية الرحمة، فاشملنا الآن! إن كنت كما يقول بولس و بطرس فأنقذ ليفيا، ارفعها بذراعيك وأخرجها من لهب النيران. بوسعك أن تنقذها! فأعدها الي وسأهرق دمي من أجلك. وإن لم تفعل ذلك من أجلي فمن أجلها. هي تحبك وتثق بك إنك تعد بالحياة

والسعادة بعد الممات لكن السعادة بعد الموت لن تنصرف عنا، وليفيا  
لا تريد الان أن تموت. اسمح لها أن تعيش بعد.

خذها بذراعيك وانتشلها من روما. بوسعك أن تفعل لو شئت.

اكتفى بذلك، لأنه شعر أن متابعة الصلاة قد تؤدي إلى وعيد،  
وخشي أن يجرح الألوهة في وقت هو في أمس الحاجة إلى رحمتها.  
راح يهمز الحصان مجدداً بعد أن لاحت لعينه جدران أريسيا البيضاء.  
وبلغت اندفاعته أقصاها حين بلغ غابة المدينة ومرّ أمام المعبد المقام  
هناك.

ورأى حوله حركة غير معهودة. بشر مسرعون تحت المذبح وبين  
الاعمدة على أنوار المشاعل باتجاه الغابة. وحشود أخرى سلكت  
الطريق العام، شتتها الحصان في طريقه، وصدّ من بينها بعض الافراد.  
وتعالت الاصوات تنادي " روما تحترق ! المدينة في بحر من اللهب،  
أيتها الآلهة أنقذي روما "

وما إن وصل إلى مكان يتبع لأملاكه، بقصد أن يبدل حصانه المنهك،  
حتى تجمهر أمامه العديد من الأرقاء، فطلب اليهم أن يأتوه بالحصان  
المستريح. في هذه الاثناء لمح رهطاً من فرسان الحرب الامبراطوري  
دفعهم النبأ للهروع إلى الأنتيوم، فسارع اليهم يسأل :

- أي أجزاء المدينة يحترق؟

فسأله قائدهم :

- من أنت؟

- فينيكوس، قائد عسكري، وأوغستيني ! هيا تكلم !

- بدأ الحريق في الاكواخ المجاورة للسرك، يا سيدي حين أطلقنا لمهمتنا، كان مركز المدينة يشتعل.

- و الترانستريس؟

- لم تصله النيران بعد. لكنها تتوسع في كل لحظة لتشمل أنحاء جديدة وجديدة من المدينة. السكان يموتون من الحرارة، والدخان، ولا جدوى من كل محاولات الانقاذ.

في هذه اللحظة جاؤوا بالحصان، فاعتلاه الشاب وتابع طريقه.

اتخذ الان وجهة البانوم مخلفا عن يمينه البالونغا وبحيرتها الرائعة. كان يدرك أنه إذا ما سلك الطريق العام وصعد الجبل، فسوف يشرف بنظره، ليس على بوفيللا و أوسترنيوم فحسب حيث تنتظره أحصنة أخرى، بل على روما كذلك.

قال في نفسه :

- سأشاهد النار من قمة الجبل. وهمز الحصان مجدداً.

لكنه قبل أن يبلغ قمة الجبل، راحت الريح تلمح وجهه، حاملة معها رائحة الدخان. وباتت قمة الجبل تسبح بالانوار الذهبية. فكر فينيكوس :

- أضواء النار.

و حين بلغ القمة انكشف أمامه مشهد مروع. اكتست السهوب

كلها بسحابة من الدخان سبحت على مقربة من الأرض، وتلاشت فيها المدن، وأنابيب المياه، والفيلات، والأشجار. وفوق التلال عند نهاية هذه السهوب الرمادية المرعبة، كانت المدينة تترق.

لكن الحريق لم يتخذ هيئة عمود ينشأ في حالة احتراق مبنى وحيد مهما يكن المبنى ضخماً. بل كان امتداداً طويلاً كشفق الفجر. وفوق هذا الامتداد الشفقي انسحبت ستارة دخانية توزعها السواد في ناحية منها، والوردي والدموي في ناحية أخرى، وتكاثفت هنا، وانقشعت هناك، ثم تلوت كالافعوان. وكان من شأن هذه الستارة الدخانية اللعينة أن تغطي أحياناً حتى المنطقة النارية نفسها فتجعلها شريطاً ضيقاً أحياناً، لكن الشريط الناري يعود في أماكن أخرى ليلقي بأنواره من الأسفل على الستارة الدخانية فيبيدها تموجات قد اشتعلت أسافلها. كان كلاهما الشريط الناري، والستارة الدخانية يستحوذ على حدود الرؤية في كل مكان، حتى أغلقا المدى مثل غابة كثيفة. فلم تب الجبال السابينية أبداً.

بدأ الفينيكوس في اللحظة الأولى أن ما يحترق ليس روما وحدها، بل العالم بأسره، فلا فرصة لكائن حي بالنجاة من البحر الدخاني الناري هذا.

كانت الرياح قد بدأت تشتد في هبوبها فوق النيران، حاملة رائحة الاحتراق، والدخان الذي غلف كل شيء مجاور.

وبدأت الشمس تشرق وتير الكون، فأنارت تماماً القمم المحيطة ببحيرة البا. لكن أشعة الفجر الذهبية خلعت على العباءة الدخانية لونا واهنا محمرا. فينيكوس، بانحداره صوب البانوم بلغ منطقة دخانية أكثر كثافة يصعب اختراقها، أغرقت فيها حتى المدينة الصغيرة بالكامل،

فخرج قاطنوها إلى الشوارع، وقد شق عليهم أن يتصوروا مقدار الهول الذي حل بروما، ما دام الأمر هنا على هذه الحال من صعوبة التنفس.

تملكه القنوط ثانیة، وانتصب شعر رأسه من الهلع. لكنه سعى إلى أن يتمالك نفسه قدر المستطاع. قال في نفسه " يستحيل أن يعم الحريق المدينة كلها دفعة واحدة. الرياح تهب من الشمال، وتدفع بالدخان إلى هذه الانحاء. الجهة المقابلة تخلو من الدخان، ما يدل على أن ال ترانسترس في منجى، خاصة وأن النهر يفصله عن النيران، وهو الأمر الكافي ليتمكن أرسوس من عبور مدخل المدينة من جهة يانو كولوس، وينتشل ليفيا من الخطر.

ومن المستحيل أيضاً أن يهلك جميع السكان، أو أن تغنى المدينة التي تحكم العالم في لحظة عن وجه الأرض. لقد دلت التجارب أن قسما من السكان ظل على قيد الحياة بالرغم من الحرائق، والمجازر التي ارتكبت في المدن المنتهكة بقوة السلاح، فكيف من المفترض إذن أن تهلك ليفيا؟ خاصة وأنها في رعاية الله القاهر للموت "

عكف على الصلاة من جديد، فأكثر من دعواته، ووعد المسيح بالقرابين، والتقدمات الغالية. ولم يهدأ له بال حتى غادر البانوم حيث كان كافة السكان يجلسون على الاسطح، وفوق الاشجار، يتفرجون على روما. استعاد برودة دمه. فكر أن ليفيا ليست فحسب في عهدة أرسوس و لينوس، بل في رعاية بطرس كذلك. فكرة منحته القوة وجددت آماله. كان بطرس في نظره كائنا مبهما وفوق البشر. منذ أن سمعه في الأستريانوم، وتأثيره ما زال قائما، وقد عبر عن ذلك حين كتب لليفا قائلاً: كل ما يقوله هذا الحواريّ صحيح، أو سيثبت



الزمن صحته. وحين عرفه عن كذب في أثناء مرضه، اشتد هذا التأثير، واستحال إلى إيمان راسخ. إذن بما أن الحواريّ قد بارك حبه، ووعدّه بليفيا، من المؤكد أن الفتاة لن تهلك في الحريق. يمكن أن تحترق المدينة، وتقنى عن بكرة أبيها، لكن ليفيا لن تمسها شرارة واحدة من النار.

لا بل أنه، نتيجة للسهاد والقلق، والعدو المسعور، والاهتزازات التي لحقت بأوصاله، قد وصل به الأمر حد المغالاة في تصوراته ليصبح المستحيل، لديه، ممكنا: بطرس يرفع الصليب أمام السنة اللهب فيشقها إلى شطرين ويتمكنون من العبور بينهما. فضلا عن أن بطرس رأى المستقبل، فلا بد إذ من أنه قد توقع هذا الحريق، فعمد إلى إخراج المسيحيين من المدينة ومن بينهم ليفيا التي أحبها كابنة له. امتلأ قلب فينيكوس بالامل. فكر أنهم لو هربوا من المدينة، فسوف يلقاهم في بوفيليا أو في مكان ما في الطريق.

لقد ازداد يقينه في ذلك وهو يمر بأعداد هائلة من البشر الذين غادروا المدينة، ميممين شطر جبال الالب، هربا من السنة النيران، وسحائب الدخان. وقبل أن يبلغ الاوسترنيوم كان عليه أن يتمهل لأن الطريق كان مقطوعا. مشاة يحملون المتاع على ظهورهم، أحصنة، وبغال، وعربات مثقلة بالاحمال، وعبيدا يعتلون نقالات تقل أسيدا. كان الاوسترنيوم عاجا بالنازحين من روما، ماجعل فينيكوس عاجزا عن العبور بينهم.

اكتظت الاسواق، والمعابد، و صفوف الاعمدة والشوارع بحشود الناس. وضربت الخيام هنا وهناك يلوذ بها عائلات بكاملها. وآخرون افترشوا العراء، منهم من يدعون الالهة طلبا للعون ومنهم من يلعنون قدرهم. كان من العسير فعل أي شيء في وسط هذه الحمى الشاملة من

الرعب. لا أحد يستجيب لأي نداء منه، لكن الجميع كانوا يرفعون نحوه عيونهم المرتعدة يندبون روما التي تحترق، ويحترق معها الكون بأسره. لم ينقطع وصول الحشود من جهة روما. رجال، ونساء، وأطفال، انخرطوا في الزحام العشوائي والذي فصل بعضهم عن اهليته، وبحث بعضهم في حيرة عم ن ضاع عنهم. آخرون تشاجروا من أجل أمكنة لضرب الخيام.

رعاة قصدوا المدينة الصغيرة مجموعات إثر أخرى، تقف يا لابناء، أو بحثا عن فرص السطو في الفوضى العارمة. وهنا وهناك مجموعات من المجالدين والأرقاء من مختلف الاقوام بدأت تقتحم المنازل والفيلات وتطبق على الجنود الذين يحمون السكان.

أمام مطعم هناك محاط بالعبيد، لمح فينيكوس السيناتور يونيوس الذي زوده بالاخبار الأكثر دقة عن الحريق. اندلعت النيران أول الأمر في محيط السيرك الكبير في المنطقة التي تحد البالاتينوس، وهضاب سيليوس، لكنه انتشر بسرعة تفوق التصور، حتى بلغ وسط المدينة. منذ برينوس لم تعلق المدينة مثل هذه الصفحة. احترق السيرك بكامله مع ما حوله من بيوت ومحلات وشملت النيران أفنتوس و سيليوس. لكنها أحاطت بالبالاتينوس من جانب، ثم انتشرت حتى كارينا.

هنا قبض يونيوس صاحب الاعمال الفنيّة العديدة في كارينا، على حفنة من الغبار القذر وصبها على رأسه، وراح يولول. لكن فينيكوس أمسك بكتفه، وربت عليه، مواسيا

ومنزلي أنا أيضاً في كارينا. فإذا احترق كل شيء هناك، فليحترق معه. ثم خطر له أن ليفيا لو قبلت بنصيحته، لكانت انتقلت إلى منزل أرسوس. فسأله :

- و فينيكوس بتروسيوس؟

- إنه يحترق أجاب يونيوس

- وترانستبريس؟

رمقه يونيوس بنظرة استغراب

- وماذا يعني ترانستبريس؟

فصرخ فينيكوس بعنف :

- أهم عندي من روما كلها.

- يمكن أن تصل إلى هناك عبر فيا برتونسيس... ترانستبريس؟

لا أدري، إن كانت النيران وصلت إلى هناك... من يدري...

بعد هذا اللغو من يونيوس أخفض صوته قليلا ليستأنف قائلاً :

- أعلم أنك لن تشي بالأمر. فما حصل ليس حريقاً عادياً. لم يُسمح

بإطفاء السيرك... سمعت بنفسى... حين بدأت النار تلتهم البيوت

تعالى آلاف الأصوات التي تنادى: " الموت للمنقذين " كان أشخاص

معينون يركضون في الشوارع بمشاعلهم ويلقونها على المنازل... وفي

أمكنة أخرى قام الناس يصرخون بأن روما تحترق بأمر ما لن أقول لك

شيئاً آخر.

ويلي على المدينة، ويلي علينا جميعاً، ويلي أنا! ما يحصل هناك

يعجز اللسان عن التعبير عنه البشر تأكلهم النيران، أو يدهسون بعضهم

في الزحام... هذه نهاية روما.

وبدأ يولول ثانيّة : ويلي على المدينة، ويلنا ! لكن فينيكوس كان  
قد اعتلى الحصان وانطلق، وسط عويل الناس الذين باتوا لا يطيقون  
الحرارة الرهيبة القادمة من بحر النار والدخان، ولا تستطيع نداءاتهم  
أن تدفع عنهم هسيس الحريق، ولا السنة اللهب.

كلما اقترب فينيكوس من الاسوار تبين له أن طريقه حتى بلوغ أطراف المدينة أسهل من الدخول إلى قلبها. ذلك أن من العسير اختراق الكتلة البشرية المتدافعة النازحة منها عبر فيا أيبا. كل ما أقيم على جانبي الطريق من صفوف المنازل، وحقول ومقابر، وحدائق، ومعابد قد تحول إلى مخيمات. وأقدمت الحشود على اقتحام باب معبد مارس المشاد قرب بورتا أيبا، طلبا للملاذ آمن هذه الليلة.

وخاضت في المقابر اقتتالا دمويا لاحتلال أمكنة الاضرحة. حصلت خسائر بشرية كبيرة بعد أن اخترقت القوانين، وانتهكت هيبة الانظمة، ولم يقم أي وزن للعلاقات العائليّة والفروق الاجتماعية.

شوهد العبيد الذين يضربون المواطنين الأحرار بالهراوات، والمجالدين السكارى بفعل النبيذ المنهوب في الامبوريوم يقتتلون بجماعات كبيرة، ويطلقون زئيرا وحشيا وهم يلاحقون البشر، ويسحقونهم، أو يفرقونهم في الاراضي على طول الطريق، والبرابرة الهاربين من أسواق النخاسة. كان احتراق المدينة يعتبر بالنسبة اليهم، نهاية العبودية، ومجيء ساعة الانتقام. فحين راح السكان المحليون الذي فقدوا في هذا الحريق كل ما يملكون، يرفعون أياديهم بانكسار نحو الالهة توسلا للعون، راح أولئك يفرقون الحشود، ويمزقون الملابس عن أجساد الناس، ويخطفون الجميلات من النساء، ولقد انضم اليهم عبيد روما القدماء، والمقاطيع من شجرة البؤساء العراة الا مآيستر عوراتهم. الاشكال المرعبة التي لفظتها الازمة الضيقة فخرجت الان في وضوح

النهار على غير العادة، والتي لم يكن أحد يتصور وجود أمثالها في روما. آسيويون، أفارقة، يونانيون، جرمان، بريتان، ومن يصرخ ويزار بشتى لغات العالم، وقد جاءتهم الفرصة للخروج من معاناتهم على مدى سنوات طويلة. أمواج بشرية هائجة بانت خلالها على ضوء الشمس، والحريق، مجموعات أكثر هدوء من السكان النازحين تحت حماية فصائل الحرس الامبراطوري التي اضطرت في أماكن كثيرة لضرب مهاجميهم من الرعاغ.

كم من المدن شاهد فينيكوس في أثناء الحروب التي خاضها، لكنه لم ير مثيلا لما يحصل الان في المدينة، من انكسار، وحيرة، ودموع، وتأوهات، وسعادة وحشية، وهياج، وغضب مسعور، وحماس وحشي. وفوق هذا كله من الخليط البشري العشوائي النادر نشب الحريق الهائل فأحرق فوق الرؤوس أعظم مدن العالم، وأطلق أنفاسه النارية في هذه الفوضى الكلية، حتى غطى دخانه قبة السماء الزرقاء.

جاء فينيكوس مخاطرا بحياته حتى وصل إلى بورتا أيبا، فرأى استحالة دخوله المدينة عبر بورتا كاييتا، ليس فقط بسبب الزحام، بل نتيجة للحرارة الهائلة التي تختلط بالهواء عبر البوابة.

وإذا ما أراد الوصول إلى الترانستريس فعليه أن يعود ليعبر جسر سوبلسيوس أقدم وأعرق جسور روما، أو يتقدم بمحاذاة أفنتيوس، لكن عبر بحر من اللهب يغلف ذلك الجزء من المدينة. كان أمرا مستحيلا. فرأى فينيكوس أن عليه إذن العودة نحو اوسترينوم، متجنباً فيا أيبا عابرا النهر تحت المدينة، حتى يبلغ فيا بورتونسيس التي تقوده مباشرة إلى ترانستريس. لم يكن ذلك بالأمر الهين خاصة بسبب ما تعانيه فيا أيبا من فوضى، حيث كان يمكن له أن يستخدم سيفه لشق

طريق لنفسه. الا أنه لم يملك الان سلاحا لأنه غادر الأتريوم على نبال الحريق ملهوفاً.

عند منبع مركوريوس التقى أحد معارفه من قادة المائة على رأس بعض جنوده يحمي مدخل الكنيسة، فأمره بأن يتبعه، فلم يشأ قائد المائة أن يرفض طلب الاوغستين الحاكم.

تسلم فينيكوس قيادة الفصيل بصراحة تجاوزت وصية بولس في المحبة الاخوية، متوخياً بلوغ مكان طلق خارج هذا الزحام، الا أنه واجه مشقة كبيرة، فالكثير ممن ضربوا الخيام لم يشاؤوا إخلاء الطريق، فراحوا يلعنون القيصر والحرس الامبراطوري، ويتهمونهم بإحراق روما، متوعدين القيصر و بوبيا بالموت. "مهرج، ممثل جوال، قاتل أمة" وتكفل آخرون بالقائه في نهر التير، وصاح آخرون "كفى صبرا لروما"

كان واضحاً أنها صيحات وعيد متمردة تنتظر قائداً مناسباً لتنفجر في أية لحظة. في أثناء ذلك تحول غضب الجموع المسعور ضد الحرس الامبراطوري الذي لم يتمكن من اختراق الزحام نتيجة لقطع الطريق بما تراكم عليه من متاع، وحاويات أطعمة، وصناديق، وأثاث، وآنية، وأسرة أطفال، وشراشف، وعربات، ونقالات يدوية. فكان لا بد من الشجار مع هذا الحشد الاعزل من العامة.

بمشقة بالغة، عبروا فيا لاتين و نوميسا و أرديتين و لافينا و أوستنسيس، والفيالات، والحدائق، متجنبيين المقابر والكنائس حتى وصلوا أخيراً بلدة فيكوس الكسندر ومن خلفها نهر التير. كان التحرك هناك طلقاً، والدخان أقل كثافة. النازحون هنا أيضاً بأعداد

كبيرة ، فعرف منهم فينيكوس أن الحريق لم يدهم حتى الان سوى بعض الشوارع من الترانستريس، لكن ما تبقى من الحي لا منجى له من الحريق، لأن هنالك من يضرم فيه النار عمدا، دون أن يسمح لأي كان بإطفائها. الأمر جلي إذن.

الحريق ناتج عن أمر مسبق بإضرامه. أيقن فينيكوس الان أن كل ما يجري بأمر من القيصر، وأنه من أراد إحراق روما حقا، وأن تعطش الناس إلى الانتقام محق ومشروع.

ما الذي أمكن أن يفعله ميترادس أو أي أحد آخر من أعداء روما أكثر مما فعله القيصر؟

لقد طفح الكيل وبلغ الجنون حده المتوحش، وباتت الحياة الانسانية مستحيلة. أدرك فينيكوس أن ساعة نيرون قد حانت، وأن أنقاض روما عليها أن تدفن تحتها هذا المهرج الشاذ، وتدفن معه كل أفعاله الشريرة. لو كان هناك ذلك الشاب الشجاع كفاية، ووقف على رأس هذه الجموع الحائرة، لحصلت هذه الامنية خلال ساعات. لمعت أفكار جريئة في ذهنه الناقم. ماذا لو كان هو ذلك الشاب؟ إن قومية فينيكوس شهيرة في روما كلها، وهذه الحشود لا تحتاج الا إلى اسم. خاصة أن الحكم بالاعدام على أربعمئة من أرقاء بدانيوس سكوندوس، كاد يؤدي إلى انتفاضة وحرب داخلية. فما الذي يمكن أن تحدثه واقعة الشؤم الرهيبة التي تفوق هولا كل الوقائع التي حصلت لروما منذ ثمانية قرون.

من يدعو الشعب إلى حمل السلاح لا بد أن يسقط نيرون، ويرتدي محله اللون الارجواني الرفيع. فلم إذن لا يفعلها بنفسه وهو الامهر والاقوى، والأكثر فتوة وشابا من جميع الاوغستيان. صحيح



أن القيصر هو أمر الفيالق الثلاثين المنتشرة على حدود البلاد، ولكن هل ترضى هذه الفيالق وقادتها بإحراق روما ومعابدها؟ الا يغضبهم الأمر؟ وفي هذه الحالة سيكون فينيكوس هو القيصر، خاصة وأن الاوغستيان قد تهامسوا فيما بينهم أن أحد العرافين قد تنبأ لـ أوتو بارتداء الزي الارجواني القيصري. وهو ليس أسوأ من أوتو هذا. وقد يساعده المسيح بقوته الالهية. تنهد فينيكوس من أعماقه.

قد ينقم على نيرون بسبب ما تعرضت له ليفيا من مخاطر، وما لحق به شخصيًا من متاعب، فيأخذ على عاتقه الانتصار للعدالة والحق. وينشر تعاليم المسيح من أوروبا حتى شواطئ بريتانيا الضبابية، ويخلع على ليفيا الرداء الارجواني، ويجعلها سيدة الأرض.

لكن هذه الافكار التي لمعت أنيا في ذهنه كشرارات تطايرت من منزل محترق، ما لبثت أن خمدت كتلك الشرارات. ذلك أن الاولوية الان إنقاذ ليفيا. والان بات في موقع قريب من الحريق، يشاهد بحر نيرانه ودخانه بأمر عينه، فتملكه الخوف من جديد، وفقد يقينه بأن الحواريّ بطرس ما زال قادرا على إنقاذ ليفيا. لقد كان في حيرة عند خروجه من بورتونسيس المفضية إلى ترانستيرس، لكنه استعاد رباطة جأشه عند البوابة حيث أكدوا له ما كان قد سمعه على لسان النازحين، من أن القسم الاعظم من الترانستيرس لم تصل اليه النار، رغم أن اللهب قد بلغ ضفة النهر الاخر في بعض الاماكن.

كان الترانستيريس بدوره مغلفا بالدخان يعج بالنازحين الذين شق دخولهم قلب الحي، لكثرة المتاع المنقولة من المنازل القريبة، وانقطاع الطرقات، والنزاعات الدامية بين الافرقاء هناك. تشتت العائلات، وتعالى نداءات الامهات لأطفالهم. انتصب شعر رأس فينيكوس لفكرة ما حصل من أهوال في الاماكن القريبة من الحريق.

في أتون هذه النداءات، والصرخات، والصخب الفظيع، كان السؤال للوقوف على الانباء شاقا كما سماع أي نداء بجلاء. وبين الحين والحين كانت موجات الدخان الداكنة تعبر النهر لتغلف وجه الأرض، والبيوت، والبشر، والموجودات، كظلمة الليل. لكن الرياح المدفوعة بفعل الحريق كانت تشتتها أحيانا، فينجلي الطريق أمام فينيكوس للتقدم نحو الازقة، حيث منزل لينوس. كان حرارة شمس حزيران لا تحتمل، وقد انضاف اليها ما يتدفق من حرارة بثتها أحياء المدينة المحترقة. الدخان أحرق العيون، والصدور تعذر عليها استنشاق الهواء.

ومن بقي منذ البداية في المنازل أملا في الاجتياز النيران الحاجز المائي، قد غادرها الان فبات الزحام يشتد مع مرور الوقت. الأمر الذي جعل الحرس الامبراطوري المرافق لـ فينيكوس مضطرا للتخلف عنه، حتى أن أحدهم وسط هذا الزحام، عمد إلى استخدام البلطة حاثا جواده على الاسراع، فأدمى رأسه، فراح الجواد يشب واقفا على قائمته الخلفيتين رافضا القيادة. ولما عرف الناس الاوغستياني من ردايه الموشى، بادروا حالا إلى إطلاق الصيحات: "الموت لنيرون ولأعوانه كان الموقف صعبا شديد الخطورة. فقد امتشقت مئات السيوف وشهزت نحو فينيكوس، لكن الجواد باندفاعه مخترقا الجموع، قد تفادها، وكانت موجة جديدة من القتامة الدخانية قد أخفت وراءه الطريق،

حين رأي فينيكوس أنه لا يستطيع التقدم وهو على ظهر جواده، ترجل عن الجواد، وحث الخطي لائذا بالجدران، تاركا حشود النازحين تعبر إلى جانبه. شعر أن مساعيه باءت بالفشل، وأن ليفيا لم تعد في المدينة، وهي الان تسعى على الطرقات لإنقاذ نفسها، وبات من الاسهل عليه

العشور على إبرة صنوبر في كثبان الشواطئ الرملية، من أن يلقي فتاته في وسط هذا الزحام والفوضى. ومع ذلك قرر أن يصل إلى منزل لنيوس حتى لو كلف الأمر حياته. كان بين الحين والحين يقف فاركا عينيه. أخذ مزقة من طرف رداؤه، وعصب أنفه وفمه، وحث خطاه مسرعا.

كانت الحرارة تشتد كلما اقترب من النهر. ولعلمه أن الحريق اندلع في محيط السيرك الكبير، فقد أيقن أن هذه الحرارة غير المحتملة منبعثة من احتراق السيرك، و فوروم بوريوم و فيلا بروم كان آخر من التقاهم فينيكوس عجوز نازح صاح به قائلاً " لا تذهب ناحية جسر كستيوس لأن الجزيرة تحترق!". وحين تقدم باتجاه فيكوس يوديروم حيث منزل لنيوس شاهد الحاكم الشاب لهب النيران والسحب الدخانية هناك، الأمر الذي جعله يوقن أن ما يحترق ليس فقط الجزيرة بل الترانستيرس كذلك، وفي الجهة التي قطنتها ليفيا.

تذكر فينيكوس أن منزل لنيوس تحيط به حديقة، وراءها، من جهة نهر التير، فسحة ترابية فسيحة.

شحنته الفكرة بأمل جديد. فالفسحة الترابية الخالية تشكل عائقا أكيدا لتقدم النيران. اندفع يحدوه هذا الأمل، رغم أن كل هبة للريح باتت تحمل شرارات نارية إضافة إلى سحب الدخان. فانسدت طريق العودة.

لكنه في نهاية المطاف لمح خلل الدخان صنوبرات حديقة لنيوس كانت البيوت الواقعة خلف الفسحة الترابية قد أتت عليها النار وراحت تحترق كالمشاعل، لكن جزيرة لنيوس لم تمسها النيران. رفع فينيكوس عينيه بنظرة امتنان نحو السماء، ثم اقترب سريعا من المنزل، وكانت حرارة الجو قد أحرقتة. كان الباب مغلقا، لكنه ركله ودخل.

خلت الحديقة من أي صافر لنار. وبدا البيت خاليا كذلك.

" ربما أغمي عليهم من الدخان والحرارة " فكر فينيكوس ونادى  
عاليا :

- ليفيا ! ليفيا !

كان الصمت العميق هو الرد . لم يسمع خلاله الا ضوضاء الحريق  
البعيدة .

- ليفيا !

وفجأة طرق سمعه ذلك الصوت المتوجع الذي سمعه ذات مرة حين  
كانا معا في هذه الحديقة . لا بد أن يكون قد احترق في الجزيرة المجاورة  
قرب كنيسة اسكوليبوس ذلك المربي الذي يضم شتى أنواع الحيوانات  
البرية والاسود التي تزار ذعراً . ارتعدت أوصال فينيكوس . مرة أخرى  
حينما يتركز كل تفكيره بليفيا ، يسمع هذه الأصوات الرهيبة ، نذير شؤم  
عليه .

لكن جفلته كانت لحظية ، لأن دوي الحريق كان أكثر روعاً من زئير  
الأسود ، فأرغمه ذلك على التفكير بسواه . ليفيا لم تجب على ندائه طبعاً ،  
لكنها قد تكون في البيت المعرض للخطورة قد أغمي عليها ، وفقدت  
وعيهما من تنشق الدخان . دخل فينيكوس المنزل . كان الأتريوم فارغاً ،  
يملؤه الدخان تماماً .

وبفتحه باب الغرفة الأخرى لمح مصباحاً مضيئاً ، فاقرب أكثر ، ورأى  
القائم الذي توضع عليه الصليب بدلاً من الالهة الحارسة للبيت . تحت  
هذا الصليب أضواء المصباح . لمعت في ذهن التلميذ المرشح لاعتناق الدين  
المسيحي فكرة أن الصليب هو الذي بعث اليه بالمصباح ليتمكن من  
العثور على ليفيا .

تناول المصباح باحثاً عن مخادع النوم. أزاح ستارة وأدخل المصباح وجمال بعينه.

لم يكن هناك أحد. رغم ذلك كان فينيكوس على يقين أن ليفيا في المخدع، لأن ثوبها كان معلقاً على الحائط، وقميصها الداخلي ملقياً على السرير. رفعه فينيكوس وضغطه على شفثيه. ثم رده على ذراعه وتابع بحثه. كان البيت صغيراً، دار على جميع غرفه وزواياه بقليل من الوقت.

لم يجد أحداً. كان واضحاً وضوح الشمس أن ليفيا و لنيوس و أرسوس، وجميع سكان الحي قد هربوا من الحريق. فكر فينيكوس: " علي أن أبحث عنهم بين الجموع خارج المدينة "

لم يستغرب كثيراً أنه لم يجدهم في فيابورتونسيس لأنهم قد غادروا الترانستبريس من الجهة الاخرى، باتجاه فاتيكانوس. المؤكد، على أية حال، أنهم هربوا من النيران. انزاحت صخرة كبيرة عن قلب فينيكوس. صحيح أن هناك مشقات كبيرة يواجهونها في أثناء نزوحهم، الا أنه تعشم في قوة أرسوس الفائقة للمقدرة البشرية، فانتعشت روحه بطاقة جديدة.

" علي الان أن أنجو بنفسي وأغادر هذا المكان. سأعبر حديقة دوميتا إلى حديقة أغرينا سأجدهم هناك. الدخان ليس بتلك الكثافة هناك، لأن الريح تهب من جهة جبال السابين.

كان لديه الان حقا الوقت الكافي ليفكر بالنجاة، لأن العاصفة النارية بدأت تقترب من جهة الجزيرة، والدخان يملأ الشوارع تماماً. والمصباح بدأ ينوس.

خرج إلى الشارع جارياً بما لديه من طاقة باتجاه فيا بورتونسيس، وهي الجهة ذاتها التي أتى منها. تابع الجري خشية أن تلحق به النار. ويخنقه الدخان. امتلاً فمه حقا برائحة الاحتراق والسخام.

والتهبت حنجرتة ورتناه كالنار. فار الدم في رأسه، فاحمرت المرئيات في عينيه، حتى الدخان بداله أحمر. قال لنفسه " هذه نار حيّة، الافضل لي أن أستلقي على الأرض وأموت " أنهكه الجري. وأغرق رأسه، وعنقه وظهره بالعرق اللاهب كالماء المغلي. ولو لم يكن يذكر اسم ليفيا، ويشم قميصها لخارت قواه حقاً.

لكنه لم يعد يلوح الشارع الذي يجري فيه. وشيئاً فشيئاً بدأ يفقد وعيه، فلم يع الا أمرا واحداً: الهروب، وأن ليفيا التي وعده بها الحواريّ بطرس تنتظره في الحقل الطلق. وفجأة تملكه ما يشبه صحوة ما قبل الموت، عليه أن يراها، ويتخذها زوجة، وبعدها يموت في الحال.

بات الان يجري متميلاً على نحو اعتراض في الطريق، كالثمل. وفي هذه الاثناء تبدل شيء ما في الحريق المرعب الذي يلف المدينة العملاقة.

كل ما كان يتقد متوهجاً حتى هذه اللحظة، بات الان بحرّاً من اللهب المشتعل، والرياح التي تهب لم تعد تحمل معها الدخان الاسود، بل الشرر الناري بملايينه، وبات فينيكوس لا يجري في سحب دخانيّة، بل في طوفان ناري كاو. لكن الرؤيّة باتت أوضح. وفي هذه اللحظة بالذات الذي أوشك فيها على السقوط لمح نهاية الشارع. منحه ذلك مزيداً من القوة.

وبتجاوزه المبنى الركني عند المنعطف، بلغ الشارع المفضي إلى فيا بورتونسيس وحقل كوديتا. لم يعد الشرر الناري يلاحقه. أدرك أنه إذا ما احتمل الوصول حتى بورتونسيس فإنه في منجى، حتى لو أغمي عليه.

وعند نهاية الشارع كأنه قد لمح سحابة تغلف المخرج فكر " إن كانت سحابة دخانيّة فلن أعبرها " صار يجري حاشداً كل قوة متبقية

لديه. وفي الطريق القى عنه عباءته التي احترقت في أكثر من مكان، وباتت تحرقه كقميص نيسوس.

ركض عارياً تماماً إلا من قميص ليفيا على رأسه وفمه. حين اقترب أكثر تبين له أن ما رآه دخاناً لم يكن الا سحابة غباريّة جاءت منه أصوات بشرية. " الرعاع ينهبون البيوت " قال لنفسه.

لكنه أسرع باتجاه الأصوات، حيث وجود بشر قد يسعفونه بعونهم. محدّياً بهذا الأمل، وقبل أن يصل إلى المكان، راح ينادي بأعلى صوته، طلباً للمساعدة. وبندائه هذا استنفد آخر ما يملك من قوة : احمرت الاشياء أمام عينيه، وانقطعت أنفاسه، خارت كل قوة لديه، وسقط.

كانوا قد سمعوه، وربما رأوه، فأسرع اليه بإبريق الماء رجلاً منهم. كان فينيكوس قد سقط من الإعياء، دون أن يفقد وعيه، وحين لمح الابريق اجترع نصفه.

- شكراً لكم. أنهضوني. علي أن أتابع المسير.

العامل الاخر سكب ما تبقى من الماء على رأسه، وبعد أن أنهضاه على قدميه قاداه إلى رهط آخر، التم أفراده حوله، وتفحصوا بعناية إما كان يعاني من آية جروح بليغة. تعجب فينيكوس للرعاية فسألهم :

- من أنتم؟

فأجاب أحد العمال :

- نهدم البيوت لنمنع النار من بلوغ بورتونسيس

- هرعتم الي لمساعدتي حين سقطت، شكراً لكم.

- لا يجوز لنا أن نرفض طلب المساعدة أجابت بعض الاصوات.

جال فينيكوس بعينه على وجوههم جميعا وقال

- جازاكم المسيح لأجلها.

- المجد لاسمه أجابوا بصوت واحد

فسأل فينيكوس :

- لنيوس؟

لكنه لم يتمكن من تنمة سؤاله، ولم يسمع أي رد، لأن العاطفة المشوبة بالإعياء الشديد، قد غيّبتة عن الوعي.

استعاد وعيه في حديقة كامبوس كودتانوس، حيث وقف حوله بضعة رجال ونساء. وحين تمكن من التكلم كان سؤاله الاول

- أين لنيوس؟

لم يسمع ردا في البداية، لكن صوتا مالوفا أجابه بعد قليل :

إنه خارج بورتا نوماتان... قصد الاوستريانوم... منذ يومين.. سلام عليك يا ملك الفرس.

جلس فينيكوس معتمداً على الآخرين، وعلى غير توقع، لمح شيلون إلى جانبه اردف اليوناني يقول :

منزلك قد احترق يا سيدي. لكنك تبقى ثريا على الدوام كالملك ميداس أي خطب هذا !



المسيحيون تنبؤوا منذ زمن طويل بأن هذه المدينة ستأكلها النيران...  
أما لنيوس وابنه جو بتر فهما معا في الأوستريانوم... أوو، أي خطب الم  
بهذه المدينة !

ساءت حال فينيكوس من جديد. فسأله :

- وهل رأيتهما؟

- رأيتهما يا سيدي. الحمد للمسيح، وكل الالهة لأني تمكنت من رد  
جمائك نبأ طيب. لكنني أقسم بروما المحترقة، بأنني سأقدم لك كثيرا  
من الامتنان بعد.

بدأ الظلام يحل. لكن الحديقة كانت منارة كما في النهار لأن  
الحريق أخذ يشتد، ويتفاقم كأن ما يحترق ليس جزءاً معيناً من المدينة،  
بل المدينة كلها. وعلى مدّ البصر كانت السماء تكتسي بالحمرة فخيمت  
ليلة قانيّة على الكون.

عم ضوء المدينة المحترقة قانيا أرجاء السماء طولا وعرضا. ومن وراء الجبال بزغ القمر بدرأ، سرعان ما انعكس عليه الوهج الناري، فأمسى متوهجا كالنحاس، وهو يرمق عاصمة الكون الهالكة. وكذلك النجوم في فسحة السماء القانيّة، لألأل لألاء وردياً. وعلى النقيض من كل الليالي في العادة، كانت الأرض أكثر إضاءة من قبة السماء.

كانت روما مشعلا عملاقا أنار الاشياء والاجرام. فبانت على ضوئه الجبال البعيدة، والمدن، والفيالات، والمعابد، والنصب، والأقنية المائيّة المنحدرة من الجبال المحيطة باتجاه المدينة، وعليها أعداد البشر الذين احتشدوا هنالك إما هربا من الخطر، أو لرؤية الحريق من على نحو أكثر جلاء.

في هذه الاثناء كان العنصر المروع يطيح بأجزاء أخرى وأخرى من المدينة. لم يكن من شك في أن ايادي آثمة هي التي أضرمت النار في المدينة، ولا تنفك تضرمها في أماكن بعيدة منفصلة عن البؤر الناريّة. كانت النار تسكب لهبها أموجا متدفقة من فوق التلال التي بنيت عليها المدينة، نحو الوديان المكتظة بالابنيّة ذات الطوابق الخمسة أو الستة، والتي ما تزال ممتلئة بالحوانيت، ومستودعات الخشب والزيت وصوامع القمح، والجوز. هنا اختزنت المخاريط الصنوبريّة التي يتغذى على بذورها العامة الفقراء، والاقمشة التي يتكرم القيصرو وينعم بتوزيعها بين الحين والآخر على قاطني الازقة المعدمين.

في هذا المكان استحال الحريق، وقد وجدت النار ما يكفي من عناصر  
إزكائها، إلى انفجارات تت إلى وتشتد وتبلغ الشوارع بسرعة فائقة.

من تجمع من البشر خارج المدينة، أو من كان فوق الاقنية المائية قد  
عرف من لون اللهب، ما الذي يحترق. كان النسيم يختار من بحر  
اللهب الالاف المؤلفة من قشور الجوز واللوز المتقدة ويطيرها في  
الاعالي، كأسراب لا حصر لها من الفراشات المضيئة، لتتبدد بعدئذ محو  
مة في الهواء، أو لتستقر، محمولة على جناح النسيم، فوق مناطق جديدة  
من المدينة، أو فوق الاقنية المائية، أو الحقول المحيطة بالمدينة. ما زالت  
فكرة النجاة تبدو مستحيلة أمام هذا التفاقم المريع للفوضى، وخروج  
السكان أفواجا أفواجا من أبواب المدينة كلها، إضافة إلى أن الحريق قد  
أغرى الألاف من سكان البلدات المحيطة، والفلاحين، والرعاة للنزول  
طمعا باقتناص فرص السلب والنهب.

" نهاية روما " نداء لم يخمد على السنة الجموع، وكان هلاك المدينة  
كان يعني للجميع نهاية للإمبراطورية الرومانية، وانحلال كافة الخيوط  
التي ربطت السكان، إلى الان، وجعلت منهم نسيجاً واحداً وشدت  
لحمتهم. الغالبية العظمى من الرعاع التي شك لها الأرقاء والمهاجرون،  
سلكت سلوكاً تهديدياً هنا وهناك، لأن الأمر الهام بالنسبة إلى هؤلاء  
ليس سلطة روما، بل تلك الانعطافة التي تخلصهم من قيودهم.

وها هي الان بمتناول أيديهم، وعليهم أن يحققوها بأهم وسيلتين :  
أعمال العنف والسرقة.

وغاب عن بال مئات الالاف من الأرقاء أن لروما عشرات الفيالق  
منتشرة في أنحاء العالم، إضافة إلى فيالقها على حدود المدينة، وكلها  
بانتظار إشارة أو كلمة.

صار يتردد اسم سبارتكوس، رغم أن سبارتكوس ما عاد موجوداً،  
فيما كان المواطنون يتوحدون ويتسلحون، إفرادياً حسب المستطاع.

كانت تأتي أبشع الأنباء عند كل بوابة زعم بعضهم أن فولكانوس  
هو من يقوم بأمر من جوبيتر، بإحراق المدينة بنيران تنبع من تحت  
الأرض. وأكد بعضهم الآخر أن ما يحدث ما هو الا انتقام الإلهة فيستا  
من أجل عذراء فيستا روبريا. فمن كانوا يعتقدون بهذه الواقعة المقدسة  
لم يكونوا مستعدين لإنقاذ المدينة، واكتفوا بالتزام المعابد، متوسلين من  
الإلهة الرأفة. لكن أكثر الأنباء انتشاراً وقبولاً هو أن القيصر قد أحرق  
المدينة، ليتخلص من الروائح المنتشرة من سوبورا، ويتمكن من بناء  
مدينة جديدة باسم نيرونيا. استعر غضب الشعب لهذا. ولو كان هنالك  
قائد كما يفكر فينيكوس بمقدوره أن يستغل هذا التفجر الحاقداً، لانتهى  
أمر نيرون منذ سنوات.

وقيل أيضاً أن القيصر قد جن، وأصدر أوامره للحرس الامبراطوري،  
والمجالدين، بالتنكيل بالشعب وإحداث المجازر وحمامات الدم.  
وهناك أقسم بالآلهة أن الوحوش قد أفلتت من مرايبيها ومعاقليها بأمر  
من القيصر. وأنهم شاهدوا في الشوارع أسوداً ولبوات تحترق، وفيلة  
نافقة وجواميس هائجة تقوم بدهس جموع الناس. كان في هذا قدر  
كبير من الصحة، لأن الفيلة في بعض الاماكن، وقد روعها اقتراب  
الحريق منها قامت بتشليع حظائرها، وفرت مذعورة في الاتجاه  
المعاكس للنيران، مدمرة كالعاصفة الهوجاء كل ما يعترض طريقها.

وشاع خبر قدر الخسائر البشرية نتيجة الحريق بعشرات الألاف.  
وهذه حقيقة. كان هناك من خسر كل ثروته، وفقد أعز أحبائه فدفعه  
اليأس لالقاء نفسه بين السنة النيران. آخرون اختنقوا بالدخان. وآخرون  
غيرهم واجهتهم النيران في كل اتجاه أو طريق سعوا للهروب منه، إن

كان في مركز المدينة أو في أي مكان آخر اندلع فيه الحريق، فلقوا أبشع الهلاك : الموت حرقا.

كانوا من الذعر على قدر جعلهم يضلون السبيل، فلا يعرفون أي وجهة يتخذون للهرب من النار التي لاحقتهم وواجهتهم في كل مكان الساحات، المعابد، الشوارع، الطرقات.

الجثث المتفحمة في كل مكان وحيث لم تصل النار كان هلاكهم من شدة الحرارة القاتلة منهم من راح يدفن نفسه نصفيا بالأتربة، أو يشق البلاط احتماؤه من لهب الحرارة. حتى يمكن القول أن ما من أسرة واحدة من الأسر القاطنة داخل المدينة، استطاعت أن تهرب بكامل أفرادها، ما أدى عند كل مدخل للمدينة، وفي كل شارع وطريق إلى سماع ولولات الامهات، وصراخ النساء لما أضعن من أحباء، أو فقدان حرقا من أعزاء.

وهكذا، ففي حين كان البعض يتضرعون إلى الالهة، وقف آخرون يشتمون أسماءها لهذا الدمار الرهيب. شوهد مسنون يسطون الايادي نحو معبد جوبيتر ويتقدمون بالدعاء:

"أنت المنقذ، فأنقذ مذبحك ومدينتك". فيما كان التذمر منصبا على الالهة الرومانية القديمة التي حسب تصورات السكان تتحمل قسما من المسؤولية. وبما أنها قد برهنت عجزها عن تقديم هذا العون، فقد سقطت من عيون الناس، فاستحقت ازدراءهم.

وعلى النقيض من ذلك، فقد حصل أنه لما ظهرت في فيا أسيناريا مجموعة من الكهنة المصريين تخرج نصب إيزيس من المعبد الواقع في محيط بورتا كاليمونتانا، انضمت إليها حشود أخرى ورافقت العربة التي تحملها حتى بورتا أيبيا، فأنزلوا النصب وأدخلوه معبد مارس، بعد

أن قاموا بضرب كهنة المعبد الذين اعترضوا على وضعه هناك، ضرباً مبرحاً. وفي أمكنة أخرى توجه بالنداء إلى سيرابيس و بعل و يهوه، أنصار سوبورا بعد أن خرجوا من أزقتهم المجاورة للترانستيريس يملؤون المدى بالصراخ والعيول.

وبالمقابل كأنما أصوات النصر أيضاً قد ترددت في هذه النداءات، في محاولة منها لإسكات الأصوات الصاخبة التي راحت تمجد " سيد العالم ". في مكان آخر قام رجال كهول، وكهنة ونساء، وأطفال، يرددون غناء غريباً لم يفهم معناه، لكنه تضمن عبارات مثل : " لقد جاء القضاء في يوم الغضب والهلاك ". هكذا كبحر هادر راح الطوفان البشري المائج الساهر يطوق المدينة المحترقة.

ولكن لم يكن بمقدور لا حالة اليأس ولا الشئام، ولا الغناء أن يبدل في الأمر شيئاً. وبدأ أن الواقعة لا تقاوم، ولا يكبح جماحها، وهي ماضيّة لا محالة حتى نهايتها المحتومة كالقدر. امتدت النار لتلتهم مستودعات الحبال والقنب الواقعة إلى جانب الامبيتروم، باعتبار أن هنالك حاجة لكمية هائلة من الحبال اللازمة لمختلف أنواع الاجهزة والالات المستخدمة في ميادين السيرك، والمجتلدات، والمنافسات الرياضيّة، ولتلتهم هناك كذلك مستودعات براميل الزيت الخاص بطلاء الحبال.

ولمدة بضع ساعات نشر الحريق ضوءه لينير بالاصفر الصارخ كامل شطر المدينة، ومعه ميدان مارس الممتد وراءه، حتى ليظن الرائي من شدة الذعر أن انقلاباً كونياً كبيراً وتخلخلاً قد حصل فجأة، وأنه الآن في النهار لا في الليل.

ولكن مع مضي الوقت، بدأ اللون القاني يطغى على كل الوان

اللهب صارت النوافير والاعمدة النارية العملاقة تتحرر من بحر  
اللهب وتنفذ عاليا نحو قبة السماء المتوهجة، وتتبدد في الاعلى إلى  
ريش وعناقيد نارية، حملتها الرياح ثم شل عتها إلى شرارات خيطية  
وشعرية ووصلت بها حتى جبال الالب.

صارت الليلة أكثر إضاءة، والهواء مشبعا بالضوء واللهب الناري.  
وبات نهر التيريموج بالنار. واستحالت المدينة البائسة إلى جحيم،  
كان يتسع ليشمل كبرى المساحات، والتلال، وانداح على السهوب،  
وأغرق الوديان، وعصف، ولعلع، وأرعد.

الحائك مكرينوس الذي أدخل فينيكوس إلى منزله، قام بتحميمه،  
وقدم له الثياب، وأحسن ضيافته، وحين استعاد الحاكم الشاب كامل  
قواه، أعلن أنه سيستأنف مسيره ليلا بحثا عن لنيوس. مكرينوس  
المسيحي أكد أقوال شيلون بأن لنيوس، وكبير الكهنة كليمنس قصدا  
الأستريانوم حيث يقوم الحواريّ بطرس بتعميد مجموعة من معتنقي  
الدين الجديد. كان جميع سكان هذا الشطر من المدينة يعرفون أن  
لنيوس منذ يومين قد أوكل بمنزله شخصا يدعى غينوس.

كان هذا بالنسبة لفينيكوس، تأكيدا آخر على أن ليفيا و أرسوس قد  
غادرا المنزل وذهبا إلى الأستريانوم.

اطمأن فينيكوس لهذه الفكرة. كان لنيوس رجلا مسنا يشق عليه  
مغادرة الترانستيرس كل يوم إلى بورتا نومنتاتا البعيدة، ومن ثم العودة  
ثانيّة. ومن المحتمل إذن أنه خارج سور المدينة، يقيم عند أحد أخوته  
في الدين، ومعه ليفيا و أرسوس، وفي هذه الحالة فإنهم في منجى من  
الحريق الذي لم ينتشر ليلبغ المنحدر الاخر للأسكيلنيوس.

لقد رأى فينيكوس في هذا وصيّة المسيح، وشعر بأنه مشمول  
برعايته، فامتلاً قلبه بمحبة أكبر إزاءه، وأقسم أنه سيظل طوال حياته ممتنا  
لما أنعم عليه من إشارات الرأفة.

لكن الاله الان الذهاب إلى الأستريانوم. هناك سيلتقي ليفيا،



ويلتقي لنيوس ويلتقي بطرس، ويذهب بهم إلى مكان ما في أحد ممتلكاته، وليكن إلى سيسيليا.

ها هي ذي روما تحترق، وبعد أيام لن يبقى منها سوى الرماد، فلم بقاؤهم هنا عرضة لهذا الخطر بين السكان المنفلتين بلا قياد؟ في حين أن فريقا كاملا من العبيد سيحيطهم هناك بالرعاية، حيث الهدوء التام، والحياة الامنة بمباركة بطرس، وتحت حماية المسيح. والان عليه أن يجدهم.

لم يكن العثور عليهم بالأمر السهل. تذكر فينيكوس كم عانى من مشقات كثيرة للوصول إلى الترانستيرس قادمًا من فيا ألبا، وكم اضطر لتغيير طريقه لبلوغ فيا بورتونسيس، فاتخذ الان قرارا بتجنب المدينة من الجهة المعاكسة، والتقدم عبر تريمبليس على محاذاة النهر للوصول إلى بونس إيميلوس، ومن هناك، بالالتفاف حول بنسيوس على طول حقل مارس، يمكن الوصول إلى فيا نومنتا. كانت أقصر الطرق رغم أن مكربنيوس و شيلون لم يقترحاها مسلكا لمسيره. الحريق لم ينتشر بعد في هذا الشطر من المدينة، لكن الاسواق والطرق مقطوعة من قبل جموع الناس ومتاعهم. نصحه شيلون بالذهاب إلى بورتا فلومينا عبر أغرفاتيكانوس، وهناك يعبر النهر، ويتجه إلى بورتاسالاريا خارج الاسوار خلق حديقة اسيلوس. وبعد مناقشات سريعة قبل فينيكوس بالنصيحة.

كان على مكربنيوس أن يبقى هناك ليحمي المنزل، لكنه كان يعتني ببغليين أمكن أن تستخدمهما ليفيا في متابعة السفر. كان راغبا في إرسال أحد الأرقاء أيضاً، لكن فينيكوس منعه من ذلك، أملا اصطحاب أول مجموعة من الحرس يلتقيها في الطريق، تحت إمرته إلى هناك. وبعد قليل

انطلق بمرافقة شيلون باتجاه فيا تريمباليس كانت المساحات الرحبة مليئة بالبشر لكنها كانت قابلة لعبورها، لأن الغالبية العظمى من السكان قد هربت باتجاه البحر.

تقدما بين النهر وحديقة دوميتيا الفخمة، التي التمعت سرواتها بحمرة الحريق كما لو كانت تغتسل بشفق الفجر. كأن الطريق هنا بات أسهل العبور، رغم اضطرارها أحيانا لمواجهة تدفقات الفلاحين في الاتجاه المعاكس كان فينيكوس لا ينفك يحث بغله على الإسراع، لكن تابعه شيلون كان طوال الطريق يقول لنفسه :

- الحريق بات وراءنا، وهو الان يسخن ظهورنا. لم يكن الليل في هذه الطريق. يمثل هذه الاضاءة يا جويستر ! إن لم ترسل وابل أمطارك فوق هذه النار، فذلك يعني أنك لا تحب روما. القوة البشرية لا تطفئها. يا للمدينة التي أخضعت بلاد اليونان، وسائر العالم ! والآن يمكن لكل عابر سبيل يوناني أن يدنسها. من كان يتخيل ذلك ! لن تكون روما بعد الان... ولن يكون هنالك سادة رومان. صار أي كان يمكن له أن يتبختر مدننا بصفيه فوق رمادها. صار أي كان يتجراً وينتهك هيبتها. أيتها الالهة ! أتستحق هذه المدينة التي كانت سيدة العالم أن تهان بالتبختر والصفيه فوق رمادها. أي يوناني أو بربري بالاخص قد تصور مثل هذا؟ أجل بات الصفيه والتبختر متاحين فوق رماد المدينة. فالرماد رماد سواء أكان رماد نار الرعاة، أم رماد مدينة بكاملها، كلها ستدروها الرياح.

كان يكلم نفسه وهو يلتفت نحو أمواج النيران، وترتسم على وجهه تعابير من الفرح والغضب معا. واستأنف كلامه :

- هالكة ! هالكة ! ولن تقوم لها قائمة مرة أخرى. إلى أين سيصدر العالم بعد الان أقماحه، وزيوته، وأمواله؟ وما نفع الذهب والدموع؟

الرخام لا يحترق، لكنه يتشقق بفعل النار. سيستحيل الكابينوليوم والبالاستينوم إلى أنقاض. واجوييتر ! كانت روما كالراعي وباقي الشعوب كالقطعان. إذا ما جاع الراعي كان يذبح نعجة ويأكل لحمها، ويخصك أنت، يا رب الالهة، بجلدها قربانا.

يا أيتها السحب من سيدبح بعد الان النعجة، ولمن ستسلمين عصا الراعي؟ فروما يا أبتِ تحترق عن آخرها وكأنك أنت من قمت بإضرام النار فيها.

استعجله فينيكوس :

- أسرع ! ما الذي تفعله هناك؟

فأجاب شيلون :

- أبكي روما يا سيدي. يا لها من مدينة الهيّة !

وتابعا المسير دون كلام، فكانا يسمعان فرقة الحريق وخفق أجنحة الطير. كانت أعداد هائلة من الحمام التي تعشش في الابراج والفيلات، مع أنواع شتى من الطيور الساحلية، وطيور البيئات المحيطة، تلقي بنفسها في النار ظنا منها أنها في ضوء النهار.

كسر فينيكوس جدار الصمت

- أين كنت حين اندلعت النيران؟

- كنت أقصد صديقي يوريسوس صاحب الحانوت الصغير قرب السيرك الكبير، وكنت في طريقي أفكر بتعاليم المسيح أخذوا يصيحون أن ناراً تندلع. فتجمهر الناس قرب السيرك يدفعهم الفضول من جهة، والحمية في انقاذه من جهة أخرى. ولكن حين طالت النار السيرك وبدأت تشب في أماكن أخرى، بتنا نفكر بإنقاذ أنفسنا.

- هل رأيت أشخاصاً يلقون بالنار على المنازل؟

- لقد رأيت الكثير يا حفيد إنياس. رأيت أناساً يشقون طريقهم بالسيف بين الجموع، رأيت صدمات، وأمعاء بشرية في الشوارع. لو رأيتها يا سيدي بنفسك لظننت أن البرابرة قد احتلوا روما، وبدؤوا سفك الدماء فيها. كان الناس حولي يصيحون: هذه نهاية العالم. كان هنالك من فقد رشده، فأحجم عن الفرار منتظراً أن يتلعه بحر اللهب. آخرون جنوا، وآخرون يصرخون من شدة اضطرابهم. لكني رأيت من يصرخون من شدة سعادتهم، فكم من الأشرار الذين لا يقدرّون فضائل سلطتكم، وسلامة القوانين التي تجيز لكم أن تستولوا من الجميع على كل شيء. لا يقبل الناس الاستسلام لمشيئة الآلهة.

اشتد تأثير أفكاره وخواطره، فلم ينتبه إلى ما يكمن في كلام شيلون من استهزاء لاذع. كان مرتعد الاوصال من فكرة أن ليفيا قد تكون في قلب هذه الفوضى العارمة، وسط الزحام الرهيب الذي يتخبط فيه البشر، فراح يكرر اسئلة كان قد وقف على أجوبتها:

- ورأيتهم بأم عينك في الاوستر بانوم؟

- بأم عيني يا بن فينوس. رأيت العذراء، والليغوي الطيب، ولبنيوس الناسك، والحواري بطرس.

- أمام الحريق؟

- أمام الحريق، وحق الالهة !

لكن فينيكوس لم يكن على يقين من أن شيلون يقول الصدق، فأوقف بغله، ورمقه بنظرة تهديديّة، وسأله :

- وما الذي كنت تفعله هناك

ارتبك شيلون. صحيح أنه كان مثل كثيرين غيره، يعتقد أن هلاك روما يعني نهاية امبراطوريّة روما، لكنه الان كان وحيدا برفقة فينيكوس فأخذ تهديداته على محمل الجد، وتذكر أنهما يسعيان وراء المسيحيين، وخاصة ليفيا ونيوس. فقال :

- سيدي ! لماذا لا تصدق أنني أحبهم؟ هذا ما حصل. كنت في الأستريانوم لأني نصف مسيحي عل مني بيرهون أن أقدر الفضيلة، وأن احترم الاخلاق أكثر من الفلسفة، لذا فأنا الوب بحثا عن الفاضلين من البشر. و إلى جانب ذلك، يا سيدي، أنا إنسان فقير، و اجوبيتر ! ففي الوقت الذي كنت فيه تمرح في الأنتيوم، كنت أنا أعاني من الجوع وأنا منكب فوق كتبي.

وهكذا فقد لزمتم مكاني في الأستريانوم إلى جانب السور لأن المسيحيين، ولو أنهم فقراء، كانوا يجودون بالصدقات أكثر من سكان روما قاطبة.

كان عذرا مقبولا لدى فينيكوس، فسأله بلهجة وادعة :

- الا تعرف أين أقام لنيوس خلال ذلك الوقت؟

فأجابه اليوناني

- أما أنزلت بي، مرة، أقسى العقاب على فضولي وحشر أنفي في كل أمر؟

سكت فينيكوس وتابع المسير

لكن شيلون سرعان ما نطق قائلاً :

- لولاي يا سيدي ما وجدت الفتاة. فإذا ما وجدناها الان فهل ستنسى هذا الحكيم الفقير؟

- ستنال منزلا وحقل كرمة قرب أميريو لا

- شكرا، واهرقل ! حقل كرمة؟... شكرا ! أجل حقل كرمة.

باتا الان يسيران قرب روابي فاتيكانوس التي أضفت على النيران لونها الاحمر، وما لبثا أن انعطفا يمينا كي يبلغا النهر، ويعبراه إلى بورتا فلامينيا. توقف شيلون فجأة وقال :

- سيدي ! لقد راودتني فكرة هائلة.

- قل !

- بين خرائب يانيكولوس و فاتيكانوس، خلف حديقة أغريينا، هناك مناجم تحت الأرض، كانوا يجمعون منها الحجارة والرمال اللازمة لبناء سيرك نيرون ، اسمعني ياسيدي ! اليهود الذي يقطنون الترنستيبريس بكثافة، راحوا في الاونة الاخيرة يلاحقون المسيحيين. أتذكر ما حصل في عهد كلاوديوس الالهى من تمرد وأعمال شغب اضطرت القيصر لطردهم من روما. والان، وقد عادوا، يشعرون بالامان تحت رعاية الاوغستا، وهذا يجعلهم يضايقون المسيحيين أكثر مما مضى. أنا أعرف لأني رأيت. صحيح أنهم لا يصدرون المراسيم ضد

المسيحيين. لكن اليهود يتهمونهم أمام المحاكم بأنهم يقتلون الأطفال، ويعبدون الحمار، ويدعون إلى تعاليم وبدع جديدة فيقومون من تلقاء أنفسهم بضربهم واقتحام أماكن عبادتهم، الأمر الذي يضطر المسيحيين للاختباء من أمامهم، والتواري عنهم.

- ما الذي تبغي أن تصل إليه؟

- في الترانستيريس يا سيدي معابد يهودية علنية، لكن على المسيحيين، تجنباً للملاحقة، أن يمارسوا عبادتهم سرا، فيجتمعون إما في أماكن مهجورة أو في ميادين خارج المدينة، ومن يقطنون الترانستيريس اختاروا لأنفسهم ملحقات في الابنية المشادة على طول نهر التير. والآن والمدينة تحترق، لا بد أن أتباع المسيح يقيمون الصلوات، وسنعثر عليهم بأعداد لا تحصى في السرايب. نصيحتي في طريقنا أن نخرج ونلقي نظرة هناك.

فصاح فينيكوس لفوره :

- خاصة وقد قلت أن لنيوس قصد الأستريانوم.

- أما وقد وعدتني بمنزل وحقل كرمة، فإني راغب في البحث عن العذراء في كل مكان أجد فيه رجاء بالعشور عليها بعد اندلاع الحريق قد يكونون عادوا إلى الترانستيريس. تجنبوا المرور في المدينة كما فعلنا نحن الآن. لدى لنيوس منزل هناك، ولعله أراد أن يبقى قريبا منه ليراه النار لم تنتشر في تلك الانحاء إن كانوا قد عادوا فأنا أقسم برسوفوني أنني سأجدهم يتعبدون في السرايب أو آتي بأخبار عنهم في أسوأ الأحوال.

- أنت محق. هيا بنا ! وافقه الحاكم الشاب

ودونما تفكير انعطف شيلون ناحية الراية اليسرى، التي اخفت النيران لمدة قصيرة، دون أن تمنع انتشار ضوئها فوق الروابي القريبة، فتمكنا من المسير في ظلها. وما إن خل فـا السيرك حتى انعطفا يسارا مرة أخرى، ليفاجئهما مسلك ضيق مظلم. لكن فينيكوس سرعان ما لمح في الظلمة العديد من القناديل المضيئة.

قال شيلون :

- أنظر ها هم ! إنهم بأعداد كبيرة أكثر من أي وقت آخر، لأن بيوت العبادة قد احترقت، أو صارت مملآى بالدخان.

فعلق فينيكوس قائلاً :

- أجل . أسمع أصوات غناء.

وفعلا ترددت أصوات غناء وتراتيل أتت من فرجة مظلمة غائرة في الجبل. وراحت القناديل تنطفئ واحدا تلو الآخر. وخرجت من المسلك الضيق حشود من الناس سرعان ما أحاطت بفينيكوس وتابعه شيلون.

نزل شيلون عن البغل ونادى أحد الشبان هناك قائلاً :

- أنا كاهن المسيح، وقس، احرص على هذين البغليين، وستحظى ببركتي وبالعفران عن خطاياك ودون أن ينتظر ردا، أسلم العنانين ليد الصبي، وتقدم إلى جانب فينيكوس لينخرطا في الجموع السائرة.

وخلال وقت قصير كانا تحت الأرض، وسارا في نفق مظلم على أضواء الفوانيس الباهتة، حتى صار الجميع في مغارة فسيحة، تشكلت



نتيجة استخدام المكان مقلعا للحجارة، دلت طراوة الجدران علي  
حادثة حفرة في الجبل.

كان الداخل أكثر إضاءة من النفق، نتيجة لوجود المشاعل هنا، الأمر  
الذي أتاح لفينيكوس أن يتبين كامل الحشد على ضوئها. كان الجميع  
راكعين، رافعين الايادي، لكنه لم ير أثرا لأي من ليفيا أو بطرس أو  
لنيوس. كانت وجوه الجميع معبرة عن حالة احتفالية، وشع في عيون  
البعض ما ينم عن ترقب، وانشداد مشويين بالامل. كان الضوء ينعكس  
نحو الاعلى من بياض العيون، والعرق يتقطر من الجباه الشاحبة، وكان  
البعض يطلق التراتيل، وآخرون يرددون بلا انقطاع اسم المسيح. وبدا  
عليهم جميعا أنهم في انتظار شيء استثنائي كبير، قد يحدث في أية  
لحظة.

انقطعت التراتيل. وفي حفرة جدارية علت أرضية المغارة، لاح  
لفينيكوس ما هو من الصرامة والتعصب والشحوب أشبه بوجه  
كريسبوس. ارتفعت اليه الانظار تنتظر كلمات الطمأنينة والرجاء.  
رسم إشارة الصليب، وشرع يتحدث :

- اندموا على ما ارتكبتم من خطايا، فقد أرسل السيد ناراً هالكة  
على هذه المدينة الشريرة الفاسقة، بابل الجديدة. جاء القضاء ودقت  
ساعة الغضب... أما قال السيد إنه سيعود، وسترونه على الفور. لكنه  
الان لا يأتي كحمل الله الوديع الذي يقدم دمه لأجل خطاياكم، بل  
كقاض صارم أصدر حكمه العادل ليدفع بالخطائين، والكفار إلى  
الظلمة الخارجية... الويل للعالم، والويل للخطائين، فلن تحل عليهم  
الرحمة بعد الان... أراك يا سيدي المسيح! النجوم تتساقط غزيرة  
على الأرض، والشمس تكسف، والأرض تنشق، والاموات ينبعثون.  
وتأتي أنت طالعا في قلب البروق، والرعود تتوسط البواقين والملائكة.

أراك وأسمعك، يا مسيحي !

صمت ثم رفع وجهه كأنما أراد أن يجمده على شيء رهيب بعيد.  
هنا سمع دوي خفيف جاء من تحت الأرض، تلاه دوي ثان... وعاشر.

كانت الابنية المحترقة قد بدأت تنهار دفعة واحدة وتحدث هذه  
الجلبة. لكن غالبية المسيحيين نظروا إلى هذه الاصوات كإشارة  
واضحة إلى قدوم الساعة الرهيبة، تبعاً للاعتقاد السائد بأن عودة  
المسيح وشيكة، ومعها نهاية العالم.

وهو اعتقاد عززه احتراق المدينة. كانت مخافة الله هي المهيمنة في  
قلوب المجتمعين الذين ردد بعض منهم مراراً: "اقترب يوم الحساب"  
وغطى آخرون وجوههم بأكفهم، موقنين بأن أركان الأرض قد بدأت  
تتخلخل، ويخرج من أعماقها مسوخ جهنم لالقاء الملامة والروع في  
نفوس المخطئين.

فيما رفع البعض أصواتهم قليلاً سائلين المسيح: "اشفع لي يا مسيح،  
ارحمني يا مخلصي"

وجهر البعض الآخر بذنوبهم، واحتفى آخرون ببعضهم بلف  
الأذرع لمواجهة اللحظة المروعة، لكن كان بينهم من علت وجوههم  
السمحة ابتسامة علوية فوق أرضية، دون أن يتبدى على سيمائهم أي  
أثر للخوف. وهنا وهناك كانت تتردد أصوات بلغات مجهولة. وفي  
ركن مظلم من المغارة أحدهم يقول "استيقظ يا نائم!". لكن صوت  
كريسبوس غطى على أصوات الجميع وجلبتهم "حذار! حذار!"

وبين الحين والآخر كان الصمت يلف المكان، وكأن الجميع قد  
كتم أنفاسه منتظراً ما سيحدث. وفي هذه اللحظات من السكينة

كان يسمع هدير الابنية المنهارة، ليتبع ذلك الشهقات، والصلوات والادعية "الرحمة يا مخلصي!" ويجلجل صوت كريسبوس: "دعوا المتع الأرضية، فبعد قليل ستنهار الأرض تحت أقدامكم. دعوا الحب الأرضي لأن السيد سوف يدمر أولئك الذين يحبون زوجاتهم وأولادهم أكثر مما يحبونه. الويل لمن يحبون المخلوقات أكثر من الخالق! الويل لأصحاب النفوذ! الويل للمترفين! الويل للفاسقين! الويل للرجال والنساء والأطفال!"

وبغثة طلع هدير أشد هز المغارة، فانبطح الجميع أرضاً، وصلبوا أذرعهم عسى أن تحميهم شارة الصليب من الارواح الشريرة. ساد سكون، لا يتخلله الا صوت اللهاث المتسارع، والدعاء: "يا مسيح! يا مسيح! يا مسيح!"، وبكاء الأطفال. حتى جاء صوت هادئ مر فوق الجموع المنبطحة على الوجوه:

- السلام لكم!

كان صوت الحواربي بطرس الذي كان قد دخل الغار.

فاطمأنت القلوب وانجلي الخوف لسماعه، كما ينجلي دعر القطيع لمجرد اقتراب الراعي. نهض الناس واقفين، والتصق بعض ممن كانوا حوله برجليه، سائلين المنجاة تحت رعايته، فقام ببسط يديه فوقهم وقال

- ما الذي أوقع الذعر في قلوبكم؟ من من بينكم يعرف ما الذي سوف يحصل له قبل حينه المكتوب؟ السيد أحرق بابل، أما أنتم الذين قد غسلت خطاياكم بمياه الصليب، وجاء الحمل ليتكفل بتحمل ذنوبكم، فمشمولون برحمته، وستموتون واسمه على شفاهكم.

السلام لكم.

بعد كلمات كريسبوس المتوعدة، جاءت أقوال بطرس بردا وسلاما  
ييلسمان الافئدة. وغمرت نفوسهم محبة الله لا غضبه لقد وجد الناس  
ذلك المسيح الذي كانوا قد عرفوه من خلال أقوال الحواريّ. ليس  
الحاكم الذي ينزل عليهم العقاب، بل الحمل الوديع الصبور الواسع  
الرحمة المستوعب لشرور البشر. شملت الطمأنينة كل الحضور،  
وامتلأت القلوب بمشاعر الخلاص. وعلت الصيحات " نحن نعاذك،  
فكن راعينا ! "

أما من كان حوله فخاطبوه قائلين : " لا تتركنا في يوم الهلاك "  
وجثوا أمام رجليه. حين رأى فينيكوس كل ذلك، تقدم نحوه، وأمسك  
بطرف ردائه وقال محني الرأس :

- سيدي، أنقذني ! لقد بحثت عنها في دخان الحريق، في زحام  
الجموع، ولم أجدها، وأنا على يقين بأن بمقدورك أن تعيدها الي.

وضع الحواريّ يده فوق رأس الشاب قائلاً :

- ثق بي، وتعال معي !

استمر الحريق في المدينة. اندثر السيرك الكبير، وترمدت بعده كل تلك الاماكن التي حصدتها النيران، من الازقة، والشوارع. كانت السنة اللهب ما زالت تتصاعد نحو السماء. تبدل مجرى الرياح، فصارت تهب عنيفة من جهة البحر حاملة معها النار، والرماد، ومنتف الجمر في اليوم الثالث وصل تيفالينوس روما قادما من الأنتيوم. وأصدر أوامره بهدم الابنية والبيوت في الاسكولنيوس حتى تقف عائقا أمام تقدم النيران، كان الهدف من ذلك انقاذ ما تبقى من المدينة، واستباق حدوث نتائج كثيرة محتملة للحريق. كم من الموجودات القيمة قد تدمر واندثر إلى جانب دمار روما كمدينة، وكم من السكان فقدوا ممتلكاتهم، وصاروا بالالاف المؤلفة يلتحفون السماء ويلوذون بالجدران، ويستجدون اللقمة منذ اليوم الثاني للكارثة، بعد أن ترمدت مستودعات الاغذية الهائلة. وفقد كثير من الباعة عقولهم إذ لم يخطر ببالهم أنهم سيضطرون إلى جلب المزيد من الحاجيات.

كل هذا لم يكن بوارد الحدوث الا بعد وصول تيفالنيوس وإصداره مثل تلك الاوامر. لكن السكان بدؤوا يعلنون سلوكا تهديديا.

قام حشد من النسوة بمحاصرة المنزل الذي يتخذه تيفالنيوس مقر إقامته المؤقت، وأطلقن صيحات دامت منذ الصباح حتى المساء تقول "خبزاً ومسكناً". وفشلت كل مساعي الحرس الإمبراطوري في تفريقهن لاستتباب النظام ولو على نحو ظاهري على الأقل.

لكن مجموعات النسوة التي شهر بعض منها السلاح استمرت في إطلاق صيحاتها مشيرة نحو المدينة المحترقة : " اقتلونا أيضاً أما كفانا حريق المدينة ! "

ورحن يشتمن القيصر، والاوغستيان، وجنود الحرس. وكان الغضب يشتد ساعة بعد ساعة، حتى اضطر تيفالنيوس إلى إصدار أوامره بإحضار أكبر كمية من الخبز من كل الامكنة المجاورة. وما أن وصلت أولى الشحنات إلى امبريوم حتى اقتحمت حشود الشعب المدخل الرئيسي عنوة، وخلال لحظات كانت المعونات من خبز طحين وحبوب مستولى عليها، أو مذراة في الساحة، وأغلبها في الوحل. ولم تتوقف هذه الفوضى حتى اضطر الجنود إلى اقتحام الابنية وطرده الحشود.

لم تشهد روما واقعة كهذه منذ اجتياحها من قبل الغال تحت قيادة برينوس الذي أحرق المدينة دون أن يلحق على الاقل أذى بالكابيتوليوم الذي تحاصره النيران الان. إضافة إلى أن ساكنيها كانوا يلتزمون الوحدة والنظام، والتشبث بالمعابد والمذابح، لا التشتت والفوضى والهروب حتى أسوار المدينة المحترقة وإضمار العداء لها من قبل الأرقاء والغرباء.

تشعبت الانباء حتى غدا تأثيرها في الحشود البشرية أشبه بتأثير الرياح في زبد الامواج البحرية. امتزجت الاخبار الطيبة بالاخبار الرديئة. تحدث الناس عن شحنات القمح والكساء القادمة للتو في طريقها للتوزيع مجاناً حسب أوامر القيصر.

وتحدثوا أيضاً عن نهب آسيا وأفريقيا واستجرار ما تملك أريافها من ثروات ومواد، بحيث يتمكن كل مواطن في روما من بناء منزله الخاص. وإلى جانب ذلك أشيعت أنباء تفيد بأن هناك من سمم مياه الشرب

في القنوات، لأن نبيرون أراد أن يقضي على المدينة وسكانها، وينتقل بعرشه إلى بلاد اليونان أو مصر ويحكم العالم من هناك. كانت الانباء تنتشر بسرعة البرق، وتزرع الرعب والنقمة في نفوس العامة، حتى سادت في نهاية المطاف حمى التمرد في نفوس الالوف المحتشدة. وصار اعتقاد المسيحيين القائل بأن الحريق نذير باقتراب نهاية العالم، اعتقاداً تبناه كل من يؤمن بالالهة على اختلافها. فتجمد الناس من شدة الدهول، أو هاجوا مسعورين في فورة من الغضب.

وبين الغيوم المحمرة من انعكاس ضوء اللهب، تبدت لهم الالهة وهي تشهد هلاك الأرض. وكان من البشر من يفتحون الايادي نحوها يسألونها العون، وكان بينهم من يتوجه عليها بشتائمهم.

في هذه الاثناء كان الجنود بمساعدة شريحة من السكان، يقومون بمتابعة مهامهم في هدم المنازل في الاسكيلنيوس و ساليوس و الترנסبيريس. كانت المدينة قد فقدت كل نفائسها، وتحفها الفنيّة ومعابدها الفخمة، وكل ما يذكر بأمجاد روما، وكل ما غنمته في انتصاراتها عبر قرون. حتى لم يتبق من روما الا بعض أحيائها، في حين صار معظم سكانها بلا مأوى. وانتشر نبأ يقول أن الجنود لا يهدمون الابنيّة لايقاف انتشار النار، بل لكي يدمروا المدينة عن بكرة أبيها. كان تيفالنيوس في كل رسائله يلح على القيصر أن يأتي إلى روما لأن ظهوره يغرس الطمأنينة في نفوس الناس. الا أن القيصر لم يتأهب للعودة الا بعد أن شملت النيران دوموس ترانستيور. وأسرع كي لا يفوت عليه فرصة مشاهدة النيران تبلغ درجتها القصوى.

في هذه الاثناء وصلت النيران إلى فيا نومنتانا، ثم انعطفت من هناك، تبعا لتغير وجهة الرياح نحو التير و فيالاتا، فاقتربت مرة أخرى من البالاتينوس. كان تيفالنيوس قد استجمع كل قوة متاحة للحرس الامبراطوري هناك، وأرسل فارسا بعد آخر إلى أمام القيصر ليعلمه أن لا داعي لقلقه، فلن تفوت عيناه أية لحظة من روعة المشهد وعظمته، لأن النار ما زالت على اشتدادها وانتشارها في كل مكان. لكن القيصر كان يرغب في الوصول ليلا ليكحل عينيه بكمال مشهد احتراق المدينة الهالكة. ولهذا الغاية فقد استقر في جوار أكوا البانا، واستدعى إلى خيمته الممثل الدرامي اليتوروس الذي تدرّب بمساعدته على وضعيات تمثيلية معينة، وكيفية التعبير بالوجه والعينين، وتعلم منه بعض الحركات المناسبة، وناقشه في أثناء ذلك إن كان عليه أن يشير بكلتا يديه أو بيد واحدة فقط، عند ترديده النص التالي: "الايتها المدينة القديسة التي كنا نظنك أصلب من جبل إيدا"

واعتبره التساؤل الأهم في الموضوع برمته. وحين شد رحاله عند المغيب، طلب نصيحة برونوس إن كان من المناسب أن يضمن قصيدته العصماء الخاصة بهذه الواقعة بعض الشتائم الموجهة نحو الالهة. ثم اليس هذه الشتائم، منظورا إليها من زاوية فنية بحتة، واردة حكما على لسان المرء الذي يقف شاهدا على دمار بلده.

وحوالي منتصف الليل، وبحاشية ضخمة من رجال البلاط،



والسيناتورات، والفرسان، والمعتوقين، والعبيد، وجيش من النساء والأطفال، وصل أسوار المدينة. ستة عشر ألف من الحرس اصطفوا بنظام عسكري احترازي مشدد، حرصاً على راحتهم وتأمين دخوله الحذر، وذلك بإبعاد جمع الشعب الهائج على مسافة مناسبة من الموكب الإمبراطوري. قام الجموع بإطلاق الشتائم، والتصفير، والصياح لمجرد أن شاهدت الموكب، إلا أنه لم يجرؤ على مهاجمته. فيما أقدم الدهماء على التصفيق في أماكن عديدة، وكانوا يأملون بكميات أكبر من القمح والزيت والكسوة، والنقود.

لكن الضجيج الناجم عن امتزاج التصفيق، والصياح، والتصفير، قد طغت عليه أصوات الأبواق التي صدحت بأمر من تيفالنيوس. تقدم نيرون من بوابة أوستيا حيث توقف لحظة، وصاح قائلاً: "أنا الحاكم الشريد لشعبي الشريد، رأسي محنية من شدة الحزن!" ثم تابع المسير برفقة الاوغستيان والفرقة الموسيقية، وصعد سلماً أعد لقدمه، يؤدي إلى البناء المقنطر الخاص بأنابيب صرف المياه في أيبا.

بأنفاس حبيسة رمقه الجميع منتظرين أن ينطق بما يهدئ من روعهم، ويشيع في نفوسهم الطمأنينة. لكنه لم ينبس، وظل واقفاً هناك بإزاره الأرجواني فوق كتفيه، وإكليله الأرجواني على رأسه، يرنو إلى السنة اللهب المجنونة. ثم حين ناوله ترينوس القيثارة الذهبية، رفع رأسه نحو السماء القرمزية كأنما ينتظر الهاما.

كانت جموع البشر تشير بالبنان إلى الهيئة السابحة بأضواء النيران الحمراء. في البعيد كانت أفعوانات اللهب تفح، مودية بأقدس المعالم القديمة: معبد هيركوليس الذي بناه إكندر، ومعبد جوبيتر، ومعبد لونا اللذان بناهما سرفيوس توليوس، وبيت نوما، ومعبد فيستا مع كل

الالهة للشعب الروماني، ومن خلال اللهب كان يتلامح الكابيتوليوم بين الفينة والاخرى.

كان ماضي روما وروحها في قلب اللهب، أما القيصر فكان يقف بقيثاره، وقفة الممثل الدرامي، وقد نأى بأفكاره عن المدينة المدمرة، غير مكترث الا بأبلغ الوقفات تأثيراً، وأكثر الكلمات تعبيراً عن هول الواقعة، وكيف له أن يوقظ في نفسه أعظم الهام من شأنه أن يفوز بأشد مشاعر الاعجاب، وكسب عواصف التصفيق.

لقد كره هذه المدينة، وكره قاطنيها، ولم يحب سوى أشعاره، والحانه، ولقد هلل قلبه فرحاً لأنه قد تمكن أخيراً من أن يشهد بأم العين مأساة على مستوى أغانيه الشعرية والحانه الموسيقية.

لقد جعله المشهد الهائل يشعر بغبطة الشاعر الملهم، المزهو بمعايشة التجربة والخوض فيها، وكان ملتذاً بأن احتراق طروادة واقعة بسيطة إذا ما قورنت بدمار هذه المدينة العملاقة. ما الذي يأمله أكثر من ذلك؟ إنها روما، روما، سيدة العالم تحترق. وها هو ويده القيثارة الذهبية يقف هنا بكل هذا الجلال والشاعرية، والذهول، والتجلي الرويوي، أما الشعب ففي مكان ما في الاسفل يضج بالتذمر والاستياء.

دعه يعبر عن استيائه. سوف تمضي القرون، وتنت إلى الالفيات، وستظل الشعوب تتذكر الشاعر الذي تغنى ذات ليلة بدمار طروادة. ما قيمة هوميروس قياساً به؟ ومن يكون حتى أبولو إلى جانب أغانيه.

هنا رفع يده، وضرب على الوتر، ونطق بكلمات برياموس :

يا ملاذ أجدادي، يا حكيمي الغالي! ...

كان صوته في الساحة المفتوحة، في وسط فرقعات الحريق، وصخب الالاف البعيدة، فظا ومرتعشا على غير المألوف، وكان كليلا وفاترا، وصوت فرقته كان كطين الذباب. أما السيناتورات، والتجار، والاوغستيان الذين جلسوا فوق قناطر أنابيب المياه فكانوا يتقوسون إلى أمام ويصغون اليه، وقد استخفهم طرب أبكم. لقد أطال الغناء، وطغت على غنائه مسحة حزن تفاقمت مع مرور الوقت. وحين توقف ليسترد أنفاسه، لم تتوقف الفرقة، وراحت تكرر المقاطع الاخيرة، ريثما يتابع الغناء.

وبحركة كان قد تعلمها من اليتوروس، أزال عن كاهله المسحة التراجيديّة، وأمسك بقيثاره واستأنف وصلته الغنائيّة. وما إن أنهى العرض الغنائي المدرج حسب الخطة، حتى ارتجل أغاني جديدة معبرة عن كارثة الحريق أو مستلهمة منها. كان لكلمات أغانيه، على عكس دمار المدينة مسقط رأسه، وقعها العاطفي الكبير في نفسه، فانعكس ذلك حماسا واندفاعا جعلاه ينزل قيثاره فجأة ويسنده على رجليه، ويقف متسمرا كأحد تماثيل نيويديا في وسط فناء بالاتينوس.

بعد صمت قصير انطلقت عاصفة من التصفيق، كان الرد عليها صيحات الحشود البعيدة. بات الأمر جليا للجميع، فما من شك في أن القيصر هو الذي أحرق المدينة ليتسنى له إطلاق أناشيده أمام مشهد الحريق المفتعل. فما كان منه، بسماعه صيحات مئات الالوف من البشر، إلا أن التفت نحو الاوغستيان بابتسامة تحمل بالغ الحزن والانكسار

- انظروا كم يقدرّون الشعر، وكم يجعلونني !

فصاح فاتينوس :

- أوغاد ! سيدي، وج ه اوامرك للحرس الامبراطوري كي يلقنوهم  
درسا.

التفت نيرون نحو تيفالنيوس :

- هل لي أن أثق بإخلاص الجند؟

فأجاب

- أجل أيها القيصر الالهي.

لكن ما كان من بترونيوس الا أن هز كتفه، وقال :

الثقة بإخلاصهم أجل، لكن ليس بأعدادهم، ابق الان حيث أنت  
فهنا أكثر أمانا لك. لكن لا بد من إسكات الشعب.

وكان لـ سينكا و ليسنيوس نفس الرأي. وفي هذه الاثناء كان  
الهياج يشتد في الوادي. تسلح الشعب بالحجارة، وبقضبان الخيام،  
وبالعوارض الخشبية التي أخرجت من العربات والنقالات، وبكل  
أنواع القطع المعدنية. وبعد فترة قصيرة جاء بعض قادة الكتائب بنياً  
يفيد بأن الشعب بدأ يهاجم الحرس الامبراطوري الذي يبذل كل  
مساعيه ليحافظ على خطوطه القتالية، دون أن يتلقى أوامر للهجوم،  
ولا يدري ماذا يفعل؟

تنهد نيرون قائلاً :

- أيتها الالهة ! آية ليلة هذه ! الحريق من جانب، والشعب بحرا  
هائجا من جانب.

وراح يبحث عن أبلغ العبارات لتسغفه في التعبير عن هول اللحظة، لكنه كان ينظر إلى الوجوه القلقة، الشاحبة التي تقف قربها، فارتعد بدوره وصاح بدافع الخشيّة :

- هاتوا إزارا داكنا بقبعة ! ترى هل هناك من صدام مرتقب؟

فأجاب تيفالنيوس بنبرة مترددة :

- سيدي لقد قمت بكل ما ينبغي القيام به، لكن الخطر داهم...  
خاطب الشعب، وعده بشيء ما

- القيصر يتحدث إلى الدهماء؟ ليفعلها أحد ما باسمي. من يتكفل بذلك؟

فبادر بترونيوس بكل هدوء:

- أنا !

- هيا يا صديقي ! أنت أوفى أصدقائي كلما دعت الحاجة. اذهب وأفض عليهم بالوعود.

فاستدار بترونيوس إلى الحاشية بشيء من الفوقيّة، واللامبالاة :

- ليأت معي السيناتورات، إضافة إلى كل من بيسو و نيرفا و سينكا.

ونزل متمهلا، وتبعه المعنيون، وقد استبشروا خيرا برباطة جأش بترونيوس. توقف عند أسفل صف العمدان، واتخذ لنفسه جوادا أبيض واعتلاه، وتقدم على رأس مرافقيه بين فصائل الحرس الامبراطوري، متجها نحو حشد العامة الداكن.

كان أعزل تماماً، الا من صولجان عاجي رفيع، اعتاد أن يستخدمه عكازاً.

لما بلغ الحشد اندفع بحصانة متوجها نحوهم مباشرة. التمعت على ضوء الحريق الايادي المرفوعة بالاسلحة، والعيون المشتعلة، والوجوه المتعركة، والافواه الصارخة. تقدمت منه موجة بشرية وأحاطت به وبمرافقيه.

اشتدت الصرخات، حتى استحالت إلى زئير وحشي. وامتدت فوق رأس بترونيوس الاوتاد والمذاري، وحتى السيوف، واستطالت الايادي تحاول الامساك برأسه، وبلجام حصانه، لكنه استطاع أن يستمر في اختراقهم لا مبالياً بما يبدو منه من هياج، ضاربا بعصاه أحيانا رؤوس كل من تجرأ على ملامسته، وكأنما يشق طريقه وسط زحام كأي زحام عادي، الأمر الذي أوقع الدهماء المستوحشة في ذهول. وفي نهاية المطاف تعرفوا اليه. وسمعت بعض الاصوات تنادي :

- بترونيوس ! ملك الذوق ! بترونيوس !

فتعالت الاصوات، في كل اتجاه :

- بترونيوس !

في وسط الصخب الذي أحدثه ترداد الاسم، كانت الوجوه تفقد تعابيرها التهديدية المتوقعة، وأصبحت الصرخات أقل عنفا لأن الشريف البتريسيوسي، ولو أنه ما جد أبدا في طلب الرأفة بالناس، لكنه رغم كل شيء كان محبوب الشعب. كانوا ينظرون اليه سيدا إنسانيا واسع الصدر وازدادت شعبيته على وجه الخصوص، بعد قضية أرقاء بدانوس سكوندوس حين رفع صوته للتخفيف من عقوبة الاعدام التي لحقت بهم.

لقد أحبه جمهور العبيد خصوصاً، تلك المحبة الجامعة التي لا يعرف أن يمنحها غير البشر البؤساء المضطهدين لأولئك الذين يمنون عليهم بجميل أو بعزاء ما. وفي هذه اللحظة انضاف إلى شعورهم هذا دافع الفضول، ترى ما الذي سينطق به رسول القيصر.

أما بترونيوس فقد خلع عباءته البيضاء، ورفعها ملوحاً بها في الهواء إيذاناً بأنه يريد أن يتكلم.

علت الصيحات في كل ناحية :

- سكوت ! سكوت !

انقطع الضجيج على الفور، فاستقام بترونيوس على حصانه وقال بصوت مرتفع متماسك :

- أيها المواطنون ! من يسمعي فليخبر من لا يسمعي بما أقول. وليكن سلوك الجميع لائقاً بسلوك البشر، لا بسلوك الحيوانات في الميادين.

- إصغاء ! إصغاء !

- اسمعوني إذن ! المدينة سوف تعمر من جديد. والآن سوف تشرع أمامكم أبواب حدائق لوسلوس و ميساناس و أغرينا و القيصر. ومن الغد سيبدأ توزيع القمح، والنبذ، والزيت، حتى يتختم الجميع. والقيصر أعد لكم العباباً سيركيّة، لم يسبق أن شاهدتم شيئاً لها. وستلونها مآدب وهدايا. وستصبحون بعد الحريق أكثر غنى مما كنتم عليه !

جاء الرد لغطاً شديداً، انتشر من الوسط إلى المحيط، كما تتوسع دوائر الماء بعد القاء حجر في بركة. تلقّف من كانوا في المركز ما

قيل، وتناقلتها الجموع التالية فالتالية. ثم تناهت هنا وهناك صيحات الغضب، والرفض، والاستحسان، حتى انصهر صخب الجميع أخيراً في زئير واحد ضخم :

- بانيم إت سيرسنس !

تلفح بترونيوس بإزاره من جديد، فبدا بثوبه الأبيض ووقفته المصغية الثابتة، كمنصب رخامي. اشتد الصراخ حتى طغى على ضجة الحريق، منبعثاً من كل ناحية، لكن المبعوث كان لديه ما يقوله بعد، لأنه ظل منتظراً في مكانه.

أخيراً رفع يديه طالباً الاصغاء من جديد، وتكلم قائلاً :

- أعدكم بالحصول على الخبز والعباب السيرك، أما الآن فحيّوا القيصر الذي يمدكم بالغذاء، والكسوة، وبعدها انصرفوا إلى النوم أيها الدهماء قبل أن يطلع الفجر.

واستدار بجواده، وراح ينقر بصولجانه نقرات خفيفة على رؤوس من سدّوا طريقه، حتى بلغ أخيراً فصائل الحرس.

وبعد وقت قصير كان عند أقيّة المياه. استقبل هناك بذعر شديد. لم يفهموا معنى بانيم إت سيرسنس، وظنوها صيحة انفعال جديدة. ولم يكن يخطر لهم أن بترونيوس سينجو بنفسه فحين لمح القيصير يصعد الدرج متجهاً نحوه، بادره، وقد جعلته شدة الانفعال شاحب الوجه، بأسئلة متلاحقة

- قل ما هذا؟ ماذا يحصل؟ هل أوقعوا بك الاذى؟

تنفس بترونيوس عميقاً، وأجاب :

- بحق بولو كس ! لقد جعلوني أتصيب عرقاً، وأنتنوني. الي بقليل من العطر، سيغمي علي ثم التفت نحو القيصر ليكمل كلامه :



- وعدتهم بالقمح، والزيت، وبفتح الحدائق، والعباب السيرك. وهم  
الان يؤلهونك من جديد. ويعي شونك بملء حناجرهم يا الهة ما أبشع  
رائحة هذه العامة !

فقال تيفالنيوس :

- كان عناصري من الحرس الامبراطوري في أتم الجاهزية وإن أنت  
لا تطلب منهم ضبط النفس، فسيلتزم هؤلاء الجعجاعون الصمت إلى  
الابد. يؤسفني أيها القيصر، أنك لم تسمح باستخدام السلاح.

رنا بترونيوس إلى المتكلم وهز كتفيه، ثم قال :

- ما يتأخر، لا يفوت. قد نحتاج إلى ذلك في الغد.

فصرح القيصر قائلاً :

- لا، لا. سأفتح لهم الحدائق، وأوزع عليهم القمح. شكرالك  
يا بترونيوس !. سأنظم العباب سيرك، وسأغني أمامهم الاغنية التي  
سمعتوها اليوم.

ووضع يده على كتف بترونيوس، وصمت هنيهة، ثم سأله بهدوء :

- قل لي بصدق، كيف رأيتني وأنا أغني؟

- كنت جديرا بالمشهد، الذي كان لائقا بك. أجاب بترونيوس

واستدار نحو الحريق وقال :

- لكن دعنا نشاهد جيدا، ونودع روما القديمة !

شحنت كلمات الحواريّ نفوس المسيحيين، وردت الروح. كانوا دائما على يقين بأنها نهاية العالم، لكنهم الان بدؤوا يؤمنون بأن القيامة ليست قريبة، وأنهم سوف يشهدون نهاية حكم نيرون، وما سيلحق به الله من عقاب محتوم.

وما أن أنهوا صلاتهم حتى هموا بالخروج من السرداب متجهين إلى ملاجئهم المؤقتة، وحتى إلى الترانستريس، بعد أن جاءتهم الانباء بأن الرياح بدأت تسحب النيران باتجاه النهر، وتلتهم كل شيء هناك، لكنها لن تتمكن من الانتشار أكثر من ذلك.

وحتى الحواريّ ومعه فينيكوس ومرافقوه، ومن ورائهم شيلون كذلك، قد غادروا المغارة. لم يشأ الحاكم الشاب أن يفوت على الحواريّ متابعة صلاته، فظل يسير إلى جانبه دون أن ينبس بكلمة، لكن عينيه كانتا تتوسلان الرأفة، وكان مرتعدا الاوصال من شدة القلق والاضطراب. كان الكثيرون ما يزالون يتقدمون من الحواريّ يقبلون يديه، أو يلامسون أطراف رداءه بشفاهم، أو تمد الامهات أطفالها نحوه، وكان العديد منهم يركعون على امتداد الممر الطويل، رافعين اسرجتهم نحو الاعلى طمعا بمباركته، وآخرون يتهلون، فلم تسنح الفرصة لأي تساؤل أو رد. هكذا كان المشهد على طول الطريق العميق. ولكن ما إن وصلوا الباحة الطلقة، حتى بدت المدينة المحترقة، فرسم الحواريّ الصليب ثلاث مرات، ثم استدار نحو فينيكوس وقال :

- لا تخف! عما قريب سنصل إلى كوخ بين صفوف الاشجار،  
حيث سنجد ليفيا، و لنيوس وخادمه الوفي. المسيح الذي أوصى لك  
بها، قد صانها من أجلك.

شعر فينيكوس بأنه خائر القوى، فاستند على الجدار الصخري.

لكن نبأ ليفيا السار قد رد إليه الروح، وشحن ساقيه بقوة كانت  
كافية ليجتو عند قدي الحواريّ، ويعانق ساقيه دون أن يتمكن من  
النطق بحرف.

استشعر الحواريّ رغبة الشاب في التعبير عن الامتنان والاحترام  
فخاطبه قائلاً :

- لا تشكرني أنا. بل السيد المسيح.

فتفوه شيلون في الخلف قائلاً :

- أي الوهة عظيمة ! لكنني لا أدري... ماذا عن البغال التي تركناها  
تنتظر هنا.

فقال بطرس وقد أمسك بالشاب :

- انهض، ورافقني

نهض فينيكوس واقفاً، فتلامعت الدموع في عينيه على ضوء النار.

وارتعشت شفتاه كأنما كان يصلي. فقال :

- هيا بنا.

لكن شيلون كرر قائلاً :

- سيدي، ماذا أفعل بالبغال التي تنتظر هنا؟

لم يدر فينيكوس ما الاجابة، لكنه حين عرف من بطرس أن الكوخ بات قريباً قال :

- عد بها إلى ماكرينوس.

- اسمح لي يا سيدي، أن أذكرك، بالمنزل الموعود. ما أسهل نسيان مثل هذه الامور التافهة في هذا الحريق الهائل.

- ستحصل عليه.

- لا أشك بك. لكن الان، والحواريّ شاهد على وعدك، لن أذكر على لساني حقل الكرمه معه إلى اللقاء. سأجرك يا سيدي. سأجرك.

فأجاب كل من الحواريّ و فينيكوس :

- إلى اللقاء.

ثم انعطفا يمينا، واتخذا طريقهما باتجاه التلال. قال فينيكوس في الطريق :

- سيدي. عمدني بالماء المسيحي. دعني أصبح تلميذا حقيقيا للمسيح، فأنا أحبه من أعماقي، عمدني حالا، لأن روحي مستعدة لذلك سأنفذ كل ما تطلبه مني. فقط قل لي ماذا علي أن أفعل فأجاب الحواريّ :

- أحب رفاقك وكأنهم إخوتك، لأنه ليس بوسعك أن تخدم المسيح الا بالمحبة.

- أجل ! بت أفهم ذلك، وأحسه. حين كنت طفلاً، آمنت بالالهة الرومان دون أن أحبهم. لكنني أحب هذا الاله الوحيد، بحيث أفديه بروحي، وسعادتي.

ورفع عينيه صوب السماء وكرر قائلاً :

- لأنه واحد أحد. لأنه واحد أحد فهو خير، ومستجيب ! وحتى لو هلكت هذه المدينة، ومعها العالم بأسره، فلن أخدم سواه، ولن أومن إلا به.

أنهى الحواريّ الكلام قائلاً :

- وهو يباركك، ويبارك بيتك.

وانعطفا نحو ركن آخر في نهايته نور خفيف. أشار اليه فينيكوس وقال :

- هو ذا كوخ عامل المنجم الذي لجأنا اليه حين تعذر علينا الرجوع إلى الترانسبيريس.

بلغا المكان الاشبه بغار منحوت في الجبل، وقد أغلق من الخارج بحاجز من القصب. كان الباب مغلقاً، لكن فرجة في الحاجز أتاحت رؤية الغرفة على ضوء الحريق.

نهضت قامة عملاقة داكنة لاستقبال القادمين.

- من القادم؟

فأجاب بطرس

- خادم المسيح. السلام عليك يا أرسوس.

انحنى أرسوس على قدمي الحواري، ثم أمسك بمعصمه، ورفع يده إلى شفتيه. وقال بصوت جهوري وكان قد رأى فينيكوس :

أنت أيضاً يا سيدي؟ تبارك اسم الحمل الذي من على كالينا. يمثل هذه السعادة.

وفتح الباب، فدخلا. كان لنيوس المريض مستلقيا على كومة من القش ناحل الوجه، شاحب الجبين. وكانت ليفيا إلى جانب الموقد، توقد النار لإعداد السمك الصغير طعاما للعشاء.

كانت مشغولة بسحب السمك من المشكاك، فلم ترفع عينيها ظنا منها أن أرسوس قد عاد. لكن فينيكوس تقدم منها، وناداهها باسمها، فاتحا نحوها كلتا يديه. هبت الفتاة واقفة، وشع وجهها ببريق من الدهول والبهجة، وكما يفعل الطفل حين يستعيد أباه، وأمه، بعد قلق دام أياما، رمت بنفسها بين ذراعيه. فكان من شأن فينيكوس الملهوف أن ضمها بذراعه إلى صدره لحظات طويلة شعر خلالها أنه قد أنقذ بأعجوبة من الخطر الكبير. أرخى ذراعيه، وأمسك براحتيه وجه الفتاة، وأكال القبلات على جبينها، ثم ضمها ثانية وهو يردد اسمها بلهفة، وانحنى حتى ركبتيها يقبل يديها ويغمرها بكل أنواع الحنان.

كانت سعادته لا محدودة، وحبه فائقا يوازي تلك السعادة.

ثم قال :

- لكن الان، وقد عثرت عليك، لن أدعك هنا في جحيم الحريق بين الحشود الهائجة. البشر عند الاسوار يقتلون بعضا، يتمردون، والعبيد ينهبون. ولا يعلم سوى الله ما يرتقب من كوارث في روما. لكنني سأنقذك وأنقذكم جميعا. آه، يا وحيدتي، لو تأتون معي إلى

الأنثيوم. هناك نستقل سفينة نقلنا إلى سيسيليا. أرضي أرضكم، وبيتي بيتكم. اسمعيني ! ستلتقين في سيسيليا عائلة أولوس، وسأرجعك إلى بومبونيا، ثم من بين يديها، وتحت رعايتها اتخذك زوجة لي. هل ما زلت تخافيني؟ لم أتعمد بعد، لكن سلي بطرس إن كنت لم أطلب منه في الطريق أن يقوم بعمادي. ثقي بي. وثقوا بي جميعكم !

أصغت ليفيا إلى ما يقوله مبتهجة الاسارير من قبل عانوا جميعا من ملاحقة اليهود، وهم الان يعانون مما يتسبب لهم الحريق، والفوضى من قلق مستمر وخوف عارم. لكن الرحيل إلى سيسيليا الامنة، يضع نهاية لكل ذلك، ويفتح آمالهم حقبة جديدة ملؤها السعادة. لو كان فينيكوس قد طرح عليها اصطحابها لو حدها لرفضت طرحه، لأنها لا ترغب في ترك بطرس و لنيوس هنا، لكنه قال : " تعالوا معي ! أرضي أرضكم، وبيتي بيتكم جميعا "

مالت ليفيا على يد الشاب لتقبلها إيذانا بالموافقة، ثم قالت :

- موقدك، موقدي.

لكنها شعرت بالخجل لأنها تتفوه بعبارات لا تقال في الاعراف الرومانية الا من قبل الخطييات في حفل الزفاف. كست الاحمرار وجهها، خشية أن يساء فهمها :

لكن تقاسيم فينيكوس شعت بإشراقة لا حدود لها.

فالتفت إلى بطرس وخاطبه بالقول :

- لقد أحرقت روما بأمر من القيصر. كان يشكو في الأنثيوم بأنه لم يشاهد بعد حريقا هائلا لم يهتز له جفن لفعلته الشريرة. تصوروا مدى

الهول الذي يمكن أن يحصل بعد. قد يحشد جيوشه كلها لارتكاب  
المجازر بحق السكان، وقد يصادر أملاكهم وحقوقهم المدينة. من  
يدري فقد تحصل بعد الحريق، حرب أهلية، وحمامات دم، ومجاعة.  
اختبئوا ولنخبئ ليفيا أيضاً.

ستعيشون هناك بسلام حتى تمر العاصفة، وبعد ذلك يمكن لكم أن  
تعودوا وتكملوا نشر دعوتكم.

في هذه الاثناء وصل عامل المنجم، صاحب الكوخ، فأغلق وراءه  
الباب بسرعة وقال :

الناس يقتلون بعضهم أمام سيرك نيرون. العبيد والمجالدون  
يهاجمون المواطنين.

فعلق فينيكوس :

- أتسمعون؟

فقال الحواري :

- خرجت الامور عن طورها. الكوارث تتدفق كطوفان البحر.

التفت نحو فينيكوس، وقال مشيراً إلى ليفيا :

- خذ فتاك الذي أوصى بها الرب لك، وأنقذها، واصطحب

معك لنيوس المريض و أرسوس. فرد فينيكوس الذي أحب بطرس

بكل جوارحه :

أقسم، أيها المعلم، لن أدعك هنا للهلاك.



- باركك الله على حسن مقصدك. لكن أما سمعت بأن المسيح على ضفة البحيرة، رد د على مسمعي ثلاث مرات : " كن راعيا لنعاجي "

صمت فينيكوس :

فأردف الحوارِي يقول :

إن كنت أنت غير المكل ف برعاية أحد، تقول لي بأنك لن تدعني أهلك هنا، فكيف تطلب مني أن أتبرأ من مسؤوليتي في يوم الخطر؟ حيث هاجت البحيرة، وامتلات قلوبنا رعبا، لم يتركنا هو، فكيف، وأنا الخادم، وبأية طريقة لا أتبع مثال سيدي؟

هنا رفع لنيوس وجهه وسال :

- وأنا كذلك، بأية طريقة لا أتبع خطاك، وأنت وريث المسيح في الأرض.

مسح فينيكوس شعره، مستفكرا، ثم أمسك بيد ليفيا، وتكلم بنبره مشوبة بحيوية الجندي الروماني.

- اسمعني يا بطرس، وأنت يا لنيوس، وأنت كذلك يا ليفيا ! لقد نطقت بما أملته علي نظرتي الانسانية، لكن لكم نظرتكم الاخرى التي لا تأخذ في الاعتبار الامان الشخصي، بل تتبع تعاليم المخلص. أجل ! أنا لم أفهم ذلك، لأن الغشاوة ما زالت تغشي عيني، وما زلت أتكلم حسب طبيعتي القديمة. لكنني صرت أحب المسيح، وأريد أن أكون خادما له. لذلك فأنا أقسم لكم بأني سأتبع وصية المحبة، وأحرص على أخوتي في يوم الخطر.

ثم ركع، وقد مده حماس فجائي بالقوة، فرفع وجهه، وعينه عالياً  
وصرخ :

هل صرت أفهمك الآن يا مسيحي؟ هل صرت جديراً بك؟

ارتعشت يداه، واثقلت الدموع في عينيه، وهزت جسده رعشة  
الايمان والمحبة. فيما أمسك بطرس بالابريق المليء بالماء وتقدم نحو  
فينيكوس ورتل قائلاً :

- أعمدك، باسم الاب، والابن والروح القدس.

فاستحوذت على الحضور. النشوة الدينية، وشعر الجميع بأن المكان  
مليء بالنور السماوي، والانغام ما فوق الأرضية، وأن صخرة المغارة  
تنفتح فوق رؤوسهم، وحشود الملائكة تنزل عليهم من السماء، ويبدو  
هنالك في البعيد الصليب، وكف توزع البركة، في حين كان يسمع في  
الخارج صراخ البشر وفرقعات لهب المدينة المحترقة.

ضرب الشعب خياما في حدائق القيصر الفاخرة التي كانت في السابق تابعة لـ دوميتيا وأغريينا، وملأت الخيام كذلك كلا من ميدان مارس، وحديقة بومبوس و سالوستيوس و ميسناس.

واحتلوا الاورقة، وصالات العاب الكرة، والمصايف الفخمة، والحظائر، فصارت طواويس الحدائق، والعنادل، والبط، والظباء الافريقيّة والغزلان، وحمير الوحش، والايائل كلها العابا بين أيادي الدهماء. شحنت الاغذية من الاوشتيا بكميات هائلة على ظهور السفن والقوارب التي تراصت في نهر التير، حتى أمكن عبوره فوقها من ضفة إلى أخرى سيرا على الاقدام. وزع القمح بثمان بخس وصل حتى ثلاثة سسترتيوس، وبالمجان على فقراء الشعب. استجمعت مقادير ضخمة من النيذ، والزيت، ومنتجات الكستناء. وقيدت الخراف، والثيران، يوميا من الجبال.

انعكس كل ذلك على المدقعين المعدمين الذين لم يجدوا ما يأكلونه، فصارت معيشتهم أفضل ممّا كانت عليه قبل الحريق. لقد أفلحوا من جهة، في القضاء على خطر المجاعة المحتملة، ولكن الحدّ من أعمال الشغب والسلب وفوضى السلوك، بات أكثر صعوبة. لقد حصنت حياة التشرّد والنزوح قطاع الطرق، فأفلتتهم من عقاب المساءلة والحق العقوبات بهم. خاصة وأن كثيرين منهم قد سخرُوا من أنفسهم أنصارا للقيصر، ولم ييخلوا بالتهليل والتصفيق في أماكن عديدة. وبما أن

الجهات الرسميّة كانت غائبة، ولا أثر لها في الحالة المفروضة السائدة، ولم يتوافر السلاح المناسب بين الأيدي للحد من أعمال العنف، فقد حدثت أمور تفوق التصور قام بها المزيح البشري القادم من كل أنحاء العالم ليقطن روما. لم تمض ليلة الا وحصلت فيها مشاجرة، أو جريمة أو خطف نساء، وأطفال. فقتل الناس نتيجة العراك في المحطات بالمئات. وطففت الجثث كل صباح فوق مياه التبير دون أن يكثرث لدفنها أحد، ففاحت روائحها لتماماً الجو. انتشرت الأمراض في المعسكرات، وتوقع الكثيرون انتشاراً للأوبئة والأمراض الساريّة.

كان الحريق يشتد في المدينة، ولم يضعف الا في اليوم السادس حين بلغ مساحة شاسعة من الأراضي الخراب التابعة لأسكويلينوس حيث عمد إلى هدم كثرة كثيرة من المنازل والأبنية. لكن تلال الجمر المتوهجة ظلت تطلق وهجها من الأنوار، حتى لم يصدق الشعب أن نهاية الحريق الحقيقيّة واقعة. وهذا ما حصل، ففي اليوم السابع تجدد لهب النار في ابنيّة تيفالنيوس لمدة وجيزة، لكنه ما لبث أن خمد لعدم توافر ما يكفي لإطعام النار.

بعد مغيب الشمس لم تتلون السماء بأنوار الوهج الحمراء، واقتصر الحال على السنة من اللهب المزرقة كانت تنطلق عالياً كل ليلة من فوق المساحات السوداء الشاسعة التي أتى عليها الحريق. لم يبق من أحياء روما الا أربعة عشر الا أربعة من بينها الترانستريس. أما البقيّة فقد التهمت النيران. وفي نهاية الأمر، حين ترمدت تلال الجمار، اقتصر الأمر في المنطقة الرماديّة الخامدة الحزينة الممتدة من التبير حتى الاسكويلينوس، على صفوف من المداخن المنتصبة كشواهد قبور في مدفن.

لم يجد نفعا كل ما جاء به القيصر من كرم، وعون، فلم تتوقف  
صيحات الشتائم، وأعمال الشعب. وحدهم قطاع الطرق واللصوص،  
والمشردون من شعروا بالرضا، لأنهم باتوا يأكلون، ويشربون وينهبون  
على نحو لم يحلموا به من قبل. لكن من فقدوا أحياءهم وكل ما  
يملكون، كان من المستحيل إرضائهم لا بفتح الحدائق، ولا بتوزيع  
القمح، ولا بعود الهدايا، وإقامة العاب السيرك. كانت الكارثة أعظم  
من ذلك بما لا يقاس. فالذين ما زال حب الوطن وعشق مسقط رأسهم  
يغليان في أفئدتهم، قد هزهم ذلك النبأ بأن اسم روما العريقة سينمحي  
عن وجه الأرض، لأن القيصر يريد أن يبني مدينة جديدة باسم القيصر  
نيروبوليس.

كانت موجة الامتعاض تشتد يوما إثر يوم، ومخاوف القيصر تتفاقم،  
رغم تملق الاوغستيان وأكاذيب تيفالنيوس، فقد تأتي لحظة وتنزلق  
الأرض من تحت قدمية.

حتى الاوغستيان لم تستثنهم مخاوف من هذا القبيل، فبات القلق  
يستحوذ على نفوسهم بعد دلائل يومية ملموسة تشير إلى اقتراب  
هلاكهم. فكر تيفالنيوس باستدعاء بعض الفيالق من آسيا الصغرى.  
واكفهر وجه فاتينوس الذي كان يضحك حتى حين يصفعونه، وفقد  
فيتلوس شهيته على الطعام.

آخرون تشاوروا فيما بينهم، بحثا عن طريقة يسلمون بها برووسهم،  
فلم يعد خافيا على أحد أنه في حال أدى طوفان الفوضى إلى جرف  
القيصر، فلن يسلم أحد من الاوغستيان، باستثناء ربما بترونيوس، لأن  
ارتكاباتهم معروفة، وكره الشعب لهم يفوق ما يضمرونه للقيصر  
نفسه.

بدووا يتدارسون كيف يبعدون عنهم مسؤولية إحراق المدينة.  
فتوصلوا إلى نتيجة باستحالة ذلك ما لم يغسلوا يد القيصر ويبرئونه من  
الأمر، وإلا فلن يصدّق أحد أنهم ليسوا متسببي الواقعة المشؤومة.

قام تيفالنيوس بمناقشة الفكرة مع دوميتوس أفر، وكذلك مع سينكا  
ولو أنه لا يطيقه. أما بوبيا فكانت تدرك جيدا أن هلاك القيصر يعني  
الحكم عليها بالاعدام، فاستشارت ثقاتها وطلبت نصيحة الكهنة  
اليهود، على اعتبار أنها، وهو رأي شائع تتبع دين يهوه منذ بضع  
سنوات.

وجاء دور نيرون ليدي بدلوه فابتدع بعض الحيل الرهيبة في بعضها،  
والفارغة في بعضها الآخر، مرتعدا هنا، وعابثا هناك كالطفل، لكنه  
وقبل كل شيء، كان يندب وينوح.

وفي يوم، في منزل تيريوس الذي لم يأت عليه الحريق، جرت  
مشاورات مطولة، لكنها فاشلة لم تخلص إلى نتيجة. فكان رأي  
بترونيوس، تجنباً لوطأة ثقل الاعباء الملقاة عليهم، أن يسافروا إلى  
اليونان، ومن هناك إلى مصر ثم إلى آسيا الصغرى. كانت الرحلة مقررة  
منذ زمن، فلا مبرر لإرجائها أكثر، ما دامت الحياة في روما باتت بائسة  
وخطيرة.

تقبل القيصر الفكرة برحابة صدر، لكن سينكا قال بعد تفكير

- السفر سهل، لكن العودة شاقة جدا.

فأجاب بترونيوس

- بحق هيركوليس! سوف نعود على رأس فيالق من آسيا.

فجهر نيرون قائلاً :

- هذا ما سأقوم به.

لكن تيفالنيوس سعى إلى إجهاض الفكرة، ما دام هو بالذات لم يفلح في طرح أي شيء. ورغم أنه وجدها الطريقة الوحيدة للنجاة، لكن الأهم عنده كان إفشال بترونيوس لكي لا يبدو خصمه صاحب الرأي السديد على الدوام.

بادر إلى القول :

- انظر أيها القيصر. هذه مغامرة ستجلب نهايتنا. فقبل أن نصل إلى أوستيا ستندلع الحرب الأهلية، ومن يدري، فقد يخرج أحد أقارب الإله أوغستس الأحياء، ويعلن نفسه قيصراً، وإذا ما وقفت الفيالق في صفه، ما الذي يسعنا أن نفعله؟

- أول ما سنسعى إليه هو التخلص من كافة أقارب أوغستوس. وهم على أية حال قلة قليلة من اليسير تدبر أمرهم.

- يمكن القيام بذلك، لكن هل المسألة تقتصر عليهم؟ أمس سمع رجالي بين الحشود كلاماً يفضل أن يكون القيصر شخصاً مثل تراسيا.

عض نيرون شفتيه، لكنه سرعان ما رفع عينيه ليقول :

- أوغاد، جاحدون ! لديهم الكثير من القمح، وما يكفي من الجمار ليشووا حظائرهم، فما الذي يبغونه بعد؟

فأجاب تيفالنيوس :

- النعمة والثأر.

ساد صمت، ثم نهض القيصر خلاله واقفا. وعلى حين غرة أنشد قائلاً :

- الشعب إلى النعمة يتعطش، والثأر ضحية يترصد.

ثم نسي هذا الأمر وصاح بوجه مشرق :

- هاتوا الوحاء، وريشة، دعوني أسجل المقطع الشعري.

لو كانوس لم يكتب ما يشبه هذا. لاحظتم كيف جاءني الالهام في لمح البصر؟

سمعت بعض الاصوات تقول :

- آه. شيء لا يجارى.

فقال نيرون بعد أن سجل الشعر

- أجل ! النعمة ثمنها ضحايا.

ثم جالت عيناه تدوران على جميع الحضور

- هل أنشر نبأ يفيد بأن فاتينوس هو الذي أشعل المدينة، ثم أضحى به امتصاصاً لنعمة الشعب؟

فصاح فاتينوس :

- أوو، أيها القيصر الالهي، ومن أكون أنا؟



- حقا ! علينا بشخص أكثر أهميّة منك... فيتليوس؟

شحب فيتليوس، لكنه استغرق في الضحك، وكان رده :

شحمي قد يضرم النار مجدداً.

لكن نيرون كان يفكر بأحد آخر. ضحيّة ترضي الشعب وتمتص  
نقمته حقا، ولقد عثر على ضالته.

فقال بعد وقت قصير

- تيفالنيوس. أنت من أحرق روما.

اقشعر الحضور، وارتعدت أوصالهم بعد أن فهموا أن القيصر قد  
ابتعد عن الهزار، وأن أزمنة جبلي بالاحداث أشرفت على الابتداء.

انقبض وجه تيفالنيوس كشدق كلب يتهياً للعض، فصد ه قائلاً :

- أنا، لكن بأمر منك.

وحدقا في بعض كعفريتتين وخيم سكون جعل طنين الذباب يسمع  
في الأتريوم.

بادر نيرون يخاطب تيفالنيوس :

- تيفالنيوس ! هل تحبني؟

- أنت تعرف يا سيدي

- ضحي من أجلي، وافدني بنفسك

- كيف تقرب الشراب الحلو من شفتي، ولا أجتريه؟ الشعب يضج ويشاغب، فهل تريد من الحرس الامبراطوري أيضاً أن يتمرد؟

انقبضت قلوب الحضور لهذه الشناعة. كان تيفالنيوس قائدا للحرس، فبدا ما تفوه به نوعاً من التهديد. أدرك نيرون ذلك، فكساه الشحوب. في هذه الاثناء دخل إبا فرديتوس معتوق القيصر، وأعلن أن الاوغستا الالهية تريد التحدث إلى تيفالنيوس، لأن ضيوفها يرغبون في أن ينصت اليهم قائد الحرس.

انحنى تيفالنيوس أمام القيصر، وانصرف بكل هدوء واستخفاف. لقد أرادوا أن يوجهوا اليه لكمة قوية، لكنه كثر عن أنيابه ليعرفوا من يكون، وليكتشفوا في الوقت نفسه أن القيصر سيد الكون أجبن من أن يجروا على رفع يديه ومسه بسوء.

جلس نيرون فترة لا ينبس بحرف، لكنه لاحظ أن الحضور ينتظرون منه أن ينطق بشيء فقال :

- كنت أدلل أفعى

هز بترونيوس كتفيه كأنما أراد أن يقول أن أفعى كهذه ليس من العسير سحل رأسها.

فخاطبه القيصر، وقد لاحظ حركة صديقه :

- هات ما لديك. قل، أسد لي بنصح ! لا أثق الا بك، فعقلك أرجح من عقول الكل مجتمعين، وتجنبي !

كان كلام بترونيوس جاهزاً وعلى أهبة النطق به : " سمني قائدا

للحرس الامبراطوري، وأنا سأسلم تيفالنيوس للشعب، وأهدى المدينة خلال يوم واحد". لكن خموله المولود معه تغلب عليه. أن يكون قائدا للحرس، هذا يعني أنه سيرفع على كاهله عبء شخص القيصر، إضافة إلى الاف الاعباء الاخرى. فلم يجلب لنفسه المتاعب؟ من الافضل له أن يعكف إلى مكتبة مريحة يقرأ الاشعار، أو يستمتع بمشاهدة التماثيل والاصص، ويحضن جسد يونيكي الالهي، ويداعب خصلات شعرها الذهبي، ويلامس بفيه حمرة شفتي الفتاة.

فكانت نصيحته أن قال :

- أنصحك بأن نسافر إلى أكايا

أجاب نيرون :

- أه. انتظرت منك أكثر من ذلك. مجلس الشيوخ يكرهني، فإن سافرت، من يضمن لي أنه لن يتمرد علي، ويسمي قيصر آخر؟ كان الشعب في صفى منذ مدة طويلة، لكنه الان يقف إلى جانبهم... يا جوبيتر! هل يعقل أن يكون للشعب ومجلس الشيوخ عقل واحد!

فعلق بترونيوس باسما :

- دعني أقل لك، أيها القيصر الالهي، إذا ما أردنا أن نحافظ على روما، ينبغي علينا أن نحافظ على بعض الرومانيين أيضاً.

- وما نفع روما والرومانيين لي؟ في أكايا قد يصغون الي، وأنا هنا محاط بالخيانة. انفض عني الجميع. حتى أنتم قابلون لخياتتي! أعلم، أعلم!... أما ينبغي لكم أن تفكروا بما سيقال عنكم في القرون القادمة، بأنكم تخليتم عن فنان مثلي.

وبغته ضرب على جبينه وصاح قائلاً :

حقاً!... في زحمة الاعباء نسيت من أن كون. والتفت إلى  
بترونيوس بوجه فيه الكثير من الاشراق. وقال

- اسمع يا بترونيوس. الشعب يضحج، لكن لو أمسكت بقيثارتي  
وغنيت أمامه في ميدان مارس الاغنية التي أديتها لكم في أثناء الحريق  
الا تظن أنني سأتمكن من التأثير بالشعب، كما أثر أورفيوس بالوحوش  
بأنغامه؟

هنا انبرى توليوس سينيكو الذي كان ينتظر نهاية الحديث، بعد أن  
فقد صبره، وبات يرغب في الذهاب إلى فتياته من الرق اللواتي جلبهن  
من الأنتيوم، فقال :

- لا شك في ذلك أيها القيصر، لكن السؤال هل ستسمح لك الفرصة  
للشروع بذلك.

فصرخ نيرون وقد اعتكر مزاجه :

- فلنذهب إلى هيلاس

ولكن في هذه اللحظة دخلت بوبيا وفي إثرها تيفالنيوس.

كان دخول رئيس الحرس ملفتا على نحو لم يالف الحاضرون مثولاً  
أمام القيصر. يمثل هذا الصدف حتى لقائد عسكري ظافر.

بدأ يتكلم بكثير من التوتر، وفي نبرة صوته حشجة تكاد تكون  
قرقة حديد :

- اسمع أيها القيصر. لا بد من إرضاء الشعب بتقديم ضحية. لكن  
ليس ضحية واحدة بل الاف الضحايا. أما سمعت بكريستوس الذي  
صلبه بونتوس بلاتوس؟

أو تعرف من هم المسيحيون؟ ألم أحدثك عن أفعالهم الشريرة، وطقوسهم اللا أخلاقيّة، ونبوءتهم بأن العالم ستأكله النيران؟ الشعب يكرههم، وينظر اليهم بعين الشبهة. لم يشاهدتهم أحد في معابد، لأنهم يعتبرون الهتنا أرواحا شريرة. إنك لا تراهم حتى في الميادين، لأنهم يكرهون الالعاب. لم تصفق كف مسيحي احتراماً لك. ولم يعترف أي منهم بالهك. هم أعداء الانسانيّة، وأعداء المدينة، وأعداء لكم. الشعب ينتفض ضدك، في حين لست من أصدر الاوامر بإحراق المدينة، ولست أنا من قام بإحراقها. الشعب يرغب في الانتقام، فلنحقق لهم رغبتهم. الشعب متعطش للدماء واللعاب السيرك، فليرو عطشه. الشعب يتوجه اليك بالاتهام، فلتتوجه أصابع اتهامه باتجاه آخر.

في البداية كان نيرون يصغي باستغراب، لكن تعابير وجه الممثل بدأت خلال مجرى الحديث تتبدل غاضبة تارة، ومتألّمة تتوسل العزاء تارة أخرى. نهض فجأة، فالقي عنه رداؤه وظل عند قدميه، حتى رفعه بكلتا يديه، وظل واقفا لحظات حتى نطق بنبرة البطل الدرامي

- يا زيوس، يا أبوللو، يا هيرا، يا أثينا، يا برسفون، ويا كل الالهة الخالدين، لم لم تأتوا لتقديم العون لنا؟

ما الذي فعلته هذه المدينة المنحوسة لأولئك الانجاس حتى يحرقوها على هذا النحو القدر؟

فقالت بوبايا

- إنهم أعداء الجنس البشري وأعداؤك.

فصاح آخرون :

- أقم العدل ! عاقب من أحرقتها. الالهة أنفسهم متعطشون للثأر !

جلس نيرون، وأحنى رأسه على صدره، وكان الوضاعة التي سمعها الان قد خدرته، لكنه سرعان ما هز يديه وقال :

- أي عقاب، وأي عذاب يستحقون على فعلتهم الشريرة؟ لكن الالهة تلهمني لأبتدع لشعبي مشاهد سيدكروني عليها ممتنين لقرون.

احمر جبين بترونيوس على حين غرة، حين فكر بالخطر المحدق الذي يهدد ليفيا و فينيكوس الذي أحبه، وكل أولئك الذين كان يحتقر دينهم، لكنه على يقين من براءتهم. ولمع في ذهنه أن أحد الطقوس الدموية، التي لا تحملها طبيعته الجمالية، في طريقه إلى الوقوع.

لكنه قال في نفسه : " علي أن أنقذ فينيكوس لأنه سيجن إن فقد تلك الفتاة ". ووجدها أولى مهامه، وأول محك خطير في الحياة يضع نفسه فيه.

وكعادته، تكلم بطريقته المعهودة من البرود والاعتيادية، ما دام لا يتناول في نقده آراء جمالية تخص القيصر :

إذن، عثرت على ضحايا ! حسنا ! ستلقون بهم في حلبات الوحوش، أو تلبسونهم " ثوب العذاب ". حسن لكن اسمعوني قليلا. في أياديكم السلطة، والحرس الامبراطوري، والقوة، فكونوا صادقين، أقله حين لا يسمعكم أحد. اخذعوا الشعب، لكن لا تخدعوا أنفسكم، سلموا المسيحيين للشعب وأوقعوا بهم العذاب الذي تشاؤون، لكن فلتجروا على الاعتراف أمام أنفسكم أن ليس هم من أحرق روما ! سحقا ! لقد أطلق علي لقب ملك الذوق. أنا لا أحتمل هذه المهزلة سحقا ! كم ذكرني هذا باللعبة الكوميديّة، حيث يلعب الممثلون أدوار

الالهة، والملوك، ثم بعد عرض المسرحية يتعشون البصل. كونوا الهة، وملوكا حقيقيين، لأنني واثق من قدرتكم على إيجاد طريقة مناسبة. أما ما يخصك أيها القيصر، فلقد هددتنا بإدانة الاجيال القادمة لنا، لكن لا تنس أن إدانتهم ستلحق بك أيضاً. بحق كليو الالهي ! إن نيرون سيد الكون، نيرون الالهي، قد أحرق روما لأن سلطته على الأرض، كسلطة زيوس فوق جبل الاولمب. نيرون الشاعر قد أحب الشعر إلى حد جعله يفديه بوطنه ! منذ نشوء العالم لم يقدم أحد على مثل هذا الفعل، لأن أحدا لم يتمتع بالجرأة. باسم الموزيات التسع عروسات الشعر، أتضرع اليك أن لا تتنازل عن هذا المجد، ولسوف تصدح باسمك الاشعار والالخان عبر القرون. من سيكون برياموس مقارنة بك، أي مجد سيكون لأغممنون وآخيل، وحتى للالهة أنفسهم؟ ليس من أهميّة إن كان إحراق روما أمر حسن أم لا. الاهميّة في عظمة الحدث واستثنائته دون ريب. وعلى أية حال أقول لك أن الشعب لم يرفع يده عليك ! فكن جريئاً ! وحذار من اتخاذ مسالك لا تليق بك، لأنك وحدك من يهدده خطر الاجيال القادمة عندما يقولون " نيرون أحرق روما، ولكنه كقيصر منحط، وكشاعر زائف منحط، ولأنه جبان ورعديد قد أنكر فعلته تلك والبس التهمة للأبرياء "

وكالعادة كان لكلمات بترونيوس تأثيرها الكبير في نفس القيصر. القشة الاخيرة التي تنقذ حياة المسيحيين، لكنها تعرض بترونيوس لخطر شديد. لم يتشدد كثيرا لأن الأمر يخص فينيكوس الذي يحبه من جهة، ولأنها تؤدي إلى مغامرة من جهة أخرى. قال في نفسه : " ولكني قد رميت بحبة النرد، وانتهى الأمر، والان بانتظار القرار الذي سيتخذه هذا القرد، إما بدافع خوفه على جلده، أو بدافع يمليه عليه طموحه "

لكنه كان على يقين بأن الخوف هو الراجح في النهاية.

ساد صمت ترقب خلاله الجميع، ومن بينهم بوبيا، ما سيتفوه به نيرون. أما القيصر فقد مط شفته العليا حتى فتحتي أنفه، وهذا ما يفعل في العادة حين يحار، ولا يدري ماذا سيفعل. في النهاية بدا عليه الارتباك وعلت وجهه تقاسيم الانزعاج.

لاحظ تيفالنيوس ما خالج القيصر من اضطراب فبادر إلى القول بصوت جهوري :

- سيدي ! اسمح لي بالانصراف، لأن محاولات الزج بشخصك في أتون التهديد والوعيد، إضافة إلى تسميتك بقيصر منحط، وشاعر منحط، وحارق المدينة، ومهرج، فذلك ما لا تحمل أذناي سماعه.

قال بترونيوس لنفسه : " لقد هزمت "

الا أنه التفت نحو بترونيوس بكل مألديه من دوافع الاحتقار التي يضمرها نبيل تجاه حثالة، وتوجه إليه بالقول :

- أنت يا تيفالنيوس من سميتك بالمهرج، وها أنتذا تهرج الان.

- لأنني غير مستعد أن أسمع ما تتلفظ به من كلمات جارحة.

- بل لأنك تتصرف وكأنك تكن للقيصر محبة لا حدود لها، في حين قد هددته، لتوك، بالحرس الامبراطوري، وعلى مسامعنا جميعا.

لم يكن تيفالنيوس مستعدا لمثل هذه المغامرة غير المتوقعة التي تجرأ بترونيوس وأطلقها لتوه، فلزم الصمت شاحب الوجه. لكنها كانت الغلبة الاخيرة التي يحققها بترونيوس على خصمة تيفالنيوس لأن بوبيا في هذه اللحظة بادرت إلى القول :



- كيف لك أن تسمح يا سيدي حتى بمجرد أن تلمع في ذهن أحدهم أفكار كهذه، فكيف وهم يتجروون ويتفوهون بها أمامك؟

صاح فيتليوس :

- عاقب المتطاول !

ومن جديد مط نيرون شفته العليا نحو أنفه، ثم التفت نحو بترونيوس وقال :

هكذا تكافئني على صداقتي؟

فأجاب بترونيوس :

- إن ضللت فجازني. لكنك تدرك أنني لا أتفوه إلا بما تمليه علي محبتي لك.

فكرر فيتليوس قائلاً :

- عاقب الجسور ! المتطاول !

وعلت أصوات أخرى :

- عاقب الجسور !

وعم في الأتريوم الضجيج والحركة، لأن الناس أخذوا ينفضون عن بترونيوس. وانفض عنه حتى توليوس سينكيو الذي كان صاحبه المخاص في البلاط، والشاب نيرفا أحد أفضل أصدقائه. وسرعان ما صار بترونيوس وحيدا في الركن الأيسر من الأتريوم يمسح كم رداؤه مبتسما، وينتظر ما سيقوله، أو سيفعله القيصر.

أما القيصر فقال :

- تريدون أن أعاقبه، لكنه صديقي وصاحبي، فإن جرح فؤادي  
فليعلم أن هذا القلب عارم بالصفح تجاه أصدقائه. وفكر بترونيوس :  
"خسارتي، ونهايتي"

كان القيصر قد نهض واقفا معلنا نهاية المشاورات.

توجه بترونيوس إلى منزله، فيما قصد نيرون و تيفالنيوس معا صالون بوبيا، حيث كان ينتظر هناك من تحدث اليهم قائد الحرس قبل قليل.

كان هناك حاخامان يرادئين رسميين طويلين، وتاجين فوق الرأس، وكان برفقتهم مدون، إضافة إلى شيلون. ارتعد الحاخامان لمراى القيصر، ورفعوا أكفهما. وبادر الاكبر سنا إلى تحيته

لك التحيات، يا مناصر الملكيّة، وملك الملوك. تحية لك يا سيد العالم، أيها القيصر، يا راعي الشعب المختار، أيها الأسد الضرغام بين جموع الناس، والذي ينتشر سلطانه كأشعة الشمس، وكأرز لبنان، وكالينبوع، والنخيل، والبلسم الشافي.

سأل القيصر :

أنتم لا تعتبرونني إلها؟

ازدادت رعدة الحاخامين وشحوبهما، فقال الحاخام المسن :

- كلامك حلو يا سيدي كعنقود العنب، وكثمر التين الناضج، لأن يهوه قد ملاً قلبك بالطيبة، لكن القيصر كايوس كان ظالماً، ورغم ذلك لم يعتبره أتباعنا إلها، وفضلوا الموت على تجاوز القانون.

- فدفع بهم كاليفولا بين الاسود؟

- لا يا سيدي. القيصر كايوس خشي غضب يهوه. ورفعوا رؤوسهم  
لأن اسم يهوه الجبار شحنهم بالعزيمة. وهم الان، بمثل تلك العزيمة،  
يجرؤون على النظر في عيني نيرون.

- أنتم تتهمون المسيحيين بإحراق روما؟

- نحن يا سيدي لا نتهمهم الا بأنهم أعداء القانون، وأعداء الجنس  
البشري، وأعداء روما، وأعداؤك، وبأنهم منذ زمن طويل يهددون  
بإحراق المدينة والعالم. وما تبقى سيقوله لك هذا الانسان الذي ما  
عرفت شفتاه الكذب، لأن عروق أمه يجري فيها دم الشعب المختار.

التفت نيرون نحو شيلون :

- من أنت؟

- متبجح لك، ورواقي مسكين...

- أكره الرواقين، أكره المتبجحين، أكره أحاديثهم، وأكره  
فيهم احتقارهم للفن، أكره فقرهم المفطورين عليه، أكره قبحهم  
ومشاكستهم.

- سيدي، إن السيد سنيكا يملك الف طاولة من خشب السرو، فإن  
شئت تجعلني أمتلك على ضعف ذلك. وإن شئت أن تفعل، فزخرف  
رواقتي بقوس من الورود إضافة إلى إبريق من النيذ وستراها تتحلفك  
بأنغام غريبة تطرب كل الايقوريين.

نالت هذه اللفتة " البارقة " إعجاب نيرون فما كان منه الا أن ابتسم  
وقال :

- أنت تعجبني

فبادر تيفالنيوس إلى القول

- هذا المرء يساوي ثقله ذهباً

أما شيلون فأجاب :

- سيدي ! زد كرمك وأكمل وزني، والافتدرو الرياح المدفوعات  
لخفتها.

فقاطعه القيصر قائلاً :

- مؤكد أن فيتليوس لن يبخر الميزان حقّه.

- لكن عقلي ليس مسبوكا من الرصاص.

- أرى ذلك، لأن ناموسك لا يمانع أن تدعوني الها.

- ناموسي قائم فيك أيها الخالد ! المسيحيون انكروا القانون، ولهذا  
فأنا أحتقرهم.

- ماذا تعرف عن المسيحيين !

- أسمع لي أيها القيصر الالهي، أن أبكي؟

فأجاب نيرون :

- لا، لأن هذا يضجرني.

- الحق معك، لأن العين التي لا تراك، لن تبكي أبدا. سيدي ! أنقذني  
من أعدائي.

فتدخلت بوييا بشيء من فراغ صبر

- تحدث عن المسيحيين

فأجاب شيلون :

- كما تأمرين. منذ يفاعتي سخرت حياتي للفلسفة، متوخيا البحث عن الحقيقة. بحثت عنها في الحكم الالهية القديمة، وبحثت عنها في الاكاديمية الاثينية، وفي معتقد سيرايبس في الاسكندرية. حين سمعت بالمسيحيين ظننت أن ذلك مدرسة جديدة يمكن أن أحظى فيها على نثرات من الحقيقة. يا خيتي إذ تعرفت بهم ! المسيحي الاول الذي قادني نحسي للتعرف به كان كلاوسوس الطبيب النابولي. ومع مرور الوقت عرفت من خلاله أنهم يعبدون أحدا يدعى المسيح، يعدهم بالقضاء على كل شعوب الأرض، وتدمير كل مدنها، والابقاء عليهم إذا ما ساعدوه في القضاء على أطفال ديكاليسون. ولهذا السبب يكن هؤلاء الضغينة للبشر، يا سيدي، ولهذا السبب يقومون بتسميم الابار، ولهذا السبب يكثرون في اجتماعاتهم من إطلاق الشتائم والمذمات بحق روما، وحث معابدنا. لقد صلب المسيح لكنه وعدهم إذا ما أحرقت روما فسيأتي من جديد إلى هذا العالم، يجعلهم أسياد العالم....

فقاطعه تيفالنيوس قائلاً :

- صار الشعب يعرف لماذا احترقت روما.

فأجاب شيلون

- الكثيرون باتوا يعرفون لأنني أقصد الحدائق، وميدان مارس، وأقوم بتعليمهم. لكن إذا ما سمعتموني حتى النهاية، سترون أن لي أسبابا لا

حصر لها لنقمتي . الطيب كلاسوس لم يكشف لي منذ البداية أن دينهم يأمرهم بكره البشر. بل قال لي إن المسيح الوهه صالحة، وأن المحبة هي أساس تعاليمهم. لم يرفض قلبي الوديع المرهف هذه الحقيقة، ولهذا أحببت كلاوسوس ووثقت به. شاطرته كل لقمة من طعامي، وكل جريشي من القمح. لكن أتدري يا سيدي كيف رد لي هذا الجميل؟

حين غادرنا نابولي في طريقنا إلى روما طعني بالمديّة، وباع كلا من زوجتي وابني الفتى الجميل إلى تجار الرق. لو عرف سوفوكليس قصة حياتي... ما الذي سأقوله بعد! شاعر أعظم من سوفوكليس يسمعي الآن.

أشفقت بوبيا قائلة :

- مسكين.

- ليس مسكينا من رأى وجه افروديت يا سيدتي . وها آنذا أراه الان . ولكني بعد كل ما حصل لي بحثت عن عزاء في الفلسفة . بوصولي إلى روما بحثت عن كبار المسيحيين طالبا منهم تحقيق العدالة ومعاقبة كلاوسوس . ظننت أنهم سيرغمونه على إعادة زوجتي... تعرفت على كبير الكهنة... وعلى شخص آخر يدعى بولس الذي كان أسيرا وأنقذوه فيما بعد. وتعرفت على كثيرين آخرين كنت أعرف قبل الحريق أين يقطنون، وأين يجتمعون. أعرف غارا تقع تحت رابية فاتيكانوس، ومقبرة خارج بورتا نومنّا، حيث يقيمون هناك طقوسهم المخزيّة. هناك رأيت بطرس الحواريّ، رأيت كلاوسوس وهو يقتل أطفالا ليرش دما فوق رؤوس الاتباع. ورأيت ليفيا ابنة بومبونيا المتبناة، التي تفخر بأنها ما دامت لم تستطع أن تجلب دم طفل، فلتتسبب إذن بموت طفلة، فقامت بسحر الاوغستا الصغيرة ابنتكم، وأصابتها بالعين. الطف بنا

يا إيزيس ويا أوزيريس.

علقت بوبيا :

- أسمع هذا أيها القيصر !

فصرح القيصر :

- أيعقل هذا؟

فتابع شيلون :

- لو تعلق الأمر بما لحق بي من أذية لصفحت عنها، لكن مصابكم الجلل جعلني أرغب بطعنها. لكن وأسفاه، منعني من ذلك حببها النبيل فينيكوس.

- فينيكوس؟ كيف وقد هربت الفتاة منه.

- الفتاة هربت، لكن فينيكوس بحث عنها، لأنه لم يستطع العيش بدونها. وأنا ساعدته في البحث عنها لقاء أجر زهيد، وأرشدته إلى المنزل الذي تقيم فيه الفتاة مع المسيحيين في ترانسبيريس. رافقته إلى هناك بصحبة كروتون أقوى مصارعيك لحماية فينيكوس. لكن أرسوس عبد ليفيا قضى عليه. إنه من القوة يا سيدي، بحيث يقتل عنق ثور، كما يقتل أحد غيره كوزا من الخشخاش. أرسوس و بومبونيا يحبانها أيضاً.

صاح نيرون :

- يا هيروكوليس ! ذلك الفاني الذي قضى على كروتون يستحق أن



يقام له نصب في فوردم. لكنك إما أن تكون مخطئاً أيها العجوز أو أنك تكذب، لأن كروتون قتل مطعوناً على يد فينيكوس.

- هكذا يفترون على الآلهة. رأيت بأم عيني يا سيدي، كيف طقطقت أضلاع كروتون بين يدي أرسوس، حتى أنه قام بعدها بضرب فينيكوس، ولو لم تكن ليفيا هناك، وتشفعت له لقضى عليه. وعلى إثرها ظل فينيكوس مريضاً لمدة طويلة، والمسيحيون من قاموا بالعناية به أملاً منهم بأن يعتنق المسيحية كرمى لمحبوبته. وهذا ما حصل فعلاً.

- فينيكوس؟

- أجل فينيكوس

تدخل تيفالنيوس قائلاً :

- وقد يكون بترونيوس كذلك.

تراقص شيلون في مكانه، وفرك راحتيه ثم قال :

- تذهلني نظرتك الثاقبة يا سيدي... أجل... ذلك ممكن... ذلك ممكن جداً.

- فهت الان سبب دفاعه عن المسيحيين.

قهقه نيرون :

- بترونيوس مسيحي! بترونيوس عدو للحياة، والمتعة! لا تتفوها بالترهات، محاولين إقناعي، لأني لن أصدق شيئاً.

- لكن فينيكوس النبيل صار مسيحياً، يا سيدي. أقسم بالنور

الساطع منك أنني أقول الحق، وأنني لا أكره شيئاً كرهى للكذب. بومبونيا مسيحية، وأولوس الصغير مسيحي، وليفيا وفينيكوس مسيحيان. لقد خدمته بكل إخلاص لكنه لم يتوان عن جلدي رغم أنني عجوز، ورغم كوني آنذاك مريضاً وجائعاً. لكنني أقسم بهادس أنني لن أنسى ذلك. انتقم لي يا سيدي منهم، وأنا سأحضر لك الحواريّ بطرس و لنيوس و كليتوس، و كلاوسوس، و كريسيوس وكلهم قادة، فضلاً عن ليفيا و أرسوس. وسوف أدلكم على الاف والاف غيرهم، وأدلكم على معابدهم، وكل المقابر التي يجتمعون فيها، حتى أن كل سجونكم لا تتسع لأعدادهم. لن تعثروا عليهم دون مساعدتي... حتى الان كنت أبحث عن عزاء لي في الفلسفة، فدعني أجدها الان في عطفكم نحوي... أنا عجوز، و لم أذق بعد طعم الحياة، فدعني أنعم بالراحة قليلاً.

فعلق نيرون قائلاً :

- أنت ترغب في أن تكون رواقياً حول مائدة عامرة.
- من يسعى لخدمتك، هو بالضرورة يكون قد أوصى بمائدته.
- لست مخطئاً أيها الفيلسوف.

ثارت غيره بوبيا، بعد أن رأت بعينها الثاقبة الخبيرة أن لا أحد في روما كلها يمكن أن ينافسها سوى ليفيا، وأن تلك ستفوز عليها. حزمت أمرها، وأقسمت أنها منذ هذه اللحظة ستنتقم منها. فقامت مخاطبة القيصر :

- سيدي ! انتقم لابنتنا

فاستعجلهم شيلون قائلاً :

- أسرعوا ! أسرعوا قبل أن يوارىها فينيكوس . سأدلكم على المنزل الذي أقاموا فيه بعد نشوب الحريق .

فقال تيفالنيوس :

- سأدعمك بعشرة رجال ، انطلق حالاً .

- سيدي ، أنت لم تشاهد كروتون بين ذراعي أرسوس لو دعمتني بخمسين رجلاً ، فلن أقرب من المنزل ، وسأدلكم عليه من مكان بعيد .

ولكن إن لم تودعوا فينيكوس السجن فستكون نهايتي .

التفت تيفالنيوس إلى نيرون ، قائلاً :

- اليس من الأفضل يا سيدي ، أن نتدبر أولاً شأن الشاب ، وعمّه ؟

فأجاب القيصر بعد تفكير

- لا . الآن لا . لا تحاولوا أن تقنعوا الناس بأن من أحرق روما هو بترونيوس و فينيكوس و بومبونيا . كانت لهم منازل جميلة ... نحن الآن في حاجة إلى أكباش فداء آخرين ، ودورهم سيأتي بعد حين .

قال شيلون

- أعطني يا سيدي رجلاً يحمونني .

- سيعتني تيفالنيوس بالأمر.

فطمأنه رئيس الحرس قائلاً :

- سوف تقيم عندي حتى ذلك الوقت.

طفح وجه شيلون بالبشاشة وصاح بصوت أجش :

- سأنقذكم جميعاً، لكن أسرعوا ! أسرعوا !

حين غادر بترونيوس نيرون توجه إلى منزله في كارينا وهو منزل طوقته حديقة من جهاته الثلاث، وانداحت أمامه فسحة شاسعة، ليصبح على هذا النحو في منأى عن تأثير الحريق.

الاوغستيان الذين دمرت منازلهم، بما فيها من ثروات ومقتنيات نفيسه، وأعمال فنيّة، أطلقوا على بترونيوس عازف الفلوت المحظوظ. وعلى أيّة حال كانوا يتناقلون عنه الاحاديث بأنه الابن البكر الذي أنجبته المرأة الالهية فورتونا، وأنه يمثل صداقة القيصر التي ما فتئت تعزز على الدوام في الاونة الاخيرة، وجاءت نجاة منزله لتؤكد هذا الرأي.

لكن بكر المرأة الالهية فورتونا كان له أن يفكر مليا بتقلب أمه، وشبهها بـ كرونوس في التهام الابناء.

"لو أن منزلي قد احترق، ومع جواهري، وأصصي الاتروسكيّة، وزجاجياتي الاسكندرانيّة، ونفائسي الكورنتوسيّة، لتناسى نيرون، أغلب الظن، مصابه. يا بولوكس! إذا ما فكر المرء وكان الأمر قد تعلق بي وحدي وصرت قائد الحرس! إذن لأسميت على تيفالنيوس إحراق المدينة، ولقمت بحمائيّة المسيحيين، وأعمرت روما. ومن يدري لعل مصائر البشر الشرفاء تتحسن. خسارة أنني لم أقبل المنصب من أجل فينيكوس على الاقل. كان أمكن أن أعهد اليه بهذا العمل حين أكون

مشغولاً، وقد لا يعارض نيرون الأمر. وعندها كان فينيكوس سيسعى إلى تعليم عساكر الحرس الدين المسيحي، وقد يفلح في كسب ميول حتى نيرون نفسه نحو المسيحية. ما الضير في ذلك؟

ما الضير في أن يكون نيرون الرحيم، الفاضل، الرؤوف ! أي مشهد مسلٍ كان ليحصل

لم يحفل كثيراً بمتاعبه هذه، فابتسم. لكن سرعان ما تحول تفكيره إلى وجهة أخرى، وكان حديث بولس الترسوسي في الأنتيوم قد طرق سمعه من جديد :

" أنتم تسموننا أعداء الحياة، لكن قل لي، أنت بالذات يا بترونيوس، لو أن القيصر كان مسيحياً، ويمارس الحياة تبعاً لتعاليم ديننا، لن تغدو حياتكم أكثر طمأنينة وآماناً؟ "

وباسترجاعه هذه الكلمات، استرسل في التذکر

" بحق كاستور ! مهما يقتلوا من المسيحيين فباستطاعة بولس أن يجد الكثيرين غيرهم، لأنه ما دام العالم لا يستقيم على الشرور، فالرجل محق إذن... لكن من يدري إن كان لا يستقيم حقاً، في حين هو قائم على هذه الشرور؟

أنا، الذي تعلمت الكثير لم أتعلم كيف يمكن للمرء أن يوغل في الوضاعة، ولهذا فمن المرجح أنه سيرتب علي فيما بعد أن أشد قواي...

ولن أكون نادماً إلا على يونيكي وقدح المر، لكن يونيكي حرة، والقذح سيأتي معي، وصاحب اللحية الحمراء لن يستولي عليها.

وسأندم أيضاً على فينيكوس. وعلى أية حال أنا مستعد لكل شيء. صحيح أن في الحياة العديد من الامور الجميلة، لكن الغالبية العظمى من البشر هي من القذارة بحيث لا يجدر بنا أن نأسف على الحياة. من يجيد الحياة، يجيد الموت. صحيح أني من فئة الاوغستيان، لكني إنسان فيه من الحرية أكثر مما يظنون "

هز كتفيه.

" يظن أولئك أن فرائصي ترتعد، وأن شعر رأسي يحترق جزعاً، ولكني ما أن أبلغ المنزل حتى آخذ حماماً عطرياً، وبعدها تدلكني يونيكي بالزيت، ثم بعد أن نتناول طعامنا نسمع من انسموس بعض المقاطع من نشيد أبوللو. لقد قلت ذات يوم : ليس مجدياً التفكير بالموت، لأنه هو الذي يفكر بنا حتى دون الرجوع الينا. ثم اليس أمراً مثيراً للدهشة أن تكون هناك جنة بحدائق وارفة... وتأتي يونيكي لزيارتي هناك، وتتنزه معاً في الجنائن السندسية لا بدّ أني سألتقي هناك كثيراً من الأصحاب، وأتعرف بالكثيرين أكثر طيبة من كل هؤلاء. يالهؤلاء من رعاع ومهرجين، وأفظاظ، وأجلاف، وبلا ذائقة. عشرة من " ملوك الذوق " أمثالي ليس بمقدورهم أن يجعلوا من هؤلاء المسوخ أشخاصاً طبيعيين. يا برسافون !

كم أنا مغتاظ منهم ! لقد طفح الكيل !

شيء ما بات يفصله عن هؤلاء البشر. لقد عرفهم جيداً، وأدرك منذ زمن كيف يتعامل معهم وها هو ذا يرى أن المسافة التي تفصله عنهم صارت شاسعة، وأنهم بات يحترقهم أكثر من ذي قبل. حقا لقد طفح كيله معهم.

لكنه راح يفكر بالحالة الراهنة. أدرك بحدة البصيرة أن ليس ثمة من خطر مباشر يهدده. صحيح أنه تلفظ ببعض العبارات غير المناسبة أمام نيرون، لكنه سيتفهم أقرب الفرص للنطق ببعض الذرائع والشواهد التي تمجد الصداقة والتسامح. أما الآن وقبل كل شيء، فالقيصر يفكر بإقامة العاب السيرك مع المسيحيين، قبل أن يأتي الدور ليفكر بي. لذا فليس من المجدي أن أحفل به، وأن أغير من طريقة حياتي. الخطر الاكبر يواجه فينيكوس !

ومن الان فصاعدا سخر ذهنه للتفكير بفينيكوس، واتخذ قرارا بالهروغ إلى مساعدته.

أسرع الأرقاء يجتازون بهودجه المداخن، والتلال المترمدة، وحثهم على الاسراع أكثر فأكثر حتى باتوا يركضون ركضا للوصول إلى المنزل. كان منزل فينيكوس قد احترق، وصار يقيم الان عند بترونيوس. ولحسن الحظ كان في المنزل، فسأله لمجرد دخوله العتبة :

- هل التقيت اليوم ليفيا؟

- جئت من عندها.

- أصغ إذن لما أقوله لك، ولا تضيع الوقت بالأسئلة.

لقد اتخذوا قراراً عند القيصر، بأن يلبسوا المسيحيين تهمة إحراق روما. وهم الان يهددونهم بالملاحقة والتعذيب. وسيبدوون بتنفيذ خطتهم بأيّة لحظة. خذ ليفيا واهرب بها إلى ما بعد جبال الألب، أو إلى أفريقيا. لكن أسرع لأن البالاتينوس أقرب إلى الترانسبيريس منا.

كان فينيكوس جندياً بالدرجة الاولى، فلم يضع وقته بالاسئلة.



وكان شعوره الاول الدفاع عن النفس والرغبة في القتال حتى آخر رمق.

- أنا ذاهب.

- كلمة أخرى بعد : خذ معك كيسًا من الذهب، وسلاحًا، وبعض الأرقاء المسيحيين.

كان فينيكوس قد صار عند الباب، فصرخ بترونيوس به وهو يتعد :  
- أرسل وراء أحد الأرقاء.

حين ظل لوحده، راح يتمشى بين عمدان الأتريوم، منتظرا ما سيحدث. عرف أن ليفيا و لنيوس قد رجعا بعد الحريق إلى منزلهما القديم، ولكن ذلك معلومة غير محبذة، فلو بقيا بين جموع الناس لما خمن أحد مكان وجودهما. ولكنه أمل في أن لا يكون أي شخص في البالاتينوس قد شك على الفور في هذا المكان قبل أن يستبق فينيكوس وصول الحرس الامبراطوري إلى هناك. ولمع في ذهنه أن تيفالنيوس سوف يسعى جاهدا لاعتقال أكبر عدد ممكن من المسيحيين، وهذا يعني محاصرة روما بكاملها، الأمر الذي يستدعي توزيع الحرس الامبراطوري إلى مجموعات صغيرة حولها. فإذا أرسلوا من أجل الفتاة ما لا يزيد عن عشرة جنود فإن بمقدور أرسوس العملاق أن يقضي عليهم، فكيف إن كان فينيكوس قد انضم اليهم.

وفكر أيضاً أنه إذا ما استطاع فينيكوس أن ينجو بجلده من نقمة القيصر، فإن هذه النقمة ستتحول اليه، لكنه لم يكثر لهذا الأمر.

وبدخول يونيكي انبت شريط أفكاره، وتلاشى، لمراه الفتاة، ما أثقل

كاهله من أعباء وشجون. نسي القيصر وأذاه، والاوغستيان وملاحقة  
المسيحيين، وفينيكوس، وليفيا، ولم ير الا الفتاة بعين الناقد الجمالي  
الخبير، وبعين المحب الذي يغمره هذا المشهد بالمحب الدفاق. كان  
جسد الفتاة الوردي اللون يشف تحت رداؤها البنفسجي الشفاف،  
فبدت رائعة الجمال كالهة. شعرت أنها محط إعجاب الجميع ودهشتهم،  
ولكن بما أنها أحبت بترونيوس من أعماق روحها، وكانت في شوق  
دائم إلى ما يمنحها من دلال، فقد احمرت خجلا كأنها ليست عشيقة  
له، بل فتاة بمنتهى البراءة.

سألها بترونيوس باسطا ذراعيه نحوها :

- ما الجميل الذي جئتنا به يا كاريس؟

فأجابت مائلة برأسها الناعم نحوه :

- سيدي، ها هو ذا أنسميوس والمغنون، وهو يسأل إذا ما كانت  
لديك رغبة في سماعه؟

- دعيه يتريث. بعد الغداء سيغني لنا نشيد أبوللو. سوف نسمع  
نشيد أبوللو رغم الانقراض والرماد في كل مكان. كأني أراك في غابات  
باخوس حيث تُعبد أفروديت. لو كنت ترتدي ثياب كوفستيس لظننت  
أن أفروديت قد تبدت لي في السماء.

خجلت يونيكي قائلة :

- لا يا سيدي !

- تعالي يا يونيكي وعانقيني، وهاتي فمك، هل تحبينني؟

- لا أحب زيوس أكثر مما أحبك.

وارتعشت بين ذراعيه من فرط سعادتها صاهرة شفيتها بفمه.

لكن بترونيوس قال بعد هذا العناق :

- ماذا لو كان علينا الانفصال عن بعض؟

حدقت يونيكي في عينيه جزعة :

- كيف يا سيدي؟

- لا تجزعي! ... كما تعرفين، من يدري إن كان علي أن أذهب في

رحلة طويلة؟

- خذني معك؟

لكن بترونيوس سرعان ما بدل في مادة الحديث لها :

- قولي، هل رأيت في مرج الحديقة أزهار أسفو دلوس؟

- لقد ذبلت الصنوبرات والمرج بتأثير الحريق. وتساقطت أوراق

الاس، والحديقة كلها جنة ميتة

- روما كلها جثة هامدة. وقريبا ستتحول إلى مقبرة أتعلمين بأنهم

سيصدرون أمرا ضد المسيحيين، ويلاحقونهم. وعندها سينفى الاف،

والاف من البشر؟

- ولم يريدون الحاق التهم بهم، رغم أنهم بشر هادئون، وطيبون؟

- لأنهم كذلك.

- فلنذهب إذن إلى البحر، لأن عينيك الالهيتين لا تجبان أن تريا الدم.

- حسنا، لكن علي الان أن أستحم. تعالي إلى الحمام، وادهني ذراعي بحق الالهة ! لم آرك بمثل هذا الجمال من قبل. سأجلب لك مغطسا على هيئة محارة، لتكوني أنت اللؤلؤة في داخلها... تعالي يا يونيكي الذهبية الشعر.

وذهبا وبعد مضي ساعة من الزمن عادا، وعلى رأس كل منهما إكليل من الورد، وجلسا حول مائدة مليئة بالصحن المذهبة.

قدم الطعام شبان أنيقو الهندام، وسكب النبيذ من أباريق مغلقة بالمخمل، واستمعا إلى نشيد أبوللو من الفرقة الموسيقية بقيادة انسميوس، لم يكثرنا بالدخان والانقاض حول الفيلا، ولا بالرماد وشرر النيران التي تحملها الرياح قادمة من روما. لم يحفلا الا بالحب الذي حول حياتيهما إلى ما يشبه حلما الهيا.

لكن قبل أن يبلغ النشيد نهايته، جاء كبير الخدم، إلى القاعة، ليقول بصوت مرتعش :

- سيدي قائد مئة على راس فصيل من الحرس أمام المدخل يريد التحدث معك بأمر من القيصر توقف العزف والغناء، وعم الاضطراب الجميع، لأن القيصر في العادة، لا يلجأ إلى الحرس الامبراطوري في التعامل مع أصدقائه. توجس الجميع شرا. بترونيوس وحده لم يبد ملمحا من قلق، وأجاب بنبرة من يضجره الازعاج الدائم :

حبذا لو تدعني أكمل غدائي بهدوء.

ثم التفت إلى كبير الخدم قائلاً :

- أدخلهم

توارى الخادم وراء الستارة، وسرعان ما سمع وقع خطوات ثقيلة، ودخل إلى القاعة أحد معارف بترونيوس وهو قائد المئة أبر بلباسه المدرع والخوذة على رأسه.

بادر قائلاً :

- سيدي النبيل ! اليك برسالة من القيصر.

بسط بترونيوس كفه البيضاء بتكاسل، وتناول اللفائف، القى نظرة عليها وناولها ليونيكي قائلاً :

- في المساء سيغني أغنيات جديدة من نشيد طروادة يدعوني للذهاب اليه.

- مهمتي تقتصر على تسليمك الرسالة.

- حسناً. لا جواب. لكن استرح قليلاً أيها القائد، وتناول قدحا معنا.

- شكراً يا سيدي النبيل. بوسعي تناول قدح من النبيذ، لكنني لن أجلس لأني في مهمة.

- ولم كلفوك بالرسالة، ولم يرسلوها مع أحد الأرقاء؟

- لا أدري يا سيدي، لكن قد يكون لي مهمة أخرى علي أن أنجزها.

علق بترونيوس قائلاً :

- أعلم، ضد المسيحيين.

- أجل يا سيدي.

- هل باشروا بالملاحقة؟

- منذ الظهيرة أرسلوا بعض الفصائل إلى ترانسبيريس ارتشف جرعة من قدح النبيذ نخب مارس، ثم اجترعه بكامله قائلاً :

- لتحقق لك الالهة يا سيدي، ما أنت راغب فيه.

فشجعه بترونيوس مخاطباً إياه :

- أبق القدح لك.

وأشار إلى أنسميوس أن يكمل غناء نشيد أبوللو. قال في نفسه حين استأنفت الفرقة العزف :

" بدأ صاحب اللحيّة الحمراء يستفزني، أنا وفينيكوس. أخمن ما يرمي إليه ! أراد أن يفزعني فأرسل الرسالة مع قائد المئة. في المساء سوف يسألون قائد المئة عن الحالة التي استقبلت فيها القائد. لا، لا ! لن تكون مسرورا أيها المهرج الشرير الجائر. أعلم أنك لن تنسى أذاي، أعلم أنني لن أنجو، ولكن إن كنت تعتقد أنني سأتضرع اليك، وتقرأ على وجهي علائم التذلل والجزع فأنت مخطئ كثيرا "

قالت يونيكي :

- يكتب القيصر : " تعالا، إن كانت لديكما رغبة في ذلك ". هل ستذهب يا سيدي؟

- أنا في حالة من روعة المزاج تجعلني قادرا على سماع حتى أشعاره. سأذهب إذن، ما دام ليس بوسع فينيكوس الذهاب. وبعد الغداء والنزهة المعتادة ترك نفسه للنسوة الخادومات أن يعتنين بشعره، ثم لفتيات أخريات بالعناية بملابسه، ثم بعد ساعة من الزمن توجه إلى البالاتينوس بكامل أناقته. كان الوقت قد تقدم، فكان المساء حارا، والقمر شديد الاضاءة حتى لم يكن هنالك من حاجة للمشاعل أمام الهودج فأطفئوها. كانت الشوارع مملأى بالسكارى يتميلون جماعات بين الانقاض، حاملين أغصان الاس، والغار المقتطفة من الحدائق القيصريّة كان الناس سعداء وقلوبهم مغمورة بالفرح بسبب السخاء في توزيع القمح، وأملهم في إقامة العاب السيرك الموعودة.

كانت الاغاني تصدح في أماكن من المدينة تمجيدا للحب، وهذه " الليلة الالهية "، وفي أماكن أخرى كانوا يرقصون تحت ضوء القمر حتى اضطر الأرقاء أن يصيحوا في كثير من الأحيان : " أوسعوا الطريق لهودج بترونيوس النبيل "، وكانت حشود الناس تتنحى أمامه محيية " المحبوب " بصوت عال.

أما هو فكان يفكر بفينيكوس، مستغربا عدم ورود أي نبأ منه. كان شخصا أبيقوريا، وأنانيا، إلا أنه نتيجة لسماعه أحاديث بولس الترسوسي، وفينيكوس اليوميّة معه، قد اعتراه تغير نوعي دون أن يدري. صار يلتفت لأمر للآخرين، ولا يقتصر على الاهتمام لشؤونه الخاصة. أما فينيكوس فقد كان حالة خاصة بالنسبة اليه، فقد تعلق به على الدوام، وأحب أم الشاب، كأخت صغرى له حبا بالغا، ولكنه بعد أن عايش شؤون الفتى صار ينظر اليها نظرة مأساويّة.

كان يأمل بكل جوارحه أن يفلح فينيكوس في الوصول إلى ليفيا قبل جنود الحرس، ويهرب بها، أو في أسوأ الاحوال، أن يتمكن من تحريرها منهم ولو بالقوة.

بلوغه منزل تيريوس ترجل من الهودج، ودخل إلى الأتريوم، الذي كان مكتظا بالاوغستيان.. استغرب "أصدقاء الامس" أنه مدعو الان فانكمشوا عنه، لكنه انخرط بينهم بكل برود لا مباليا بأحد منهم، مبديا استعلاء وترفعا كأنه هو المتفضل الاول هنا، ولا أحد سواه. حين لاحظ البعض ذلك، ارتبكوا لأنهم لم يعلنوا قبل الان موقفهم الحيادي تجاهه.

أما القيصر فقد تصرف وكأنه لم يره بعد، حتى أنه لم يرد انحناءته، لأنه تصنع الانشغال بالحديث، وعلى النقيض من ذلك تقدم منه تيفالنيوس وخاطبه قائلاً :

- مساء الخير يا ملك الذوق ! أما زلت تزعم أن من أحرق روما ليس المسيحيون؟

هز بترونيوس كتفه ورد راغبا في إفحامه.

- لكنك تعلم جيدا، مثلي، كيف نتحفظ على هذه القضية.

- لا أجروا أن أقارن نفسي بما تتمتع به من حكمة.

- أنت محق في ذلك. وسيحصل العكس فيما لو قرأنا القيصر قصيدته الطروادية الجديدة. فبدلا من أن تختال كالطاووس قد نسمع منك رأيا سليما وحصينا.

عض تيفالنيوس شفته. لم يكن مسرورا لاعتزام القيصر اليوم قراءة



أغنية جديدة، لأنه سينقاد إلى منافسة خاسرة مع بترونيوس. وهذا ما حصل فعلاً، ففي أثناء قراءة نيرون قصيدته كان يتلفت بعينه إلى بترونيوس ليقرأ ما يرسم على وجهه من تعابير.

أما بترونيوس فكان يصغي مطبقاً جفونه، محنيا رأسه إعجاباً حيناً، مركزاً انتباهه ليسمع الكلمات جيداً أحياناً أخرى، مطرباً على بعض المقاطع، منتقداً بعضها الآخر، ناصحاً بتصحيح ما يتضمن هذا السطر أو ذاك من نشاز واضح. ولقد لاحظ نيرون من المبالغة في إطراء الآخرين أنهم يرومون منفعتهم الخاصة، ووحده بترونيوس من كان يهتم بالشعر، للشعر بذاته، ووحده من يفهم في هذه المسألة، وإذا ما أطرى على جانب، فهو يستحق ذلك الإطراء بالفعل. وشيئاً فشيئاً تطور الحديث، واشتد النقاش بينهما، وحين، آخر الأمر شكك بترونيوس في جودة أحد التعابير، رد نيرون قائلاً :

- سترى عند المقطع الأخير من القصيدة لم استخدمت هذا التعبير بالذات.

ففكر بترونيوس قائلاً في داخله :

- آه سأبلغ إذن المقطع الأخير

فيما خطر لكل من الحضور : " ويلي، إن كان بترونيوس قد كسب فرصة من الوقت، فمن المحتمل أن يفوز برأفة القيصر، وهذا قد يؤهله للفوز على تيفالنيوس.

وراحوا يتحلقون حوله. لكن نهاية الامسية كانت على درجة أقل من سعود الحظ، لأن القيصر ما إن قام بترونيوس بوداعه، وسأله بجهامة متوعدة :

- و فينيكوس لم لم يأت معك؟

لو كان بترونيوس يعلم أن فينيكوس و ليفيا قد تخطيا مدخل المدينة لكان جوابه بكل بساطة : " عفوك، لقد تزوج وسافر ". ولكنه لاحظ ابتسامة نيرون الغربية فقال :

- لم يكن في المنزل حين وصلت دعوتك، أيها القيصر الالهي .

فأجاب نيرون

- قل له أنني سأكون سعيدا لرؤيته، لكي لا يفوت عليه فرصة العاب السيرك التي يحييها المسيحيون .

أقلقت بترونيوس هذه العبارات، لأنه شعر أنها تمس ليفيا مباشرة. جلس في هودجه وأسرع نحو البيت. لكن إسرعه لم يكن سهلا لأن حشدا كبيرا قد تجمع أمام منزل تيريوس كانوا سكارى كما من قبل، لكنهم لم يكونوا يغنون أو يرقصون ولكنهم كانوا أقرب إلى الشجار. تناهى إلى سمع بترونيوس أصوات لم يفهمها من بعيد، لكنها اشتدت شيئا فشيئا باقترابه منها فكانت جارات وحشية تقول :

- اقدفوا بالمسيحيين للأسود .

تقدمت هودج الحاشية البلاطية الفخمة بين حشود الرعاع الصارخة. فيما كانت جموع أخرى تتدفق من أعماق الشوارع المحترقة، لتنضم إلى المحتشدين أمام المنزل، وينصهر الجميع في صرخة واحدة.

شاع على الالسنه نبأ يفيد بأن عملية ملاحقة المسيحيين تجري منذ

الظهيرة، وقد نجحوا بالقبض على بعض من متسببي حريق المدينة.  
وكانت الصرخات قد انتشرت في كل المدينة طولا وعرضا، لتشمل  
الشوارع، والازقة، والتلال، والحدائق :

- اقفوا بالمسيحيين أمام الاسود.

ردد بترونيوس باحتقار :

- رعاع ! الشعب على شاكلة قيصره.

وسرح يفكر بأن العالم القائم على العنف، والجور، وارتكاب  
الافعال الشريرة، لا يمكن أن يستمر طويلاً. روما سيدة العالم لكنها  
في الان نفسه، دملة العالم التي تفوح منها رائحة الجثث.. لقد خيم  
الموت بظلاله على فساد الحياة، وذلك غالباً ما كان يدور على السنة  
الاوغستيان، لكنها حقيقة ما كانت لتنجلي أمام عيني بترونيوس  
بمثل انجلائها الان، وإن العربة المكللة بأقواس النصر، وتقودها روما  
كمحارب عظيم، جارة وراءها الاقوام المكبلة بالسلاسل، إنما تعدو إلى  
حتفها. إن حياه هذه المدينة السيدة حياة مستهتره لاهية، ماجنة يمارسها  
على نحو وحشي مخابيل بلاطيون لا يراعون، هم الذين يدفعون بها  
إلى نهايتها المحتومة. صار مدركا الان أن للمسيحيين أسسا حياتية  
لكنهم لن يتمكنوا من الاستمرار.

فما الذي سيحصل إذن؟

إن مسيرة المهرجين الماجنة يقودها نيرون، فإن ذهب نيرون يأتي  
غيره، وقد يكون أسوأ منه لأن ما من سبب يدفع مثل هذا الشعب،  
أن يأتي بالافضل من بين حاشية كهذه. وهكذا تتو إلى طقوس الحياة  
العريضة، وعلى نحو أكثر قذارة، ووحشية.

لكن للعربة نهاية، ولا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية، فالمعربدون يحتاجون إلى النوم أيضاً بعد الانهاك الشديد.

حين فكر بذلك شعر أنه شديد التعب. هل من الجدير أن يعيش المرء، يا ترى، وفي خضم من الالتباس والشك، فقط ليشهد مثل هذا النظام للعالم؟ اليس للموت أيضاً روح حارسة بجناحين، وفيه من الجمال ما يشبه الحلم؟

توقف الهودج عند مدخل المنزل الذي قام بفتحه البواب اليقظ حالاً، فبادر بترونيوس إلى سؤاله :

- هل عاد فينيكوس النبيل؟

- لتوه يا سيدي

فكر بترونيوس : " فهو إذن لم يستطع تحريرها "

القى بردائه وأسرع نحو الأتريوم. كان فينيكوس جالساً على كرسي ذات أربع قوائم، محيناً رأسه حتى ركبتيه، عاقداً يديه فوق رأسه، فتنبه على وقع الخطوات، ورفع وجهها جهما برقت منه عينان قانطتان :

فسأله بترونيوس

- هل تأخرت في الوصول إليها؟

- أجل، لأنهم قبضوا عليها قبل الظهر.

ساد صمت لحظي

- هل رأيتها؟

- أجل

- أين هي

- في سجن مامر تينوس

ارتعش بترونيوس، ورنأ إلى فينيكوس بنظرة متسائلة، فهمها الشاب.

- لا. لم يدفعوا بها إلى توليانوم، ولا حتى إلى السجن الاوسط. لقد رشوت الحارس بأن يعطيها غرفته الخاصة. نام أرسوس على العتبة، حرصا عليها.

- وكيف لم يقم أرسوس بالدفاع عنها؟

- أرسلوا اليها خمسين جنديا. ولقد منعه لنيوس من المقاومة.

- وماذا حل بـ لنيوس؟

- على حافة الموت، ولذا لم يعتقلوه

- وماذا تنوي أن تفعله؟

- سأنقذها أو نموت معا. أنا أيضاً أو من بالمسيح.

كان فينيكوس ظاهريا يتكلم بهدوء، ورباطة جأش، لكن في نبرة صوته ما يمزق القلب، فاهتز بترونيوس إشفاقا، فقال :

- أفهمك. لكن كيف ستنقذها؟

- رشوت الحراس، ليجنبوها أولاً التعذيب والمعاملة الخشنة، ثم ليسه لواء عملية فرارها.

- ومتى ستفعل ذلك؟

- قالوا لي أنهم لا يستطيعون الان أن يطلقوها خوفاً من المسؤولية، لكن إذا ما امتلأت السجون، وصار من المتعذر تسجيل أسماء المعتقلين في اضابير، فسوف يطلقون سراحها. لكنها المرحلة الأخيرة. اسع أنت أولاً على إنقاذها.

إنك صديق القيصر، وهو الذي سمح بزواجي منها. أذهب إليه وأنقذها!

وبدلاً من الإجابة، استدعي بترونيوس خادماً، وطلب إحضار عباءتين، وسيفين، ثم التفت إلى فينيكوس قائلاً:

- في الطريق ستعرف. ارتد الان العباءة، واقبض على السلاح، ودعنا نذهب إلى السجن. ادفع للحراس مئة ألف سستيريوس بل ضعف ذلك، أو خمسة أضعافه، لكي يطلقوا ليفيا في الحال، والا فسوف نتأخر.

- هيا.

وخلال لحظة كانا في الشارع. فسأله بترونيوس:

- والان اسمعني، لم أكن أريد إضاعة الوقت. أنا فقدت حظوتي لدى القيصر، وصارت حياتي على شفاهاوية، فلا أستطيع توسل شفاعته القيصر. بل على العكس من ذلك، أنا على يقين أنه سيفعل نقيض ما

أطلبه. ولو لم يكن الأمر كذلك أظن أنني سأنصحك بالفرار بليفيا، والعمل على تحريرها بالقوة؟ لا سيما وأن القيصر، بعد فرارك أنت، سيتوجه بغضبه نحوي. اسع الان إلى تحريرها. وإن لم تنجح الخطة، فسترى ماذا سنفعل. لكن تذكر أنهم لم يعتقلوا ليفيا لأنها مسيحية. فالذي يلاحقها ويلاحقك هو غضب بوبيا. تذكر ما سببت لها من تجريح، حين رفضتها. هي تدري أنك فعلت ذلك لأجل ليفيا، التي كرهتها منذ اللحظة الاولى. خاصة وأنها ادعت أنها من سحر ابنتها وتسبب في موتها. والا ما الذي يفسر أن ليفيا كانت أول من اعتقلت؟ من الذي دل على منزل لنيوس؟ أزعم أنهم أطلقوا جواسيسهم منذ زمن لمعرفة ذلك. أعرف أنني أدمي روحك، وأطيح بما تبقى لك من آمال، لكن أقول ذلك، لأنك إن لم تتمكن من تحريرها قبل أن يعرفوا ما تنوي فعله، فإني سأفقد كليكما.

فأجاب فينيكوس بتبльд :

- حسنا. فهمت.

تأخر الوقت. كانت الشوارع خالية، لكن حديثهما أربكه مصارع ثمل يترنح سائرا في الاتجاه المعاكس. استند براحته على كتف بترونيوس، وصرح بصوت أجش لتملاً أنفاسه المخمورة الانوف :

- اقدفوا بالمسيحيين إلى أمام الاسود.

فقال له بترونيوس بهدوء :

- اخرس. الزم حدودك، وانصرف

أمسك السكير بيده الاخرى ذراع بترونيوس قائلاً :

- اصرخ معي، والا سأدق عنقك هاتوا المسيحيين إلى أمام الاسود

كان بترونيوس قد طفح به الكيل من سماعه هذه العبارة، وحين رأى قبضة العملاق فوق كتفه فرغ صبره تماماً، فقال :

- صديقي، رائحتك كريهة بسبب النبيذ، وإنك تقف في طريقي.

وامتشق سيفه القصير وطعن به صدر المجالد. ثم كأن شيئاً لم يكن، لف عنق فينيكوس وتابعا حديثهما.

- قال لي القيصر " قل لفينيكوس أن يأتي لحضور الالعب التي سيشيدها المسيحيون ". تفهم معنى ذلك، يريدون أن يتلذذوا بتعذيبك. إنها خطة مبيتة، جعلتهم لا يقومون باعتقالك، ولا باعتقالي. إن لم تفلح بتحريرها على الفور،... إذن... لا أدري... قد ترفع أكتي صوتها من أجلك، لكن هل يفيد ذلك في شيء؟ أملاكك في سيسيليا قد تغري تيفالنيوس حاول

- سأعطيه كل شيء

لم تكن كارينا بعيدة عن الفوروم، فسرعان ما وصلا. كان المساء قد حل، وجدران القلعة ارتسمت في غبش الفجر بكل وضوح وحين انعطفا نحو سجن مامر تينوس توقف بترونيوس فجأة وقال :

- جنود ! لقد تأخرنا.

حاصر السجن صفان من الجنود، كان خوداتهم تلمع مطلية بلون الفجر الفضي. وأضحى وجه فينيكوس أبيض كالرخام فقال :

- هيا بنا



وبعد لحظة كانا يقفان أمام صف الجنود. كان بترونيوس يتمتع  
بذاكرة حادة، فلم يقتصر معرفته على كبار الضباط، بل على كثير من  
الجنود كذلك، فعرف هناك أمر الكتيبة، فأشار له أن يأتي إليه وسأله :

- ما الذي يجري هنا أيها الزنجي؟ أنتم من يحرس السجن؟

- أجل يا سيدي النبيل، حرصا من القائد لكي لا يطلق سراح من  
أحرقوا المدينة.

فسأله فينيكوس :

- الديكم أوامر بعدم السماح بدخول أحد؟

- لا يا سيدي سوف يسمح بزيارة المساجين من قبل معارفهم،  
وهكذا نقبض على عدد أكبر من المسيحيين.

- أدخلني إذن

وهمس في أذن بترونيوس ضاغطا على يده :

- تحدث مع أكتي، وفيما بعد سأذهب وأسأل ما الذي قالته :

فأجابه بترونيوس

- تعال

وفي هذه اللحظة بدأ الغناء تحت الأرض، ومن خلف الجدران  
السميكة. بدأ اللحن خفيفا في البدايئة، ثم تع إلى متجاوزا خفته،  
لتنصهر أصوات الرجال، والنساء والأطفال إلى صوت فرقة كوراليّة  
واحدة. كان كل ما في السجن يصدح عند الفجر، دون أن تشوب

الاصوات مسحة من شكوى أو قنوط، بل كانت تتدفق مليئة بالسعادة  
والفخر.

حدق الجنود ببعضهم وقد أصابهم الدهول. في حين كان لون  
الشفق يملأ السماء والكون.

شيئاً فشيئاً تصاعدت في كل أنحاء روما صيحة " هاتوا بالمسيحيين إلى أمام الاسود ". في اللحظات الاولى لم يكن ليخالج أحدا الشك في أن أولئك هم الذين أحرقوا المدينة، لأن ما من أحد بينهم كان لديه الرغبة في أن ينخر الشك رأسه، فالتهمة بحد ذاتها، تعني مزيداً من الاستمتاع الشعبي، إضافة إلى قناعة الشعب، بأن غضب الالهة قد لعب دوراً كبيراً في إحداث الحريق، ولولاها لما حصل أصلاً، الأمر الذي دفع الجميع إلى تقديم القرابين في المعابد. مجلس الشيوخ نفسه، تماشياً مع نصيحة اسفار سيبيليا أقام الاحتفالات، والصلوات المفتوحة تبجيلاً لفولكانوس، و سيريس و بروسرينا. والنساء الماترونات قدمن القرابين للالهة يونو و سرن في موكب مهيب إلى شاطئ البحر، يغرفن من مائه لرشه على تمثال الالهة. والنسوة المتزوجات أقمن المآدب إكراماً للالهة، ونظمن السهرات. روما بأسرها هبت للتطهر من آثامها، فقدمت الاضاحي، وسارعت إلى استرضاء الخالدين. وفي الان نفسه في وسط الانقراض والرماد، كانت توضع المخططات لتنظيم الشوارع الجديدة العريضة. حتى أن أساسات بعض الابنية الفخمة، والقصور، والمعابد قد أقيمت هنا وهناك.

وقبل كل شيء، وبالسريعة القصوى، أنشئت المدرجات الخشبية العملاقة، و الميادين المستقبلية لتعذيب المسيحيين. وبعد المشاورات التي أجريت في منزل تيريووس عمد حالاً إلى إصدار الاوامر لاستجلاب

الوحوش. وقام تيفالنيوس بنهب مرابي كافة المدن الايطاليّة دون أن يستثني حتى صغريات المدن منها. وبأوامر منه نظمت فرق صيد ضخمة انتشرت في أفريقيا، وفرض على كافة السكان الاصليين المشاركة فيها.

واستجلبت من آسيا الفيلة، والنمور، ومن بلاد النيل أحصنة الماء، والتماسيح، ومن جبال الاطلس الاسود، ومن البلاد الايريّة الذئاب، والذبية، ومن إيرلاندا كلاب الدموم، وكلاب الصيد، ومن جرمانيا الجواميس الوحشيّة وثيران البيسون العملاقة. ونظرا لأعداد المعتقلين الهائلة، كان لا بد للالعاب المرتقبة أن تفوق بما لا يقاس كل ما سبقها من العاب سيرك، فقرر القيصر أن يخمد ذكرى الحريق بالدم، ويطفئ به ظمأ روما.

فلم يشهد الزمن إذن إراقة دماء أكثر هولاً من ذلك الان.

قام الشعب الهائج بمساعدة الحرس الامبراطوري، ورجال الأمن بالقبض على المسيحيين. لم يكن الأمر عسيرا، لأن مجموعات المسيحيين كانت تقيم بين جموع الشعب في الحدائق، ويجهرون علنا بدينهم. كانوا إذا ما أحاط بهم الجند لاعتقالهم، جثوارا كعين، وراحوا يتهلون مستسلمين للجنود دون مقاومة. كان صبرهم يفاقم عليهم نقمة الشعب الذي يجهل مصدر هذا الصبر، رأى فيه عنادا، وضلوعا في الذنب. فكان من الرعاع، مدفوعين بشدة الحقد، أن يقدموا على انتزاع المسيحيين من أيدي الجند، ويمزقوهم إربا.

النساء تجر من شعورهن إلى السجن، والأطفال تسحل رؤوسهم فوق الحجارة. الاف مؤلفة من البشر كانوا يصرخون في الشوارع

ليل نهار باحثين عن فرائسهم بين الانقاض والرماد، وفي المداخن والسراديب. وكانوا يتجمعون أمام السجون يؤدون شعائر الرقص الباخوسي متحلقين حول النار ودنان النيذ، ويصفون باستمتاع كل مساء إلى جئير الوحوش الهادر الذي ملأ صدها كافة أرجاء المدينة.

اكتظت السجون بالاف العبيد، وما انفك الرعاع والجنود يحضرون ضحاياهم الجديدة كل يوم. انتفت الرأفة، والناس كأنما قد تسوا الكلام، فلم يعد يجيء على سنتهم الا عبارة واحدة " القوا المسيحيين أمام الاسود " كانت أيام حاميّة، مرعبة غريبة، وليال خانقه لم تعهد من قبل.

كأن الهواء قد عقب بالعريضة والدم، والشر. امتزجت القسوة بالرغبة في إراقة الدماء، فأقدم أتباع المسيح تلقائياً إلى الموت، لا بل راحوا يبحثون عنه بأنفسهم، ما دام قادتهم لم يحرموه عليهم. صاروا يقتصرون على التجمع خارج المدينة في المغاور، والسراديب على طول فيا أبا، وشيوخهم في حقول الكرمة في أرياف المدينة. لم يقبض على أحد من القادة بعد. وصار معلوماً أن بومبونيا و فلافوس و دوميتيلا، فينيكوس من أتباع المسيح. أما القيصر الذي لم يثق بأن الرعاع سوف تنطلي عليهم الاشارة بأن المسيحيين هم من أحرقوا المدينة، كان يهمله الان إقناع الشعب بالدرجة الاولى، فقد أجل عقوبة أولئك إلى الايام القادمة. انتشر نبأ يقول بأن تدخل أكتي هو الذي أنقذ أولئك. ولقد تكشف خطأ هذا الرأي. فحين غادر بترونيوس فينيكوس، توجه من فوره إلى أكتي لتشفع في إنقاذ ليفيا فقابلت طلبه بالدموع.

لكنها زارت ليفيا في سجنها، وحملت لها الثياب، والطعام، وأوصت بعدم معاملتها بخشونة.

أما بترونيوس فلم يرغب عن باله أنه لولا تدخله السابق بشأن ليفيا، واقتراحه بإبعادها عن منزل أولوس، لما كانت الفتاة الآن في السجن. بعد مرور أيام كلم سينكا، وآفرديمتيوس وكريسبينيللا، ليصل إلى بوبيا عن طريقهم. ثم كلم كلا من تيربنوس وديودور وبيثاغوراس الجميلة، وباريس الذين لا يرفض لهم القيصر طلباً.

حتى أنه سعى لطلب العون من كريسوثميس عشيقه فاتينيوس الآن. وكان لا يتوانى في كل مرة عن عرض الاموال. والهبات من كل نوع.

لكن كل مساعيه باءت بالفشل. سينكا الذي كان يجهل حتى مصيره بالذات، راح يوضح له أنه حتى لو لم يكن المسيحيون هم الذين أقدموا على حرق روما، ينبغي القضاء عليهم، لأن مصلحة الدولة تقتضي ذلك. ديودورس و تيربنوس أخذوا المال دون أن يفعلوا شيئاً. فاتينيوس أخبر القيصر بأنهم حاولوا رشوته. وحده اليتوروس الذي كان عدواً للمسيحيين في البداية، لكنه أشفق عليهم الآن، وعد بأن يتشجع ويكلم القيصر بشأن الفتاة، لكنه لم يحقق شيئاً لأن القيصر أجابه على النحو التالي :

- أتظن أن لي نفساً أرخص من نفس بروتوس الذي لم يستثن حتى أبناءه فداءً لروما؟

وبسماع بترونيوس هذه الاجابة علق قائلاً :

- ما دام قد شبه نفسه بروتوس، فلا منجاة إذن.

لكنه أشفق على فينيكوس، وخشي أن يدفع بحياته من أجل الفتاة. قال في نفسه " سيحاول إنقاذها بكل الوسائل، وعندما يخبو كل أمل لديه، سوف يلجأ إلى طعنها بسيفه "

كان بترونيوس يدرك أن بوسع المرء أن ينهي حياته، مثلما بوسعه أن يحب أحداً.

في أثناء ذلك فعل فينيكوس كل ما بوسعه لإنقاذ ليفيا، فقصد هو الآخر الاوغستيان، وتوسل اليهم واحداً بعد آخر. فعرض على تيفالنيوس عن طريق فيتاليوس كل أملاكه في سيسيليا، وكل شيء يريد. لكن تيفالنيوس لم يشأ أن يسجل على نفسه واحدة أمام فيتاليوس فرفض العرض. وأن يذهب إلى القيصر ويركع أمام قدميه متضرعاً، كان أمراً لا فائدة فيه.

ومع ذلك كان سيقدم عليه لولا أن سأله بترونيوس :

- وما الذي ستفعله إذا ما رفض، أو هزأ منك، أو لجأ إلى تهديدك بحقارة؟

ارتسمت على وجه فينيكوس ملامح غضب متوجع، وسمع صرير أسنانه.

أردف بترونيوس قائلاً :

- لا أنصحك بذلك. عليك أن تنسى كل محاولة لإنقاذها. لكن فينيكوس كبح جماح نفسه، ومسح عرقه البارد عن جبينه وقال :

- لا ! لا ! أنا مسيحي !

- تجنب ذلك. لك الحق أن تغامر بنفسك، لكن بها لا. لا تنسى ما الذي حصل لابنة سيانوس قبل أن تموت.

لم يكن كلامه صادقا كل الصدق، لأن فينيكوس أهم عنده من

ليفيا. لكنه أدرك أن لا شيء يمكن أن يردعه عن القيام بهذه المغامرة،  
الا بإظهار مدى خطورتها على حياة ليفيا. وكان محقا في ذلك، لأن  
ظهور فينيكوس في البالاتينوس كان منتظرا من قبل الجميع هناك، وقد  
اتخذت كافة الاجراءات لاعتقاله.

لكن أوجاع فينيكوس قد تخطت كل حد يتحمله إنسان. فمنذ  
أن أودعت ليفيا السجن، وصارت حياتها مهددة، تضاعف حبه  
لها، وأحاطها في نفسه، باحترام ديني حقيقي، كمخلوق من خارج  
الأرض.

والان، حين خطر له أنه إذا ما افتقد هذا المخلوق القدسي، المعبود،  
وأن ليفيا، قد تتعرض لأنواع العذاب، الاقصى من الموت، تجمد الدم  
في عروقه، وتفجعت روحه، واضطربت أحاسيسه. أحيانا كان يشعر  
بأن ناراً حية تملأ جمجمته، وتلهب رأسه. لم يعد يفهم ما الذي يحصل،  
لم يفهم كيف أن المسيح، الاله الرحوم، لا يأتي لمساعدته، وكيف لا  
تقوض جدران البالاتينوس وتمسح عن وجه الأرض، ومعها نيرون،  
والاوغستيان، والحرس الامبراطوري، والمدينة الشريرة بكل ما فيها.  
وشعر أن كل ما يجري محض أحلام. لكن جئير الوحوش في الميادين  
يقول إنها حقيقة يعززها صراخ الشعب، وامتلاء السجون.

تزعزع إيمانه بالمسيح، وكان شعورا أوقعه في أوجاع وعذابات أكثر  
قسوة.

في أثناء ذلك كرر بترونيوس ما قاله :

- لا تنس ما الذي حصل لابنة سيانوس قبل أن تموت.



أفلست كافة مساعيه. بلغ به الأمر أن يتنازل بطلب المساعدة حتى من معاتيق بوبيا والقيصر وأرقائهم، ودفع لهم الكثير لقاء وعودهم الفارغة، وغمرهم بهباته السخيّة، مقابل الفوز بمساعيهم الطيبة. واتصل بزوج أوغستا الاول روفينوس كريسبنوس، ووعدته بتقديم قصره في الأنتيوم هديّة لابنه البكر من بوبيا، فانزع منه رسالة موجهة إلى القيصر لكنها فاقمت من غضب نيرون لشدة كرهه لابن زوجته. فأرسل رسالة نقلها فارس خاص إلى هيسبانيا حيث يقيم أوتو الزوج الثاني لبوبيا، ووعدته بكل ما يملك من ثروة، وحتى بالتضحية بنفسه، إلى أن اكتشف أخيراً أن الجميع يتلاعبون به. ولو أنه ادعى أن اعتقال ليفيا لا يهمله كثيراً، لكان تمكن من تحريرها بسهولة أكبر.

وتنبه إلى الأمر بترونيوس أيضاً. لكن الايام كانت تمضي يوماً وراء يوم في أثناء ذلك. كانت المدرجات الخشبيّة قد أقيمت، ووزعت بطاقات الدخول إلى عروض ما قبل الظهر. لكن هذه الالعاب " الصباحيّة " بالنظر إلى الاعداد الهائلة للضحايا، كان يمكن أن تدوم لأيام، وأسابيع، وربما لأشهر. ضاقت السجون والاماكن بالمسيحيين، فلم يعرف أين يحشرونهم. عمت الحمى بين المعتقلين، وكثر الاموات فسارعوا إلى دفنهم في مقابر جماعيّة خشبيّة أن تعم الاوبئة أنحاء المدينة.

طارت الانباء وقرعت سمع فينيكوس، فأطفت كل جذوة من أمل في نفسه. فات الاوان، وبدأت العاب السيرك، ولم يعد بالامكان متابعة

مصير ليفيا الا في الذهاب إلى الميدان، بصرف النظر عن المكان والزمان اللذين سيحددان مصير الفتاة. دار فينيكوس على كافة الميادين، وأخذ يرشو الحراس، وسائسي الوحوش الذين ما كان بوسعهم الا أن يرفضوا طلباته التعجيزية. فقاده تفكيره إلى التنازل عن مثل هذه الطلبات المستحيلة، وتأمين ميتة أهون للفتاة. لكنه ما إن تمعن في الأمر، حتى أحس بجمرة من نار تلهب دماغه.

لم يرغب في التخلي عنها، فعقد العزم على الموت سويا معها. كان يشعر أن ما به من وجع سوف يتلف حياته، قبل أن يبلغ تلك اللحظة المصيرية. لم يعد لديه من حيلة. فصلى للمسيح آخر رجاء له. لن تنجو ليفيا الا بمعجزة، فراح يصلي لحصول تلك المعجزة، وهو يضرب رأسه ببلاط الأرضية.

لكنه كان يملك بقية من وعي مكنته أن يرى أن صلاة بطرس أهم من صلاته. بطرس هو من وعده بأن ليفيا له. بطرس هو من عمده. بطرس هو من فعل المعجزات، فليهرع إذن لنجدته.

مضت ليلة حتى عثر عليه. إنه المسيحي الوحيد المتبقي، فكان عليه إذن أن يبحث عنه بسرية فائقة، كي لا يفضح مكانه. ذهب إلى فوسور الذي قاده إلى خارج المدينة، حتى وصلا إلى حقل كرمة. كان أول ما طرق سمع فينيكوس صلوات متوجعة حزينة تمزق القلب: "رحماك يا مسيحننا"

كان بطرس هناك يتقدم المصلين، راكعا أمام صليب خشبي معلق على جدار الكوخ. عرفه فينيكوس من بعيد من شعره الناصع البياض، فرفع له يده. أول ما دار في ذهن الشاب أن يخترق الاتباع، ويركع أمام الحواربي، صارخا:

ساعدني. وردد بتهيبة عميقة، ابتهالة المصلين " رحماك يا مسيحا  
". لكن صرخة امرأة بتت الابتهاال. فنهض فينيكوس محمداً أمامه. كان  
الكوخ منارا بضوء فضي، فشاهد دموع المصلين تنهمر من عيونهم  
الرائية إلى الصليب، وسمعت صرخات أخرى هنا وهناك، أما في  
الخارج فقد سمع صفير من يقوم بمهمة الحراسة. فنهض بطرس واقفاً،  
والتفت نحو المصلين قائلاً:

- يا ابنائي، توجهوا بقلوبكم إلى المخلص، وامنحوه دموعكم. ثم  
صمت.

وبغته علا صوت نسائي مشحون باللوعة والالم :

- أنا أرمل، وفقدت ابني الوحيد، أعده الي يا سيدي !

وخيم سكون لحظي كان بطرس الواقف قبالة الجمع الراكع، تجسيدا  
للوهن الانساني بما هو عليه من شيخوخة، وعدم قدرة على التحمل.  
تعالت شكوى أخرى :

- الجلادون الحقوا العار بيناتي، والمسيح احتمل ذلك !

وشكوى ثالثة :

- بقيت وحيدة مع أطفالتي، فإن وضعوني على المخلعة، من الذي  
يطعمهم ويسقيهم؟

وشكوى رابعة:

- لقد أخذوا لينوس ووضعوه على المخلعة !

وشكوى خامسة :

- إن عدنا إلى بيوتنا، قبض علينا الجنود. لا ندري أين سنختبئ.

- ويلنا ! من سيحمينا؟

وهكذا تعالت الشكوى إثر الاخرى في سكون الليل. أطبق الصياد العجوز عينيه ، شامخاً برأسه فوق الخوف والوجع الانساني. ساد صمت آخر، وسمع صفير الحراس الخفيف وراء الكوخ.

هم فينيكوس مجدداً للوصول عبر الجموع إلى الحواريّ، وطلب المساعدة. لكنه عجز عن الكلام، وكأن الأرض قد انشقت أمامه، فانعقد لسانه ولم يستطع الحراك. ما الذي سيحصل لو اعترف الحواريّ بعجزه وأقر بأن سلطان القيصر أعظم من سلطان عيسى الناصريّ؟ فانتصب شعر رأسه للفكرة، وشعر أن الذي سيهوي في الشق الأرضي المائل أمامه، ليس أمله الاخير المتبقي فحسب، بل هو نفسه، ومعه ليفيا، وحبه للمسيح وإيمانه به، وكل مبرر له في الحياة، ولن يبقى الا الموت، والظلمة اللانهائيّة.

لكن بطرس في هذه الاثناء قد انبرى يتحدث. بدأ حديثه بصوت منخفض حتى تعذر سماعه:

- ابنائي ! لقد رأيتهم وهم يصلبون السيد المسيح. سمعت طرقات المطرقة، ورأيت كيف رفعوا الصليب لكي يشهد جموع الناس موت ابن الانسان.

" ورأيت كيف طعنوا خاصرته، وكيف مات. وحين غادرت الصليب عائداً إلى البيت، شكوت من شدة المي مثلكم الان " ويلي،

ويلي، يا سيدي، أنت اله ! كيف تحمل هذا، وكيف مت، وأحزنت  
قلوبنا نحن الذين آمنا أن ملكوتك آت لا محاله؟"

أما سيدنا، وملكنا، فقام في اليوم الثالث من موته، وسكن  
بيننا، قبل أن يصعد ممجدا إلى ملكوته "

أما نحن، المدركين إحباطنا وانهزامنا، فقد شددنا على قلوبنا،  
وقوينا عزائمنا، وصرنا منذ تلك اللحظة أتباعا له .

ثم التفت ناحية صدور الشكوى الاولى، وبدأ الان يتحدث  
بصوت عال:

- لم تشكون؟ إذا كان الرب نفسه قد سلم نفسه للعذاب والموت .  
آه، يا ضعيفي الايمان ! لم تفهموا إذن تعاليمه؟ هل وعدكم بهذه  
الحياة؟ ها هو يأتي اليكم ويخاطبكم قائلاً " تعالوا الي جميعا "  
يريد أن يرفعكم اليه، وأنتم تتشبثون بالأرض بأياديكم، وتصرخون "  
سيدي أنقذنا " أنا، الذي لست سوى ذرة من الغبار أمام السيد، أقف  
أمامكم وأخاطبكم كوريث له في الأرض: " ليس الموت ما ينتظركم،  
بل الحياة، ليس العذاب، بل المسرة المطلقة، ليس الدموع والتنهيدات،  
بل الغناء والافراح، ليست العبودية، بل السيادة الملكية ! أنا حوارى  
الرب، أقول لك أيتها الارمل : ولدك لا يموت، لكنه يولد في مجد الحياة  
الابدية، وأنت تتحدين معه ! وأنت أيها الاب الذي أهان الجلادون  
بناتك، أعدك بأنك سلتقاهن، وهن أكثر بياضا من الزنابق.

أما أنتن، أيتها الامهات اللواتي أبعدين عن ابنائكن وفقدتن  
أزواجكن، أنتن اللواتي تشكين أنكن ستشهدن موت أحبائكن، أنتن  
المسكينات الواهيات، الجزعات اللواتي عليكن أن تمتن باسم المسيح

فأقول لكن : لقد استيقظتن من الحلم وصرتن في صحوة السعادة، وانتقلتن من الليل إلى فجر السيد المسيح. لتسقط عن أعينكن، باسم المسيح، الغشاوة، ولتضطرم قلوبكن لها.

ورفع يده كأنما يعطي أمرا لهؤلاء الذين راحوا يشعرون بأن طاقة جديدة بدأت تسري في عروقهم، وتخلصهم من الوهن والعجز، مانحة أوصالهم قوة عملاقة انتشلت نفوسهم من الغبار والالم.

وردت وراءه بعض الاصوات :

- آمين !

اثلقت عينا الحواريّ، وشعت منهما القوة التسيحيّة، والقداسة. انحنت أمامه الرؤوس، وحين نظقت الافواه " آمين " استأنف يقول :

- ازرعوا دامعين فتحصدوا مبتهجين ! لم خوفكم من قوة الشر؟ السيد المسيح يسطر سلطانه ويسود على الأرض، وعلى روما وعلى أسوار المدن، ويسكن في قلوبكم. الحجارة سترطب بالدموع، والجبين سيتعفر بالدم، والحفر ستمتلئ بموتاكم، لكنني أوكد لكم أنكم الفائزون. سيأتي السيد ليكتسح مدينة الشر، والجور والازدراء، وأنتم فيالقه وجنوده، ولأنه هو من خلص العالم بالامه ودمه، إنما يريد منكم أن تسهموا بالامكم ودمائكم في تخليص هذه المدينة الفاجرة... وإنه يوصيكم بهذا على لساني !

ومد ذراعه ناظرا في العلاء، فتوقفت قلوب أولئك ظنا منهم أن الحواريّ قد رأى شيئا، لا يتاح لعيونهم أن تراه. ولقد تغير وجه بطرس حقا، فشح فيه الضياء، وظل لفترة صامتا، وكأنه بات أبكم من شدة ابتهاجه، لكنه سرعان ما استأنف حديثه قائلاً :

- أنت هنا يا سيدي، وتدلني على دروبك! ... كيف يا سيدي المسيح؟ ... إذن ليس في أورشليم، بل ستقيم عرشك في مدينة الشيطان هذه؟ هنا من الدموع والدم تريد أن تقيم كنيستك؟ هنا حيث ما زال يحكم نيرون، فلينشأ ملكوتك إلى أبد الأبدين؟ أجل، يا سيدي! إنك تأمر هؤلاء المروعين بأن يؤسسوا بعظامهم مبدأ جديدا يقوم عليه العالم، ويحكم الناس على الأرض؟ وها أنت تمنح الضعفاء قوتك، ليقووا، ويشتد بأسهم، وتأمر بأن أرعى قطيعك حتى نهاية الأزمنة... بوركت أحكامك، يا من تدعوننا إلى النصر. المجد لله! المجد لله.

المروعون نهضوا، والذين مستهم الحيرة، امتلأت قلوبهم بدفقة جديدة من الايمان، وعلت صيحة واحدة " المجد لله! " وعاضدتها صيحة أخرى " المجد للمسيح! ". وحل الصمت على إثر ذلك، وكانت البروق قد أضاءت داخل الكوخ، والوجوه التي كستها الحماسة بالشحوب.

واصل بطرس صلاته طويلاً مستغرقاً في رؤياه، حتى رجع أخيراً إلى وعيه، واستدار بوجهه الملهم المشع نحو الجمع، وقال:

- والان، وقد قهر السيد ما في نفوسكم من حيرة وقنوط، وغادر، فاسعوا إلى التغلب على بأسكم، باسمه.

ورغم أنه أيقن أنهم قد استجابوا وتجاوزوا حالة اليأس والتردد، وأدرك ما تفضي اليه دموعهم، وما يغلي في عروقهم من دماء، فقد ارتعش صوته من شدة الانفعال، حين ودعهم بإشارة الصليب قائلاً:

- والان أبارككم، يا ابنائي، على ما تعانونه من عذاب، وموت، حتى تحظوا بالحياة الأبدية.

لكنهم أحاطوه متضرعين : " نحن جاهزون الان، لكن احرص أنت على حياتك، لأنك الوريث الذي سلمه المسيح صولجان القيادة تشبثوا بثيابه، فيما راح يضع يده على رؤوسهم، وقام بوداعهم واحدا واحدا كأب يغادر ابناءه في رحلة بعيدة.

بدووا يخرجون من الكوخ، مسرعين إلى منازلهم، لكي يغادروها من هناك إلى السجن، ثم إلى الميادين. انقطع تفكيرهم بالأرض، وحلقت أرواحهم متجهة نحو الحقيقة الابدية، فساروا مبتهجين حاملين، لكي يواجهوا بكل ما يملكونه من قوة بطش " الوحش " وجوره.

أما الحواريّ فقد أحاط به خادمه نيريوس، وقاده عبر مسلك خفي في الكروم، متجها به إلى المنزل. وتبعهما فينيكوس حتى وصلا إلى كوخ نيريوس، وهناك القى بنفسه بين قدميه. عرفه بطرس فسأله :

- ما الذي تريده يا بني؟

لكن فينيكوس بعد كل الذي سمعه في الكوخ قبل قليل، لم يجرؤ على الكلام، واكتفى بأن ضغط بجبينه على قدميه، متوسلا منه الرأفة، بصمت.

لكن بطرس قال له :

- أعرف أنهم خطفوا منك الفتاة التي تحبها. صل لأجلها. فتمتم فينيكوس ضاغطا بقوة أشد على قدم الحواريّ :

- سيدي !، سيدي أنا مجرد دودة بائسة، أما أنت فقد عرفت المسيح، فتضرع أنت اليه، وكل مه بشأنها.



كان من وجعه، يرتعش كورقة شجرة، ضاربا الأرض بجبينه، لأنه يدرك مدى القوة التي يتمتع بها الحواريّ، فلا أحد سواه يستطيع أن يعيد إليه ليفيا.

لامس هذا الالم مشاعر بطرس. تذكر توسلات ليفيا عند قدميه طلبا للرفقة، بعدما تلقت تعنيفا شديدا من قبل كريسبوس، وتذكر كيف أنهضها، وهدأ من روعها، وواساها.

فما كان منه الا ان أنهض فينيكوس مواسيا

- بني ! سأصلي أنا لأجلها، لكن لا تنس ما قلته لأولئك الحائرين كيف أن المسيح نفسه قد عانى الموت فوق الصليب، ولا تنس أنه بعد هذه الحياة الفانيّة على الأرض ستأتي الحياة الابديّة.

فأجاب فينيكوس، وهو يجهد متلقفا جرعة من هواء :

- أعلم ! لكن، كما ترى يا سيدي، لا أحتمل ! إن كان لا بد من التضحيّة بالدم، فاطلب من المسيح أن يأخذ حياتي أنا... أنا جندي. فليضاعف علي العذاب الذي ستلقاه ليفيا، مرتين، وثلاثا، سأحتمله، لكن فلينقذها !

فهي ما زالت طفلة يا سيدي. والسيد أقوى من القيصر، أقوى من القيصر يا سيدي ! حتى أنت أحببتها، وباركتنا. إنها طفلة بريئة !

وانحنى مجدّداً، ملصقا وجهه بركبتي الحواريّ، وكرر قائلاً :

- أنت عرفت المسيح، يا سيدي، أنت عرفتته. سوف يصغي اليك ! كل مه من أجلها

أغمض بطرس عينيه، وبدأ يصلي بضراعة.

البروق الصيفيّة أضاءت السماء من جديد. ولمح فينيكوس على ضوئها شفّتي الحواريّ، مترقباً نتيجة الحكم هناك. الحياة أو الموت. حتى بادر الحواريّ فينيكوس بالسؤال :

- فينيكوس، أنت مؤمن؟

- وهل كنت سأجئ حتى هنا لو لم أكن كذلك؟

- إثبت على إيمانك حتى النهاية، فالإيمان يهد الجبال. حتى لو رأيت الفتاة تحت سياط الجلاد، أو بين أنياب الاسد، فاثبت على إيمانك بأن المسيح سوف يحررها. كن مؤمناً، وصل لأجلها، وسأصلي معك.

فرفع رأسه نحو السماء وقال بصوت مرتفع :

- يا سيدي المسيح، يا رؤوف، الطف بقلبي المعذب، وداوه بالعزاء، سيدي الرحوم، هدي من شدة العاصفة لتناسب قوة صوف الحمل الصغير ! يا سيدي الرحوم، الذي طلبت من أبيك أن يبعد عنك ذلك القدر المر، أبعد الان عن شفّتي خادمك هذا. آمين !

وبسط فينيكوس يديه نحو النجوم وأضاف قائلاً :

- آه يا مسيحي، أنالك، فاقبلني عوضاً عنها.

وانشق الفجر في قاع السماء الشرقي.

بعد أن ودع فينيكوس الحواريّ، قصد السجن بقلب مفعم بآمال جديدة، كان جانب ما في قاع روحه ينتحب قنوطا وجزعا، لكنه كتم في نفسه مثل هذه الاصوات. كان موقنا أن من المستحيل الا يسفر تدخل وريث الله على الأرض، لما لصلاته من عظمة وسلطان، عن نتيجة. وكان شديد الحرص على التثبيت بالامل، والنأي عن الشكوك. "سائق برحمته حتى لو رأيتها بين فكي الاسد" ارتعشت روحه، للفكرة التي ملأته بالايمان، فابتردت قطرات العرق فوق جبينه.

بات قلبه الان ينبض بالصلاة. وبدأ يلمس أن الايمان يهد الجبال حقا، بعدئذ شملته قوة غريبة شدت من أزره، وقوت من عزيمته، كمال لم يحصل معه من قبل. شعر أنه يستطيع، بهذه القوة، أن ينجز أمورا لم يكن ليجرؤ البارحة على القيام بها.

انتفى شعوره المنغص بأن ثمة خطبا يوشك على الحدوث.

وكان كلما تصاعد في روحه نحيب القنوط، والجزع، مر أمام عينيه وجه الحواريّ المرفوع نحو السماء وهو يصلي. يقول لنفسه: "لا! لن يرفض المسيح دعاء أول تلاميذه، وراعي قطيعه! المسيح لن يرفض. ولذلك فلن أدع أنا مجالا في نفسي للشك"

وأسرع إلى السجن، كمن يحمل نبأ سعيدا.

لكنه فوجيء هناك بما لم يكن ينتظر.

كان كل أفراد الحرس يعرفونه، لكنهم لم يفتحوا سلسلة الحاجز أمامه.

- عفوا أيها القائد النبيل، لكننا تلقينا أمرا بعدم السماح لأحد بالدخول اليوم.

فردد فينيكوس بشحوب

- أمرا؟

فرمقه الجندي بأسف وأجاب

- أجل يا سيدي، أمر من القيصر. السجن مليء بالمرضى، وهم يخافون من انتقال العدوى إلى الزوار، ومن خلالهم إلى المدينة بأسرها.

- لكنك قلت أن الأمر صالح لهذا اليوم فقط.

- سنبدل الحرس عند الظهر.

سكت فينيكوس، وأنزل الخوذة عن رأسه، لشعوره الآن بأنها مسبوكة من الرصاص.

تقدم منه الجندي، وكلمه بصوت خفيض :

- اطمئن يا سيدي، إنها في حماية الحراس، وأرسوس.

وامتشق سيفه الغالي الطويل، وبطرفه عين رسم سمكة فوق البلاط.

رقمه فينيكوس بحدّة :

- هل أنت من الحرس الامبراطوري؟

- إلى أن أصل إلى هناك

وأشار بيده نحو السجن.

- أنا أيضاً أعبد المسيح.

- تمجّد اسمه ! أعلم يا سيدي. لا أستطيع إدخالك إلى السجن،  
ولكن إن تكتب رسالة سأوصلها إلى الحراس.

- شكراً يا أخي.

وانصرف الجندي ضاغظاً قبضته.

كانت شمس الصباح قد علت جدران السجن، وكما كان ضوءها  
يشتد، كانت آمال فينيكوس تتعاضم. هذا الجندي المسيحي، بالنسبة  
اليه برهانا آخر على عظمة المسيح. توقف متوجهاً بوجهه نحو الغيوم  
الوردية المعلقة فوق معبد جوبيتر وقال :

- لم أرها اليوم يا سيدي، لكنني أومن برأفتك.

كان بانتظاره في المنزل، بترونيوس، الذي كعادته قد " حول الليل  
إلى نهار " وعاد لتوه، واستحم، وعطر جسمه بالزيت، فبادرة قائلاً.

- لدي أبناء جديدة لك. كنت عند توليوس، وكان هناك القيصر.  
لا أدري كيف خطر للأوغستا أن تجلب معها روفوس الصغيرة. لعلها  
أرادت أن تلين بجمالها قلب القيصر. لكن الطفلة، للأسف، غلبها

النوم في أثناء قراءه الشعر، كما حصل مرة لغاسبسيانوس. حين لاحظ القيصر ذلك رماها بالقدح، والحق بها جرحا بليغا، أغمي إثرها على بوبيا، وسمع الجميع القيصر وهو يصرخ " طفح بي الكيل من ابنة الزانية هذه " وأنت تعلم أن هذا يكافئ الموت.

فأجابه فينيكوس قائلاً :

هذه عاقبتها أنزلت عليها من عند الله. لكن لماذا تقول لي ذلك؟

لأن نقمة بوبيا السبب في ملاحقتك مع ليفيا. والآن وقد حصل لها ما حصل، فقد تكف عن نقيمتها. سنلتقي مساء اليوم، وسأكملها.

- شكرا. هذا نبأ سار.

- استحم، واسترح. شفتاك زرقاوان، وكأنك لست أنت، بل ظلك.

لكن فينيكوس سأله :

- بعد عشرة أيام. سيدؤون من سجون أخرى. كلما كان لدينا متسع من الوقت، أفضل لنا. لم نفقد كل شيء بعد. لكن بترونيوس نفسه لم يكن واثقا فيما نطق به، فهو يدرك جيدا أنه ما دام القيصر قد واجه طلب اليتوروس برده المفحم مشبها نفسه بروتوس، فلا منجاة لليفا إذن. ولقد سمع عن طريق سينييسيو أن القيصر، وتيفالنيوس قد عزموا على انتقاء أجمل العذراوات المسيحيات لهما ولأصدقائهما، وليفتض وهن قبل الدفع بهن إلى التعذيب والموت، أما البقية فيسلمونهن للجنود والوحوش في يوم الالعب.

كان يعرف أن فينيكوس لا يرغب في الحياة بعد ليفيا، فتعمد بث

روح الامل في قلب الشاب لسبيين اثنين اولهما لأنه يشفق عليه،  
وثانيهما لأن من المهم له كمشتغل بالجمال، أن يموت فينيكوس مية  
شاب جميل، لا بوجه كدر معذب.

- هذا ما سأقوله فيما بعد للأوغستا على وجه التقريب : " أنقذي  
ليفيا وسأنقذ لك روفينوس " سأفكر بهذا الحل فعلا. لأن عبارة واحدة  
في لحظة مناسبة لدى القيصر قد تنقذ أحدا، أو تؤدي بحياته وفي أسوأ  
الاحوال لكسب الوقت.

- شكرا.

- ستشكرني إن أكلت، وخلدت إلى النوم. " أوديسيوس " في أشد  
حالات الخطر، لم يحجم عن الطعام والنوم. لا بد أنك قد أمضيت  
ليلتك ساهرا في السجن.

- لا. الان حتى نويت الذهاب إلى السجن، لكن الاوامر تمنعهم من  
إدخال أحد. جبذا لو تعرف إذا ما كانت هذه الاوامر سارية على هذا  
اليوم فقط، أم حتى البدء باللعب.

- سأعرف ذلك هذه الليلة، وسأخبرك به صباحا. أما الان فسأذهب  
إلى النوم، حتى لو نزل هيلينوس بلوعته إلى العالم السفلي، فافعل مثلي.

انفصلا، لكن فينيكوس توجه إلى المكتبة، وكتب رسالة لليفيا. حين  
انتهى منها، أخذها بنفسه وسلمها للجندي المسيحي، الذي أوصلها  
بدوره إلى السجن، وعاد من هناك حاملا من ليفيا تحياتها، ووعده أن  
يحمل اليه الرد من الفتاة قبل مضي هذا اليوم.

لكن فينيكوس لم يشأ العودة إلى البيت، بل جلس هنالك على

حجر منتظرا الرد. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء. بدأت أصوات الباعة تروج لبضائعها، والمنجمون يقدمون خدماتهم للمارة، والمواطنون يحثون الخطا للوصول إلى الساحة لسماع الخطباء، أو لتناقل ما استجد من أنباء. لكن حين اشتدت حرارة الشمس، انسحبت العناكب إلى داخل الكنيسة، وخرجت الحمام طائرة منها، لترفرف في ضوء الشمس بأجنحتها البيضاء تحت قبة السماء الزرقاء.

شعر فينيكوس بالنعاس. فكانت رتابة خطا الجنود وما يملأ الجو من أصوات هنا وهناك قد جعلته يکبو، لكنه كان يرفع رأسه بين الفينة والفينة، فيلتفت برأسه نحو السجن، ثم يعود ويوكنها حافة الصخرة، ويطلق شهقة عميقة أشبه بطفل نائم بعد بكاء طويل.

وسرعان ما تلاحقت أحلامه. حلم بأنه يأخذ ليفيا بين ذراعيه ويمضي بها عبر حقل كرمة، وقد تقدمته بومبونيا غراسينا تضيء دربهما بشعلة في يدها. ثم سمع صوتا قادما من البعيد يهتف له " استدر ! " لعله كان صوت بترونيوس.

لكنه لم يأبه للنداء، وتابع سيره إثر بومبونيا، حتى بلغ كوخا توسطه الحواريّ بطرس : قدم له ليفيا قائلاً : " لقد جئنا من الميدان يا سيدي، لكنني لا أجرؤ على إيقاظها، فأيقظها أنت "، فقال له بطرس : " سيأتي المسيح بنفسه ليوقظها "

واختلطت الصور أمامه. رأى في حلمه نيرون و بوبيا وقد احتضنت روفوس الصغير يمسه د بترونيوس جبينه. ورأى تيفالنيوس وهو يرش الرماد فوق المائدة العارمة بالاطعمة الفاخرة التي كان يلتهمها فيتليوس، وحوله العديد من الاوغستيان. كان هو من بينهم إلى جانب ليفيا، لكن أسودا كانت تتمشى مدماة الانياب بين الموائد. طلبت منه ليفيا



أن يقودها إلى الخارج، لكنه عجز عن الحركة. ثم تشعبت أحلامه، واستحالت صورها إلى فوضى وطلاسم حتى أعتمت تماماً.

لم يفتق من نومه إلا بعد اشتداد حرارة الشمس، وسماعه أصواتا من أمكنة مجاورة. فرك عينيه. كانت جموع من الشعب تحتشد في الشارع، وقد راح خيالان يفرقانها بقضيين قصبيين طويلين، ليفسحا الطريق أمام هودج فاخر، قام بحمله أربعة من العبيد المصريين الضخام.

جلس في الهودج رجل بملابس بيضاء، تعذر رؤية وجهه، لوجود لفافة أمام عينيه كان يقروها باستغراق.

- أوسعوا الطريق أمام الاوغستيان النبيل صاح الخيالان.

كان الشارع مكتظا بالناس، فاضطر الهودج على التوقف لحظة. أزاح الاوغستيان اللفافة بفراغ صبر، وأخرج رأسه صائحا:

- فرقوا هؤلاء المتسكعين! هيا!

لكنه لمح فينيكوس وهو يرجع برأسه إلى الداخل، فوضع اللفافة أمام عينيه.

مسح فينيكوس جبينه وقد ظن أنه ما زال في حلم.

كان شيلون في الهودج

في أثناء ذلك كان الخيالان قد نجحا في إفساح الطريق، فاستأنف المصريون سيرهم. فهم الشباب النبيل أمورا كثيرة لم يكن يفهمها، فتقدم من النقالة، محيا

- لك التحيّة، يا شيلون !

فأجاب شيلون بكل جدارة وافتخار، وبوجه هادئ مطمئن :

- لك التحيّة ! أيها الشاب ! لا تمهلني لأنني في عجل من أمري إلى صديقي تيفالنيوس

أمسك فينيكوس بحافة الهودج ومال إلى داخلها ليقول :

- أنت من وشى بليفيا !

فصاح شيلون جزعا :

- أيتها الالهة !

لكن سحنة فينيكوس لم تكن تعبر عن تهديد، فسرعان ما استرجع شيلون هدوءه، بعد أن تذكر أنه في حماية تيفالنيوس لا بل في حماية القيصر الذي يرتعد أمامه الجميع.

لا سيما وأن مرافقيه رجال أشداء أمام فينيكوس الاعزل المعذب الوجه، المثقل بالالام. قوت هذه الفكرة من عزيمته، فحدق في فينيكوس بنظرة لثيمة، ووشوسه قائلاً :

- أما أنت فقد جلدتني حين كدت أموت جوعاً.

هنا صمت الاثنان للحظة، حتى بادر فينيكوس إلى الكلام بصوت أجش :

- لقد أذيتك يا شيلون...

رفع الإغريقي رأسه، وراح يفرقع بأصابعه، وهذا في روما دلالة  
على الازدراء والاحتقار وقال بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع :

- إن كنت تريد مني شيئاً، يا صديقي فاقصدني صباحاً إلى منزلي في  
اسكويينوس لأنني أستقبل ضيوفي بعد حمامي الصباحي.

وأشار للعبيد المصريين أن يتابعوا المسير، فراح الخيالان يفرقان  
الجموع صائحين :

أوسعوا الطريق لهودج شيلون شيلونيدس النبيل.

أوسعوها، أوسعوها !

سارعت ليفيا إلى كتابة تودع فيها فينيكوس إلى الابد. كانت تدرك أن لا أحد بمقدوره أن يدخل إلى السجن، وأن فينيكوس ليس بوسعه أن يراها الا في الميدان. رجته أن يكون في الميدان حين يأتيها الدور لأنها راغبة في رؤيته مرة أخيرة في حياتها. لم يكن في رسالتها أثر للخوف. كتبت أنها والاخرين في شوق شديد للميادين، لأنهم، عندئذ، يتحررون من السجن، وأملت أن يأتي كل من بومبونيا و أولوس إلى روما، ليحضروا الالعاب. كانت كل كلمة في الرسالة تعبيرا عن اللهفة والهيام والانقطاع التام عن الحياة، وعلى هذا المنوال أمضوا جميعهم فترة الاعتقال في السجون، وأن جميع آمالهم سوف تتحقق بعد الموت.

" إن كان الان، أو بعد موتي، المسيح سوف يحررني، وهو الذي وعدك بي عن طريق بطرس، فأنا لك إذن ". وتوسلت إلى فينيكوس الا يشفق عليها، والا يدع الالام تقوى عليه.

قرأ الرسالة بقلب مدمى، ولم يصدق أن ليفيا ستمزقها الوحوش، دون أن يرأف بها المسيح فملأه هذا الشعور بالامل والثقة. ذهب إلى البيت، بعد أن كتب لها أنه سينتظرها كل يوم عند جدران التليانوم، حتى يأتي المسيح، ويحطم هذه الجدران ويعيدها اليه. وجعلها تؤمن بأن المسيح سيرجعها اليه حتى لو وصلت إلى السيرك، وأن الحواريّ الكبير سيتضرع من أجل ذلك، وأن لحظة الخلاص قريبة لا محالة.

ووعده الجندي أنه سيسلمها الرسالة في اليوم التالي. لكنه حين عاد إلى السجن في اليوم التالي، أسرع إليه الجندي خارجا من صفه ليقول له :

- اسمعني يا سيدي ! المسيح الذي سعى إلى خدمتك، أشار اليك برأفته. مساء اليوم أتى معاتيق القيصر، وتيفالنيوس لينتقوا العذراوات المسيحيات اللواتي سيلحقون بهن العار، وكانت محبوبتك من بينهن، لكن السيد المسيح ابتلاها بالحمى فظلت تهذي طوال الليل. تبارك اسم المسيح، فالمرض الذي أنقذها من وصمة العار، يمكن أن ينقذها من الموت كذلك.

تشبث فينيكوس بكتف الجندي لكي لا يقع أرضا، فيما استأنف ذلك يقول :

- اشكر ما خصك به المسيح من رأفة. لقد قيدوا لينوس وأجلسوه على المخلعة، وحين شوهد يحتضر أعادوه. قد يعيدونها اليك مثله، والمسيح يتكفل بمعافاتها، ظل الشاب مطرقا هناك لبعض الوقت، ثم رفع رأسه وقال بصوت خفيض :

- حسنا أيها الجندي، المسيح الذي أنقذها من العار، سينقذها من الموت.

وبعد أن أمضى كل وقته حتى المساء جالسا عند الجدار، توجه إلى البيت، ليرسل أحدهم من أجل لينوس وينقله إلى أحد فيلاته في طرف المدينة.

أما بترونيوس الذي حصل ل معلومات عن كل شيء قرر أن يتابع مساعيه. كان قد قصد الاوغستا من قبل، وقصدها الان مرة أخرى،

فوجدتها عند سرير روفوس. كانت الطفلة المفجوعة تهذي من الحمى، تحت عناية الام.

كانت منشغلة بوجهها الخاص، فلم ترغب في سماع أي شيء، لا عن فينيكوس، ولا عن ليفيا لكن بترونيوس أوقع الهلع في نفسها حين قال لها

- أنت تغضبين الالهة الجديدة المجهولة. إنك على الأرجح وأنت أوغستية تعبدين يهوه العبري، والمسيحيون يزعمون أن المسيح ابنه. فكري جيدا ما إذا كان غضب الاله يلاحقك. من يدري، لعل كل ما جرى لك نتيجة لنقمته، وأن حياة روفوس متوقفه على سلوكك.

فسالته بوبيا جزعة :

- ما الذي سأفعله؟ وما الذي تريده مني؟

- تراضي مع الالهة التي أغضبتها.

- كيف؟

- ليفيا مريضة، اطلبي من القيصر أو تيفالنيوس أن يأمر بإخراجها من السجن، وتسليمها لفينيكوس.

فسالته المرأة وقد تملكته الحيرة.

- أتظن أن بوسعي فعل ذلك؟

- لكن بوسعك فعل شيء آخر. ما إن تشفى ليفيا حتى تقاد إلى الموت. فاذهبي إلى معبد فيستا، واطلبي من راعية المعبد فيرغو ماغنا

أن تكون قرب التوليانوم على سبيل المصادفة، حين يقودون العبيد إلى الموت، وتأمروهم أن يطلقوا سراح الفتاة، العذراء فيستا لن ترفض لك هذه الرغبة.

- وماذا لو ماتت ليفيا نتيجة مرضها؟

- يقول المسيحيون أن المسيح نزاع إلى الانتقام لكنه عادل : يمكن لك أن ترضيه لمجرد نواياك

- ليقدم دليلا على أنه سيشفى روفوس

هز بترونيوس كتفيه وقال :

- أنا لست من أتباعه، لكنني أكتفي بالقول، أيتها الاوغستا الالهية، بأنك حسنا تفعلين إذا ما كنت في سلام مع كل الالهة، الرومانية منها، وغير الرومانية.

فأعلنت بوبيا بصوت كسير :

- سأذهب.

تنفس بترونيوس الصعداء. " أخيرا توصلت إلى شيء "

و حين رجع إلى فينيكوس قال له :

- اطلب من ربك الالموت ليفيا تحت الأرض، لأنها إن شفيت، فالعذراء فيستا ستطلق سراحها. الاوغستا بالذات ستطلب منها ذلك.

فدهمه فينيكوس بفضاظة :

- المسيح من يطلق سراحها.

أما بوبيا التي كانت على استعداد أن تضحي بكل شيء من أجل إنقاذ روفوس، فقد ذهبت إلى الفوروم قاصدة عذراء فيستا، وأوكلت المربية الوفية سيلفيا بالعناية بروفيوس.

ولكنهم في البالاتينوس كانوا قد اتخذوا قرارهم بشأن الطفلة. فما إن تواري هودج زوجة القيصر بعد خروجها من الباب الكبير، حتى دخل معتوقا القيصر غرفة روفوس، فسارع أحدهما إلى سيلفيا، فكم فاهما، فيما تناول الاخر تمثالا برونزيا، وأخرسها بضربة واحدة منه. ثم تقدما نحو روفوس التي تبسمت لهما دون دراية منها لما يحصل. فأخذا طوق المربية ولفاه حول عنق الطفلة التي لم يتسن لها أن تصرخ الا صرخة واحدة: "أماه"

ثم كانت النهاية: لُفت الفتاة بغطاء، وحملت فوق حصان كان بانتظارها، وأخذت إلى أوستيا حيث القيت جثتها الصغيرة في البحر.

لم تجد بوبيا كبيرة العذراوات هناك، لأنها كانت برفقة عذراوات فيستا كلهن عند فاتينوس، فرجعت مسرعة إلى البالاتينوس. وما إن رأت السرير فارغا، وجسد سيلفيا البارد، حتى أغمي عليها. وحين أعيدت إلى وعيها، بدأت عويلها المخبول. استمر صراخها الوحشي طوال الليل، ولم ينقطع طوال اليوم التالي.

أما في اليوم الثالث، فقد دعاها القيصر إلى المأدبة، فالبسها، والحال هذه، رداءها الارجواني، فجاءت صامتا بشعر أشقر، ووجه مربد، لكنها جلست هناك بكل الوعيد كملاك الموت.



قبل أن يبني الكولوسيوم، في روما تم بناء المدرجات في غالبية موادها من الخشب، فالتهمت نيران الحريق القسم الاعظم منها. والان ولكي يتمكن القيصر من إقامة العاب السيرك الموعودة، فقد أمر ببناء بضعة مدرجات، كان أحدها بمقاييس عملاقة جيء بأخشابه عبر نهر التيبر من اقتطاع الاشجار العملاقة على منحدرات جبال أطلس. وبما أن هذه الالعاب أريد لها أن تفوق كل ما سبقها من حيث الضخامة، فقد أنشئت أمكنة كبيرة للوحوش وحشود المتفرجين من البشر. الاف مؤلفة من مهرة البنائين عملت ليل نهار لتنجز هذه الصروح العملاقة المزخرفة.

تناقلت السنة الناس العجائب عن المتاريس، والحواجز البرونزية، والعاجية، والمرجانية، وعرائش اللباب التي زينت بها السقوف والشرفات. ونقل المياه الباردة عبر الاقنية المنتشرة على طول صفوف أماكن الجلوس لكي تبرد هواء السيرك حتى في اشد درجات الجو حرارة. وعلقت المظلات العريضة لتقي الجماهير من أشعة الشمس. ووضعت بين صفوف الكراسي مباخر تنشر أبخرة العطور العربية. وعلقت في الاعلى رذاذات الماء لترطيب الجو فوق الرؤوس. ودفع المعمارين الشهيرين سيفيروس و سيلير بكل ما لديهما من مواهب معمارية، لإقامة مدرجات لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

وهكذا في يوم الافتتاح، بدأت أفواج الحضور بالزحف والانتظار

أمام المداخل، مصغيه باستمتاع إلى زئير الاسود، وجئير الوحوش، ونباح الكلاب. مضى يومان دون أن يقوموا بإطعام الوحوش، في وقت كانوا يعرضون عليها من بعيد قطع اللحم الداميّة، ليفاقموا من جوعها وغضبها. عند طلوع الشمس صدح في باحة السيرك صوت غناء عال، لكنه هادئ.

كان الشعب يسمعه مندهشا. "المسيحيون! المسيحيون!" وحقيقة، كانوا قد بدؤوا يقودونهم خلال الليل، بمجموعات كبيرة إلى المدرجات. كانوا يأتون بقليل منهم من كل سجن، ولا يفرغون كل سجن على حدة، كما كانت الخطة. أدرك الجمهور أن الفرجة ستدوم أسابيع، بل أشهر، وكانوا يتناقشون ما إذا كان بالامكان القضاء في هذا اليوم على كل هذا الحشد من المسيحيين.

كان مئات من الرجال والنساء والأطفال ينشدون هذا الغناء الصباحي. كان بعض الناس من العارفين يشكون في مقدرة الوحوش على تمزيق هذا العدد الكبير من الضحايا، والتهامهم في يوم واحد، الأمر الذي يقلل من استمتاع المتفرجين. وكلما اقترب موعد الافتتاح، كان حماس الحاضرين يتعاظم، ونقاشهم حول هذا الأمر يشتد. كان يرى البعض أن الاسود أكثر مهارة من النمر على تمزيق البشر، والبعض الاخر كان يرى المهارة في النمر وتحدث البعض عن المجالدين الذين كان عليهم دخول السيرك قبل المسيحيين.

ولكي لا يرهقوا أنفسهم دخل بعضهم بلا درع، وبعضهم الاخر كان عاريا، أو بيده غصن أخضر، أو حول جبينه إكليل من الازهار. كانوا ينبضون بالحياة، ويأتلق جمالهم الفتى تحت أشعة الفجر. كانت أجسادهم الضخمة المدهونة بالزيت تلمع، وكأنها نحتت من الرخام،

فأثارت الاعجاب في نفوس من يعرف الاستمتاع بجمال العضلات.

كان كثير منهم معروفا على المستوى الشخصي، فكانت الهتافات تتع إلى هنا وهناك منادية بأسمائهم: "حرصا يا فورنيوس! مرحبا يا ليو! مرحبا يا مكسيموس! مرحبا يا ديوميدس! الفتيات كن يرمقنهم بنظرات عاشقة، وهم كانوا ينتقون أحلاهن ويمزحون معهن دون أن يبدو عليهم أثر للتوتر، ويلقون عليهن القبلات أو يقولون لهن "عانقيني قبل أن يعانقني الموت!" ثم تواروا خلف باب المدخل. وشد انتباه الناس موكب آخر وآخر. بعد المجالدين مر السائطون الذين يجلدون بسياطهم من يحاول المقاومة.

ومرت بعدهم عربات تشدها بغال اتجهت صوب السبولاريوم حاملة توأبيت من خشب، جن جنون الشعب لهذا المشهد، لأن أعداد التوأبيت توحى بمقدار هائل من الفرجة والاثارة.

ثم جاء الدور لمرور الذين ينفذون "طعنة الرحمة" للجرحي.

وهؤلاء جميعا يرتدون زي مركوريوس أو شارون. تبعهم رجال الحفاظ على النظام الذين يشرفون على أماكن الجلوس، وبعدهم العبيد المسؤولون عن توزيع الاطعمة والمشروبات المنعشة، وأخيرا عناصر الحرس الامبراطوري جنود القياصرة أجمعين.

وأخيرا فتحت الابواب، ودخلت الجموع إلى المدرجات. كانوا من الكثرة بحيث ظلوا على مدى ساعات يتدفقون إلى الداخل حتى كان من الغريب كيف يتسع المدرج لمثل هذه الاعداد المذهلة. شعرت الوحوش برائحة البشر، فتعاضم جئرها. كان الناس يتدفقون لاحتلال أماكنهم، أشبه بأمواج البحر العاصف.

وفي النهاية وصل قائد الحرس محاطاً بمرافقته، تتبعه سلسلة طويلة لا تنتهي من السيناتورات، والقنصلين، والحكام، والموظفين، والحاشية القيصريّة، وكبار ضباط الحرس، والمحامين، والسيدات من الطبقة الاولى في هوادجهن.

ولكن كهنة المعابد تأخروا قليلاً عن المجيء، وجروا وراءهم عذراوات فيستا اللواتي تقدمهن الذين يفسحون أمامهن الطريق. لم يشأ نيرون أن يجعل الشعب ينتظر كثيراً، بل حرص على دقة الموعد، وفق ميوله، فسرعان ما ظهر برفقة الاوغستا والاوغستيان.

كان بترونيوس بين الاوغستيان، و إلى جانبه فينيكوس في الهودج. لم يكن الشاب على دراية ما إذا كانت ليفيا المريضة من بين ضحايا هذا اليوم. يمكن أن يدفع بها أمام الاسود وهي مريضة، وحتى لو كانت غائبة عن الوعي. لكن بما أن الضحايا قد البست جلود حيوانات ودفع بها مجموعات إلى الميدان، فلم يكن بالامكان التعرف على أحد.

كان جميع الحراس، وخدم المدرجات قد قبلوا الرشوة، واتفق مع حراس الوحوش لإخفاء ليفيا في ركن منعزل من المدرج، إلى حين تسلمها ليلاً لأحد ثقات فينيكوس من الاجراء، للرحيل بها إلى جبال الالب. وكان بترونيوس على علم بالخطة. نصح فينيكوس بأن يرافقه علناً إلى المدرج، وهنالك عند المدخل يتسلل في الزحام إلى قمرات الاعتقال، ليدل الحراس على شخصيّة ليفيا خشية حصول التباس.

أدخله الحراس عبر الباب المخصص لدخولهم، فقاده أحد الحراس المسيحيين، واسمه سيروس، حالاً إلى المسيحيين، قائلاً له خلال الطريق:

- لا أدري يا سيدي إن كنت سترى من تبحث عنها. لقد سالنا عن ليفيا بالاسم، لكن أحدا لم يعطنا جوابا. لعلهم لم يثقوا بنا.

- وهل هم أكثر؟

- ومن بقي إلى الغد أكثر أيضاً.

- وهل بينهم مرضى؟

- ليس بينهم من لا يقوى على الوقوف على قدميه.

فتح باب، وأم اغرفة عاتمة لا ينيها الا ضوء تسلل خلال شق يقود إلى الميدان. لم يلمح فينيكوس شيئاً في البداية، لكنه سمع همسا في الغرفة، إضافة إلى ضجيج الشعب الاتي من المدرج. وحين تأقلمت عيناه مع الظلمة، رأى كائنات غريبة تشبه الدب، والنمور.

كانوا مسيحيين ضمن جلود حيوانية. كان البعض واقفا، والبعض الآخر راكعا يصلي. وكان بينهم نساء عرفن من شعورهن الطويلة المنسدلة خارج الجلود. الذين سئلوا عن ليفيا نظروا اليه وكأنهم قد أفاقوا من حلم، ولم يجيبوا عن سؤاله. البعض تبسم واضعا أصابعه على فمه، وأشار نحو الشق الذي ينسرب منه الضوء.

وخدمهم الأطفال كانوا يكون خوفا من جئير الوحوش، ونباح الكلاب، وضجيج الشعب، وأشكال أهاليهم الشبيهة بالحيوانات. راح فينيكوس، وهو يسير برفقة الحارس سيروس يتملى في وجوه المعتقلين، بحث، وسال، متعثرا أحيانا ببعض من استلقى أرضا هنا وهناك، بعد أن أغمي عليه من شدة الزحام، والحرارة. حتى وصل إلى وسط الغرفة القائمة، التي بدت هائلة الحجم كالمدرج ذاته.

وفجأة توقف، لأنه سمع صوتا مالوفا قرب الشق. بعد تنصت قصير استدار، وتقدم عبر الحشد، توقف قرب مصدر الصوت. وعلى بصيص من ضوء ساقط على رأسه، عرفه فينيكوس من وجهه الصارم النحيل. إنه كريسبوس.

كان كريسبوس يقول

- اندموا على خطاياكم، فقد حان الوقت. لكن من يعتقد أنه سيكفر عن ذنوبه لمجرد موته، فهو يرتكب خطيئة أخرى، ومصيره جهنم. الموت سوف يلحق بالصادقين، والزائفين، لكن السيد المسيح هو من ينتقي أتباعه. ويلكم فالاسود سوف تمزق أجسادكم، دون أن تمزق خطاياكم، ونواياكم تجاه المسيح. لقد عبر السيد عن مدى رحمته حين سمح بشده على الصليب، لكنه بعد ذلك لن يكون الا حاكما لا يدع ذنبا دون حساب. فمن كان يعتقد أنه سيكفر عن ذنوبه بالعذاب، فهو إنما يشتم الاله العادل، وسينال ذنبا دون إضافيا. انتهى عهد الرأفة، وحن وقت غضب السيد.

لحظات، وتمثلون أمام عرش الحاكم العظيم، حيث لا يستقيم هناك حتى الفاضلون. اندموا على ذنوبكم لأن أبواب جهنم قد فتحت. ويلكم، أزواجاء، وزوجات، ويلكم، أهلا وابناء.

ورفع يده وهزها فوق الرؤوس المحنيّة. كان ما يزال رابط الجأش بعيدا عن الجزع في ظل الموت الذي ينتظر هؤلاء في آية لحظة. جاء الرد استجابة لما نطق به: "نحن نادمون على ذنوبنا". ثم عم الصمت، الا بكاء الأطفال. تجمد الدم في عروق فينيكوس. لقد علق آماله كلها على رأفة المسيح، وها هو الان يسمع منه أن يوم الغضب آت، دون أثر

لتضرع في مواجهة الموت. خطر له أن بطرس لو كان في هذا المكان لتكلم عن الموت على نحو آخر. لكن حديث كريسبوس أوقع الجزع في نفسه. وكاد الهواء الرديء والحرارة تخنقانه، فتصبب العرق من جبينه، وتملكه الهلع خشية أن يغمى عليه كأولاء الملقين على الأرض. وحين دهمته فكرة أنهم في أية لحظة يفتحون باب الغرفة المفضي إلى الميدان، وجد نفسه يهتف باسم ليفيا و أرسوس، فقد يتلقى جوابا منهما، أو لعل أحدا ممن يعرفهما يرد على ندائه. ولقد تحقق ما كان يصبو إليه، فقد جاء الجواب من رجل يضع عليه جلد دب :

- لقد بقيا في السجن، يا سيدي، أنا كنت الاخير الذي اقتيد من هناك. وقد رأيت الفتاة مريضة في السرير.

- من أنت؟

- أنا من عمدة الحواريّ في منزلي، يا سيدي. قبضوا علي منذ ثلاثة أيام، وسأموت اليوم.

تنفس فينيكوس الصعداء. حين جاء إلى هنا، كان يأمل أن يعثر على ليفيا، لكنه الان ممتن إلى السيد المسيح أنها ليست هنا، وهذا دليل على رحمة المخلص.

في أثناء ذلك كلمه الرجل ثانية :

- أتذكر يا سيدي أنني من قادمك إلى كرم كوتيلبوس حيث قام الحواريّ بتعليمك؟

- أذكر.

- لقد رأيته قبل يوم من قدومي إلى هنا. باركني، وقال أنه سيأتي إلى المدرج ليودعنا. كم أنا راغب في مشاهدته في لحظة الموت، وهو يرسم الصليب، ليكون موتنا أرحم. فإن كنت تعرف يا سيدي، أين هو، أخبرني.

فأجابه هامسا :

- إنه بين رجال بترونيوس يرتدي زي العبيد. لا أدري أين اتخذوا أمكنة جلوسهم على المدرجات، لكنني سأعود إلى السيرك، والقى نظرة. حين تدخلون الميدان، أنظر نحوي، سأكون واقفا، ملتفتا برأسي نحو مكان وجودهم، وهكذا ستراه.

- شكرا يا سيدي، والسلام عليك.

- فليشملك المخلص برحمته.

- آمين.

خرج فينيكوس إلى المدرج، ليتخذ مكانه إلى جانب بترونيوس بين باقي الاوغستيان.

سأله بترونيوس :

- هل هي هنا؟

- لا. بقيت في السجن.

- اصغ الي جيدا! خطري خاطر. توجه بنظرك نحو نيجيديا ونحن نكلم بعضا، لكي تظن أننا نتحدث عن تسريحة شعرها... في هذه



اللحظة ينظر نحونا تيفالنيوس و شيلون... اسمعني : ليلا سيضعون ليفيا في تابوت ويخرجونها من السجن على أساس أنها ميتة. والباقي عليك...

- من سيفعل ذلك؟

لكن توليوس سينسيو أزعجها حيث مال نحوها يسال :

- أتدريان إن كانوا سيعطون المسيحيين أسلحة؟

فأجاب بترونيوس :

- لا ندري.

- الأفضل أن يعطوهم أسلحة والا سيكون الميدان بأسرع وقت مثل خشبة الجزار. ما أعظم هذا المدرج؟

كان المشهد مذهلا حقا. أمكنة الجلوس السفلي المكتظة ب الأردية كانت بيضاء كالثلج. وجلس القيصر على منصة بقلادة ماسية، وإكليل ذهبي على رأسه. و إلى جانبه الاوغستا الفاتنة، لكن الكئيبة. ثم، إلى كلا جانبيه، جلست عذراوات فيستا ثم كبار المسؤولين، والسيناتورات بعباءاتهم الزخرفية، وكبار القادة العسكريين بزيهم الفاخر، وكل من يتمتع بمكانة مرموقة نتيجة للثراء، والوجاهة.

وفي الصفوف التالية جلس الفرسان، ثم تلاهم في الصفوف الاعلى جمهور الشعب المائج، وفي أعلى المدرج علقت بين كل عمود وعمود حبال مشغولة من الورود والزنابق، والمخمل، والكرمة.

كانت أصوات الشعب صاخبة، تنادوا، وهتفوا البعض، وغنوا، وصدرت من بعضهم بين وقت وآخر تعليقات لاذعة تناقلوها من

لسان إلى لسان، ثم سرعان ما فرغ صبرهم، فقطقطقوا وهذروا مطالبين بالاسراع ببدء الالعاب.

وما لبث ضجيجهم بالمطالبة بالافتتاح، أن استحال ما يشبه الهدير. عندئذ شوهد قائد الحرس، يدور في الملعب، ملوحاً بمنديله إيذاناً بالبدء، فتعالت الاصوات "أوو، أوو، أوو" تطلقها الاف الحناجر.

بدأت الفرجة بملاحقة الوحوش، وقد قام بها برابرة جنوبيون، وشماليون من مختلف الانحاء. رافقها قتال المقنعين. وهو قتال يخوضه خصوم على رؤوسهم خوذة عمياء دون فتحات عيون. نزل إلى الملعب بضع مجموعات من المقاتلين الذين راحو يلوحون خبط عشواء بسيوفهم، فيما قام آخرون بدفعهم وتقريبهم من بعض برماح شوكة طويلة. لم يتحمس جمهور الاشراف لهذه اللعبة، وتابعوها بحيادية وازدراء.

أما عامة الشعب فقد أمتعتها هذه الحركات العشوائية للمتقاتلين بما إمتاع، وآثارها أيما إثارة. فإذا صادف وتصادم المقنعون بظهورهم علت قهقهات الجمهور وصيحاته :

"يميناً، يساراً، إلى الامام" وغالباً ما كانوا في الميدان يتعمدون تضليل المتحاربين عن المواجهة ونادراً ما كان يحصل اشتباك بين الخصوم، وعندئذ يتخذ القتال منحى دمويًا. منهم من وجدوا حلاً مناسباً، فالقوا ببلطاتهم وأمسكوا بعضاً، باليد اليسرى لكي لا يضلوا عن بعضهم، ويتابعوا القتال حتى الموت بسيوفهم باليد اليمنى : من وقع أرضاً رفع إصبعه في إشارة إلى طلب الرحمة. في العادة يطلب الشعب قتل الجريح، خاصة إذا كان مقنعا بخوذة، فلا يعرفونه. كانت أعداد المتحاربين تقل شيئاً فشيئاً حتى تبقى اثنان منهم في الميدان،

فدفعوا بهما حتى تواجهها بالجبين، فطعنا كل منهما الاخر. وتعالق الاصوات مرحة ومهللة. ثم أتى الخدم وغطوا الجثث، وجاء الغلمان ومسحوا آثار الدماء فوق الجباه، ثم غطوها بورق الزعفران.

جاء الان دور القتال والأكثر جديّة، الذي آثار حماس كل من الاشراف والعامّة. وكان من عادة الاشراف، عند مثل هذه المبارزات أن يراهنوا على مجالدهم المفضل بمبالغ ضخمة يصار إلى عرض قيمتها على العلن، مرفقة باسم المجالد، على لافتات تدور في الميدان.

كانت الرهانات، بالطبع، تنحصر بغالبيتها على أشهر المجالدين الذين حصدوا أكبر الانتصارات. لكن بعض اللاعبين وضعوا رهاناتهم على مجالدين جدد مجهولين، أملا في فوز يحقق أرباحا طائلة. راهن القيصر، والكهنة، وعذراوات فيستا، والسيناتورات، والفرسان، والشعب كذلك. وكانت العامّة إذا ما أفلست غالباً ما كانت تراهن بحريتها.

وبقلوب خفاقة وفراغ صبر، انتظر الجميع ظهور الاطراف المتصارعة.

حين صدحت الابواق بأصواتها الحادة، ساد في المدرج جو من الترقب المشدود. وتوجهت الاف العيون ناحية المغاليق الضخمة حيث تقدم في وسط الصمت السائد، رجل بزي شارون، وطرقها بمطرقة ثلاثا، كأنما بذلك يدعو من وراء الباب إلى الموت. وبعد قليل فتح الباب على مصراعيه، فتت إلى المجالدون يفدون إلى الميدان بمجموعات حسب الجنسيات، عدد كل مجموعة خمسة وعشرون مجالدا بسلاحه الثقيل. تلاهم الشب اكون، الذين يحملون بإحدى اليدين شبكة، ورمحا ثلاثي الرؤوس باليد الاخرى.

تعالى لمرآهم التصفيق، الذي سرعان ما استحال إلى عاصفة شديدة  
عمت أرجاء المدرج. التهبت الوجوه، وفغرت الافواه، وشفقت  
الايدي من أعلى صفوف المدرج حتى أسفلها، وسمعت هتافات متفرقة  
هنا وهناك، حتى امتلأ الميدان بالمجالدين الذين تقدموا بخطوات رتيبة  
مرنة، ومثلوا بكل هدوء وفخر أمام منصة القيصر.

صدح النفير فاسكت عاصفة التصفيق. وعندئذ رفع المجالدون  
أياديهم اليمنى، ملتفتين بروؤوسهم ووجوههم نحو القيصر، وصرخوا  
يغنون بأعلى ما لديهم من أصوات :

مرحبا أيها القيصر الحاكم

السائرون إلى الموت يحيونك.

ثم تفرقوا بسرعة، واتخذوا الاماكن العائدة لهم في الميدان. كان في  
العادة أن يقوموا بمهاجمة بعضهم جماعات، أما الان فقد سمح لهم أن  
يتقدم المبارزون المتميزون من بينهم، ليقدّموا في البداية بعض المبارزات  
الثنائية، كاستعراض للقوة يفرز أفضل المتبارين، من حيث البأس،  
والمهارة، والشجاعة. تقدم أولا من بين الغاليين المجالد هنتس الذي  
لمع اسمه بين أصدقاء السيرك لما حصد قبل الان من انتصارات. بدا  
بخوذته الضخمة، ودرعه الذي يغطي نصفه العلوي كحشرة مشعشة  
عملاقة فوق رمال الميدان الصفراء. وتقدم في المقابل الشباك كالينديو  
ليكون خصما مبارزاله.

وسرعان ما عكف الجمهور على المراهنة.

- خمسمائة سستريوس للغالي.

- خمسمائة لكاينديو .

- بحق هيركوليس، الفا.

- الفين

وببلوغ الغالي منتصف الميدان، شهر سيفه إلى الامام، ثم تراجع ثانية إلى الخلف، محنيا رأسه قليلا، ليرى خصمه من خلال شق الخوذة، بينما راح الشباك الرشيق المشوق العضلات، العاري الا من كساء حول الحوض، يلاحق بخفة خصمه المتناقل الحركة، ملوفا ببراعة بشبكتة، وقابضا على رمحه الثلاثي الرؤوس ينزله حيناً، ويرفعه حيناً، وهو يردّد أغنية الشباكين المعروفة :

لست أنت ما أبتغيه، بل سمكة، لماذا تهرب أيها الغالي؟

لكن الغالي لم يهرب، بل سرعان ما لزم مكاناً، منجزاً بعض الاستدارات الصغيرة حرصاً منه على أن يظل خصمه أمامه دائماً. كان الان مرعباً بهيئته ورأسه الضخمة. كان الجمهور على يقين من أن هذا الجسد المعدني الثقيل يتأهب للقفز، وأنه سيحسم المعركة.

في هذه الاثناء كان الشباك يقفز نحوه حيناً، وينفتل عائداً حيناً آخر، وهو يحرك رمحه حركات هي من السرعة والرشاقة بما يشق على البصر متابعتها.

صدم الرمح ترس الغالي مرات عدة دون أن ترحزه من مكانه قيد شعره، الأمر الذي يدل على مدى قوته. وكأنما كان يركز كل انتباهه على الشبكة. التي ترفرف فوق رأسه باستمرار، كطائر شوم. تابع الجمهور، بأنفاس مكتومة براعة المجالدين القتالية. حتى انتهز

هنتس لحظة سانحة فدهم خصمه مهاجما إياه بكل جسده، فيما انزلق كالينديو من تحت ذراع الخصم وسيفه، ثم استقام ورمى بشبكته.

دار الغالي في مكانه، وتلقى الشبكة بترسه، ثم قفز كلاهما متراجعين إلى الخلف، فصدح الهتاف في المدرج " حظا موفقا " فيما بدأت في الصفوف السفلى رهانات جديدة. حتى الان كان القيصر يتحدث مع عذراء فيستا روبريا، ولم يبد أكثر اثاما لما يجري، لكنه الان التفت نحو الميدان.

أعاد المجالدين الكرة بالمهاجمة، وكان قتالا بارعا متقن الحركات، وكأنه قتال استعراضى وليس قتال حياة أو موت. استطاع هنتس أن يتجنب الشبكة مرتين، ثم تراجع لينتحي طرف الميدان، الأمر الذي جعل المراهنين عليه يهتفون " اهجم ! " طاعهم الغالي وهاجم خصمه. سال الدم من الذراع التي تحمل الشبكة فانسدلت إلى الاسفل.

فاستجمع هنتس قواه، وقفز قفزة كبيرة بغية تحقيق الطعنة الساحقة. لكن كالينديو كان يصطنع حركة توحى بعدم قدرته على استخدام الشبكة، فمال في اللحظة المناسبة متجنباً الطعنة، ودفع برمحه بين ركبتي الخصم، وأوقعه أرضاً.

أراد ذلك أن ينهض، لكن خيوط الشبكة طوقته بلمح البصر، فراح يتخبط تحتها، فيما كان الرمح الثلاثي بضربات المتلاحقة يثبتته أرضاً. ورغم ذلك حاول أن يستجمع قوته كرة أخرى، فاستند على ذراعه محاولاً النهوض ثانية، لكن هيهات.

ثم حاول استخدام ذراعه ليمتشق السيف، ففشل في ذلك وسقط أرضاً. فقام كالينديو باستخدام رمحه لتثبيت هنتس من عنقه في الأرض.

ثم بعدئذ وقد استند على الرمح استدار نحو منصة القيصر.

اهتز السيرك بكامله ممتاع إلى من هتاف وتصفيق عاصفين. الذين راهنوا عليه، كان بالنسبة اليهم في هذه اللحظة أهم من القيصر. والذين نعموا عليه ووقفوا ضده، تلاشت نعمتهم لأن دمائه كانت السبب في امتلاء جيوبهم. لقد انشطرت رغبات الجمهور شطرين إذن. في المقاعد انقسمت الرغبات بين الموت والرأفة بالتساوي. لكن الشباك كان يرنو إلى منصة القيصر، وعذراوات فيستا منتظرا القرار الفصل.

" هنتس " لم يكن يحبه القيصر، لأنه في الالعاب الاخيرة قبل الحريق قد راهن ضده، وخسر مبلغا ضخما لصالح ليسينيوس، فكان من القيصر الان أن يمد يده من المنصة، ويدير إبهامه إلى الاسفل.

حاكت عذراوات فيستا حركته. جثا كالينديو على ركبتيه فوق صدر الغالي، وأخرج خنجره من حزامه، ثم فك الدرع من حول عنق خصمه، وأغرق الخنجر في حنجرته.

- بيراكتوم است ! تعالی الهتاف في المدرج.

أما هنتس فقد ارتعش بعض الوقت، حافراً الرمل برجليه، ثم تصلب، وهمدت حركته نهائياً.

لم يجر اختباره بالحديد الحامي إن كان ما يزال حياً، بل سرعان ما أبعده من هناك، ليأتي محاربان آخران، وما أن انتهت الجولة، حتى بدأ القتال الجماعي. كانت مشاركة حماسية من الجمهور. هتفوا، وزمجروا، وصف روا، وشفقوا، وضحكوا، وشجعوا المتقالمين الذين انقسموا قسمين، وقاتلوا كالوحوش، صدرا الصدر، وتشابكوا في الميدان حتى الموت.

انغرزت السيوف في الاجساد صدورا وبطونا، وأهرقت الدماء من الافواه، وسالت على الرمل. حاول البعض الفرار من شدة الجزع فأعادتهم السياط إلى الميدان. وسرعان ما اكتظ الميدان ببقع الدم، وتمددت الجثث العارئة، المدماة على صدورها وظهورها أرضا كحزم القمح.

ترنح الاحياء فوق الجثث، متعثرين بالتروس والدروع، تدمي أرجلهم الاسلحة المحطمة. لم يدر الشعب كيف يوزع بهجته، فقد أروى بالموت أنفاسه المتعطشة وأتخم به بصره، والتذ باشتمام رائحته.

في النهاية كاد أن يكون كل المهزومين قد لقوا حتفهم. ولم يبق الا قليل منهم جاثيا على ركبتيه في وسط الميدان، ملوحا بيديه نحو الجمهور طلبا للرحمة. تقاسم الفائزون الجوائز، والاكاليل وغصون الزيتون. تلا ذلك استراحة قصيرة تحولت بأمر من القيصر إلى مأدبة. وضعت المواد العطرية، ورش الماء المعطر رذاذا ناعما فوق الجمهور. ووزعت الفطائر، واللحم المشوي والكعك المحلى، والنبيد، والزيت، والفاكهة. أكل الشعب، وتبادل الاحاديث، وعيش القيصر بهتافات صاخبة، لينعم عليه بمزيد من كرمه. والحقيقة أن الجمهور حين طرد جوعه وعطشه، دخل الأرقاء حاملين سلال الهدايا التي أخرج منها صبيان يرتدون زي أمور أشياء صغيرة، وقاموا برشها بين المقاعد. أما حين وزعت بطاقات اليانصيب فجاء دور العراك، وتزاحم الناس وتدافعوا، وداسوا على بعض، وقفزوا فوق أماكن الجلوس، حتى أرهقوا من تدافعهم الرهيب، فمن حظي برقم رابح، يمكن أن يفوز بمنزل وحديقة، أو بعبد، أو لباس فاخر، أو وحش نادر يمكن أن يبيعه لمدرج الالعب. عمت فوضى جعلت الحرس الامبراطوري مضطرا للتدخل وإشاعة النظام. وغالبا ما تسبب هذا التزاحم بكسر



أياد وأرجل، واختناقات كان لا بد من إخراج من لحقت به بعيداً عن المكان.

لكن ميسوري الحال لم يسهموا في العراك الجاري للحصول على بطاقات الحظ. الاوغستييان قضوا وقتاً ممتعاً بالمرح على شيلون، ساخرين من بذله أقصى ما لديه من جهد ليثبت أن بوسعه مشاهدة القتال وسفك الدماء كأي أحد آخر. لكن اليوناني المنحوس لم يجده نفعاً أنه راح يقطب حاجبيه، ويعض شفتيه، ويشد على قبضتيه حتى انغرزت أظافره في كفه. لا طبيعته اليونانية، ولا جنبه الشخصي يؤهلانه لتحمل مثل هذا المشهد. شحب لونه، وتعرق جبينه، وازرقت شفتاه، وغارت عيناه، واصطكت أسنانه، وارتعش كل جسده. ولم يعد إلى طبيعته قليلاً الا بعد انتهاء القتال.

وأراد فاتينوس أن يغيظه فقال له وهو يشده من لحيته :

- ما بك أيها اليوناني. أراك لا تحمل رؤية جلد إنسان مسلوخ.

كشر شيلون عن سن يه الصفراوين الوحيدتين المتبقيتين وأجابه :

- لم يكن والدي حذاء فمن اين لي أن أدبغ جلودا.

- ماكتي ! هايت ! صدرت بعض الاصوات.

لكن آخرين استأنفوا إهانتته، فقال سينكو

- ما بيده حيلة، في صدره بدلا من القلب قطعة من الجبن

فرد شيلون قائلاً :

- وأنت كذلك ما بيدك حيلة، لأن الذي فوق عنقك دملة، بدلا من رأس.

- الا تبغي أن تكون مجالدا؟ أراك مناسبا للميدان وفي يدك شبكة.

- إن القها عليك، أمكنني القول أنني التقطت هدهدا.

وسأله فستوس :

- ما الذي سيحصل للمسيحيين؟ الا تريد أن تكون كلبا دموماً وتنهش بلحمهم؟

- لا أرغب أن أكون أخالك.

- آ، أنت إذن مجرد قرحة ميوتيسية

- وأنت مجرد بغل ليغوري.

- لا بد أن جلدك يشعر بالحكة، لكني لا أنصحك بأن تطلب مني أن أحكه لك.

- احرص أن تحك نفسك. إذا ما اقتلعت ما بك من دمامل، تكون قد قضيت على أئمن ما لديك هكذا كانوا يهزؤون منه، وعلى نفس المنوال كانت ردوده الحانقة.

صفق القيصر، صارخا بأعلى صوته ماكتي !، واستمر في تشجيعهم. وبعد وقت قصير جاء بترونيوس، وربت على كتف اليوناني بعصاه العاجية، ثم قال ببرود :

- حسنا أيها الفيلسوف الحكيم. لقد أخطأت في واحدة. لقد

خلقتك الالهة قاطع طريق، لكنك صرت شيطانا، فلن تنجو من أفعالك.

رمقه العجوز بعينين لاهبتين، دون أن يعثر على رد مناسب. صمت للحظة، حتى نطق بغير قليل من الجهد.  
- أنجو!

هنا صدحت الابواق، إشارة لانتهاؤ فترة الاستراحة غادر الحضور الامكنة المجاورة التي جاؤوا اليها بقصده التمططي، وتحريك أجسامهم، والتحدث قليلا.

عمت حركة شاملة، تلاها عراقك على الامكنة المحتلة من قبل السيناتورات والاشراف أيضاً عادوا مسرعين إلى أماكنهم، وما لبث الضجيج أن خف، ثم تلاشى واستتبت النظام في أرجاء المدرج.

وظهر في الميدان رهط من الذين ينظفون الرمال من بقع الدم المنتشرة هنا وهناك.

جاء الان دور المسيحيين : وبما أن ذلك كان مشهدا مستجدا أمام عيون الشعب، لم يعرف الجمهور كيف سيتصرف، الأمر الذي جعله يترقب المسيحيين بفضول، لكن الجميع هنا كان يكن العداء لهم، لا سيما وأنهم من أودى بروما وكنوزها العريقة. فهم الذين يتغذون بدماء الأطفال، وسمموا المياه، ولعنوا الجنس البشري، وارتكبوا أبشع الاعمال الشريرة.

كانت الشمس قد نهضت في السماء بأشعتها الارجوانية التي نفذت خلل المظلات الواقية، وغطت المدرج بالضوء الاحمر.

سبح رمل الميدان بضوء ناري، وكان مشهدا ينطوي على شيء من الهلع، كمشهد الوجوه، والميدان الخالي، الذي سيكتظ للتو بالعذاب الانساني والوحوش الغضبي، كأنما الموت والرعب يرفرفان في الجو. وكان الجمهور المرح في العادة، قد لزم صمتا يضم الكراهية. وانعكس على الوجوه حنق وحشي ضار.

في هذه الاثناء أعطى قائد الحرس إشارة، فظهر بشباب شارون الكاهن نفسه الذي دعا المجالدين من قبل إلى ساحة الموت. دار كامل الميدان بخطى وثيدة، ثم تقدم نحو الباب وقرعه بمطرقة ثلاثا اكتسحت الصمت الرائن في المكان.

اصطخب المدرج:

- المسيحيون! المسيحيون!

صرت المغاليق، فهدر من خلال الفتحات القائمة النداء المعروف: "إلى الساحة"، وبطرفه عين امتلأ الميدان بأشكال ترتدي جلود الحيوانات، وكأنما جيء إلى هنا بسكان غابات.

دخلوا مسرعين، وبلوغهم وسط الميدان، رفعوا أياديهم، وركعوا إلى جانب بعض. ظن الشعب أنهم يطلبون الرحمة، فأغضبه هذا الجبن وراح يصفر، ويقرقع، ويرمي عليهم آنية النبيذ، والعظام المنهوشة.

ويصيح بملء المناجر:

الوحوش! الوحوش!

هنا حصل أمر غير متوقع. من بين هذا الحشد الفظ صدمت اغنية غير مالوفة الوقع لم يحدث أن رددت في السيرك الروماني.

ذهل الجمهور. ورفع المتهمون عيونهم نحو مظلة المدرج في الاعلى وبدؤوا الغناء. رأوا الوجوه الشاحبة لكن المأخوذة. أدرك الجميع أن هؤلاء لا يطلبون الرحمة، وأنهم كأنما لا يرون السيرك ولا الجمهور، ولا مجلس الشيوخ، ولا حتى القيصر. "المسيح يحكم"

صدحت الاغنية، واشتدت شيئاً فشيئاً. وراح كثيرون في المدرج يتساءلون في أنفسهم: ما هذا؟ من هو المسيح الذي يحكم حسب رأى هؤلاء الذين في طريقهم إلى الموت. لكن في هذه الاثناء فتح باب آخر، فتدفقت منها كلاب الدموم المسعورة، والكلاب الهنغارية الاشبه بالذئب، وكلاب الدرواس الضخمة، وكلها جائعة هزيلة محمرة الاعين، فملأت بنباحها، وعوائها أنحاء المدرج. بانتهاء المسيحيين من ترديد شعارهم، كأنما تحولوا إلى جماد، فاستمروا في ركوعهم بلا حراك، مرددين "مع المسيح ! مع المسيح"

شمشت الكلاب الجلود فوق أجساد البشر ولأنها لم تتأكد من ثباتهم دون حراك، لم تجرؤ بادئ الأمر أن تهرع إلى الانقضاض عليهم. ولزم بعضها الجدران كأنها تريد الوصول إلى الجمهور فيما راحت كلاب تنبح مسعورة وهي تدور في الميدان جريا وراء فريسة غير مرئية. اغتاز الشعب. طلعت الاف مؤلفة من الاصوات، بعضها قلد زجاجة الوحوش، آخرون نبخوا كالكلاب، فئة أخرى حرضت الكلاب من جديد، فاهتز المدرج بالزئير. هرعت الكلاب المثارة نحو الراكعين، فاغرق كلب دموم أنيابه في عنق امرأة في الصف الاول، والقي المسكينة تحته.

راحت الكلاب الان تجري بين الحشد، كأنما قد أنهار من أمامها حائط الدفاع. تخلى المتفرجون عن زئيرهم، لكي يتسنى لهم متابعة المشهد بأقصى ما هنالك من انتباه. كانت الكلاب تعوي، وأصوات الرجال والنساء تصدح: "مع المسيح! مع المسيح"، لكن في الميدان قد صارت أجساد البشر والكلاب تتشابك متشادة متمرغة فوق الرمل. سالت الدماء مهراقة من الاجساد الممزقة. وانتزعت الكلاب من أفواه بعضها الاعضاء البشرية.

وفاحت رائحة الدم، والاحشاء، ممزوجة بضوء الابخرة العربية، حتى ملأت أجواء السيرك ولم يبق في النهاية الا بعض الهيئات الراكعة المتفرقة هنا وهناك، سرعان ما التهمت الكلاب الشرهة.

في أثناء دخول المسيحيين الميدان كان فينيكوس، وفاء منه بوعدده، قد نهض، واستدار ليشي. بمكان تخفي الحوارّي بين رجال بترونيوس، ثم جلس ثانيّة، ليشاهد بعينين زجاجيتين، ووجه انعدمت فيه الحياة، تلك الواقعة الفظيعة. كان القلق قد تملكه في البداية لشعوره بأن ليفيا قد تكون بين الضحايا، لكنه بعد سماعه الهتافات "مع المسيح!" ورويته هذا القدر الهائل من الشهداء، الذين واجهوا العذاب والموت فداء لالههم، ومبادئهم، انتابته مشاعر أخرى، غير محتملة واليمه كأقسي ما هنالك من الام.

ولكن إن كان المسيح قد واجه عذاب الموت، وإن كان الالاف الان يقدمون ارواحهم، ويذلون الدماء مهراقة، باسمه، فكل شيء بعد ذلك يبدو ضئيلا، لا أهميّة، ولا معنى له، والسعي لطلب الرحمة بات خطيئة كبرى.

نبتت هذه الفكرة من أرض الميدان وحلقت اليه ممتزجة بأنين

الموتى، ورائحة دمائهم. ورغم ذلك راح يصلي، ورددت شفتاه الراجفتان: "يا مسيح! يا مسيح! تلميذك الحوارى أيضاً يصلي لأجلها". وكان بذلك أن فقد إدراكه، فلم يعد يدري أين يكون. كان فقط يشعر أن الدم ما زال يسفك ويسفك حتى ارتفع منسوبه في الميدان، وفاض من السيرك وأغرق كل روما.

ولم يكن يسمع شيئاً، لا نباح الكلاب، ولا زججرة الشعب، ولا صيحة الاوغستيان المباغثة:

- شيلون أغمي عليه.

ورددها حتى بترونيوس ملتفتا نحو اليوناني.

كان قد أغمي عليه فعلاً. ألقى هناك بوجه شاحب، ورأس مسترخية، إلى الخلف، وفم فاغر كالجثة.

في هذه اللحظة قدم إلى الميدان مجموعة أخرى من الضحايا بجلود الحيوانات.

ركع هؤلاء كسابقيهم حالاً، لكن الكلاب المنهكة حتى آخر رمق، لم تشأ أن تنقض عليهم، باستثناء قلة قليلة هاجمت أقرب الراكعين، أما الكلاب الاخرى فقد استرخت مقعياً لاهته، فاغرة أفواهها الدامية نحو الاعلى.

عندئذ بدأ الشعب المضطرب في أعماقه، لكن الثمل من الدماء، المتعطش اليها، يصدر زئيراً يصم الاذان:

الاسود! الاسود! أطلقوا الاسود!...

كانت النية أن يكون إطلاق الاسود في يوم الغد، لكن الشعب تحدى الجميع ومنهم القيصر، وحاول فرض إرادته. وحده كاليغولا الارعن، المتطرف الميول، كان يجروء على الوقوف في وجه إرادة الشعب، فلجأ إلى جلدهم أحيانا، لكنه استجاب لهم أحيانا أخرى.

أما نيرون فكان التصفيق أهم الاشياء بالنسبة اليه، فلم يكن ليعارض ابدا، فكيف الان يلجأ إلى تهدئة الشعب الغاضب، والأمر يتعلق بإحراق المدينة الذي حمل المسيحيين تبعاته.

أشار إذن لفتح الابواب. هدا الشعب. صرت المغاليتق، وما إن رأى الكلاب الاسود حتى انحشرت في ركن ناء من الميدان، وراحت تنبح نباحا خفيفا. فيما تتالت الاسود الضخمة الشاحبة في الدخول إلى الميدان. القيصر نفسه التفت بوجهه الفاتر نحوها، ورفع نظارته الزمرديّة إلى عينيه ليراها جيدا. استقبل الاوغستييان الوحوش بالتصفيق.

وراح الجمهور يحصيها على أصابعه، في وقت يتابع بفضول مدى تأثيرها على المسيحيين الراكعين في وسط الميدان، والذين أخذوا يرددون العبارة الغربية المجهولة من قبل الكثيرين "دم المسيح! مع المسيح!"

ولكن لم يجد نفعا أن الاسود قد جوعت، فلم تهاجم فرائسها على الفور. كان الضوء الاحمر الذي يغطي الميدان يؤثر على عيونها، فراحت تتفحصها بانبهار:

بعض منها تمطى، وبعض آخر فغرت أفواهاها كأنما أرادت أن تعرض أنيابها الرهيبة على الجمهور. الا أن رائحة الدم ومشهد الاجساد الممزقة المرمية بكثافة قد أثرت بها. فسرعان ما اضطربت حركاتها،



وانتعشت أعرافها، وشخرت. قفز أحد الاسود إلى جثة امرأة منهوشة الوجه، وأخذ يلحق الدم المتجمد فوقه، واقترب أسد آخر من رجل مسيحي يحمل بين ذراعيه طفلا يرتدي جلد غزال. ارتجف الطفل من شدة البكاء، وتشبث بعنق أبيه. أما الاب رغبة منه ان يطيل من عمر ولده لحظة على الاقل، حاول إفلات يدي الطفل من حول عنقه، لكي يودعه لدى الراكع الابعد. لكن الصراخ، والحركة أثارا الاسد، فما كان منه الا أن مزقه بخطفة واحدة من برائنه، ليقبض بأنيابه على رأس الوالد ويسحقها بطرفة عين.

وقد رأت الاسود ذلك، انقضت بأجمعها على المسيحيين. بعض النسوة لم يستطعن كتم صرخة الرعب. لكن عاصفة التصفيق غطت على صرخاتهن، الا أن التصفيق سرعان ما خمد، لأن الشعب فضل أن يكرس جل انتباهه على المشاهدة.

حدثت الان فظائع أمام عيون المشاهدين: رؤوس بشرية في أفواه الوحوش، صدور مشطروطه بالانياب، وقد نفرت منها قلوب ورنات.

تقطقات عظام بين أسنان الاسود، بعض الاساد كانت تقبض على ضحاياها من أجنابها أو ظهرورها، وتجري بها جريا مسعورا، وكأنها تريد أن تنحى بها إلى جانب مستور في أرض الميدان تلتهمها فيه. آساد أخرى كانت تعانق بعضها بأنيابها، كما يفعل المصارعون، وتملأ المدرج بزجراتها الهادرة.

قفز الناس عن أماكنهم وغادر الكثير مقاعدهم، ونزلوا إلى صفوف أدنى ليشاهدوا الميدان عن كثب، وتدافعوا تدافعا قاتلا، حتى بدا أن الجمهور الحائق يندفع إلى الميدان لينافس الوحوش على المسيحيين.

هنا زئير لا إنساني، هنا تصفيق، هنا صراخ وضجيج، صرير أسنان، عواء كلاب. وفي مكان آخر لا يسمع الا أصوات النواح والانين.

والان كان القيصر أيضاً يشاهد ما يجري واضعا الزمردة أمام عينيه. بترونيوس كان مشمئزاً يشعر بطعم كريبه في فمه، وتتوزع وجهه علائم الاحتقار. شيلون كان قد أخرج باكراً من الميدان.

لم يتوقع الدفع بضحايا جديدة إلى الميدان. كان الحواريّ بطرس يراهم من أعلى المدرج. أما هو فلم يكن يراه أحد، لأن العيون كلها توجهت إلى الميدان. الأمر الذي أتاح له أن يقف مودعاً بإشارة الصليب، الاخوة الوارثين بين أنياب الوحوش، ودماءهم، وعذابهم، وأجسادهم الميتة الممزقة الشوهاء، وأرواحهم المحلقة وقد غادرت رمل الميدان الدامي.

نظر البعض عالياً اليه، وأشرقت وجوههم بالابتسام حين رأوا من بعيد يرسم إشارة الصليب فوقهم. أما هو فقد راح يصلي بقلب دام: "يا سيدي، لتكن مشيئتك أنت، لأن خرافي هؤلاء تموت من أجل مجدك، وإثباتاً للحق. لقد أوصيتني أن أرحمهم. وها أنذا أعيدهم اليك. أما أنت يا سيدي فخذ بحسبانك، أن تأخذهم اليك، وتداوي جراحهم، وتخفف من الامهم، وامنحهم سعادة تفوق ما عانوه هنا من عذاب"

وودعهم واحداً واحداً، وباركهم بكل المحبة مجموعة بعد أخرى، وكأنهم ابناؤه السائرون ليكونوا مباشرة بين يدي المسيح. في هذه الاثناء همس القيصر شيئاً في أذن قائد الحرس، فغادر الاخير المنصة وبعد لحظات رأت الجماهير أن الابواب تفتح من جديد أمام الحيوانات المفترسة أفلتت الان إلى الملعب كل أنواع الوحوش. نمور، دبة، فهود،

ذئاب، ضباع، ابناء آوى. غطت أرض الميدان مختلف الجسوم الحيوانية المبرقة، والغبراء، والصفراء، والبنية، والمخططة.

خليط هائل دهم المكان، حتى لم يعد بالامكان تبين أي شيء، سوى هذه الكثافة الحيوانية، المتحركة. لقد فقد المشهد فطره الواقعي مسحته الواقعية. واستحال إلى طقس عريبد دام، إلى كابوس مروع، وتشاؤمية سوداوية يعاني منها دماغ مريض. طفح الكيل. الزئير الحيواني، والعواء، والزججرة، جعلت بعض النسوة في مقاعد المتفرجين هنا، وهناك، وقد فقدن السيطرة على أنفسهن، يتعرضن لنوبات من الضحك.

أصاب الناس الجزع، وتجهمت وجوههم، وارتفعت أصوات تهتف: " كفى ! كفى ! "

لكن إدخال الحيوانات إلى الميدان كان أسهل من إخراجها. لكن القيصر اكتشف طريقة لتنظيف الميدان، وذلك بإضافة متعة جديدة إلى الجمهور. ظهر في كل ممر بين المقاعد مقاتلون زنج في آذانهم ريش وحلى، وفي أيديهم أقواس رمائية. اكتشف الشعب ما سيجري، فهلل عاليا.

تقدم النبالون من الحواجز، وعلقوا النبال في الاقواس. وصبوها نحو الحيوانات. كان ذلك مشهد جديدا في الواقع. مالت الاجساد الزنجية الرشيقة إلى الخلف، وشدوا الاقواس المرنة، ثم أخذوا يطلقون نبالهم واحدا بعد آخر. امتزج رنين الاوتار وأزيز الرماح المريشة، بزئير الوحوش، وصراخ الجمهور الذاهل. سقطت الذئاب والذئبة، والفهود وما تبقى من بشر على قيد الحياة، كلها تهاوت بكثافة إلى جانب بعض. وقام الاسود هنا وهنا، بإدارة رؤوسها نحو الخلف، وعض الرماح العالقة بأجنابها وتحطيمها. بقية الحيوانات عوت في

الامها. الوحوش الضئيلة الحجم جرت مذعورة في أرض الميدان، ثم سقطت على جباهها أو ظهورها، أو اصطدمت بالحواجز الشبكية. لكن الرماح لم تتوقف عن الازيز حتى نالت من كل كائن حي، وأردته قتيلا فوق رمل الميدان.

في هذه الاثناء دخل أرقاء السيرك بالمشات إلى الميدان، وفي حوزتهم الرفوش والمجاريف، والمكانس، ويجرون عربات، ويحملون سلالا، لجمع الامعاء المندلقة، وأدخلوا معهم أكياسا جديدة من الرمل. دخلوا بمجموعة إثر مجموعة، وسرعان ما نظفوا الميدان من الجثث، والدماء والروث، ثم قاموا بتسوية أرضه، ونشروا فوقها طبقة جديدة من الرمل.

ثم جاء أطفال مجن حون بصورة كيوبيد، وراحوا يرشون الرمل بتويجات الورد، والزنبق وشتى أنواع البتول. ومن جديد اشعلت المباخر، وأزيلت مظلة المدرج لأن الشمس قد جنحت بشدة نحو المغيب.

تبادل الجمهور النظرات، وتساءلوا فيما بينهم : ترى أي فرجة تنتظرهم في هذا اليوم بعد؟

وفي الواقع لقد حصل ما لم يتوقعه أحد. قيصر الذي كان قد غادر المنصة منذ وقت طويل، عاد ليظهر الان في الميدان الزاهر بالورود، بحلته الارجوانية، وإكليله الذهبي. كان في إثره اثنا عشر مغنيا، بالاتهم الوترية، أما هو فقد حمل قيثارا، وتقدم بخطوات مراسيمية نحو الوسط لم ييخل ببعض الانحناءات لجمهور المشاهدين، رفع عينيه نحو السماء، وظل على هذه الحال بعضا من الوقت كأنه ينتظر أن يجيئه الالهام.

ثم انحنى على قيثاره، وأخذ يغني :

يا بن لاتونا المجيدة رامى السهام بعيدا

ملك كريسى، سيد تندوس المقدسة

يا من حميت بترسك الواقى

قلعة اليون البرجيّة الالهية

لم تخليت عن شعبك الطروادى

الذى ضحى بوفاء فى معبدك

آه، كيف احتملت

أن يهدم غضب الاكاويين المتوحش قلعتنا

النساء، الأطفال، الرجال، الشيوخ

بسطوا أياديهم المرتعشة نحو السماء :

حتى الحجارة الخشنة رجمت عليهم

وسمعك أنت أصم، بلا إحساس !

عزفتَ على قيثارك الموسيقى المرححة

خالجها التأوه، والصلاة، والشكوى، والتنهدات

لكن قلبك القاسى

لا يستشعر بوؤس الالاف.

وشيثاً فشيئاً اتخذت الاغنية منحى مأساويا

ساد الصمت في الميدان. وبعد وقت قصير استأنف القيصر الغناء :

لكن أعيننا عابسة الان

دامعة كزهرة نديّة

غارقة في الالام

لأن النيران أتت على اليون

أين كنت آنذاك، يا سمينتوس الالهي

لتدع قلعتك الالهية تضيع؟

وإن لم تحمنا في خرابنا

فمن سيتقدم اليك بالقرايين؟

ارتعش صوته، واغرورقت عيناه بالدمع. ودمعت كذلك عيون  
عذراوات فيستا. أصغى الشعب صامتا، لكنه ما لبث أن انفجر  
بعاصفة لا تنتهي من التصفيق.

في هذه الاثناء كان يسمع في الممرات المفتوحة صرير العربات التي  
تنقل بقايا الرجال والنساء والأطفال المسيحيين المدمامة لوضعها في  
حاويات ضخمة تدعى بوتيكولوم

فيما كان الحواريّ بطرس يعقد يديه حول رأسه الاشيب ويصرخ  
في أعماقه :

"سيدي ! سيدي ! لمن أعطيت السيادة على العالم؟ ورغم ذلك تريد أن تثبت عرشك الملكوتي في هذه المدينة؟"

في هذه الاثناء مالت الشمس نحو الغرب، وأوشكت أن تذوب متوهجة. انتهت العاب السيرك. وتدفقت الحشود تغادر المدرج عبر المخارج المسماة فوميتور يوم، وتبعثرت في المدينة. وحدهم الاوغستيان من تخلف لأنهم كانوا ينتظرون ابتعاد الموجة البشرية. ترك الجميع مقاعدهم وتحلقوا حول المنصة، التي عاد اليها القيصر مجدداً، ليستمع إلى الاطراءات.

لقد كافاه الجمهور بالتصفيق طبعاً، حين أنهى غناءه، لكن ذلك لم يكن ليرضيه، لأنه ينتظر حماساً جنونياً. لم تنفع أناشيد التمجيد التي صدحت، ولا انعكاف عذراوات فيستا على تقبيل القيصر، في وقت مالت فيه روبريا نحوه، حتى أوشك شعرها الاشقر أن يلامس صدره. كل ذلك لم يرضه، ولم يستطع إخفاء ذلك. والذي أقلقه أيضاً، وزاد من استغرابه أن بترونيوس ظل صامتا. كان يتمنى منه لو كلمة ثناء واحده تواسيه، وتعطي للغناء قيمة وأهميّة.

ولما فرغ صبره، أشار لبترونيوس حين جاء إلى المنصة.

قال نيرون :

- قل لي ...

- ساكت لأنني لم أعثر على عبارات أجاب بترونيوس ببرود لقد تجاوزت نفسك.



- هذا ما ظننته أنا أيضاً، وهذا الشعب رغم ذلك...

- كيف ترغب من هؤلاء الرعايا أن يفهموا في الشعر.

- بمعنى أنك لاحظت أنهم لم يقدرُوا الاغنية بالدرجة التي أستحقها؟

- لأن اخترت وقتاً رديئاً.

- لم؟

- لأن الرؤوس التي دوختها رائحة الدم، لا تستطيع أن تصغي

بانتباه.

ضغط نيرون على قبضته وأجاب :

- آ، هؤلاء المسيحيون! لقد أحرقوا روما، وهاهم يحاولون أن

يهينوني. فأبي عقاب آخر سأوجهه اليهم بعد؟

لاحظ بترونيوس أنه يسير في اتجاه سيء، لأن ما نطق به الآن ولد

تأثيراً على العكس مما يأمله فيه. ومحاولة منه لتشتيت أفكار نيرون مال

نحوه وهمس قائلاً :

- أغنيتك بديعة، وملاحظتي الوحيدة أن المقطع الشعري ما قبل

الآخر ليس تام الوقع في سطره الرابع.

احمر نيرون، وكأن وصمة من العار قد الحقت به، فرمق بترونيوس

بنظرة جزعة، وأجابه هامساً على نفس المنوال :

- أعلم أنك تلاحظ كل شيء!... سأعيد النظر في المقطع!... لكن

أحدًا لم يلاحظ هذه الهنة أليس كذلك؟ أما أنت... حبًا بالالهة... لا

تجهر بالأمر أمام أحد... إذا كنت تحب حياتك...

قَطَّب بترونيوس حاجبيه، وكأنه سئم المسألة، فكان ردّه لا كما  
ينبغي

- لك أن تحكم علي بالموت، أيها القيصر الالهي، إذا كنت أقف في  
طريقك، لكن لا تهددني بالموت، لأن الالهة يدركون جيداً أنني لا  
أخافه.

كان يتكلم مثبتاً حقيقته في عيون القيصر الذي قال بعد قليل :

- لا تغضب... تعلم أنني أحبك...

فكر بترونيوس في داخله " إشارة سيئة "

كان القيصر يتابع الكلام

- كنت أنوي اليوم دعوتك إلى مأدبة، لكنني سأهتم بتصحيح السطر  
الرابع اللعين من المقطع الثالث في القصيدة. ما عداك، لعل سينكا و  
سيكوندوس قد لاحظا الخطأ، لكنني أستطيع أن أتخطاهما.

ودعا سينكا اليه، وأخبره بأنه سيرسله برفقة كل من أركراتوس  
و سيكوندوس إلى إيطاليا بحثاً عن المال، وبأوامر منه يقبلون المدن،  
والقرى، والمعابد الشهيرة، أي كل الأماكن التي يحتمل أن يجدوه  
فيها. لكن سينكا، وقد أدرك أنه مكلّف بأعمال سلب ونهب، فقد  
رفض الفكرة قائلاً :

- علي أن أسافر إلى القرية يا سيدي، لأنظر الموت هناك، فقد  
أصبحت عجوزاً، وأعصابي مريضة.

كانت أعصاب سينكا الايريّة أصلب من أعصاب شيلون، ولعلها

لم تكن معتلة، لكن صحته بالعموم كانت واهنة. كان كالشبح، وقد كسا الشيب كل رأسه في الاونة الاخيرة.

نظر نيرون اليه، وفكر أن سينكا بانتظار الموت حقا، فكان رده :

لست راغبا في إرهابك بمهمات جديدة إن كنت مريضا، لكن بما أني أحبك. فأقترح عليك، بدلا من السفر إلى القرية أن تغلق عليك باب البيت ولا تغادره.

وأطلق قهقهة عالية واستأنف كلامه :

- إن أرسلت أكراتوس و كائناس بمفردهما، كأني أطلق ذئبا على حملان. من أضع على رأسيهما؟

فتطوع دوميتوس آفر قائلاً :

- أنا، يا سيدي !

- لا ! لا أريد أن أصب على روما غضب ماركوريوس الذي ستجلبون له العار بلصوصيتكم أنا أحتاج إلى رواقني مثل سينكا أو صديقي الفيلسوف الجديد شيلون.

وقال متسائلا وقد أدار بعينه على من حوله :

وماذا عن شيلون؟

كان ذلك قد استعاد وعيه في الهواء الطلق، ورجع إلى المدرج في أثناء وصلة القيصر الغنائية ليقول :

- أنا هنا، يا نور الشمس والقمر. كنت مريضا، وشفاني غناؤك.

فقال نيرون

- سأرسلك إلى أكايا وهناك ينبغي عليك أن تعلم بمنتهى الدقة كم من المال بحوزة كل عبد.

- افعل ذلك، وسوف يغدق عليك زيوس والالهة، كما لم يغدقوا على أحد من قبل.

- سأفعل، لكنني لا أريد أن أضيع عليك فرصة الاستمتاع بالعباب السيرك.

فصرخ شيلون

- يا بعل !

أما الاوغستييان فقد س روا الاستعادة القيصر مزاحه الرائق، فصرخوا ضاحكين :

- لا يا سيدي ! لا تمنع اليوناني فرصة الاستمتاع بالالعباب.

فأجاب شيلون :

- لكن جر دني من ثرثرات جماعة الاوز الكابيتوليّة هذه، التي لا تملأ عقولها مجتمعة قمع حبة بلوط. أنا أعكف الان على نظم نشيد باللغة اليونانيّة لتمجيدك، يا سليل أبولو البكر، وأرجو منك أن تمنحني فرصة الاقامة بضعة أيام في معبد موزيه حارسة الفنون والشعر والعلوم، لأتوسل الالهام.

فصرح نيرون :

لا، لا ! إنك ترغب في التهرب من متابعة بقيّة الالعب.

اطمئن فليس فيها ما يخيف.

- أقسم يا سيدي بأني أنظم نشيدا.

- ستلحق وتنظمه في كل ليلة. توصل ديانا من أجل الالهام، فهي أخت أبوللو الصغرى. أطرق شيلون، ورنّا بنظرات حانقة إلى الحضور الذين أخذوا يضحكون. أما القيصر فقد التفت إلى سينيكيو و سوليوس قائلاً :

- تصورا أننا لم نستطيع أن ننهي في هذا اليوم الا نصف المسيحيين على الأكثر.

فانبرى ريفولوس العجوز، الخبير المتمرس بشؤون الالعب في المدرج يقول بعد تفكير قصير

- تلك العروض التي يقوم بها أشخاص سين أرميس السين تدوم طويلاً لكنها غير ممتعة.

فكان رد نيرون :

- ناولوهم أسلحة

لكن فيستينوس المأخوذ بالخرافة ارتعشت أوصاله من شطحات القيصر فنطق قائلاً :

- ألم تلاحظوا أن هؤلاء حين يمضون إلى حتفهم يرون شيئاً ما؟ ينظرون نحو الاعلى، ويواجهون الموت دون خوف أو معاناة. أنا واثق أنهم يرون شيئاً ما...

ورفع عينيه نحو فتحة المدرج التي نشر المساء فوقها مظلتها المدروزة بالنجوم. لكن الآخرين قابلوا كلامه بالضحك، والتعليقات الساخرة. في هذه الاثناء كان القيصر قد أشار للأرقاء اصحاب المشاعل، ثم غادر السيرك ليلحق به عذراوات فيستا، والسيناتورات، والمسؤولون، والاوغستيان.

كانت أمسيّة حارة، منيرة. وكانت الحشود ما زالت متجمعة أمام السيرك، لتشهد انصراف القيصر، لكنها بدت صامتة متجهمة، ما عدا بعض التصفيق الذي تخامد شيئاً فشيئاً هنا وهناك. فيما لو تتوقف العربات عن شحن بقايا الاعضاء الداميّة للمسيحيين.

توجه بترونيوس و فينيكوس إلى البيت صامتين. ولم ينطق بترونيوس الا قبل بلوغ الفيلا بقليل.

- فل فكرت فيما قلته لك؟

- أجل.

- أتصدق أنها باتت قضية تهمني الان كثيرا؟ علي أن أنقذها رغم أنف القيصر و تيفالنيوس. لقد عقدت العزم على أن أفوز في هذه الحرب. لعبة وعلى أن أربحها ولو كلفني ذلك حياتي... وهذا اليوم قوى من عزيمتي.

- جزاك المسيح لهذا خيرا.

- سترى

كانا قد صارا قرب باب الفيلا، فترج لا من الهودج. فتقدمت نحوهما هيئة قائمة وبادرتهما بالسؤال :

- هل النبيل فينيكوس هنا؟

- هنا أجاب الحاكم فينيكوس ماذا تريد؟

- أنا نازاريوس بن مريام. جئت من السجن، حاملاً لك خبراً عن ليفيا.

وضع فينيكوس يده على كتف الصبي ونظر في عينيه على ضوء الشعلة، دون أن يتمكن من النطق بكلمة. لكن نازاريوس قرأ السؤال الراقد على شفطي الشاب، وأجاب عنه في الحال :

- ما زالت على قيد الحياة. يبلغك أرسوس أنها تصلي وهي في غيبوبتها من الحمى، وتذكر اسمك.

فأجابه فينيكوس :

- لتحمد المسيح الذي يستطيع أن يعيدها الي.

ثم قاد نازاريوس إلى المكتبة، ولحق بهما بترونيوس بعد قليل، لسمع حديثهما.

قال الصبي :

- لقد أنقذها المرض من العار، لأن الحراس يخشون العدوى. أرسوس والطبيب كلاوسوس لا يفارقان سريرها.

- ما زال هناك الحراس أنفسهم الان؟

- أجل يا سيدي، وليفيا في غرفتهم. الذين كانوا في السجن الاول، قتلهم الحمى، أو اختنقوا من الهواء الفاسد.

- من أنت؟ سال بترونيوس

- النبيل فينيكوس يعرفني. أنا ابن امرأة أرمل أقامت ليفيا عندها.

- مسيحي؟

خص الصبي فينيكوس بنظرة متسائلة، وحين رآه يصلي في هذه اللحظة، أجاب :

- أجل

- وكيف لك أن تؤم السجن بحرية؟

- التحقت بعمل نقل الجثث. تقصدت ذلك لأساعد أشقائي، وأنقل لهم الاخبار من المدينة.

تملى بترونيوس وجه الصبي الجميل، وعينيه الزرقاوين، وشعره الاسود الكث، ثم سأل

- من أين تنحدر أيها الصبي؟

- من غاليليا يا سيدي.

- هل تتمنى أن تتحرر ليفيا؟

- لو كلفني ذلك حياتي.

قطع فينيكوس صلاته، والتفت إلى الصبي ليقول :

- قل للحراس أن يضعوها في تابوت وكأنها ميتة. وخذ معك أشخاصا لتخرجوها في الليل. عند حفر النفايات سينتظركم بنقالة من



ستسلمونهم التابوت. عد الحراس باسمي أنهم سينالون من الذهب ما لا تتسع له جيوبهم.

وفي مجرى كلامه، كان وهنه المقيم قد أخذ يتلاشى، لينتعث من جديد ذلك الجندي. أعاد إليه الأمل طاقته السابقة.

تورد نازاريوس من فرط سعادته، وصرخ رافعا يديه :

- ليمنحها المسيح الصحة، لأنها ستحرر !

فسأله بترونيوس :

- أتظن أن الحراس سيوافقون؟

- أولئك يا سيدي؟ ما داموا واثقين بأن عقابا لن يمسه، ولا أذى !

استحسن فينيكوس كلامه قائلاً :

- حقا. كان الحراس سيوافقون على هروبها، فكيف لهم أن لا يوافقوا على نقلها بالتابوت، وهو أمر أسهل بكثير.

- هناك من يتأكد من موت الجثث بفحصها بالحديد الحامي قبل نقلها، وهو من أجل نسيستريوسات قليلة لا يلمس بالقضيب الحديدي المحمى وجه الجثة، أما من أجل أوريوس واحد فيلمس خشب التابوت متصنعا أنه لامس جسدها.

قال بترونيوس :

- قل له أنه سيحصل على كيس من الأوروسات. لكن هل ستعثر على مساعدين ثقات؟

- هناك من يبيعون زوجاتهم وأولادهم من أجل المال.

- أين نجدهم؟

- في السجن، في المدينة. الحراس المرتشون يسمحون لي بإدخال من أريد.

- أدخلني إذن كعامل طلب اليه فينيكوس، لكن بترونيوس أقنعه بالعدول عن الفكرة خشية أن يتعرف اليه الجنود حتى إن كان متخفيا.  
قال بترونيوس :

- لا في السجن، ولا في حفر النفايات. المهم أن يعرف الجميع، وعلى رأسهم القيصر و تيفالنيوس أن ليفيا قد ماتت، والافستيم ملاحقتها. ولن تزول الشبهة الا بإبعادها إلى جبال الالب، وربما أبعده من ذلك، إلى سيسيليا.

ونبقى نحن في روما. ولن تتمارض أنت الا بعد أسبوعين أو ثلاثة، وتستدعي طبيب نيرون الذي سيقترح عليك الرحيل إلى الريف الجبلي. ثم تلتقيان، وبعدها...

وفكر للحظة، ثم أضاف وهو يهز برأسه :

- بعدئذ، قد نكون دخلنا في أزمنة أخرى

تنهد فينيكوس :

- ليشملها المسيح برأفته. أنت تتحدث عن سيسيليا بينما هي تعاني من المرض، وقد تموت

- دعنا نضعها الان في مكان أكثر قربا، والهواء الطلق سوف يعافئها، المهم الان إخراجها من السجن. الا تعرف أحدا نستأجره في الجبال يمكن الوثوق به؟

فأجاب فينيكوس على الفور :

- أعرف. في نواحي كوريولي في الجبال شخص رعاني في طفولتي،  
وما زال يحبني حتى الان.

ناوله بترونيوس لفافة قائلاً :

- اكتب له أن يجيئنا غدا. سأرسل الخيال في الحال.

وعلى الفور دعا ناظر الأتريوم وزوده بالتعليمات اللازمة. وبعد  
قليل كان العبد الخيال جاهزاً للانطلاق مساءً إلى كوريولي.

علق فينيكوس قائلاً :

- أود لو أن أرسوس يرافقه في الطريق... سأكون أكثر اطمئناناً...  
فتفوه نازاريوس :

- سيدي ! إنه رجل قوي جداً. سيقوم بتحطيم الشبكة الحديدية، ثم  
يهرب من النافذة في الجدار العالي، حيث لا وجود لأي حارس هناك،  
بعد أن أزوده أنا بحبل يتسلق عليه.

صاح بترونيوس :

- يا هيركوليس ! ليهرب كيفما يشاء، لكن دون اصطحاب ليفيا،  
وليس بعد يوم أو يومين لكيلا يكتشفوا الأمر. يا هيركوليس ! تريدون  
أن تخسروا أنفسكم معها؟ أمانع أن تلم حوا أمامها إلى كوريولي، والا  
سأنفض يدي من المسألة.

اعترف كلاهما أنه محق، وغادراه. ثم انصرف نازاريوس واعداه أنه  
سيجيء عند الفجر. كان يأمل أن يحرز اتفاقاً مع الحراس ليلة ذلك  
اليوم، إلا أنه رغب في رؤية أمه الذي ظل قلقاً عليها. وبعد تقليب جاد

للأمور قرر الا يبحث عن مساعدة في المدينة، بل أن يلجأ في السجن إلى رشوة أولئك الذين عمل معهم في نقل الجثث.

لكنه قبل أن يرحل، انتحى بفينيكوس جانبا وهمس له :

- سيدي، لن أبوح بقصدي لأحد، حتى ولا لأمي، لكن الحواريّ بطرس وعدنا بالمجيء الينا من المدرج، وسأفضي له بكل شيء.

فطمأنه فينيكوس قائلاً :

- في هذا المنزل يمكنك التحدث بصوت عال. الحواريّ بطرس ذهب إلى المدرج برفقة رجال بترونيوس. على أية حال سأذهب معك.

وطلب أن يأتوه بعباءة أرقاء، وانطلق.

أخذ بترونيوس نفساً عميقاً

"من جانبي أنا كنت أتمنى لو أنها فارقت الحياة نتيجة لمرضها، لأن ذلك أحلى الأمرين بالنسبة لفينيكوس. لكني الان أتمنى أن تشفى ولو كلفني ذلك كيساً من الذهب تقدمه مني إلى اسكولا بيوس... ويحك ياذا اللحية الحمراء، تريد أن تتلذذ بعذابات الشاب العاشق... ويحك يا أوغستا، كنت من قبل تغارين من جمالها، والان تريدين أن تلتهميها لأن روفوس مات... ويحك يا تيغالنيوس، تريد أن تودي بحياتها لتقهرني !

لن يتحقق ما تصبون اليه، فلن تروها في الميدان. لأنها إن لم تمت مريضة، فسأخطفها بعيداً عن متناول أيديكم لكي لا تلتقفها الكلاب. وأعدكم بأنني كلما رأيتم ساقول : ها هم أولاء الحمقى الذين هزئ منهم بترونيوس

وغير راضٍ قصد التريسيليوم لتناول الطعام مع يونيكي وخلالها قرأ عليها القارئ بعض قصائد ثيوكريتوس الرعويّة. في الخارج كانت الرياح تحمل سحاباً باتجاه سوراكتي، وما لبثت العاصفة أن عكرت الامسيّة الصيفيّة الهادئة. أرعدت في جهاتها السبع، فيما كانا حول المائدة يصغيان بهدوء إلى أغاني الشاعر الرعوي، الذي عبر غنائياً عن الحب الرعوي بلهجة الدورين في اللغة اليونانيّة، ثم تهيأ للذهاب إلى النوم.

وقبل أن يهما بالتحرك وصل فينيكوس. حين علم بترونيوس بقدومه خرج إليه وسأله

- ماذا لديك من أنباء جديدة؟ هل رجع نازاريوس إلى السجن؟

- رجع ليتدبر هناك أمر الحراس، وأنا التقيت بطرس الذي قال لي أن أصلي، وأتحلى بالايمن.

- حسناً. إذا سار كل شيء على ما يرام، فغداً ليلا يمكن إخراجها...

- ينبغي أن تكون هنا فجرًا برفقة الاجير

- الطريق ليس طويلاً، فاخلد إلى النوم.

لكن فينيكوس جلس في السوبرسلوم، وأخذ يصلي. وعند طلوع الشمس وصل المستأجر نيفر من الريف الكوريولي، ومعه بغال جلبها وفق تعليمات تلقاها من فينيكوس، وهودج، وأربعة رجال انتقاهم من بين الأرقاء البريتانيلين، لكنه ترك هؤلاء الأشخاص في نزل في سوبورا على سبيل الحيلة.

فينيكوس الذي أمضى ليلته ساهرا خرج إلى أمام الاجير، وما أن رأى الاجير سيده الشاب حتى اندفع اليه يقبل يديه وعينه ثم قال

- هل أنت مريض، يا عزيزي، أم الهموم امتصت الدماء من وجهك؟  
كدت لا أعرفك في البداية.

قاده فينيكوس إلى ركن داخلي يدعى كسيستوس، وهنالك باح له بالسر. أصغى نيفر باهتمام كبير، وبان على وجهه الاسمر حماسه الشديد.

- مسيحي إذن؟

صرخ وتفحص وجه فينيكوس الذي فهم مبتغاه فكان جوابه :  
- أنا أيضاً مسيحي.

تلاوات الدموع في عيني نيفر صمت للحظة، ثم رفع يديه للدعاء :  
- الحمد لك يا مسيح أنك أزلت الغشاوة عن هاتين العينين وهما  
أغلى ما لدي في هذا الكون.

وقام بمعانقة رأس فينيكوس، وبدموع الفرح راح يكيل جبينه  
بالقبلات.

وبعد قليل جاء بترونيوس، مصطحباً نازاريوس معه.

ومن بعيد قبل أن يصل، صاح :

- أخبار طيبة !

كانت أخباراً طيبة حقاً. الطبيب كلاوسوس أولى ليفيا العناية الطبيّة،

وكان قد عانى من نفس المرض الذي أودى بحياة المئات في التوليانوم وفي السجن. وأفلح نازاريوس بالاتفاق مع صاحب الحديد المحمي في معاينة الموتى. كما نجح في مساومة أنتيس على تقديم العون.

فقال نازاريوس :

- لقد فتحنا ثقباً في التابوت لتتنفس المريضة. وخشيتنا الوحيدة أن تعود إلى وعيها، وتكلم في أثناء مرورنا قرب الحرس الامبراطوري، ولو أنها تعاني وهنا شديداً، وتستلقي مغمضة العينين منذ الصباح. أعطاهما كلاوسوس مخدراً حضره بنفسه، ووصف لها أدوية سأحضرها أنا من المدينة. لن تقوم بإحكام غطاء التابوت بالمسامير، ليسهل رفعه ووضع ليفيا في الهودج أصغى فينيكوس مشدوداً، شاحب الوجه لكلام نازاريوس وسأله بترونيوس :

- وهل يخرجون جثثاً أخرى من السجن؟

فأجاب الشاب :

- مات حوالي العشرين، وسيموت غيرهم حتى المساء. ونحن سنسير معهم. وسوف نتدبر أمرنا بحيث نتخلف عنهم في الطريق عند أول منعطف، فانتظرونا عند معبد لبييتينا. ندعو الله أن يجعلها ليلة دامسة. - سوف يستجيب قال نيفر. سوف تستمر العواصف والرياح ليالي عدة.

وسأله فينيكوس :

- الن تحملوا مشاعل؟

- اصحاب المشاعل يسيرون في المقدمة فقط. انتظرونا عند المعبد في كل الاحوال. سنخرج الجثث قبل أن ينتصف الليل مباشرة. ساد صمت، ولم يسمع الا أنفاس فينيكوس اللاهثة.

التفت اليه بترونيوس :

- قلت لك البارحة أن من الافضل أن نلزم المنزل كلانا. لكني الان لا أطيق صبرا البقاء هنا... وعلى أية حال ما دامت المسالة مسالة تهريب، فينبغي أخذ الحيطه الشديده، لكن بما أن هناك تواييت كثيرة فلا مجال للشكوك من قبل أحد.

شدد فينيكوس قائلاً :

- تماماً، تماماً. علي الانصراف. أنا الذي سأخرجها من التابوت...

وأعلن نيفر

- وما أن تصبح في كوريولي فسأتكفل أنا بايوائها في منزلي. وبهذا انتهى الحديث. انطلق نيفر إلى رجاله في النزل. وخبأ نازاريوس كيس الذهب تحت عبائه وقصد السجن. وبدأ الاضطراب يغزو فينيكوس. إنه يوم التوتر والانتظار العصيب.

قال بترونيوس :

يجب أن ينجح الأمر، لأن فكرة الخطة سليمة، وليس هناك أفضل منها. وأنت ينبغي عليك أن تلعب دور المفجوع، وتلبس رداء قائما. ولكن لا تتخلف عن حضور الالعاب. دعهم يلمحوك هناك. الخطة تامة، خاليّة من الثغرات. ولكن هل أنت واثق من الاجير؟



فأجاب فينيكوس :

- إنه مسيحي !

رمقه بترونيوس بنظرة استغراب، وهز رأسه قائلاً كأنه يحدث نفسه :

- بحق بولوكس ! كيف انتشر هذا الدين ! وكيف استحوذ على نفوس البشر في وسط هذه الالهوال يجرؤ الناس على رفض كل الالهة الرومانيين، واليونانيين والمصريين... حالة استثنائية خارقة... لو كنت أحمل نوعاً من الايمان بأن الهتنا تستطيع أن تفعل أي شيء، لنذرت لكل منها ستة ثيران بيض، ولخصصت جوهر باثني عشر منها... ولا تبخل أنت بوعودك تجاه المسيح...

فقال فينيكوس :

- أنا منحته روعي.

وافترقا. رجع بترونيوس إلى السوبيسلوم، وذهب فينيكوس ليراقب السجن من بعيد، ثم إلى سفح تلة فاتيكانوس حيث الكوخ الذي تعمد فيه على يد الحواربي. شعر أن المسيح سوف يصغي اليه هناك أكثر من أي مكان آخر. وما إن وجد الكوخ حتى ركع أرضاً، وبدأ صلاة استحقت كل طاقاته الروحية المتوجعة. استغرق في تضرعاته، حتى نسي أن يكون، وما الذي حصل له.

وعند العصر أيقظه صوت البوق القادم من جهة سيرك نيرون. فخرج من الكوخ، ونظر حوله كما يفعل من يفيق الان من حلم كان فيه. في الخارج ساد الحر والسكينة، التي جر حها البوق بين لحظة وأخرى.

بدأ الهواء يحمل الرطوبة، وفوق المدينة كانت السماء ما زالت زرقاء، ولكن من ناحية جبال السابين وفي الطرف السفلي من مجال الرؤية تجمعت غيوم قائمة.

قصد فينيكوس البيت. وكان بترونيوس في انتظاره هناك، فبادره قائلاً:

- كنت في البالاتينوس تعمدت أن يروني. في المساء مآدبة لدى أنيسوس. قلت لهم ستكون هناك، لكن بعد منتصف الليل، لكي يتسنى لي النوم قليلاً. أنا سأحضر، ومن الأفضل حضورك أنت كذلك.

- هل هناك أية أخبار عن نيفر أو نازاريوس؟

- لا. سنتقيهما عند منتصف الليل. ألم تلاحظ أن العاصفة قادمة؟

- أجل.

- عرض الغد مخصوص بتعليق المسيحيين فوق الصليبان، لكن المطر قد يعيق المسالة.

وتقدم أكثر ليأخذ بذراع فينيكوس ثم يضيف قائلاً.

- أما هي فلن تراها على خشبة الصليب، بل ستلتقيها في كوريولي بحق كاستور! لا أعوض هذه اللحظة بجواهر روما كلها.

اقترب المساء، واكتست المدينة باكراً برداء الظلمة، بعد أن غطت الغيوم المدى. وحين حل الليل انهمر المطر غزيراً، ليتصاعد البخار من فوق الحجارة التي حمتها حرارة الشمس، ويملاً الضباب شوارع المدينة.

وأخيرا نطق فينيكوس قائلاً :

- هيا بنا، فقد يخرجون الجثث باكرا بسبب العاصفة.

فأجاب بترونيوس :

- لدينا الوقت الكافي.

وخرجوا إلى الطريق، وهم يرتدون عباءاتهم عابرين باب الحديقة. وحمل بترونيوس ما يسمى سيكا رومانية، كانت تلازمه دوما في كل واجباته الليلة.

كانت المدينة خالية بسبب العاصفة. كانت البروق الذاهبة بالابصار تخترق الغيوم بين فترة وأخرى، وتظهر جدران الابنية الحديثة التي لم تستكمل بعد، إضافة إلى حجارة الطريق المبللة. وبعد أن قطعوا مسافة طويلة، لمحووا على ضوء البروق الرابية الصغيرة التي انتصب فوقها معبد لبييتينا الصغير، وكان ينتظر أسفلها مجموعة من البغال والخيول.

نادى فينيكوس بصوت خفيض :

- نيفر!

فرد عليه صوت تحت المطر

- أنا هنا يا سيدي!

- هل كل شيء على ما يرام؟

- أجل يا عزيزي، نحن هنا منذ حلول المساء. لكن تعالوا إلى تحت الجرف اتقاء لمزيد من البلل. يا لها من عاصفة! أظن أنها ستمطر بردا.

وسرعان ما تحقق توقع نيفر، فأبْرَدت حبات صغيرة متفرقة في البداية،  
ثم تكاثف البرد حبات أكبر فأكبر، جعلت الهواء بارداً على حين غرة.  
التجوؤوا تحت الجرف توكياً للرياح وحبات البرد، وراحوا يتحدثون  
بصوت خفيض.

قال نيفر

- حتى لو رأنا أحدهم، فلن يساوره الشك، لأننا نقف هنا، وأنا  
نتنظر انتهاء العاصفة. أمر واحد أخشاه، أن يرجئوا نقل الجثث حتى  
يوم غد.

قال بترونيوس :

- لن يدوم البرد طويلاً. علينا أن نتنظر. وانتظروا مترقبين سماع  
ضجيج الموكب. انحسر البرد، لكن عاصفة مطريةً تبعته. وبين الفينة  
والفينة كانت الرياح تهب من جهة حفر النفايات، حاملة معها روائح  
الجثث غير المدفونة تماماً.

صاح نيفر بغتة :

- الملح بصيصاً من الضوء، عبر الضباب... واحد... اثنان...  
ثلاثة... تلك مشاعل.

والتفت تلك مشاعل.

والتفت نحو رجاله :

- احرصوا على الا تنهق البغال.

وقال بترونيوس :

- ها هم قادمون !

صارت الانوار أكثر وضوحا، وسرعان ما تيسر لهم أن يلمحوا السنة الهب المشاعل ترفرف بفعل الريح.

رسم نيفر صليبا، وانهمك يصلي. كان الموكب يتقدم، حتى توقف أخيرا عند بلوغه المعبد لطا كل من فينيكوس و بترونيوس و نيفر عند جانب من التبة، لجهلهم ما يحدث. فتبينوا أن أفراد الموكب قد توقفوا ليحزموا وجوههم وأفواههم بالخرق، تفاديا لرائحة الجثث التي باتت باقترابهم من البوتيكلوم غير محمولة. وسرعان ما حملوا التوابيت وتابعوا المسير.

بقي تابوت واحد لا غير قرب المعبد الصغير.

قفز فينيكوس نحوه، وتبعه بترونيوس، ثم نيفر و برفقته رقيقان يحملان الهودج، وقبل أن يبلغوا المكان سمع في الظلمة صوت نازاريوس المتوجع :

- سيدي، لقد نقلوها مع أرسوس إلى سجن اسكولينوس... نحن سنحمل جثة أخرى. لقد أخذوها قبل منتصف الليل !...

حين وصل بترونيوس المنزل كان متجهما تستحوذ عليه الكآبة، ولم يملك كلمة عزاء يواسي بها فينيكوس. كان يدرك أن من المستحيل إخراج ليفيا من تحت الأرض في سجنها هذا. قدر أنهم قد نقلوها من التوليانوم لكي لا تلقى حتفها بسبب الحمى، فتنجو من مثولها في المدرج. كان هذا هو سبب حرصهم عليها أكثر من أي شخص آخر. أشفق عليها بترونيوس أيما إشفاق، وكان إشفاقه العميق على فينيكوس أيضاً. وخطر له أنها المرة الأولى في حياته التي يبوء فيها بالفشل، ويتصرون عليه.

قال في نفسه : " أرى أن فورتونا لم تعد وقيّة معي . لكن الالهة ستشعر بالخذلان إذا ما ظنت أنني أتدخل في حياة واحد مثل فينيكوس

ونظر إلى الشاب الذي كان ذاهلا وقد اتسعت حدقتاه الشاخصتان .

سأله بترونيوس :

- ما خطبك؟ هل تعاني من الحمى؟

فأجابه الشاب بصوت كسير، متلعثم كطفل مريض :

- ولكنني على إيماني بأن المسيح سوف يعيدها الي .

وكانت الرعود الاخيرة للعاصفة فوق المدينة قد خمدت .

ثلاثة أيام صيفيّة ماطرة في روما ظاهرة استثنائيّة، ناهيك عن هطول البرد المنافي تماماً للطبيعة، الذي تكرر كل ليلة متأخرة من ليالي روما، إضافة إلى حدوثه في أوقات النهار والمساء، فمنع الاستمرار في إقامة العروض. بدأ الشعب يخاف. وخمن الناس أن محصول الكرمة سيكون رديثا. وحين عند العصر، وقعت صاعقة على الكابيتوليوم وأذابت نصب سيريس، أقدموا على تقديم القرابين باسم سلفاتور جوبيتر. أشاع كنهة سيريس أن غضب الالهة طال روما، لأنهم يتمهلون كل هذا القدر في عقاب المسيحيين. فحشود الناس إذن كانت تطالب بالاسراع في إقامة الالعاب السيركيّة. وعم الفرح ليغرق أنحاء روما حين أعلن بدء الالعاب بعد توقف دام ثلاثة أيام.

في هذه الاثناء قد انكشف الطقس من جديد.

دام توافد الحشود إلى المدرج، منذ الفجر، حتى المساء. وأبكر القيصر في مجيئه برفقة عذراوات فيستا، وحاشيته الامبراطوريّة. كان ينبغي أن تبدأ العروض بقتال المسيحيين ضد بعضهم. البسوهم كالمجالدين، وزو دوهم بكل أنواع السلاح التي يستخدمها المبارزون، والمدافعون، والمهاجمون في القتال. لكن هذه الخطة قوبلت بخيبة الامل. قام المسيحيون، ورموا بعيدا بالشباك، والرماح والسيوف، والتروس، وراحوا يتعانقون مشجعين بعضهم على تحمل الالام والموت. البعض وصفهم بالجبن، وزعم آخرون أنهم لا يتقاتلون لأنهم يكرهون

الشعب، ويريدون أن يمنعوا عنه فرصة الاستمتاع بتقاتلهم الشجاع.  
وفي نهاية المطاف، أمر القيصر بإنزال مجالدين حقيقيين عليهم،  
وأبادوا الراكعين العزل عن بكرة أبيهم.

وبعد إزالة الجثث، لم يكن العرض عرضاً قتالياً، بل جاءت بعدها  
سلسلة كاملة من صور الحياة الميثولوجية، وفق ما أمر به القيصر  
كذلك. شوهد مثلاً عرض يظهر كيف احترق هيركوليس باللهب  
الحي فوق جبل أوتا. اهتز فينيكوس لفكرة أن يقوم أرسوس بلعب  
شخص هيركوليس لكن على ما يبدو، لم يأت بعد دور خادم ليفيا  
الوفي، لأن مسيحياً آخر لم يكن فينيكوس يعرفه، هو الذي أحرق أمام  
المتفرجين. في المشهد الثاني، بالمقابل، قدر لشيلون الذي لم يعفه القيصر  
من حضور الألعاب، أن يلمح وجوها معروفة، في عرض يصور موت  
ديدالوس وإكاروس. قام بدور ديدالوس القس يوريسيوس الذي فسر  
لشيلون ذات يوم معنى رمز السمكة، أما دور إكاروس فشخ صه ابنه  
كوارتوس، وقد قامت الات مخصصة لذلك، برفع الاثنين، ثم القت  
بهما من ارتفاع شاهق إلى أرض الميدان.

جاء سقوط كوارتوس قريباً من منصة القيصر، حتى أن دمه المتناثر  
قد لطح، إضافة إلى زخارف المنصة، رداءً القيصر الأرجواني.

أغمض شيلون عينيه تفادياً لرؤية لحظة السقوط، فلم يصله إلا  
صوت الاصطدام بالأرض. لكنه حين فتحهما، وشاهد بقع الدم إلى  
جانبه، كاد أيضاً أن يغمى عليه إلا أن المشاهد تلاحقت متسارعة. ما  
حل بالعذارى من تعذيب وحشي، نتيجة اقتضاضهن من قبل مجالدين  
بثياب الحيوانات، قد صع د من حماس المشاهدين.



فلقد أمكنهم أن يشاهدوا كاهنات سيريس و سيبيل ، دانادات و باسيفي، ليكحلوا عيونهم في نهاية المطاف بالفتيات الصغيرات غير البالغات وقد مزقتهن الخيول الوحشيّة. صفق الشعب مثنيا على القيصر ما جادت به قريحته من أفكار جديدة وجديدة. فيما ظل هو، وقد أشعرتة الثنات بعظيم الفخر، والتصفيق بما لا يحد من الابتهاج، مستمرا في متابعة مشاهد الوحوش وهي تمزق الاجساد البيضاء، مستمتعا بعويل الضحايا.

لكن كان هناك صور مستقاة من تاريخ المدينة. بعد مشهد العذارى عرضوا موسيوس سكيغولا وقد ثبتت يدها في إناء النار. المشهد جعل رائحة اللحم المشوي تملأ الجو، لكن الضحيّة، وكما فعل سكيغولا الحقيقي، قد احتمل كل الام الحريق، ودون أن يطلق آها واحدة، فتح عينيه، وراحت شفثاه تمتمان بالصلاة. وبعد أن طعنوه طعنة الرحمة وأخرجوا جسده إلى السبولاريوم، بدأت استراحة الطعام المعتادة.

غادر القيصر بصحبة عذراوات فيستا والاوغستيان، المدرج متجها إلى خيمة خصصت لغرض تناول الطعام الفاخر. وتناول القسم الاعظم من الجمهور طعاما وزعه عليهم الأرقاء بسخاء، بينما نزل بعضهم إلى الميدان يتفحص الرمل المدمى بفضول، ويتبادلون الاحاديث حول ما شاهدوه حتى الان، لكنهم سرعان ما صعدا المدرج كيلا تفوتهم وجبة الطعام السخيّة. ثم جاء الخدم ليمهدوا أرضيّة الميدان الرملية، ويحفروا حفرا كثيرة متراصة.

ثم بدأت العروض مجدّداً. فتحت المداخل، وتدفق منها المسيحيون العراة، يحمل كل منهم صليبه الثقيل على كتفيه. قساوسة تنوء ظهورهم محنيّة تحت وطأة الصليبان.

نساء منفوشات الشعر جهدن في إخفاء عريهن. رجال. صبيان. أطفال صغار. كانت الصلبان بالكامل مزينة بالزهور. قام خدم السيرك بإرغام المساكين على إنزال صلبانهم ووضعها قرب الحفر، وأن يصطف الجميع كل إلى جانب صليبه.

جاء أرقاء سود ومددوهم على الصلبان، وثبتوا أياديهم على العوارض الخشبيّة. حدث ذلك بسرعة فائقة بحيث ما إن عاد المتفرجون من استراحتهم حتى رأوا الصلبان منصوبة قد ثبت فوقها المصلوبون. ملأت قرعة المطارق والمسامير أرجاء الميدان، وتجاوزته إلى المنطقة المحيطة، وإلى الخيمة حيث استقبل القيصر عذراوات فيستا، وأصدقاءه، وراحوا يحتسون النبيذ، وينك تون مع شيلون، ويهمسون في آذان كاهنات فيستا كلمات غريبة. فيما كان العمل في الميدان جاريا على قدم وساق، والمسامير تدق عميقا في أيادي المسيحيين، وأرجلهم وتنهمر الرفوش مهيلة التربة في الحفر لتثبيت قوائم الصلبان.

من بين الضحايا التي وفدت أرتالا إلى الميدان، كان هناك كريسبوس. لم يجئه الدور في العرض السابق لتنهشه الوحوش، فاستحق الان ميتة الصلب. لكنه كان سعيدا لأنه سيواجه الموت عما قريب. كانت صحته قد تبدلت عما كانت عليه، فبدأ شديد الهزال، عاريا الا من رباط قماش يستر عورته، وإكليل من الورد حول رأسه، لكن الشجاعة التي لا تهزم ما زالت تشع في عينيه، وتقاسيم الصلابة ظلت متربعة في وجهه. قلبه لم يتبدل، وظل صلبا يحمل الوعيد لأخوته بأن يطالهم غضب الرب إن لم يتوبوا.

- اشكروا المخلص، لأنه راف بكم وخ صكم بموت كموته. قد يصفح عن بعض خطاياكم، لكن حافظوا على خشيتكم فالحق لا يخدش، ولا يمكن أن يمسه حكم شرير وخير في الوقت نفسه.

كان يتكلم على وقع ضربات المطارق، وهي تدق المسامير في أيادي الضحايا وأرجلهم فوق أخشاب الصليبان. كان قد انتصب الكثير فوق صلبانهم، فيما توجه الان إلى أولئك الذين ما زالوا إلى جانب صلبانهم وراح يتكلم :

- أرى السماء وقد تجلت، لكنني أرى جهنم أيضاً. أنا نفسي لا أدري كيف سأواجه السيد، وما هو حسابي عنده، لكنني آمنت بالسيد، وكرهت الشر، وليس الموت ما أخشاه، بل القيامة والبعث، ليس الالام، بل العقاب، لأن يوم الحساب قد حان.

صاح صوت احتفائي، مطمئن جاء من صفوف المقاعد القريبة :

- ليس للغضب، بل للرحمة، والخلاص والسعادة. لأني أوكد لكم أن المسيح سيعانقكم، ويواسيكم، ويجلسكم إلى يمينه. ثقوا به، فها هي ذي السماء متجلية أمامكم.

اتجهت العيون نحو مصدر الصوت. والذين كانوا فوق الصليبان، وهم كذلك رفعوا وجوههم الشاحبة المعذبة، وراحوا ينظرون إلى المتحدث.

لكن الرجل نزل حتى سجاج الميدان، وودع أولئك بإشارة الصليب.

مد كريسبوس يديه نحوه، يريد أن يؤن به، ولكنه حين لمح وجهه تراخت يداه، واثنت ركبتاه، وارتعشت شفتاه بالدهشة : " الحواريّ بولس " !

والذين لم يكونوا قد صلبوا بعد، ركعوا جميعا بينما استأنف بولس الترسوسي كلامه ملتفتا إلى كريسبوس :

- لا تهدد دهم يا كريستوس، لأنهم سيرافقونك اليوم إلى الجنة. أتظن أنهم يمكن أن تلحق بهم اللعنة؟ من يمكن أن يلعنهم؟ أترأه الرب الذي ضحى بابنه من أجلهم؟ أم المسيح الذي مات من أجل خلاصهم، كما هم الآن يموتون من أجل اسمه؟ كيف سيلعن من يحبه؟ من يوجه تهمة ضد من اصطفاهم الله؟ من يقول لهذا الدم: " ملعون ! "

فأجاب البابا العجوز :

- سيدي، لقد كرهت الشر

- المسيح أوصى بأن نحب الناس أكثر مما نكره الشر، لأن دينه دين المحبة وليس دين الشر.

فأجاب كريستوس :

- لقد أثمت في ساعة موتي

و ضرب صدره نادما.

هنا تقدم ناظر أماكن الجلوس في المدرج، من الحوارّي، و سأله :

- من أنت حتى تتكلم عن الاحكام؟

فأجابه بطرس بهدوء :

- مواطن روماني

واستأنف كلامه ملتفتا إلى كريستوس

- دعك على إيمانك، فهذا هو يوم الرحمة، و مت في سلام، يا خادم

الله.

وتقدم من كريستوس زنجيان ليمدداه فوق الصليب، فيما التفت حوله مرة أخرى ليقول :

أخوتي ! صلوا من أجلي.

تلاشت القسوة المألوفة في سيماء وجهه، وشففت تقاسيمه، السلام والوداعة. مد يديه طوعيا على جناحي الصليب، تسهلا للعمل، ورفع عينيه نحو السماء يصلي بحماس. وكأنما سرح بعيدا فتعطل إحساسه، لأنه حين كانت المسامير تنغرز في يديه، لم يبد جسده أية ارتعاشة، ولم يرتسم على وجهه ما يشير إلى الشعور بالآلم، بل راح يصلي عند دق المسامير بقدميه، وصلى حين نصب الصليب، وأحيط بالتراب.

لكن عندما بدأ الجمهور يملأ المدرج بضحكه وصياحه، تقطب حاجباه قليلا تعبيراً عن غضبه، لأن هذا الشعب الهمجي يفسد عليه موته في سلام وهدوء.

كانت الصليبان كلها قبل ذلك قد انتصبت، وغطت أرض الملعب كغابة كثيفة على ق بشر فوق اشجارها. كانت أشعة الشمس تنير أخشاب الصليب ورؤوس الشهداء، فترسم ظلالاً كتيمة شكلت شبكة سوداء أضاءت فتحاتها الرمل الأصفر. كان مشهداً تركزت خلاله كل بهجة الجمهور على أمر واحد هو مشاهدته مسيرة موت الضحايا حتى نزاعها الأخير. كانوا من الكثافة في أرض الملعب على نحو جعل حركة الأرقاء بينهم متعذرة إلا بشق الأنفس.

في أطراف الملعب علقت النساء، أما كريستوس، كأحد قادة المسيحيين، فقد علق إلى جوار منصة القيصر مباشرة، على خشبة صليب ضخمة، غلف أسفلها بالنبات. لم يكن أحد من الضحايا قد فارق

الحياة بعد، لكن كل من صلب في البداية كان مغشيا عليه. لم يتأوه أحد، أو يتوسل رحمة. كان بعضهم محني الرأس فوق كتفه أو صدره، كأنه نائم، والبعض الآخر سارحا في التأمل، وآخرون ينظرون نحو السماء يتمتمون بشفاههم بصمت. لكن ضمن هذه الغابة الرهيبة من الصلبان كانت الاجساد المصلوبة تبث الما أخرس يبعث على الخشيّة.

حين أنهى الشعب مادبته، وعاد إلى السيرك في هرج ومرج، دهمه الخرس فجأة، فلم يعد قادرا على التفكير، ولم يدر أين، وعلى أي صليب من الصلبان يتوجه، ليريح عينيه. لم يعد عري الاجساد النسائيّة المصلوبة تثير مشاعره، ولم يبادر إلى فتح رهانات على من سيموت أولا من الضحايا، كما هي العادة حين يكون عددهم أقل في الميدان.

حتى أن القيصر بدا وكأنه سئم نفسه، فحين التفت برأسه، وهو يسوي قلادة عنقه بحركة كسول، كان وجهه مرهقا، يغلبه النعاس.

في هذه اللحظات فتح كريسيبوس المعلق جفنيه، بعد أن كانا مغمضين، فبدا ميتا أو مغميا عليه، ونظر نحو القيصر، بوجه يعكس تعابير النعمة، وعينين ملتهبتين، ما جعل الاوغشتيان يشيرون اليه متهامسين، الأمر الذي دفع القيصر كذلك إلى الانتباه، فوضع زمر دته بتكاسل أمام عينه.

ساد صمت أبكم. تسمرت عيون الجمهور عند كريسيبوس، الذي حاول تحريك يده اليمنى، كأنما كان يسعى إلى تحريرها عن الصليب. وبعد لحظات انتفخ صدره، وتحدث أضلاعه، وصاح بصوت قوي :

- الويل لك يا قاتل أمك !

دقت هذه الاهانة القاتلة سمع سيد العالم على مسمع من الاف

المتفرجين. ذهل الاوغستيان، ولم يملكوا شجاعة حتى على التنفس،  
وتخشب شيلون، وارتعش القيصر، ووقعت الزمردة من بين أصابعه.

وكذلك الشعب، فقد حبس أنفاسه، وظلت صرخة كريسيوس  
تدوي في أرجاء المدرج :

- الويل لك يا قاتل الزوجة، والاخ، الويل لك، يا عدو المسيح!  
ستنشق الأرض من تحتك، وسيفتح لك الموت ذراعيه، وتنتظر  
حفرة القبر، أيها الجثة الحيّة، لأنك ستموت من الهلع، وستعلن إلى أبد  
الابددين.

وبما أنه، وقد كان واهنا بعد أن صار في حياته أشبه بهيكل عظمي،  
لم يكن قادرا على تحرير يديه من فوق الصليب، فقد راح بكل ما لديه  
من قوة، وتوتر مخيف، يهز لحيته البيضاء فوق منصة القيصر، ليرش  
نحوه ما يتسنى من أوراق زهور ساقطة من الاكليل حول رأسه.

- الويل لك، أيها المجرم! لقد طفح الكيل، وحانت ساعتك! ...

ثم شد على نفسه مرة أخرى، وبدا للحظة أنه يحرر يديه عن  
الصليب، ويرفعهما نحو القيصر متوعدا. لكن ذراعيه الهزيلين سرعان  
ما انفتحا أكثر فأكثر، وهبط جسده إلى الاسفل، ومال رأسه على  
صدره، ومات.

وفي أنحاء الغابة كان ضعفاؤهم كذلك يغرقون واحدا بعد الآخر  
في حلم الابدية.

## قال شيلون

- سيدي، إن البحر الان كالزيت، والامواج كأنها في رقاد...  
لنرحل إلى أكايا. هنالك حيث أبولو والاكاليل، والامجاد في انتظارنا.  
هنالك يؤهلك الشعب، والالهة تستقبلك وتحتفي بك كواحد منها.  
أما هنا...

ثم لزم السكوت، لأن شفته السفلى باتت ترتجف حتى استحال  
نطقه إلى كلمات غير مفهومة.

فأجاب نيرون :

- لنذهب فور انتهاء الالعاب. أعلم أن البعض يقولون عن المسيحيين  
بأنهم أجساد بريئة. وإذا ما رحلنا فالجميع سيقول عنهم ذلك. ما الذي  
يخيفك أيها الفطر العجوز العفن؟

وقطب جبينه رامقا شيلون بنظرة متسائلة، ينتظر منه جوابا، لأنه  
في واقع الحال، لم يكن يشعر بالطمأنينة التي يحاول أن يبديها. لقد  
أجزعته كلمات كريسبوس في أثناء العرض الاخير، وحين عاد إلى  
المنزل لم يستطع أن ينام من شدة غيظه، ومن العار الذي لحق به، إضافة  
إلى خوفه الشديد أيضاً. لكن فيستينوس الذي تستحوذ عليه الخرافات،  
وكان يستمع إلى حديثهما، التفت حوله وقال في خفية :



- صدقة يا سيدي، وخذ بما يقول، لأن شيئاً غريباً يكمن في هؤلاء  
المسيحيين... إن الوهتهم تمنحهم موتاً ميسراً سهلاً، لكنها قد تتمتع  
بالغضب والانتقام.

ما جعل نيرون يرد فجأة :

- لست من ينظم الالعاب، لكنه تيفالنيوس

فأجاب تيفالنيوس بعد أن سمع رد القيصر :

- حقاً. أنا أنظمها. أنا أنظمها. وإني أبصق على كل الالهة المسيحيين.

- فيستينوس هذا دملة مليئة بالخرافات، أما هذا البطل اليوناني  
فيموت من رعدته لأتفه الاسباب.

فرد عليه نيرون :

- حسناً. لكن من الان فصاعداً، فاقطع السنة المسيحيين، أو سُد  
أفواههم.

- ستحشوها النار أيها القيصر الالهي.

فغمغم شيلون :

- ويلي !

أما القيصر، وقد سكبت الثقة العمياء التي أبداها تيفالنيوس، الروح  
في نفسه، فقد ضحك ملء فمه، وقال ملتفتاً نحو العجوز اليوناني :

- هذه ذرية آخيل.

كان شيلون حقا في حالة يرثى لها. غزا الشيب كامل ما تبقى من شعر فوق جمجمته. وكست وجهه غشاوة ثم مزيج من الاضطراب اللعين، والجزع، والتحطم. وبدا أحيانا كمن أصابه الخدر، فأضاع شيئاً غير قليل من إدراكه وتماسكه. وبات غالباً لا يرد على الاسئلة. وفي أحيان كثيرة إذا ما انفجر غضبا، يطلق كلامه خبط عشواء، الأمر الذي جعل الاوغستييان يفضلون عدم التحرش به.

والان بالتحديد كان على هذه الحال.

فصرخ بهم وقد مزقه اليأس مشيرا بأصابعه نحوهم :

- افعلوا بي ما تشاؤون، لكنني لن أذهب بعد الان إلى الالعاب.

نظر نيرون اليه للحظة، ثم التفت نحو تيفالنيوس موصيا :

- احرصوا أن يكون هذا الرواقي إلى جانبي دائما في الحديقة. أريد أن أرى أي تأثير لمشاعلنا عليه.

فقال :

- سيدي، لن أرى شيئاً، لأنني لا أرى أبدا في الظلمة.

فأجاب القيصر بابتسامة مرعبة :

- هذه الليلة ستكون مضيئة كالنهار.

ثم التفت إلى أوغستييان آخرين، وتحدث معهم عن المنازلات التي يرغب في إقامتها بانتهاء الالعاب.

والان تقدم بترونيوس من شيلون حتى لامس ذراعه قائلاً :

- أرايت؟ ألم أقل لك أنك لن تنجو منها.

فأجاب شيلون :

- أرغب أن أشرب حتى الثمالة.

ومد يده إلى القدرح، لكنه لم يكن قادراً على رفعه. فتناول فيستينوس منه، ثم اقترب منه ليسأله بفضول، لكن بملامح مرتعدة :

- ما الذي دهاك؟ هلا تلاحقك الأرواح المنتقمة؟

رمقه العجوز بغم فاغر، كأنما لم يفهم سؤاله.

فكرر فيستينوس قائلاً :

- هل تلاحقك الفوريات؟

- لا، لكن الليلة أمامي.

- آية ليلة؟... سترأف بك الآلهة ! عن آية ليلة تتحدث؟

- ليلة رهيبة عمياء يتحرك فيها شيء ما، ويأتي نحوي، لكنني لا أعرف ما هو، أنا خائف.

- كنت أعرف دائماً أن هؤلاء سحرة. الا ترى أحلاماً؟

- لا، لأنني أنام جيداً لم أفكر في يوم أنهم سيواجهون عقاباً مثل هذا العقاب.

- هل تشفق عليهم؟

- لم تريقون كل هذه الدماء؟ أتعلم ما الذي قاله ذاك وهو فوق الصليب؟ الويل لنا !

فأجاب فيستينوس بصوت خفيض :

- سمعته لكنهم من أحرقوا المدينة.

- ليس صحيحا؟

- وأعداء الانسانية !

- ليس صحيحا

- وسّمّموا المياه !

- ليس صحيحا !

- وقاتلوا الأطفال !

- ليس صحيحا !

فسأله فيستينوس مستغربا :

- كيف ذلك؟ وأنت الذي قلت ذلك عنهم، ووشيت بهم لتيفالنيوس

!

- ولهذا السبب تحاصرني الليالي، ويتبعني الموت... أحس أحيانا

أنني ميت، وأنتم كذلك.

- لا ! هم يموتون، أما نحن فأحياء. لكن قل لي ما الذي يمثل لهم

ويروونه، وهم ماضون إلى الموت؟

- المسيح !

- ربهم؟ هل هو رب عظيم؟

فأجاب شيلون بسؤال :

- آية مشاعل تريدون أن تشعلوها في الحديقة؟ أسمعت ما قاله  
القيصر؟

- سمعت، وأعرف.

- سيحرقون كلاً من سامرنتيتي وسمياكسي... نأمل ألا يصب  
إلهما غضبه على المدينة. عقاب رهيب.

- أفضل هذه الطريقة، دون إسالة الدماء. قل للعبد أن يضع القدح  
على فمي، لأن يدي باتت ترتجف نتيجة للشيخوخة.

في أثناء ذلك كان الآخرون يتحدثون عن المسيحيين.

قال دوميتوس أفر

- هم كثر إلى حد قد يبدوون حرباً أهلية. أتذكرون أننا كنا نخاف أن  
يلجؤوا إلى المقاومة، رغم أنهم يسيرون إلى الموت كالحملان.

تدخل بترونيوس قائلاً :

- تخطئون. إنهم يقاومون.

- وبأية طريقة؟

- بالصبر

- إنها طريقة جديدة.

- فعلاً. لكن من يملك شجاعة ليزعم أنهم يموتون كما يموت الأشرار

العاديون؟ لا. إنهم يموتون، وكان الاشرار هم من يعدمونهم، أي نحن،  
وكل شعب روما.

فصرح تيفالنيوس :

- هذر أحمق.

فجابهه بترونيوس قائلاً :

- شعب روما كشعب مدينة أديرا الغبي.

التقت عيون الجميع وقد ذهلوا من تعليق بترونيوس اللّماح،  
وكرّروا القول :

- فعلا ! موتهم يمتاز بشيء ما مختلف. شيء خاص.

وصاح فيستينوس من مكانه عن بعد :

- أقول إنهم يرون الوهتهم !

والتفت بعض الاوغستيان نحو شيلون :

- هيه، أيها العجوز، أنت تعرفهم جيدا، فقل ما الذي يرونه؟

دلق اليوناني النبيذ فوق سترته وأجاب

القيامة !

وراح يرتجف على نحو جعل الضيوف ينفجرون ضحكاً.

منذ أيام لم يمض فينيكوس ليلته في المنزل. ظن بترونيوس أن الشاب يخطط من جديد لتحرير ليفيا من السجن، دون أن يعلم أحدا في الأمر تجنباً لفشل خطته. أما هذا الشكوكي النبيل فقد بات بدرجة ما مؤمناً بالخرافة. وبالاحرى، منذ أن فشل في تحرير ليفيا من سجن مامرتنيوس، لم يعد واثقاً ببرجه الحسن.

وعلى أية حال لم يضع في حسبانته، حتى في هذه المحاولة الجديدة، أن مساعي فينيكوس لإنقاذ ليفيا سوف تجني ثمارها. فحراسة السجن مشددة أضعافاً مضاعفة قياساً بأيّ سجن آخر. وكان جيداً أنهم نقلوا الفتاة إلى هناك لكي لا تموت في مرضها، فيفوتوا عليهم فرصة مثلها في الميدان. لهذا السبب بالذات هم يحرصون عليها كضوء عيونهم.

وفكر في نفسه: " يبدو أن القيصر، و تيفالنيوس ينظمان عرضاً خاصاً أكثر عنفاً من كل ما سبقه من عروض، وأن فينيكوس سيلاقي حتفه قبل ان يكون بمقدوره أن ينقذها من هناك"

حتى فينيكوس أصبح الان متشائماً دون آمال، مودعاً أمرها في عهدة المسيح. وصار يرضيه أن يتمكن من زيارتها في السجن، وفكر أن نازايوس قادر على تأمين هذه الزيارة، بأن يرافقه بنقل الجثث والحقيقة أن وجه المغامرة في كشف أمره كان ضعيفاً، تحت جناح الظلام، والتنكر بثياب العبيد، وإنارة السجن شبه المعدومة. لكن من

كان يخطر بباله أن هذين النبيلين سوف يضطران في يوم أن يوضعا في موقف كهذا، وأن يستنشقا معا روائح الجثث المتفسخة.

حين حل المساء الموعود، لف بترونيوس مئزرا حول وسطه، وعصب رأسه بخرقة مغمسة بزيت الصنوبر، وبقلب خفاق انطلق برفقة المجموعة إلى السجن.

وهناك لم يعقهم أحد من الحرس الامبراطوري في الدخول. فلقد حمل كل منهم لوحة رخاميّة تمثل بطاقة دخول خاصة، قام الحارس بالكشف عنها تحت ضوء مصباحه. وسرعان ما فتح أمامهم الباب الحديدي، ودخلوا.

أول ما واجه فينيكوس قبو فسيح، مليء بالبشر تفرع إلى العديد من أمثاله، كانت كلها مضاءة بقناديل واهنة. كان الكثير من المعتقلين يغطون في نومهم، أو لعلهم كانوا قد ارموا قرب الجدران موتى. وكان آخرون يتحلقون حول جرن ضخّم من الماء يروون عطشهم كمرضى يعانون من الحمى الشديدة. وآخرون يجلسون على الأرض مستنديين على أذرعهم قابضين بأيديهم على رؤوسهم. وهنا وهناك أطفال نائمون في أحضان أمهاتهم. تأوهات في كل مكان. ولهات أنفاس متسارعة للمرضى، بكاء، أو تمتمات صلوات. غناء وتراتيل، وشتائم يطلقها الحراس. روائح الجثث منتشرة في هذا الزحام تحت الأرض.

بشر في مختلف الحالات الجسديّة. وجوه شاحبة مرعوبة. عيون الهبتها الحمى، شفاه مزرقّة بانّت في القرب من ضوء المصابيح.

جباه متعرّقة، أشعار منكوشة. وفي زوايا القبو كان البعض يحاولون رفع أصواتهم طلبا للماء أو يتوسلون بأن يدعوهم يموتون.



ارتجفت ركبنا فينيكوس، وتوقفت أنفاسه لهذا المشهد. وحين  
خطر له أن ليفيا هنا تواجه هذا المصير البائس، انتصب شعر رأسه،  
وتعطلت أنفاسه، وتجمدت الصرخة في حنجرتة. المدرج، الوحوش،  
أخشاب الصلبان، كلها كانت أرحم من هذه المهاجع الرهيبة المفعمة  
بروائح الموتى تحت الأرض، حيث تصاعدت التأوهات والتوسلات  
البائسة في كل اتجاه :

- آن آن تأخذونا إلى الموت.

غرز فينيكوس أظافره في راحتيه، وقد شعر أن قواه تخور، ويوشك  
أن يفقد وعيه. كل ما عاناه حتى الآن من حب، والام، قد استحال في  
هذه اللحظات إلى رغبة وحيدة : الموت.

وفي هذه الاثناء سمع صوت قائد مجموعة المقابر الجماعية :

- كم عدد الموتى لهذا اليوم؟

فأجابه المراقب :

- حوالي دزينة، وحتى الصباح سيزداد العدد، لأن البعض ينازع عند  
الجدران.

وشكا من بعض النسوة اللواتي يخبئن أطفالهن الموتى، ليظلوا في  
أحضانهن مدة أطول. وقال :

- أرحم لي أن أعاني التعذيب بالاعمال الشاقة في الارياف البعيدة،  
من أن أكشف على الجثث في هذا الجو القاتل من الروائح، وأحرس  
هؤلاء الكلاب العفنين هنا.

لكن القيم على المقابر الجماعية واساه بأن خدمته هناك ليست  
بأيسر على الاطلاق.

كان فينيكوس قد استجمع قواه، وراح يجول بنظره في المهجع،  
لكنه لم يفلح في رؤية ليفيا ولمع في ذهنه أنه لن يراها بعد الان وهي  
على قيد الحياة. أكثر من عشر أقبية مفتوحة على بعضها حفرت لهذا  
الغرض، لكن عمال الدفن لم يرتادوا منها الا حيث أخبروا بوجود  
أموات من أجل ترحيلهم. وهذا يعني أن فينيكوس لن يعاين كل الاقبية  
بحثا عن الفتاة.

ولحسن الحظ جاء أحدهم ليقول :

- علينا ترحيل الجثث حالا، لأنها أكثر نقلا للعدوى.

والا ستموتون مثلكم مثل العبيد.

فأجاب المراقب :

- نحن عشرة في مجموع الاقبية. وينبغي أن ننام أيضاً.

- إذن سأترك هنا أربعة فقط ليكشفوا على الموتى.

- غدا سنشرب إذا ما سمحت بذلك.

- سنشرب.

وأشار إلى أربعة، كان بينهم فينيكوس، وأرسل بالبقية ليضعوا  
الجثث في التوابيت.

تنفس فينيكوس الصعداء. كان واثقا الان أنه سيعثر على ليفيا.

أول الأمر بحث بدقة في المهجع الاول تحت الأرض، فعابن كافة الاركان العائمة التي لم يصلها ضوء المصابيح مباشرة، تفقد البشر النيام تحت أغطية القنب قرب الجدران، والمرضى الخطرين الذين أفردوا في زوايا خاصة، فلم يجد ليفيا. وكذلك كانت نتيجة بحثه الفاشلة في القبو الثاني والثالث. كان الوقت قد تأخر، والجثث قد نقلت إلى العربات. وتوضع المراقبون في الممرات عند ملتقى الاقبية، وناموا، وكف الأطفال عن البكاء وهدؤوا، ولم يعد يسمع في الاقبية الا أنفاس الصدور المريضة، وتمتات الصلوات هنا وهناك.

دخل فينيكوس والمصباح في يده إلى القبو الرابع الذي كان أقل اتساعا بكثير من البقية، وجال بعينه في أرجائه. وفي لحظة ارتعش، وكأنما لمح تحت فتحة شبكية في الجدار، هيئة أرسوس الضخمة.

وعلى حين غرة أطفأ المصباح، وتقدم نحوه.

سأله :

- هذا أنت يا أرسوس؟

- لقد أطفأت المصباح، فكيف أعرفك؟

لكن فينيكوس في هذه اللحظة قد رأى ليفيا الهامدة في معطف، فلم يجب بشيء، بل جثا إلى جانب الفتاة. عرفه أرسوس الان.

فقال :

- حمدا للمسيح ! لكن لا توقظها يا سيدي.

راح فينيكوس ينظر إلى الفتاة من خلال دموعه، فلاحظ حتى في

الظلمة وجهها الشاحب النحيل وذراعيها الهزيلين، فهم حبا بها لهذا  
المشهد. لكنه حب أشبه بالوجع الذي يمزق الفؤاد، والعذاب الذي يهز  
أعمق راقات الروح.

حب ترافق بالتصميم، والاحترام، والعبادة، واربد وجهه، ثم راح  
يقبل أطراف المعطف الذي يرقد داخله هذا الرأس الاغلى لديه من كل  
شيء.

ظل أورشوس يراقبه طويلاً، لكنه أخيراً شده من ردائه وسأله

كيف دخلت يا سيدي؟ وهل جئت كي تنقذها؟

نهض فينيكوس واقفاً. وظل للحظات يقاوم عاطفته، حتى أجاب :

- قل لي ما الوسيلة !

- كل ظني أنك قد وجدت الوسيلة. هناك طريقة واحدة تدور في  
رأسي...

نظر ناحية الفتحة الشبكية ، ورد كأنما يقول لنفسه :

- أجل... لكن جنودا هناك.

فأجاب فينيكوس

- سرية من الحرس الامبراطوري

- إذن، فلن نستطيع أن نعبر !

- لا !

مسح أورشوس جبينه بيده، ثم سأله ثانيّة :

- كيف دخلت إلى هنا؟

- من خلال بطاقة دخول أم نها لي مراقب المقابر.

وصمت، وكان شيئاً ما دار في ذهنه. ثم قال بعجالة :

- بحق عذاب المخلص. أنا سابقى هنا. وهي ستأخذ بطاقتي، وتعصب رأسها بقماشة، وتضع عليها العباءة، وتخرج بين عمال المقابر بعض الفتيان الصغار الحجم مثلها، فلن يتعرف عليها الحرس. ستذهب إلى منزل بترونيوس، وهو سيؤمن إنقاذها.

لكن أورشوس طأطأ برأسه. فأجاب :

- لكنها لن توافق على هذا، لأنها تحبك. وهي مريضة على أية حال، فليس بإمكانها الوقوف على قدميها.

ثم أردف قائلاً :

- إن كنت، يا سيدي، بعون من النبيل بترونيوس لم تتمكننا من تحريرها، فمن سيستطيع؟

- المسيح وحده فقط...

وصمت كلاهما. وراح أورشوس يفكر بذهنه الفلاحي :

" كان هو قادراً على إنقاذنا جميعاً، وما دام لم يفعل، معنى ذلك أن ساعة الموت قد حانت "

وجثا فينيكوس إلى جانب ليفيا. كان ضوء القمر يتسلل عبر الفتحة الشبكية، وينير القبو من الداخل، شأنه شأن المصباح الوحيد المعلق فوق الباب.

هنا فتحت ليفيا عينيها، ووضعت يدها الملتهبة على فينيكوس وقالت بعد لحظات :

- أراك... وكنت أعرف أنك ستجيء.

اثنتى الشاب على يد ليفيا الحارة، ووضعها على جبينه، و صدره، ثم قام برفع الفتاة قليلا، وضمها إلى صدره، وقال :

- لقد أتيت يا حبيبتى. رعاك المسيح، وأنقذك، يا وحيديتي ! ولم يقو على النطق بأكثر من ذلك لأن فؤاده كان ينتحب داخل صدره، الماء، وحباً. لكنه لم يشأ أن يظهر المه أمام الفتاة.

أجابت ليفيا قائلة :

- أنا مريضة يا ماركوس، وسوف أموت، سواء في الميدان، أم في السجن... لكنني صليت لأتمكن من رؤيتك قبل موتي. وها أنتذا قد جئت. المسيح استجاب لصلواتي !

وظل الشاب عاجزا عن الكلام يضم محبوبته إلى صدره، فيما تابعت الفتاة قائلة :

- في التوليانوم كثيرا ما رأيتك عبر النافذة، وكنت موقنة أنك تريد الدخول. والآن أعاد لي المسيح وعيي للحظة لكي أودعك. أنا راحلة يا ماركوس، لكنني أحبك، وسأظل أحبك إلى الابد.

تغلب فينيكوس على نفسه، كما انما الامه، وأخذ يتكلم بهدوء مصطنع

- لا، يا حبيبتى. لن تموتى. أوصانا الحواريّ بالايمان، ووعدني بأن يصلي من أجلك، هو الذي عرف المسيح، والمسيح أحبه، ولن يرفض له دعاء... لو كنت ستموتين لما أوصاني بطرس بالايمان، بل قالي لي: "تحل بالايمان". اليس كذلك يا ليفيا. المسيح سيراف بي، وهو لا يرغب في موتك. لن يسمح به... أقسم باسم المخلص أن بطرس يصلي لأجلك!

ساد سكوت. خبا نور المصباح المعلق فوق الباب. لكن ضوء القمر كان يغمر المكان متسللا عبر الفتحة الشبكيّة. في الركن الخلفي للقبو انتحب أحد الأطفال، ثم صمت. ولم تسمع الا أحاديث الحراس في الخارج، وقد كانوا بعد انتهاء نوبة حراستهم، يمثلون مقطعا مسرحيا اثنا عشريا.

أجابت ليفيا:

- آه، يا ماركوس. المسيح بالذات خاطبه أبوه هكذا: "أبعدوا عني هذا القدح المر!". ومع ذلك فقد شربه. المسيح بالذات عانى من الموت صلبا، وهؤلاء الان يموتون من أجل مجد اسمه، فكيف يستثيني وحدي من بينهم؟ من أكون أنا قياسا به؟ حين جاء الحرس من أجلنا خفت من العذاب والموت، لكنني لم أعد خائفة. انظر ما أفضع هذا السجن، وأنا سوف أغادره إلى الجنة. تمع ن في التفكير. هنا القيصر، ولكن هناك المخلص الخير الرؤوف. ولا وجود للموت إذن. وأنت تحبني، فتصور إذن كم سأكون سعيدة. آه يا ماركوس حبيبي، تصور أنك ستأتي الي هناك.

صمتت لكي يتسنى لصدرها المريض أن يأخذ جرعة من الهواء، ثم  
رفعت يد الشاب إلى شفيتها:

- ماركوس!

- قولي يا حبيبي!

- لا تبك علي، ولا تنس أنك ستلتقيني هناك. عشت حياة قصيرة،  
لكن الله منحني روحك أنت أريد أن أخبر المسيح بأنك بعد موتي لن  
تفعل ما تخرج به عن إرادته، وأنت ستظل تحبه إلى الابد. أنت تحبه  
اليس كذلك، وسوف تحمل موتي؟... لأنه حينئذ سوف يعقد قراننا  
فأنا أحبك وأرغب في البقاء معك...

وخمدت أنفاسها مرة أخرى وقالت بصوت يكاد لا يسمع:

- عدني، يا ماركوس!

عانقها فينيكوس بيدين مرتجفتين قائلاً:

- أعدك، وأقسم برأسك القديسة هذه.

حينئذ ائلق وجه ليفيا تحت نور القمر الحزين، وأخذت يد الشاب  
إلى شفيتها وهمست قائلة:

- أنا زوجتك!

كان الحراس في الخارج يؤدون حوارهم المسرحي بصوت أشد  
صخباً. لكنهما في الداخل فقد نسيا كل شيء، السجن، والحراس،  
والأرض بأسرها، وبدأ صلاة خاشعة وروح الملائكة تغمرهما.



ولثلاثة أيام، والاحرى، لثلاث ليال لم يعكر أمنهم أحد. فبعد أن اتخذت الاجراءات المعتادة داخل السجن، بفصل الموتى عن الاحياء، والمرضى الخطرين عن المعافين، ثم هجع الحراس إلى نومهم على مفارق الممرات، دخل فينيكوس القبو حيث ترقد ليفيا، ولازمها حتى مطلع الفجر مودعا رأسها إلى صدره، وأخذا يتحدثان عن الحب والموت، والرغبات والامال منفصلين تلقائيا عن الحياة، لم يعودا يشعران بأنهما على قيد الحياة.

وكانما كانا على متن سفينة تبتعد بهما عن اليابسة فلا يلمحان شاطئاً، ووجهتهما المدى اللانهائي. لقد استحال كل منهما محض روح حزينة هائمة في حب المسيح، تتأهب للتحليق.

كانت روح الشاب في بعض الاحايين تعصف بالحزن، وفي أحيين أخرى تفيض بهجة، وتبرق بشرارات الامل، حبا بالمسيح وحزنا على معاناته فوق خشبة الصليب. ويوما وراء يوم ازداد انفصال فينيكوس عن الأرض، مسلما نفسه ليد الغناء.

كان كل صباح يخرج من السجن، ويتأمل في الكون، والمدينة، والمعارف، والشؤون اليومية فيخال أنه في حلم.

كان كل شيء يبدو غريبا بلا معنى. ولم تعد رهبة التعذيب تقلقه أو تلقي الجزع في نفسه، بعد أن ركز عينيه في أمور أخرى. شعر كلاهما

أنهما في نطاق الابدية. تحدثا عن الحب، وعن الكيفية التي سيحبان بها بعضا، وكيف سيعيشان، بعد الممات.

وكانا مطوقين بالهدوء، كعمودين منسيين في فلاة. كل ما كان يهمهما الا يفرق المسيح بينهما. وهذا مؤكد لأن إيمانهما لا حدود له، ومحبتهما للمسيح تفوق كل تصور. ونفضا عن رويهما

كل غبار الأرض، صار اروحين نقيتين نقاء البللوره. وهنا تحت ظلال الموت المرعبة، وفي غمرة البؤس والعذاب. وفي أقبية السجن المظلمة بدأت الجنة بالنسبة اليهما، لأن ليفيا أمسكت بيد حبيبها. وكقديسة قد حظيت بخلصها قادته لينهل من ينبوع الحياة الابدية.

أما بترونيوس فقد قرأ على وجه فينيكوس أعمق الامان، وإشراقه لم يلمحها عليه من قبل ساوره الظن، وهو في سريره أحيانا، أن فينيكوس قد وجد درب خلاصه، وأحزنه أنه لم يشاطره سره الخفي. وحين فرغ صبره قال له :

- أنت الان أحد آخر، لا تخف ذلك عني، لأنني أريد أن أساعدك، وأستطيع ذلك. هل تخطط لشيء؟

- أجل، لكنك لا تستطيع أن تساعدني في أمر كهذا. لأنني بعد موت ليفيا سأعلن أنني مسيحي، والحق بها.

- لا أمل يرجى إذن؟

- كيف لا. المسيح سيعيدها الي، ولن نفرق بعدها أبدا.

وبوجه عارم بتقاسيم الدهول وقراغ الصبر، راح بترونيوس يذرع الأتريوم جيئة وذهابا، ثم تفوه قائلاً :

- لا تحتاج من أجل ذلك لمسيحك، هذه الخدمة يمكن أن يؤديها لك  
اله الموت اليوناني الروماني ثاناتوس. لكن فينيكوس أجابه بابتسامة :  
- لا يا عزيزي، أنت لا تريد أن تفهمني.

- لا أريد، ولا أستطيع. هذا ليس وقت النقاش. لكن الا تذكر ما  
قلت لي حين لم نفلح في تحريرها من التوليانوم؟ أنا فقدت كل أمل،  
لكنك قلت لي في طريق عودتنا إلى المنزل "أما أنا فأيمانني كبير بأن  
المسيح سيعيدها الي ". فليعدها اليك إذن. من جهة الهتي، أعلم أنني  
إذا ما القيت قدحاً ثميناً في البحر، فلن تستطيع هذه الالهة أن تعيدها  
إلي، فإذا ما كان ربكم أيضاً لا يستطيع إرجاعها، فما الذي يدعوني إلى  
احترامه أكثر من الالهة القديمة.

فشدد فينيكوس قائلاً :

- لكنه سيعيدها.

هز بترونيوس كتفيه، وسأله :

- أتدري أنهم غدا سينرون حديقة القيصر بأجساد المسيحيين؟

- غدا؟

وباقتراب الحقيقة المرة انقبض قلبه ألماً. فكر أنها الليلة الاخيرة  
التي يقضيها مع ليفيا، فودّع بترونيوس وأسرع إلى مراقب المدافن كي  
يحصل على بطاقة دخوله. لكنه قوبل بالخيبة هناك، لأن المراقب لم يشأ  
أن يعطيه بطاقة، قائلاً له :

- اعذرني يا سيدي لقد فعلت كل شيء من أجلك، لكنني لن

أغامر بحياتي . مساء اليوم سيقودون المسيحيين إلى حديقة القيصر .  
والسجن سيكون مليئاً بالجنود، ورجال الدين، فإذا ما اكتشفوا أمرى  
فسياخذوننى أنا وأولادى .

أدرك فينيكوس أن إقناعه هنا في حكم المستحيل . لكن أملاً آخر  
لمع في ذهنه، هو أن الجنود الذين رأوه هنا مرات كثيرة، قد يسمحون  
له بالدخول دون بطاقة . وحين حل المساء، عصب رأسه، ووقف في  
مدخل السجن .

لكنهم في هذا اليوم قاموا بمعاينة دقيقة للبطاقات حتى أن سكافينوس  
الشديد الاخلاص للقيصر تعرف عليه، وانتحى به جانبا ليقول له

- عد إلى المنزل يا سيدي، لقد عرفتك، لكنى سألزم الصمت لأنى  
لا أريد أذيتك . لا يمكننى إدخالك، لكن اذهب ، الالهة ستكفل  
بالتخفيف عنك .

فأجاب فينيكوس :

- ما دمت لن تسمح لي بالدخول، فدعني أمكث هنا، وأشهد من  
يخرجون .

وافقه سكافينوس قائلاً :

- الاوامر لا تمنع ذلك

وقف فينيكوس عند المدخل، وانتظر خروج المتهمين . وأخيراً،  
عند منتصف الليل، فتح الباب، وخرج منه العبيد في رتلين طويلين  
من رجال، ونساء، وأطفال، يحيط بهم الحرس الامبراطوري . كان

القمر بدرا فكانت الليلة شديدة الانارة، أتاحت التعرف حتما على  
وجوه الافراد وهم يتقدمون مثنى مثنى في هذا السكون العميق الذي  
لم يعكسه الا حفيف الدروع كانوا من الكثرة كأنما قد أفرغت أقبية  
السجن جميعها.

لمح فينيكوس كلاوسوس الطيب في نهاية الوكب، ولكنه لم يعثر  
على ليفيا و أرسوس.

وقبل حلول المساء بدأت أولى موجات الشعب تتوافد إلى الحديقة القيصريّة. كانت الحشود، وقد تزينت بأفخم ملابسها الاحتفاليّة، تهرع مشرقة الوجوه، وتصدح حناجرها بالأغاني، وبعض منها كانت تأخذه الثمالة، ليتسنى لها أن تشهد مثل هذا العرض الكبير الجديد.

ترددت أصوات تقول: "ساماكسي!" "سارمانتي!" امتدت في فياتيسا، وفوق جسر إميلوس، وعند الضفة الاخرى لنهر التير، حتى فيا تيريومفالس، وحول منشآت السيرك القيصريّة حتى مونس فاتيكانوس. لقد شهدت روما من قبل بشرا يُشدون على الاعمدة، ويحرقون، لكن ليس بمثل هذا العدد الحاشد من المدانين. لقد أراد القيصرو و تيفالنيوس أن يقضيا على المسيحيين، ليضعوا حدا للمرض الساري الذي نشأ في السجون، ومنها راح ينتشر في المدينة. فأمرنا بإخلاء جميع أقبية السجون، الا من بعض المساجين الذين سيحتفظون بهم لإقامة ألعاب السيرك.

وما إن أخذت الحشود تعبر مدخل الحديقة، حتى أصابها البكم من شدة ذهولها. بين الأشجار الكثيفة كانت كل الدروب والمسالك التي تحيط بالأكمات، والبحيرات، وبحيرات الاسماك، وحدائق الزهور، مدروزة بالقوائم المطلية بالقطران، وعليها علق المسيحيون.

ومن الاماكن الاعلى، حيث التبة لا تقف حاجزا أمام الرؤية من

هناك، بان الصف الطويل للقوائم مشدوداً عليها المسيحيون مع الزهور، والرياحين، والبلاب. كانت هذه القوائم تنسحب إلى أعماق بعيدة في الحديقة، باتجاه التلال والودية، فتبدو الاقرب منها كالعرائش المتجاورة، وكلما ابتعدت بانث كالاسنة أو الشماريخ والصولجانات الملونة المغروزة في الأرض.

كانت أعداداً لا تحصى فاقت كل توقع للشعب، وكأنما قد شد فوقها أحد الاقوام بكل أفرادها، لتسليّة روما والقيصر. كان الناظرون يتوقفون هنا أو هناك عند القوائم، تدفعهم إلى الفضول هيئة الضحية، أو عمرها، أو جنسيتها، فيستطلعون الوجوه، وأكالي اللبلاب، والاربطة، ثم يتابعون المسير متسائلين لأنفسهم باستغراب: "هل يعقل أن يكون كل هؤلاء مذنبين؟ أو كيف يمكن لأطفال لا يكادون يتجاوزون سن الحبو أن يحرقوا روما؟"

و لم يخلُ استغرابهم من القلق.

في هذه الاثناء أعتم المساء، وشعشت أولى النجوم في السماء، فوقف إلى جانب كل محكوم رقيق بيده مشعل. وحين صدحت الابواق المنتشرة هنا وهناك في الحديقة تعلن بدء العرض، اقتربت المشاعل تلامس أسافل القوائم.

وسرعان ما اضطرم القش المغطى بالازهار مطلقاً لهبة المضيء. وأخذت النيران مشتدة من لحظة إلى أخرى، تفكك أربطة اللبلاب، وتدب أعلى فأعلى، لتبدأ أولاً بالتهام قدم الضحية. لزم الشعب الصمت، فيما راحت الصرخات والولولات والعويل مألثة أرجاء الحديقة.

من بين الضحايا كان من يرفع رأسه نحو السماء المملأى بالنجوم،  
ويطلق ترتيلة في تمجيد المسيح. الشعب سمع كل تلك الصرخات  
والتراتيل. لكن الرعدة قد هزت حتى عتاة القلوب حين سمع صراخ  
طفل "أمي! أمي!" ولا يستثنى من ذلك حتى السكارى، فقد ارتجفت  
قلوبهم لهذه الاستغاثة، ولما شهدوه من وجوه بريئة اكتسحتها الآلام،  
ورؤوس محنّية اختناقاً بالدخان. وراح اللهب يدب إلى أعلى، ويحرق  
أكاليل جديدة أخرى من اللبلاب والورود.

امتلأت بالنيران الدروب الرئيسة والفرعية. امتلأت بالنيران  
صفوف الأشجار، ومساكب العشب والزهور، والتمعت مياه بحيرات  
الأسماك، وعكست أوراق الأشجار المرتعشة لونا وردياً. وعم ضوء  
نهاري كل مكان. ملأت رائحة اللحم المشوي أجواء الحديقة.

لكن الأرقاء كانوا قد رشوا في مباخر معدّة مسبقاً بين القوائم  
أنواعاً عطرية من الصبّار الألوي والمر الصمغي. علت صرخات  
منشؤها حشود المتفرجين، لم يعرف ما إذا كانت صيحات تنم عن  
بهجة صاخبة، أو عزاء وشفقة، لكن شدتها قد تصاعدت من لحظة  
إلى أخرى، مع اشتداد النيران التي بدأت تنهش في صدور الضحايا،  
وتطال بلهبها الوجوه المسودة، وشعر الرأس فيقل صه. ثم شمخت  
النيران عاليًا أكثر فأكثر كأنما قد أعلنت مجداً، ونصراً محققاً لمن أضرّمها.

كان القيصر قد حضر بين الشعب منذ بداية العرض، يقود عربته  
الفاخرة التي يجرها أربعة من الخيول المطهّمة البيضاء. كان في العربة  
بزيّه الخاص بالقيادة، بألوان الحزب الأخضر الذي كان ينتمي إليه مع  
كامل حاشيته الامبرطورية.

جاء بعده رتل العربات المليئة بالحاشية، والسيناتورات، والكهنة



وكلهم بأفخم الثياب، إضافة إلى النساء الباخوسيات الثملات العاريات إلا من الأكاليل حول رؤوسهن، وبأيديهن أرباريق النبيذ، وكن يقهقهن قهقهات وحشيّة. و إلى جانبهن الموسيقيون بثياب الفونات آلهة الحقول والمراعي، أو بثياب الساتير الهة الغابات الشهيرة بالشبق والعريضة، والصنوج.

وفي عربات أخرى جاءت الماترونات والعذراوات الرومانيات نصف عاريات، ثملات في بعضهن، وقد أحاط بعرباتهن بهلوانات تلوح بصولجانات باخوس المزخرفة بشرطان، وآخرون بالدفوف والطبول، وأولاد يرشون الزهور. دخل هذا الموكب الفخم، على الطريق الرئيسي للحديقة: عبر دخان المشاعل وهو يرّدّ صيحة عالية يعيش!. كان القيصر يقل بعربته إضافة إلى تيفالنيوس، شيلون أيضاً ليتسلى على ماينتابه من ارتعاد. كان يسوط الخيول بنفسه، ويشاهد بتقدمه الاجساد المحترقة، دون أن يغفل عن صيحات الشعب، الالهة المتعملة، في عربته المذهبة السائرة بين الحشود.

استقبل بالصياح والتصفيق، وقد أحاطت به دفعة واحدة من الباخوسيات والنيمفات والسناثورات، والاوغستيان، والكهنة، والفاونات والساتير، والجنود، وهو يدور بتيفالنيوس و شيلون حول نافورة الماء التي يحيط بها دزينة من المشاعل، والضحايا التي تحترق، فيتوقف عند كل ضحية بتعليق، ساخرا من العجوز اليوناني الذي غلّف وجهه الاضطراب والحيرة.

حتى توقف أخيرا عند قائم مرتفع مغطى بالرياحين. كان السنة اللهب الحمراء قد بدأت تنهش جذع الضحية، لكن وجهها كان من الشاق التعرف اليه على الفور، لأن دخان الغصون الخضراء المشتعلة

كان يخفيه. وبعد وقت قصير أزاح النسيم المسائي العليل الدخان، وكشف الوجه الطاعن في السن واللحية البيضاء المسبلة.

همد شيلون من صدمة المشهد منكمشا كعظاة، وصدرت منه صرخة أشبه بالنعيق، وأبعد ما تكون عن صوت إنساني

- كلاوس يوس ! كلاوس يوس !

وفعلا جاءتته نظرة من الطبيب كلاوس يوس فوق القائم المشتعل. ما زال حيًا. أحسّى وجهه المتوجع كأنما أراد أن يلقي نظرة أخيرة على جلاده الذي وشى به، وحرمه من زوجته وأولاده وأرسل إليه من يفتاله، ومن ثم حين صفحوا عنه باسم المسيح لم يتوان عن تسليمه لهؤلاء الجلادين. الإنسان لم يواجه إنسانا أبداً. مثل هذا الأذى الدموي الأعنف من نوعه. الجثة تحترق على مرأى من الجلاد قربها. لم يفض كلاوس يوس طرفاً عن وجه اليوناني. كان الدخان يقف حاجزاً بين فترة وأخرى، لكن هبوب النسيم، كان يجعل شيلون يلمح العينين المسمرتين عليه. نهض، وحاول أن يفر، لكنه لم يقو على الفرار.

شعر للحظة أن رجليه مجبولتان من رصاص، وأن يدا خفيّة، تضغط عليه بقوة فوق بشرية، وتثبته أمام القائم. استحال إلى جماد. أحسّ بشيء ما يطفح في داخله، ويسري صاعداً حتى قمة رأسه. وشعر أنه بات مكتفياً من الآلام والدم، وأن حياته تنتهي هنا، ويغيب من حوله كل شيء :

القيصر، البلاط، الحشود، وأن هاوية قائمة، مرعبة، لا قاع لها تحيطه من كل جانب، لا يرى فيها سوى عيني هذا الشهيد توجهان التهمة

اليه. ظلت الضحية ترمقه برأس محني. لاحظ الجميع هناك أن شيئاً ما كان قائماً بين هذين الرجلين، لكن لأن الهول بذاته كان مرتسماً فوق ملامح شيلون. لقد الواه الارتعاد والالم، كأن السنة اللهب باتت تحرق جسده قفز على حين غرة، ورفع كلتا يديه، وصرخ بصوت مرعب يودي بالقلوب :

- كلاوس سيوس ! باسم المسيح، سأمحني !

أطبق صمت مطلق. وسرت رعشة من البرد في أوصال الحضور، واتجهت كل الاعين تنظر نحو الاعلى.

تحركت رأس الشهيد على نحو لا يلاحظ، وصدرت من أعلى القائم عبارة على هيئة تنهيدة :

- سأمحتك ! ...

ألقى شيلون بنفسه أرضاً، وبصرخة وحشية عفر تراباً براحتيه وراح يمرغ رأسه. في هذه الاثناء اشربت النيران، وغلفت صدر كلاوس سيوس ووجهه، وفككت إكليل الريحان على رأسه، وأتت على الشرطان المتأرجحة في أعلى القائم، ليشتعل بعدئذ القائم الخشبي بأكمله، وينشر ضوءاً مبهرًا في أرجاء المكان.

وبعد وقت قصير نهض شيلون. كانت ملامح وجهه قد تبدلت تماماً، حتى ظن الاوغستييان أنهم يرون شخصاً آخر إلى جانبهم. توهجت عيناه بنار غير مالوفة، وشع جبينه المليء بالتجاعيد بإشراق. وصار اليوناني البائس كأنه الان كاهن قد الهتمته الالوهية أن يتهاى ليعلن حقيقة غامضة.

- ما الذي حصل له؟ هل فقد عقله؟ صدرت بعض الاصوات.

أما هو فقد استدار نحو حشود الناس، ويدين مرفوعتين راح يتحدث، بل يصرخ بصوت جهوري، لا لكي يسمعه الاوغستيان فحسب، بل سائر العامة هناك :

- يا شعب روما ! أقسم بموتي أن كل من يبادون هنا بريثون.

لأن من أحرق المدينة هو هذا !

وأشار بإصبعه نحو نيرون

ساد صمت لحظي. أصاب الحاشية الجمود، وظل شيلون واقفا كما هو، مشيرا بإصبعه نحو نيرون. ثم على حين غرة اندلعت الفوضى. هرع الشعب كموجة ضربتها العاصفة نحو العجوز ليشاهده عن كذب. وهنا وهناك طلعت صيحات تقول اقبضوا عليه. يا ويلنا. راح الجمهور يصفر، ويزأر: "يا صاحب اللحية الحمراء! يا قاتل أمك، يا حارق روما!" وتفاقت الفوضى بين لحظة وأخرى. هربت الباخوسيات مولولات إلى العربات.

هوت بعض القوائم المحترقة، مطلقة وابلا كثيفا من الشرر، فازدادت الفوضى في إثر ذلك. قبض الشعب المتدافع على شيلون واقتادوه بصحبتهم إلى عمق الحديقة.

راحت القوائم المحترقة تهوي في كل مكان على الطرقات، ناشرة الدخان والشرر، وعبق جو الحديقة بمزيج من روائح الحرائق البشرية والخشبية. خمدت المشاعل في كل الامكنة قريبا وبعيدا. وعمت الظلمة في الحديقة.

وتدافع الحشد المضطرب المتجهم المرتعد باتجاه الابواب. وبدأت الانبياء حول ما جرى تنتقل من لسان إلى لسان، مشوبة بالزيف، والتضخيمات والمبالغات. زعم البعض أن القيصر قد أغمي عليه، وأفاد آخرون أنه اعترف بإحراق روما.

وقال البعض الاخر أنه مرض مرضاً شديداً. وقيل أيضاً أنهم نقلوه ميتاً إلى العربة. وسمعت صيحات تدافع عن المسيحيين: " ليسوا هم من أحرق روما، فلم سفكت كل هذه الدماء؟

لم كل هذا التعذيب، والظلم؟ هل يا ترى سوف تنتقم الالهة لهؤلاء الابرياء؟ وأية ضحية ستختار؟ "

وترددت عبارات متكررة: " أجساد بريئة ". النساء اشفتت على الأطفال الذين القي بأعداد كبيرة منهم للوحوش أو صلبوا، أو أحرقوا في هذه الحديقة اللعينة.

ثم استحال إشفاقهن إلى شتائم ضد القيصر وتيفالنيوس. وكان من بين الحشود من طرح السؤال لنفسه، أو لغيره: " أي الوهة تمنح المسيحيين مثل هذه القوة أمام شبح الموت؟ ". وتوجه إلى منزله سارحا.

أما شيلون فقد ظلّ يهيم على وجهه في الحديقة، لا يدري أين تقوده رجلاه، ولا ماذا يفعل وتفاقم شعوره بأنه عجوز مريض لا حول له ولا قوة. كان يتعثّر بالجثث المحترقة، راکلاً من أمامه الجمار المتوهجة التي ينتثر منها بفعل النسيم كذلك، وابل من شرر النار.

وكان يجلس أيضاً ملتفتاً حوله بنظرات فارغة لا جدوى منها. كانت الظلمة قد أطبقت تماماً في الحديقة، وليس هنالك الا القمر الواهن يسبح بين أعالي الغصون، ويلقي بنوره تائهاً على الطرقات،

والقوائم المرمية فوقها، وبقايا الجثث المتفحمة. لكن العجوز اليوناني قد أحس أنه يرى تحت ضوء القمر، وجه كلاوس سيوس الذي ما زال يرنو إليه، فوجد نفسه يختبئ بعيداً عن الانوار. ورغم ذلك، في نهاية المطاف، خرج من الظل، وعلى نحو تلقائي، وكان قوة خفية تدفعه، وانطلق نحو نافورة الماء، حيث أسلم كلاوس سيوس الروح.

وهناك احسّ بيد تلامس ذراعه.

التفت العجوز إلى الخلف، فاصطدم بشخص مجهول، جعله يصرخ مرعوباً

- ماذا هناك؟ من أنت؟

- بولس الترسوسي.

- علي اللعنة! ما الذي تريده مني؟

- أريد أن أنقذك.

استند شيلون إلى الشجرة. ارتعشت رجلاه من تحته، وارتجفت يداها متهدلة على طول جسده.

فقال بصوت غائر

- لا خلاص بالنسبة لي!

فسأله الحواريّ:

- ألم تسمع أن السيد صفح عن اللص الذي ندم على خطاياها وهو فوق خشبة الصليب.

- أتدري أنت ما فعلته أنا؟

- رأيت تأمّلك، وسمعت أنك دعمت الحق.

- أوو، سيدي !

- إذا كان خادم المسيح وهو يكابد العذاب، قد سأمحك في لحظة موته، فكيف لا يسأمحك المسيح؟

أمسك شيلون رأسه بيديه وقال :

- الغفران لي ! الغفران لي !

فأجاب الحواريّ :

- إلهنا نحن، إله الرحمة.

فكرر شيلون

- لي أنا !

وراح يتأوه كمن فقد كل قواه. أما بولس فقد قال :

- استند علي، ورافقني.

وقاده ممسكا بذراعه نحو تقاطع الطريق حيث النافورة التي ترقرت مياهها في سكون الليل، كأنما كان يبكي كل الذين كابدوا العذاب المميت.

كرر الحواريّ قائلاً :

- إلهنا إله الرحمة. فإن وقفت عند شاطئ البحر، ورحت تلقي بالحجارة في مياهه، فهل بوسعك أن تردم بها أعماق البحر؟ أوكد لك أن رحمة المسيح كالبحر، وأن ذنوب البشر وخطاياهم كالحجارة

في أعماقه. أوكد لك أنها كالسمااء التي تغطي الجبال، والأرض، والبحار وتمتد في كل مكان دون حد ولا نهاية. لقد كابدت الالم عند كلاوسوس وهو فوق القائم، والمسيح قد رأى ما كابدته.

وسمع صيحتك وأنت تقول مشيرا إلى القاتل: "هذا هو من أحرق المدينة"، وسوف يتذكرها. بات قلبك نقيا بعد أن تخلص من الشر، والكذب، ولم يعد يخترن الا الندامة الصرف. رافقني واسمع لما سأقوله: أنا نفسي كنت أكرهه، وطاردت أتباعه. لم أتقبله، ولم أومن به، حتى ظهر لي، وناداني. ومن يومها هو من أحبه. وها أنتذا الان يبلوك بالاذى، والالم، والخوف ليناديك اليه. أنت كرهته، لكنه يسامحك، ويريد خلاصك.

هز صدر العجوز البائس نشيج يهد الروح، فضمه بولس اليه، وقد استحكمت به، وقاده كما يقود الجندي أسيره.

وما لبث أن قال:

- تعال، وأنا سأقودك اليه. هذه مهمتي التي جئت إلى هنا من أجلها. لقد أوصاني بأن أجمع النفوس البشرية باسم المحبة، فأنا إذن رهن إشارته. تظن أنك ملعون، وأنا أقول لك: آمن به، وسينتظرك الخلاص. تظن أنك تضر الكراهية، وأنا أكرر قولي بأنه يحبك. انظر الي ! طيلة الفترة التي كنت فيها لا أحبه، كان قلبي لا يملك الا شروري. أما الان فإن محبته تعوض أبي وأمي، وكل ثروة ومملكة. وحده من لديه النجاة، وحده العارف بالملك، وحده من ينظر إلى بؤسك، ويبعد عنك الخوف، ويرفعك إلى جواره.

بلغا النافورة، التي تلامعت خيوط مياهها فضية تحت ضوء القمر.



كان السكون والفراغ يعم كل مكان، لأن الأرقاء كانوا قد أزالوا بقايا القوائم المحترقة، وأجساد الشهداء.

جثا شيلون لاهثا متنهدا، وتسمر مخفيا وجهه بيديه. أما بولس فعكف إلى الصلاة رافعا وجهه نحو النجوم :

- سيدي، أنت ترى هذا الانسان البائس، وتنظر في الامه، ودموعه، ومعاناته ! يا سيد الرحمة، يا من بذلت دمك لقاء ذنوبنا، أن تصفح عن هذا الانسان بحق الامك، وموتك، وقيامتك !

سكت، لكنه ظل ناظرا في النجوم، يصلي؟

وفي هذه الاثناء جاءه صوت متحسر بالقرب من رجليه :

- يا مسيحي، يا مسيحي !... سامحني !

ولسماع النداء، تقدم بولس من النبع وحفن بعض الماء، ثم رجع إلى الجائي البائس :

- شيلون ! أنا أعمدك، باسم الاب، والابن، والروح القدس. آمين !

رفع شيلون رأسه، وفتح ذراعيه، وظل هكذا بلا حراك. أضاء القمر بأنواره شعره الاشيب، ووجهه الابيض المتصلب الفاقد للحياة. مرت اللحظات تت إلى. وسمع صباح الديكة في مزرعة الدواجن ضمن الحديقة، فيما ظل هو جاثيا على ركبتيه، بلا حراك كشاهدة قبر.

تزعزع أخيرا، ونهض واقفا، والتفت إلى الحوارّي يسأله :

- سيدي، ما الذي ينبغي أن أفعله قبل أن أموت؟

فما كان من بولس أيضاً إلا أن تخلى عن حالة تأمله في تلك القدرة العظيمة، وأجابه :

- تحمل بالثقة والايمان بالعدالة.

وغادرا الحديقة معا. وعند الباب قام الحواريّ بمباركة العجوز مرة أخرى، وافترقا. شيلون نفسه كان راغبا في هذا، بعد أن وضع في حسبانته أن القيصر و تيفالنيوس سوف يلاحقانه.

ولم يكن خطأ. حين رجع إلى البيت، كان منزله مطوقا بالحرس الامبراطوري، فسرعان ما قبضوا عليه، وقادوه إلى البالاستينوس.

كان القيصر قد هجع إلى النوم، لكن تيفالنيوس كان في انتظاره، فما أن لمح اليوناني التعيس، حتى التفت اليه بوجه هادئ، لكنه ينذر بالوعيد، وخاطبه قائلاً :

- لقد اقرفت طعنا في الذات القيصرية. ولن تنجو من العقاب. ولكن غدا في المدرج، إن أعلنت أنك كنت ثملا فاقد اعقلك، وأن المسيحيين هم من قاموا بالحريق، فسوف تنجو من الضرب والنفي.

فأجاب شيلون بخفوت :

- لا أستطيع يا سيدي !

لكن تيفالنيوس تقدم نحوه، وسأله بصوت خفيض أيضاً، لكنه يبعث على الرعب :

- ولم لا تستطيع إيها الكلب اليوناني؟ لعلك لم تكن ثملاً، ولا تدري ما الذي ينتظرك؟ أنظر هنالك !

وأشار إلى ركن الأتريوم حيث كان يقف أربعة من الأرقاء الزنوج  
قرب مقعد طويل، وبأيدهم حبال وكلابات.

فكر شيلون قائلاً :

- لا أستطيع يا سيدي !

تملك تيفالنيوس غضب مسعور، لكنه ظل مسيطراً على نفسه فسأله

- رأيت كيف مات المسيحيون؟ أترغب في موت كهذا؟

رفع العجوز وجهه الشاحب، وتحركت شفتاه إلى حين بهدوء، ثم  
قال :

- أنا أيضاً أو من بالمسيح !

حدق تيفالنيوس ذاهلاً :

- لقد جننت أيها الكلب !

وبكل ما هنالك من غضب استجمعه في داخله، قفز إلى شيلون،  
وقبض على لحيته بكلتا يديه، ورماه أرضاً، وانهاه عليه بالضرب وهو  
يقول له بفم مزبد :

ستسحبها ! ستسحبها !

- لا أستطيع.

وما أن سمع الأرقاء الأمر، حتى قبضوا على العجوز، ومددوه،

والقوه بالمقعد، وشدوا ساقيه بالكلابات. ولكن حين كانوا يقومون  
بربطه راح شيلون يقبل أياديهم متضرعا، ثم أطبق عينيه وبدا كالميت.

لكنه كان ما يزال حيا، حين مال تيفالنيوس فوقه وسأله مرة أخرى  
"ستسحبها؟"

- لا... أستطيع!

كف تيفالنيوس عن تعذيبه، وراح، بوجه غاضب تبدلت قسماته،  
يذرع الأتريوم جيئة وذهابا، حتى خطرت له فكرة جديدة، توجه على  
إثرها إلى الأرقاء يأمرهم:

- اقطعوا لسانه!

جرت العادة أن تقدم مسرحية اوربولوس في المسارح كما في المدرجات، على خشبتين. ولكنهم بعد العرض الذي جرى في حديقة القيصر، تخلو عن هذه العادة، لأن ما كان هاما الان هو أن يتسنى لأكبر عدد ممكن من المتفرجين أن يشاهد موت العبد المصلوب الذي يأكله الدب في المسرحية. وكان بدور الدب في المسرح ممثل يرتدي جلد الدب.

أما الان فقد حض روا العرض " حقيقي " وهي مستحدثة من بنات أفكار تيفالنيوس. في بادئ الأمر قرر القيصر أنه لن يذهب لحضور العرض، ولكنه غي ر موقفه بإقناع من محبه تيفالنيوس، الذي ارتأى عليه أن يواظب على إطلالته الجماهيرية، خاصة بعد كل ما حصل في الحديقة وطمأنه أن العبد الذي سيصلب في المسرحية لن يلجأ إلى شتمته كما فعل كريسيوس.

وبما أن الشعب قد أتخم إلى حد ما من إراقة الدماء، وسئم منها، فقد أعلنوا على الملأ أنهم سيوزعون بطاقات يانصيب وهدايا جديدة، وأن العرض الذي سيقام على الاضواء الكاشفة، ستلية مادبة طعام.

وما أن حل الظلام، حتى اكتظ المبنى عن آخره. وحضر الاوغستيان وعلى رأسهم تيفالنيوس بأعدادهم التامة، ليس بدافع الرغبة في المشاهدة فحسب، بل ليبرهنوا على ولائهم الدائم للقيصر بعد الحادثة

الاخيرة، ويسمعوا شيئاً عن شيلون الذي بات الان حديث روما  
باسرها.

وتهامسوا فيما بينهم أن القيصر حين رجع إلى البيت من الحديقة،  
تملكته نوبة حنق شديد، فلم يستطع النوم، واشتدت مخاوفه، وحلت  
عليه الكوابيس الغريبة، أعلن على إثرها في صباح اليوم التالي أنه  
سيسافر إلى أكايا حالا. فيما دحض آخرون هذا النبأ، وزعموا أنه بعد  
الاحداث الاخيرة تملكه العناد، وأصبح أكثر قسوة تجاه المسيحيين.  
وكان بينهم جناء عبروا عن خشيتهم من أن التهم التي أطلقها شيلون  
في وجه القيصر، على مسمع من الجماهير، قد يكون لها نتائج كارثية.  
وكان هنالك من طلبوا إلى تيفالنيوس، من وجهة نظر إنسانية بحتة، أن  
يكف عن ملاحقة المسيحيين.

عل ق باركوس سورانوس :

- انظر إلى أين وصل بكم الأمر. كنتم تريدون إشباع نقمة الشعب،  
وإقناعه بأن العقاب قد لحق بالمذنبين، لكن ما جنيتموه هو النقيض من  
ذلك.

سانده أنتستوس فيروس قائلاً :

- تماماً. الكل يتهامس الان أن المسيحيين أبرياء. إن كنتم تسمون  
ذلك ذكاء ومهارة، فشيلون إذن محق حين زعم أن عقولكم لا تملأ  
قمع حبة سنديان.

استدار تيفالنيوس اليهم مقرضا

- والناس يتهامسون أيضاً أن ابنتك سرفيليا، يا سورانوس، وزوجتك

يا أنتستوس، قد خبأتنا الأرقاء المسيحيين عن أنظار العدالة القيصريّة.

فصاح سورانوس مرتبكا

- ليس صحيحا !

وقال أنتستوس بارتباك لا يقل عن الاخر

- زوجاتكم المطلقات هن من يرغبن بالانتقام من زوجتي، غيرة منها على أخلاقها الفاضلة.

وأخرون تكلموا عن شيلون. فسأل ابريوس مارسيلوس :

- ماذا جرى له؟ هو الذي سلمهم لتيفالنيوس، وبعد أن كان شحاذا، استحال إلى سيد ثري كان بمقدوره أن يعيش بأمان وأن تكون له جنازة لائقة، وشاهدة قبر جميلة. لكنه... لا ! فضل أن يفقد كل شيء دفعة واحدة. لا بد أنه فقد عقله. وليس هناك من سبب آخر.

اختصر تيفالنيوس قائلاً :

- لم يفقد عقله، بل صار مسيحيا.

فصاح فيتليوس :

- مستحيل !

وأردف فتستوس :

- أرايتم؟ ألم أقل لكم؟ أبيدوا المسيحيين إن شئتم، لكن لا تقتاتلوا ربهم... ليس الأمر مزاحا... انظروا ماذا حدث ! أنا لم أحرق روما،

لكن لو سمح لي القيصر، لنذرت لالو هتهم على الفور ذبيحة مئة ثور.  
وعلى كل منا أن يفعل ذلك، لأنه كما قلت، لا يعرف المزاح. تذكروا  
أنني بل غتكم !

فقال بترونيوس :

- أما أنا فقلت شيئاً آخر. هزئ تيفالنيوس حيث قلت أنهم يقاومون،  
والان أقول أنهم في طور الاقتحام والكر.

فتساءل العديدون دفعة واحدة :

- كيف؟ كيف؟

- يا عظمة بولو كس ! إن كان حتى شيلون خضع لهم، ولم يستطع أن  
يقاومهم فمن باستطاعته إذن؟ إن كنتم تعتقدون أن أعداد المسيحيين لا  
تتكاثر بعد كل عرض، فأنتم إذن لا تعرفون روما.

وكان من الافضل لكم أن تكونوا حلاقين، أو حجارين، لتدركوا  
كيف يفكر الشعب، وما الذي يحدث في المدينة.

فقال فستنيوس :

- يا عظمة القديسة ديانا ! ما تقوله صحيح تماماً !

لكن باركوس التفت إلى بترونيوس :

- إلى أين تبغى أن تصل؟

- أبغى أن أختم بما بدأت به : كفى دماء !



حدجه تيفالنيوس بنظرة هازئة قائلاً :

- القليل منها بعد !

أنهى الحديث بقدم القيصرو وصحبه الفيثاغورثيين، واحتل مكانه. وبدأ في الحال عرض اوريوليوس الذي لم يلفت انتباهها كبيراً، لأن شيلون كان حاضرا في ذهن كل منهم.

حتى الشعب الذي الف مشاهدة الدم والعذاب، بدا ضجرا منشغلا بالاحاديث، يترقب بنظرات متعطشة مشهد الدب الذي لم يحضر الا ليراه. ولو لم يكن متسلحا بأمنيّة حارة لمشاهدة العجوز محكوما، وعلى موعد مع تلقي الهدايا، لما كان العرض يعني الجمهور بشيء في الاساس.

لكن اللحظة المرتقة حانت. أحضر فتيان السيرك أولا خشبة الصلب القصيرة إلى حد كبير، ليتمكن الدب الواقف على قدميه الخلفيتين، من بلوغ صدر الضحية. ثم جيء بشيلون يجره اثنان لأن رجليه كانتا مكبلتين بالكلابات. ثم مدداه وثبته على خشبة الصلب. بأقصى سرعة، حتى أن الاوغستيان لم يشبعوا فضولهم برويّة هذه الحركة، ولم يستدر أحد بنظره نحوه، الا بعد أن ثبتت الخشبة في الحفرة المعدة لذلك. كاد الجميع لا يتعرفون في هذا العجوز العاري، على شيلون الاسبق. وجه مبيض من شدة الشحوب، عروق جفت من دمائها، لحية بيضاء لطخت بالدماء نتيجة بتر لسانه وفق أوامر تيفالنيوس، جسد هزيل بانث عظامه.

بدا أكثر شيخوخة، أوهنه المرض. و بينما قد استطاعت عيناه في المرة السابقة، أن تطلقا نظرات مضطربة، حاقدة، ووجهه الصاحي

يشي بتعابير الجزع، والقلق، الا أن هذا الوجه الان بيتث الا لم كما من ذي قبل، لكنه كان وديعا وهادئا، كوجوه الموتى أو النيام.

لعله كان يفكر باللص المصلوب الذي صفح عنه المسيح، فشحنته الفكرة بالطمأنينة، أو لعله كان في نفسه يقول للرب الرحيم: "سيدي، لقد نخرت كالدودة السامة، لكنني كنت بائسا طوال حياتي. جعت، داسني الاخرون، وضربوني، وعذبوني. كنت فقيرا، جافتني السعادة. سيدي هاهم الان يعلقونني على خشبة التعذيب والصلب، فلا تتخل عني في لحظة موتي

ومن البديهي أن يكون السلام قد حل في فؤاده. لم يضحك أحد، لأن المصلوب كان يعكس نوعا من الهدوء، والشيخوخة، والضعف، والعري الاعزل، حتى بات الجميع يطرحون السؤال تلقائيا: كيف يمكن تعذيب وصلب إنسان يحتضر أساسا؟ صمت الجمهور. فستينوس كان يميل يسارا ويمينا يهمس في آذان الاوغستيان: "انظروا كيف يموت هؤلاء!"

آخرون انتظروا الدب، وكانوا في أعماقهم يتمنون أن ينتهي هذا العرض.

وأخيرا جاء الدب يؤرجح برأسه يمينا وشمالا، ويدخل الميدان وهو ينظر حوله في كافة الانحاء، كأنما كان يفكر بأمر، أو يبحث عن شيء ما. حتى لمح أخيرا الجسد العاري المعلق على الصليب.

اقترب منه، ثم ما لبث أن تراجع قليلا، وألقى عند أسفل الصليب. غمغم بهدوء، كأنما قد استيقظت في قلبه الحيواني الشفقة إزاء هذا الانسان البائس.

في هذه الاثناء رفع شيلون رأسه ببطء، وأجال النظر قليلا في حشد

المتفرجين، حتى توقف بعينه على أعلى صف من صفوف مقاعد  
الجلوس في المدرج، وفي هذه اللحظة حصل أمر أوقع المشاهدين في  
العجب والذهول. وجهه أشرق بابتسامة. جبينه كأن أشعة طفحت  
فوقه، وقبل أن يفارق الحياة فتح عينيه، وباحتا بدمعتين تدرجتا على  
وجهه. مات

وفي الاعلى، تحت المظلة، صد صوت رجولي

- السلام للشهيد !

وأطبق سكون عميق في المدرج.

بعد عرض الحديقة القيصريّة، باتت السجون شبه خاليّة. صحيح أنهم، في أثناء ذلك، قد استمروا في ملاحقته كل من اشتبهوا به، وزجه في السجن، لكي يزودوا العروض اللاحقة بالضحايا، وليحققوا رغبات دعاة الخرافة الشرقيّة، الا أن مواسم الالعب قد أشرفت أيضاً على نهايتها. لقد أتخم الشعب في إراقة الدماء، وصارت العروض تملأ قلوب الناس بأشد القلق. فبات حديثهم يتطرق إلى غضب اله المسيحيين وتعطشه إلى الانتقام. وفي السجن انتشر مرض التيفوئيد ليملاً المدينة، ويفاقم من ذعر سكانها.

وفي الكنائس نذرت القرابين لكل من جوبيتر و ليبثانا، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها تيفالنيوس وأتباعه، الا أن عموم الآراء الشعبيّة اتجهت إلى الاعتقاد بأن القيصر هو من أحرق المدينة، وأن المسيحيين الأبرياء يكابدون العذاب جوراً، وعن سابق إصرار.

لكن نيرون و تيفالنيوس لم يكفأ عن ملاحقة المسيحيين. ولكي يخففا من نقمة الشعب، ويخمدوا شفقته أطلقت تعليمات جديدة لتوزيع القمح، والنبذ، والزيت، وسنت المراسيم التي تسهل إعادة إعمار المنازل، وقدمت الامتيازات لأصحاب البيوت، وبدلت القوانين في توسيع الشوارع، واستخدام مواد البناء المقاومة للحريق.

وانضمّ القيصر بنفسه إلى مجلس الشيوخ، ليناقدش مع المخضرمين،

شؤون المدينة والشعب، وكيفية تحسين الأحوال المعيشية، دون أن يتطرقوا، ولو بلفتاته واحدة، إلى وضع المحكومين. أراد سيد العالم قبل كل شيء، أن يقنع الشعب بأن مثل هذه الأحكام القاسية لا يمكن أن تشمل إلا المذنبين. ولم يجروا أحد من السيناتورات أن ينس بحرف بخصوص حماية المسيحيين، تفاديا لأية ملاحظة قد تسجل عليه أمام القيصر، في حين علت أصوات العقلاء القائلة بأن المبادئ التي يقوم عليها الحكم الروماني ليس بوسعها أن تصمد في مواجهة الدين الجديد.

ولكنهم أعادوا الجثامين لذويها، لأن القانون الروماني لا يتضمن أحقاداً على الموتى. أما بالنسبة لفينيكوس، فقد طمأنته كثيراً فكرة أن ليفيا إذا ماتت فسوف يدفنها في مقبرة العائلة، ويرقد هو إلى جانبها. بات الآن فاقد لكل أمل في إنقاذها، وصار مستغرقاً كل الاستغراق في المسيح، منفصلاً تماماً عن الحياة الأرضية، ولا يخطر له أن يفكر بالارتباط بليفيا إلا في الحياة الأبدية. لقد تعمق إيمانه على نحو جعل الحياة الأبدية منزهة عن أن تقارن بهذه الحياة. امتلأ قلبه بالبهجة. تخيل كيف أنه سيمسك بيد ليفيا ويصعدان إلى السماء حيث سياركهما المسيح، ويسمح لهما بالسكنى هنالك في النور الأبدي بسلام.

وتضرع إلى المسيح كي يرفق بها وينقذها من التعذيب في الميدان، وأن تسلم الروح وهي في السجن، وأن يموت هو في تلك اللحظة. وما دامت كل هذه الدماء قد أريقَت، فمن غير الجائر أن يكون له أقل من إنقاذ ليفيا وحدها. ولقد سمع بطرس و بولس يقولان أنه ينبغي لهما أن يموتا شهيدين. لقد رأى شيلون فوق الصليب، وأثبت له العجوز أن الشهادة أمر جميل، وهو الآن راغب أن تأتي تلك اللحظة التي يستشهدان فيها معا.

كانا بين الحين والاخر يستشعران طعم الحياة بعد الموت، وأن الحزن الذي يرفرف حول روحيهما قد بات شيئاً فشيئاً، يفقد حرارته الحارقة، ويستحيل بإرادة الرب إلى راحة وسلام. ظل فينيكوس طويلاً يسبح بكل جهده عكس التيار. قاتل، كابد، لكنه الان بات واثقاً أنه في اتجاه يقوده إلى السكينة الابدية. شعر أن ليفيا تستعد مثله للموت، وأن من المستحيل لجدران السجن أن تفرقهما. فهما الآن يسيران معا. ابتسم للفكرة، وللسعادة التي هو فيها.

وحقيقة الأمر أنهما قد تشاطرا هذه الافكار. فلم تعد ليفيا راغبة الا في الحياة التي تنتظرها بعد الموت. لم تنظر إلى الموت كخلاص فقط يحزرها من بين جدران السجن، ومن أظافر القيصر و تيفالنيوس، وإنما رأت فيه لحظة اتحادها بفينيكوس. وأمام هذه الطمأنينة فقد كل شيء آخر معناه وأهميته. لقد انتظرت الموت كخطيبة تترقب لحظة زفافها.

و لم يكن أرسوس الا ملتصقا بمثل هذه المشاعر. فلم يكثر طويلاً لمسالة موت ليفيا، لأنه بقلبه الغلامي البسيط. كان يستشعر فوزها مع غيرها من المسيحيين بالحياة الأبدية المجيدة كان يسمع أن الناس متساوون أمام الرب، لكنه لم يشاهد هذه الفتاة الملكية التي تميزت في هذه الحياة، وهي على قدم المساواة في الاخرة مع أخواتها الرقيقات. وتمنى لنفسه أن ينعم عليه الرب ويسمح له بأن يظل خادما أميناً لها. وكان يصلي ليموت فوق خشبة الصليب كما كان مصير الحمل المسيح.

لقد أحب الحراس أرسوس لوداعته، ولكن قوته الحارقة التي أبداها في تقطيع الحبال، وتخليع القضبان الحديدية، أوقعتهم في جزع. وحاولوا جهدهم أن يعرفوا سر هذه القوة.

فكان يكلمهم بكل ثقة عن الحياة التي تنتظره بعد الممات. وكانوا يشعرون أن هذا المكان الذي لا تدخله الشمس، تدخله السعادة. وحين حاول أن يقنعهم بالابمان بالمسيح، كان يلمع في ذهن البعض منهم أن عمله عمل عبيد، وحياته حياة بائسة، فيما كان بعضهم الاخر يتأمل في قدره الرديء الذي لا يضع حدا له سوى الموت.

لكن الموت ملاهم بمزيد من الخوف، ولم ينتظروا أن يأتيهم بأي أمر حسن. فيما كان هذا العملاق الليغوي، والفتاة التي كانت كزهرة مرمية على قش السجن، يمضيان بترحاب نحو الموت، كأنما يقتربان من مدخل السعادة.

و ذات مساء قام السيناتور سكافينوس بزيارة بترونيوس، وتحدث معه طويلاً عن القيصر، والأزمة الصعبة، التي يعيشانها. ولقد كان شفافاً وصريحاً في حديثه إلى حد جعل بترونيوس، ورغم صداقته الحميمة معه، أن يلزم الحذر. أظهر شكواه من أن العالم قد فقد عقله، وصار ينحو في اتجاه رديء. ولن يوضع حد لايقاف ذلك، الا بحصول واقعة أكبر من حريق روما. وقال أن الاوغستيان باتوا يتدمرون، وأن فنيوس روفوس نائب قائد الحرس قد فرغ صبره من تصرفات تيفالنيوس. وأن قوم سينكا أجمعين قد ازعجهم سلوك القيصر تجاه لوكانوس، والعجوز. وذكر أخيراً أن الشعب، وحتى الحرس الامبراطوري يبدون عدم رضاهم، وأن فنيوس روفوس قد كسب غالبيتهم العظمى إلى جانبه.

سأله بترونيوس :

- ولم تقول هذه الامور؟

فأجاب بسكافينوس :

- أنا قلق بسبب القيصر. لي قريب بعيد بين عناصر الحرس الامبراطوري عرفت منه ما الذي يحصل في المعسكر... التدمير يتفاقم... تعلم أن كاليغولا أيضاً كان مجنوناً... فما الذي حصل له؟ جاء كاسيوس سيريا وقام بمأثرة عظيمة بتخليص العالم من ذلك الغول... وليس بيننا من يمجّد سيريا.



قاطعہ بترونیوس قائلاً :

- كأنما تقول بأنك لا تمجد مآثرته، لكنه رغم ذلك كان إنسانا عظيما، ويا حبذا لو تبعث لنا الالهة العديد من أمثاله.

غير سكاڤينوس مجرى الحديث، وراح فجأة يمجّد بيشو. مجد قومه، وروحه النبيلة، وتعلقه بزوجته، وعقله الراجح، وهدوءه، وموهبته المتميزة في كسب الناس لصالحه.

قال :

- ليس للقيصر أبناء، والجميع يرى في بيسو خليفة له، ويرغبون في مؤازرته لتسلم السلطة. روفوس أيضاً يحبه، وأسرّة أنيوس نصيرة له، وبلاتيوس لاتيرانوس و توليوس سينكيو يرمون بأنفسهم بالنار لأجله. وكذلك ناتاليس و فلافيوس و اسبر و أفروس وحتى فستينوس.

فعلق بترونیوس قائلاً :

- لا فائدة ترجى من الاخير، لأن فستينوس يخاف من ظله.

فأجاب سكاڤينوس :

- إنه يخاف من الأحلام والاشباح، لكنه شخص مستقيم، ومن الحسن أنهم يرغبون في تعيينه قنصلا. ولا يؤخذ عليه من قبلك أنه في أعماقه غير راض عن ملاحقة المسيحيين، لأن من الهام لك أيضاً أن يوضع حد لهذا الجنون.

صحح له بترونیوس :

- من الهام ليس لي، بل لفينسيوس. بسبب فينسيوس أرغب في إنقاذ فتاة، لكنني لا أستطيع لأنني خرجت من دائرة استعطاف القيصر.

- كيف ذلك؟ ألم تلاحظ أن القيصر يتقرب إليك ويتحدث معك مجدداً؟ وسأوضح لك السبب حالا. إنه يتهيأ للسفر إلى أكايا، حيث سيطلق هناك بعض أغانيه اليونانية. ينتظر السفر على أحر من الجمر، لكنه في الوقت نفسه يرتجف خشية من ذائقة اليونانيين الساخرة.

يضع في تصوره الآن، أنه إما أن يحظى بأعظم أمجاده، أو يبوء بالفشل الذريع هناك. فهو الآن في أمس الحاجة للنصيحة، ويدرك تماماً أن ليس ثمة من يفوقك في أداء هذه المهمة : هذا هو سبب قبوله لك.

- يمكن للوكانوس أن يحل محلي.

- صاحب اللحية الحمراء يكرهه، وفي أعماق نفسه قد حكم عليه بالاعدام، لكنه ينتظر الذريعة، لأن المظاهر تهمة كثيرا. لوكانوس يشعر أن الإسراع في الأمر بات ضروريا؟

صرخ بترونيوس :

- يا عظمة كاستور! هذا ممكن. لكنني أعرف طريقة أخرى تقربني منه سريعا.

- وما هي؟

- أن أحكي له كل ما حكيته لي الآن.

فصاح سكافينوس باضطراب :

- لم أقل شيئاً

لكن بترونيوس وضع يده على كتفه :

- نعت القيصر بالمجنون، وترى بيسو خليفة، وقلت أيضاً : لو كانوس يشعر أن الإسراع ضروري. ففي أي شيء تريدون الإسراع؟

شحب سكافينوس وظلا بعض الوقت يحدقان في بعض.

- لن تقول له شيئاً أعرف !

- بحق عجيبة سيريس ! تعرفني جيداً ! لا ! لن أقول. لم أسمع منك شيئاً ولا أريد أن أسمع... أتفهم؟ الحياة أقصر من أن نوجع رؤوسنا بالمؤامرات. لكنني أرجوك أن تزور تيفالنيوس حالا وتحدث معه بكل ما حدثتني به اليوم.

- لماذا؟

- لأن تيفالنيوس لو واجهني بقوله " كان سكافينوس عندك "، أستطيع أن أواجهه بقولي " كان عندك في نفس اليوم "

حين سمع سكافينوس ذلك حطم العصا العاجية التي كانت بيده وقال :

- اللعنة على هذه العصا المسحورة. سأذهب اليوم إلى تيفالنيوس، ثم إلى مادبة نيرفا أمل أن تكون هناك. لكن في كل الاحوال، إلى اللقاء بعد غد في المدرج، في العرض الاخير للمسيحيين، إلى اللقاء.

- بعد غد !

كرر بترونيوس. وحين صار بمفرده قال :

- ليس هناك من وقت اضيعة. صاحب اللحيّة الحمراء في أمس الحاجة الي فعلا قبل السفر إلى أكايا. إذن قد يضعني في حسابانه.

واتخذ قراره بأن يجرب محاولته الاخيرة.

في مأدبة نيرفارغ القيصر فعلا أن يجلس بترونيوس قبالتة، لأنه أراد أن يكلمه عن أكايا، وفي أي المدن هناك يمكن له أن يحرز أكبر النجاحات. الأهم لديه الأثينيون، لكنه كان يخشاهم.

أنصت الأوغستيان بانتباه شديد إلى ما جرى من حديث، ليتناقلوا فيما بعد ما ارتكب بترونيوس من زلات لسان.

قال نieron

- أشعر أنني لم أعش بعد. وسوف تكون ولادتي في بلاد اليونان.

فقال بترونيوس :

- سوف تولد باسم جديد، حيث يكتب لك الخلود.

- أنا أكيد من ذلك. ولن يكون أبوللو في موقع المحسود. فلو حققت النصر الذي أريد، سأنذر له ذبيحة مئة ثور، وما لم يحصل عليه أي اله قبل الان. فاستشهد سكافينوس بأحد المقاطع الشعرية لهورا تيوس :

يا امرأة سيروس الالهية،

يا نجمة كاستور وأخيه المزدوجة النارية...

قوديني على هداك.

تابع القيصر :

- السفينة تنتظرنا في نابولي أود لو أنطلق غدا.

بترونيوس جاءته الصحوة، وقال محدقا في عيني نيرون :

- أتسمح، أيها القيصر الالهي، أن أقيم مأدبة عشاء قبل ذلك، وأن تكون أول المدعوين إليها؟

فسأله نيرون :

- مأدبة عشاء؟ لماذا؟

- على شرف فينيكوس والاميرة الليغوية رهينتك. صحيح أنها الان في السجن. ولكن من جهة، لا يجوز اعتقالها لأنها رهينة، ومن جهة ثانية أنت بنفسك سمحت لفينيكوس أن يتخدها زوجة له. وبما أن قراراتك، كما قرارات زيوس لا ترد، فإنك ستطلق سراحها، وأنا سأسلمها لحبيبها.

الهدوء المطبق من جراء ما نطق به بترونيوس بكل برود وثقة، أخرج نيرون عن سراطه، وأزاحه عن روتينه الخاص، كما حصل له غير مرة حين كل موه بهذه الطريقة.

فقال :

- أعلم. فكرت بالأمر، كما فكرت بذلك العملاق الذي دق عنق كروتون

فكان رد بترونيوس :

- إذن فكلاهما في منجاة.

لكن تيفالنيوس سارع إلى موازرتة :

- إنها في السجن بناء على إرادة القيصر، وها أنت تقول بعظمة لسانك أن أوامر القيصر لا تراجع عنها.

كان جميع الحضور يعرفون حكاية فينيكوس و ليفيا بتفاصيلها، فالتزموا الصمت، وترقبوا بفضول ما النتيجة التي سيفضي اليها هذا الحديث.

فصده بترونيوس بقوة :

- إنها معتقلة رغم إرادة القيصر، نتيجة لخطأ وقعت فيه، كونك لا تتقن الحقوق القانونية للشعب. أنت شخص ساذج، يا تيفالنيوس، لكنك بالطبع ليس لديك الرغبة في أن تزعم بأن ليفيا أحرقت روما. وحتى لو زعمت ذلك، فالقيصر لن يصدقك.

خمد نيرون في هذه الاثناء، لكنه راح يجول بعينيه، اللتين كانتا تعكسان حقدا وبغيضة.

ثم قال بعد قليل انتظار :

- بترونيوس محق.

فرمقه تيفالنيوس بنظرة استغراب

وكرر نيرون قائلاً :

- بترونيوس محق. غدا سيفتح أمامه باب السجن. أما المأدبة فسوف نتحدث عنها بعد غد في المدرج.

" هزمت مرة ثانية " فكر بترونيوس

وبعودته إلى البيت، لم يكن لديه أي شك في مصير ليفيا وفي اليوم الثاني أرسل أحد معتوقيه المخلصين بوصية إلى قائد البولاريووم في المدرج، بأن يسلم جثمان ليفيا اليه، لأنه سيسلمها بدوره إلى فينيكوس.

باستثناء حالات ومناسبات خاصة في السابق، لم تتخذ العروض طابعها الاحتفالي المنوع الا في عهد نيرون. كان الاوغستيان يحب ذون هذا الزخرف الترفيهي الجديد الذي غالباً ما تليه المآدب والمرح العريبد، ويستمر حتى الصباح.

صحيح أن الشعب قد أتخم من إراقة الدماء، لكنه بإعلان الجهات المنظمة أن العاب السيرك تتجه نحو نهايتها، وأن الدفعة الاخيرة من المسيحيين ستشارك فيها، فقد وفدت الحشود متزاحمة، متدافعة إلى المدرج. حضر الاوغستيان عن آخرهم، يحدوهم الظن بأنهم سيشاهدون عرضا ليس عاديا، بعد أن قرر القيصر أنه في صدد تقديم تراجيديا مستوحاة من الام فينيكوس.

احتفظ تيفالنيوس سرا بطريقة التعذيب التي ستسلك بخصوص خطيبة الحاكم الشاب، ولقد اعتبر عدم الافصاح عنها طعنا بالمزاج العام.

فالذين كانوا قد رأوا ليفيا في منزل بلاوتيوس، تناقلوا في احاديثهم العجائب عن جمالها، فيما أثار آخرون غيرهم أمر آخر : أتراهم سيشاهدون ليفيا في الميدان أم لا، لأن ما قاله القيصر في مأدبة نيرفا يُحتمل على وجهين. فبعض منهم فهم من القيصر أنه سيعيدها، بل أعادها إلى فينيكوس، لأن من حقها كرهينة أن تؤمن بالاله الذي تريد، وأن القانون لا يتيح الحاق العقاب بالرهائن.



لعبت الشكوك في نفوس المشاهدين، وأرقهم الترقب والفضول. وحين وصل القيصر أبكر من عادته، انتشر اللغو في أوساطهم، متوقعين أن أمرا خارقا سوف يحصل، خاصة وأن نيرون جاء وبصحبه كل من تيفالنيوس و فاتينوس إضافة إلى قائد المئة العملاق الشديد البأس كاسيوس، الذي لم يعتد القيصر على اصطحابه معه الا إذا دعت الحاجة الماسة.

وبدا للعيان في المدرج أن تدابير احترازية مشددة قد اتخذت من قبل جنود الحرس الامبراطوري والان تحت قيادة الحاكم فلافيوس المخلص الشديد التثبيت بالقيصر، كما يعلم الجميع.

كل هذه المظاهر دلت على أن القيصر قد اتخذ كل احتياطاته ضد أي غضب محتمل لفينيكوس قد يخرج عن طوره، ويهدد أمن نيرون وسلامته.

كل الانظار اتجهت مشدودة إلى حيث يجلس العاشق البائس. كان فينيكوس شاحبا قلقا متعرق الجبين، فاقد اليقين، شأنه شأن الاخرين، فيما سيحصل.

لكنه كان مصمما على إنقاذ ليفيا، مهما كلفه ذلك من ثمن. جاء منذ الصباح، يحاول الدخول إلى كونيكولوم ليتأكد من وجود ليفيا هناك، لكن الجنود كانوا يحرسون كل المداخل، مزودين بأقصى الاوامر والتعليمات التي جعلت حتى أصحابه من الجنود لا تلين قلوبهم أمام أي إغراءات، ولو كانت أكياسا من الذهب. شعر فينيكوس أن القلق يقتله قبل أن يشاهد العرض لولا بصيص من أمل يقول له أن ليفيا قد لا تكون في المدرج، وأن هذا القلق القاتل لا فائدة منه. لقد تشبث ببصيص الامل هذا.

وفكر في نفسه أن المسيح قد يكون قد أخرجها من السجن ورفعها اليه. كان قبل الان مستسلماً لإرادة المسيح، لكنه وقد طرد من أمام مدخل الكونيكولوم عائداً إلى المدرج، أدرك أن أقصى الاحتمالات في طريقها إلى الوقوع، فراح يصلي، ويدعو المسيح لإنقاذها: " أنت قادر " وشعر الان أنه إذا ما شاهد ليفيا تكابد تعذيبها المرتقب، فإن محبته للمسيح ستستحيل إلى كراهية، وإيمانه إلى شك.

تزاحمت أفكاره كالأمواج في بحر عاصف. استيقظ في داخله ظمأ إلى الدم، والرغبة في الانتقام. دهمته رغبة مجنونة في اقتحام المنصة، والقبض على القيصر، وخنقه على مرأى من الجمهور، لكنه في الوقت نفسه، شعر أن هذه الرغبة تجرح المسيح، وتعني الخروج عن تعاليمه.

وفي غمرة هذه الأفكار اتخذ قراراً بأن ليس بوسع إنقاذ ليفيا الا بالإيمان، الطريق الاوحد المتبقي لديه. لم يقل بطرس: " بالإيمان يمكن زحزحة الأرض عن بنيانها "

استعاد نفسه إذن، وضغط على ما يجيش جواه من يأس واحتجز كائنه الحي، داخل عبارة واحدة " أو من

وانتظر المعجزة.

وكما يتعين على الوتر المشدود إلى أقصاه أن ينقطع، فإن ما بذله من توتر أقصى في قواه، قد أدى إلى انكساره. شحب وجهه، وتصلب جسده. وفكر آنئذ أن دعاءه قد استجيب، فهذا هو ذاي موت. وأحس أن ليفيا أيضاً تموت الان مثله، وأن المسيح سيرفعها اليه.

الميدان، والمتفرجون، والالاف المؤلفة من الأردية البيضاء،

والفوانيس، والمشاعل، كلها قد اختفت من أمام عينيه، لكن هذا الوهن لم يدم طويلاً. وسرعان ما تيقظ، والآخرى أن صخب الشعب المترقب هو الذي أيقظه.

قال بترونيوس :

- أنت مريض. اذهب إلى البيت !

ودون أن يبالي بما سيقوله القيصر، نهض ليمسك بذراع فينيكوس وينصرفا سوياً. امتلأ قلبه شفقة على الشاب، لكنه كذلك كان طافحاً بالغيظ، لأن القيصر كان يراقب فينيكوس من خلال زمردته، متمعناً في الامه، بسعادة بالغة، لعله كان يرغب في كتابة قصيدة، يتحدى بها تصفيق الجماهير.

هز فينيكوس رأسه. قديموت هنا في المدرج، لكنه لا يحتمل الانصراف، لأن العرض قد يبدأ في أية لحظة.

وفعلاً، في هذه اللحظة قام حاكم المدينة بالقاء منديله الأحمر أرضاً. وللتوضيح باب المدخل المقابل لمنصة القيصر، ومن شقه المظلم دخل أرسوس إلى الميدان الشديد الانارة.

أغمض العملاق عينيه نتيجة الانارة البهرة، وتقدم ناحية وسط الميدان، وراح يجول بعينه في كل اتجاه، كأنما يبحث عن عليه أن يصارعه. كان جميع الاوغستيان، والغالبية العظمى من جمهور المشاهدين يعلمون أن هذا العملاق هو من دق عنق كروتون، فهدر المدرج لمرآه. كان في روما العديد من المجالدين الذي فاقوا بقاماتهم المقاييس العادية للناس، لكن عملاقاً مثله لم يكح ل أعينهم قبل الان.

حتى أن كاسيوس الواقف خلف القيصر بدا كقصفة صغيرة مقارنة به. السيناتورات، عذراوات فيستا، القيصر، الاوغستيان، الشعب، كلهم راقبوا بذهول ساقيه الاشبه بجذعين شجريين، و صدره المنتفخ الاشبه بترسين متلاصقين، وذراعيه الهرقليين.

اشتد الهدير لحظة إثر لحظة. لم تعرف الجماهير لذة أكبر من استمتاعها بالعاب مثل هذه العضلات حين تتوتر، وتتضخم في أتون المعركة. علت الصيحات : أين ذلك الشعب الذي ينبج مثل هؤلاء العمالقة. فيما كان أرسوس ينتصب عاريا في وسط الميدان.

كان أشبه ب نصب حجري منه إلى إنسان غار وجهه الاسمر، وطفح بالحزن. وحين رأى الميدان خاليا راح مندهشا يجول بعينه الزرقاوين الطفوليتين، على المتفرجين، ثم على القيصر، ثم على شباك الكونكولوم من حيث ينتظر قدوم جلاديه.

حين خطا نحو الميدان، كان قلبه يرتجف توقا إلى ميتة مسيحية، ولكنه حين لم يلمح قائم الصليب، ولا الحفرة المعدة من أجله، فكر أنه لا يستحق إذن مثل هذه النعمة، ومن المحتمل أنه سيلاقي حتفه بين أنياب الوحوش :

كان أعزل، واعتزم أنه سيواجه الموت كواحد من أتباع الحمل : بهدوء، وصبر و رغب في الصلاة للمخلص، فركع في أرض الميدان. عقد يديه، ورفع وجهه عبر شق السيرك العلوي، نحو النجوم المؤتلفة.

لم ينل هذا الطقس إعجاب الحشد. لقد سئموا هؤلاء المسيحيين الذين يواجهون موتهم كالحملان كانوا يدركون أن هذا العملاق إذا تمنع عن القتال، فقد ذهب العرض في مهب الدخان.

وسمعت هسهسة هنا وهناك. وقام البعض بمناداة الجلادين الذين يقتصر دورهم على سقوط المتمنعين وحثهم على القتال. ولكن سرعان ما ساد الصمت، لأن أحدا لم يكن يعرف ما الذي ينتظر العملاق، وهل يا ترى سيواجه الموت دون مقاومة.

لم يدم الانتظار طويلاً. صدحت الابواق النحاسية تصم الاذان. وانفتحت الشبكة قبالة المنصة القيصريّة، ليدخل منها وسط الزعيق، ثور جرمانى مخيف على رأسه جسد نسائي عار.

صاح فينيكوس :

- ليفيا ! ليفيا !

وكمن أحس بأن مديّة حادة، أو راس سنان يخترق جسده، جلجل بصوت حيواني عميق :

- أومن ! أومن !... يا مسيح ! اصنع معجزة !

حتى أنه لم يشعر أن بترونيوس في هذه اللحظة خبأ رأسه بردائه. ظن أن الموت أو الا لم قد سرق ضوء عينيه. لم ينظر، لم ير. أحس أن فراغا رهيبا يحيط به. لم يبق في رأسه أثر لأية فكرة. فمه فقط ظل يردّد

- أومن ! أومن ! أومن !

ساد البكم في المدرج. قفز الاوغستييان عن أماكنهم قفزة رجل واحد، لأن ما حصل في الميدان كان أمرا غريبا يفوق الحد. ما إن لمح العملاق الليغوي الخشوع المتأهب للموت، الاميرة فوق قرون الثور، حتى قفز كالمسوع، وانحرف راكضا باتجاه الثور.

وملء الحناجر علت صيحة آنية قصيرة، عبرت عن ذهول المتفرجين،  
ثم أطبق صمت أبكم. في هذه الاثناء، وفي لمح البصر، كان العملاق  
أمام الثور المندفع نحوه، وأمسك بقرنيه.

صاح بترونيوس مزيحا الرداء عن رأس فينيكوس :

- انظر !

تيقظ الشاب رافعا رأسه النحيلة الشاحبة، وسمر عينين بللوريتين  
حائرتين على الميدان.

توقفت الانفاس في الصدور. وسمع أزيز أجنحة الذباب في  
المدرج. لم يشأ البشر أن يصدقوا أعينهم. فمنذ روما هي روما، لم تقع  
عيونهم على مثل ما يشاهدونه الان.

أمسك العملاق بقرني الثور. غرز قدميه في الرمل، وأحنى ظهره  
كقوس مشدود، وغابت رأسه بين كتفيه، وانتفخت عضلات ساعديه  
حتى كادت أن تخرج من جلدها، لكنه كبح جماح الثور، وثبته في  
أرضه.

تبيس الانسان والحيوان في مكانهما بلا حراك، فظنت الحشود  
أنهما أمام مشهد يصور بطولات هيركوليس أو تيسيوس، أو أنها  
تشاهد نصبا منحوتا من الصخر. لكن هذا السكون الظاهري كان  
يعكس القوة الهائلة التي يبذلها المتصارعان. كذلك كانت حوافر  
الثور منغرزة في الرمل، وتكور جسمه الدغلي القائم حتى صار كرة  
عملاقة. أيهما ينهار أولا، أيهما يتزحزح أولا، هذا هو السؤال الذي  
بات في عيون المشاهدين الان أكثر أهمية من مصير أي منهما، بل من  
مصير روما بأسرها، وكامل سلطانها في العالم.

صار الليغوي الان في نظرهم، نصف اله يستحق منهم الاحترام، وإقامة التماثيل له. حتى القيصر نهض من مكانه واقفا. لقد سمع هو و تيفالنيوس عن قوة أرسوس الجبارة، فتقصدا إقامة هذا العرض، وتهامسا بسخرية فيما بينهما: " فليقهر إذن من قتل كروتون هذا الثور الذي خصصناه لأجله ". أما الان فقد راحا يتابعان بذهول هذا المشهد أمامهم، غير مصدقين أنه مشهد حقيقي. كان في المدرج من رفعوا اياديهم، وتجمدوا على هذه الصورة. آخرون تصببت جباههم بالعرق، وكانهم الذين يصارعون الثور.

أطبق في المدرج صمت ثقيل سمع خلاله هسيس النار في المشاعل، والمصاييح. توقفت الاصوات في الحناجر، فيما خفقت القلوب بشدة تريد أن تمزق صدورها، وشعر الجميع أنه صراع أزلي مجهول البداية.

ما زال الانسان والحيوان ثابتين في مكانهما، كأنما قد ضربا جذورا في الأرض.

وعندئذ طلع من الميدان صوت أنين علت على أثره صيحات شملت كل الحناجر، ثم ساد السكوت مجدداً. ظن الناس أنهم في حلم:

ها هي ذا رأس الثور المخيفة بدأت تنفتل بين قبضتي البربري الحديديتين.

اكتسى وجه الليغوي، وعنقه، وذراعاها، باللون الارجواني، وصار ظهره أشد تقوسا. بدا أنه يستجمع ما تبقى من قواه الجبارة الفائقة للقوة البشرية، وبدا أنه لن يصمد طويلاً.

امتزج أنين الثور الاجش المتالم بلهات صدر العملاق العاصف.

وشيثاً فشيئاً ازداد انفتال رأس الحيوان، ولفظ لسانا مزبدا طويلاً.

وماهي الا لحظة حتى طرق أسماع من هم في الصفوف الامامية القريبة، صوت طقطقة العظام، تبعه سقوط الوحش ميتاً مدقوق العنق فوق الرمال.

وعندئذ سارع العملاق إلى فك الحبل من حول قرني الثور، ورفع العذراء بذراعيه، لاهثاً بأنفاس مسموعة.

كان شاحب الوجه، مبلل الشعر، تصبب كتفاه وذراعاة بسيل من العرق. وقف للحظة كأنه فاقد الرشد، لكنه سرعان ما رفع وجهه، ونظر إلى الجماهير.

جن جنون المدرج.

هز زئير عشرات الالاف المحتشدة أركان المبنى وجدرانه. فمذ أن بدأت الالعب لم تذكر الحشود عرضاً بهذا الحماس. أخذت جماهير المقاعد العليا تندفع نحو الاسفل وتتزاحم بين صفوف المقاعد، لتشاهد هيركوليس عن كثب. وتعالى من كل الانحاء أصوات كثيرة معاندة، مكابدة، تطالب بالرحمة، ما لبث أن اتحدت لتغدو صيحة واحدة رجت الاجواء. عرض خاطف جعل من العملاق الانسان الاول في روما.

وبات في لحظات ضوء عيون هذا الشعب الذي أحب قوته الجبارة كل هذا الحب.

أدرك بدوره أن الشعب يطالب له بالرحمة، والحرية. لكن المعضلة



لا تتوقف عنده فقط. ظل لفترة يجول بعينيه، حتى تقدم أخيرا واقترب من منصة القيصر، حاملا الفتاة بذراعيه، وأبدى نظرات متوسلة كأنما أراد أن يقول :

-توس لو امن أجلها ! انقذوها هي ! لقد قمت بكل ذلك من أجلها.

أدرك الحشد رغبته بالضبط. وحين رأت الفتاة المغمى عليها كطفل صغير إلى جانب جسم الليغوي الضخم، تولد في النفوس حماس شديد شمل المتفرجين والفرسان، والسيناتورات. جسد الفتاة المرمرى الضئيل، وإغماؤها، وما تعرضت إليه من خطر رهيب، وإقدام العملاق على إنقاذها، وأخيرا جمالها، ووفاء الليغوي، كلها أمور حركت القلوب.

ظن البعض أن الاب أراد الرأفة بطفله. فجأة اندلعت نار الشفقة. كفى دماء كفى موتا وعذابا أصوات متلعثمة بالبكاء طلبت الرأفة لكليهما.

في هذه الاثناء، دار أرسوس في الميدان، حاملا الفتاة، راجيا بنظراته، وحرركاته إنقاذ حياتها. وعندئذ نهض فينيكوس من مكانه، وقفز من فوق الحاجز الذي يفصل المقاعد الاولى عن الميدان، وركض نحو ليفيا، وستر جسد الفتاة العاري بردائه.

ثم مزق سترته الصدرية، مظهرا آثار الجروح التي أصابته في الحرب الارمينية، ومد يديه نحو الشعب. وإثر ذلك تصاعد حماس الجمهور حتى بلغ أوجا لم يحصل في المدرج من قبل.

تعالص صيحات العامة وراحت تخبط بأقدامها. باتت الاصوات

المطالبة بالرأفة تهديدية منذرة بالوعيد. وبات انحياز الشعب لا يقتصر على التعاطف مع المصارع، بل شمل العذراء، والجندي، وما يربط بينهما من حب.

توجهت الاف القبضات والعيون التي تغدق الغضب، نحو القيصر. انكمش نيرون وأرغى، وأزبد. لم يكن كرها لفينيكوس، كما لم يكن موت ليفيا بتلك الأهمية بالنسبة اليه. كل ما هنالك أنه أحب أن يرى جسد الفتاة معلقا فوق قرني الثور، أو تمزقه أنياب الوحوش، وأن قسوته، وتطلعاته المنحله، ومكابداته الداعرة، كلها معا قد وجدت ضالتها في عرض ممتع كهذا.

والان ها هو ذا الشعب يأتي ويجرده من متعته. اكتسى وجهه غضبا. فلم يسمح له غروره أن يستجيب لإرادة الحشود، لكن جنبه الغالب المقيم أخافه من عدم تلبيتها.

التفت حوله، عسى على الاقل أن يرى بين الاوغستيان اصابع منزلة إلى الاسفل إيذانا بالموت لكن بترونيوس رمقه بنظرة متحدية، وقد رفع يده. و فستينوس النزاع إلى الخرافة، وانتعاش النيل الكامن في داخله، والميال إلى الخوف من الاشباح دون مخافة البشر، كان يشير بإصبع الرحمة. وكذلك فعل السيناتور سكافينوس، و نيرفا و سينكو و سكابولا والقائد الحربي المرموق العجوز، و أنتيستوس و بيسو و فيتوس و كريسيبينوس و ترموس و تلسينوس و مثلهم تراسيا الذي يتمتع باحترام شديد من قبل الشعب.

على إثر ذلك المشهد أنزل القيصر زمردته عن عينيه، وقد أحس بالازدراء والاهانة، فيما مال اليه تيفالنيوس الذي أهمه أن يوجه صفة لبترونيوس، وقال :

- لا توافق أيها القيصر الالهي، الحرس الامبراطوري هنا.

هنا التفت القيصر إلى نصيره المخلص الصارم سوبريوس فلافيوس أمر الحرس الامبراطوري الان، فوقعت عيناه على أمر فائق الخطورة. كان الحاكم العجوز يبدي عينين مغروقتين بالدمع، وقد رفع إصبعه إشارة للرحمة.

في هذه الاثناء بدأ الحشد يعلن الغضب والاستياء، حتى صار وقع الاقدام ينشر غبارا ملاً أرجاء المدرج، وعلت هنا وهناك صيحات قائلة " صاحب اللحية الحمراء، قاتل أمه، حارق المدينة "

ارتعد نيرون. كان الشعب سيد الموقف في الملعب كان القياصرة السابقون كاليغولا خاصة يتحدون في بعض الاحيان إرادة الشعب، لكن ذلك كان دائما يؤدي إلى قيام الشعب، وينتهي أحيانا بإراقة الدماء.

أما حال نيرون فكانت مختلفة. أولاً لأنه كمثل ومغن، في حاجة لرحمة الشعب، وثانياً لأنه يريد منه أن يصف إلى جانبه مجلس الشيوخ، والحكام. وثالثاً لأنه، بعد حريق روما، كان يسعى بكل ما لديه من قوة، ليحظى بثقة الناس، ويوجه غضبها نحو المسيحيين.

وأخيراً أدرك أن الاستمرار في معاكستها قد يكون من الخطورة، وأن الشعب المتفجر في السيرك قد يطال أنحاء روما، مخلفاً نتائج لا يحمد عقباها.

والتفت بنظرة أخرى إلى كل من سوبريوس فلافيوس والحاكم سكافينوس قريب السيناتور، و إلى الجنود، فاصطدمت عيناه في

كل مكان بجباه مقطبة، ووجوه مترقبة، وعيون قد تسمرت عليه.  
فقام بإعطاء إشارة الرحمة.

وعلى إثر ذلك انفجرت عاصفة هادرة من التصفيق، بدأت من  
الصفوف العليا، حتى بلغت قاع المدرج. ضمن الشعب الان حياة  
المتهمين، لأنهما منذ هذه اللحظة، باتا في حماية القيصر، حتى أنه  
لم يعد يجرؤ على ملاحقتهما بعد الان.

قام أربعة عبيد بنقل ليفيا إلى منزل بترونيوس، بقصد عرضها على الطبيب الإغريقي بأقصى سرعة ممكنة. وسار كل من فينيكوس و أرسوس إلى جانبها صامتين، بعد أن أرهقتهما وقائع هذا اليوم، فلم يحتملا تبادل الحديث. ولم يكن فينيكوس قد استعاد وعيه بعد، وبقي أسيرا لفكرة وحيدة ظل يرددتها في دخيلته : لقد نجت ليفيا، ولم تعد مهددة بالسجن، أو بالموت في السيرك، وأنهما قد ودعا البؤس إلى غير رجعة، وها هو ذا يعود بها إلى البيت، ولن يفترقا بعد الان. شعر أنه يبدأ حياة جديدة، وكأنه في حلم. فكان بين حين وآخر، ينحني نحو الهودج المشرع، ويلقي نظرة على وجهها المحبب، تحت نور القمر، كانت نائمة، فقال لنفسه : " إنها هي، والمسيح قد أنقذها "

غمرته السعادة، وأوشك على الاغماء غير مرة، وكان عليه أن يستند مستعينا بذراعي أرسوس، بعد أن فقد قدرته على متابعة المسير. أما أرسوس فظل رانيا نحو السماء الموثقة بالنجوم، يصلي.

عبرا الشوارع التي اثقلت ابنتها الجديدة تحت القمر. كانت المدينة خالية، الا من بعض التجمعات التي التقياها هنا وهناك تغني وترقص محتفية، مرحة في هذا الليلة البديعة. كانا قد اقتربا من بيت بترونيوس، حين أنهى أرسوس صلاته. فقال بصوت خفيض لكي لا يوقظ ليفيا :

- سيدي، المخلص أنقذها من الموت. حين لمحتها على قرون الثور، جاءني صوت داخلي يناديني " أنقذها ! " كان صوت الحمل.

السجن أنك قواي، لكن المسيح عاد وزودني بها من أجل هذه اللحظة. وهو من دفع هذا الشعب المظلوم ليقف في صفها. فلتكن مشيئته.

فكان رد فينيكوس :

- تبارك اسمه.

ولكنه لم يتمكن من قول المزيد، فقد شعر أن بكاءً مريراً يضغط على صدره، وانتابه رغبة لا تقاوم بالركوع أرضاً، وتقديم امتنانه للمخلص على معجزته وضراوته.

وصلوا إلى المنزل، وكان الخدم، الذين أرسل أحد العبيد لإعلامهم بقدوم فينيكوس في استقبالهم. كان خدام المنزل جميعاً ممن عمدهم بولس الترسوسي في الأنتيوم.

فهم على معرفة بمقدار التعاسة التي المت بفينيكوس. وكانوا في منتهى السعادة، بإنقاذ الضحيتين من بين يدي نيرون.

وازدادت ساعاتهم أكثر حين أخبرهم الطبيب تيوكليس بعد معاينة المريضة، أنها لم تتعرض لجروح مؤذية، وأنها بعد أن يقدر لها الشفاء من الوهن نتيجة مرض الحمى الذي أصابها في السجن، سوف تكون معافاة تماماً.

استعادت وعيها في تلك الليلة حين أضيئت الانوار الكورنتوسية في الغرفة الفخمة العطرة، لم تعلم أين تكون، وما الذي يحل بها.

وحين لمحت فينيكوس خلفها، ظنت لوهلة أنهما في استراحة على

طريق الصعود إلى الرب. ابتسمت له وأرادت أن تسأله أين هما الآن، لكن شفيتها لم تفترا الا عن نبرات كان من الشاق استخلاص اسم الشاب من بين حروفها.

جثا إلى جوار الفتاة، وقال وهو يضع يده بحنان على جبينها :

- أنقذك المسيح، وأعادك الي !

تحركت شفتا الفتاة مرة أخرى، وافترتا عن حروف غير مفهومة. ثم اهتز جفناها بعد قليل، ونهد صدرها، وأصدرت تنهيدة خفيفة غرقت بعدها في نوم عميق. تنهيدة كان الطبيب تيوكليس في انتظارها، متوسما بها شفاء أكيدا. وهذا ما حصل.

ظل فينيكوس قربها يصلي راکعاً. ذابت روحه في حب أنساه كل شيء. كان الطبيب يطل عليها كل فينة. ومن وراء الستارة كذلك بانة رأس يونيكي أكثر من مرة. حتى أعلنت ديكة الحديقة قدوم الفجر. أما فينيكوس فلم يكن يشعر بكل ما يجري من حوله، لأنه كان سارحا يقبل أقدام المسيح، بقلب قد استحال إلى شعلة تحترق شكرا وامتنانا، حتى شعر بنفسه وقد أضحي الان في الجنة.

بترونيوس، ولكي لا يثير القيصر بعد اعتناق ليفيا، رافقه وباقي الاوغستيان إلى البالاتينوس. لقد أراد أن يسمع ما سيجري هناك من أحاديث، وأن يعرف على وجه الخصوص ما إذا كان تيفالنيوس قد دبر تهمة جديدة لإعدام الفتاة. صحيح أن الفتاة، كما أرسوس قد انضويا تحت حماية الشعب، وأن أحدا لا يجروا أن يطالهما بسوء الا إذا أراد إثارة الفوضى، لكن بترونيوس، لعلمه كم يضمر له قائد الحرس من الكره الشديد، قد افترض أنه سيواصل سعيه للانتقام من فينيكوس.

تذمر نيرون، وتملكه التوتر، لأن العرض قد ال إلى غير ما كان يرومه منه بترونيوس في البداية، لم يشأ حتى أن يراه، ولكنه التفت إليه الان بكل هدوء، وبرود ليقول :

- أتدري أيها القيصر الالهي، ما الذي يدور في بالي؟ اكتب قصيدة عن الفتاة التي أنقذت بأمر منك، عن قرني الثور، وأرجعتها إلى حبيبها. اليونانيون يتمتعون بقلب طيب حساس، وأنا على ثقة أن قصيدة مثل هذه ستخلب لب هم.

نالت الفكرة إعجاب نيرون لسببين. أولا لأنها موضوع أغنية، وثانيا، لأنها تمج دفيه سيد العالم الرووف. رمق بترونيوس بنظرة دامت لوهلة، ثم قال :

- أجل! قد تكون محقا! لكن هل من المناسب أن أتغنى بحسناتي الشخصية؟



- ليس بالضرورة أن تسمي نفسك. فالجميع في روما سيعرفون ذلك. وانطلاقاً من روما سينتشر النبأ في جميع أنحاء العالم.

- وهل أنت أكيد من أنه سيلقى استحساناً في أكايا؟

فصاح بترونيوس :

- أقسم ببولوكس !

وانصرف راضياً، لأنه كان على يقين أن نيرون لن يتخلى عن الفكرة. وهكذا سيغدو تيفالنيوس مكبل اليدين.

الا أن الرضا الذي حظي به لم يثنه عن مقصده في إبعاد فينيكوس عن روما، حالما تعافت ليفيا.

فما أن رآه في اليوم التالي حتى قال له :

- خذها إلى سيلسليا لقد حدث أمر يجعلها في منجى من القيصر، لكن تيفالنيوس لم يتراجع بعد عن بثه السم، إن لم يكن بسببك فسببي أنا، لأنه يكرهني.

ابتسم فينيكوس :

- كانت ليفيا على قرون الثور، وأنقذها المسيح رغم ذلك.

فأجاب بترونيوس موحياً بفراغ صبره :

- لهذا السبب انذر لها ذبيحة مئة ثور. لكن لا تنتظر منه أن ينقذها مرة أخرى... الالهة لا تحب التكرار، هناك أمثلة على ذلك أوديسيوس مثلاً.

فأجاب فينيكوس :

- حالما تتعافى، سأذهب بها إلى بومبونيا غريسيينا

- حسنا تفعل، لأن بومبونيا ترقد مريضة. بلغني ذلك من أحد أقارب أولوس. خلال ذلك سيحصل هنا ما سيجعلهم ينسون أمر كما. لتكن فورتونا شمساً لكما شتاء، وفيئاً لكما في الصيف !

وغادره فينيكوس يخلو مستمتعا بسعادته الغامرة. فيما سارع هو إلى الطبيب يطمئن عن صحة ليفيا وحياتها.

تخطت الفتاة مرحلة الخطورة تماماً، بعدما تلقت كل صنوف الرعاية والراحة. فلم ينقض يومان حتى صاروا يخرجونها إلى حديقة الفيلا لتمكث فيها ساعات طويلة. قام فينيكوس بتزيين الهودج بالسوسن لكي يذكرها بمنزل أولوس. وكثيراً ما كانا يسيران يدا بيد بين الأشجار، يتحادثان عن الأوجاع والمخاوف السابقة. وأوضحت له ليفيا أن المسيح تعمد أن يبلو فينيكوس بتجارب مؤلمة ومكابدات لكي يخلصه في النهاية، رافعا روحه إلى جواره. ولقد أحسن الشاب أن هذا صحيح، بعد أن تخلص من فينيكوس القديم الذي لا يعرف ناموساً آخر سوى ما تعلق بهمومه الخاصة. لكنها خلت من المرارة. فقد أحس كلاهما أن ما مضى قد ولى إلى غير رجعة، وأن سلاماً لم يستشعراه من قبل، بات يملأ قلوبهما الآن.

بدأت حياة جديدة، جذبتهما إليها. لقد ساد القيصر، وماد في روما، وملاً الكون رعباً، لكنهما الآن، بشعورهما أن ثمة سلطاناً أشد بأساً بأضعاف مضاعفة من سلطان القيصر، لم يعودا يخافان غضبه، وخبله، ولا يحسبان له حساباً، كأنه ما عاد قي ما عليهما، ولا سيد

حياتهما وموتهما. ذات مرة عند حوالي الغروب طرق أسماعهما  
جئير الاسود، والوحوش، قادمًا من المرابي النائبة. كانت أصواتًا تملأ  
قلب فينيكوس رعبًا، لأنه اعتبرها نذيرًا للشؤم آنذاك. والآن تقابلت  
نظراتهما بالابتسام، ثم راحا يتأملان الغروب.

و حين تشعر ليفيا بالوهن كانت أحيانًا تختلس سهوة في سكون  
الحديقة، و إلى جانبها فينيكوس يتأمل وجهها. لقد أذبل المرض  
جمالها فعلا، فباتت نحيلة الوجه، شاحبة الشفتين، منهكة الجسد،  
حتى عيناها لم تعودا. تمثل تلك الزرقة المعهودة. يونيكي الشقراء الشعر  
التي خصتها بالازهار، والغطاء الناعم، وقفت قربها كإحدى الهات  
سيروس. بترونيوس ذو النظرة الجمالية، عبثا كان يحاول الوقوف  
على مواطن جمالها المألوفة.

لكن فينيكوس بات يحب فيها روحها، ولقد أحبها أكثر حين كان  
سأهرا إلى جانبها، وأحس أنه يملك العالم.

سرعان ما انتشر نبأ نجاة ليفيا العجائبيّة بين أوساط المسيحيين المتبقين على قيد الحياة. بدأ الاتباع يتجمعون لرؤية التي تحررت بضراعة المسيح. جاء أولاً الفتى نازاريوس وأمه اللذان ما زالوا حتى الآن يخبئان الرسول بطرس، ولحق بهما كثيرون. وبحضور فينيكوس وليفيا وبترونيوس استمع الجميع إلى حديث أرسوس عن الصوت الذي هتف في روحه، يأمره بقتال الثور.

وانصرفوا جميعاً، تحذوهم الآمال بأن المسيح لا يسمح بالقضاء التام على أتباعه قبل قيام الساعة. وهي آمال أنعشت فيهم الروح، لأن ملاحقة المسيحيين لم تتوقف بعد. فكل من اشيرت الاصابع اليه بأنه مسيحي جره رجال الامن، وزجوه في السجن.

كان أولئك قلّة، لأن الغالبية العظمى كانوا قد اعتقلوا وعذبوا، أو غادروا المدينة، ولم يجروا على إقامة الصلاة الجماعيّة.

رغم ذلك استمر الجند في اقتفاء آثارهم، وأبقوا على المعتقلين منهم إلى حين إقامة العاب السيرك في المواسم التاليّة.

ورغم أن شعب روما لم يصدق أن المسيحيين هم من أحرق المدينة، إلا أن الناس كما الحكومة قد أعلنوهم أعداء للمجتمّع، فبقيت المراسيم الصادرة ضدهم ساريّة الصلاحيّة.

الرسول بطرس بدوره، لم يجروا لمدة طويلة أن يظهر عند منزل برونيس إلى أن أعلن نازاريوس ذات مساء قدومه. فهرولت كل من ليفيا و فينيكوس لمعانقة قدميه، فاحتفى بهما أيما احتفاء، خاصة وأن ما تبقى من الحملان بات عددا قليلا من مجموع القطيع الذي كل فه المسيح أن يرعاه.

وهكذا فحين قال فينيكوس: "سيدي، المسيح استجاب لتضرعك، وأعطانيها"

كان رد بطرس: "لقد أعادها اليك لإيمانك، ولكي لا يسكت كل الافواه التي تذكر اسمه" ولاحظ فينيكوس و ليفيا مشيب الحواريّ التام، وانحناءة ظهره، ومقدار الحزن والمعاناة على وجهه، انعكاسا لما كابده الضحايا من عذاب نتيجة لغضب نيرون وجنونه.

كان فينيكوس يستعد منذ أيام لإبعاد ليفيا إلى نابوليس، فتوسل إلى الحواريّ بطرس أن يغادر روما مرافقا لهما.

لكن الحواريّ وضع يده على راس فينيكوس وقال:

- أسمع كلمات المسيح التي قالها لي عند بحيرة طبريا: "حين كنت يافعا طوقت نفسك واتجهت حيثما شئت، لكنك فيما بعد، وحين تشيخ ستمد يديك ليطوقك شخص آخر، ويأخذك إلى حيث لا ترغب

كانا منصتين، لا يدر كان ما يقوله، فتابع يقول:

- رعايتي ستنتهي قريبا، ولن أحظى بكرم الضيافة، والراحة الا عند السيد.

## ثم التفت اليهما مجدداً

- فكّر ابي فقد أحببتكما مثلما يحب أب ابناؤه. واجعلوا كل سلوك لكم في الحياة تمجيذا للسيد. وبسط يديه المرتعشتين فوق رأسيهما، وباركهما، فاقتربا منه، وقد شعرا أنها قد تكون المباركة الاخيرة من يديه.

لكنه طمأنهما بأنهما سيرانه مرة أخرى. وبعد أيام جاءهما بترونيوس بأنباء خطيرة من البالاتينوس. لقد اكتشفوا أن أحد معاتيق القيصر المسيحي، قد وجدوا لديه رسائل من الرسولين بطرس و بولس، ومن ياكاب و يودا و يانوش. كان تيفالنيوس على علم مسبق بأن بطرس مقيم في روما، لكنه ظن أنه قد لقي حتفه مع الالاف الكثيرة من أتباعه.

ولكنه تبين الان أن أهم رجلين من رجال الدين الجديد ما زال على قيد الحياة، ويقومان بتدريس تعاليمه في العاصمة. فتقرر البحث عنهما والقبض عليهما بأي ثمن، أملا في اقتلاع آخر جذور الطائفة الكريهة. وسمع بترونيوس من فستينوس أن القيصر قد أعطى مهلة ثلاثة أيام لاعتقال بطرس و بولس وزجهما في سجن مامرتينوس، فحشدوا لهذا الغرض فصائل الحرس الامبراطوري لتمشيط بيوت الترانستيريس بالكامل.

فينيكوس بسماعه هذا النبأ، قرر الذهاب إلى الرسول، وتحذيره. وبحلول المساء اصطحب معه أرسوس متنكرين بعباءتين تخفيان حتى الوجوه، وقصدا سالكين أطراف الترانستيريس، منزل ميريام عند أسفل تلة يانيكولس، حيث يقيم بطرس شاهدا في الطريق بيوتا محاصرة من قبل الجنود بقيادة أشخاص مجهولين كان الاضطراب شديدا في هذه الناحية من المدينة، والمشاجرات قائمة هنا وهناك، وقادة المائة

يستجوبون العبيد في غير مكان، بحثا عن بطرس و بولس الترسوسي.

تخطى فينيكوس و أرسوس الجنود، حتى بلغا منزل ميريام، حيث التقيا هناك بطرس و حفنة من أتباعه. تيموسيووس مرافق بولس إضافة إلى لنيوس كانا إلى جوار بطرس.

كان نازاريوس بعد أن جاء النبأ الخطير، قد سار بهم عن طريق سري إلى مقلع حجارة مهجور يعد مئات قليلة من الخطوات عن بورتا يانيكولا. كان على أرسوس أن يحمل لنيوس المضعض الجسد، المحطم العظام نتيجة التعذيب. وحين وصلوا المغائر شعروا بالامان. اشعل نازاريوس الفانوس، وعلى ضوءه بدأت مشورتهم، كيف سيتمكنون من إنقاذ حياة الرسول الغالية على قلوب الجميع.

قال فينيكوس :

- سيدي، غدا عند الفجر سيخرجك نازاريوس من المدينة، باتجاه جبال الالب. سنلتقي هناك، وناخذك إلى الأنتيوم حيث تنتظرنا السفينة التي ستقلنا إلى نابوليس و سيسيليا. بورك اليوم والساعة حين ستحل عندي، وتبارك منزلي.

كان وقع الكلام سارا للبقية، وحاول الجميع إقناع الرسول بالأمر.

- اهرب يا راعينا، فلا مكان لك في روما. احرص على العدالة الحية كي لا تزول بنا وبك معا، نتوسل اليك كأب لنا أن تستمع الينا.

وتوسل آخرون متعلقين بردائه :

- افعل من أجل المسيح !

لكنه أجاب :

- يا ابنائي، من يدري كيف قدر السيد حدود حياتي؟

لكنه لم يقل أنه لن يغادر روما، هو نفسه كان متردداً، لأن الشك والخوف كانا قد تسللا إلى قلبه منذ فترة طويلة. رعيته تشتتت. أعماله ذهبت هباء، والكنيسة التي كانت، قبل الحريق قد ازدهرت كشجرة بديعة، حولتها قوة الوحش إلى غبار. لم يبق إلا الدموع، والذكريات الكثيرة، والعذاب المروع والموت. الزرع أعطى محصولاً وافراً، لكن الشيطان مرّغه بالوحل. جنود الملائكة لم تأت لإسعاف الهالكين، وها هو ذا نيرون ما زال بقمة مجده، يتربّع على عرش الكون، أكثر قوة ورهبة وسلطاناً. كم بسط الصياد يديه بالدعاء إلى الله، وكم تضرّع إليه بالقول "سيدي، ماذا أفعل؟ كيف سأقاوم، وأقف في مواجهة القوة اللامحدودة للشّر، وها أنتذا تطلق يديه ليسود وينتصر؟"

ومن شدة ألمه أطلق صرخة هزت أعماقه " لم يعد هنالك من حملان تكلفني برعايتها، ولا كنيسة أحميها، فلا جود في بلادك إلا للدمار والعراء والحداد. ما الذي تأمرني به الآن؟ هل أبقى هنا، أم أذهب بما تبقى من القطيع إلى مكان ناءٍ وراء البحار، فأجد اسمك في الخفاء؟

تملكته الحيرة، رأى أن زمنها لم يحن، ولن يحين إلا إذا هبط السيد في اليوم الموعد إلى الأرض، بكل ما يحوزه من مجد، وسلطان يفوق سلطان نيرون الآف المرات.

وغالباً ما خطر له أنه إذا ما غادر روما فسيلحق به جميع الاتباع. وسيأخذهم بعيداً حتى شاطئ بحيرة غانا زار الهادئة، حيث الرعاة الوادعون كالحمام أو الحملان. اشتد به الشوق إلى الهدوء والراحة، فترقق الدمع في عيني العجوز.



لكن الحيرة كانت تستحوذ على قلبه كلما نزع أنيا إلى اتخاذ قرار.  
كيف سيغادر المدينة بعدما قدم رعاياه كل هذه التضحيات والدماء.  
ماذا سيقول للسيد حين يسمعه يناديه :

" رعاياك تضحي بدمائها من أجل معتقدها، وأنت تهرب "؟

وهكذا كانت تنقضي أيامه ولياليه مليئة بالعذاب :

- سيدي، هل أرسلتني إلى هنا، لكي أقيم عرشك في عش الوحوش؟

وكان يقول لنفسه أحيانا : " كيف لي أن أصارع قيصر روما الذي لا يتمكن منه الا المسيح بنفسه.

كان الاتباع يتحلقون حوله مرددين :

- أهرب، وأخرجنا من سلطان الوحش

وفي نهاية المطاف أطرق لنيوس أمامه قائلاً :

- سيدي ! لقد أمرك المخلص أن ترعى حملانه. لكنهم لم يعودوا  
هنا الان. فأذهب حيث يمكن أن تجدهم. كلمة الله ما زالت حية في  
أورشليم، و أنطاكية ومدن أخرى. لا جدوى من بقائك في روما.

وإذا سقطت، فسوف تعزز من سلطان الوحش. والسيد لم يرسم  
حدودا لحياة يوحنا. و بولس مواطن روماني فلا يمكن الحاق العقاب  
به دون تهمة. أما إذا صب نيرون جام غضبه عليك فسيقول أصحاب  
القلوب المترددة : " لا أحد أعظم من نيرون "

أنت تلك الصخرة التي بينى عليها عرش السيد. دعنا نمت نحن،

لكن لا تسمح لعدو المسيح أن ينال من وريث الله في الأرض، ولا  
ترجع إلى هنا حتى ينتقم السيد من سفك دماء الأبرياء. ورجاه  
الجميع قائلين :

- أقم وزنا لدموعنا

وأغرقت وجنتنا بطرس أيضاً بالدمع. نهض ومد يديه فوق الراكعين  
قائلاً :

- تمجد اسم السيد، ولتكن مشيئته !

وعند فجر اليوم التالي انطلق شخصان قائمان باتجاه سهول كامباينا. الاول كان نازاريوس، وكان الثاني الرسول بطرس الذي غادر روما، وأخوة المعتقد المكابدين هناك.

كانت قبة السماء شرقاً مغمورة بوشاح مخضر، يتصل أسفله بشريط ضوئي يتسع مع مرور الوقت. بدأت صفوف الاشجار تتلامح فضية الاوراق، ومعها رخام الفيلات الابيض، وأقنية صرف المياه الممتدة نحو المدينة. بات اخضرار السماء يفتح شيئاً فشيئاً، ويتوشح بالذهبي. ثم ما لبثت جهة السماء الشرقية تستحيل إلى لونها الوردية، وتير جبال الالب التي بدت وكأن قوامها من نور، يخالطه البنفسجي.

انعكس الفجر على قطرات الندى المرتعشة فوق أوراق الاشجار. خف الضباب، وأتاح مساحة أوسع لرؤية المنبسط السهلي، وبيوته، ومقابره، وبلداته، وغاباته المتفرقة، وأعمدة الكنائس المنتشرة بينها.

كانت الطريق خالية. ولم يكن الفلاحون قد بدؤوا بشحن خضارهم على العربات، قاصدين المدينة، عبر الطريق المرصوفة ببلاط من الحجارة والممتدة حتى أسافل الجبال.

وفيما بعد انبثقت الشمس بين الجبال، فطلع مشهد غريب أمام ناظري الحواريّ كأنه قرص ذهبي بدلا من أن يندفع إلى الاعلى، يهبط من التلة الجبلية ويتدحرج على طول الطريق.

توقف بطرس وقال :

- أترى هذا الضوء الذي يتقدم نحونا؟

فأجاب نازاريوس :

- لا أرى شيئاً.

فرفع بطرس يديه حتى عينيه وقال مجدداً :

- طيف يأتي إلينا عبر الضوء.

لكن وقع الخطوات لم يكن مسموعاً. كان السكون شاملاً. وكل ما رآه نازاريوس أن الأشجار ترتعش في البعيد، كأن أحدا يقوم بهزها، وأن الضوء يتسع ويدوب في السهل.

رمى نازاريوس الحواري باستغراب، وصرخ باضطراب :

- أيها الرب ان ! ما خطبك !

سقطت العصا من يد بطرس، وأصبح فجأة شاخص العينين، فاغر الفم، وقد أوحى وجهه بالدهشة، والسعادة والاشراق. فركع أرضاً، وبسط يديه أمامه، وصدحت من فمه صرخة :

- يا مسيحي ! يا مسيحي !

وهوى بوجهه أرضاً كأنه راح يقبل قدمي أحدهم.

ساد صمت طويل حتى بادر العجوز يسأل بصوت منتحب

- كوفاديس يا سيدي؟

لم يسمع نازارايوس الجواب، لكن صوتاً وديعاً حزيناً طرق أذني بطرس :

- إن أنت تخليت عن شعبي، فأنا ذاهب إلى روما، لأصلب من جديد.

استلقى الحواريّ أرضاً، معفر الوجه بالغبار، ولا صوت، ولا حركة. ظن نازارايوس أنه مات، لكنه ما لبث أن نهض، وتناول عصاه بيديه المرتعشتين، ودون أن ينبس بحرف، استدار نحو تلال المدينة السبع.

حين رأى الفتى ما رآه، كرر مرددا كالصدى :

- كوفاديس يا سيدي؟

فأجاب الرسول بصوت خفيض :

- إلى روما.

وانطلق راجعا.

استقبله بولس و يوحنا و لنيوس وكافة الاتباع باستغراب، وجزع شديدين. لكنه أجاب عن كل اسئلتهم بهدوء وبشر :

- لقد رأيت المسيح !

وفي الصباح الباكر وبعد مغادرته للتو، دهم الجند منزل ميريام بحثا عن الحواريّ.

وكان في مساء اليوم نفسه قد خرج إلى مقبرة الاوستريانوم، ليقوم بتعميد أولئك الذين رغبوا في البلل بماء الحياة.

ومنذ تلك اللحظة كان يخرج كل مساء لعمادة أتباع جدد تزداد أعدادهم يوماً بعد يوم.

قيصر استحم بالدم، وروما، ومعها العالم الوثني بأسره، أصابها الجنون والخبل، لكن الذين هالتهم أفعال الشر، وسفك الدماء والجنون، والذين ساءت أقدارهم، ومن بينهم البؤساء والمحزونون، والفقراء، كلهم قد احتشدوا السماع الخطب الغريبة عن الرب الذي أحب البشرية وضحى بحياته مصلوباً ليخلصها من ذنوبها.

وحين عثروا على الرب الذي أمكنهم أن يحبوه، عثروا أيضاً على ما افتقدوه من العالم القديم : السعادة المنبثقة من المحبة.

أما بطرس فقد أدرك أن العدالة الحيّة، لا يمكن أن يقهرها لا القيصر، ولا جميع فيالقه، وأن زمن انتصارهم قد بدأ الان. وأدرك أيضاً أن هذه المدينة وهي بؤرة الشر، والانحلال الخلقي، ومركز السلطة، قد بدأت منذ اللحظة تستحيل إلى مدينته هو، ومحط كرسيه المضاعف. فمن هنا انطلق إلى العالم ملكوت ما فوق الجسد والروح.

وفي النهاية حانت ساعة الرسولين. لكن الرب قد ر لصياد السمك أن يمن عليه باصطياد روحين داخل السجن جنديان كانا مكلفين بحراسته في سجن مامر تينوس، هما بروسيسوس، مارتينيانوس قد اعتنقا المسيحية.

ثم جاءت ساعة المكابدة. في أثنائها لم يكن نيرون في روما. قام بإصدار الحكم المعتوقان الحران هليوس و بولستيس اللذان كلفهما القيصر بإدارة روما في أثناء غيابه. قاموا أولاً بجلد الحواريّ المسن تبعاً للقانون الروماني، ثم اقتادوه في اليوم التالي خارج أسوار المدينة باتجاه تلال فاتيكانوس، ليكابد هناك عقوبة الصلب الصادرة بحقه. لقد ذهل الجند من ضخامة الحشود التي تجمهرت أمام السجن من أجله، لأنه بنظرهم لا يعدو كونه شخصاً بسيطاً وغريباً، فلا يستحق موته كل هذا الاكتراث.

والذي أثار استغرابهم أكثر أن المتجمهرين كانوا أتباعاً رغبوا في مرافقة الحواريّ الكبير إلى موقع صلبه، ولم يكونوا ممن دفعهم الفضول للحضور.

وعند العصر، بعد انتظار، فتح باب السجن، وظهر بطرس بين فصيل من الجند. كانت الشمس قد جنحت قليلاً نحو أوستيا، وكان الطقس

صحوا، وهادئا. ونظرا لتقدم بطرس في السن، لم يلزموه بحمل صليبه بنفسه، لاعتقادهم أنه يعجز عن ذلك. ولم يقيدوا عنقه بالنير، لكي لا يعيقه في أثناء المسير. سار طليقا، وقد تمكن الاتباع من مشاهدته بوضوح. وحين ظهر رأسه الاشيب من بين خوذات الجند، انفجر نحيب، ما لبث أن خمد على الفور، بعد أن رأوا مقدار ما غمر وجه الحواريّ من سعادة وبشر، فترسخ إيمان الجميع بأن العجوز ليس مجرد ضحية ذاهبة إلى ملاقة حتفها، بل منتصر يسير في موكب الانتصار.

وهذا ما كان حقا. صياد السمك المحني المتواضع، قد استقام الان، حتى بان جليل الهيئة، وأطول قامة من الجند. لم يشاهدوه من قبل. يمثل هذه الرفعة والجلال، وكأنه كان حاكما يستعرض شعبه وجنوده. علت الاصوات في كل مكان :

" بطرس يعود إلى سيده " متناسية أنه ذاهب إلى العذاب والموت. واكبه للجميع بشغف احتفالي وسلام، لأنهم شعروا أنه منذ صلب المسيح لم تحدث واقعة كهذه، وإذا كان المسيح قد خلّص العالم، فالحواريّ قد خلّص المدينة.

واحتشد الناس في الطريق لرؤية الحواريّ، فيما كان الاتباع يرتبون بأياديهم على أكتاف الاخرين الذاهليين، ويقولون لهم بهدوء : " انظروا كيف يموت الإنسان الحق، الذي عرف المسيح، ونشر المحبة في العالم ". فصار الجميع يقولون لأنفسهم " لا بد أنه إنسان حق فعلا " وفي أثناء الطريق خمد الزعيق، والصياح. تقدم الموكب عبر المنازل الحديثة البناء، وأعمدة الكنائس البيضاء، التي دنت السماء الزرقاء الهادئة فوق قممها. ساروا بصمت الا من حفيف دروع الجند، وتمتمات الصلوات في بعض الأحيان.



كان بطرس مغموراً بالسعادة لم رأى هذه الالاف من الأتباع. وشعر أنه قد أنهى مهمته، وأن العدالة التي دعا إليها طوال حياته، تنتشر كموج البحر، ولم يعد بمقدور أي من أعدائها أن يوقف مدّها. هذه الفكرة جعلته يرفع عينيه عالياً ويقول: "سيدي، لقد أمرتني، بفتح هذه المدينة، التي تحكم العالم، وهاأنذا قد قمت بفتحها. وأمرتني أن أقيم عرشك هنا، وهاأنذا قد أقمته. باتت مدينتك، يا سيدي، وهاأنذا عائد إليك بعد شديد عناء"

و حين مروا بالقرب من المعابد، كان يلتفت إليها قائلاً: "ستصبحين كنائس للمسيح". وبمشاهدته للجُموع التي تمرق من أمام عينيه كان يخاطبهم قائلاً "سيصبح ابناؤكم خدما للمسيح". وبإدراكه لنجاح فتوحه، ومعرفته لاستحقاقه، وقوته، كان يتقدم بكل فخار وسلام. عبر به الجند جسر "مواكب النصر" كأنما يعترفون بانتصاره دون دراية منهم، ثم تقدموا نحو ناوماكيا باتجاه السيرك. وفي الترانستريس انضم الاتباع إلى موكبه. فتضخمت الحشود حتى ذابت في موكب الجند، الأمر الذي أذهل قائد المئة المرافق، خاصة أن صياحا واحدا يعبر عن غضب، أو تدمر، لم يصدر من قلب الجموع.

قبعت على الوجوه عظمة اللحظة، والترقب. استعاد بعض الاتباع ذكرى انشقاق الأرض هلعا عند موت السيد، وقيام الموتى من قبورهم، واعتقدوا أن إشارة ما ستحصل الان تخليدا للذكرى موت الحواري. وفكر بعضهم "عسى أن يختار السيد لحظة موت بطرس ويهبط إلى الأرض ويحكم العالم". وبهذه الفكرة استسلموا الرحمة المخلص.

كان كل شيء في الانحاء هادئا. والتلال كأنما كانت تستحم في ضوء الشمس، وتأخذ قسطا من الراحة. توقف الموكب أخيرا في

مكان يقع بين السيرك وتلة فاتيكانوس. وفيما عكف الجنود على تهيئة الحفرة، قام الآخرون بوضع الصليب، والمطارق، والمسامير على الأرض بانتظار نهاية الحفر.

أما الحشد الذي ظل محافظاً على الصمت، والاستغراق الداخلي، فقد تحلق راکعاً في خشوع. التفت الحواريّ مرة أخيرة نحو المدينة. بعيداً في العمق، اتلق نهر التبر، وميدان مارس في ضفته الأخرى، وفي الأعلى ضريح أوغستوس وفي الأسفل المنشآت الحرارية الضخمة التي بدأ نيرون الآن في بنائها، وإلى جوارها مسرح بومبيوس، وخلفه ما لا يحصى من الأروقة، والمعابد، والعمدان والأبنية المترابطة، وأخيراً في الأقاليم البعيدة، التلال المدرّوزة بالمنازل، قرية نمل بشرية عملاقة تداخلت أطرافها منصهرة في الزرقة الضبابية. مدينة الخطيئة، والقوة، والجنون، وموطن النظام، المدينة الأبدية التي لا تقهر، المدينة الجائرة التي تربع على عرش الكون، وصارت قانونه وأمانه.

محاطاً بطرس بالجنود، رمق المدينة بنظرته الأخيرة قائلاً " لقد خلصتك، أنت لي ! " لم يكن لا الجند الذين يهيئون الحفرة، ولا حتى أحد من الاتباع، ليخالجه الظن بأن سيد المدينة الفعلي يقف بينهم الآن، وأن عهد القياصرة، والبرابره قد ولى إلى غير رجعة، وأن قرونا بحالها سوف تنقضي، ويبقى هذا العجوز حاكماً دائماً عليها.

جنحت الشمس أكثر نحو أوستيا، وارتقت في السماء، واحمرت. وسبح نصف السماء الغربي بنور وهاج. تقدم الجنود من بطرس ليجردوه من ثيابه.

كان يصلي، فاستقام رافعاً يمينه عالياً.

ارتعش الجميع جزعين، وكنتم الاتباع أنفاسهم يترقبون ما سينطق به الحواريّ.

اعتلى مرتفعا من الأرض، ورسم بيمنه إشارة الصليب، وأنشأ، في ساعة موته يتلو قداسه البابوي :

- أبارك المدينة، والعالم !

وعند هذا المساء البديع ذاته، كان فصيل آخر من الجند يقود الرسول بولس الترسوسي على طريق اوستيا نحو أكوا سلفا.

هو الآخر رافقه حشد كبير من الاتباع الذين عمدهم، وكان على معرفة ببعض منهم، فكان يتوقف أحيانا ويتحدث معهم على مرأى من الجنود، الذين غضوا النظر عن مثل هذه التصرفات، باعتباره مواطنا رومانيا. وبعد عبور مدخل ترغمينا التقى بلاوتيلا ابنة الحاكم فلافيوس ساينوس، وحين لمح وجهها النضير مبللا بالدموع خاطبها قائلاً : " اذهبي بسلام يا بلاوتيلا، يا بنة الخلاص الابدي، لكن أعيريني وشاحك لأعصب به عيني حين أذهب إلى السيد " تناول منها الوشاح، وتابع مسيره، تغمر وجهه سعادة كالتى ترتسم على وجه عامل كد طوال اليوم، ويعود الان إلى منزله. كان مثله مثل بطرس، هادئاً صافي الافكار صفاء السماء في هذه الامسية. كانت عيناه تتأملان المنبسط المترامي أمامه، والجبال الألبية السابحة في النور، وقد تناسى أسفاره، ومتاعبه، وأعماله، وكفاحاته الظافرة، والكنائس المكرسة في بلدان ما وراء البحار، وشعر أنه يستحق الان الراحة.

هو أيضاً ختم أعماله وأحس أن زرعه في أمان، ولم يعد بمقدور الرياح الشريرة أن تعصف به وامتلات روحه بصفاء لا حدود له.

كان طريقاً طويلاً حتى موقع الموت. حل وقت الغروب، واكتست الجبال باللون الأرجواني، وقواعدها نامت في الظلمة. وبدأت الأسراب تعود إلى بيوتها، ومن بينها أرقاء على أكتافهم المعاول وأدوات العمل.

وكان أطفال يلعبون على الطريق أمام البيوت، راحوا يشاهدون بفضول الجنود المتخذين تلك الواجهة. في هذا المساء، وفي جوه اللطيف البديع هذا، لم يكن السلم والوداعة هما السائدان فحسب، بل كأن لحنا طلع من الأرض نحو السماء لقد سمع بولس هذا اللحن، وطفح قلبه بالسعادة.

شعر أنه أيضاً قد أضاف إلى هذا اللحن صوتاً كان غائباً عنه، وأن الأرض بدونها كانت مجرد " معدن يصلصل، وصنج يضج "

وخطر له كيف قام بتعليم الناس على المحبة، وكيف شرح لهم أنهم حتى لو وزعوا كل ثروتهم على الفقراء، وأنهم حتى لو عرفوا كل اللسنة، والعلوم، فهذه كلها لا تساوي شيئاً دون المحبة التي تعني التسامح، والبعد عن الجشع، والأفعال الرديئة. كما تعني قوة الاحتمال والامل.

وهكذا أمضى كل حياته بتعليم الناس هذه الحقيقة. والان قال في نفسه " أي قوة يمكن أن تقف في وجهها، ما الذي يمكن أن يقهرها؟ كيف يمكن للقيصر أن يضطهدها حتى لو امتلك ضعف ما لديه من الفيالق، والمدن، والبحار والبلدان، والاقوام "

وتابع طريقه بفخار لينال جزاءه.

وأخيراً انحرف الموكب عن طريقه، واتجه شرقاً على مسلك ضيق  
يقود إلى أكوا سلفيا. طلّت الشمس الاعشاب بالاحمر أوقف قائد المئة  
الجنود قرب النبع لأن اللحظة قد حانت.

أما بولس فقد هياً وشاح بلاوتيلا، ليعصب به عينيه، لكنه قبل ذلك  
التفت مرة أخرى أخيرة بكل طمأنينة وسلام نحو الانوار المسائيّة  
الابدية وراح يصلي.

أجل لقد حانت اللحظة، أما هو فقد رأى أمامه الطريق الواسعة  
الارجوانية التي تقود إلى السماء وردد في نفسه تلك الكلمات ذاتها  
التي كتبها من قبل حين شعر بإتمام مهمته، واقترب نهايته :

” كافحت كفاحاً نبيلاً، وأنهيت هرولتي، وأقمت المعتقد،  
فاستحقيت في النهاية تاج الحق ”

استمرت روما في عصفها. كان ذلك كأن المدينة التي أخضعت الكون بأسره، قد بدأت الان تذوب من الداخل على وقع فقدان القادة واحدا بعد آخر. فحتى قبل أن تدق ساعة الحواريين ظهر إلى العلن ما يسمى مؤامرة بيسو، فجاء على إثرها إعدام تعسفي شمل كبار الشخصيات في روما، إلى حد جعل حتى من كان يؤله نيرون، يرى فيه إلها للموت.

تلفعت المدينة بالحداد، والاسى، وطرق الجزع أبواب المنازل، والقلوب، لكن الاروقة ظلت غارقة بعرائش اللبلات ونبات الزينة والازهار، لأن الحداد على الموتى كان محظورا. وحين أفاق الناس في الصباح تساءلوا في أنفسهم: دور من هذا اليوم؟ ويوما وراء يوم تكاثرت الاشباح التي تلاحق القيصر.

دفع بيسو رأسه ثمنا لمؤامرتة. ولقي المصير ذاته كل من سينكا و لوكانوس و روفوس، بلاوتينوس و فلافيوس و أفركيانوس، وكل أصدقاء القيصر الذين شاركوه الفسق والعريضة: سينسيو، بروكولوس، توغورينوس، سيلانوس، بروكسيموس إضافة إلى سوبريوس الكلب الوفي ونصير القيصر روحا ودما.

كان من بينهم من قضت عليه سوء سمعته، وبينهم من قضى عليه الخوف، أو الجراءة، أو الثراء. وخشيّة من العدد الضخم للمتآمرين، أغرق الاسوار بالجنود، وأخضع المدينة لحصار تام.

فلم يمض يوم الا وكان قادة المئة يعيشون بأحكام الموت إلى المنازل المشبوهة. فكان المتهمون يتدللون في ردودهم للقيصر، يرجونه وقد أوصوا بنصف ثروتهم للقيصر، أن يبقى على نصفها الاخر لابنائهم. كأنما نيرون قد أحكم شد وتر القوس ليقبس مقدار خضوع الناس له، وليعرف كم سيحتملون وطأة هذا الحكم الدموي. وبعد الانتهاء من سحق المتآمرين، قضوا على أقاربهم، وأصدقائهم، وكل من مت اليهم بصلة.

وكانت تهمة البعض أمثال نيبوس و مارتياليس و دوميتوس أنهم لا يحبون القيصر، فاستحقوا الموت. أما نوفوس فقد استحقه لأنه كان صديق سنيكا، واستحقه الكثيرون لانحدارهم من أصول نبيلة. وحتى بوبيا كانت ضحية لثورة غضب آنية من القيصر.

تذلل مجلس الشيوخ، للمستبد الجائر، فأنشأ له المعابد، وأقام له الاحتفالات والندور إكراما لصوته، ونصبوا له التماثيل، وأحاطوه بالكهنة كأنه بات الها.

وكان السيناتورات مرتعدين حين يؤمون البلاتينوس لإبداء إعجابهم، وثناءاتهم على أغنية بريودنيس، ولكي يشاركوه عربدة النيذ، والاجساد العارية.

أما في الاسفل، في هذه الاثناء، فقد كانت الغراس التي زرعها بطرس تنمو سيقانها بهدوء، وجذورها ترسخ في التربة المغمسة بالدم والدموع.

من فينيكوس إلى بترونيوس :

" نعرف هنا يا عزيزي ما يحدث في روما، والذي لا نعرفه تخبرنا به رسائلك. إن القيت حجراً في الماء، تنتشر الدوائر وتتوسع. هكذا تصل إلينا موجات الاهتياج قادمة من البلاتينوس. كاريناس الذي أرسله القيصر إلى اليونان، مر من هنا ونهب المدن، والمعابد، ليملاً الخزينة الفارغة. وعلى حساب عرق الشعب ودموعه، يبنون في روما قصر نيرون الذهبي.

لعل العالم لم يشهد بناء مثله، لكنه أيضاً لم يعهد مثل هذه الجراح والوجاع. فأنت تعرف كاريناس. كان شيلون شبيهاً به قبل أن يستبدل الموت بحياته. البلدات الصغيرة المجاورة لنا لم يصلها رجاله، ولعل السبب في ذلك خلوها من المعابد والثروات. تسالني إن كنا في أمان. وجوابي على سؤالك أنهم قد نسونا. أكتب لك الآن وأنا في الرواق المطل على خليجنا الهادئ، أرى أرسوس في قارب يلقي لتوه بالشبكة في الماء الصافي.

زوجتي تنسج الصوف إلى جانبي. وأرقائي يغنون في الحديقة تحت ظلال المندلين. ياله من سلام، يا عزيزي، وما أروع أننا قد تجاوزنا مخاوفنا وأوجاعنا السابقة. ليس صحيحاً ما تقوله. ليست الأقدار هي التي تنسج حياتنا الهائلة، لكن المسيح، الهنا الحبيب، ومخلصنا هو الذي باركنا.



ليس الألم والدمع بغريبين عنا، لأن معتقدنا يأمرنا بأن نبكي الامه، ونذرف دموعاً فيها أيضاً بذور المواساة، وهذا مالا تعرفونه أنتم.

عندما تحين ساعة موتنا سوف نلتقي أحباءنا الموتى، وكل أولئك الذين يموتون من أجل وصايا الله. أرواحنا تراهما، وما دامت أعيننا تذرف الدمع، فقلوبنا فرحة بسعادتهما. أجل يا عزيزي نحن سعداء وسعادتنا يعجز أحد عن إخمادها، لأن الموت الذي يعني نهاية كل شيء في نظركم هو بالنسبة لنا، عبور إلى السلام الاكمل، إلى المحبة الانقى، إلى السعادة الاعظم.

هكذا تمضي أيامنا وأشهرنا، وقلوبنا مغمورة بالصفاء. خدمنا، وأرقاؤنا أيضاً يؤمنون مثلنا بالمسيح، وبما أنه يوصينا بالمحبة فنحن جميعاً نحب بعضنا. عند غروب الشمس، أو حين يبسم القمر في السماء، ويأتلق فوق الماء، غالباً ما أحادث ليفيا، وتحادثني عن الازمنة الفائتة التي أضحت بالنسبة اليها كالحلم. وحينما أتصور أن ليفيا الغالية، التي أهدها في أحضاني كل يوم، بعد أن كابدت العذاب، وشارفت على الموت، أتعبد إلى ربي الذي خلصها من تلك الايادي، وأهدانيها إلى الابد.

وتدري يا بترونيوس كم من العزاء والراحة يمنح هذا الدين إذا ما ساء قدر المرء. كم من الصبر، والشجاعة في مواجهة الموت.

تعال، وانظر بأم عينك كم يمنح من السعادة في الاوقات البليدة الفاترة.

وكما ترى، أن البشر لم يعرفوا حتى الان الها أحب وه، لذا فهم لم يحبوا بعضهم، وهذا هو منبع عدم سعادتهم، لأنه كما النور يأتي

من الشمس، كذلك السعادة، تنبع من المحبة. هذه الحقيقة لم يعل مهم إياها لا القانونيون، ولا الفلاسفة، ولم يكن ذلك لا في اليونان، ولا في روما، وحين أقول "ولا في روما" أقصد "ولا في العالم"

إن تعاليم الرواقين الباردة، والجافة التي يميل إليها ذوو الاخلاق الفاضلة، تقسي القلوب، كما يقسى الفولاذ، وتجعلهم خاملين بدلا من أن تصلحهم. ولكن لم أحدثك بمثل هذا، فأنت أدري مني، وأكثر معرفة.

لقد عرفت بولس الترسوسي وكثيرا ما تحدث معه مطولا، فاستنتجت أن كل ما جاء به فلاسفتكم وخطباؤكم من علوم، ما هي الا فقاعات جوفاء، ذات وقع متغطرس، مقابل الحقيقة التي أفصح عنها.

فهل تذكر السؤال الذي طرحته عليك "لو كان القيصر مسيحيا، أما كنتم بأمان أكبر، أما كنتم أكثر ثقة بما تملكون، أما كنتم متحررين من الخوف، وأكثر شعورا بالطمأنينة على مستقبلكم؟". أنت قلت أن معتقدنا معاد للحياة، وأنا سأرد على قولك بأني حتى لو ملأت رسالتي هذه من أولها إلى آخرها، بكلمتين مكررتين : أنا سعيد، لما كان كافيا للتعبير عن سعادتي.

فيما بعد ستقول لي إن سعادتي هي ليفيا ! أجل يا عزيزي. لأنني أحب فيها روحها الخالدة، ولأننا نحب بعضا من خلال المسيح، فلا انفصال في مثل هذا الحب، ولا نكران، ولا تبدل، ولا شيخوخة، ولا موت. فحين تولي فترة الشباب، والجمال، وتشبخ أجسادنا، ويأتي دور الموت، لا يبقى الا المحبة، لأن الروح باقية.

قبل أن تفتح عيناى على النور، كنت على استعداد لأحرق حتى منزلى من أجل ليفيا، والآن وأقول الآن أنني لم أكن أنذاك أحبها، فلم أتعلم الحب الا على يد المسيح. إنه رأس نبع السعادة والسلام. لست أنا من يقول ذلك، بل الواقع والحقيقة.

قارن ما تتلذذون به من متع مشوبة بالخوف، وما يملككم من قلق وشكوك بالاتي، وما تقيمونه من طقوس عريضة تفوح فيها رائحة المآدب الجنائزية، قارنها بحياة المسيحيين، ستجد الجواب. لكن لكي تكون المقارنة ملموسة ندعوك أن تأتي إلى هنا، إلى جبالنا العطرة، إلى أفياء غاباتنا من الزيتون، إلى شواطئنا وعرائش اللبلاب المحاذية لها. في انتظارك هنا قلوب دافئة محبة لك فعلا، في انتظار السلام الذي لم تذقه منذ زمن. ولأنك شخص نبيل وطيب، ستسعد بين ظهرانينا. يمكن أن يوجد من هو عدو للحقيقة مثل القيصر، وتيفالنيوس، لكن أحدا لن يتخذ منها موقف الحياد. آه يا بترونيوس، كم نستبشر أنا وليفيا بالأمل بأننا سوف نلقاتك قريبا. أتمنى لك الصحة والسعادة، وتعال !"

استلم بترونيوس الرسالة في كوما، لأنه كان قد لحق بالقيصر مع باقي الاوغستيان. لقد انتهى صراعه الطويل مع تيفالنيوس. صار يدرك الآن أنه الخاسر في هذا الصراع، وهو يعرف السبب. وبقدر ما كان القيصر يغرق يوما بعد يوم، في لعب دور الكوميدي، وقائد العربة، والمهرج، كان يتفاقم انحطاطه، وانعماسه في الانحلال المرضي الثقيل الذي لا يحتمله ملك الذوق الرفيع. إذا ما صمت بترونيوس، وجد القيصر التقرير والتوبيخ في صمته، وإذا ما أثنى عليه، شعر القيصر الهزء في كلماته. لقد خدش بترونيوس عبادة الذات لدى نيرون، فتولدت فيه الخصومة. وبرز إلى السطح الآن ما يمتاز به بترونيوس من ثراء وخصوبة في أعماله الابداعية، فتولد الجشع لدى القيصر وكافة وزرائه من ذوي

النفوذ. لكنهم الان يسايرونه في رحلة أكايا لأنه في أمس الحاجة اليه هناك بسبب معرفته الممتازة في الشؤون اليونانية.

الا أن تيفالنيوس جد في سعيه لإقناع القيصر بأن كاريناس ييز بترونيوس معرفة وذائقة، وقدرة على تنظيم الالعاب والضيافات، ومواكب النصر، في أكايا.

لقد سقط بترونيوس، وهو الان بحكم الميت. لكنهم لم يجروؤوا أن يبلغوه في روما، حكم الاعدام الصادر بحقه. ما زال كل من القيصر و تيفالنيوس يتذكر أن هذا الفنان القائل ظاهريا بالمساواة الاجتماعية والسياسية، والذي كان يقضي الليل جريا وراء المتع، والفنون، والمآدب، حتى حين كان يشغل منصب نائب قنصلي، ثم منصب قنصل في روما، ويتمتع بطاقة كبيرة، قد أعطى دليلا ملموسا على أنه صالح لكل الاعمال التي يسند اليها، فنال ثقة شعب روما، وامتدت شعبيته حتى بين الحرس الامبراطوري. الأمر الذي جعل أتباع القيصر يحارون فيما عليهم أن يفعلوه إزاء هذه الحقيقة، فوجدوا أن من الادهي أن يبعده عن المدينة، ويقبضوا عليه في الارياف.

من أجل هذا كله، تلقى دعوة للانضمام إلى باقي الاوغستيان الراحلين إلى روما. لقد خامره الظن بأن خداعا ينتظره، فلبى الدعوة للمشاركة رغم كل شيء، وقد يكون السبب في ذلك عدم الاجهار في معارضته، والاستمرار في إظهار هدوئه، وبشاشة وجهه للقيصر، والاوغستيان، في نية منه لتسجيل واحدة على تيفالنيوس والنيل منه مرة أخرى قبل موته. في أثناء ذلك كان تيفالنيوس قد اتهمه بأنه صديق حميم للسيناتور سكافينوس وأنه وراء مؤامرة بيسو وقائدها الروحي.

قبضوا على رجال بترونيوس في روما، وظل الحرس الامبراطوري

يحاصر منزله. وحين علم بالأمر، لم يبد أي خوف أو ارتباك، وقال للأوغستيان الذي قصدوه في زيارة إلى فيلاه الفخمة في كوما

- صاحب اللحية الحمراء، لا يحب الاسئلة الموجهة اليه، وسترون أي اضطراب سيتملكه حين أسأله إذا ما كان اعتقال من يعمل في منزلي، قد جاء بناء على أوامر صدرت منه.

ثم أعلن أنه سيقوم مآدبة قبل "متابعة الرحلة". وكان يهم بالتحضيرات لها حين وصلته رسالة فينيكوس.

حين استلم الرسالة فك ر بالأمر قليلا. لكنه سرعان ما استعاد بشاشة وجهه، وصفاهه المألوف، وخط في ذلك المساء رسالة الرد :

"يسرني أنكما سعيدان، وأقدر عاليا عزيمة قلبيكما، يا عزيزي، فما كنت أظن أن بمقدور عاشقين أن يفكرا بشخص ثالث بعيد. أنتما لا تفكران بي فحسب، بل ترغبان في أن أشاطركما خبزكما، ومسيحكما الذي كما تكتب يجزل السخاء ويغمركما بالسعادة.

إن كان الأمر كذلك، فاعبداه. أظن يا عزيزي، أن ليفيا قد أسهم أرسوس قليلا، كما ساعدك الشعب الروماني أيضاً في استعادتها.

لكن إن كنت تؤمن بأن المسيح قد فعل ذلك، فلن أناقشك في الأمر. حسنا لا تأسفا على ما قدمه من تضحيات. بروفيثيوس أيضاً ضحى بنفسه من أجل الشعب. لكن الفارق كبير.

بروميثيوس من إبداع الشعراء على الأرجح، أما المسيح فقد سمعت من أشخاص صادقين أنهم قد رأوه بأم أعينهم. وأنا أصدقكما القول بأنه أشرف الالهة.

أذكر تساؤل بولس الترسوسي، وأتفق معه بأنه لو كان صاحب اللحية الحمراء يعيش وفق تعاليم المسيح، لكانت فرصتي سانحة لأسافر اليكما إلى سيسيليا. ولكننا تحت ظلال الأشجار، تحدثنا مطولا عن مجمل الالهة، وكل الحقائق كما فعل الفلاسفة اليونان. لكني الان سأجيبك باختصار.

لا أريد أن أعرف الا فيلسوفين أثنين. أولهما بيرهون، والآخر أناكريون. وما تبقى من الفلاسفة سأبيعهم لك بأرخص الاثمان، ومعهم كل المدارس اليونانية، ومنها مدرستنا الرواقية كذلك.

إنما الحقيقة تقطن في مكان يشق على الالهة أن يروها من على قمة الاولمب. ولعلك تعتقد أن جبلكم أنتم أكثر شموخا وارتفاعا، وإنك تتربع على تلك القمة وتناديني من هناك " تعال، وسوف ترى آفاقا لم ترها من قبل ". قد يكون ذلك، لكن جوابي " يا صديقي لم يعد لي رجالان ! "

وعندها تنهي قراءة رسالتي ستصدق ما أقول.

لا، يا زوج " أميرة الفجر " السعيد ! دينكم أنتم ليس لي. فإن أحب عبيدي البثيين، الذين يحملون هودجي، أو المصريين الذين يعتنون بحمامي الساخن، أقسم بركبة كاريس البيضاء أنني لا أستطيع حتى لو أردت ذلك. في روما ما لا يقل عن مئة ألف من البشر، إما محنيو عظام الكتفين، أو ضخام الركبتين، أو ضامرو بطتي الساقين، أو مكورو العينين، أو ضخام الرأس. وأنت تريد أن أحبهم.

من أين آتي بالمحبة إذا ما كنت لا أستشعرها في قلبي؟

أما إذا ما كان الهكم يرغب في أن أحب هؤلاء، كان أولى به، كقادر على كل شيء، أن يريني أشكالا مثل النيوبيد الذين رأيتهم في البلاتينوس. من يحب الجميل، ليس بمقدوره أن يحب القبيح.

مسألة الايمان بالهتنا شيء آخر، الا أننا يمكن أن نحبههم، كما أحبهم فيدياس، و براكسيتليس، و ميرون، و سكوباس، و ليسيبوس.

وحتى لو أردت أن أذهب إلى حيث تقودني، فلن أستطيع وبما أنني لا أرغب في ذلك فعدم استطاعتي مضاعف. أنت كبولس الترسوسي تؤمن أنك ذات يوم سوف تلتقي المسيحيين في مرابع فردوسية على الضفة الاخرى لنهر الجحيم. حسنا! فليقل لي إذن كيف له أن يستقبلني هناك برفقة يونيكي الشقراء، مع كل ما أملك من جواهر، وأقداح. تضحكني بمجرد فكرة أنه ينبغي علي، من أجل المسيح، أن أتخلى عن أكاليل الورد، والمآدب، واللذائذ. صحيح أنه سيعوضني عن كل ذلك بسعادة من نوع آخر، لكن ردي هو أي بت عجوزا على مثل ذلك، لكن عيني ما زالتا تستمتعان بالوردة، وإن عطر البنفسج أحب لدي من رائحة الاخوة القدرين الكريهة.

هذه هي الأسباب التي تجعل من سعادتك نوعا لا يناسبني. أمر آخر أرجأته إلى النهاية. بالنسبة لي ها هو ذا ثاناتوس على الابواب، يدعوني اليه. لكن فجر الحياة ييزغ لكما الان. شمسي قد هبطت، ورأسي تأخذني نحو الغروب. بتعبير آخر: علي أن أموت يا عزيزي.

من الضير أن نتحدث كثيرا في هذا الأمر. إنها النهاية كما ينبغي أن تكون.

أنت تعرف صاحب اللحية الحمراء، فسهل عليك أن تفهم الأمر. تيفالنيوس هو الذي غلبني أم لا! ليس مهما. لكن انتصاراتي بلغت نهايتها. لقد عشت كما رغبت في العيش، وسأموت كما يحلو لي أن أموت.

لا تحملا قلبيكما وطأة ذلك كثيرا. لم يعدني أي اله بالخلود. فليس

هنالك ما يفاجئ إذن. أنت مخطئ في هذا يا فينيكوس، فليس الهكم وحده يوصي بالموت بسلام. لا. عالمنا منذ القدم عرف مثلنا : بعد تناول القدر الأخير، يحين وقت الانصراف، والراحة، ويمكن القيام بهذا بصفاء خالص : يقول بلاتو أن الفضيلة موسيقا، وحياة الحكيم هارمونيا. فما دام الأمر كذلك فسوف أموت فاضلا كما عشت فاضلا.

أما بعد.

فإني أود لو أودع زوجتك بذات الكلمات التي حييتها بها ذات يوم في منزل الوش :

"لأني لم أر بعمرى، مثل هذه الفانيّة"

ولأن الروح، إذن، شيء غير ما يعتبرها بيرهون، فإن روجي سائرة على طريق يقود إلى عرض المحيط، لتحط أمام منزلكما فراشة، أو على هيئة صقر كما يقول المصريون.

ليس لي أن أذهب اليكما بطريقة أخرى.

وحتى ذلك الحين، لتكن سيسيليا لكما بستانا تحرسه حوريات التفاح الذهبي. ولتنثر صغيرات الهات الحقول، والغابات والينابيع، الزهور في دروبكما، ولتعشعش الحمام البيضاء في عريشة كل عمود في منزلكما.



وفي حقيقة الأمر، لم يكن بترونيوس مخطئاً. بعد يومين أرسل نيرفا معتوقه إلى كوما حاملاً إليه أنباء ما يجري في بلاط القيصر.

صار إعدام بترونيوس مسألة محسومة. أرادوا في اليوم التالي إرسال قائد المئة لإبلاغه أن يبقى في كوما، وانتظار الاجراءات التالية. وكان يمكن لهم إطلاق المراسل التالي بعد بضعة أيام مزوداً بحكم الموت.

أصغى بترونيوس بكل صفاء نفس، لأنباء معتوق نيرفا ثم قال له :

- خذ لسيدك إحدى مزهريّاتي، وسوف يعطيك إياها قبل انصرافك.  
وقل له أيضاً أنني أشكره من أعماقي لأنه أتاح لي استباق الحكم.

ثم ما لبث أن انفجر بالضحك، كمن لمعت في ذهنه فكرة جهنميّة، وكان سعيداً قبل تنفيذها.

وفي مساء ذلك اليوم كان أرقاؤه يدورون لدعوة كل الاوغستيان المقيمين في كوما رجالاً ونساء على حد سواء، لحضور مأدبة ملك الذوق في فيلاه الفخمة.

بعد الظهر كان يكتب في المكتبة. وبعدها استحجم، ثم ارتدى أحلى أرديته، وبكامل أناقته سار كاله، متوجّها إلى التريسليوم ليلقي نظرة خبيرة على ترتيبات المأدبة هناك.

ثم خرج إلى الحديقة حيث كان الشبان والفتيات القادمات من الجزر اليونانية ينسجون أكاليل الورد الخاصة بالمأدبة.

لم ينعكس على وجهه أثر لخطب. وكل ما كان يعرفه الخدم أن المأدبة ستكون واقعة استثنائية لا مثيل لها، لأنه كان قد أوصى بمكافأة جزيلة لمن يرضيه عملهم، وبعض الجلدات الخفيفة للذين لا يرضى عنهم ذوقه. كما أوصى بإكرام العازفين، والمغنين مقدما، وبسخاء زائد. ثم جلس أخيرا تحت شجرة زان، تتخلل فروعها أشعة الشمس، لترسم فوق الأرض بقعا ضوئية، ثم استدعى يونيكي.

أقبلت الفتاة بثياب بيضاء، وقد شكل شعرها فرع من الريحان. كانت بديعة مثل كاريس، فأجلسها إلى جانبه، وراح يداعب صدغها بحنان، ويرمقها بنظرات سعيدة كما يرمق الفنان الملهم تمثالا الهيا. سألتها :

- أتدرين يا يونيكي أنك منذ مدة لم تعودى عبدة؟

رفعت الفتاة عينيها الزرقاوين، وهزت رأسها بالسلب.

وأجابت :

- أنا دائما كذلك يا سيدي.

فتابع بترونيوس يقول :

- لكنك قد لا تعلمين بأن هذه الفيلا، وأولئك الأرقاء الذين ينسجون الاكاليل، وكل ما يتبع ذلك من أرض، وقطعان، هي لك من الان فصاعدا.

انكمشت يونيكي لسماعها ما يقول، وابتعدت عنه قليلا، لتسأله  
باضطراب باد في نبرة صوتها

- لم تقول لي هذا يا سيدي؟

ثم اقتربت منه ثانية، ورمقته بعينين مرتعدتين، وشحوب دهم  
وجهها.

فما كان من الرجل الا أن ابتسم ونطق بكلمة واحدة :

- أجل !

ساد صمت لحظي تخلله اهتزاز أوراق شجرة الزان بفعل النسيم  
العليل.

لقد أشعرها بترونيوس بأن من تقف أمامه تمثال رخامي، فقال :

- يونيكي ! أريد أن أموت نقيا

فرمقته الفتاة بابتسامة تصدّع القلب، وأجابت هامسة :

- أسمعك يا سيدي !

مع حلول المساء بدأ المدعوون الذين غالباً ما حلّوا ضيوفاً على  
مآدب بترونيوس، وكانوا يعرفون أنه حتى مآدب القيصر مضجرة،  
وبربرية إذا ما قورنت بها، يتوافدون بالجملة، دون أن يخطر لأحد  
منهم أنها ستكون حفلة الشراب الاخيرة. وكان كثر منهم يعلمون أن  
سحب البغيضة تحوم فوق رأس ملك الذوق النبيل، لكنهم يدركون  
أنه أمر كثير الحدوث، وبمقدور بترونيوس بلفتة فطنة، أو بعبارة جريئة

منه أن يفلح في تبديدها، فلا تشكل خطرا جديا عليه. ولقد عزز وجه بترونيوس البشوش، وابتسامته اللطيفة المعهودة، هذه النظرة عند الجميع. وفيما يخص يونيكي الرائعة، كان كل ما يتلفظ به بترونيوس أمرا من الأوامر في اعتبارها، فحين قال لها إنه يرغب في الموت، نقيا، غلب الهدوء على تقاسيم الفتاة الفاتنة، واثقلت عيناها بنور شعشعاع فريد، يمكن اعتباره وهجا للسعادة.

التريسلينوم عند مدخل التريستينوم راح الفتیان أصحاب الشباك الذهبية على شعورهم، يضعون أكاليل الورده فوق رؤوس القادمين الضيوف، لافتين عنايتهم، حسب العادة، إلى تخطي العتبة بالقدم اليمنى. كان عبير البنفسج يذوق في القاعة، والذهب يتقد في البللوريات الاسكندراية الملونة. والفتيات واقفات قرب مقاعد الجلوس، يرطبن أقدام الضيوف بالعطور. وعند الجدار كان عازفو القيثارة، والمغنون في انتظار إشارة من قائد الفرقة الموسيقية.

كان حفلا مترفا، لكنه ترف لم يلق بظلاله الثقيلة، ولم يخدش كبرياء أحد، بل اتخذ مساره العادي البسيط كزهرة ستفتح على هذا النحو. وكما فاح عطر البنفسج في القاعة، كذلك عم المرح والتسلية، فشر الضيوف هنا أن لا إرغام، ولا تهديد بالخطر ينوسان فوق الرؤوس، كما في مادب القيصر حيث يمكن للمرء أن يخسر حياته لقاء إطراء غير موفق صدر منه تجاه أغنية أو قصيدة. خفقت قلوب المدعوين مبعوثة لمراى أنواع الاطعمة والنبذ المعتق في الأباريق والاقداح. جرت الاحاديث مرحة كطين سرب من النحل حول شجرة تفاح مزهرة.

وسمعت بين وهلة وأخرى قهقهات أو عبارات مديح صاخبة، أو قبلة رنت عاليا فوق كتف أبيض.

وقبل أن يبدأ الضيوف باحتساء الشراب، أراقوا بعضاً من قطرات النبيذ إكباراً للالهة الخالدة، حتى يحوزوا على رعايتها وحسن نواياها تجاه صاحب المنزل، وإن كان الكثيرون هنا لا يؤمنون بالالهة، لكن العادة، والخرافة استدعتا هذا التقليد. استقر بترونيوس إلى جانب يونيكي.

وراح يتحدث عن المستجدات في روما، وأحدث حالات الطلاق، والحب، ومغامرات العشق والمباريات وعن سبيكولوس الذي ذاع صيته باكراً في الميدان، ثم تحدث عن أحدث الكتب الصادرة عند أتراكوس، و سوسيوس. وعند إراقته النبيذ أعلن أنه يفعل ذلك إكباراً لالهة سيريس الفاتنة، لا لأحد سواها، لأنها الأكبر سناً، والاعظم بين الالهة، وهي الالهة الوحيدة المهيمنة، والخالدة إلى أبد الأبد.

كان حديثه كشعاع يلقي بضوئه دائماً على مادة مختلفة، أو كنسيم صيفي يداعب أزهار الحديقة.

وفي نهاية المطاف أشار إلى قائد الفرقة، فعزفت القيثارات الحانها الخافته، ترافقها أصوات المغنين الشابة. ثم جاءت راقصات جزيرة كوس بلد يونيكي، بأوشحة تشف عن أجساد وردية.

ثم حان أخيراً دور عراف مصري ليقرأ مستقبل الضيوف من خلال حركة الاسماك القزحية الالوان داخل وعاء بلوري. وحين أنهوا هذا الجانب من التسلية، نهض قليلاً بنفسه عن وصادته السورية، وقال :

- أصدقائي ! استمبحكم عذراً، وأنا أتقدم اليكم بطلب :

- هلا يتقبل مني كل واحد فيكم القدح الذي أراق منه النبيذ أول مرة تمجيذاً للالهة، ومن أجل حسن فالي.

تلايات أقداح بترونيوس بما يتخلل قوامها من ذهب وأحجار  
ثمينة، وغمرت السعادة قلوب المدعوين. بعضهم كان ممتنا، وأثنى  
عليه بصوت عال، فيما زعم آخرون أن جو يتر نفسه لم يكرم الهة  
الاولمب. يمثل هذه الهدايا، في حين راح البعض الاخر يثرثر مترددا في  
قبول الهدايا التي خرجت عن حدود المألوف.

أما هو فقد رفع عاليا القدح المري الثمين الذي يتلالا بكل لون من  
الوان قوس القزح وقال :

- من هذه القدح أهرق النبيذ فداء، وتبجيلا لالهة سيريس. ومن  
الان فصاعدا لن تلامسها شفاه أحد، ولن يهرق منها النبيذ إجلالا  
لالهة أخرى.

ورمى بالقدح على البلاط المغمور بأزهار الزعفران، فتناثرت  
شظايا صغيرة. وحين لمح وجوه الحضور الذاهلة قال :

- متعوا أنفسكم، يا أعزائي، ولا تندهشوا. الشيخوخة والوهن  
شريكان حزينان لآخر سنوات العمر. لكني سأقدم اليكم بالمثل  
الصالح، والنصيحة الطيبة :

- لا تنظروا مجيء تلك السنوات، فقبل أن تأتيكم، لكم أن ترحلوا  
كما أرحل أنا.

فجاءت أصوات قلقة متسائلة :

- ما الذي تنوي فعله؟

- المتعة والمرح، واحتساء النبيذ، وسماع الموسيقى، والافتتان بهذه  
الاجساد الالهية التي المحها قربي، ثم الذهاب إلى النوم.

سأودع القيصر إلى غير رجعة. هل ترغبون سماع ما كتبته له مودعا؟

وأخرج الرسالة من تحت وسادته الأرجوانية وقرأ ما يلي :

" أعلم أيها القيصر، أنك تنتظر قدومي بفارغ الصبر، وأن قلبك الصدوق الوفي في شوق ليل نهار لرؤيتي. أعلم أنك تود لو تغرقني بعطاياك، وتسند الي منصب قائد الحرس الامبراطوري بينما تعين تيفالنيوس، كما خلقتة الالهة أهلا لذلك، بغالا في أملاكك التي ورثتها عن دوميتيا، بعد أن سممتها. أرجوك سامحني، لأني، قسما بـ هادس، وأمك، وزوجتك، وأخيك، وطيف سينكا، لا أستطيع الذهاب. الحياة ثروة عظيمة، يا عزيزي، وأنا قد أدركت أن علي أن استخلص منها أثمن أحجارها الكريمة.

لكن ثمة في الحياة أموراً لم أعد أحتملها بسببك. فلا تظن أبداً، فليس ما أزعجني هو قتل أمك وزوجتك، وأخوتك، وإحراقك روما، ولا نفيك لكل رجل شريف في الحكومة. لا. يا ابن حفيد كرونوس. الموت قسمة تصيب كل البشر، فلا يمكن انتظار شيء آخر منك. لكن أن تظل أغانيك تهشم أذني، وأن أرى ساقيك الهزيلتين الدوميتيوسيين تتلويان في رقصاتك البيروسيّة، وأن أصغي إلى حواراتك المسرحيّة، وأسمع خطبك واشعارك، أيها الشاعر الرعوي البائس، فهذا هو ما يفوق طاقة احتمالي، وهذا هو ما يدفعني إلى الانتحار. روما تسد آذانها حين تسمعك، والعالم يهزأ منك، أما أنا فلا أريد، ولا أستطيع أن استمر في الاحمرار خجلاً. إن نباح كلب السيربيروس ذي ثلاثة الرؤوس وهو نباح يشبه أغانيك يا عزيزي سيكون اليما إلى أدنى حد، لأني لم أكن في يوم صديقاله، كما أني لست مرغماً على الخجل إذا ما سمعت صوته. أحرص على صحتك، لكن لا تغن، اقتل، لكن لا تنظم

الشعر، امزج السم، لكن لا ترقص، احرق، لكن لا تمسك بالقيثار، هذا ما يتمناه لك، وهذه هي نصيحة الصداقة الاخيرة التي يسديها لك ملك الذوق "

تحمد الضيوف، وقد كانوا يدركون أن صفعه كهذه اشد وطأة على نيرون من فقدانه ملكة بالكامل. وأدركوا أيضاً أن من كتب هذه الرسالة ينبغي أن يلقي حتفه لا محالة، وانقصمت ظهورهم وهم يسمعونها.

أما بترونيوس فراح يقهقهته مرحاً وبكل صدق، وكان ما قرأه كان نكتة من أطراف النكات. ثم جال بعينه على الحضور وقال :

- امرحوا، ودعوكم من الخوف، ولا ينبغي على أحد أن يتبجح لأنه سمع الرسالة، أما أنا فيمكنني أن أزهو بها أمام كارون عند العبور.

وأوما للطبيب اليوناني، ماذا ذراعه نحوه. وبحركة واحدة منه لف اليوناني الخبير الذراع بشريط ذهبي، وقطع الوريد. تناثر الدم على الوسادة، وعلى يونيكي التي انحنت فوق بترونيوس مسندة رأسه، وغمغمت قائلة :

- سيدي، هل ظننت أنني سأتخلى عنك؟ لو منحتني الالهة الخلود، والقيصر سلطانه على الأرض، فسأختار اللحاق بك.

ابتسم بترونيوس، ونهض قليلاً، وقال وهو يلامس بشفتيه شفتي الفتاة :

- تعالي !

وأردف :



- أنت أحببتني حقا، يا يونيكي الالهية! ...

أما هي فكانت قد مدت ذراعها الوردية نحو الطبيب، فتدفق دمها خلال لحظة، ممتزجا بدم بترونيوس.

أوما بترونيوس لقائد الفرقة، فصدحت الموسيقى والاغاني من جديد. غنوا أولا هارمادايوس ثم إحدى أغاني أناكريون التي يشكو فيها الشاعر، أنه ذات مرة وجد أمام بابه طفل افروديت الباكي المتجمد، فأخذه بين أحضانه، وأدفأه، وجفف جناحيه الصغيرين، فأبدى ذلك الناكر للجميل امتنانه بأن طعنه بسهمه طعنة اخترقت قلبه، ومنذ ذلك الحين لا يعرف الطمانينة...

أما بترونيوس و يونيكي فكانا يسمعان الاغنية باسمين متلاصقين كالهين جميلين، وقد بدأ وجهاهما يشحبان. وبانتهاء الاغنية أمر بترونيوس بتقديم النبيذ والطعام مجدداً. ثم انبرى يحدث من جلسوا إلى جانبه بأمور بسيطة محببة، مألوفة على العموم في المآدب.

وفي النهاية دعا اليه الطبيب، وطلب منه أن يربط وريده للحظة، بعد أن شعر بالنعاس، لأنه يحب أن يسلم نفسه لهيينوس قبل أن ينوم ثاناتوس إلى الابد.

ونام. وحين أفاق كانت رأس الفتاة قد هدأت كزهرة بيضاء على صدره. وضعها على الوسادة ليتم عن فيها جيدا، ثم فتحوا وريده من جديد.

## خاتمة

لم يبدُ تمرد الفيالق الغالية تحت قيادة فينيكوس ينطوي على شيء من الخطورة في البداية. فالقيصر لم يتم بعد الحادية والثلاثين من العمر، فلم يجروا أحد أن يغالي في أمانه بأن العالم يمكن أن يتحرر بهذه السرعة من إرهابه الخانق هذا. رجعوا بالذكرى إلى حصول معارضات ضمن دائرة الفيالق حتى في عهد الأباطرة السابقين، لكنها معارضات آلت إلى الزوال من دون أن تفضي إلى تبدل شخص الحاكم. وهكذا على سبيل المثال نجح دروسوس في عهد تيريوس في قمع تمرد فيالق بانونيا، وجرمانيكوس في قمع فيالق الراين. لكن من الذي يمكن أن يتسلم الحكم بعد نيرون، وقد قضى تماماً في عهده على جميع أقارب أوغستوس؟ "هذا ما قاله الناس. وجنح آخرون إلى التفكير، بعد أن رأوا كل تلك التماثيل العملاقة التي تصور نيرون على هيئة هيركوليس، بأن من المستحيل لقوة مهما عظمت أن تطيح بهكذا سلطان.

في حين هاج في بعضهم الحنين إلى القيصر المقيم الآن في أكايا، لأن هيليوس و بولسيثس اللذين أسندا اليهما إدارة شؤون روما وإيطاليا، كانا أكثر دموية منه في الحكم.

لم يكن أحد مطمئنا على حياته، أو ممتلكاته. فلم تعد القوانين تمنح الحماية. سحقت الفضيلة وديست الكرامة الانسانية، واستحالتنا إلى لا شيء، وتفككت الروابط العائليّة، وكفت القلوب الخانقة عن

شجاعتها في التمني. ووصلت من بلاد الإغريق أنباء عما حقق القيصر من انتصارات لا تضاهي، وعن الاف الأكايل التي حاز عليها، والاف الخصوم الذين قهرهم. وكأنما قد استحال العالم إلى عربة هزلية صاخبة ودموية، وضربت التفاهة والهشاشة جذورا متشعبة لتعلن هنا نهاية كل أثر فاضل، وورصين.

وجاء زمن الرقص والموسيقا، والفساد، والانحلال، والدم، لتتخذ الحياة مسارها على هذا النحو. لم يكثرث القيصر كثيرا بحالة التمرد السائدة في الفيالق، ولا بقائدها فينو كس، لا بل غالباً ما جهر بالقول بأنه مسرور بهذه الوقائع. حتى أنه ظل مقيماً في أكايا ولم يغادرها الا حين أعلن هيليويس أن الاستمرار في التزام الصمت قد يعرض الحكم لخطر الانهيار، فشد نيرون رحاله إلى نابوليس.

استمر هنالك، بالغناء والرقص، وطرقت أذنيه أنباء تتحدث عن المزيد من تدهور الاوضاع. ولم يجد معه نفعا كل تحذيرات تيفالنيوس له بأن هناك فروقا كبيرة بين المعارضات التي حصلت سابقا في غياب من يتزعمها، وبين التمردات الحالية بزعامة شاب ينتمي إلى عائلة الملوك الاكويتانيين العريقة، ويتمتع إضافة إلى ذلك، بخبرة القائد الحربي الذائع الصيت.

فكان رد نيرون: " هنا يسمعي اليونانيون، وهم وحدهم من يعرف كيف يصغي إلى الموسيقى، وهم وحدهم الجديرون بالحاني وأغاني". وصرح بأن أهم أولوياته الفن والشهرة. لكنه حين سمع أن فيندكس سمّاه المهرج العاطل، طار صوابه، ونهض قافزاً، وانطلق من فوره متوجّهاً إلى روما.

الجراح التي تلقاها من قبل بترونيوس، وشفى منها خلال إقامته في

بلاد اليونان، تفتت الآن من جديد، وأراد أن يقف على حقيقة أمرها في مجلس الشيوخ.

وفي طريق العودة شاهد ثمثالا برونزيا يصور مقاتلا من بلاد الغال يقذف به بطل روماني. فاعتبر ذلك دلالة طيبة. ومنذ تلك اللحظة، صار إذا ما أتى على ذكر الفيالق المتمردة، و فيندكس كان يفعل ذلك فقط ليسترسل في الضحك.

كان دخوله المدينة طاغيا على كل ما رآته الأعين قبل ذلك. استقل نفس العربة التي عبر بها أوغستوس ذات يوم بموكبه. واضطروهم الأمر أن يفككوا إحدى قناطر السيرك ليشقوا طريقا للموكب.

توافد لاستقباله، مجلس الشيوخ، والفرسان، وحشود لا حصر لأعدادها. اهتزت الجدران من وقع الهتافات: "تحية لك، يا أوغستوس، تحية لك يا هيركوليس، تحية لك أيها القيصر الالهي، الاولمبي، الخالد، الاوحد". وحملوا من ورائه الأكاليل التي حاز عليها، واسماء المدن التي حقق فيها انتصاراته، وأسماء الابطال الذين قهرهم. كان موكبا أطار صواب نيرون نفسه، وجعله يتساءل بحماس إن كان موكب أوغستوس يرقى إلى مستوى موكبه كقيصر الهي أولمبي لا نظير له. وهذا ما أشعره أنه بأمان ولا خوف عليه من أي تمرد حاصل أو قد يحصل. وكان من شأن حماسة الحشود، وهياجها الشديدين أن يعززا في نفسه مثل هذا الاحساس الابله. وحقيقة الأمر أنه كان موكبا من الفخامة بحيث يخجل القيصر، والمدينة، وحتى العالم بأسره.

لكن أحدا لم ير الهاوية تحت تلال الازهار والاكاليل. كانت العمدان، وجدران الكنائس في مساء ذلك اليوم مغطاة باللافتات التي تعلن أفعال القيصر القدرة، وتهدهه بالانتقام القريب، وتهزأ منه كفنان.

وترددت العبارة كقول مأثور : " ظل يغني حتى أيقظ الغالي الديكة " وسرعان ما انتشرت أنباء الذعر في المدينة. ولعدم معرفة الناس ما الذي تخبئه الايام التالية، فقد لزموا الحذر، ولم يملكوا شجاعة ليعبروا عما يجول في نفوسهم من رغبات، وتطلعات، حتى أنهم فقدوا القدرة على التفكير.

لكن القيصر كرّس حياته للمسرح والموسيقا. وشغلته الآلات الموسيقية المتعددة حديثا، والأرغن المائي الجديد الذي اختبروه الآن في البلاتينوس.

لقد توهم عقله الطفولي العاجز عن أي فعل أو قرار، أنه إذا ما قام مسبقا بالتحضير للعديد من الحفلات والعروض القابلة للتنفيذ في المستقبل البعيد، فإن ذلك سيتمكن تلقائيا من تفادي كل خطر.

حين رأى الواقفون إلى جانبه، أنه بدلا من أن يلجأ إلى استحضار الوسائل الضرورية، و إلى التأهب العسكري، يحصر تفكيره في البحث عن أشد الكلمات تأثيرا للتعبير عن الفظائع، بدؤوا يفقدون صوابهم. وعلى العكس من ذلك، فقد مال آخرون إلى الاعتقاد أنه بهذه الأقوال المستبقة يريد فقط أن يذهل نفسه ومحيطه، في وقت يلوك الخوف والقلق روحه من الداخل.

باتت تصرفاته متسرعة حقا، وعشوائية. لمعت في ذهنه الاف من الخطط كل يوم. خطر له مرة أن يستبق الخطر، فأمر بتجميع القيثارات والاعواد في العربات، وتسليح الفتيات العبدات كالمحاربات الامازونيات، كما أمر بسحب فيالق من الشرق. وفي مرة أخرى فكر أنه سيقضي على تمرد الفيالق الغالية بالغناء، لا بالحرب.

وابتهجت نفسه مسبقا للمشهد اللاحق وهو يحاول فيه بالغناء أن يردع العساكر عن مواقفهم الخريّة، ويجنح بهم إلى السلم. ها هم الجنود يلتفون حوله، وهو ينشد لهم أغنية النصر، ثم يبدأ بعدها عصر روما، وعصره الذهبيين. وفي مرة ثالثة تعطش للدم مجدداً، وأعلن أنه سيكتفي بحكم مصر. وأعاد إلى ذاكرته ما قاله العرافون بأنه سيحكم أورشليم.

واستكان لفكرة أنه سيكون مغنيا جوالا يكسب قوته اليومي من الغناء، وأن المدن والبلدات لن تبج له كقيصر، وكسيد للكون، بل كمغن لم يأت العالم بمثله من قبل.

وهكذا فقد راح يعربد، ويغني، ويعزف، وينتقي رغباته، ويبدل في غاياته، حتى حول حياته وحياة العالم إلى فوضى صاخبة، وفي نفس الوقت إلى حلم مريع من الفتازيا، حلم بلا معنى هو مزيج من الدم، والدموع، والتنهدات والاشعار التافهة والتعابير الطنانة. وخلال ذلك كانت الغيوم في الغرب تتكاثف يوماً بعد يوم، حتى طفح الكيل، وبلغ التهريج نهايته المحتومة.

حين وصلته الاخبار بأن غالباً وهيسبانيا قد انضما إلى حركات التمرد، ركه غضب وحشي، وأخذ يزبد، ويهتاج. حطم الكؤوس في المأدبة، وقلب الموائد، وأصدر أوامر لا يجرو هيلوس ولا حتى تيفالنيوس على تنفيذها. إعدام كل سكان روما الغالين، وإحراق المدينة من جديد، وإطلاق الوحوش من حظائرها في الميدان، ونقل العاصمة إلى الاسكندرية، وقد تخيل أنها جميعا أمور عظيمة، وناجعة، ومن السهل القيام بها. لكن عهد نفوذه كان قد انصرم، وصار شركاؤه في ارتكاب أفعال الترويع والشرور، ينظرون اليه مجنوناً فاقد العقل.

لكن موت فيندكس، والمعارضات الحاصلة في أوساط الفيالق، جعلت الميزان يبدو وكأنه يميل ثانية لصالحه. وفي الوقت الذي أطلق فيه من جديد مواعيد المآدب، والاحتفالات، والمواكب وأحكام الاتهام، جاء النبأ ذات مساء بأن الجنود رفعوا علم التمرد في معسكر الحرس الامبراطوري، وأعلنوا غالباً قيصرًا.

كان قيصر نائما حين وصل الفارس بالنبأ، وحين أفاق لم يجده نفعا استدعاؤه لحراسه المقيمين عادة عند بابه. صار القصر خاليا، الامن الأرقاء الذين عكفوا على سرقة كل ما تطاله أياديهم في أطرافه الابعد، لكنهم جفلوا لرؤيتهم القيصر الذي يتجول وحيدا، ويطل صرخات الجزع والحيرة.

وفي النهاية أسرع ثلاثة من معاتيقه هم فاون، و سبورس، و إيبافرو دتيوس لنجدته طلبوا اليه أن يهرب في الحال، فلا مجال لمضيعة لحظة واحدة من الوقت. لكنه ظل يخادع نفسه. خطب في مجلس الشيوخ وهو يرتدي ثياب الحداد والحزن، فهل يا ترى سيستطيع مجلس الشيوخ أن يقاوم دموعه وخطابه؟ وإذا ما وضع في الكفة كل مقدراته الخطابية، والتعبيرية، ومواهبه التمثيلية، فهل بمقدور أحد في العالم أن يرجحها؟ أفلا يمنحونه على الاقل حكم مصر؟

لم يجروا على مواجهته بالحقيقة، بل اكتفوا بتحذيره قائلين إن الشعب سوف يقطعه إربا إربا قبل بلوغ منصة الخطابة هناك. وتوجهوا إليه بالتهديد أنه إذا لم يمتط صهوة الحصان على الفور فسوف يتخلون عنه بدورهم.

اقترح فاون أن يواريه في الفيلا خاصته خارج بورتا نومنتانا. وخلال لحظات كانوا على ظهور الجياد، متخفين بالعباءات يُمّمون شطر طرف المدينة. كان الليل قد بدأ يحل.

لكن زحام الشوارع كان ينبئ بالاوقات الاستثنائية العصبية. كان الجنود يدخلون المدينة وحدانا أو فصائل قليلة العدد.

كانوا يقتربون من المعسكر حين أجفلت إحدى الجثث حصان القيصر، فقفز مذعورا. الأمر الذي جعل قبعة عباءة القيصر تنزاح عن راسه. فكان من الجندي الذي يعبر قربه أن عرف أنه القيصر، لكنه لشدة ارتباكه من هذا اللقاء المباغت قدم له التحية العسكرية. وحين كانوا يعبرون بالقرب من معسكر الحرس الامبراطوري، سمعوا الهتافات الهادرة التي " تعيش " غالباً. أدرك نيرون أخيراً أن ساعة موته قد حانت. استولى عليه الجزع وتبكيك الضمير. قال بأنه يرى أمامه ظلاماً على هيئة غمامة سوداء، تنبثق منها وجوه يتعرف فيها على أمه، وزوجته، وأخيه.

اصطكت أسنانه ذعراً، لكن روحه الكوميديّة رغم ذلك، كأنما لمست شيئاً من السحر في هول اللحظة. أن يكون أحد سيد العالم، ثم على حين غرة يفقد كل شيء. لقد اعتبرها نقطة القمة في التراجيديا. ودون أن يستنهي نفسه قام هو بلعب دور البطولة فيها. تملكته حمى الكلام، ورغب بالتواصل مع الحضور لتكون الاقتباسات والحوارات التي سينطق بها غراسا تنمو في ذاكرتهم للزمن القادم. أعلن أنه راغب في الموت، وطلب أن يأتيه بـ سيكولوس الذي كان أمهر المجالدين في القتل، ثم صاح بصوت عالٍ " أمي، وزوجتي، وأبي يدعونني إلى الموت " كان باب نومنتانا مفتوحاً. تابعوا تقدمهم على ظهور الجياد، ومرّوا بالقرب من الاستيانوم حيث كان الحواريّ بطرس يعلم ويعمّد. وعند الفجر كانوا في فيلا فاون.

وهناك لم يخفِ عنه معانيقه بأن الوقت قد حان كي يموت.



طلب اليهم أن يحفروا له قبراً، واستلقى على الأرض ليتمكنوا من تحديد المقاس الدقيق. لكنه حين رأى الحدود تملكه الذعر. شحب وجهه، وتقصد جبينه عرفاً كندى الفجر. ما ظل، وأعلن بصوت تمثيلي مرتجف، أن الوقت لم يحن بعد. وراح يثرثر ويهذي. إلى أن طلب أن يحرقوا جسده.

وأخذ يردّد : يا له من فنان عظيم سيفني هنا.

في هذه الاثناء وصل مراسل فاون ليخبرهم بأن مجلس الشيوخ أقر الحكم، بأن القاتل سيحاكم حسب العادة.

سال نيرون بشفتين قد دهمهما البياض :

- وما هي العادة؟

فأجاب إيبا فرودتيوس بفضافة :

- سيثبتون عنقك بالشوكة، ويجلدونك حتى الموت، ثم يلقون بجسدك في نهر التيريس

فقال وهو ينظر إلى السماء :

- لقد حان الوت إذن.

وكرّر قائلاً :

- يا له من فنان عظيم سيفني هنا !

وفي هذه اللحظة سمع وقع حوافر خيل جاء قائد مئة على رأس جنوده من أجل رأس صاحب اللحية الحمراء.

صاح المعاتيق :

- أسرع !

قرب نieron المديّة من عنقه، لكنه لجزعه الشديد، واهتزاز يده، بان أنه لا يجروء على غرز مديته عميقا، فنشأ جرح خارجي طفيف. عندئذ قام إيبا فروديتوس بالضغط على يده فاخرقت المديّة عنقه، فجمحت عيناه الواسعتان ذعرا.

وبدخوله، قال قائد المئة :

- جئت أطلب حياتك

فأجاب نieron محشرجا :

- لقد فات الوقت.

وأضاف :

- إنه الإخلاص !

وخلال لحظات أخذه الموت إلى ملكوته. وكان الدم ينفر من شعاع قائم من عنقه الضخم على أزهار الحديقة : ضربت قدماه الأرض، ثم مات. وفي اليوم التالي قامت أكتي الوفيّة بتكفين جثمانه بقماش فاخر، وأحرقته بشعلة مغمسة بالعطور.

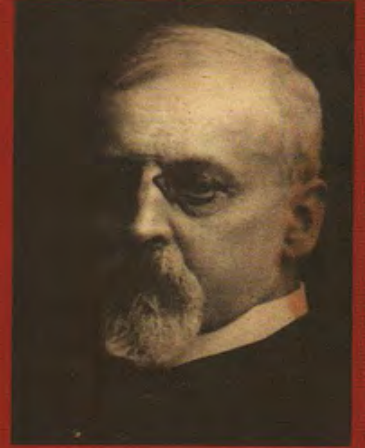
هكذا مضى نبيرون كما تمضي الزوبعة، والعاصفة، واللهب الناري،  
والحرب، والطاعون.

لكن مصلى بطرس المقام على تلال فاتيكانوس، هو الذي من  
هناك، يحكم حتى اليوم المدينة والعالم.

وفي القرب من بورتا كابينا القديم ما زالت تقوم إلى اليوم كنيسة  
صغيرة كتب على واجهتها كوفاديس دومينه.

مكتبة بغداد

twitter@baghdad\_library



رواية كو فاديس إلى أين ، للكاتب البولوني  
هنريك سنكوفيتش .  
قصة حب تدور أحداثها في زمن نيرون روما .  
نتعرف من خلالها على الاوضاع السياسيّة  
والاجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة في ذلك العهد ،  
ونقف فيها على الاسباب الحقيقيّة لإحراق  
روما ، وعلى شخصيّة نيرون وحاشيته  
الامبراطوريّة من أمثال بترونيوس بطل الرواية  
، وسينيكاً وغيرهما من الادباء والمفكرين . ثم  
وهذا أهم ما في الرواية كيف تأسس التبشير  
للدين المسيحي من خلال أهم حواريين من  
تلامذة المسيح بولص ، بطرس .

ISBN 978-2843090035



9 782843 090035

مكتبة نوبل ١٩٠٥

twitter @baghdad\_library